

كتابي

الطبعة الثانية

عن مبارك وعصره ومصره



إبراهيم عيسى

مكتبة مدبولي

الكتاب : كتابي/ عن مبارك
وعصره ومصره

تأليف : إبراهيم عيسى

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٨

الطبعة الثانية: أبريل ٢٠٠٨

الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة

ت : ٢٥٧٥٦٤٢١

ف : ٢٥٧٥٢٨٥٤

Website : www.madboulybooks.com

E_mail : info@madboulybooks.com

رقم الايداع : ٢٠٠٧ / ٢٤٣٩٣

الترقيم الدولي : X - 712 - 208 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الاراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن رأى الناشر

کتابی

عن مبارک و عصره و مصره

إبراهیم عیسی

مکتبه مدبولی

۲۰۰۸

إهداء

ذهبت أزور أمى فى العناية المركزة بالقصر
العينى . وجدتها نائمة (كانت ولا تزال عندى
أجمل امرأة فى الوجود) خفت أن أوقظها وقد
أعيها القلق والأرق ووهن الوحدة ووحشة
المستشفيات ، وخفت أن تصحو فتظن أنى لم
أحضر إليها فتزف منها دمعة ، ففتحت أصابع
كفها المقبوضة وتركت فيها قلمى ، ومضيت ،
فى الصباح قالت لى مبتسمة : عرفت إنك
جيت إمبراح بالليل.

إلى هذه اللحظة أهدى هذا الكتاب

إبراهيم عيسى

HAMDAN.B
28/01/2010

مع حضرة النبي محمد

في لحظات التوهان والارتباك، عندما تجد الواقع من حولك مضيقاً ملبشاً، والناس مشوشة والحقيقة مداسة بنعال التسلط والتطرف والمواطن يذل من حكام ويضل من شيوخ، لا حل غيره، أنا لاجيء سياسى ودينى إليه..
لا تأشيرة ولا ختم سفر ولا سفارة ولا عمارة ولا حرس ولا عسس ولا مدير مكتب ولا دفتر مواعيد ولا غضب ولا عتب..
ذهبت إلى حضرة النبي المصطفى، نبينا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الذى يحق لنا أن نسأله.

جلست هناك بين صفحات مجلدات صحيح البخارى، أسأل وأسمع وأبحث وأنصت لجواب النبي الكريم وها هو نص الحوار ملتزماً بحروف النبي صلى الله عليه وسلم دون تصرف ولا تبديل وحاشا لله أن نمد سن قلم في ألفاظ نبي مكرم. كان لنا شرف سؤال النبي «صلى الله عليه وسلم» «متوضئين» وكان لنا اجتهاد سماع جوابه.

- سؤال كل مسلم، حلم كل مسلم، كيف يدخل الجنة؟
- من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة (٢٠٣٢).
- لكن الوصول إلى الجنة يبدو صعباً شاقاً وسط زحام الدنيا بالمغريات والإغواءات ولا يستطيع الإنسان أن يعرف كيف الوصول إليها وسط كل هذا التخبط الذى نعيشه؟
- الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك. (٢٠٣٥).
- يخرج علينا شيوخ يجرمون علينا عيشتنا ويضخمون أخطأنا ويصورون أفعالنا كلها ذنوباً وكبائر، فما الكبائر؟

- الاشرار بالله
- ثم ماذا؟
- عقوق الوالدين.
- ثم ماذا؟
- اليمين الغموس
- وما اليمين الغموس؟
- الذى يقطع مال امرىء مسلم، هو فيها كاذب. (٢١٦٠).
- وما يحدث فى الوطن من فساد وإفساد سياسى واقتصادى وأخلاقى ألا يستدعى المواجهة العنيفة والحادة مع المجتمع بأسره؟
- إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله. (٢١٦٣).
- نرى جماعات من الناس أطالت ذقونها وقصرت ثيابها، يصلون فى المساجد ويعتكفون ويقولون عن أنفسهم «ملتزمين»، نشهد لهم بحفظ القرآن وتلاوته ودوام الصلاة وقيام الصيام.. لكننا نراهم منشغلين جداً فى تكفير الناس إن قالوا وإن لبسوا وإن سلكوا بطريقة تخالف رأيهم؟
- إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما. (١٩٢٥).
- رغم ما هم عليه من تدين وإلتزام؟
- يخرج فى هذه الأمة قوم يتقرون صلاتكم مع صلاتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوهم أو حناجرهم، يرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فينظر الرامى إلى سهمه، إلى نصله، إلى رصافه، فيتأرى فى الفوقه، هل علق بها من الدم شيء. (٢١٦٤).
- نحن نرى الرجل يقول عن نفسه الحاج فلان ويسبح على مسبحة ويصلى فروضه حاضراً وجماعة، بينما يقبل الرشوة ويأكل حقوق الناس!
- إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت. (١٩٢٩).
- نشاهد حكماً فى وطننا العربى وقد أثرو وتفحشوا وتوحشوا مالا وثناء

ونفوذاً لا نستطيع أن نسألهم أمراء وحكاماً ورؤساء ووزراء، من أين أتيتم بكل هذه الثروات والأموال، ماذا تقول لهم يا سيدي ورسولي؟

- أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يجمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم لقي الله يجمع بعيراه رغاء، أو بقرة لها خوار. ثم رفع نبينا الكريم يده حتى روى بياض إبطه.

- اللهم هل بلغت. (٢١٨٣).

● لكن هناك حكاماً وأمراء ومسؤولين في كافة أقطار الوطن العربي كأنهم لم يسمعوا بلاغك النبوي؟ يجلون مال الدولة ويترجمون من بيت مال المسلمين دون حسيب أو رقيب؟

- ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة. (٢٢٣٤).

● إن حكامنا يظلمون شعوبهم؟

- الظلم ظلماً يوم القيامة. (٧٣٤).

● ويستولون على الوطن والرزق والنفس والأرض؟

- من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه، خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين. (٧٣٥).

● نشهد هذه الأيام ظاهرة تتعاضم وتنتشر بشكل يثير التنبه وهو تحول المسلمين إلى طالبى فتاوى فى أمور واهية ويطرحون أسئلة عن كل شيء حلال هو أو حرام؟

- إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرم فُحرم من أجل مسألته. (٢٢٧٦).

● ولكن أليس من حق الناس أن تسأل حتى فى نشأة الكون وخلق آدم وحواء والهبوط من الجنة؟

- لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء..

فمن خلق الله. (٢٢٧٧).

• نعيش في عصرنا هذا حالة من المناظرات بين الإسلام والمسيحية واليهودية سواء في برامج التلفزيون أو شرائط الكاسيت وعلى الإنترنت ويتبارز الشيوخ مع القساوسة والمحامات ويتدافع المسلمون وراء هذه المناظرات اهتماماً وشغفاً بتفضيل نبينا على غيره من الأنبياء؟

- لا تخبروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله. (٧١٩).

• وما علامات تراجع وطن وانحدار أمة وضعف شعب؟

- أن يقل العلم ويظهر الجهل. (٥٤).

• ولكننا نرى شيوخاً ووعاظاً ودعاة يملأون شاشات الفضائيات والجرائد والمساجد أليس هذا دليل انتشار علم؟

- إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا. (٥٩).

• وكيف نتعامل مع المنافقين المتلاعبين على كل الحبال، ينافقون السلطان ويدعون معارضته، يظهرون المودة ويغمدون الكراهية.

- تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه. (١٩١٣).

• وإذا أردنا التقرب لله عزوجل، فهل نجاهد بالحرب والضرب في سبيل الله، أم ماذا نفعل بالضبط، أى العمل أفضل؟

- الصلاة على ميقاتها.

• ثم أي؟

- ثم بر الوالدين.

• ثم أي؟

- الجهاد في سبيل الله. (٨٦١).
- وأى الناس أفضل؟
 - مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله. (٨٦٢).
 - وإذا لم نستطع الجهاد والقتال سواء لأننا لانقدر أو أنه لا أرض للجهاد والقتال.. أى الناس أفضل بعد المجاهد.. من؟
 - مؤمن في شعب من الشعوب يتقى الله ويدع الناس من شره. (٨٦٢).
 - وهل كل جهاد في سبيل الله؟
 - الله أعلم بمن يجاهد في سبيله. (٨٩٤).
 - يحدث الآن في العراق أن جماعات تقول عن نفسها مقاومة ضد الاحتلال، لكنها تقتل العراقيين وتنسف بيوتهم وأحياءهم وتسفك دماء الصغار والكبار تحت دعوى المقاومة فإذا بها تقتل المسلمين لا المحتلين
 - من حمل السلاح علينا فليس منا. (٢٢١٣).
 - وماذا نقول لهم ياسيدى ورسولى الكريم؟
 - لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض. (٢٢١٤).
 - هناك من يزين للسلطان ظلمه وللإرهاب إرهابه وهم يرددون القرآن الكريم ويتحدثون باسم الإسلام ويحفظون أحاديثك الشريفة!
 - يجاء برجل فيطرح في النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون أى فلان الست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول إنى كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله. (٢٢٢١).
 - أخشى أن أكون قد تجاوزت في السؤال وأخطأت في اجتهاد الحوار
 - من تعمد على كذبا فليتبوأ مقعده من النار. (٦١).
 - لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، فما هى دعوتك لله يا نبي الله؟
 - اريد أن أختبئ دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة. (١٩٨٣).
 - الأرقام الواردة فى الحوار هى أرقام الصفحات من كتاب البخارى.

مصر ليست أجمل بلد في الدنيا!

لا أعرف مدى تقديرك لوطني لو قلت أن مصر ليست أجمل بلد في الدنيا، هي بالطبع ليست كذلك رغم إصرار المصريين على هذه الجملة كأنها حقيقة مقدسة لا تقبل النقاش، هي ليست أجمل بلد في الدنيا، هي مجرد بلد قد تكون جميلة لكن أى شخص عاقل سافر إلى بلاد في آسيا أو أوروبا أو أمريكا بل وأفريقيا لن يقول أنها أجمل بلد في العالم، وهذا لا يمنع أنتى أحبها لأنها بلدى ولو لم تكن جميلة أصلا، وأحاول أن أستمر في وصفها بأنها جميلة متغلبا على ما فيها من تلوث الهواء وعلى السحابة السوداء وتلوث المياه وروث السياسة، (من المجنون الذى يمكن أن يردد الآن أغنية حلاوة شمسنا وخفة ظلنا الجو عندنا ربيع طول السنة) وهذا يذكرنى بدروس المدرسة حين كانت تقول لنا أن مصر تتمتع بموقع جغرافى ممتاز يجعلها ممرا بين قارات العالم وهذا صحيح فعلا لكنه كان صحيحا فى زمن ماجلان وأحمد بن ماجد ورأس الرجاء الصالح، كان صحيحا قبل هذا التطور العلمى والتكنولوجى المذهل الذى لم يجعل لهذه الأوصاف أهمية أو ضرورة، تماما مثل الكلام الحالم عن أن مصر دولة رائدة فى المنطقة فهى الآن دولة يلعب نظامها دور الدولة الوسيطة وسمسارة سياسيا مممتها إجلاس البائع مع المشتري على أن تقبض هى عمولتها السياسية، أفضل شئ فعله لبلدنا أن تتواضع فى وصفها حتى نستطيع أن نتقدم بها ونتطور معها و ألا نصدق المعلق حين يلح فى وصفه للمباراة على أننا نلعب مباراة رائعة، لنبدل جهدا فى تغيير جذرى للحالة السياسية المزرية فى مصر وما أنتشر فيها من فساد ومحسوبة واستبداد مذهل وعبودية للحاكم وتقديس للرئيس وتحويله نبيا لا ينطق عن الهوى فهو نصف إله لا يخطئ ولا يغير ولا يتغير، نكف عن التعامل كالعبيد أمام مالك الوطن وفرعون البلد يتحكم فىنا

كيفما شاء ويتمدد ويتأبد ويرث حكما فيورث وطنا..
العجيب أننا نتصور أنفسنا حياة للإسلام والعروبة بينما لا نستطيع أن نحمل
مصنع قطاع عام من السرقة عيني عينك! نصرخ مواجهين الحملات الاستعمارية
والصليبية بالصوت والصراخ والهتاف بينما لا نواجه تزويرا في انتخابات دائرة في
وسط البلد!

والحقيقة أن الذي لا يستطيع مواجهة حبيب العادلي لا يستطيع مواجهة
رامسفيدل والذي لا يقدر على حماية سكان القلعة لا يستطيع حماية قلعة الإسلام
والذي يضطهده فتحي سرور من السهل جدا أن يضطهده توني بلير، لكننا نحيا
على أكذوبة كبرى وكلما كبرت الكذبة يصعب نفيها، أكذوبة أننا مرسلون من
العناية الإلهية للدفاع عن العروبة والإسلام، جازر هذا كان ماضيا عريقا عظيما
لكنه الآن ولا حاجة، فانا لا أفهم من يريد مواجهة محاولة أمريكا المتصورة والمتخيلة
أن تمحو الإسلام و يدعى أنه هو الإسلام أو ممثل الإسلام، هل نصدق أننا في
الوطن العربي وفي مصر ممثلو الإسلام، يا أخى دا الإسلام يبرئ منا ومن
عيشتنا، الإسلام هو الدين الذى يجعل أبناءه أحرارا ونحن لسنا كذلك، ماليزيا
وأندونيسا وتركيا بل وإيران من الممكن ان يتكلموا عن الإسلام ويمثلونه أما نحن
فبأى إمارة والنبي، هذه الدول ديمقراطية حرة لا تتحكم فى مواطنيها ولا تسجن
نصف شعبها ولا تنتهك حقوق الإنسان، وترزع وتصنع وتصدر وتكبر وتستكفى
وتتمو وتنتمر إقتصاديا وصناعيا، وتعطل فى الحكم ويذهب حكماها ويروحون ليس
فيهم الآن أبدى ولا مورث ولا وارث، هم إذن الذين يملكون الكلام عن إسلام
قوى ومسلمين محترمين أما نحن الذى نغطس تحت مجارى الإستبداد والفساد
والعبودية فلا عين لنا لنبرق ولا لسان لدينا لنتكلم، كت أتمنى أن أكون مناضلا
كبيرا ضد أمريكا وبطلا فى مواجهة ما تفعله لكننى للأسف لن أحظى بهذا الشرف
لأننى أرى أن تعبير أمركة الإسلام نفسه كاذب ومنفوخ، أوهام..

إن امريكا تريد تغيير المصحف وإلغاء آيات قرآنية فهذا كلام يفتس من
الضحك (يفطسنى أنا لوحدى كى لا يغضب أحد) لا تسمعه ولا تقرأه إلا فى

الوطن العربي على ما فيه من ضعف وهشاشة، هناك ملايين المسلمين من الأمريكيان والعرب الأمريكيان والأمريكان السود (سبعة مليون مسلم أمريكي و١٢٠٠ مسجد هناك) يمارسون شعائرهم ويقرأون قرآنهم ويننون مساجدهم وينشئون مدارس إسلامية التي تعلم القرآن والشريعة وتتجلبب البنات والستات بل إن الإسلام أسرع دين انتشارا في العالم وفي أمريكا تحديدا هذه السنوات ووصل عدد المسلمين حديثا في أمريكا وحدها ١٧% من المسلمين الأمريكيان دون أن يتحدث واحد منهم شاكيا من هذه الهراءات التي تجدها فقط عند سكان العالم العربي وصحفتهم ومواقعهم على الانترنت!! حتى السيدة المختلة التي أمت الصلاة مع جماعة هناك في قاعة مؤجرة من كنيسة ليست إلا شذوذا فكريا شأن عشرات من مدعى النبوة ومدعى المهدي المنتظر وقد رفضها مسلمو أمريكا قبل أي مسلمين وندرك أنها فقاعة إعلامية لهواة الطرائف أكثر منها حدث ديني أو فقهى، حتى دعوة طارق رمضان حفيد حسن البنا لتجديد تطبيق الحدود في الشريعة الإسلامية فهي دعوة من مسلم صالح تقصد الخير حتى لو اختلفنا معها ولها أصولها الشرعية الآمنة وليست كما وصلت للعقل المصرى الذى يعانى المرض والحلل على أنها إلغاء لآيات الحدود فى القرآن (بالمناسبة القرآن لم يشمل كل الحدود أساسا!) أو أنه مطلوب تطبيق حد الحراية عليه ومثل هذا الغث النافه الذى جهلوا الناس به، أما قصة تغيير المناهج التى تدعو إليها أمريكا فدعنى أذكركم فقط أنتى لست خواجه مستشرقا بل منوفى على مذهب الامام الشافعى ومتزوج على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمانى (أحب أبأ حنيفة جبا يفيض على قلبى لأوزعه عليكم) أقول هذا واستغفر الله لى ولكم لأؤكد أنه فى مصر كنا أول من غير المناهج الدينية فى عصر عبدالناصر كى تتناسب مع الاسلام دين الاشتراكية وغيرنا المناهج فى عصر السادات حتى يصبح الاسلام دين الرأسمالية، وغيرناها فى الستينات حتى نواجه الاخوان المسلمين ووجهوا المناهج للتحفيز من أجل حرب اسرائيل ثم عدلوا وغيرها فى السبعينات من أجل مواجهة الشيوعيين والسلام مع اسرائيل، لا جديد فى تعديل المناهج، الجديد فعلا أنها فى

حاجة الى تعديل من قبل أن تطلب أمريكا ذلك بسنوات طويلة منذ صارت هذه المناهج الدينية تعلم طاعة الحاكم المخلوق في مواجهة الخالق، باتت تعلم الناس بأسم الدين الصبر على الحاكم الظالم وعدم شق عصا الجماعة وتكفير الشيعة و المسيحيين وتكفير الغرب أيا كان ومن يكن!! المناهج الذى تزرع الطاعة بأسم الاسلام وتقتل الاجتهاد والاختلاف وتعلم أن الجهاد ضد الكفر فقط وليس ضد الظلم وليس ضد الاستبداد ولا حتى ضد المحتل!!، هذه المناهج الذى كتبها فقهاء السلطة ووعاظ السلاطين لا حاجة لنا بها، هذه المناهج يجب أن تتغير ونثور ضدها حتى لو كانت امريكا تريد ذلك فنحن لسنا هبلا وعبطا كى نصر على التخلف والتطرف من أجل معاندة أمريكا فقط فنصبح مثل الزوج الذى أراد أن يعاقب زوجته فحصى نفسه!

عمى الثلج!

لم يصدق الرئيس الراحل أنور السادات ساعتها المشهد، فقد اندفع نحوه جنود من ساحة العرض العسكري وتوجهوا ناحية المنصة رافعين المدافع في مواجعتته، لم يصدق السادات أن هذا يمكن أن يحدث من شعبه (شعبى) وقد أدرك الرئيس السادات لحظتها أنهم لا يريدون سوى قتله، (قيل إن خالد الإسلامبولى قاتل السادات رأى حسنى مبارك وقد رفع رأسه ناظرا إلى القاتل فقال له ابعد إنت إحنا عايزينه هو بس!).

من الواضح أن الرصاصات لم تذهب إلا إليه، إلى الرئيس السادات فقط فلم يقتل أى رجل من رجالات الدولة يومها لا مبارك ولا أبو غزالة ولا غيرها، خرج مبارك بجرح شظية فى يده (عندما حكى الواقعة فى برنامج دعائى له قبيل انتخابات الرئاسة العام الماضى نسى أى يد هى التى أصيبت) أما المشير عبدالحليم أبوغزالة فقد ظهرت بعد الحادث صور فوتوغرافية لقبعته العسكرية مخرومة من أثر رصاصة أو هكذا قيل، المهم أن السادات رحمه الله (وجاء اليوم الذى تترحم فيه أيضا على أيامه وليس عليه فقط) عرف أن القتل لا يريدون سواه فخرجت منه الجملة التى باتت بعدها مشهورة، قال: مش معقول، نعم لم يصدق السادات رحمه الله أن أحدا من شعبه قد وصل به الغضب عليه إلى حد قتله، فكان طبيعيا أن يتمم الرئيس وهو يموت بهذه الجملة الكاشفة والصادقة تماما، مش معقول!

لا يوجد رئيس يصدق أنه مكروه ولا يوجد رئيس مصرى مستعد أن يفكر أساسا أنه مكروه من شعبه!

هذا يذكر فوراً بالطغيان والاستبداد والبقاء على العرش حتى يلتصق الحاكم

بالكرسى فلا يرى نفسه بعيدا عنه، ثم لا يرى غيره، ومما جرى ومما غضب الشعب عليه ومما خرجت مظاهرات ومما ارتفعت درجة غليان لن يصدق أى رئيس دكتاتور أنه مكروه ومغضوب عليه، إنه ما يمكن أن نسميه عمى السلطة تماما مثل عمى الثلج، فالتواجد فترة طويلة فى جبل أو غابات ثلوج تصيب البعض بعمى مؤقت من فرط النظر والتركيز على الثلج، البقاء فى السلطة مدة طويلة وبصلاحيات مطلقة غير مقيدة وبتأليه مصاحب للسلطة من منافقين وخدم المنصب والعرش يؤدى غالبا لعمى السلطة فلا يرى الحاكم سوى ما يريد أن يراه، هذا بالضبط ما جرى مع رضا بهلوى شاه إيران، يحكى الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه «مدافع آيات الله» أن الشاه لم يصدق ما كان يجرى من مظاهرات عارمة فى بلاده خلال الشهور الأخيرة من حكمه وحين قام بجولة بالطائرة الهليكوبتر ووجد فى الشوارع مظاهرات عارمة سأل طياره بدهشة (هل هؤلاء الناس يتظاهرون ضدي؟)

إلى هذا الحد ما تصنعه السلطة فى دكتاتور أنه لا يرى ولا يصدق أن عليه الرحيل عن العرش ولا يوجد على مدار التاريخ المعاصر دكتاتور فى الشرق أو الغرب، فى العالم العربى أو أى مكان صحرا إن كان أو بستان، ترك العرش بإرادته، الحالمون والسذج فقط من يظنون أن المستبد يمكن أن يترك السلطة وهو حى يرزق ولو حتى لابنه، وفى بلاد مثل مصر لا أظن أنه من الوارد إطلاقا مثل هذا الحلم العبثى الذى يراود الحكوميين وهو أن الرئيس يمكن أن يجرى إصلاحا ديمقراطيا حقيقيا فهذا يعنى ببساطة شديدة انه سيتعد عن مقعد الحكم ونفوذ السلطة، ومن ثم لن يصلح لأنه لن يرحل، وكما يقول المفكر العظيم جمال حمدان فى الجزء الثالث من كتابه «شخصية مصر» (الديمقراطية لا تُمنح ولكن تُنتزع، لا تُستجدى من الدكتاتور وإنما تفرض عليه فرضاً بقوة الوعى وفعل القوة ويبد الشعب نفسه) ويضيف حمدان (فمكان مصر ومكاتبها الدولية كقوة سياسية، انتصارها وهزيمتها عسكرياً، مصيرها وبقاؤها، إلخ، كل أولئك بين يدي شخص فرد واحد، بينما الشعب مقود غصباً ولا شيء عملياً، والنتيجة المنطقية، ولا نقول

الحتمية، هي الهزيمة والنكسة ثم الاستسلام والنكبة.. فقط انظر حولك. ومن هنا كانت الفرعونية الجديدة هي ببساطة ولكن بصرامة «الفشل في الداخل والهزيمة في الخارج» و«الطغيان في الداخل والركوع في الخارج». وفيما بين الطرفين، تظل الديمقراطية هي مشكلة مصر الأولى والأم، فهي وإن لم تكن مشكلتها الوحيدة أو الأخيرة، فإنها مفتاح جميع مشاكلها الأخرى بلا استثناء، لا شيء يسبقها، ولكنها تسبق الجميع، جميع مشاكل مصر وأزماتها وكوارثها الداخلية والخارجية، في الإنتاج والحضارة والتقدم، مع العدو الإسرائيلي والأشقاء العرب، مع القوى العظمى والصغرى، كل انحذار أو سقوط مصر في الحرب أو في السلم، جميع عيوبها وقائصها وسلبياتها ومثالبها في المجتمع والفرد كما في السياسة والاقتصاد مصدرها وسببها الرئيسي هو الاستبداد الداخلي الغاشم والطغيان الفرعوني المقيم المستديم.) هل بعد هذا التشریح شرح؟

يبقى أن الإصلاح الحقيقي في مصر يبدأ وينتهي بموقف الرئيس وبالموقف من الرئيس!

أول خطوة للإصلاح هي النزول بحاكما من صفة الفرعون إلى منصب الرئيس، ثم يليها خطوة ضرورية حتمية هي تحويل الرئيس من مقدس منزه إلى رئيس بشر، يصيب ويخطئ، ننصفه ونهاجمه، نمتدحه وننتقده، نحاوره ونواجهه، وهو ما ينتهي إلى الخطوة الثالثة وهي تغيير الرئيس، بمعنى ألا يصبح الرئيس حاكما أبديا سرمديا، ألا تكون نهاية حكمه هي نهاية عمره، مدة رئاسته هي مدة حياته (أقصد قطعاً تغيير المادة ٧٧ من الدستور وهي التي يرفض مبارك وابنه تغييرها لأنها جوهر الإصلاح السياسي وهم لا يريدان -وعائلة الحكم وحاشية الرئاسة - جوهر الإصلاح بل يريدون شكله ومظهره فقط بل ها هم يتراجعون حتى عن الشكل والمظهر فبعض المساحيق التجميلية لردائها تذوب سريعاً من على تصريحات ومؤتمرات وقرارات حكامنا)..

إذن هناك معركة سياسية لا شك في حدوثها بل هناك ما يشبه الحتمية في وقوعها بين طرفين، طرف يريد إخراج الرئيس من معادلة الإصلاح والتغيير

السياسى، ومن ثم يلف ويدور ويتكاذب ويتحاذق ويتفذلك ويراوغ وكل ما يغيه هو أن يعد الجميع عن الرئيس (الشخص والمنصب)، وطرف لا يرى إصلاحاً ولا تغييراً ولا ديمقراطية بل لا حياة من أصله إلا بمناقشة الرئيس (الشخص والمنصب) فى أول بند من بنود التغيير والإصلاح، فقد انتهت الأساطير التى يروج لها خدم السلطان وزبائنته وموتوسيكلاته الفكرية التى تسبق موكب آرائه وتصريحاته بالسارينة المفزعة والزئير الخيف حتى يلتقى فى قلوب الناس الرهبة نحو هيبة صنعها صناديق انتخاب مزورة ومزيفة، يقول المفكر والفيلسوف المصرى دكتور فؤاد زكريا فى كتابه «خطاب إلى العقل العربى» (فى بلاد العالم الثالث - حيث الحكم الفردى هو القاعدة العامة التى لا توجد لها إلا استثناءات قليلة - تنتشر أسطورة «الحاكم الذى لا يعرف»، وفى أغلب الأحيان يروجها النظام نفسه، أو المتعاطفون معه، كما أن الحاكم عينه قد يلجأ إليها فى نهاية المطاف، حين لا يعود فى الإمكان كتمان فضائح مالية، أو جرائم لا إنسانية، أو تصرفات قمعية إرهابية. عندئذ تملأ الأصوات قائلة: إن الحاكم نفسه رجل رحيم، ولكن العيب كله فى المحيطين به، وعادة يصور هؤلاء المحيطون بأنهم - فى غالبيتهم - مجموعة من الأشرار الذين لا يكتفون بارتكاب جرائمهم، بل يخفونها عن الحاكم، ويصورون له الأحوال دائماً بصورة وردية، وما داموا هم وخدمهم الذين يستطيعون الوصول إلى الحاكم، فإن هذا الأخير يظل على غير علم بممارساتهم التى تشوه صورته أمام الناس دون قصد منه، وهكذا يساء إلى الحاكم الإنسان نتيجة لشُرور الأعوان. وتنتشر أسطورة «الحاكم الذى لا يعرف» عندما يضطر أنصار الحاكم الفرد إلى الاعتراف بوجود تناقض صارخ فى تصرفاته، ويعجزون عن تفسير هذا التناقض. وربما حورت الأسطورة قليلاً، فلا يعود الحاكم هو الذى «لا يعرف»، بل يصبح هو الذى «لا يقدر»، وفى هذه الصيغة المعدلة، تكون رغبة الحاكم أيضاً متجهة دائماً إلى الخير، غير أن الذين يحيطون به يفرضون عليه إجراءات ظالمة لا يكون هو نفسه راضياً عنها، ولكن لا مفر من ذلك من أجل مراعاة «توازن القوى» فى الحكم، فإذا أساء أحدهم التصرف فإن الحاكم لا يمكن أن يكون مسئولاً عما فعل.

والشاهد على تأكيد صحة ما كتبه أستاذنا فؤاد زكريا هو ما يجري كل يوم في مصر من تسولات وتوسلات للرئيس بأن يتدخل، وكأن الرئيس ليس هو المسئول وهو المتدخل الأعظم في كل ما يحدث في بلدنا، لكنها الأسطورة التي تريد للنقد ألا يطول الرئيس وتبغى للمسئولية عن الفساد والإفساد الذي نعيشه أن تقف عند شارع القصر العيني حيث مجلس الوزراء (وبعد بأمطار ميدان لاطو على حيث وزارة الداخلية) وألا تقترب حتماً من قصر العروبة فهي الساحة المحرمة على النقد والمواجهة وتحميل المسئولية، وكأن حاكماً مسلماً منذ ألف وخمسةائة عام لم يقل "راعوني بأبصاركم، فإن استقمتم فأعينوني، وإن زغت فقوموني، وإن أطعت الله فأطيعوني، وإن عصيت الله فأعصوني"، رحم الله أبا بكر الصديق فكان من يحيا بيننا الآن من حكام عرب ومصريين أشد ورعاً منه وأكثر تقوى وديناً حتى إن أحداً منا لا يمكنه أن يراعيه ببصره أو بلسانه أو بقلمه أو بقلبه!

الرئيس في الدستور المصري يملك صلاحيات لم تتوفر غالباً للفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه رغم أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول: «لو تعثرت بغلة في العراق لسئل عمر عنها» بينما من يملك صلاحيات أكثر من عمر بن الخطاب لا يسأله أحد لا عن تعثر بغلة بل عن غرق مئات من بشر وحقوق بيت المال المنهوب وتعذيب وتشريد واعتقال الآلاف، سنتجاوز عن البغلة ونسأل عن مسئولية الرئيس عن تعثر وتدهور ملايين المواطنين (أصحاب البغلة)!

أعود للدكتور فؤاد زكريا الذى يقول (هل سمعتم يوماً عن حاكم لدولة ديمقراطية اعتذر عن أخطاء حدثت في حكمه على أساس أنه لم يكن يعرف؟ وهل سمعتم عن شعب في دولة ديمقراطية اقتنع يوماً بمثل هذا العذر؟ إن النظام الديمقراطى يفترض فى الحاكم أن يعرف، وأن يضع من ضمانات الحرية ومن نظم توصيل المعلومات ما يضمن له معرفة ما يدور حوله من إيجابيات وسلبيات، فإذا تبين يوماً ما أن تقصيره فى معرفة ما يحدث قد ترتبت عليه نتائج خطيرة وجب عليه أن يتنحى على الفور ويترك الحكم لمن هو أقدر منه).

إن السلطة في مصر إذن لديها هذا الإحساس العاقى بالبقاء والخلود الذى لا يقتنع ولا يسمح لأحد بأن يقتنع بنظرية تداول السلطة، ومن ثم فأى تعديلات أو تغييرات فى الدستور أو فى القوانين لا تستهدف سوى البقاء فى السلطة أو عدم المساس بالبقاء فى السلطة وهذا أصل البلاء وأس الداء.

إن احتكار السلطة الذى يمارسه نظام مبارك السبب الفيزيقي البيولوجي (وليس السياسى فقط) للنكسات والأزمات فحين تشعر أى سلطة بأنها مخلدة وباقية وأن شيئاً لا يمكن أن يمس أطرافها فإذا بهذه السلطة تنقلب إلى صراع داخلى أهلى محموم فى اقتسام كعكة الحكم (وهو ما عايشته مصر حيناً) أو تأليه وتجميد وتخليد زعيمها، ووضع موضع الآلهة والأنبياء والحكام (وهو ما عايشه) كما أن احتكار السلطة يزرع فى قلب وعقل الشعب يأسا من التغيير فاستسلاماً مرضياً ومريضاً لهذه السلطة الى حد التفويض السلبي لها بأن تفعل ما تفعله (يا عم هي بلدنا، دى بلدهم همه).

إن غياب احتمال الرحيل عن الكرسي يجعل أى سلطة فى الدنيا تتجمد وتتصلب وتتعض أحياناً إذن لا بد من إحساس قوى لدى الرئيس أن سلطته زائلة حتى تسلم سلطته من الفرعة والعلو والتعالى واللامبالاة بالناس ورأيهم وبالشعب وغضبه، لأنه حين تصبح السلطة الحاكمة الباقية الخالدة مستغنية عن ديمقراطية تراقبها أو شعب يحاسبها أو معارضة تنتقدها أو منافسين يواجهونها ويهددون بقاءها فإنها تتوحش حتى يصير الحاكم هو الواحد الأوحده (لا منافس له ولا يجد من يخلفه ويضعه نائباً كأن الدنيا عقت عن مثيله وكأنه لا مثيل له) والجبار المتكبر (يعرف مصلحة البلاد والخطوط الحمر والقرار الصائب والوقت المناسب)، العزيز المنتقم (طوارئ وسجن وحبس وقانون تحت يده)، العفو الكريم (فيوافق على تعديل قانون أو مسامحة مخطئين أو عفو عن منافسين)، وصار لا يخطئ ولا يملك أحد تخطئته و نجد أنفسنا أمام الفرعة، وهى نتيجة وسبب، نتيجة غياب الديمقراطية واحتكار السلطة وتأليه الحاكم وسبب الهزيمة فى السلم وفى الحرب، فى السياسة والاقتصاد، فى الصيف والشتاء!

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب قالا نفس القولة عندما توليا خلافة وإمارة الأمة، قالا (وليت عليكم ولست بخيركم....) ومفتاح التغيير والتطور والتقدم أن يدرك الرئيس وندرك جميعا أنه تولى علينا وليس بخيرنا، لكن الحاكم حين يمكث في الحكم كل هذه السنين ووسط كل هذا التعظيم والتقديس والتنزيه عن الخطأ ويسمع ويقراً كل يوم مديحا ونفاقا ورياء فمن الطبيعي جدا أن يؤمن داخله (وخارجه) أنه تولى علينا لأنه خيرنا!

وبينما نطالب مبارك بأن يقتدى بأسيادنا أبي بكر وعمر إذا بالذين حوله (وتحتته) يطالبونه كل يوم (كل ساعة) بأن يقتدى بالحاكم الأموي عبدالمالك بن مروان وهو أول حاكم عربي مسلم نهى الناس عن أن تقول له: اتق الله!

لا يعترف.. ولا يعتذر

لم يعترف حسنى مبارك خلال ست وعشرين سنة من حكمه بأى خطأ ارتكبه أو أى ذنب (سياسى) اقترفه أو بأى فشل فشله فلم نشهد مبارك أبداً يمارس فضيلة الاعتراف بالخطأ فضلاً عن الاعتذار عن هذا الخطأ للشعب فالرئيس يقدم سياسته طول الوقت على أنها عين الصواب وفصل الخطاب وهو يدأب فى كل حواراته على إعلان أنه أدرى بالتوقيت المناسب لكل تحرك جديد وهو يعلن عن عدم استعداد الوطن لهذه الخطوة أو تلك أو أنه يرى مصلحة البلد التى يتصرف وفق ما يرى هو وما يعتقد هو، والرئيس الذى لا يعترف بالخطأ هو بطبيعة الحال لن يعتذر عنه ثم إنه كذلك لن يصححه ويغيره، وقد أورث الرئيس مبارك عدم الاعتراف بالخطأ لكل رجاله ونظامه وحزبه و ابنه، فهم يرتكبون الأخطاء والخطايا والجرائم ومع ذلك فلا أحد منهم يعترف وبالطبع لا أحد منهم يعتذر، فأصبح سادة وسدنة الحكم وخدم البلاط الرئاسى كلهم من أولئك الذين ينكرون الحقيقة ويضللون الناس ويدلسون على الجماهير مقابل ألا يعترفوا بخطأهم الذى يصل لحد الجريمة أحيانا كثيرة، وصار الإنكار وعدم الاعتراف بالخطأ وغياب الاعتذار للناس من صفة رئيس إلى منهج حكم، ومن طابع شخصى إلى طابع سلطة، فى كل بلاد العالم المحترمة يقوم رئيس الحرب المهزوم بإعلان هزيمته وتهنئة الفائز وهو شرط إعلان النتيجة أن يعترف المهزوم بهزيمته، هذه فضيلة عظمى فى السياسة وهى الاعتراف وفى الغرب والبلدان المحترمة كذب المسئول يوديه فى داهية وإنكاره الحقيقة ينهى وجوده السياسى ويسحق شعبيته لكن فى مصر كل مسئولها يحترفون الكذب والتضليل ولا أحد يجاسمهم بل تحول كذبهم فى التصريحات إلى نكت ومجال تفكه وتندر وغابت المسئولية وخابت الأمة، ثم فى

مصر كذلك الذى يتم تعذيبه من المواطنين على يد أمن الدولة أو مباحث قسم أو داخل سجن ويقيم دعوى قضائية فيكسبها يحصل على خمسة آلاف جنيه تعويضا لكن لا أحد يعتذر له ولا أحد يعترف بأنه عذبه، ولدينا أى معتقل يقيم دعوى قضائية قد يكسبها وقد يحصل على تعويض جنين عن كل يوم سجن لكنه لا يجد مسئولا قد اعترف أو داخلية قد اعتذرت أو ضابطا قد عوقب أو وزيرا قد استقال أو أقيل، أبدا، منتهى النطاعة والتناحة السياسية وكأن هذا الوطن لا يحاسب أحدا على جرائمه ضد الإنسانية، ولم نعد نشور ولننتفض ونصرخ ونستصرخ إذا اكتشفنا تعديبا لشخص أو تلفيقا لمعارض سياسى، فماتت النخوة فحابت الأمة! ثم نفس الشيء يحصل عندما يتم تزوير دائرة انتخابية ويقيم المتضرر دعوى قضائية فيكسبها فيحصل على خمسين ألف جنيه تعويضا لكن لا أى شئ آخر فلا الذى زور ينكشف أو ينكسف ولا الذى أقر التزوير يعترف أو يعتذر ولا أى حاجة من هذا على الإطلاق بل يقوم سيد قراره بإجرائه الحقيق الشهير بإقرار هذا العوار والمواقفة على وجود عضو مزور و الامتناع عن تنفيذ حق وحكم (إلا لو كان طبعا حكما ضد معارض أو نائب إخوانى) لا أحد يعتذر ولا أحد يعترف ولا أحد يعيد الأمر إلى صوابه ولا أحد ينتصر للحق ويعود عن الباطل!

هل وقف أى مسئول فى مصر من الرئيس حتى أصغر كبير فى أمانة سياسات حزبه المعتبر وأعتذر للناس عن اعتقال ٢٢ ألف معتقل فى مصر بدون محاكمات ولا قضاء كل هذه السنوات فى السجون دون ذنب إلا الاشتباه، هل تجرأ واحد من مسئولى هذا الحزب الحاكم الغاشم الضال المضلل واعترف واعتذر عن قانون الطوارئ، التعذيب، البطالة، فيروس سى، الفشل الكلوى والكبدى والسرطان، والمبيدات المسرطنة، وتلوث الماء والسحابة السوداء، تراجع الجنيه المصرى وانحطاط الصادرات،، انهيار التعليم و انحدار البحث العلمى، لن تسمع واحدا منهم يعترف ولا واحدا منهم يعتذر فكلهم على دين الرئيس لا يخطئون أبدا ولا يعترفون طبعا ولا يعتذرون قطعا..

يقولون إن الانتخابات البرلمانية الأخيرة أنزه انتخابات شهدتها مصر ورغم أن هذا هراء وكذب إلا أنهم لا يعتذرون إذن عن كل الانتخابات السابقة التي لم تكن نزيهة بينما كانوا يكذبون كالآن تماما ويقولون عنها إنها نزيهة، إنهم زوروا جميع انتخابات مصر، ومع ذلك يملكون من الوقاحة ألا يعتذروا ولا يعترفون إطلاقاً، لقد صدعنا صفوت الشريف بأننا نعيش أزهى عصور الديمقراطية وكان يتحدث متحمساً كأنه يصدق ما يقوله وكلنا نعرف أنه كلام غير حقيقي ينطق بالتزيف والتضليل ومع ذلك عادت نفس الحنجرة لتحكى عن خطوات الإصلاح وقرارات الرئيس التي تدفع بالديمقراطية إلى الأمام، إذن الرجل يفصح عن عوار وزيف ما كان يردد في أوبريتات الحزب الوطنى فى السابق عن أزهى عصور الديمقراطية ومع ذلك فالرجل يتحدث ولا كأن حاجة حصلت وانكشفت ولا يزال هو وجوقة الحزب الوطنى من زكريا عزمى وكمال الشاذلى حتى جمال مبارك وأحمد عز ومحمد كمال يعزفون نفس النغم النشاز عن الديمقراطية والإصلاح وهو كلام كذوب يمزج تضليلاً ولا يصدق أحد ولا يخيل على بنى آدم فى البلد ومع ذلك هم فى غيهم التصريحاتى مستمرين ويتجاهلون تماماً ما جرى من هذا الحزب وذلك الحكم طيلة السنوات السابقة، طيب بلاش نحاسبكم ونحاكمكم على ما مضى لكن فقط اعترفوا اعتذروا، لكن كيف للصوص شرعية ومغتصبى حقوق وطن بالتزوير والتزيف على مدى ربع قرن أن يأتوا الآن ويدعون إصلاحاً وديمقراطية وهم أنفسهم الذين استبدوا وزوروا وزيفوا، دون حتى أن يعترفوا بما مضى ويعتذروا عما جرى، يا عينك يا جبايرك يا هذا النظام المنتطع، ألا هلك المنتطعون!

هذا الحزب وذلك النظام لن يعترف بفشله الناقع فى الحياة السياسية ويمدى كراهية الناخبين لهذا الحزب مما أسقط رموزه ومرشحيه ورماهم بالبيض الفاسد فى وجوههم، لن يروا الحقيقة ولن يفهموا رسالة الناس ولن يتصوروا الحقيقة أبداً فقد انتفخت أوهامهم وبالونات ذواتهم وأصيبوا بلعنة عبادة السلطة والتشبث بالكرسى، هذا حزب ضال مضلل سقطت مرشحوه حاملو الهلال والجمال فى ٧٠% من الدوائر التى واجهوا فيها الإخوان المسلمين (وطبعاً تم تزوير كثير من الدوائر

التي كسب فيها الحزب الوطني على طريقة آمال عثمان ومصطفى الفقى!)، أى عار أكثر من ذلك يهرب منه قيادات هذا الحزب الذى نرى على بعضها أعراض شيخوخة الوجدان من تصلب وجمود وضيق صدر وعصية و نرى على بعضها الآخر أمراض مراهقة العقل من النزق والغطرسة والاعتداد بالجهل والفتونة والاندفاع، لكن هذا الحزب الفاشل لن يعترف بهزيمته ولن يتراجع عن خطيئة وجوده المتسلط وجريمة احتكاره للسلطة والحكم، لقد سقط فى المرحلة الأولى ٦٠% من مرشحي الحزب الوطنى حاملى الهلال والجمل، ثم انهار فى المرحلة الثانية حيث تساقط ٧٥% من هلال الحزب وجمله، ومع ذلك تخرج تصريحات جمال مبارك وعز والشريف فى منتهى التضليل وتتغنى بأغلبية زائفة ومتوهمة، ليس هناك أدنى أمل فى حزب يرفض الاعتراف بأن مرشحيه سقطوا وأن الذين حملوا رمزه واختارهم رئيس الحزب الوطنى مزكيا ومدعما تساقطوا كما لو كانوا نملا أبيض تطاردهم رشات البيرسول، مسئولو الحزب من المضللين القدامى أو من المضللين الجدد يمتطون هذا الوطن الذى أسقطهم بيانات كذوبة يطرحونها كأنها الحقيقة ثم ينبرى فريق الديبة الموزعون على صحف الحكومة فيضعون عناوين الفوز والفخار فى عار سياسى ومحنى ودليل على شخصيات مريضة بالوهم ومدمنة للتضليل تعيش فى شرفقة وعالم افتراضى خاص بها لا علاقة له بالواقع، حزب نجح منه حتى الآن عدد من الأعضاء لا يشكلون له أغلبية أساسا لتشكيل الحكومة يتحدث كأنه حزب ساحق ماحق يرى قبيلات الناس تقدمه تسولا له أن يقودها، حزب يرفع شعار «أنا مش قصير وقزعة أنا طويل وأهبل»، كأن تردده البيغائى لأنه ناجح وساحق سوف يغير الحقيقة، ومن ثم لا أمل على الإطلاق فى هذا الحزب أن يتغير أو يغير، لا شئ ينقذ مصر سوى تفكيك هذا الحزب ونهايته، حزب السلطة الذى لا يشبع من نهمه، حزب مباحث أمن الدولة، حزب الأمن المركزى، حزب قانون الطوارئ، حزب التضليل الإعلامى، حزب رمزه الجمل وصحافته ديبة تقتل صاحبها حيث تظن أنها تهش عنه الذباب.

أقول إن الضغط الداخلى الشعبى والضغط الخارجى الدولى هو أمل هذا

الوطن من أجل تحريره من قبضة الحزب الغاشم الفاشل وتخلي رجاله طوعا أو
كرها عن مقاعد الحكم، والذي يدهشك حقا هو لماذا هذا الإصرار على كرسي
والتشبث بمنصب حتى التماهى والتفانى فيه..

ماذا يريد الرئيس مبارك من مقعد السلطة بعد ربع قرن؟ ألا يكفي ويكتفى
من سلطة ونفوذ وسيطرة وحكم وتحكم وتمجيد وتزييه كل هذا الزمن، ألا يزال لديه
حاجة في حكم أو رغبة في سلطة، أو طموح لدور؟ ألا تُشبع السلطة أبدا
صاحبها ولا يكف عطشه عن مائها؟

ماذا يريد صفوت الشريف من الدنيا أكثر مما أخذ، ومن السياسة أكبر مما
نال؟

ما الذى يتجنه زكريا عزمى بعد كل ما حصل وتحقق من نفوذ وحضور
وسيطرة وسلطة؟

ما الذى يريده جمال مبارك من الحياة وقد امتلك شركة رأس مالها أكثر من
ستائة مليون جنيه، وقد أمن ماله وآمن على مستقبله المادى ومارس النفوذ
والسلطة منذ كان صبيا ابن نائب الرئيس حتى صار كهلا ابن ذات الرئيس؟
ما الذى يريده كمال الشاذلى وحبیب العادلى، ألم يكتفيا مالا وبنيا وسلطة
وزينة الحياة الدنيا؟ ما المغرى جدا إلى هذا الحد وبكل هذا القدر الذى يجعل
صاحب المنصب والسلطة ملتصقا بهما فى عالمنا الثالث وفى مصرنا المنهوبة المذلولة
على هذا النحو؟

أى شئ يريده أحمد عز من الدنيا بعد كل ما نال منها وتحصل، هل مائة
مليون فوق المليار جنيه تُغري؟ هل البحر السياسى والمادى يجب الزيادة؟ متى
يكتفى مما يغترف السياسى، متى يشبع مما شرب الرأسمالى؟

لكننى أجد الإجابة الشافية الوافية على هذه التساؤلات التى تبدو كما هو
واضح أسئلة حاقدة من وجهة نظر هؤلاء أو على أفضل تقدير أسئلة ساذجة،
أجد إجابتها فى حوار صحفى أدلت به السيدة سوزان مبارك منذ فترة لمجلة مصرية
نسائية، اشتكت فيه سوزان مبارك من تركيز الصحف القومية على ذكر

السليبيات فيما تفعله الدولة وما تفعله الحكومة بينما تتجاهل هذه الصحف الإيجابيات
ولا تعرضها للشعب...آه والله العظيم ثلاثة قالت كده..!

مصر عيانة!

عندما يجلس رجل أمام طبيب في عيادة نفسية ويقول له هذا الكلام:
يا دكتور أنا متأكد أن الرئيس جورج بوش خطط كي يتخلص منى والموساد
بتطاردنى والمخابرات المركزية الأمريكية تضع لى أجهزة تنصت فى طبق الشوربة
وأن الرقع الحمراء على جسد طفلى ليست مرضا بالحصبة ولكنها آثار إشعاعات
نووية تجربها فرنسا عن عائلتى وأن إنجلترا سلطت امرأة شقراء من أجل أن تنفع
ابنتى بالردة على الإسلام.

ساعتها ومن أول ثانية سوف يعرف الطبيب النفسى أن الرجل مريض بفصام
الشخصية وأنه يعانى من هزاء «اسمه كده فى الطب» هزاء من جنون العظمة
وجنون الاضطهاد الذى يجعله يفكر فى مثل هذه الهزئات ويردها ويراهها فى
صور وشخصيات وضلالات ويقتنع لحد الهوس والعقيدة بأنها حقيقة مؤكدة لا لبس
فيها، طيب هذا مجرد رجل عيان تعبان الله يعينه ويشفيه ويصبر أهله، ما بالك
بقى أن مصر كلها تقول مثل هذا الكلام وتردد هذه الهزئات ليل نهار فى
التلفزيون والجرائد والمساجد والمدارس والأتوبيسات والميكروباصات، مصر كلها
حكومة وشعبا تعيش حالة من الفصام تحكى وتشكو من أن العالم كله ضدنا ويتآمر
علينا ويريد تغيير القرآن وتغيير الحزب الوطنى ويلغى مناهج التعليم الإسلامية
ويدمر قيمنا وأخلاقنا ويضع لنا الفيروسات ويسمم الهواء ويقطع علينا نهر النيل،
والمذهل أنك تسمع هذا الهزاء الهراء من الحكومة ورجالها «إذا كنتم بتعتبرهم
رجالة» حين يطق لهم عرق وهم يشيحون ويصرخون ويحلفون بالطلاق ثلاثة أن
هناك مؤامرات من الغرب والأمريكان لتركيح مصر «أساسا هو حكم سجد منذ زمن
لغرب والأمريكان!!» وتدخلات أجنبية من أجل هز استقرار مصر «نحن نعرف

طبعاً أن الشيء الوحيد الذي نسمح له بالهز في بلدنا هو هز الوسط!!» بينما نشهد التيار الإسلامي بفصائله يسم على المصحف والسيف أن هناك مؤامرة صليبية ضد الإسلام وضد مصر وتجزم الأحزاب القومية والفصائل اليسارية أن هناك مؤامرة استعمارية إمبريالية ضد مصر، وكلهم على بعضهم يرددون كأنه شريط بيسف أن مصر مستهدفة، وهو ما يجعل الشعب الذي يرى أنه لا يمكن أن ينهزم أبداً إلا بسبب الرطوبة والأمطار وصعوبة المواصلات ونقص الأوكسجين وتحيز الحكام ومؤامرة الاتحاد الأفريقي والأعيب الفيضا القدرة، يجعل هذا الشعب المخدوع بتاريخه يعيش الدور أنه ضحية ومضطهد ومستهدف وأن الكون كله لا شغلة عنده إلا العكنة على أم هذا الوطن وتغيير دينه وملته وأرضه وهتك عرضه وهذا كله كما هو واضح مرض في حاجة فورية للذهاب به لطبيب نفسى شاطر يعطى مصر حقتين ثلاثة على كام قرص في جرعة مكثفة ستة شهور كي يضبط حالة الفصام بل وربما نحتاج إلى علاج بالصدمات الكهربائية كي نعقل ونفיק وندرك الحقيقة.

إصحوا يا جدعان نحن لا نمثل أى شيء في ميزان الأمم الآن كي يستهدفنا العالم بأسره، نحن لا ننتج ولا نصنع ولا نصدر ولا نأكل من زرعنا ولا نلبس من قماشنا، نحن لا نكتشف ولا نخترع ولا نقدم للعالم كل يوم علماً وطباً واختراعاً، نحن لا نملك قوة مالية ولا سياسية ولا اقتصادية تهز أحداً أو تزعج فرداً، نحن نهتف كل يوم أننا لن نخارب ومن ثم لا أحد يخاف من حربنا فضلاً عن أننا حاربنا أربعة حروب أنهزمتنا في ثلاثة منهم فبالراحة على نفسنا قليلاً، نحن لا نحتكر أى مادة خام وليس لدينا أى ثروة تجذب الاستعمار ويحكمنا ناس حليفة صديقة لأمريكا والغرب فهل تظن أن أمريكا اتهمت وقررت تتآمر على حليفها وصديقها من أجل الطمع في أربعة مليار دولار نصدرهم كل سنة بينما نستورد بواحد وعشرين مليار دولار، بالذمة بلد مثلنا هذا حالها هل يمكن حد يستهدفه خوفاً من قوته أو من نفوذه أو طمعا في فلوسه، يا أخى لقد وصلنا إلى درجة من الخراب الصحى فى أجسادنا كصريين من سرطان وسكر وكبد وفشل كلوى

وضغط وانحدرنا إلى حال تعليمي فاشل ساحق فما الذى يجعلنا نظن أننا سبع البرمبة وأجدع وأحسن ناس في الدنيا وكل شعوب العالم بتمنى رضانا نرضى وكل حكومات العالم بتتأمر علينا، بأمانة إيه!! أنا أفهم العالم يتأمر على الصين، اليابان مثلا، ماليزيا، كوريا، لكن احنا ليه؟

أبطال وعماليق ومخترعون يقول أنا جدع وأشرب المحيط وأبيت الحارة دى كلها فى مجورها هم السكارى والخمورين الذين ذهب عقلهم تحت تأثير المخدر، فهل نفيق ونستيقظ «اللهم اجعله خيرا»، لنتفهم أننا فى أمس الحاجة إلى أن نعرف ضعفنا وقلة حيلتنا حتى نتمكن من النهوض والتقدم وأرجوك إذا اعتبرت هذا الكلام جلدا للذات راجع نفسك فورا فالحقيقة إنتى لا أريد جلد ذاتنا بل أريد ضرب ذاتنا المريضة العليلة بالجزمة حتى ننتبه، يجب أن ندرك أن الإصلاح السياسى الذى يدعونا إليه الغرب الآن ليس مؤامرة لأننا أقوىاء عليه يريد أن يضعفنا بل لأننا ضعفاء جدا ويأسون للغاية فنشكل خطرا عليه كما يشكل المحرومون والجوعى خطرا على قصور البكوات والباشوات، نعم الغرب يسعى لمصلحته والذى يتخيل غير كده أهبل وابن أهبل، فالمفروض أن يسعى الجميع نحن وهم وأتم والناس الحلوة اللى منورانا فى الفرحة ده، إلى مصلحتها وليس هناك كائن فى الأرض مفروض أن يسعى ضد مصلحته أو أن تسعى دولة لغير مصلحتها!!

الأمر كله يلخصه أنه لو أن جارا فى أمريكا خرج إلى البلكونة يتمتع الصبح فرأى والدا فى البلكونة الأخرى يضرب طفله ويعدمه العافية ركلا ولكما والولد ينزف منه الدم ويسيل على وجهه، سيتصل هذا الجار فورا بالشرطة لتخليص الطفل من والده المتوحش المؤذى الذى قد يصيبه بعاهة أو يقتله من فرط الضرب والاعتداء البدنى، وسوف تخلص الشرطة الطفل من والده الغريب وربما تعاقبه كذلك على إيذاء ابنه، أما لو حصل عندنا نفس المشهد فإننا سنقول لأى شخص يريد التدخل من أجل إنقاذ الطفل المضروب والمسفوك دمه: يا عم سييه يربى ابنه، هيه العيال متترباش غير كده «بارتجاج فى المخ!!» بل والمذهل أنه لو

ذهب أحدنا متحمسا منفلا ليفصل الوالد عن ابنه كي يوقف ضربه فالوالد نفسه
سيصرخ سيويه أبويا يضربني ويريني أنت مال أهلك، يقول هذا الكلام بكل
حماس وإخلاص وأبوه نازل على قفاه ضربا وصفعا!! هذا بالضبط هو الفارق
الحضارى بيننا وبين الغرب هم يريدون تخلصنا من حكم يضربونا بالكراچ
ويحطمون ضلوعنا ويشوهون وجوهنا ضربا وصفعا واعتداءا وتعديا بيننا نحن
نصرخ ودمنا ساىح: سيوهم حكمانا ويربونا، مال أهلكم أتم!

قضاء مصر.. وقدرها

. ما فعله القضاء يعطى أكثر من دلالة ويلقن النظام أكثر من درس.. فهاهم
القضاة يسحبون من النظام المصرى شرعيته القانونية تماماً، هذا النظام - وهواه -
الذى طنطن كثيراً باستقلال القضاء وفى عصره وتمادى فى الأساطير والخرافات
التي يروجها وزعم أنه لا سلطان للحكومة والدولة على القضاة والقضاء، تصفحه
تصريحات وتأكيدات وتحذيرات القضاة أنفسهم الذين أعلنوا - بجرأة وشجاعة ورجولة
سياسية منقطعة النظير - أن القضاء ليس مستقلاً وأن النظام - وهواه - يتدخل
فى السلطة القضائية.

هل كنا نحلم بأن يأتى اليوم الذى نقرأ فيه هذا الكلام جهاراً نهاراً فى مصر
ليعى ويكشف عورات وأباطيل نظام عاش و - سيموت - الأكاذيب.
ثم يأتى القضاة ليعلموا سحب شرعية قانونية أخرى على الانتخابات التى
شهدناها فى عهد هذا النظام كله؟ فهم يؤكدون أن الانتخابات كلها على بعضها
مزورة، ويتدخل فيها البوليس والشرطة والأوامر السياسية.. ومن ثم تنهار
دعايات النظام الهشة والمحمومة التى قزفنا بها سنوات عن أن الانتخابات تتم
تحت الإشراف القضائى الكامل، فإذا بالقضاة هم أنفسهم يعلنون حكماً هو عنوان
الحقيقة، أن الانتخابات كلها مزورة وأن القضاء برىء منها. ليتضح لنا أن
الانتخابات لم تنعقد يوماً تحت إشراف القضاء ولكن تحت إشراف القضاء..
والقدر إن أكبر ضربة موجعة للنظام.. الذى يتداعى سياسياً ويتوحش أمنياً -
جاءت من المنطقة التى تصور أنه قد أمنها بالإغراءات والترهيبات والمكافآت
والفيللات والمكلمات التليفونية الأمرة الناهية!!
إن الدرس الذى يجب أن يستوعبه الجميع أن القضاة استيقظوا فإن مصر كلها

ستصحو وتصح عن قريب.

بقى أن نشير إلى الدور الذي لعبه وزير العدل الأسبق فاروق سيف النصر في كل ما أعلنه وكشفه وعراه وفضحه كلام قضاة مصر العوائل هذا الوزير الذي سنتوقف مصر كلها عن دوره الذي لا يقل فداحة ومصيبة عما فعله د. يوسف والى في وزارة الزراعة ونحن نعلم يقينا أن قضاة مصر أهم من قطنها؛ وعدل مصر أهم من زرعها مما يحتم فتح الملفات المغلقة وملاحقة الذين أفسدوا مصر وعدلها وعقلها ولو إلى القبر.

منذ سنوات خرج قاض واحد في إيطاليا ليقول إن المافيا تحكم إيطاليا، وأنه آن لقضاة إيطاليا أن يحرروا بلدهم من الفساد والطغيان، وبدأت أشهر محاكمات في تاريخ إيطاليا أوصلت رئيس إيطاليا يومها إلى السجن قضاة مصر الآن يتحدثون بالإيطالية!

الثمان

كان المشهد مذهلا ومدويا، وقف صديقي في شرفة الفندق لا يصدق نفسه، تطل غرفته على الميدان الرئيسى للعاصمة الرومانية «بوخارست»، في هذا الصباح الشتوى الذى وضع نوره فى خلايا ذكرااته للأبد، رأى آفا من المواطنين فى مظاهرة عارمة هادرة فى صفوف منتظمة وطواير متراصة يمشون فى اتجاه قصر الرئاسة القريب حيث يسكن ويحكم رومانيا الدكتاتور الأشهر «شاوشيسكو»، وقد وقفت أمامهم جدران بشرية من جنود وعساكر من أجهزة الأمن الرومانية مجهزة بالمدافع والبنادق متأهبة لإطلاق الرصاص إذا صممت الحشود على استكمال الطريق إلى القصر، كانت مخبرات رومانيا وشرطتها مشهورة بسفك الدماء وتعذيب المعارضين وكان «شاوشيسكو» من المستبدين الذين حولوا شعوبهم إلى مجموعات من العبيد وقطعان من الأنعام، فى هذا الصباح الشتوى من عام ١٩٨٩ كان الناس هناك قد اتفلقوا وضجوا من القمع والقهر، وكانوا قد كفروا بالصمت والاستسلام، وخرجت الملايين تنادى بالحرية والديمقراطية، وكانت المظاهرة التى يتابعها صاحبى هى الأولى التى فجرت أنهار الثورة والتغيير، وقفت المظاهرة فى وضع تحدى سافر صامد أمام أجهزة الأمن وواصلت السير فى طريقها أطلق رجال الشرطة تحذيرهم للذى سيقرب خطوة أخرى سوف يضربونه بالرصاص، أندروا وحذروا، لكن الحشود واصلت المسيرة فأطلقت قوات مكافحة الشغب الرصاص على المتظاهرين، مئات البنادق تضرب آفا من الرصاصات، سقط الصف الأول من المتظاهرين ميتا نازفا دماءه غارقا فى بحر من الدم، الغريب والمذهل كما يحكى صديقى أن المتظاهرين لم يهربوا، لم ينفضوا، لم يجروا ويبعدوا، العكس هو ما جرى، واصلوا السير نحو قصر الرئاسة فإذا بالأمن

يطلق دفعات جديدة من الرصاص فيسقط العشرات من القتلى في دماهم فلا يتراجع المتظاهرون يعبرون جثث زملائهم ويواصلون التقدم في المظاهرة فيطلق رجال الأمن الرصاص على الصف الثالث فيسقط العشرات موتى وجرحى لكن زملاءهم يواصلون السير يعبرون الجثث ويمضون نحو القصر الرئاسى، بعد دقائق كان الميدان قد تحول إلى أعظم مشهد إنسانى تعبيرا عن طلب الديمقراطية والرغبة فى الحرية، أسقط رجال الأمن بنادقهم وأدركوا أن الشعب قادم وقادر وأن الحشود المتظاهرة مستعدة أن تموت من أجل حريتها، فاستسلمت الشرطة ووصل الشعب إلى قصر الرئاسة وأسقطوا الدكتاتور «شاوشيسكو» من على مقعد الرئاسة وأعادوا رومانيا للرومانيين!

التفت صديقى لى بعد أن أنهى حكايته وسألنى : تفكر هل عندنا مواطن واحد مستعد أن يموت من أجل الديمقراطية؟ رددت عليه بأننى لا أعرف، لكن من المؤكد أن لدينا من هو مستعد ليقتل من أجل الدكتاتورية!

الفراعنة

دخلنا أربع حروب وانهزمتنا في ثلاث ومع ذلك نصر أننا الأقوى والأعظم والأبسل والأفضل وفي رباط ليوم الدين (كمان).

نؤكد دائما أننا حاربنا من أجل فلسطين وضيعنا أولادنا وثرواتنا من أجل فلسطين والحقيقة أننا بعون الله ضيعنا أنفسنا فعلا وضيعنا فلسطين نفسها ففي حرب ١٩٤٨ والتي سميها النكبة كنا نزعم أننا أقوى جيش عربي في المنطقة ومع ذلك ضيعنا نصف فلسطين بعد هزيمة أمام جرايع وعصابات إرهابية صهيونية، وفي حرب ١٩٦٧ والتي سميها نكسة وهي البنت الصغرى للنكبة وكنا نتوهم أننا أقوى جيش عربي وضيعنا نصف فلسطين الباقية وهي قطاع غزة الذي كان تحت أيدينا وضيعنا بالمرّة سيناء التي كانت قد ضاعت في حرب ١٩٥٦ والتي سميها انتصارا، هل هناك ضحك على الذات أكثر من ذلك، هل هناك نفخ في قدراتنا وقوتنا لأكثر من هذا!

هنا بالضبط تكمن مشكلتنا كشعب ينافق نفسه ويتعاشى على الوهم وينسى ثغراته وعميوبه وهزائمه فلا يناقشها ولا يغيرها ولا يتمرد عليها ولا يثور ضدها بل نحن نتحايل على الواقع بأن نؤلف واقعا آخر في أذهاننا ونهرب بخيالنا بعيدا عن الحقيقة ثم نصدق الجنون على أنه عقل والهبل على أنه لؤم والهزيمة على أنها نصر! هذا لا يعنى أبدا أننا شعب بلا مميزات أو أننا أمة بلا قوة هو فقط يعنى أننا شعب من المنافقين، فنحن الأمة الوحيدة التي حكمها عبيد ومماليك عشرات السنين ثم لا يشعر بالحنج ولا العار أبدا من يعين ألبانيا أجنيا ليحكم مصر ثم يقول عنه إنه باني مصر الحديثة ثم يتجاهل هذا العار كله وكأنه لم يحدث ويستمر الشعب في نفاق لا يتوقف منذ قرون فنحن نفاق مديرنا ونفاق حاكمنا ونفاق

أفلسنا ونافق على روحنا ونؤله رئيسنا ونمجد ذواتنا فنسقط في الضعف والهوان
وقلة القيمة وقلة الحيلة ونضرب على قفانا ومؤخراتنا من القريب والغريب فلا
نتحرك ولا نرفض ونتعامل مع هذا الواقع على طريقة الذى طفحت المجارى أمام
بيته وامتلأت بالقرف والبرك فبدلا من أن يطلب من المسؤولين القيام بدورهم
وتنظيف المنطقة من المخلفات والفضلات وبدلا من أن يثور على القذارة وبدلا من
أن يجمع سكان الحى كله للمظاهرة ضد التسيب والإهمال فإنه يلجأ إلى التعايش
مع القبح والدمامة والقمامة، يضع قوالب طوب على مياه المجارى كي يعبر فوقها من
بيته لقلب الشارع وخلاص تضى الحياة المعفنة طبيعية حيث يتعود عليها ولا
يتدمر ضدها، هذا هو ما يحدث كل يوم فى مصر من مجارى السياسة
والاقتصاد وتزوير الانتخابات والبطالة والطوارئ والفساد وفشل التعليم وانهيار
الصحة، يمشى المواطن المصرى على قوالب الطوب فوقها ليعبر إلى طريقه بلا
تدمر ولا تمرد ولا رفض ولا معارضة بل رضا بالمقسوم وانحاء بالظهر لأى سيد
أو مسؤول ليركب!

نقول على أنفسنا إننا شعب مسلم بينما كل يوم ابن يقتل والده وزوج يقتل
أطفاله وزوجة تسلق زوجها بالاتفاق مع عشيقها، من يتأمل معارك الشوارع
اليومية فى المرور ويرى صراعات وحناقات سائقى السيارات بما فيها سيارات
بمليون جنيه يدرك أننا لا مسلمين ولا نبيلة بل نجرح ونضرب ونسب ونلعن، بل
نحن الشعب الوحيد فى العالم تقريبا الذى يفسر عبارة فلان رجل طيب بمعنى أن
فلانا رجل أهبل!! فمن أين جاءت إشاعة أننا شعب مسلم، جائز تكون حقيقة
فى حياة وتاريخ سابق لكن الآن نحن لا مسلمين ولا هباب، حتى شحاتين
إشارات المرور أو بائعى الحاجات الساقعة على الكورنيش وموظفى شبائيك تذاكر
السينما كلهم يتميزون بخشونة فظة وغريبة، ولن أتحدث عن ضباط التعذيب وما
يحدث فى السجون والمعتقلات بل وأقسام البوليس من معاملة حقيرة للمواطن
بكل عنف وقلة أدب فهل هناك ضابط من شعب طبيعى عندما ينتزع اعترافا من
متهم يقوم ينفخه من فتحة شرجه، وتقول لى مسلم!! ثم كيف نكون شعبا مسلما

ونحن نعيش بقانون طوارئ من أربع وعشرين سنة متتالية بل ومن ثلاثة وخمسين عاما (باستثناء شهور!!) نحن لسنا شعبا مسالما بل شعب خانع خاضع للرئيس، شعب محمته أن يتذلل لرئيسه ويعبد حاكمه ويفرعن في فرعون حتى لا يجد فرعون المتفرعن من يرده عن فرعونته!! بل تمدى الشعب المصرى بمسالته (التي هى خنوع) ففرعن فرعوننا فرعونة لم يتفرعنها فرعون من قبل ولا بعد!

لكن هذا كله لا يعنى أبدا أننا شعب خامل أو محزوم بطبيعته بل يعنى أننا لا بد أن نقوى ونتقوى ونعالج أخطاءنا ونتجاوز أمراضنا كي نكبر ونعلو ونأخذ دورنا فى طاوور الحضارة، لقد قدمت مصر تاريخا عظيما من الانتصارات والانكسارات، وكنا دولة رائدة ودولة كبرى فى المنطقة وها نحن صغرنا وتضاءلنا وتراجعنا بفعل وفضل استبداد رؤسائنا من ١٩٥٢ وحتى الآن وتغير شعبنا من حيث جيناته الوراثية وكبدته وكليته وعقله ووعيه متأثرا بالاستبداد والديكتاتورية والفساد المستمرين حتى اليوم، وخرج من المواطن المصرى بفعل وبفضل الرؤساء المتألهين والحكام المقدسين أسوأ ما فيه من طباع ذل وخوف ونفاق وقد آن الآوان لجيل جديد أن يتمرد على ما وجد عليه آباءه حيث يعبدون فرعونهم من دون الله ومن تملق ونفاق وكذب على النفس الى حياة حقيقية نعرف فيها مشاكلنا كي نحلها وليس كي نضحك على أنفسنا بأن العدو الإسرائيلى هزمننا فى ستة أيام بينما نحن هزمناه فى ست ساعات، يا كذابين يا ضلالية، حتى نصر أكتوبر الرائع عايزين تقلبوه نفاقا فى الذات ونفخا كذوبا فى الحقيقة على طريقة أن الحرب التى استمرت ١٦ يوما وأعدت جزءا من أرضنا المحتلة استمرت ست ساعات فقط خلصنا فيها على إسرائيل بل وحاربت معنا الملائكة!!

وهو بالضبط ما تجد صداه فى الكلام الفارغ الذى يشيعه دكتور زغلول النجار عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم مجرد أن يخدع النفس المسلمة بقوة زائفة تواجه قوة العدو الحقيقية، وقوة الغرب المهيمنة، والحقيقة أن المسلمين الأوائل لم يخترعوا الأسلحة الحربية عن طريق آيات قرآنية تقدم معادلات رياضية، ولم يتوصلوا للتقدم فى العلم والطب عن طريق سور وآيات فى الكيمياء، بل نفذوا ما

حرضهم عليه القرآن الكريم وأمرهم به وهو تشغيل العقل والعمل وليس الجلوس أمام كاميرات التلفزيون والاستهبال الفكرى بادعاء أن كل تقدم علمى أحرزه الغرب موجود عندنا فى القرآن، طيب لو موجود يا فالح لماذا لم تكتشفه أنت بسلامة عقلك، إذا القرآن الكريم يحتوى إعجازا علميا فممكن تطلع لنا من آياته كيفية صناعة قنبلة نووية أو وسيلة طبية لمعالجة فيروس سى!!
هذه كلها صور من الضحك على النفس ونفاق الذات وتثيم الناس حتى يستمروا فى تخلفهم وضعفهم يمشون على قوالب طوب وسط الجارى!! إف!!

يستاهلوا

أول ما اسمع كلمة مبايعة أو أقرأها في يافتة في شارع أو جورنال أو تصريح مسؤول حكومي أشعر أننا أمام وطن أهبل، يبيع نفسه وشرفه وضميره مبايعة لحاكمه ورئيسه كمن يوقع على عقد مبايعة طرف أول للطرف الثاني (الرئيس) أن يأخذ الوطن بما فيه تحت أمره وتحت إبطه!!

وعندما تكتشف أننا آخر عبيد وأرقاء وجواري على الأرض يملكنا حكامنا ويملكوا أن يفعلوا فينا ما يشاءون، وأننا في مصر مثلا الشعب الوحيد على الكرة الأرضية الذي يهتف لرئيسه بالروح والدم نفديك، بينما في كل الدنيا الرئيس هو الذي يفدى الشعب لكن تعمل إيه بقى في شعب متربى على العبودية ومتعلم على قفاه من الطغيان، أكاد أرى وزراء ونوابا ورؤساء تحرير الصحف الحكومية كأنهم يخرجون كل يوم الصبح من معبد كهنة فرعون ليسجدوا له من دون الله باعتباره ربهم الأعلى، ومهمتهم بعد السجود للحاكم هو الركوب على الناس بالنفاق والانتهازية والنهب والتهليب! ولا يمكن أن نبرأ شعبنا مما وصلنا إليه من مأساة ومسخرة.

فهذا الشخص التعبان العيان بفيروس سى الذى يشتريه الحزب الوطنى بعشرين جنيا كى يهتف بروح أمه ودمه للمبايعة يستحق فعلا ألا يجد قوت يومه ويصرف على عياله من بيع نفسه أو بيع عياله طالما ارتضى أن يؤجر ضميره ووعيه، إنهم يقفون فى المظاهرات متحمسين جدا وملهوفين وعرقائين يهتفون للرئيس ويشتمون فى المتظاهرين ضد التجديد والتوريث وهم لا يجدون ثمن كيلو اللحم فى الشهر ولا يملكون ثمن جزمة لعيدل من عيالهم فى المدرسة ومع ذلك فإنهم يتصلبون بمنتهى القوة والبلطجة ضد من يريد تغيير حياتهم إلى الأفضل، أليس هؤلاء الموظفون الأغبياء الذين يندفعون وراء ضابط المباحث يلبنون نداءه

أو يلتفتون حول الصراف الذى سيصرف لكل واحد فيهم العشرين جنيها آخر المظاهرة؟! ألا يستحق هؤلاء أن يقبضوا آخر الشهر مرتبا لا يكفى لشراء بامبرز رخيص لطفلته الرضيعة؟! والستات التخينة التى تمسك بالحلل وتؤجر المرأة منهن صوتها للمخبر أو الأفندى بتاع الحزب تستحق فعلا ألا تقدر على سداد أجر الدرس الخصوصى لبتها فى سنة أولى إعدادى، الموضوع ليس جمل هؤلاء بمصلحتهم بل الأصل أن هؤلاء البسطاء والمهمشين يحملون نفسية خدم السلطان ويمتلئون حتى خياشيمهم بروح العبيد وهو الذى يجعل من تنظيف مجهم مسألة عسيرة حيث يقفون طول الوقت ضد مصلحتهم ويدافعون طول الوقت عن الذين يستعبدونهم ويدلونهم ويفقروهم، تماما مثل عساكر الأمن المركزى الذى لا يكاد يعرفون شكل اللحمة ويعانون هم وأهلهم من فقر مدقع ومع ذلك فاليه الضابط بالنسبة لهم النبى الممدى وسيدهم وإلاهم ومستعد أى عسكري منهم أن يضرب مواطنة حامل فى التاسع تقف بين المتظاهرات لو أمره البيه الضابط، البيه الضابط نفسه الذى لا يستطيع أن يتزوج إلا لو دفع له أبوه ثمن الشبكة والشقة هو نفسه الذى يرى أن المتظاهرين شوية كلاب وعملاء بتوع سياسة ولازم يتربوا ويضربوا، مارلت أذكر عددا من زملائنا فى مؤسسة صحفية رسمية وقد احتشدوا فى قاعة نقابة الصحفيين للاعتداء والتحرش وضرب أى زميل يطالب برحيل رئيسهم الذى يجلس على مقعده من خمس وعشرين سنة ويتعامل معهم كما يتعامل الباشا مع العبيد وحول نفسه إلى حاكم بأمر الله ويعصف بهم ويحاسبهم حتى على أحلامهم، هؤلاء أنفسهم يدافعون عن المكافأة التى يقدمها لهم مثل الفئات على مائدة بدلته ومكافآته وعمولاته، فإذا بهؤلاء هم الذين يخوضون حربا دفاعا عنهم يسرقهم ويذلهم ضد من يحاول أن يرفع عنهم الخراء، ماذا تقول فى هذه الفئة وذلك القطاع (القطيع) الذى يرفع شعار اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش (الحرامى اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش) أو وهو مين ح يجي غيره وياعم دول ناس واصلة وقادرة وبالروح والزفت نضديك يا فلان!! نحن مسؤولون عن ضياع بلدنا تحت قهر حكماها وليس فى هذا أى تعسف

ولا جلد ذات ولا صدمة لمشاعر أحد بل هو كلام يستند إلى العلم الصريح الفصيح، يكفي أن أقتبس من دراسة عن سيكولوجية الاستبداد للدكتور محمد المهدي أستاذ الطب النفسي بالأزهر الذي يقول: (أما المستبد بهم (المقهورين) فيمكن أن يكونوا أناساً ذوي سمات متباينة ولكن يغلب أن يكون لديهم سمات ماسوشيه -التلذذ بتعذيب النفس - بمعنى أن لديهم ميلاً لأن يتحكم فيهم أحد وأن يخضعوا له ويسلموا له إرادتهم ويستشعروا الراحة وربما المتعة في إيذائه لهم و إذلاله إياهم، فلهيهم مشاعر دفينة بالذنب لا يخففها إلا قهر المستبد وإذلاله لهم على الرغم مما يعلنون من رفضهم لاستبداده، وهؤلاء المستعبدين ربما يكون لديهم معتقدات دينية أو ثقافية تدعوهم إلى كبت دوافع العنف وتقرن بين العنف والظلم وتعلو من قيمة المظلوم وتدعو إلى التسامح مع الظالم والصبر عليه وترى في ذلك تطهيراً لنفس المظلوم من آثامه.

والشخصيات المستعبدة لديها شعور بالخوف وشعور بالوحدة لذلك يلجأون إلى صنع مستبد ليحتموا به ويسيروا خلفه ويعتبرونه أباً لهم يسلمون له قيادتهم وإرادتهم ويتخلصون من أية مسؤولية تناط بهم فالمستبد قادر على فعل كل شيء في نظرهم، وفي مقابل ذلك يتحملون تحكمه وقهره وإذلاله ويستمتعون بذلك أحياناً.

إذن فالمستبد ليس وحده المسؤول عن نشأة منظومة الاستبداد ولكن المستعبدين (المستبد بهم) أيضاً يشاركون بوعي وبغير وعي في هذا على الرغم من رفضهم الظاهري للاستبداد وصراخهم منه أحياناً. ولا تزول ظاهرة الاستبداد عملياً في الواقع إلا حين تزول نفسياً من نفوس المستعبدين حين يتحرروا نفسياً ويرغبون في استرداد وعيهم وكرامتهم وإرادتهم التي سلموها طوعاً أو كرهاً للمستبد، حينئذ فقط تضعف منظومة الاستبداد حتى تنطفئ، وليس هناك طريق غير هذا إذ لا يعقل أن يتخلى المستبد طواعية عن مكاسبه من الاستبداد وبخاصة وأن نمط شخصيته يدفعه دفعاً قوياً للمحافظة على تلك المكاسب الهائلة. وإذا رأينا المستعبدين (المستبد بهم) ينتظرون منحهم الحرية من المستبد فهذه علامة

سذاجة، فقد أثبتت خبرات التاريخ أن الحرية لا تمنح وإنما تسترد وتكتسب.) انتهى كلام دكتور محمد المهدي الذي يشير كعالم إلى أن المستبد لن يتخلى طواعية عن مكاسبه من الاستبداد ومن ثم نرى ما يحيط بنا في الوطن العربي كله يسكعنا بهذه الحقيقة في وجهنا فعندك مثلا الرئيس السوداني الذي قرر إلغاء تحديد مدة الرئاسة التي كانت مدتين فقط (عشر سنوات!!) لتصبح بعد استفتاء من إياهم مفتوحة للأبد (ربما حتى يكبر نجل الرئيس!!) وكان الرئيس التونسي «زين العابدين بن علي» الذي وضع في دستور بلاده نصا بتحديد مدة الرئاسة بثلاث فترات فقط ومنع أي مرشح فوق السبعين من عمره من تولي الرئاسة عاد وقرر إجراء استفتاء (من اللي وصى عليه قراقوش!) يفتح توليه منصب الرئيس للأبد (لغاية ابنه ما يكبر يمكن!!) وينكص على عقبيه من أي التزامات سابقة، وكان الرئيس الراحل أنور السادات هو أول من بدع فتح مدد الرئاسة في استفتاءات نبوية (نسبة إلى السيد النبوي إسماعيل!) ولم يكتب له القدر التمتع بدكتاتورية مقننة ومستفتى عليها فالواقع أن فتح مدة تولي الرئاسة ضد كل الأعراف والمواثيق والديساتير الديمقراطية بل هي في الحقيقة استفتاء على جعل رئيسك أبديا ومن ثم دكتاتورا محتكرا لمقعده ومنصبه ثم يحتقر (بعد ناصيتين ثلاثة من مشواره في الحكم!) جمهوره ومواطنيه وشعبه، ويصبح رئيسا لإلهيا وليس حاكما بشريا! وها نحن نرى إصرار الرئيس على عدم تعديل المادة ٧٧ في الدستور التي تسمح بأبدية الحكم مدى الحياة وحياة الأجيال كذلك!

وهناك نموذج الرئيس السوري الراحل «حافظ الأسد» الذي جلس على العرش ثلاثين عاما حتى مات (هو وليس العرش) وترك الرئاسة لولده (كأن سوريا شركة أقمشة أو محل خردوات!!) مع تغيير الدستور في ربع ساعة أي في خمس عشرة دقيقة بل ربما نافس الأمر هدهد سليمان الذي جاءه بعرش بلقيس قبل أن يرتد رمشه!

أما الرئيس الليبي معمر القذافي فقد عمر في الحكم حتى أوشكت ليبيا أن تعود مملكة وهو ما يجعل أسرة الملك الخلوع السنوسي أولى بعودتها إلى عرش ليبيا

فهي الأسرة المالكة وهي أحق وأحكم من الأسرة الحاكمة!!
ثم خذ عندك احتفالات الرئيس العراقي الراحل الذي لو كانت هناك مدة
محددة لحكمه وانتخابات نزيهة للرئاسة واحترام للدستور لمضى غير مأسوف عليه
بدون غزو ولا حرب ولا عدوان، كان صدام حسين يحتفل بعيد ميلاده (وهو
غير عيد توليه العرش الذي هو عيد ميلاد الوطن طبعاً!!) وذلك في عز أزمة
وحصار وخنق الشعب العراقي تنتصب التايل وتقرد الصور وتعلق الأهازيج
وتنزل إعلانات التهاني والمبايعة وتكتب افتتاحيات الصحف عن عيد ميلاد القائد
وإنجازاته ومعجزاته في الحرب والسلام! (ألا تلاحظ معي أن كل حكامنا العرب
أبطال في الحرب والسلام!؟) وكان يمهد لولديه حكم العراق حتى جاء حكم القدر!
ولم أتحدث عن اليمن من باب هيه جت عليهم وهاهو الوطن العربي يستبدل
الأسرات المالكة بأسر أيضاً ولكنها الأسرات الحاكمة حيث يحكم الآباء والزوجات
والأبناء وقريبا الأحفاد (وربنا يقصف عمرى قبل أن أرى الأحفاد!!) يحكمون
البلاد في ظل استفتاءات مزورة وانتخابات وهمية ومجالس نيابية منافقة وكاذبة
وأحزاب عميلة ومباحثية وقوانين خادعة وصحافة قوادة وعاهرة وشيخوخة حاكمة
فاسدة!

نعم لن يستغنى المستبدون عن مقاعدهم أبداً إلا للمستبدين الصغار من عيالهم
فالحاكم يصاب بفعل نفاق من حوله وخوف من تحته بحالة من جنون العظمة
بحيث لا يتصور أنه يخطئ أبداً ويرى في نفسه من أثر نفاق الصحافة ونفخ الإعلام
وتدلل الساسة وتعبد المسؤولين، أنه إله ونبي ملهم ويوحى إليه و الحاكم يخشى إذا
ما رحل عن مقعده أن يحاسبه من يخلفه أو يحاسبه شعبه على فساده هو وأسرته
وأولاده (وربما جيرانه!!) ويخرج من القصر إلى السجن..ومن كرسى الحكم إلى
حبل المشنقة! ثم إن الحكام السابقين له فعلوا ذلك وبقوا في الحكم حتى ماتوا وهو
ليس أقل منهم بل هو كما يقرأ في افتتاحيات صحف بلاده كل صباح وتلك التي
تهنئه بعيد ميلاده! أعظم وأحكم!! وشمس لا تغيب ونور لا ينطفئ وخالد لا
يموت... توت توت!

كرهتونا في القضية!

اضطجع عمرو موسى وقال لا فض فوه في مواجهة لورا بوش في المنتدى الاقتصادي بالأردن هذا الأسبوع إنه لن يوجد في الوطن العربي ربيع ولا خريف ديمقراطية لو لم تحل القضية الفلسطينية، فصق الحاضرون العرب ومن المؤكد أن عمرو موسى فرح خالص بنفسه واطمأن على استقرار مكانته في قلب شعبان عبدالرحيم لكن المؤسف أن هذا الرجل نفسه كان وزير خارجية مصر سنينا ثم لا يزال أمينا عاما لجامعة الدول العربية بينما لم نره يحل هو بقوته وقدرته البلاغية القضية الفلسطينية، بل هو يطالب الأمريكان أيضا بأن يحلوا القضية الفلسطينية، كويس والله، وحضرتك بتعمل إيه؟ بقي أنت والزعامات التي تمثلها والدول التي ترأس جامعتها، ما تورونا شطارتكم، يعنى القصة كلها خلصت بأنك تطالب أمريكا بحل مشكلة فلسطين، طيب ما أنا وعم صاوى بواب العمارة عندى ممكن نطالب أمريكا بكده، إيه بقى الذى أضافه تدخل سعادتك، الحقيقة يا سيادة الأمين أن ربيع الديمقراطية في الوطن العربي موجود فعلا وظهر حقا وكونك موظفاً رسمياً وتتقاضى مرتبك من دول ديكتاتورية وزعماء مستبدين طبيعى ألا ترى هذا الربيع الذى يصنعه مناضلو العرب وليس بتعليمات الأمريكان فتعليمات الأمريكان تمشي على حكام جامعتك لا علينا، ثم نحن لم نسمع منك كلمة ولم نر لك موقفا تواجه فيه حاكما من الذين تعمل معهم مطالباً بحل قضية الاستبداد والفساد في وطنه ولم نجدك يوماً معبرا عن آمال الناس في ديمقراطية حقيقية وانتخابات نزيهة ووطن غير منافق وحكم غير أبدي، لم نعهدك يوماً أو حتى ساعة منتصرا لسجين رأى في السعودية ولا مدافعا عن حقوق إنسان للمعتقلين من الإخوان في مصر ولا شفنا عليك ملامح غضب لسراييب سجون ممتلئة بالمعتقلين في سوريا، وجامعة الدول

العربية أساسا شيطان أخرس وشاهد متواطئ على كل ما يحدث من استبداد
وقمع وكأن المواطن العربي ليس من مهمة جامعة الدول العربية ونحن نعرف أنها
كيان شكلى وهى صنعه الاستعمار و أنها هيئة دبلوماسية منتمية للحكومات
وليس للشعوب ومع ذلك كنا نظن أنك سوف تكنفى بالعرض المسرحى المعتاد فى
الدفاع عن سياسة حكام جامعتك بعيدا عن تعليق حدوث ديمقراطية فى الوطن
العربى بحل القضية الفلسطينية، يا أخى كرهتوا أهلنا فى القضية الفلسطينية فأنتم
لم تحلوها بل ضيعتموها ودمرتموها وبعدين نيجى نقول إصلاح وديمقراطية نقول حل
قضية فلسطين، هوه فيه حد قال لحضرتك إننا اللى محتلين فلسطين، أنا هنا
جنبك فى الجيزة!!

مع مصطفى النحاس!

هل كان أحد من الحكومة ستهتز شعرة في رأسه أو يتحرك سنتيمتر واحد من ضميره ضد انتهاك حرمان المواطنين والضرب والاعتداء على المتظاهرين في شوارع القاهرة لو لم يكن سيدهم وسر بقائهم على مقاعدهم جورج بوش قد أعلن غضبا على ما فعله الحزب الوطنى وقواده (جمع قائد) وضباطه ووزير داخليته، الهام فى مصر تلك، التى يموت فى سجونها المتهمون وتغتصب أمام ضباطها النساء، أمام العالم كله وفى مؤتمر صحفى مخصص للقضية الفلسطينية، غضب جورج بوش من صديقه الرئيس المصرى على ماجرى للمتظاهرين وللديمقراطية وحرية الرأى فى يوم اسم الله عليه الاستفتاء التاريخى والجغرافى بتاع أنس الفقى وسمير رجب، واحتج البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية على انتهاك الحزب الوطنى وحكامه لحقوق الإنسان (بالمناسبة لماذا لم تسمعنا أمانة السياسات الصلاة على النبى فى هذا الموقف وهؤلاء ثقال الظل الذين صدعونا بالكلام عن حقوق المواطنة، أم أنها حقوق الموافقة؟!!!) لقد رفض المجتمع الدولى -حتى التويخ والتعنيف- ما أقدمت عليه أحمزة أمن الغباء السياسى فى مصر وصارت الفضيحة معرضة للتصاعد مع مطالبات من منظمات عالمية بمحاكمة وزير الداخلية والتحقيق مع مسؤولى الحزب الوطنى المتورطين فى هذا الانتهاك!

فؤجئنا بأن الحكومة ترد وتتلثم فى النفى واللف والدوران والملاوعة والتلاعب كالعادة ومحاولة التكتيم والتفجيل وتليبس المعارضين تهمة ضرب أنفسهم، وتأمّر جمّات التحقيق بالثبّت من الواقعة واستدعاء الشهود، إذن لم تتحرك الدولة وتغير مواطنيها المضروبين والمنتهكين أى اهتمام باعتبار أنهم كلاب يرفضون سيدهم وتاج راسهم وزعيمهم وصاحب الطلعة الجوية، إلا حينما نطق جورج بوش

وأدان أمر وتأمرو..

هل معنى ذلك أن نخرج نحن ونطالب بوش بعدم التدخل حتى يترك للسادة الحكام حرية ضربنا بالجزمة ضربا وطنيا سياديا بدون تدخل أجنبي!!؟
هل معنى ذلك أن ندين تدخل بوش وأمريكا وأوروبا ونقولهم ابعدوا أتم حكامنا ويغتصبونا، مال أهل اللي خلفكم؟!!

الحقيقة أن رفض تدخل المجتمع الدولي في محزلة انتهاك الحرية والديمقراطية في مصر ووقائع الاستبداد والديكتاتورية وأبدية الحكم وتوريث الرئاسة، ورفض التدخل الإنساني والسياسي والدولي هو مراهقة سياسية كاملة ورعب أرعن من فكرة الاتهام بالموالاة أو العمالة للغرب، فالمؤكد أن قوى المعارضة في مصر تطالب بالديمقراطية الحقيقية من قبل أن ترفع أمريكا يدها أو تزعم ذلك عن المتبدين العرب والذي لاشك فيه ولا لبس حوله أننا نعارض هذا الحكم الفاسد من قبل جورج بوش والمحافظين الجدد ما نسمع عنهم أساسا، والحاصل أن معظم معارضى الحكم في مصر من اليسار والايخوان المسلمين وهؤلاء لم يكونوا في يوم من الأيام من طائفة الموالين لأمريكا على الإطلاق!! بل إن اتهامات العمالة لأمريكا لاحقت حتى ثورة يولية وترددت هذه التهم في كل كتب التاريخ الحديث طعنا في ثورة يولية ورجالها، ثم التصقت التهمة بنظام الرئيس أنور السادات رحمه الله وشم بات واضحة كالشمس منذ السفر السنوى للبيت الأبيض في رحلات الإيلاف في الشتاء والصيف لطرق وخبط الأبواب!!

إذن نحن لا نستجيب لأمريكا حين نطالب بحرية وديمقراطية بلدنا والتنازل عن الحكم الأبدى والوراثي، بينما حكامنا هم الذين يستجيبون لأمريكا ليل نهار، بل لم ينطق واحد منهم بكلمة الإصلاح السياسي ولم تلمس طرف شفثيه قبل أن يقولها جورج بوش!! وكانت الاسطوانة الصفيقة بتاعة أزهي عصور الديمقراطية ولم يقصف قلم ولم تصدر صحيفة والإشراف الكامل (بالذمة كامل يا فسدة!!) هي السائدة في الخطاب الرئاسي والوزاري والصحفي والحكومي!! ثم تراجعوا وبدأوا يتحدثون عن الإصلاح التدريجي والنضج التدريجي والألعاب المعروفة التي

يرددونها أمام الأمريكيان تنازلا وتراجعا أمام الضغط الأمريكي!!

ثم لو جاءت الولايات المتحدة غدا وأعلنت رضاها عن مبارك وحجبا المتفاني له ولنظامه وتحالفت مع الحكم المستبد ورضيت به ودعمته ساعتها لن يتخلى المعارضون عن معارضتهم للنظام ولن يتحول المعارضون لزفة تأييد ومبايعة، إذن الموقف الأمريكي ليس هو الدافع كي نعارض حكم الاستبداد بدليل أننا نعارضه قبل أن يزعم الأمريكيان غضبهم عليه، والموقف الأمريكي ليس شرطا كي نستمر في معارضة حكم التأييد والتوريث بدليل أن الأمريكيان لو عادوا وتحالفوا مع استبداد الحكم في مصر فلن تصمت معارضتنا ولن نمشي في موكب النفاق والمبايعة!

إذن يصبح توافق الغرب مع المطالب الوطنية المصرية أمرا لا يضير ولا يهين ولا يلوث المعارضة والمعارضين على الإطلاق، وهو يشبه في المنهج والنظرة العامة موقف ٤ فبراير ١٩٤٢ وهنا سأعود الى سطور كتبها عام ١٩٩٧ في الإصدار الأول لجريدة الدستور (ولم يكن جورج بوش الابن موجودا على الساحة أساسا وكانت أمريكا واحدة النظام المصري في حضنها أخذ العشيق، لاداعي للعشيق، أخذ الرضيع) كتبت وقلت:

لم يكن مصطفى النحاس يدرى وهو يضع سماعة التليفون يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ وينهى مكالمة مع السفير البريطاني في القاهرة، أنه يضع علامة استفهام سوف تصادفنا وتلاحقنا أينما كنا في أئى زمن أو تاريخ. لقد حاصرت القوات الإنجليزية قصر عابدين وأطبقت على صدر الملك فاروق وخيرته بين أن يوافق على تكليف حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس بتشكيل الوزارة وإدارة البلاد أو أن يتنازل الملك عن العرش وانقبضت قلوب كثير من المصريين الذين اعتبروا حصار الملك بالدبابات الإنجليزية اعتداء على كرامة وسيادة مصر ثم رفع كثيرون كذلك سيوفهم وسهامهم ضد مصطفى النحاس الذى قبل أن يأتى على مقعد الوزارة بهذه الطريقة الاستعمارية الغاشمة التى داست بالأحذية العسكرية الثقيلة على كرامة وسيادة هذا البلد وتدور عجلة التاريخ ويستمر الجدل دائما بين الذين دافعوا عن مصطفى النحاس وقبوله الوزارة والذين اتهموه وطعنوا فى وطنيته أثير

ويثار حوله وسأفكر ماذا لو حدث اليوم؟ ماذا سيكون موقفنا؟ بمعنى أوسع (لأن المعنى الأضيق خطر) ماذا لو تدخلت قوى أجنبية أو دولية للضغط على زعيم عربي من أجل فرض الديمقراطية في وطنه واحترام رأى الأغلبية يعني يفرض قوى الديمقراطية في وطنه واحترام رأى الأغلبية يعني تفرض قوى دولية عقوبات دولية على سين من الزعماء لأنه يزور الانتخابات أو تقطع عنة المعونة لأنه ينتهك حقوق الإنسان أو أن تحاصر البوارج والقطع الحربية سواحل دولة ما من أجل أن تفرج عن المعتقلين ظلما وبهتانا الذين ألقاهم ديكتاتور في السجون؟ سوف نواجه نفس أسئلة ١٩٤٢ وسيعتبر البعض أن مصطفى النحاس قدوة حسنة حيث قبل أن تساعد دولة أجنبية في مواجهة ملك فاسد غاشم تجرأ على أمته وأسقط حزب الأغلبية الكاسحة وسبقيل أن يتولى الوزارة لأن الديمقراطية والحرية واحترام وإرادة الشعوب أهم من بعثرة كرامة ملك أو حاكم ديكتاتور يستخف بأمنه وشعبه وأن الحصول على حق الأمة بمساعدة الشيطان أمر أعظم كثيرا من التمسك بسيادة الديكتاتور على أرضه وسيرفض الكثيرون أى تدخل أجنبي لصالح فرض الديمقراطية في وطن،..... طيب ماذا لو تطابقت رغبة القوى الدولية مع رغبة القوى الوطنية في الإطاحة بديكتاتور أو فرض الديمقراطية على حاكم معين هل تتحالف القوى الوطنية مع الدولية من أجل ذلك دون النظر لأوهام السيادة الوطنية؟. مصطفى النحاس قال آه.. حضرتك تقول إيه؟، انتهت الفقرة والفكرة التي كتبتها منذ ثماني سنوات وأزيد، ودعونا الآن وقد استحضرننا الموقف في ٤ فبراير ١٩٤٢ نسأل ماذا قال الزعيم النحاس (أين نحاس هذا الزمان يارب؟) يروي النحاس باشا في شهادته التي نشرها الصحفي صبرى أبوالمجد في موسوعته مصر سنوات ما قبل الثورة، كيف ألح عليه الزعماء، مجتمعين في سراى عابدين، ليقتبل وزارة ائتلافية كنوع من التضحية، وكيف رفض تأليف تلك الوزارة؟ ويرد النحاس على قول بعض الزعماء: "إن الإنجليز يريدون وزارة فيها النحاس، إنتى أرفض ذلك".

فقلت لجلالته: "يجب أن أصارحكم بحاجة وهي أن الاحتجاج (ضد الإنجليز) كويس ولكن يمكن يؤذى البلد، والعرش، ويمكن أن يكون نكبة على العرش، وعلى شخص جلالتم".
فقال: "أنا كل شيء".

فقلت لجلالته: "أنت في مقتبل العمر، ونحن إلى الفناء وبقاؤكم، على رأس الدولة يفيد البلد كثيرا".

فقال لجلالته: "أنا مآيس ولا أسأل عن نفسي" وأخذ الاحتجاج، وقال لحسين باشا: "بلغ الاحتجاج" وقال لنا: "ابقوا هنا إلى أن يصل الرد" فبقينا في حرج.

وقالوا: "اقبل أن تكون معنا واختار من تختار" فقلت: "لا أقبل ذلك لأن النتيجة أن هذا قبول لرأى الإنجليز، وتنفيذ لأمرهم".
فقالوا: "مادام معنا كلنا لا يعتبر تنفيذاً لأمرهم".
فقلت: "اشمعى لا يكون النحاس مع غيره لا يكون بأمر الإنجليز ولما يكون وحده يكون تنفيذاً لأمر الإنجليز".

وأردت الانصراف فقالوا: "إن جلالة الملك أمرنا بالانتظار فانتظرت".
وجاء الرد خطيراً، وهو أن يبلغ جلالة الملك أن السفير البريطاني سيحضر حوالى التاسعة والنصف إذا لم يعدل رأيه.
وبلغنا حسنين باشا هذا الرد.

وبعد ذلك طلبت مرة ثانية للسراى فى نفس المساء، حوالى الساعة التاسعة والنصف كنت مستعداً، ورحنا ولم أجد الدبابات ولا حاجة فى ساحة السراى والحالة طبيعية.

ولما دخلت وجدتهم مجتمعين وعليهم وجوم فقلت: "ماذا جرى"؟
قالوا: "جاءت الدبابات ثم انصرفت والحالة خطيرة".
فقلت: "هذا نتيجة عملكم لأن هذا كان اندفاعاً بدون حكمة".

وشرف الملك، وقال: "اعتبروا أنه لم يحصل شيء في هذا اليوم وأن كل ما حصل كأنه لم يكن أو هو لم يكن وأنا، أعهد إليك يا نحاس بتأليف الوزارة، ووطنيتك تقتضى أن تستعمل الحكمة فيها".
فقلت لجلالته: "اسمحوا لى أن أقول لى لا أستطيع تأليفها بحال من الأحوال".

فقال: "أمرتك أنا الملك، وآمرك، أن تقبلها".

قلت: "لا أستطيع يا جلالة الملك".

قال: "أنت تستطيع، وتعتبر أنه لم يحصل شيء".

فقلت: "ما هي الظروف التي دعت إلى تغيير الموقف؟"

قال: "آمرك".

قلت: "اسمح لى جلالتك ألا أقبل وعلى الخصوص فقد تعهدنا أنه إذا دعى

أحدنا إلى تأليف الوزارة لا يقبل، ولو كان ذلك من جلالة الملك".

وقال الملك: "أنا صاحب الشأن آمرك!"

قلت لجلالته: "لا أقبل وطلبت معرفة الظروف".

وقال الملك: "لازم تقبل وتؤلف الوزارة الليلة".

وقلت لجلالته: "لا أقدر يا مولاي، أمحلتى للغد أفكر".

فقال جلالته: "لا بد أن تقبل، وتذهب الليلة إلى السفير".

قلت: "مستحيل الليلة"، وكنت أريد أن أستريح لأنى متعب!

وقال الملك: لازم تقبل!

وقال أحمد ماهر باشا: إن قبل يكون على أسنة رماح الإنجليز!

قلت: اخرس، أتم الذين جئتم على أسنة رماح الإنجليز ووصلتم بالبلد إلى

هذه الحالة والنحاس أشرف منكم كلكم.

تصدير واستيراد الديمقراطية....!

ولكن هذا يطرح السؤال الكبير: ماهى مصلحة إنجلترا أقصد أمريكا فى أن

تقوم ديمقراطية حقيقية فى مصر مثلاً؟

أول: لا بد من التأكيد على مشابهة مشهد الحرب العالمية في ١٩٤٢ والخطر الذي كان يهدد إنجلترا بخطر إرهاب ديني مسلح يعادى أمريكا والغرب (الكافر من وجهة نظرهم وليس الاستعماري فقط) وأن وصول الأغلبية الديمقراطية لمصر والوطن العربي ضمانه لأمتهم مثلما كان حال وصول مصطفى النحاس والأغلبية الوفدية الديمقراطية ضمانه لإنقاذ أمن وحياة الإمبراطورية البريطانية، ثانيا: أنا سأفترض أن مصلحة الغرب في نشر الديمقراطية في الوطن العربي هو التحكم في البترول وأنا أسألكم بالله عليكم أليسوا متحكمين فيه الآن مائة في المائة وهل يستطيع حاكم في السعودية أو مصر مخالفة أمر لهم في هذا الموضوع أو غيره؟ ثم سأفترض أن مصلحة الغرب هي ضمانه أمن وآمان إسرائيل، والسؤال ومين في هؤلاء الحكام البغاة الطغاة يستطيع أذى طرف فستان إسرائيل؟ إن بعض حكوماتنا تعمل وسيطا وسمسارا سياسيا بين إسرائيل والفلسطينيين ونظامنا المصري الاستبدادي يحلف يمينا ثلاثة في كل تصريحاته أنه يتقف على الحياد بين فلسطين وإسرائيل، هل هناك ضمانه لأمن إسرائيل أكثر من هذا وأكثر من أن حكامنا يعلنون ثقهم في ارييل شارون، أكثر من كده إيه؟

إذن مصلحة أمريكا والغرب (البترول وإسرائيل مأمونة ومتأمنة تماما) فما الذي يريدونه من ديمقراطية العالم العربي؟ لنسمعهم لأول مرة، يكتب مارجوت لايت في كتاب الأخلاق والسياسة فصلا عن تصدير الديمقراطية يقول فيه :

تقوم الحكومات الغربية بتصدير الديمقراطية، لأنها مؤمنة بأنه من الأسهل التعامل مع الحكومات الأجنبية التي تتقاسم القيم نفسها. من المسلم به أن الدول تتشاطر المصالح جنبا إلى جنب مع القيم. من شأن "نشر قيمنا أن يجعلنا أكثر أمنا، برأى توني بلير، ومن أجل التأهيل لعضوية بعض المنظمات الدولية، يتعين على الدول التي تنشئ مثل هذه العضوية أن تكون ديمقراطية. تبقى الديمقراطية أحد شروط عضوية المجلس الأوروبي، مثلا. والدول الأعضاء في منظمة الدول الأمريكية اتفقت في ١٩٩٣ على "ضرورة تدعيم البنى والأجهزة الديمقراطية، كجزء من الهوية الثقافية لكل من الدول في نصف الكرة الغربي". وقبل أن تتمكن الدول

الجديدة الطامحة إلى اكتساب العضوية من الالتحاق بركب الاتحاد الأوروبي يجب عليها أن تبرهن على أنها نجحت في بلوغ مستوى معايير كونهنغن التي تتضمن "استقرار مؤسسات ضامنة للديمقراطية، لسيادة القانون، ولحقوق الإنسان ولاحترام الأقليات وحمايتها".

تعد القيم الديمقراطية المشتركة بالغة الأهمية، لأن الاعتقاد السائد: هو أن الكيانات الديمقراطية شريكات أفضل. إنها متألفة مع العلاقات القائمة على سيادة القانون، فضلاً عن أن انفتاحها على الصعيد الداخلي ينسر على الشركاء المحتملين محمة اكتشاف مدى وفائها بالالتزامات. برأى توني بلير، مثلاً، "من الأفضل الاستثمار في بلدان متوفرة على الانفتاح، على البنوك المركزية المستقلة، وعلى أجهزة مالية عاملة على أسس سليمة وعلى محاكم مستقلة". وكان الرئيس كلينتون يؤمن بأن البلدان الديمقراطية "شركاء تجاريون أفضل وشركاء في الدبلوماسية". أضف إلى ذلك أن الديمقراطية تشكل قيدا يحول دون حصول التغييرات المباشرة في السياسة والتخطيط.....

ترغب الحكومات في تصدير الديمقراطية، لأنها تعتقد أن الدول الديمقراطية مسالمة أكثر من نظيرتها اللاديمقراطية. وإلى نهاية الحرب الباردة، ظل الاهتمام بالغياب الواضح للحرب فيما بين الدول الديمقراطية الليبرالية محصوراً في المقام الأول بأوساط الباحثين الأكاديميين. ثم ما لبث صانعو القرار السياسي أن بدأوا يهتدون إلى أطروحة السلام الديمقراطي حيث بدت عملية إشاعة الديمقراطية في الدول الاشتراكية السابقة موحية بإمكانية قيام نظام دولي ليبرالي جديد تكون فيه الديمقراطية داخل الدول مصحوبة بالسلم فيما بينها.

ثمة سبب ثالث يدفع الحكومات إلى تشجيع الديمقراطية في الخارج: وتعتقد أن المجتمعات الديمقراطية تكون اقتصادياً أكثر كفاءة من الدول اللاديمقراطية.

وينتهي إلى أنه يتعين على أولئك الذين يستهدفون تصدير الديمقراطية أن يكونوا أقل تناقضاً وتأرجحاً، مثلاً، إزاء أولوياتهم. لا بد للديمقراطية من أن تكون متقدمة على أدوات التخطيط والسياسة الأخرى. إذا كان نمط معين من أنماط

الإصلاح الاقتصادى يؤدي، مثلاً، إلى تفويض أسس الديمقراطية، فإنه من الضرورى المسارعة إلى تعديله وتكييفه، لأن الإصلاح الاقتصادى ليس غاية بذاته، بل هو وسيلة لتأمين مستوى أفضل من الحياة وتمية ديمقراطية مستقرة. يجب قبل كل شيء، أن يتجنب أولئك الذين يرغبون فى تصدير الديمقراطية جميع أنماط الحيل والألاعيب الانتخابية الزائفة. لا بد لهم من أن يبقوا منسجمين مع أنفسهم على صعيد تطبيق المعايير الديمقراطية بعيداً عن المعايير المزدوجة، عليهم ألا يتساهلوا مع التجاوزات، كما عليهم أن يبقوا حريصين على عدم قبول أى شيء على أنه ديمقراطى إلا إذا ارتقى إلى المستوى الديمقراطى الذى يقبلون به لأنفسهم.

متى يتولى وزارة الداخلية رجل يفهم في السياسة؟

لماذا لا يتولى منصب وزير الداخلية في مصر طبيب أو مدرس أو مهندس أو فنان تشكيلي، لا أعرف بلدا في العالم يشترط على الإطلاق أن يكون وزير داخليته ضابط شرطة حالي أو سابق، فالدول المتقدمة كلها تخلو من هذا المبدأ المزرى والمستغرب، بل إن هذه الوزارة تحديدا مجال دائم لاختيار رجال سياسيين لتولى مهمتها ومسؤوليتها فأسوأ ما يمكن أن نشهده في حياتنا أن تكون مهمة أمن المواطن وحرية وحقوقه الإنسانية مرهونة بتصرفات ضابط تعلم طيلة حياته مناكفة اللصوص ومطاردة المتهمين وملاحقة المشتبه فيهم فصار سقف تفكيره ومدى تصوره هو أن الجميع متهمون وعليه إثبات ذلك، كما أصبح قاموس أفكاره وحياته هو مفردات التعامل مع القتلة واللصوص ومن ثم يفتقد حس السياسى المنضبط وروح رجل السياسة المرن واللين والمتفاهم، كما أن الضابط عاش حياته كلها يسمع الأوامر وينفذها ويطيع رؤساءه ولا يناقشهم وغير مسموح بديمقراطية حوار حقيقى فى شؤون الأمن والضبط والربط، فالضابط حين يصبح مسؤولا ومحافظا ووزيرا يكون ملتزما دائما بروح تلقى التعليمات من القيادة العليا وتنفيذها ولا يعرف مفاهيم الحوار والأخذ والرد والاختلاف والمعارضة، وليس تأكيدا كما أنه ليس صحيحا أن التربية الأمنية تربية سياسية وديمقراطية بل هى بعيدة كل البعد عن ذلك، فهى تربية خشنة وفظة وأمرة ناهية وغير مثقفة على الإطلاق، ومن الصعب للغاية قطعا أن تجد فى مصر مسؤولا مثقفا وقارئا وملما وعارفا بالفكر والإبداع، لكن يبدو مستحيلا أن نرى ضابطا ووزيرا للداخلية على هذا النحو ففى الأغلب ضباط الشرطة ووزراها خصوصا من تربى فى حضن أجهزة تتعامل مع المثقف والأديب على أنه ابن كلب معارض وملحد وشيوعى يظنون أن الثقافة تهمة ويخشونها وينزعجون منها تماما وهذا يفسر حالة العداء الكمهوس من الضباط للمعارضين من أساتذة الجامعة ومن المفكرين والطلبة

فضلا عن توترهم الشديد من وجود سيدات معارضات والشرطة أميل على طول الخط لاتهام الستات المثقفات بالاسترجال وأنهن لا يجدن رجلا يلمنهن وما إلى ذلك من سخافات سمعتها المعارضات المصريات على مدى تاريخ العمل النضالي بعد يولية ١٩٥٢، ثم الجانب الأهم أن فكرة اعتراف الضابط بالذنب أو استقالته ساعة ارتكابه خطأ فادحا ليست واردة في عالم الضباط الذين يعتقدون ذلك هروبا من الميدان أو تخليا عن المسؤولية ولا يعضون ويرحلون ويتحركون إلا بأوامر القيادات العليا ومن ثم إحساسه بالخطأ شبه معدوم فهو دائما مخلص في تنفيذ التعليمات فكيف لنا أن نحاسبه على إخلاصه ونعاقبه عليه بدلا من أن نحبيه ونشكره، وهو ما يجعل الحاصل دائما هو إقالة وزير الداخلية وليس استقالته؟

المؤكد لدينا أنه عندما تولى الضباط منصب وزير الداخلية بدأت في مصر أشرس وأسوأ حالات انتهاك حقوق الإنسان ومنهج التعذيب في السجون والمعتقلات وموت المتهمين أثناء الاستجوابات والاعتداء البدني واللفظي على المحتجزين في الأقسام، ونعتقد أن جزءا أصيلا من الإصلاح السياسي والديمقراطي أن تتوقف مصر عن إسناد وزارة الداخلية لضابط بل تكون مسؤوليتها لرجل قانون وحقوق إنسان أو طبيب سياسي أو أى من الشخصيات السياسية البعيدة عن العمل البوليسى أو الأمنى، وهذه ليست بدعة في مصر بل إن كل من تولى وزارة الداخلية في عصر ما قبل ثورة يولية لم يكونوا ضباطا على الإطلاق بل كان منهم مدرسى رياضيات ومحامين، بل أن فؤاد سراج الدين وهو من أهم السياسيين المصريين كان وزيرا للداخلية في قمة عصرها الوطنى (وصاحب ذكرى احتفالات عيد الشرطة) فضلا عن أن المجتمعات الديمقراطية كفيلة بمراقبة حقوق الإنسان واحترام قواعدها ومحاسبة ومعاقبة وزير داخليتها أو غيره!

مصر ستصبح بلدا محترما حين تحترم حقوق مواطنيها وحين تحاسب المسؤولين عن انتهاك حقوق الانسان وحين يكون لدينا حقوق.....ولدينا إنسان! على سبيل المثال لماذا لا يكون صفوت الشريف أو مفيد شهاب وزيرا للداخلية؟

عنه

كنا معا في الجامعة ولم نشاهده في يوم من الأيام وهو يشترك في ندوة سياسية، ولم يظهر في معرض كتب في الكلية أبدا، ولم يقترب من مجلة حائط ليقرأها أو يأخذ فكرة سريعة عنها وقطعا لم يكتب في مجلة يوما حرفا ولا لفظا، ولم يصادفه واحد منا في مظاهرة على باب الجامعة أو أمام الحرم الجامعي حتى على سبيل الفرجة، كان ينظر للطلبة والأساتذة الذين يتكلمون ويعملون في السياسة ويناقشون أحوال البلد بأنهم عالم فاضية وعيانة، كان يذكر حتى يتم تعيينه معيدا، ويخاف حتى من خياله فلا يرفع نظره في وجه العسكري ويمشي مطأطئ الرأس إذا عبر من أمامه ضابط من حرس الجامعة، لم يدخل في نشاط طلابي أو سياسي ولم يخرج في رحلة جامعية ولم يتقدم إلى الترشيح على الإطلاق في اتحاد الطلبة بل لم يصوت في أى انتخاب، وتمر السنوات وإذا به الآن في موقع سياسي وحزبي يتشرط ويقرر ويعلن ويصرح ويأمر وينهى ويتحدث عن الإصلاح والتغيير والتعديل ويقترب من صاحب السلطة والسلطان ويتحدث باسمه ويجاور ويناور ويفصل تشريعات!!

هذا بالضبط ما جاء بمصر إلى الأرض، إلى الدرك الأسفل من النار الذي نعيش فيه، هؤلاء الأساتذة الذين مشوا جنب الحائط وعملوا موظفين لدى الأمن وخدمات لدى الحكومة واللى تقول عليه يا أفندم واللى تأمر بيه يا سيادة العميد، هؤلاء الأساتذة الذين تربوا في أحضان حرس الجامعة وأجهزة الأمن هم الذين يديرون شؤون مصر السياسية والاقتصادية هذه الأيام في واحدة من أسوأ فتراتنا عندما يتحول أستاذ الجامعة إلى بلطجي سياسي وترزى قوانين ومخبر أمنى ومنظر للصوص ومحام للحرامية وميكروفون للاستبداد وذراع للفساد، هؤلاء

الذين ابتلى الله بهم مصر وصاروا قادة في البلاد بينما لم يفكروا يوما في السياسة بل كل همهم هو رضا أمن الجامعة عليهم ولم يهتموا أبدا بصلاح الوطن بل كان كل طموحهم الترقية في الوظيفة ولم يعملوا من أجل الناس بل عملوا من أجل الإغارة أو الشالية في الساحل الشمالى ولم يخدموا العلم بل خدموا حذاء السلطة، ها هم الآن يديرون كل موقع ووصلوا إلى أعلى الأماكن نفوذا في مصر، وها هي مصر بفضل دكاترة الحرس الجامعى تهبط إلى قعر الحضارة وتتخلف في الاقتصاد والسياسة والنظافة كمان!!

آل باتشينو حين يحكم وطننا!

ديمقراطية الأطر المحددة أطلق هذا المصطلح صحفى سويسرى على نظام الحكم "الرئاسى الورائى"، الذى تمثل سوريا نموذجة الوحيد فى العالم العربى حتى الآن ويرى هذا الصحفى السويسرى أنه لا فرق بين دولة خليجية وراثية أو نظام رئاسى جمهورى بالوراثة، طبعاً ديمقراطية الأطر المحددة تعنى بالبلدى ديمقراطية الهوامش أو ديمقراطية تفيش الهوامش، أى الديمقراطية الشكلية الى كده وكده، عموماً الصحفى السويسرى فيكتور كوخر، مراسل صحيفة NZZ السويسرية الناطقة باللغة الألمانية فى الشرق الأوسط منذ أكثر من ١٠ سنوات، هو صاحب وجهة نظر ضمنها فى بحث كتبه منذ سنوات بعنوان "الابن يخلف أبيه كرئيس للدولة: السلالات وتكوينها فى العالم العربى" التى يرى فيها أن مكونات النظامين الخليجى الملكى والرئاسى (الورائى) متشابهة ولا فرق بينهما. ويقول فيكتور كوخر: "يقوم النظامان على شخصية عليا ضامنة للاستقرار، قد تكون ملكاً أو أميراً أو رئيساً، وهى شخصية تحصل على السلطة عن طريق غير ديمقراطى، إما بالوراثة أو التعيين أو إرادة إلهية" وبجانب قمة الهرم الحاكمة، يوجد جهازان رئيسيان: الأول، حكومى تنفيذى، والثانى برلمانى أو استشارى وتمثيل منتخب أو مُعين أو خليط من الاثنين. وقد يقوم هذا الأخير بمهام رقابية على عمل الأول، لكن قمة الهيكل، (أى الملك أو الأمير أو الرئيس)، "لا تُمس، لأنها تضمن الاستقرار، ويجب أن تكون فوق كل القوانين والرقابة".

التوصيف النظرى الذى حدده فيكتور كوخر يمكن شرحه بلغة سياسية عربية بسيطة. هناك اتجاه فى العالم العربى، على حد قناعة كوخر، يسعى لتوريث أبناء الرؤساء السلطة من بعد آبائهم. ورغم أن تولى بشار الأسد الحكم من بعد أبيه

حافظ يظل النموذج الأوحى الذى تم حتى الآن فى العالم العربى، إلا أن تكهنات عديدة تشير كما كتب إلى احتمال وإمكانية تكرار التجربة فى كل من: مصر واليمن وليبيا. مرد هذا الاتجاه، فى رأى كوخر، هو أن الدول العربية ذات الأنظمة الجمهورية دخلت مرحلة أكثر استقرارا ونظاماً إثر فترة من الانقلابات العسكرية، وهيأت نفسها وشعبها ياسا واستسلاما لتفضيل تداول السلطة (طبعاً أصبح هنا تناول السلطة وليس تداول) فى صورته الوراثة.

انتقال السلطة وتوريثها برضا وتوافق بين مراكز القوى حيث يتم الاتفاق بين رموز المؤسسات العسكرية والاقتصادية وجماعات النفوذ على تأمين مواقعها والحفاظ على ثرواتها والتمسك بنفوذها بل وانتقال النفوذ والفلوس الى الأبناء كذلك مما يجعل الجميع متواطئاً ومشاركاً ومتورطاً فى توريث السلطة بحيث يتم التوريث الجماعى من الآباء للأولاد تحت لافتة تقبل الوريث الجديد.

إن ما يجرى إذن فى المشهد السياسى كله يشبه اجتماعاً فى فيلم الأب الروحى حيث تتراضى عائلات المافيا بتوزيع السلطات وتقسيم التجارة ودوائر النفوذ ومناطق النشاط مع الاعتراف بقيادة ابن (وليكن آل باتشينو) وريثاً للأب الروحى، هذا المشهد يصبح سياسياً وفى الصميم عربياً وهو ما يفسر لماذا تقبل مراكز الصراع السياسى فى البلد بفكرة التوريث لأنه يضمن استقرار النفوذ وتوريثه فى كل المجالات كعملية الأوانى المستطرقة (هل تذكر دروس الفيزياء فى الإعدادية ؟)

لكن كل هذا يجب أن يتم تحت مظلة ومن وراء مكياج سياسى هنا تخرج البدع والإبداعات بتاعة الإصلاح التدريجى وقيمنا الخاصة وهذه الهرتلة التى تروج لها كل عائلات فيلم الأب الروحى، ولأن الأف بى آى تلعب دوراً رئيسياً فى الفيلم فلا بد من شرائها وضمها مشاركتها القسمة وأسوأ ما يصادفه كاتب فيلم الأب الروحى بنسخته العربية هو الضابط الجديد الذى يظهر فى مشاهد الفيلم محاولاً إثبات أنه يحارب فساد المافيا، هنا يظهر دور المحامين، سواء من الكتاب أو الصحفيين أو رؤساء احزاب عجائز يعملون لحساب الأب الروحى ثم يتوسطون

مع الأف بي أى، من هنا تجد مجموعة داخل النظام المصرى ومن قوى أخرى محسوبة على المعارضة تذهب وتروح وتحجى على الأمريكان سواء فى مصر أو واشنطن بقصة التحذير من الديمقراطية المفتوحة التى قد تأتى بالإخوان المسلمين وأنا أعلم يقينا أن هناك شرائحاً فكرية وسياسية فى مصر وغيرها أهون عليها أن تظل فلسطين محتلة من أن تحكمها حماس وأبرد على قلبها أن يحكم مصر فسادة ومستبدون من أن يشارك فى حكمها إخوان مسلمون، وهذا ما يصك تعبيرات من النوع المتدرج مثل خصوصية مصرية والوقت المناسب وحكمة الرئيس وفترة انتقالية وديمقراطية تناسب الظروف المصرية أو كما قال وزير خارجية مصر وعدد من أسنة النظام الطويلة أن كل بلد تطبق الديمقراطية بطريقتها ووفق مجتمعتها وهو نوع من الملاوعة والسهوكة السياسية ربما ردت عليها الأف بي أى فى الفيلم أو كوندليزا رايس فى الواقع إذ قالت قبل زيارتها المرتقبة للعاصمة القاهرة إن الدول التى تحكم بشكل ديمقراطى هى تلك التى تسمح للمعارضة السياسية بالتعبير عن وجهة نظرها علانية وبجارية دون أن تتعرض لأى شكل من أشكال التخويف أو التهيب. وكانت الوزيرة تتحدث خلال مؤتمر صحفى عقده أمام الصحفيين الأجانب وقالت رايس إن فكرتها - التى تقول إن الزعماء الذين يتم انتخابهم بطريقة ديمقراطية تقع على عاتقهم مسؤولية حكم بلادهم بشكل ديمقراطى - تعنى " أنه لا يحق لأحد ترويع المعارضة وتخويفها"، وأنه يتحتم منح المعارضة السياسية الفرصة لطرح وجهات نظرها فى وسائل الإعلام الجماهيرية دون خوف من التعرض لأى إجراء انتقامى وقالت رايس "لا أعتقد أن هناك أنواعا مختلفة من الديمقراطية. إذ أن كلمة ديمقراطية قد استخدمت "بشكل يثير السخرية" من قبل البعض للترويج للمفهوم القائل بأن الديمقراطية يمكن أن تتواجد على أشكال مختلفة. وأضافت رايس أنها عندما تولت منصباً سابقاً كاستشارة لشؤون الاتحاد السوفيتى السابق، كان الناس يطلقون على ألمانيا الشرقية التى كان يحكمها الشيوعيون "جمهورية ألمانيا الديمقراطية". وأردفت تقول: "فهل كان أحد يصدق أن ألمانيا الشرقية كانت دولة ديمقراطية؟ إنها لم تكن كذلك. ولذا فإن الناس

عندما يتحدثون عن أنواع مختلفة من الديمقراطية، فإنني أقول لهم دعونا نعود إلى أسس الديمقراطية ومبادئها." واستطردت رايس وهي تتحدث عن الموضوع نفسه، فقالت "إن الديمقراطية تعني أن بإمكان الشعوب أن تقول ما تكون هي مقتنعة به، وأن تكون حرة في تعليم أطفالها بالطريقة التي تريدها، وبإمكانها ممارسة عباداتها كما يطيب لها، وأن المواطنين فيها محميون من المdahات التعسفية الليلية من قبل الشرطة السرية بفضل استقلالية النظام القضائي." وأضافت الوزيرة "أن الديمقراطية تعني أيضاً أنه يسمح للناس بتشكيل منظمات سياسية (أحزاب) تمثل المعارضة أمام الحكومة الحالية." وقالت رايس: "فهذه هي أسس الديمقراطية الحقة وأنا لا أعتقد بأننا نحتاج إلى تعريف جديد للديمقراطية. إذ إننا نعرفها حينما نراها، الديمقراطية. تبدأ من أن يصبح الشعب قادراً على اختيار زعمائه. وتبدأ من أن يصبح الشعب قادراً على مساءلة حكامه."

طبعا من الممكن أن تسبب ملة خاش اللي جابو كونداليزا رايس وأنت حر لكن المشكلة أنها تقول الحقيقة أحيانا ومنها هذه المرة، لكن المشكلة الأكبر هي عند عائلة الأب الروحي في الفيلم وشركائهم ومحاميهم ووسطائهم عند الأف بي أي، فمعنى ذلك أنهم مطالبون بما يشبه التحركات الحقيقية والفعلية لإثبات أنهم أبطال الفيلم أمام الأمريكان وهو ما يفسر التوتر العصبي والارتباك والكذب وعمليات شد الوجه ونفخ الشفتين وسيلكون الصدر للقرارات السياسية التي تمثل التلويح بعينه في المش

فقد اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية وقد روى عن سلمان الفارسي أنه كان يقول: لم يجيء هؤلاء بعد. (أي أنهم لم يظهروا في عهد الإسلام الأولي) عن سلمان، قال: ما جاء هؤلاء بعد، الذين وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. وهو ما يجعل كاتباً مثلي يجتهد (وقد يكون خطأ محضاً) في أن الآية الكريمة تظهر في إرشادها وهدايتها منطبقة على وقتنا الحالي وهؤلاء الأشخاص الذين لم يظهروا من قبل كما قال سلمان الفارسي رضي الله عنه هم الذين يعيشون بيننا الآن، بل وبفرض خطأ الفارسي وخطيئة تأويلي فإن الآية

تنطبق فصلا ونصا على واقعنا الحالى طبقا لتفسير سيد قطب فى كتابه الأغر فى ظلال القرآن الكرىم (وإذا قىل لهم: لا تقسدا فى الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون. إنهم لا يقفون عند حد الكذب والحداع، بل يضيفون إليها السفه والادعاء: وإذا قىل لهم لا تقسدا فى الأرض.. لم يكفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى النبح والتبرير: قالوا: إنما نحن مصلحون.. والذین یفسدون أشنع الفساد، ویقولون: إنهم مصلحون، كثیرون جدا فى كل زمان. یقولونها لأن الموازين مختلفة فى أیدیهم. ومتى اختل میزان الإخلاص والتجرد فى النفس اختلت سائر الموازين والقیم. والذین لا یخلصون سریرتهم لله یتعذر أن یشعروا بفساد أعمالهم، لأن میزان الخیر والشـ والصلاح والفساد فى نفوسهم یتأرجح مع الأهواء الذاتیة، ولا یتوب إلى قاعدة ربانیة.. ومن ثم یجىء التعقیب الحاسم والتقریر الصادق: ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا یشعرون).. صدقتنى!!

ابنه

يتحدث البعض أنه وإذا كان ولا بد لهذا النظام أن يحكمنا ولهذه الوجوه أن تقود البلد وطالما نحن مرغمون وخانعون ولا شيء في يدنا والذي ينجح في الانتخابات الرئاسية القادمة هو من ستزور له وزارة الداخلية ويرشحه الحزب الحاكم وتموله ميزانية الدولة ويروج له الجهاز الإعلامي الحكومي من تليفزيون وضع سياسيا وجرائد وصحف حكومية ورسمية وموافقة ومناققة حتى النخاع، إذا كان هكذا كذلك وهلبت حتما طيب ما يبقى جمال مبارك باعتباره الشاب في الثالثة والأربعين من عمره وهو مدنى وليس عسكريا أفضل من استمرار والده وهو الذى تجاوز التاسعة والسبعين، وإذا كان لا بد وأن يحكمنا مبارك فليحكمنا الابن وليس الأب.

والحقيقة هذه وجهة نظر أسمعها من كثيرين فى دوائر السياسة والثقافة وهى نظرية يائسة طالعة من ناس تعبانة جدا ومحمزومة تحس أنه مفيدش فائدة وأن الشعب عاجز عن التغيير وقاصر عن الفعل ولا يستطيع أن يأتى برئيس جديد يرضون عنه ويحبونه ويجبرونه على عدم البقاء للأبد فى الحكم ومن ثم فهم يختارون ما يظنونهم الأفضل وهو الابن الذى يمكن أن يتنازل للشعب قليلا ويجرى بعض الإصلاحات السياسية من أجل كسب الشعبية وتخفيف حدة رفضه ورفض التوريث ومن ثم يمكن أن تكسب مصر منه على طريقة اللي يجبي من المنايفة فائدة (بالمناسبة أنا منوفى من قويسنا).

هذه هى وجهة نظر الذين يفضلون مبارك الابن خصوصا وأنه سوف يخلص مصر من وجوه كرهية ومكروهة ومسنة ومجوزة تتحكم فى كل شئ فى البلد ليس من باب أنه سوف يأتى بأفضل منهم بل كل المرشحين لخلافتهم أسوأ منهم بكل

المقاييس ويا زين ما اختار، لكن الابن سوف يبدل دورية الحراسة ويأتى بالفشلة الجدد مكان الفسدة القدامى وفي ظنى أن هذه النظرية كلها تتم عن يأس يؤس و هي محزنة وساذجة كذلك فإذا كان ولا بد من اختيار (أنا عموما أبطل صوتى لو هذا هو سباق التنافس!!) فإن اختيار الابن محفوف بمخاطر كارثية على البلد، لماذا؟

تعال أقولك..

من المؤكد أن هناك وزراء ومسؤولين كانوا يعرفون جمال مبارك منذ طفولته حين تولى والده منصب نائب الرئيس وجمال فى أولى أو ثانية إعدادى ومن الطبيعى أن بعضهم كان يقول له مداعبة أو تدليلا: يا جيمى، فلما كبر منصب والده وكبر هو صاروا يقولون له يا جمال، وها هم يطلقون عليه الآن جمال بيه أو الأخ جمال، بل يقفون أمامه صفا ينتظرون طلعه وقدوم سيادته، ليلقى فيهم خطبا ويطرح عليهم سياسات!!

وهذه التربية فى قصور الحكم لمدة ثلاثين عاما جعلت جمال مبارك لا يسمع كلمة «لا» أبدا ولم يسمع أحدا ينقده ولا يهاجم أفكاره شخص ولا يجروء واحد على أن يقول له كلمة تجرحه أو تقلل من معرفته وثقافته فكان طبيعى أن يسمع ممن حوله سواء فى بلاط الحكم أو مقربى النفوذ والسياسة مدحا فوق ما يتوقع وأكثر مما يستحق، و مثل أية كهنة فى معبد فرعونى حولوا ما يقوله الوالد إلى حكمة مقطرة وآيات بينات فى السياسة وغيرها ووصلوا بمدحهم ونفاقهم إلى حد يلامس التقديس فإنهم كذلك تعاملوا مع الابن على أنه فارس السياسة وقلب الحزب النابض والأمر كله لا يعدو تصادم أكتاف على مدخل بهو فرعونى، وهو ما يجعل ما يردد والده أنه تعرض لضغوط من أجل أن يشركه معه فى العمل السياسى منطقيا رغم أننا لم نسمع يوما من أيهما (الرئيس أو الابن)؟ من أين جاءت هذه الضغوط؟ ومن هو القوى جدا والشديد قوى فى بلدنا الذى يقدر على الضغط على الرئيس؟!

هذه هى أولى مخاطر صعود جمال مبارك فهو لم يسمع أبدا كلمة «لا» وربما لم

يسمع الحقيقة في حياته أبدا ولم يعتاد على المعارضة ولم يكن له مدير في الشغل مكدره أو رئيس في التنظيم يأمره، بل هو مولود سياسى وفي فمه ملعقة من ذهب.

عموما قفز الابن فجأة من مقعد على مائدة العشاء في بيت الرئيس إلى المقاعد الأولى في الحزب الحاكم بل ويصبح رئيسا مرة واحدة للجنة حزبية نختار مع تسمياتهم لها شوية لجنة.. وشوية مجلس أعلى، وفي زحمة الترقى والصعود المسنود على منصب السيد الوالد صار الجميع يتحدث عنه باعتباره مجدد الحزب ويبدو أنه صدق فأخذ يخطب ويخطب عن الجماهير والشعب، والشعب هو ثانى مشكلة عند جمال مبارك، فهو الذى لم ير الشعب تقريبا إلا في مواكب الترحيب وسراذقات الاحتفالات والزحام فى مكتب السيد الوزير المحافظ فى استقباله أثناء زيارته لمحافظة تتحول أثناءها إلى ثكنة حزبية عند نشره لها بحراسة تحول بينه وبين رؤية أى مواطن عادى (المسحوق العادى) أظن أن الشعب الذى رآه جمال مبارك غالبا شعب مصر الجديدة الذى يحتفى ويتبخر لحظة مرور مواكب أمين السياسات، وشعب قصور وبيوت الأصدقاء والمعارف واستراحات شرم الشيخ وبرج العرب، رجل تجاوز الأربعين ولم يقف فى شارع ينادى على تاكسى أو يتشاحن مع سواق تاكسى على أجرة المشوار، لم يركب يوما أتوبيسا مزدحما رايح شبرا وعطل فى الخلفاوى أو ميكروباص يخشى سائقه من أمين شرطة غنت، من أين يشعر إذن بوجدان الناس ومعاناتهم وهو الذى يمشى فى موكب حراسة منذ نعومة أظافره، وهو الذى لم يقف فى إشارة مرور منذ ثلاثين عاما تقريبا!؟

الميزة الوحيدة التى يتمتع بها جمال مبارك هى والده، والصفة الوحيدة التى تؤهله لما هو فيه من ركوب حصان حزبه هو والده، فهذه هى المشكلة الثالثة لدى جمال مبارك، فهو كان مثله مثل أى شاب فى مصر لكان موقعه فى أبعد مقعد فى أبعد صف فى آخر القاعة، ثم هو فى النهاية حصيلة سياسية التكنم والسرية وغياب الشفافية السياسية العائلية التى لا يعلم الشعب عنها شيئا، فمن حق الناس (فى بلد لا يعرف أن للناس حقوقا!) أن تعرف من الذى يدير شؤون حزبها الحاكم

ويتحكم فى سياسات ومقدرات ليس له أن يتحكم فيها فلم ينتخبه أحد أساسا ولم نعرفه يوما سياسيا حتى ولو فى اتحاد طلبة!! وإن كان من الطبيعى أن يكون جمال مبارك قد أدى الخدمة العسكرية الوطنية، وإن كنا لا نعرف هل أداها فعلا أم أنه قد أعفى منها؟ وإذا كان قد أعفى منها فلماذا؟ أليس من حق الناس بعدما صار الموقف من الخدمة العسكرية شرطا لعضوية برلمان وربما لممارسة العمل السياسى أن تعرف هل جمال مبارك لبس مرة الأفرو، وعلى ذكر الأفرو فأنا لا سمح الله لا أريد أن أعرف من أين يشتري جمال مبارك هذه البدل الأنيقة التى يظهر بها؟ فأنا لا أنوى شراء مثلها، لكننى فقط أريد أن أسأل شأنى شأن المصريين كلهم إنما جمال مبارك بيشتغل إيه صحيح؟ من أين يرتزق ويحصل على دخله الشهرى والسنووي؟ خصوصا وقد صارت الشفافية مطلبا عالميا ودوليا (سيبك من حق الناس، تغور الناس!)، البعض يقول لنا إنه بيشتغل رجل أعمال، فهل يا ترى مكتوب فى جواز سفره المهنة: رجل أعمال؟ وإذا كان رجل أعمال فعلا فأى أعمال يا ترى التى يعمل بها وفيها جمال مبارك؟ فمصر كلها تعرف ما هى أعمال رجل الأعمال؟ أحمد عز وأعمال ساويرس ونصير وغيرهم فما هى أعمال رجل الأعمال جمال مبارك يا ترى يا هل تري؟ هل مثلا فى الاستيراد والتصدير أم أنه يملك مصانع؟! طيب مصانع إيه؟! أم مقاولات وشركات؟ ثم هل له شركاء مثلا؟

ثم نحن نعرف حجم ثروته من الصحف والمجلات الأجنبية وعرفنا أن الشركة التى يديرها وصل رأسالها فى وقت ما إلى فوق السبعمئة مليون جنيه مصرى وهذه هى مشكلة جمال مبارك الحقيقية أنه مليونير غنى يريد أن يحكم شعبا مش لاقى يأكل!

ستين فى سبعين

أكيد خبط فى وشك الكلمتين دول من قبل، أى شخص تعرفه قابلك وسمم بدنك بحكاية أن الديمقراطية والكلام الفاضى ده مش مهم، المهم هو أكل العيش، عندما تسمع ذلك منه أرجوك أرفق به فهو ليس حمارا حاصويا، أبدا إنه رجل فاضل، فاضل بس يفهم، لأن الديمقراطية هى السبيل الوحيد لضمان أكل العيش وتوفر اللقمة، يعنى لو فيه ديمقراطية يا حاج لم يكن هناك حرامية مثلا يفصلون قوانين التجارة والاقتصاد على مزاج أهلهم فيكسبون من وراء هذه القوانين الملايين وإذا كان هناك ديمقراطية ما كان واحدا من المسئولين يحتكر تجارة أو صناعة ويرفع سعرها فى السماكى يكسب ساعتها الديمقراطية نقصف رقبة الملى خلفوه، الديمقراطية هى التى تجعل ابنك يشتغل من غير واسطة ولا تجعل المقاول يرشو مهندس التنظيم عشان تهد بيتك، الديمقراطية هى التى تكشف ملايين القروض التى نهىها من فلوسى وفلوسك المسئولون الحرامية، الديمقراطية هى التى تمنع السرطان، عندما تمنع مسئولا من استيراد مبيدات مسرطنة حتى يكسب منها الملايين ونحن نموت بالسرطان فى معهد الأورام، الديمقراطية هى التى تجعل هذا البلد بلدنا مش بلد أبوهم، ولا تصدق أن هناك أنواعا من الديمقراطية إيشى لارج وإيشى إكس لارج أو حجم عائلى لديمقراطية واحدة وجاهزة ومش تفصيل، لقد ضحكوا علينا منذ يولية ١٩٥٢ حين قالوا إن من ضمن أهدافها الستة (كان آخر الأهداف) إقامة حياة ديمقراطية سليمة! وكان هناك حياة ديمقراطية مكسورة ومريضة وأخرى سليمة معافاة! وكانت هذه هى الكذبة الكبرى التى زرعتها نظام يوليو واستمرت حتى الآن، أصبح الحكام هم الذين يقررون ما هى الديمقراطية السليمة والمريضة؟! وجعلوا أنفسهم أوصياء على الشعب والمواطنين

فهذا معارض عذب فرات وهذا ملح أجاج، هذا سليم وذلك مكسور، هذا الأخ
ديمقراطي سليم وهذا ديمقراطي مريض! كأن الحكام يمنعون أبناء الوطن من مسك
سلك الكهرباء أو اللعب في الفيشة السياسية، كأننا وطن من الأطفال أو
المتخلفين عقليا في حاجة إلى شرب اللبن قبل أن ننام!
أرجو ألا تفهمنى خطأ وتتصور أنى أعتقد أن الديمقراطية هي هدف حياتنا
فالحقيقة أن الديمقراطية هي وسيلة وأداة لتحقيق التقدم والتطور، يعنى لا مؤاخذه
أن التقدم هو الهدف، الديمقراطية هي مجرد قواعد بين الشعوب حتى تتمكن من
اختيار الشخصيات الصالحة لتحقيق أهدافها، ثم قدرة الشعوب على محاسبة
ومساءلة وطرد هذه الشخصيات لو طلعت فاسدة أو فاشلة، وإذا كان حد
فهمك غير كده يبقى ابن ستين فى سبعين.

لحم أكتاف مصر

لحم أكتاف مصر وحكومة مصر وحكامها من خير العاملين المصريين بالخارج الذين وصل عددهم إلى مليونى مصرى (هجرة مؤقتة) وتحديدًا ١,٩ مليون طبقًا لأرقام مركز معلومات مجلس الوزراء ومصريو الخارج أهم مصادر العملة الصعبة والدولار للحكومة من خلال تحويلاتهم التى تصل إلى ٢٩٩٩,٦ مليون دولار أى حوالى ثلاثة مليارات دولار أو قرابة ١٨ مليار جنيه مصرى طبقًا لمركز معلومات مجلس الوزراء ذات نفسه أى أنها حصيلة تنافس حصيلة الصادرات المصرية الكسيحة وجملة دخل قناة السويس أو حتى دخل السياحة فإذا بهذه الحكومة البغيضة وخدم الفراعين وسادتهم الفراعنة يعاقبون المصريين المغتربين على نعمتهم وفضلهم على هذه الحكومة وذلك الحكم، ويضعون موادًا تحظر وتمنع تصويت المصريين فى الخارج فى انتخابات الرئاسة، لا توجد دولة فى العالم تعامل مواطنيها بهذه الدرجة من الإهانة والمهانة مثل مصر، كأنه من جينات أى حاكم مصرى أن يفكر ويقول ويتصرف على طريقة إن أنتم إلا عبيد إحساناتنا، فالذى تابع القانون حقير السمعة أو ما سمي رسميًا بقانون انتخابات رئيس الجمهورية يكتشف مسخرة ومأساة تعامل الحكم مع المواطنين المصريين المقيمين والمهاجرين فى الخارج، ففى كل بلدان العالم من حق المواطن المغترب عن وطنه أن يدلى بصوته الانتخابى فى بلد الاغتراب أو الهجرة مادام يحمل جنسية هذا الوطن الأم، لكن مصر وطن أم قويق، فهى تلفظ أبناءها المقيمين فى الخارج والمغتربين والمهاجرين، وتمنعهم من التصويت والمشاركة السياسية والانتخابية، وتبدو الأسباب واضحة تمامًا..

أولاً: التصويت فى انتخابات الرئاسة فى الخارج خصوصًا الدول الأوربية

والأمريكية وغير العربية ستكون إجراءات التزوير فيها صعبة لا أقول إنها مستحيلة على حكومة مصرية دينها الحقيقي هو التزوير لكن المسألة ستكون صعبة ومرهقة وفي حاجة لخيال جديد ومختلف.

ثانيا: إدلاء المصريين بأصواتهم خارج مصر سيسمح برقابة دولية فعلية وحقيقية على إجراءات التصويت وربما الفرز مما يجعل التزوير معرضا للجرسة والفضيحة خصوصا مع استطلاعات رأى من الممكن أن تجرى أمام مراكز الاقتراع فتشرح النظام عندما يزور النتيجة على هوى الحكومة كما أن المصريين فى الخارج مدربون على الديمقراطية الغربية ويعيشونها مما قد يجرح النظام ويحبيه الأرض.

ثالثا: المصريون المقيمون فى الدول العربية ورغم أنهم لا يعرفون شيئا عن الانتخابات فى تلك الدول وأغلبها مستبد وديكتاتورى إلا أنهم ناقدون وغاضبون من الحكومات المصرية عموما فهى من وجهة نظرهم حكومات جباية وضرائب ورسوم كل ما تريده وتفعله قسرا وغصبا هو استنزاف المصريين فى الخليج والسعودية من أول تصاريح العمل وانتهاء بالجمارك وخلافه دون الحصول على أية خدمات حقيقية فى المقابل، ثم إن المصريين فى الخليج والسعودية يعانون الأمرين من السفارات المصرية وقناصلها مما قد يجعل جزءا من رغبتهم فى معارضة الحكم وعدم انتخاب مرشح الحكومة هو النكاية فى السفارة والسفير.

لكننى أظن أن التخوف الذى يصل لحد الهلع والفرع من أقباط المهجر هو الذى جعل الحكومة ترفض إدلاء المصريين المغتربين بأصواتهم فى الانتخابات الماضية تحديدا فهم يرتجفون من أقباط المهجر ونشاطهم ومهاجمتهم بشكل سافر وسافل فى كل تصريحاتهم أو من خلال الكتبة والسياسيين الفسدة الذين يعملون عند أو مع النظام، حتى إن المواطن المصرى العادى صارت لديه الآن صورة سيئة عن أقباط المهجر وأصبح العقل المصرى المسلم تحديدا يراهم عملاء وخونة بينما يقع القبطى فى اضطراب بين مشاعره المتضامنة مع أبناء دينه وبين غيرته على بلده واعتزازه بوطنه، وهذه الصورة التى عملت على رسمها وإذاعتها ونشرها والإلحاح بها طول الوقت حكومتنا وظنى أنها نجحت أو شارفت وأوشكت،

ولازمًا كذلك التهمك والتهجم على مزدوجى الجنسية كأنهم جواسيس لا سمح الله وليسوا مواطنين ناجحين ونشطين ومكافحين استطاعوا الجمع بين موطن ووطن، بين نشأة وشباب وبين رزق وعمل، ربما يكون هناك من مزدوجى الجنسية مثل ما هو موجود فى أصحاب الجنسية الواحدة ناس معضنة وانتهازية وأفافة، طبيعى لكن ازدواج الجنسية فى الحقيقة دليل على نجاح صاحبها وانتائه الذى يصر على الاحتفاظ بجنسية وطنيين!

أعود إلى أقباط المهجر الذى يتوفر فيهم التهمتين الحكوميتين والشعبيتين أنها أقباط محجر ومزدوجو جنسية وأحب هنا أن أنقل عن بحث أو ورقة كتبها فى أحد المؤتمرات الخاصة بحقوق الإنسان وربما أكون قد نشرت بعض سطور وأجزاء منها من قبل لكن هنا أريد أن أعيد نشر نص ما كتبتة تحديدا حتى تتضح رؤيتى وتكتمل أمامكم.

لاشك عندى أن عددا من أقباط مصر فى المهجر قد زودها أحيانا، فقد غالى هؤلاء فى تطرفهم من المعارضة للسياسة الحكومية إلى معارضة الثقافة الوطنية فى مبالغة لا ينع فى الحقيقة الرد عليها بالبلاغة التى احترفها سياسيونا فى رعى ولغو وثرثرة عمرها ما أثرت فى أحد أو طالت على شخص؛ لكن هذا لا ينفى أن بعض أقباط مصر فى المهجر فعلا قد تحول تعصبه ضد الحكومة المصرية إلى عصاب فيه خليط من الهوس، المرض وجنون الاضطهاد. يحسب المرء أن من طبائع الأمور وطبيعة الحال أن يكون بعضهم قد تحول - درى أو لم يدر- إلى غياب بصيرة أو انفلات رؤية. لكن فى حمى الأقلام الموجهة كالمصاريج المضادة تطعن، وتلعن فى أقباط مصر فى المهجر حتى صار تعبير أقباط المهجر كأنه سبه أو لعنه وبات من المصطلحات سيئة السمعة السياسية فى حياتنا اليومية فى حمى كالعمى، بننا نقرأ ونسمع ونرى اتهامات لأقباط المهجر عيانا بيانا بالخيانة، الخيانة لوطنهم مصر، العمالة لجهات أجنبية، اتهامات لهم بفقد الائتماء وضياع الوطنية وهو اتهام يعود فيتكرر كثيرا على أيدي مباحث هذا الوطن فى الأمن والصحافة والسياسة، تتضخم الاتجاه إلى اتهام الآخرين بالخيانة كأن من حق واحد أن يتهم آخر بالخيانة

وصار هذا الاتهام متداولاً بل وشائعاً والأكثر أسفاً أنه صار سهلاً على الأقلام أن تخطئه، على الأفواه أن تقوله، والأفدح أنه صار سهلاً على الأذان أن تسمعه وهذا - وأيم الله - كارثة تكاد أن تلحق بنا وأظن أنني قلت وسأقول إنه من غير المسموح أبداً ودائماً أن يوجه أحدنا تهمة لمواطن من بلده وأهله تحمل إما التخوين أو التكفير. وإن الخيانة تصير حين تحكم محكمة حكماً نهائياً على شخص بأنه جاسوس هكذا بوضوح العبارة وصرح الكلمة وإن الكفر لا يتم إلا إذا وقف رجل وقال عن نفسه إنه كافر؛ غير كده لا يمكن أن يكون هناك اتهام بالكفر أو الخيانة. من حظ هذا الوطن العثر الحظ والوطن معاً أنه مع انحسار وتراجع نسبي لتهمة التكفير التي راجت وروجت في الأعوام الماضية من اندفاع المد الإرهابي ظهرت على السطح تهمة التخوين والخيانة كأنه لا ينفع أن نعيش دون أن نلتقى اتهام الخيانة على غيرنا أو نكفر بعضنا وقد زادت اتهامات التخوين عن حدها وتم استخدامها ضد معارضي الدولة حيناً ومن معارضي الدولة حيناً آخر فصارت كالنار تلسع الجميع وأخشى أن النار بعد أن تلسع قد تحرق كما أنها - أي النار - متى سارت في حقل قصب حولته إلى هشيم، حطام، فحم ودخان؛ والحاصل أن مصر - للأسف - لا ينقصها الهشيم والحطام؛ فنحن نرى هشيم أحزاب، حطام أفكار، أشخاص، آراء وصحف، لا ينقصها إلا الفحم والدخان.

إذن مع انفجار عدوى الاتهام بالخيانة في الحياة السياسية المصرية ظهر متهم جاهز وخصم نموذجي يلتقى عليه الرياح والجأى مثل هذه التهمة دون أن يوخزه ضميره، دون أن يرمش لقلمه أو للسانه رمش ولا جفن. فكلما فتحت صحيفة أو صادفت قناة تليفزيونية أو تعثرت في تصريح رجل سياسة أو تكعبلت في مؤتمر وجدتهم جميعاً يعزفون نفس اللحن الرديء على واحدة ونص باتهام أقباط المهجر بالخيانة وهو يصنع ضباباً أمام الرؤية السلمية لحقيقة هؤلاء الناس المصريين الوطنيين. نعم أقول إن أقباط المهجر وطيون مصريون ومنهم الغارقون حبا في وطنهم مش عارف على إيه. لنضع أمامنا حقائق تالية نعنينا فعلاً ولا نعنينا تماماً حتى تكون الصورة صادقة أو كاملة:

١- أساسا الجرى وراء اتهام أقباط المهجر بكل التهم الممكنة والطعن فيهم، في وطنيتهم واللعن في ممارستهم وتصرفاتهم يشعل ضرره ويفجر أضراره على الصعيد الداخلى والمحلى في مصر نفسها، فهؤلاء أقباط المهجر ليسوا إلا أبناء وأخوة أو حتى معارف أقباط الداخل. أقباط المهجر لم يهبطوا من السماء كائنات فضائية على أمريكا، كندا، بل جاءوا من أحضان وطنهم مصر ومن أحضان آبائهم، أبنائهم وأمحاتهم في شبرا، أو أسيوط أو الإسكندرية.. فما الذى يمكن أن يشعر به مصرى قبطى فى شارع شبرا مثلا وهو يقرأ اتهامات لأقباط المهجر ومنهم صموئيل ابن عمته من درنكة فى الصعيد ومايكل خال مراته من العطارين فى إسكندرية وجورج صاحبه وجاره فى الترة البولاقية. إن هذا الاتهام المثير للضعينة وللغیظ وربما للعند يشمل فى أضراره ضرره المباشر على أبناء وطننا وليس الأمر بعيدا عنا وعن حوارينا. لا أظن أن أقباطنا هنا سوف يسرون ويسعدون أو يوافقون على اتهام أخوة لهم ولنا بالخيانة ليل نهار كدهه عمال على بطل وفى الفاضية والمليانة وعلى الكبيرة والصغيرة.

٢- ألم يفكر أى منا أن هؤلاء الأقباط الذين سافروا إلى أمريكا وكندا بينهم العلماء العظام، الأطباء الكبار والأساتذة الخبراء؟ وإلا كيف استقبلهم العالم الغربى الذى لا يسمح بالعيش فيه حياة كريمة أو محتملة إلا للموهوب أو الثرى أو صاحب الكفاءة أو صاحب العمل أو الريادة. إن كندا عامرة بأساتذة مصريين فى علم الهندسة؛ بينهم أقباط كثيرون يتولون رئاسة كليات الهندسة هناك، أساتذة لأدق التخصصات وكذلك فى أمريكا أطباء مصريون أقباط عباقرة، هائلو المكانة. فكيف نغفل عن هؤلاء وهم الغالبية؟ ومن أقباط المهجر التجار، رجال الأعمال، أصحاب الشركات، الدكاترة، الأساتذة والعلماء. لا بد أن نشعر فى الحقيقة بالفخر بهؤلاء؛ بل ونسعد أن أرضنا أبتت شخصيات تكافح فى عملها هناك، تساهم فى حضارة العالم المتقدم، تعطى للإنسانية الكثير وهؤلاء لا ينتظرون منا أبدا أن نلعن فيهم أو نسئ إليهم أو لسمعتهم ولذويهم وأهلهم هناك

٣- معنى أن أقباط المهجر يتحدثون عن أحوال أقباط مصر أو أحوال مصر

عموماً فذلك معناه - واصبر معي في هذه النقطة قليلاً - أنهم يشعرون بالانتماء إلى هذا الوطن والاهتمام بقضاياها ؛ يتابعون أحواله وأحوال ناسه، يقرأون أخباره، يسمعون نشراته، يدققون في المعلومات، يتصلون بالأهل والمعارف لتبنيان الحقائق، يقرأون الجرائد ويضعون آذانهم على الحوادث والمشاكل في بلدهم ؛ بل وتحرك مشاعرهم وتستثار عواطفهم فيما يخص وطنهم. يتابعون تحركات حكامة ومحة حكوماته ونتائج انتخاباته وهذا في ظني عين الانتماء. كان لهؤلاء أن يعتبروا أنفسهم أمريكيان أو خواجات خلاص، كان لهؤلاء أن يمتنعوا بالحياة الرعدة الفخمة والهنية هناك، كان لهؤلاء أن يعتبروا أمريكا أو كندا أو أستراليا وطنهم، دولتهم وأهلهم.. لكنهم لم يفعلوا ذلك، ولا فكروا فيه. بل صار كل اهتمام بل ونشاطهم مركزاً على مصر، أهل مصر. بماذا تسمى ذلك؟! أنهم لم يقتلعوا جذورهم، لم ينزعوا فروعهم من مصر، لم يتخلصوا من ذاكرتهم وذكرياتهم، لم يفقدوا تواصلهم واتصالهم ببلدهم. ماذا يمكن أن يكون هذا إلا انتماء يا سادة؟! بل لعلهم يبالبغون دون قصد أو دون معرفة في انتمائهم. فبالله عليك لو أنت في أمريكا ولو تلفت حولك قد يضع شغلك أو يفصلونك من وظيفتك ؛ حيث لغة العمل والمال هي اللغة الرسمية هناك، ومع ذلك تجد وقتاً لتفكر في بلدك أو حتى تمشي في مظاهرة من أجلها أو من أجل تغيير ما فيها أو تسمع أو تتسمع الأخبار، تهتم بالحياة السياسية، تعرف آخر أخبار حادثة تثار في الصعيد.. أنا عن نفسي لو كنت في واشنطن وعشت هناك بدل السنة عشرة فإنتي لن أحرص أبداً على متابعة أخبار إنجازات الحكومة بل لعل أسأل بين الحين والآخر هو مين دلوقت رئيس الوزراء في مصر؟ (...) على اعتبار أنني أعرف أن رئيس مصر لا يتغير!. وهاهم أقباط المهجر يعرفون كل صغيرة وكبيرة، يتصدرون في الهايفة والكبيرة. أليس هذا انتماء؟ انتماء ولا إيه يا بتوع المنطق؟!

٤- من الواضح أن أقباط المهجر قد استفادوا من التواجد في المجتمع الأمريكي أو الغربي فحبروا طرق التأثير فيه، اختبروا قدرة التأثير عليه ووصلوا إلى مناطق نفوذه، جماعات ضغطه وأعضاء إدارات حكومته، كما أنهم استفادوا من الحرية

التي تعلموها هناك طبعا فقد كان عندهم مثلنا أمية، حرية، وجمل ديمقراطي لكنهم تعلموا وتشجعوا في نشر البيانات، توزيع الاحتجاجات، التجروء على من يعتبرهم البعض عندنا في مواضع القداسة ومواضيع الخطورة.. وهذا كله يفيد أكثر مما يضر.. نعم يفيد قضايا مصر والوطن العربي، لكنه إذا استطعنا أن نجعل من هؤلاء الأقباط المصريين المهمومين بنا والمهتمين بوطنهم حتى الآن قوة ضغط لصالحنا على المجتمع الغربي الأمريكي. أن نجعل من نفوذهم وعلمهم وأعمالهم وفلوسهم وتنظيمهم جماعة ضغط ولوبي مصرى عربى داخل الولايات المتحدة الأمريكية وإداراتها المختلفة وتتعلم من الصهانية اليهود (...). لكن طول ما إحنا شغالين فى الاتهامات الحيانة والعمالة فطبعا لا أمل ولا عمر.

إن ما فعله الحكم فى مصر من استبعاد ملايين المصريين فى الخارج من حق التصويت هو محاولة رخيصة ومبتذلة لمزيد من التزوير ولضمان التدليس لفوز مرشح الحكم لكنه فى الحقيقة قرار غبى كأنه يفصل المصريين عن وطنهم وكأن الحكومة تقول للملايين من أبناء مصر: غوروا فى داهية اللي ما يرجعكم.... وأظن أن المصرى العاقل الذى سافر سيتمسك بعقله وسيظل مسافرا وقولوا لعين الشمس ما تحماشى أحسن حبيب القلب صاحب ماشى!

حكومة لها شعب

كلما سألتني واحد يا أستاذ قل لنا الحل؟ أرد وأقول لا يوجد لدى حل إلا لما أعرفك ما هي المشكلة؟

مشكلة مصر أنها لا تعرف مشكلتها وليس أنها تجهل طريق الحل، ؟
إذا صبرت معي قليلا سوف تعرف الحل ولكن لو تعبت معي أكثر سوف تعرف وهذا هو الأهم مشكلتنا نحن المصريين، أريد فقط أن يكون الهادى المرشد فى هذه السطور هو كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان ومن المؤكد أنك سمعت بهذا الأسم هنا أو هنا، فى مكان ما ومن شخص ما، خصوصا وأن كل من يحبون الحديث عن عبقرية مصر وما إلى ذلك من وصفات التضخيم والتبخير لمصر يتحدث عن هذا الكتاب وهو بالمناسبة كتاب لم يقرأه أحد كاملا تقريبا فهو يقع فى أربعة آلاف صفحة لكننا سنتوقف معا عند وصف وتحليل الشخصية المصرية كما كتب عنها هذا العالم الذى اعتزل الحياة ثلاثين عاما عاكفا فى منزله على كتابة أبحاثه وكتبه، يقول مثلا جمال حمدان عن أن مقولة روح الساحة والدمائة عند المصريين والتي سمعتها أنت مليون مرة منذ طفولتك حتى حفظتها صما وصدقها، روح الساحة هذه من وجهة نظر حمدان (هى المسئولة الأولى عن واحد من أخطر عيوب مصر وهى أنها تسمح للرجل العادى المتوسط بل "للرجل الصغير بأكثر مما ينبغى وتفسح له مكانا أكبر مما يستحق، الأمر الذى يؤدى -خاصة على مستوى النظام الحاكم حيث تحكم التفاهة حينئذ وتسود- يؤدى الى الركود والتخلف وأحيانا العجز والفشل و الإحباط، فى الوقت نفسه، كأنما لتضيف الإهانة الى الجرح كما يقال، ففى حين يتسع صدر مصر برحابة للرجل الصغير الى القمىء، فإنها على العكس تضيق أشد الضيق بالرجل الممتاز، اذ لا مكان له فى

توسطها ووسطيتها، وأفضل مكان له خارجها (تذكر نجاح المصريين مؤخرا في المهجر) فشرط النجاح والبقاء في مصر أن تكون اتباعيا لا ابتداعيا، تابعا لا رائدا، محافظا لا ثوريا، تقليديا لا مخالفا، ومواليا لا معارضا، ولذلك فإن مصر ليست ولا يمكن أن تكون ثورية حقا، وبالتالي غير خالقة ولا قائدة جدا.

هل توقفت معي عند مفهوم جمال حمدان أن الرجل الصغير بمعنى التفاهة والضالة هو من يتمكن من السيطرة والحكم في مصر ومن ثم يسود العجز والفشل، الله الله، هذا ما يكتبه حمدان عن مصر عام ١٩٨٢ تاريخ نهاية كتابة هذا الكتاب، تعالى نكمل بحثا عن الإجابة عن سؤال ما هي مشكلة مصر..

يقول حمدان أما رضا الشعب المصرى بالقليل فهو (أساس التخلف، والرضا بالواقع عجز عن تغيير الواقع وخضوع له. بالمثل صرفتنا القناعة عن الطموح الكبير، القنوع هو زهد العاجز وفلسفة "الفضيلة عجز" وهو ضمان بالخنوع والخضوع. والصبر هو الآخر، بديل عن الإصرار الطموح وتواكليه لا توكل وقعود لاصمود. إنه تبرير للعجز وحلم بغير اقتدار.. من نتائج ذلك، مثلا، أن المصريين إذ تركوا الحكم والسيادة وكل "الأعمال المشرفة" كالحرب والسيطرة للأجانب، راحوا يبررون ذلك "بزهدهم" فيها وانصرفهم إلى بناء الحضارة والعمل المنتج الدءوب، ولكن الذى حدث بالفعل أنهم أصبحوا رعايا للرعاة بل عبيدا للأجانب. ومن نتائج هذا له وأمثاله أن مصر عموما لم تكن صانعة التاريخ أو سيدهته دائما، وإنما خامتة في كثير من الأحيان، ولا نقول خادمته أو "سندريللاه" أحيانا... فالشعب المصرى طيب لابس به أصلا كخامة، إلا أنه طيب أكثر من اللازم، طيب بدرجة ساذج أحيانا، وساذج بدرجة عاجز نوعا، وعاجز بدرجة مسالم نسبيا، ومسالم بدرجة خاضع الى حد ما.

من المفيد أن نقرأ لعالمنا ومفكرا وهو يحلل شخصيتنا المصرية لأن واحدة من آفاتنا الشخصية أننا كسرنا المرايات ولم نعد نرى أنفسنا على حقيقتها بل كما نريد ونهوى وتخييل ثم نصدق الكذبة وهو ما أدى الى ما يكتبه جمال حمدان: (إن سلبية المواطن إزاء الحكم جعلت الحكومة هي كل شيء في مصر والمواطن نفسه

لاشيء، فكانت مصر دائماً هي حاكمها. وهذا أس وأصل الطغيان الفرعونى والاستبداد الشرقى المزمى حتى اليوم أكثر مما هو نتيجة له. فهو بفرط الاعتدال مواطن سلس ذلول، بل رعية ومطية لينة، لا يحسن إلا الرضوخ للحكم والحاكم ولا يجيد سوى نفاق السلطة والعبودية للقوة وما أسهل حينئذ أن يتحول من مواطن ذلول إلى عبد ذليل). ومن الذل الى النفاق ينتقل حمدان كاتباً). المؤسف أن النفاق إن لم يكن الوجه الآخر لأسود صفة وأسوأ سبة وهى الجبن، فإنه تعبير عن انتهازية "الفهلوة" والوصولية الزاحفة، لا غرابة إذن فى أن تكون السلطة والحكم والنظام فى مصر دائماً وأبداً هى أكبر دعاة الاعتدال المصرى المزعوم وأشد المهللين المحبذين المزينين له ومحترفي النغنى المخادع الماكر به. ذلك لأن هذا الاعتدال المرضى ليس فقط ضمان البقاء المطلق لهم، ولكن أيضاً ضمان التسلط والسيطرة المطلقة. فمجتمع هذا النوع من الاعتدال العاجز هو مجتمع بلا صراع، ومجتمع بلا صراع هو مجتمع من العبيد أو قطع من الأبقان.

وإذا كان النظام الحاكم يباهى دائماً بما يسميه "الاستقرار" فى المجتمع المصرى، إنما هو استقرار الجسد الميت والحثة الهامدة. فإن ما تعاني منه مصر حقيقة إنما هو فرط الاستقرار.

هل شكك فى قلبك كلام دكتور جمال حمدان، هل نخز ضميرك، هل وخز عينك؟ أنا أوافق على كل حرف قاله بل لقد وجدت فيه ما كنت أكتبه وأعلنه قبل أن أقرأه فيرفضنى الناس متهمين قلمى بتعذيب الذات وجلد النفس، فى تلك اللحظة التى نعيشها فى مصر، لحظة الرغبة الحارقة للتغيير من الممكن أن نقرأ فى وجوه حاكمنا وكهننته ووزرائه وقيادات حزبه نفس الحقائق التى كتبها عنا جمال حمدان من ثلاثة وعشرين عاماً، كتب يقول فى دقة رؤية كأنما العلماء يبرزون كورثة الأنبياء أمامنا (مأساة مصر فى أنها لا هى تنهار قط ولاهى تنور أبداً ولاهى تموت أبداً ولاهى تعيش تماماً إنما، هى فى وجه الأزمات والضربات المتلاحقة تظل فقط تنحدر تندهور تطفو وتتعثر دون حسم أو مواجهة حاسمة تقطع الموت بالحياة أو حتى الحياة بالموت منزلة أثناء هذا كله من القوة إلى الضعف ومن الصحة إلى

المرض ومن الكيف إلى الكم وأخيراً من القمة إلى القاع بل ولعلها ما عاشت آلاف السنين دون أن تموت إلا أنها استبدلت المرض المزمّن بحياة الصحة وحيوية الحياة أى استبدلت طول العمر والحياة الطويلة بالقوة والحياة العزيزة الكريمة وهوما يسميه البعض " معجزة مصرية فى التاريخ فهى معجزة العجز تلك).

بالضبط ما يغمز به البعض أحيانا من أن خير ما فى المصريين أنهم يملكون مصر، بينما أن أضعف ما فى مصر هو المصريون..

وإذا كان بعض المصريين، فضلا عن غير المصريين بالطبع، لا يرى مبررا قويا ومقنعا لأن يردد مع مصطفى كامل مقولته الشهيرة "لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا"، فليس هناك مبرر بالتأكيد لأن يقول ذلك ولعله فى هذا السياق أن تساءل بعض المثقفين المصريين عما أعجب مصطفى كامل من الصفات "فحرص على أن يختار مرة أخرى أن يكون مصريا، بعد أن وجد نفسه مصريا".. ثم أردف التساؤل مفسرا أكثر مما يبدو مستفسرا: "هل أعجبه من المصريين أنهم يحبون الكلام والخطب والتهافتات والشعارات مثل: لو لم أكن مصريا.. إلخ؟".

ثم ينتقل جمال حمدان للتحدث عما فعلته الأنظمة الحاكمة فى الشعب المصرى فيقول عن نظام يولية ٥٢ (من المؤسف أن النظام الذى ما قام إلا ليحقق للشعب العزة والكرامة التى حرم منها طوال تاريخه، وكان شعاره التقليدى "إرفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد". لم يحقق إلا عكس الشعار تماما من الناحية العملية.. إذ لم يلبث أن إنحرف ودخل فى "عهد إرهاب" حقيقى، فتورط فى المصادرات والحراسات والاعتقالات بل والتعذيب بالجملة، وتحول بالتدريج إلى القهر والكبت والقمع وتهميط وقولبة الفكر والعمل السياسى وواد الرأى الحر أو المعارض..

وفى إطار "أم إيسار؟" هذا القفص الحديدى الذى لم يسمح قط بالرأى الآخر أو المعارضة، ثم "تعميم" الشعب سياسيا.. فبينما لم يكن للشعب أى حق - رغم الشكل البرلمانى الزائف - فى النظام الإقطاعى قبل "الثورة" إلا حق المتفرج، أصبح للشعب فى ظل هذه "الثورة" الحق فى أن يقول "نعم".. وهكذا تلخص

التحول الجديد في معادلة محددة ولكنها محزنة وهى: من دولة بوليسية "وسيلة" تحكمها الشرطة إلى دولة بوليسية "عصرية" يحكمها الجيش، أو من ملكية بوليسية إلى جمهورية عسكرية، أو أخيرا من إقطاع مدنى إلى إقطاع عسكرى، وبعبارة أخرى.. فكما شخص بعض منظرى العهد فيما بعد، انتقلت مصر إلى مزيج من الفرعونية الجديدة والملوكية الجديدة).

ثم يضرب جمال حمدان ضربته الكبرى فى كتابه الضخم المذهل حين يتحدث ولاحظ أنه كتب هذا الكتاب مع نهاية السبعينات وحتى ١٩٨٢، كتب عن الجمهورية الملكية، حلاوتك يا حمدان ألهذا قالوا عنك مجنوناً، كتب يقول:

(سرعان ما ظهرت أعراض عريضة وميول جامحة جانحة من مظاهر الملكية بل والإمبراطورية، كأنما هى ملكية مؤقتة غير وراثية غير مدنية، أى باختصار ملكية مقنعة فهذا، مثلا، تكاد تقول أول "إمبراطور جمهورى"، وهذا أول "ملك جمهورى"، وهذا وهذا إلى آخره، وتلك جميعا هى بكل وضوح أعراض وأمراض الحكم المطلق وحكم الفرد..... وفى هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمى. فمكان مصر ومكاتها الدولية كقوة سياسية، انتصارها وهزيمتها عسكريا، مصيرها وبقاؤها.. إلخ، كل أولئك بين يدى شخص فرد واحد، بينما الشعب مقود غصبا ولا شيء عمليا.. والنتيجة المنطقية، ولا تقول الحتمية، هى الهزيمة والنكسة ثم الاستسلام والنكبة.. ومن هنا كانت الفرعونية الجديدة هى ببساطة ولكن بصرامة "الفشل فى الداخل والهزيمة فى الخارج"، "الطغيان فى الداخل والركوع فى الخارج". ومن الصعب أن نحدد من السبب وما النتيجة: هل الهزيمة العسكرية فى الخارج نتيجة عقابية للاستبداد الانقلابى الجبان فى الداخل، أم أن الاستبداد الداخلى هو تعويض مريض عن العجز والانكسار المشين فى الخارج؟

ثم يرد جمال حمدان على كل ما سمعناه عن الخصوصية المصرية فى الديمقراطية وقينا وكل هذا الحرف الذى يردده الأفاقون والكهنة حين يفصح عن ضمير الحقيقة فيكتب (مجرد الحديث عن الديمقراطية فى ظل "ما يحدث" إنما هو امتهان للعقل البشرى وإهانة للإنسان المصرى.

حسنا "أم أسفا؟"، فتلك على أية حال هي في جوهرها "ديمقراطيتنا" أو "الديمقراطية على الطريقة المصرية"، والتي نسرف في الحديث عنها والنغنى بها... فالديوقراطية الجديدة في مصر، ديمقراطية الإذعان والموافقة، إنما هي تفويض من الشعب، وباختيار الشعب، أى ديكتاتورية باسم الشعب، أو هي الديكتاتورية بيد الديمقراطية وتحت قفازها، أو بصيغة مباشرة أكثر هي وأد وقتل الديمقراطية بيد الديمقراطية ذاتها.. باختصار، هي مسخ للديمقراطية بقدر ما هي سخربة منها هل نضيف (أبنا حاجة؟) وم كما ذا بمصر من الديكتاتورية ترتكب باسم الديمقراطية؟

من هنا جميعا فرغم أن الشكل النيابي البرلماني الأوروبي الصورة في مصر متخلف عنه في بلد كبريطانيا مثلا بنحو ١٠٠ سنة فقط، فإن مصر موضوعا ومن حيث الحكم والحاكمية قد تكون متخلفة عن بريطانيا ١٠٠٠ سنة على الأقل. أى أن مصر اليوم قد تكون في مرحلة بريطانيا الملك جون "وميتاقه" الشهير ما تزال، ذلك أن الفرعونية السياسية والطغيان الفرعوني مازالت معششة متغلغلة في نظام الحكم خلف واجهة أو قناع الديمقراطية العصرية).

ويشرح ويجرح حمدان حين يقول:(والحقيقة أن الحكومة هي كل شئ في مصر، تحكم كل شئ، ووحدها تملك، كل شئ بما في ذلك الحكمة والرأى والصواب وفصل الخطاب. وما كانت الحكومة ملك الحاكم، والوطن ملك الحكومة، فإن مصر في النهاية ليست شعبا له حكومة بقدر ما هي حكومة لها شعب)..

هل عرفتم مشكلة مصر كما يتصورها جمال حمدان وكما أوافقته أنا العبد الفقير المعترف بالتقصير، المدهش (هل أخذت حقلك من الدهشة أم لازلت في حاجة الى زيادة؟). إن مشكلة مصر هي حلها، إزاي إنشاء الله، هي كده بالضبط والله العظيم، يقول حمدان:

(نظل الديمقراطية هي مشكلة مصر الأولى فهي وإن لم تكن مشكلتها الوحيدة أو الأخيرة، فإنها مفتاح جميع مشاكلها الأخرى بلا استثناء لا شئ يسبقها، ولكنها تسبق الجميع. جميع مشاكل مصر وأزماتها وكوارثها الداخلية والخارجية، في الإنتاج

والحضارة والتقدم، مع العدو الإسرائيلي والأشقاء العرب، مع القوى العظمى والصغرى، كل انحدار أو سقوط مصر في الحرب أو في السلم، كافة عيوبها ونقائصها وسلبياتها ومثالبها في المجتمع والفرد كما في السياسة والاقتصاد مصدرها وسببها الرئيسي هو الاستبداد الداخلى الغاشم والطغيان الفرعونى المقيم المستديم. لا السكان ولا الفقر، ولا حتى الاستعمار فى الماضى أو إسرائيل أو البترول العربى فى الحاضر، هى المشكلة الأم فى كيان مصر، وإنما مشكلة المشاكل وقضية القضايا هى قضية الديمقراطية الديكتاتورية أو نظام الحكم المطلق.. إنها هى أصل مشكلة مصر كلها، شخصية مصر، مصير مصر، رضاء مصر، بل وبقاء مصر، شخصية المصرى، كرامة المواطن المصرى، نفسية الإنسان المصرى، إعادة بناء الإنسان المصرى والشخصية القومية.. إلخ، فى كل هذا وغيره "فتش عن الديمقراطية أو غيابها"، فإنها هى حاكمها ومقرها وضابط ايقاعها مثلما هى مفتاح حلها جميعا.

لكن المعضلة العويصة هنا هى مآزق الحلقة المفرغة المعهودة، فإلى أن تتحقق الديمقراطية لن تتغير الشخصية المصرية، ولكن إلى أن تتغير الشخصية المصرية فلن تتحقق الديمقراطية! كسر هذه الحلقة، مع ذلك، فى يد الشعب، وذلك بأن يأخذ أمره فى يده مرة واحدة فى التاريخ، مرة واحدة وإلى الأبد، وهذا يتم بنصفية الديكتاتورية السائدة السارية أولا ثم إقامة الحكم الديمقراطى الشعبى المدنى.. وحين تتم هذه الفورة الشعبية فسيكون قد تم كسر حلقة الطغيان - الذلة المفرغة البغيضة ويكون قد أعيد تلقائيا بناء الشخصية والإنسان المصرين المقترى عليها. الديمقراطية لا تمنح ولكن تنتزع، لا تستجدى من الديكتاتور وإنما تفرض عليه فرضا بقوة الوعى وفعل القوة ويبد الشعب نفسه...

ومصر، التى كانت ومازالت هى حاكمها، لن تتطور وتصبح شعبا حرا إلى أن تصبح هى شعبها لا حاكمها. وإلى أن تصبح ملكا لشعبها لا لحاكمها، فستظل أمة من أشباه العبيد فى الداخل وأشباه التابعين فى الخارج لن تصبح مصر شعبا حقيقيا راقيا أيا عزيزا فى دولة حقيقية متقدمة متطورة إلا إذا صار الشعب هو

الحاكم والحاكم هو المحكوم.. فى كلمة واحدة: لن تتغير مصر، ولا مستقبل مصر، إلا
حين يتم دفن آخر بقايا الفرعونية السياسية والطغيان الفرعونى).
لن أضيف حرفاً
خلاص سكت الكلام وعدم!

تمام يا أفندم

تتمتع الحياة السياسية المصرية بميزة لا تتمتع بها معظم بلدان العالم المتقدم،
فالساحة السياسية المصرية تضم بين صفوفها عددا مدهشا من حيث الكثرة
والإخلاص من المتعاونين والمتعاملين والعلماء لجهاز أمن الدولة!

وجهاز أمن الدولة للذى لا يعرف هو الجهاز السياسى والأمنى الأهم فى هذا
البلد بل هو الذى يحكم من خلاله الرئيس كل مناحى ونواحى الحياة فى مصر فلا
يمكن تعيين عمدة فى كفر ولا رئيس وحدة محلية فى قرية ولا معيد فى كلية ولا
عميد فى جامعة ولا رئيس تحرير فى صحيفة حكومية ولا عامل فى مطبعة ولا
خطيب فى جامع ولا مذيع فى تليفزيون أو إذاعة ولا أحد فى أى وظيفة فى مصر
لها علاقة بالناس أو الدولة إلا ولا بد من موافقة أو استئذان أو ممالأة أو منافقة
جهاز أمن الدولة، بل يمكن أن تكون أجهزة أخرى كالرقابة الإدارية أو جهاز
الكسب غير المشروع معترضة على تولى شخص ما مسئولية فى مكان ما ولكن
أمن الدولة موافق إذن يتعين وأكبر تخين فى البلد يبقى يفتح بقه بكلمة!!

طبعا لا أنوى أن أحكى عن مسئولية أمن الدولة عن جرائم الاعتقال
والتعذيب التى تكفى لمحاسبة أى مسئول أو ضابط فى هذا الجهاز منذ عصر
عبدالنصر وحتى فترة مبارك الحالية أمام محاكم جنائية دولية، فهذا أمر يطول
شرحه ويتسع جرحه وفيه من المأسى الإنسانية والضعف البشرية والوضاعة الآدمية
ما لا يحصى ولا يعد من تعدى وضرب وسحل ونفخ وخوزقة وحرق وتحرش
ودناعات لا تطيقها نفس وتعف عنها حتى الحيوانات فى الغابة، لكن ما هو مؤكد
أن نظام مبارك مدين لهذا الجهاز بتأمين استقراره واستمرار بقائه، فقد تمكن هذا
الجهاز عبر عمل دؤوب من تجنيد عدد كبير من العاملين بالحقل السياسى

والإعلامي ليصبحوا أتباعا له أو متعاونين معه، واستطاع الجهاز نفسه ترهيب وتهديد كثيرين من المشتغلين بالإعلام و المهومون بالسياسة والوطنيين في الجامعة. حتى خفت صوتهم وانحسر وجودهم، وكذلك أفلح الجهاز في مكافأة رجاله وعملائه وتصعيدهم والعلو بهم إلى مناصب صارت المتحكمة في عصب وأعصاب البلد كلها وصار الجهاز الآن في أزهى عصوره انتشارا وانتشاء وقد تمكن من بسط نفوذه على جميع منافذ وثغور وفتحات الحياة السياسية في مصر، ورغم أن هذا الجهاز هو أحد فروع وإدارات وزارة الداخلية إلا أنه بمثابة القلب من الجسد في الوزارة فهو المنوط به كفاءة استقرار الحكم وقد توحش الجهاز تنظيميا وتسرطن في وجوده في الجسد المصرى خصوصا مع نمو الإرهاب المسلح في البلد والمذهل حقيقة أن جهاز أمن الدولة - كما أجمعت كل الشهادات التاريخية - هو المسئول عن إنشاء فصائل وجماعات التطرف الأولى في مطالع السبعينات لمحاربة التيار اليسارى في الجامعة والساحة الجماهيرية بل وتؤكد مصادر مطلعة لا سيبل للشك فيها أن ضباطا من أمن الدولة تنكروا في هيئة طلبة جامعيين إسلاميين ومارسوا التجنيد للشباب وضمهم للجماعات الإسلامية وكانت هناك قيادات في التطرف ليست صنيعة أمن الدولة فقط بل ضباطا فيها بواقع الرتبة وسجل الخدمة، ثم وكما هو متوقع تماما عندما تربي أسدا في بيتك فهو في الغالب إذا لم يفترسك سوف يهرب من البيت وهو ما جرى، وساعتها تحولت صناعة الأمن للجماعات الإسلامية والتحالف بينها إلى صراع دموى رهيب بين الطرفين رغم ما بذله جهاز أمن الدولة من تيسير تسفير آلاف من الشبان إلى أفغانستان حين كان مطلوبا من جهاز الأمن المصرى إمداد الساحة الأفغانية بالرجال وكان الأمن السعودى مسئولا عن إمداد الساحة نفسها بالمال (من أعجب ما قرأ رسالة كتبها مدير أمنى سعودى لأسامة بن لادن بعد ١١ سبتمبر يلومه على هذه الجريمة بعد سنوات الجهاد في أفغانستان التي عاشها معا!!) ولعل من المهم أن نذكر هنا بأن أكثر ضحايا أفراد الشرطة الذين كانوا مستهدفين من الجماعات الإرهابية في التسعينات هم من ضباط أمن الدولة ومن ضباط السجون والسبب هنا أوضح من أن يوضح،

فهؤلاء الضباط هم الذين صنعوا أو دبروا أو طاردوا أو عذبوا، ويبدو أن الدولة بعد كل هذا العك الأمنى والسياسى قد استمرت وفرحت بتعامل أمن الدولة مع الإرهابيين والمتطرفين والمشتبه فيهم واعتمدت سياسة المواجهة الأمنية مع التطرف فانهى الأمر إلى مسخرة من شقين، الأول هو ٢٢ ألف معتقل فى السجون تحت دعاوى التطرف فأخذوا البرئ بالمتهم، والأخ بأخيه والابن بأبيه، فصارت مصر معتقلا كبيرا لسجناء الرأى بدون محاكمات وبلا أى سند قانونى غير قانون الطوارئ الذى فقد معنى اسمه تماما فكيف يكون طوارئ وهو موجود ومطبق منذ أربع وعشرين سنة لقد صار قانون الثوابت مش «الطوارئ»، أما الشق الثانى من المسخرة أن التطرف الدينى لم ينته أبدا وعلى الإطلاق ثم تصاعد الأمر إلى حد أن العمليات الإرهابية باتت أخطر فى نتائجها وأسهل فى تدبيرها!

ثم كان من محام هذا الجهاز كذلك هو التعامل مع الأقباط فى مصر فالحوادث التى شهدت احتقانا بين المسلمين والمسيحيين صارت من مسؤوليات وتكليفات جهاز أمن الدولة فلا يوجد ولد مسلم يبجب بنتا قبطية أو بنت مسلمة ماشية مع واد قبطى إلا وصارت تلك قضية لا تحلها عقول ناضجة فى عائلة ولا وعى شيخ وفطنة قسيس بل يحلها ضابط أمن الدولة، وعندما يشكو أى جار مسلم جاره القبطى مثلا لأن كليهما جاران فى الرخامة والرزالة فتكون هذه الشكوى محنة أمن الدولة وليس شيخ الحارة، ثم بات إسلام البنات المسيحيات هو قضية أمن الدولة الأثيرة التى لا نراها تدافع عن حرية العقيدة والتفكير إلا لو كانت حرية مطلقة قبطية فى اعتناق الإسلام، وكل يوم تتفاقم الاحتقانات و الاضطرابات بين المسلمين والمسيحيين (دعك من الخطب الفارغة التى يدعى فيها كل طرف السماحة والاعتدال) بفضل وبفضل أن أمن الدولة هو المنوط به حل ومتابعة ومسئولية هذه العلاقة الشائكة!

ولكن يبدو أخطر دور يلعبه جهاز أمن الدولة واضحا فى الصحافة والأحزاب السياسية، فقد اخترق أمن الدولة الصحافة ومؤسساتها وصحفيها تماما، سواء الاختراق المباشر عبر تجنيد أو تعامل أو تعاون عاملين بالحقل الصحفى مع

الجهاز الأمنى واستخدامهم فى كل المهام المطلوبة أو عن طريق التنصت والتجسس والتلصص، أو عن طريق التحكم فى تصعيد الصحفيين للمناصب والذى يبدو أن رضا الأمن وصداقة الصحفى للأجهزة (مشيها صداقة) هى الشرط الأول للترقى وتولى أعلى المناصب، ومن قمامة القول أن يعتبر البعض الولاء لجهاز أمن الدولة والعلاقة الوطيدة والوثيدة معه أمرا عاديا لا ينتقص من الشرف ولا يلوث السمعة! وبالإضافة إلى اختراق وتحكم وحصار أمن الدولة للصحفى فهى كذلك تحاصر المهنة سواء بالتحكم المريع فى المطابع أو وسائل التوزيع أو المكتبات وباعة الكتب والصحف!

أما الأحزاب المصرية فهى خاضعة تماما لسيطرة واختراق جهاز أمن الدولة فلا يمكن خروج حزب أساسا إلا عن طريق موافقة الجهاز واتفاقه مع رجال الحرب ورؤسائه ثم هناك عدد كبير من مخبرى الأمن ورجال الجهاز أعضاء فى هذه الأحزاب، ثم هناك قيادات أحزاب تحت إشراف وتعليقات مباشرة من جهاز الأمن، كما أن هناك قيادات حزبية فى هيئات ولجان كل حزب منتمية بالعمالة أو بالتوافق لجهاز أمن الدولة ويحركهم الضابط المسئول كيفما شاء وبما أراد فى أى وقت ولحظة وليس بعيدا عنا حقيقة أن كل انشقاق داخل حزب (من أول حزب العمل ومرورا بكل الأحزاب المجددة وحتى المسرحيات التى نشاهدها من آن لآخر) هو انشقاق صنعه جهاز أمن الدولة عبر رجاله فى كل حزب لتجميد الحزب أو تأديبه أو تهذيبه، وكنت أعتقد منذ فترة أنه لو شخبط أمين شرطة فى رئيس حزب من إياهم لتبول رئيس الحزب على نفسه خوفا ولكنى بت أعتقد فى خطأ ذلك تماما فالمؤكد أنه لو شخبط مخبر أو فراش مكتب ملازم شرطة فى وجه رئيس حزب لتبرز رئيس الحزب على نفسه فرقا وفرعا واستجاب لما يأمره به سيده!

ليست لدى معلومات دقيقة حول ميزانية جهاز أمن الدولة لكن ميزانية وزارة الداخلية بلغت أربعة مليار جنية وهو أمر يسمح لك بتقدير ميزانية أهم أضلاعها لكن الأخطر من حديث المال والأرقام هو حديث الضمير خصوصا الضمير المستتر (تقديره هو!) فالحاصل أن ضباط أمن الدولة يخلطون تماما بين أمن

الدولة وأمن الرئيس، فليس كل معارض لمبارك أو رافض لسياسته أو طامح لتغييره هو عدو للدولة بل هو مجرد خصم سياسى للرئيس وحزبه وحكومته، لكن جهاز أمن الدولة لا يرى أمامه ولا يعرف سوى الذين يجبون ويركعون أمام النظام ولا يعتقد أن مسئولية الأمن هى حماية الوطن والمواطن بل هى حماية بقاء الرئيس أو الحاكم على عرشه، خصوصا أن هناك أجهزة فى الدولة منوط بها المسئولية الأمنية عن حماية حياة الرئيس لكن أمن الدولة يصر على حماية حياة الرئيس من النقد والمعارضة، ولهذا يجمد أحزابا ويغلق صحفا ويعتدى على صحفيين ويتجسس على مقرات الأحزاب ويثير القلاقل والانشقاقات فى تيارات معارضة ويصادر كتباً ويقبض على متظاهرين ويشهر بخصوم الحكم ويدنس سيرة وسمعة المعارضين ويقبض على بعضهم بتهمة العمالة (القضاء ينسف هذه الاقتراءات والبلاءات) كل هذا لأن جهاز أمن الدولة يفقد الرشد السياسى الذى يحتم عليه فهم أن معارضة الرئيس ليست ضد الوطنية ولا انتقاصا من ولاء الشخص لوطنه وأن الإنسان يمكن أن يكون محترما وآمنا ومعارضاً كذلك لحسنى مبارك وهيه فيها إيه دا حتى الملحدين المعارضين لربنا عايشين فى أمان!

أعرف أن وجود جهاز أمن الدولة مع غياب الشفافية الكاملة لأعماله ومع غياب المحاسبة التامة على أفعاله ومع استخدامه لحراسة النظام وحماية استقرار الرئيس على الحكم وإضعاف وتكسير عظام المعارضة وتدمير دوائر الرفض السياسية، وجوده بكل هذا دليل على نظام يدير الوطن كله بالأمن وخصوصا أمن الدولة... ووضوح من جهاز أمن الدولة أكبر حزب سياسى فى البلد هو الذى يحمل على عاتقه إنهاء حياة أى معارضة والتنكيل بأى خصم والتشهير بأى معارض عن طريق الغلق والضرب والمصادرة والتعذيب والتجسس و كذلك استخدام الصحافة والإعلام فى حروب قدرة واتهامات فاجرة.

لا يوجد فى أى دولة محترمة جهاز أمن مخصص لمحاربة المعارضين ومطاردة الخصوم السياسيين، هذا فقط موجود فى مصر وليبيا وسوريا والعراق والسودان واليمن وتونس وكل الدول العربية الشقيقة التى تعانى

من التخلف والاستبداد والفساد!!

لكن المشكلة الفادحة هي نطل تحول جهاز أمن الدولة إلى جهاز لأمن الحاكم والدمج بين الإخلاص للرئيس والإخلاص للوطن فلا يمكن أن تكون وطنيا محبا لمصر من وجهة نظر أمن الدولة إذا كنت كارها للرئيس أو معارضا واضحا وحادا له، لا يرضى جهاز أمن الدولة بغير المواليين له وللنظام الحاكم وهو يتخير عملاءه في عالم الصحافة تحديدا من ذوى الموهبة المتوسطة والضحلة الذين يدركون أنهم لن يصعدوا ويترقوا إلا بمساعدة ودفع من جهات وأجهزة لهم، وإلى جانب ضعاف الموهبة هناك أصحاب النفوس الرعديدة والذين يخافون من ظلهم وتربوا على قمع وقهر من المجتمع أو العائلة فيلجأون للعمالة مع الأجهزة للاستقواء والحماية، وهناك كذلك نوعية من المتعاونين مع الأمن الذين يأتون من أسر غير كريمة القيم ولا أصيلة الجذور وهؤلاء يتصلون من أصولهم بالانتماء إلى دوائر تصنع لهم أصلا جديدا وتاريخا بديلا عن تاريخهم الشخصى الوضع، ثم هناك المتعاون والمتعامل مع أجهزة الأمن نتيجة كسر عينه وإبترازه إما بقضية تلبس أخلاقية أو شذوذ وعوار أخلاقي أو فساد مالى، ثم على الطرف الآخر هناك الضابط ذاته والذى يتصور نفسه بحكم الموقع والتعود حامى مصر من أعدائها وحارس الوطن الأمين والمخلص من المعارضة والمعارضين، ويتماهى الضابط مع محمته إلى حد أن معظمهم يتحولون إلى خصومة شخصية عميقة وعصبية مع معارضى النظام وكذلك يضمرون حقا شخصا معلنا ومكتوما ضد المعارضين، فضلا عن أن ثقافة الضابط محدودة وقشرية تعتمد على المحفوظات والأناشيد الوطنية المدرسية الساذجة ويرون الحياة كلها حتى فى بيوتهم ومع أولادهم على نحو من التعليمات والأوامر والزواج وتقدیس الرتب الأعلى وتنفيذ القرارات حتى لو كانت ظالمة، بينما السياسة والثقافة عكس ذلك كلية وتقيض هذا تماما فهى بالضرورة محاورات ومناورات وجدل وتمرد ومناظرات ولذلك تنضح كراهية الضابط للمثقف والسياسى المعارض فهم يضمرون كراهية واحتقارا للمثقفين، وللثقافة، أحد الضباط قال لى (فى مقابلة تشبه مشهدا جمع آل باتشينو مع روبرت دينيرو فى فيلم "heat" إن المثقف فى

مفهومه هو الرجل الذى يلبس «صندل» فى الشتا وأسنانه سوداء من السجائر وأظافر أصابعه وسخة)

الحقيقة أن أسوأ ما فى الساحة السياسية المصرية أننا فقدنا الدهشة فلم نعد مندهشين من تعامل وعمالة أطراف سياسية وحزبية وصحفية مع المباحث ولم يصبح الأمر مستغربا أو مستنكرا أو مرفوضا ومذموما، الكل استسلم لسيطرة وتفوذ وهيمنة أمن الدولة على الجسد السياسى (نعم أقصد الإيحاء بالاغتصاب!)

ما الحل ؟

كلما عرضت وحللت مشهدا فى حياتنا المصرية سألتى كثيرون وما الحل ؟ أظن أن تفكيك جهاز أمن الدولة هو الحل، فلا يمكن أن تتقدم مصر وتتحرر ويصبح هناك حراك سياسى أو حيوية أمة أو يقظة شعب وانتخابات حقيقية وأحزاب قوية وهناك من يراقب كل معارض وبعد عليه خطواته ويتجسس عليه ويفتح له ملفات ويسجل عليه أنفاسه، إذا كان المطلوب هو مواجهة الإرهاب فليتم استحداث جهاز أمنى لمكافحة الإرهاب وإذا كان المستهدف منع الأيدي الأجنبية من اللعب فى أحشاء العمل السياسى والإعلامى فهناك أجهزة المخابرات والأمن القومى، لكن أن يكون فى مصر جهاز محمته مطاردة المصريين والتحكم فى وجهات نظر المعارضين ومصادرة الكتب وإغلاق الصحف وضرب الأحزاب وتدميرها وتعيين أساتذة الجامعات والسيطرة على العمد والعمداء فهذا معناه أننا نعيش فى نظام بوليسى فاش.. وغير كده يفتح الله!

مجرد رئيس

أسوأ ما حدث لمصر في الخمسة وعشرين سنة الماضية أن تحول الرئيس إلى نبى أو ولى لا يجوز نقد سياسته ولا مهاجمة قراراته ولا الطعن فى صوابها ولا انتقاد مواقفه ولا تنفيذ تصريحاته ولا كشف تناقضات كلامه ولا المواجهة والمكاشفة مع أى من قراراته ولا مواقفه، استطاعت الجوقة الحاكمة بقيادة صفوت الشريف وزكريا عزمى فى تكوين سحاب وحجاب حول الرجل وقراراته بحيث يتحول الرئيس عند الجميع إلى كائن مقدس، منزل من السماء ومنزه عن الهوى، وصار مبارك محصنا عن أى نقد أو نقاش أو رفض أو جدل وهو ما لا يوجد فى أى مكان فى العالم سوى فى الدول الديكتاتورية، فالولايات المتحدة الأمريكية نقد ومعارضة بل والهجوم على الرئيس الأمريكى بشخصه وبصفته متاحا مباحا فى المقالات والتليفزيونات والكتب فضلا عن مجالس النواب والشيوخ والأحزاب، الأمر نفسه وعينه فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وحتى روسيا على ما فيها من مخبرات تحكم، كل العالم المتقدم والمتطور من حقه أن ينقد ويهاجم رئيسه بسياساته أو تصرفاته وتصريحاته ولهذا يتقدم العالم بينما تتأخر نحن، فيما عدا الصين وهى تقول عن نفسها ديكتاتورية، دلتى على دولة واحدة مستبدة ورئيسها فوق النقد قد وصلت لتقدم اقتصادى أو رفاهية مجتمع أو معيشة كريمة لمواطنيها، العكس تماما الدول الصناعية التى تصدر العالم فى التصنيع والتصدير والتكنولوجيا وفى القوة العسكرية والاقتصادية هى الدول التى يتمتع فيها المواطن والصحفى والسياسى بحق مواجهة الرئيس ونقده والهجوم على أفكاره وآرائه، أما الدول التى تجعل رئيسها مفديا ومعظما وملهما وفوق النقد والحساب فهى موجودة فقط فى العالم المتخلف ولا تتقدم سياسيا ولا اقتصاديا وتتصدر دول العالم فى الفساد!

وبالذات في كوريا الشمالية وروسيا البيضاء وعراق صدام وليبيا القذافي وسوريا الأسد وعندنا في مصر وقد شاركت المعارضة في هذه التمثيلية ببطولة رئيسية، فالذين هاجموا الرئيس الراحل أنور السادات وعايروه بلونه وزبيبة جبهته (وهي أمور مشرفة في الحقيقة) والذين كتبوا في مجلات السعودية والعراق ومنظمة التحرير وليبيا يلعنون السادات ويتهمون به بالخيانة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذبا فلا أحد يملك اتهام أى مصرى أيا كان بالخيانة) عاد هؤلاء لمصر بنفس سياستها السقيمة ونفس استبدادها الملعون ونفس تطبيعها مع العدو الصهيونى ومع ذلك صاروا رجال عهد مبارك وكبروا وهللوا له ولسعة صدره ولديمقراطيته، رغم أن شيئا لم يتغير بلميم عن سابقه اللهم أنهم صاروا رؤساء أحزاب وصحف وأعضاء في مجالس عليا وكتبة في صحف الدولة وشعراء في معارض الكتاب، أى تقاسمو التورثة ونالوا نصيبهم من الغنيمة مصر (للصدفة كان الخليج والعراق وليبيا ومنظمة التحرير قد توقعوا عن تمويل المعارضة المصرية وتصالحو مع مبارك ومنعوا الهجوم عليه وعلى سياسته واختفت الدولارات والدينارات والريالات فأصبح الولاء لمبارك ضرورة سياسية وأكل عيش أيضا).

من يومها بتخطيط من صفوت الشريف وبفجاجة مذهلة من سمير رجب الذى كنت تخلط حين تقرأه هل هو يقصد النبى محمدا أم الرئيس محمد حسني؟ ويعزف مشترك من رموز الحكم والمعارضة خرج الرئيس من المعادلة وأصبح فوق النقد والمساءلة والمحاسبة المعنوية والأدبية والسياسية وصار لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يرد أحد على قراره ولا يمل أحد من الكلام عن حكمته، وصار التفضيم والتعظيم في مبارك هو الشرع والمنهج، والاحتفاء بعيد ميلاده وعيد توليه الحكم واجبا وطنيا «مطلوب من كل مصرى ومن كل مصرية على رأى الأغنية» وأسبغ عليه الإعلام صفات الزعامة والبطولة وصار كل ما يقوله تاريخيا وكل ما ينطق به صوابا ولأن الجميع يخطئ إلا الرئيس والجميع يتم نقده إلا الرئيس، وكان وزير الإعلام يقول لرؤساء التحرير في الحكومة والمعارضة معا: قولوا ما شئتم فنحن في عصر الحرية لكن لا تقتربوا من الرئيس وأسرته.. وبالزمن

أضيف صفوت الشريف وزكريا عزمي على قائمة المحرمات، وحين يكون المعارض شديدا غليظا فإنه لا يهاجم الرئيس أبدا بل يهاجم اللي حواليا، كأنه لا يمكن أن يخطئ "الرئيس هو بس ما حدث قاله الحقيقة"، ثم يلتمس المعارضون الأشداء التدخل من السيد الرئيس الذي لن يرضيه هذا القانون أو ذاك، وإذا تدخل الرئيس فتبدأ آيات الشكر والحمد من المعارضين ثم تراتيل وترانيم وصف الحكمة والعظمة الرئاسية من هؤلاء أنفسهم الذين أصدروا القرار الذي ألغاه الرئيس، ورغم ما في هذا الأمر من طرافة خطيرة حين نرتضى أن نشكو للرئيس كأنه لا يعرف ماذا فعل رجاله وهو ما يشير لليب أنه والحال هكذا لا يدري بما يجري حوله أو أن من حوله قادرون على تنفيذ أمور من ورائه أو بغير علمه وهو ما يتنافى مع أوصاف الاكتمال والاشتغال اللذين يلحون عليهما في مدح الرئيس، ومع ذلك فإنه لا يدري بما يجري كان أفضل عند مؤلفي هذه المسرحية من أن يتم نقد قراره مباشرة!!

وكنا في معركة قانون الصحافة العاشم والغبي الذي ثار ضده الصحفيون عام (١٩٩٥) لجاء قانون أغبي منه وأكثر غشما) نسمع الشيوخ والعقلاء إياهم من أهل مهننا يقولون: يا جماعة بلاش ضغط لازم برضه نسيب مسافة ولا نخرج الرئيس ونقول إنه هو الذي أصدر القانون، إحنا نقول أعداء الحرية والصحافة ونلجأ له فيصبح هو المنتقد وكأنه ليس صاحب القانون أصلا، وتم هذا السيناريو الرديء على مدى سنة كاملة حتى ألغوا القانون ولكنهم جاءوا بقانون يجبس الصحفيين وحبسهم فعلا.. وهو ما يسعى العقلاء والشيوخ وحكماء الخيبة بنفس السيناريو للالتباس من السيد الرئيس لإلغاء القانون الذي يوم أقره الرئيس شكرناه كلنا ورقصنا فرحا به واعتبر الصحفيون أنفسهم قد كسبوا!!، شفتهم إلى أى مدى من المأساة يمكن أن نصل بسياسة اللف والدوران وتقديس الرئيس وتزيهه عن أى خطأ!

ويجد المرء نفسه أمام أزمة ضمير حقيقية حينما نصرخ مطالبين بمحاكمة يوسف والى على سياسته الزراعية التي أدت بنا في داهية وجعلتنا نعيش أزهى عصور

السرطان والمبيدات، وأجد كتابا وصحيفين يطق لهم عرق وهم ينتفضون مطالبين بمحاكمته بينما لم يسأل أحد نفسه، طيب والذي عين يوسف والى والذي أبقاه فى الوزارة كل هذه السنوات والذي كان يمتدحه ويشكره والذي كان يدافع عنه أمام أى هجوم والذي صدرت فى عهده أحكام حبس الصحفيين الذين انتقدوا يوسف والى والذي كان يرفض رحيل والى مترا عن الوزارة والذي والذي والذي.. لماذا لا نسأله ولماذا لا نسأله؟ كأن يوسف والى كان خاطفا لوزارة الزراعة ومعلنا استقلالها عن مصر ورئاسة مصر!!

وحينا نتحدث عن نهب القطاع العام ونهاجم عاطف عبيد ونقول: إنه خرب مصر.. ألا يستحق الأمر أن نسأل ومن الذى جاء بعاطف عبيد وأجلسه على أنفاسنا ومنحه مصر خضراء مقشرة؟!

وعندما نتكلم عن أحمد نظيف وسداجته السياسية وانعدام شعبيته والأوهام التى يقولها وانحيازه للسافر للأغنياء وعن طول الفارع باعتباره الميزة الوحيدة الظاهرة له، نسى أن نسأل وهل فرض نظيف نفسه علينا وهل هبط بالبراشوت من كندا؟ لماذا لا نسأل ونسأل الذى عينه ووضع على هذا الكرسي؟

إن أهم الدروس التى كان عليه أن يتعلمها خلال انتخابات الرئاسة الماضية هو نزع القداسة عن الرئيس والتعامل معه على أنه بشر مثلنا، يصيب ويخطئ وليس ملها ولا ربانيا، وأتأنا يمكن أن نقول له لا وأنتك أخطأت وصحح خطأك أو أتأنا غير راضين عنك أو أتأنا نصوت لغيرك فهو أفضل منك من وجهة نظرنا، ليس ممما من يكسب، مبارك أو غيره، المهم أن تكسب مصر نزول رئيسها من مصاف الفراعنة والأنبياء إلى مصاف البشر فلا يوجد نبى منتخب ولا يوجد فرعون نصوت له فى صندوق الانتخاب، أصل الداء فى مصر هو تقديس الرئيس وهو ما سيحاسب الله عليه كل يد وفم ولسان شارك ويشترك فى تقديس الرئيس وسوف يلتقى كل آثم غمسا وغرسا فى نار جهنم من رب منتقم جبار، وأصل الداء فى مصر هو بشرية الرئيس وعاديته، إنه مواطن بصلاحيات رئيس جمهورية وليس ملاكا خطف رجلاه من السماء لزيارة أهل الأرض، أعرف أن هذا حصل مع

عبدالناصر والسادات قبل مبارك لكن الوقت طول قوى مع الأخير إلى حد أن
صدق الناس أنه لا يمكن أن يتم نقده ولا ترد إرادته ولا تنفض دورته، وأعلم أنه لا
معنى في مصر التي تعبد حكامها وتقرعهم لانتخابات رئيس بدون تحديد مدة
الرئاسة حتى لا يصبح حاكما للأبد فوحدهم الأنبياء الذين لا تنتهى مدتهم أبدا!!

قرنى

لماذا يصبر الشعب المصرى على التعامل مع مبارك على طريقة اللى يجوز أمى أقواه يا عمى؟

لماذا يبدو الشعب مستسلما رخوا ومائعا أمام حكم مبارك الأبدى الذى أوصل المواطن المصرى إلى ما هو فيه من ضنك وفقر وضيق ذات اليد؟ ومع ذلك هذا المواطن اللى طالع دينه وروحه لا يطلع فى المظاهرات ولا ينوى فى الغالب أن يطلع للجان الانتخابية ليقول لا لمبارك وينتخب أيا غيره!

أنا مستعد أسمع أغانى عن أصالة الشعب المصرى وتحمله وقدرته على الصبر وكل هذه الحجج البالية الرقيقة التى نسمعها مثل الشريط السافف، ومتأهب تماما للإنصات لنظريات يتكرم بها البعض علينا ويقول إن السبب فى استسلام وعبودية المصريين لحاكمهم هى سنوات البطش والقهر والقمع والخوف الذى صار طبيعيا وجزءا من جينات المواطن المصرى!

لكننى لا أظن أن هذا العبث النظرى له قيمة حقيقية الآن، فهذا الضغط الرهيب الذى يعانیه المجتمع وتلك الظروف الاقتصادية المروعة وهذه العيشة الزفت التى يحياها والبطالة المريعة التى يعيشها كل شباب مصر تقريبا والفساد الذى نراه ونشمه ونتحسسه عند كبار المسئولين وعيالهم وتلك الأمراض الغربية المنتشرة فى البلد الذى جعلت صحته معتلة محتلة، وتلك المبيدات التى أكلناها والتلوث الذى تتعض معه مياه الشرب وكل هذا السواد إذا لم يحرك الملايين من أجل أكل عيشهم وصحتهم وحياة عيالهم فمتى بروح أمهم يتحركون؟!

الشعب المصرى مسئول قطعاً عما آلت إليه مصر فالحقيقة أنك عندما تذهب للإبلاغ عن سرقة حدثت فى بيتك فسوف يسألك الضابط أول سؤال: هل

نسيت شباك المطبخ مفتوحا؟ هل أضعت مفاتيح الشقة من قبل؟
لا بد إذن من تقب في الصالة تدخل منه الفئران.

لا شك عندي إذن أن هناك سببا آخر عميقا وقويا هو الذى يجعل من المجتمع المصرى شياطين خرسا، ساكنين عن الحق، معمين عن النظر للظلم، مشلولين شللا رباعيا عن الحركة، وهذا المجتمع يجب أن يظهر يائسا كي يبرر عجزه ويتظاهر بالسماحة كي يخفى جنبه ويتطرف فى التدين كي يدارى انحرافه!

الحقيقة أن حكم مبارك منذ اللحظة الأولى لتوحيده الناعم فى منتصف الثمانينات تحول إلى ما أسماه دكتور جمال حمدان فى كتابه الأخطر (شخصية مصر) بالعصاة الحاكمة، يقول حمدان (لسوء الحظ أكثر عرفت مصر غالبا العصابة الحاكمة - ولا نقول أحيانا الخثالة الحاكمة - بمعنى عصابة معتصبة تستمد شرعيتها من القوة غير الشرعية، ومن هنا فلئن كانت مصر الطبيعية حديقة لا غابة فقد كانت على العكس بشريا غابة لا حديقة، وإن كانت زراعيًا مزرعة لا مرعى، فقد كانت سياسيا مرعى لامزرعة للأسف، وبالتالي فكثيرا ما كانت مصر إلى حد بعيد حكومة بلا شعب سياسيا وشعبا بلا حكومة اقتصادية).

هذه اللحظة التى وصلت فيها مصر إلى المنحدر الكبير وهو تحويل مبارك من رئيس فوجئ برئاسته إلى زعيم مدشن من مناقبيه وموَّله من المنتفعين بفرعنة الحاكم ثم بدأ تخلى مبارك عن شعوره ببشرية الرئيس إلى استمراء واستمرار واستقرار إحساسه بقدسية الرئيس وهو ما تراه مكتوبا على مصر كما يشرح جمال حمدان (وهذا ما يصل بنا فى النهاية الى ذروة النظام وذروة المأساة أيضا، لقد كانت مصر أبدا هى حاكمها وحاكمها هو عادة أكبر أعدائها وأحيانا أشد أبناءها، وهو على أية حال يتصرف على أنه "صاحب مصر" و"ولى النعم" أو "الوصى على الشعب القاصر الذى هو عبيد إحساناته" وظيفته أن يحكم، ووظيفة الشعب أن يحكم بضم الياء، وأن الشعب الأمين هو شعب آمين، والمصرى الطيب هو وحده المصرى التابع الخاضع، إن لم يعتقد حقا أن المصرى لا يكون مصريا إلا إذا كان عبدا أو كاد.. شخصية مصر صفحة ١٥٧٧ الجزء الرابع).

لكن جمال حمدان لم يصل إلى ما وصلت إليه العقلية الحاكمة منذ منتصف
الثمانينات فلم يكن كافيا أن يكون الشعب خاضعا وعبدا، والرئيس فرعوناً بل
أدرك النظام أنه لا يمكن أن يستكين شعب ولا تخضع أمة لحاكم إلا حين تشارك
الناس فعليا في فساد الحكم، فالشرفاء - حتى لو كانوا عبيدا - لا يمكن أن يتحملوا
فساد رؤسائهم، والمحترمون -مهما كانوا جناء - لا يمكن أن يتحملوا انحراف
حكامهم، فكان لابد من جعل الشعب مكسورة عينه وممسوكا عليه ذلة، وفي
الوقت الذي انفتح فيه فساد الدولة على مصراعيه تركوا باب فساد وإفساد
الشعب مواربا، فلا يمكن لمرووس أو موظف يرى مديره مرتشيا ويسكت فإما
ينضحه أو يرتشى مثله أو يقسم معاه، وبذمتك ودينك كم مرة رحت تخلص حاجة
في مصلحة حكومية ورفض الموظف أن يرتشى منك «بخمسة جنيه» فقط وقال
لك: هي دي فلوس، ثم دى مش لى لوحدى، إحنا كله بيقسم هنا واللحمة واكلها
كثير!

هنا تتجلى عبقرية إفساد الشعب من أجل إسكاته عن فساد الحكم!
قرر الحكم أن يتغاضى عن الفساد والرشوة حتى صار قاعدة حياة ومنهج بلد
بكامله، فلا يمكن أن تفعل شيئا في مصر بدون رشوة، بل و أطلق المواطن
المنافق على الرشوة كلمات بديلة مثل الحلاوة بتاعتنا، وإحنا فين عرقنا يا بيه؟
وفين الشاى يا باشا؟ (أقترح أن نحرم الشاى دينيا من كثرة ما أصبح مرادفا
للرشوة)، ليست الرشوة فى المصالح الحكومية الصغيرة فقط بل فى كل مراكز
الدولة من العدالة (ويالهوى على بلد يدخل أهل تطبيق العدالة السجن بتهمة
الرشوة!) وحتى الجامعات والمدارس وكليات الشرطة وغيرها وطلبات التوظيف،
بل والتوزيع أيضا!

كل شيء طالته الرشوة ووصلت إليه إتاوات الفساد والإثراء غير المشروع،
وصار كل هذا عاديا وغير مستغرب ولا مستنكر، ألا تتذكر معى خطبة لمبارك
قال فيها: «إن عساكر المرور يياخدوا فلوس من أصحاب العربيات أصلهم غلابة ح
يعملوا إيه؟ تخيل لما حاكم الدولة فى خطبة يقول غلابة ح يعملوا إيه؟!».

وخذ عندك خطة مدبرة ومنظمة ومافياوية تماما لإفساد الشعب نفسه، تركوا الناس تحل مشاكلها المالية باللف والدوران والسرفقة الناعمة والرشوة المقننة والمقنعة، وتركوا أساتذة الجامعات والدكاترة والموظفين الكبار يورثون أولادهم حتى لا يملك أحد شجاعة رفض التورث بل ويكون القبول به طبيعياً، ثم أغرقوا الأحزاب في الفساد وتركوا زعاماتها تغرق في الإغراءات والهبات حتى إن الدولة تعرف كل حزب وكل زعيم وكل صحفي قبض من العراق أو ليبيا أو السعودية ولم تقترب منهم بإصبع لأن فساد هؤلاء يقوى فساد الحكم ويقتسم معه اللعبة، حسينك تقبض من صدام أو القذافي بس ما لكش دعوة بما أفعله أنا في البلد، حتى إن دولا نفطية كانت ترشو رجال الحكم والمعارضة في نفس واحد، وأصبح الشعار ما تعمل قرشين لعيالك أحسن، وتحولت مصر إلى أكبر منطقة تواطؤ بين الشعب والحكم، كل طرف سايب التاني يسرق بمعرفته وكل واحد وشطارته وكل برغوت على قد دمه.

كل مصلحة حكومية الرشوة تنقسم فيها من المدير وحتى الفراش، ولا يقدر نشال على أن يعترض على فتاح خزن ولا يستطيع أمين مخزن مختلس أن يفتح عينه في مدير مشتريات حرامى، كل مدرسة الدروس الخصوصية تتظبط فيها بين المدرسين وكل واحد يا خذ نصيبه، الجامعة قنة محلولة تفتح أمام الأساتذة أبواب الدروس الخصوصية والكتب الجامعية والأقسام اللي بفلوس ومراكز الأبحاث الممولة والمكافآت المفتوحة والرشاوى المباشرة، وكل مؤسسة صحفية متروكة ميغة وفتة كوارع لرئيسها ورجاله ونسوانه وملايين تبعثر وعمولات تتلم وبدلات ومكافآت وبلاوى سودة ما يعلم بيها إلا ربنا، وأحزاب تتطلق تحت رعاية الدولة في التمويل من الدول النفطية والثورية والتهلبي الحزبي بل والتجارة في فيزات الحج (أكثر من كده إيه!) وضباط البوليس ينحصلون على إتاوات ويشاركون بنفوذهم في مشروعات تجارية أو نصيب من السرقات الكبرى ولا أحد يسأل ضابط بوليس في قسم جايب حضرتك كل ده منين؟، ثم لن أضيف كلمة عما تعرفه عن جهات مفترض أنها رفيعة وحساسة، وماذا جرى فيها لإخجاد جذوة

الشرف والغضب في عروقها؟، وطبعا حضرتك عرفت بنفسك ما جرى في
ساحات العدالة من أمور كفيّاة بضياع وطن! وبدا الحكم قد نجح تماما في جعل
الشعب في نفس قيم وأخلاقيات وسكون وتواطؤ ونعومة قرنى!!
طبعا تعرفون قرنى!

هنا جوهر الأزمة فكيف تطلب من شعب امتلأت بطنه بالمال الحرام أن
يحاسب حكما على فسادة وماله الحرام؟
وكيف تطلب من متولى أن يغسل عاره ويقتل أخته شقيقة بينما متولى يعمل
في نفس الكباريه؟

ولأن قرنى هو قرنى فهو لا يستطيع أن يغضب من أجل شرفه فساعتها
سوف يصرخ فيه الحكام: جرى إيه إنت نسيت نفسك يا قرنى!

خطورة أن تكون مصر under control

كم مرة حدث لك هذا الموقف؟

تقترب من قفص عصافير، تفتح باب القفص، تنتظر أن تطير العصافير، فلا تطير، تمهل قليلاً تنتهد لحظة، ثم تستغرب أنها لا تطير خارجة من حبسها، فتهزها في القفص حتى تخرج، فلا تتحرك، قد تنتقل من زاوية في القفص إلى أخرى، لكن العصافير لا تخرج، لا تستطيع أم أنها لا تريد أن تخرج من حبسها؟ من زنراتها؟ ساعتها سوف تبدأ أنت في الضيق والزفزة، فتدخل بيدك وتضرب بأصابعك العصافير لعلها تحس على دمها وتطير خارجة من باب القفص، لكنها سوف تنكمش وتراجع وترفض أن تطير..

بعد دقائق سوف تزهق، وتجلس في ركن الغرفة وأنت تحمق في باب القفص المفتوح معتقداً أن العصافير حين تشعر بالأمان ستطير حرة طليقة، لكن الملل سوف يقتلك وأنت ترى العصافير ساكنة مكموشة في القفص.. لا تخرج.. ولا تستطيع أن تطير هاربة أو حرة، ولا تريد أن تحلق خارج الحبس والسجن.. كثيرون من مروا بهذا الموقف، وصل بهم الغضب والحق على العصافير التي ترفض الحرية، مبلغ أن قاموا من مقاعدهم واتجهوا سراعاً خفافاً وأغلقوا بأنفسهم القفص مرة أخرى بالضربة والمفتاح ولعنوا سنسفيل العصافير..

هذا الموقف ليس حكاية للأطفال «وإن كان يمكن أن يكون كذلك فعلاً!» ولكنه رد - واقعي ويومي وبديهي - على الذين يقولون إن الناس سوف تنتخب مبارك رئيساً وأنها ترفض الديمقراطية -بشكلها الغربي- وتأبى الضغط الدولي على رئيسها وحزبه وحكمه من أجل حرية هذا الشعب وديمقراطية هذا الوطن..
الحاصل الآن أننا أمام فرعون يحكم وأذاتيه قارون وهامان، انظر ماذا فعل

المليونييرات وأصحاب المال والفلوس ورجال الأعمال لحسنى مبارك من مبيعات وتمويل وإعلانات ودعايات.. لتعرف أنه لا يوجد فرعون فى العالم بدون قارون، الممول والمستفيد من نفوذ فرعون «وقراراته وقوانينه وتسهيلاته وقروضه..» قارون العصرى الذى يشتد وجوده ويرتفع حضوره فى عالم السياسة والانتخابات الرئاسية، قارون وقد تم فكّه بقارونات صغيرة، يدعمون حكم الرجل الذى يمكن إذا سقط أن تسقط معه دولتهم المالية وثراؤهم المتضخم واستقلالهم المتوحش واحتكارهم المنتفخ، ومن ثم فإن «قارونات» الاقتصاد المصرى هم أكثر الناس مصلحة فى إمداد مبارك بالمال والدعم والتبرع حتى تبقى هذه الدولة الفاسدة التى يرتع فيها أصحاب المال وحزب الساحل الشمالى ونادى المليارديرات.. إن الفساد - كما يعرف خبراء الاقتصاد- طارد للرأسمالية الحقيقية وجاذب ومرتع خصب للرأسمالية الفاسدة المتسلقة المنتفعة بالرشوة والسمسرة والتلاعب بالقوانين والتقسيم مع السياسة ورجال الدولة، انظر كم ابن مسئول، رئيس أو وزير يعمل شريكاً أو وسيطاً للملياردير أو رجل أعمال؟!.. تأمل تحالفات المال والسياسة فى مصر لتثق أن قارون هو ذراع فرعون اليمنى.

ثم لابد لفرعون من هامان، الكاهن الذى يتاجر بالدين والمعرفة والكلمة حتى يستمر حكم فرعون أبدياً ونهائياً وسرمدياً ووراثياً، وهامان عصر الفرعون المباركى، هم رجال الدين والإعلام والثقافة، والحقيقة أن مبارك نجح بالفعل - عبر ٢٦ عاماً - من إدخال كثير من المثقفين إلى حظيرته «النهيق والنعيق، الرائحة العطنة أقل سوءات هذه الحظيرة» فضلاً عن اختراق جهاز أمن الدولة للعمل الصحفى بشكل مروع ومذهل، فعلى مدى عمرى الصحفى «٢١ عاماً» شاهدت وشهدت على أكبر عملية اختراق مباحثى وأمنى للصحافة المصرية، نجح خلالها جهاز أمن الدولة فى السيطرة على مقاليد الصحافة فى معظم مؤسسات الصحف الحكومية وغير الحكومية، وصار اتهام الصحفى بأنه مباحث شرفاً يقربه من المسئولين ويصعد به إلى قمة قيادة المؤسسات الصحفية، ولاشك عندى أن حالات التجسس وكتابة التقارير والتنصت على الصحفيين من زملائهم كانت

الأوسع والأفدح في الستة وعشرين عاماً الأخيرة، وتمكن فرع الصحافة بجهاز أمن الدولة من اختراق الصحافة تماماً ونجحوا في وضع رجالهم -وهم كثيرون- في مقاعد السلطة والنفوذ وأداروا من خلالها أبشع عملية غسيل مخ للمواطن المصري وزيفوا الرأي العام ودنسوا هذه المهنة بالعمالة الواضحة الفاضحة لأهداف ومؤامرات ومخططات أجهزة الشرطة والتي تركت معظم هؤلاء الصحفيين يفسدون ويرتشون ويغتنون بشكل غير شرعى، حيث يكمل فسادهم عمالتهم..

نجح النظام إذن في عصر مبارك في تجنيد كلاب حراسة من كل صنف وشكل، لكن نجاحه الأكيد -والمهر- في ضم مجتمع المال والصحافة إلى الفريق الأمنى لحراسة السلطة.

وكنت قد بحثت على مواقع الإنترنت عن كلمة «كلاب الحراسة».. في محاولة تأصيل جذورها وفهم منشأها ففوجئت أن هذا التعبير منتشر انتشاراً مذهلاً على ألسنة العرب خصوصاً المثقفين المعارضين والمحوسبين والمنفيين في ومن أوطانهم، الأمر يشى بما يجرى في الوطن العربى -عموماً- من إحكام السلطات لقبضتها على عنق الناس من خلال مندوبيها وموظفيها ورجالها من كلاب الحراسة، تلك التي يتم تربيتها في القصور أو شراؤها من الحظائر لحراسة الأملاك ودوائر النفوذ بالنباح والعض وافتراس أى شخص يفكر في اقتحام الخصوصية وإسقاط الهيبة.

لكن أخطر كلاب الحراسة هى الكلاب الخلسة أو المصدقة لنفسها -ولنباحها- والتي تظن أنها تؤدى مهمة مقدسة حتى إن بعضهم يتصور نفسه ليس كلب حراسة بقدر ما هو كلب أهل الكهف (!!)

ولم أتحدث عن رجال الدين في مصر كجزء من المشهد «الهاماني» المحيط بمبارك، فيكفى أن نعرف مدى التورط -المرري- للشيوخ في قصص انحرافات شركات توظيف الأموال، ثم هذه التورطات الأخلاقية لكثير من شيوخ التلفزيون والفضائيات وهو ما يذكر بفضائح قساوسة الشذوذ في الكنيسة الغربية الكاثوليكية لكنهم -هناك- يتحدثون عنها ويواجهونها ويحرمون القساوسة

ويغيرون القوانين، لكننا هنا نكتم هذه الفضائح، كثير منها مدون في محاضر رسمية حتى يحكموا السيطرة على هؤلاء الشيوخ بل وبعضهم مدان بشرائط فيديو سجلت الدقائق والتفاصيل المخزية وهم في العادة نجوم الفتاوى المسموح لهم بالظهور والذبوع، فضلاً عن شيوخ آخرين داخل المؤسسة الرسمية للدولة محكومين بولاءاتهم للأجهزة الأمنية «نعم والله العظيم» أو مريوطين بنهمهم المالى والمادى وشرائعهم الدنيا بالدين.. فالحاصل أنك قد تعثر على رجل دين مستقل ومحترم بصعوبة تجعل النكتة الشهيرة بأن رجلاً أراد الزواج بامرأة في الجنة فقصوا شهراً للبحث داخل الجنة عن شيخ يعقد قرأتهم، نكتة معبرة ومنطقية (..)

ويبدو أن الشعب المصرى يفهم منذ قديم الزمن رجل الدين وعلاقته الوطيدة والمتينة بالسلطة وخدمتها فجعل لقب الشيخ متاحاً مباحاً لاستخدامه مع رجالات الموسيقى والطرب والمهن والحرف (!!)

اكتملت الحلقة التى تمكن نظام مبارك عبرها وبها من السيطرة على البلد حتى أن الناس وصلت إلى مرحلة الرضا بالديكتاتورية والقبول بالاستبداد والوقوف مع مستغليهم والدفاع عن مصاصى دمائهم، وهو ما يجعل نجاح مبارك فى انتخابات الرئاسة القادمة «وهى على كل حال مسرحية فارغة وهزيلة كلنا نعم مدى رداءة تأليفها وسذاجة إخراجها» أمراً قائماً واحتمالاً مؤكداً، ورغم الولوج الطفولى الذى ينتاب كثيراً من أمانة السياسات بالحزب الوطنى بهذه المسرحية وروح الكرنفال الذى اخترعه جمال مبارك وشركاه، فإنهم يغضبون كثيراً على من يفسد عليهم الـ«بارتى» فقد تعودوا -حتى وهم يمثلون الديمقراطية- أن يخضع لهم الناس ويمشى وراءهم جميع القطيع، فمصر كلها -من وجهة نظرهم- تحت السيطرة أو under control هكذا يجب نطقها رجال النظام المصرى، وإذا لم يكن بالولاء المالى والمادى يكون بالتورط فى الفساد والرشوة، إذا لم يكن بالطموح للمناصب والرغبة فى الصعود الوظيفى يبقى بالرعدة والرجفة من سلطة النظام وغشومة الحكومة، يفتخر رجالات حكم مبارك بأن البلد كلها under control ليس أدل على ذلك من الصمت الشعبى والحرس الجماهيرى أمام الفساد والاستبداد

والبطالة والفقر بل ودليل تحشيد الجميع ضد الضغط الدولي من أجل الديمقراطية، وأيضاً تعبئة قيادات الأحزاب الواطئة للترشيح في انتخابات الرئاسة، وشم زفات المبايعة وزفاف الفساد الذي نراه كل يوم على السلطة ورجالها، ومن هنا يأتي الفرع الأمنى والغريب والاستنفار الحاد لهمة -وهيبة- كلاب الحراسة كلما اكتشف النظام أن هناك شخصاً يقول ربى الله ويقاوم الباطل، من هنا تجد الحرقة الساخنة من كلاب الحراسة ضد حركة كفاية، ضد تيار الإخوان المسلمين، ضد التجمع من أجل الديمقراطية، ضد أى سياسى أو كاتب أو مفكر يقول لا لمبارك حادة وواضحة وجارحة.

والمخجل أن الفرع الحكومى الذى يتخلله رقص شرقى ملتهب فى الصحف الحكومية والإعلام الموالى «إعلام الجوارى» بمبارك وانتخاباته «وليس انتخابه» يكشف عن قصور شديد فى الوعى السياسى «وحتى فى الوعى الانتهازى» لرجال الحكم من فرعون وهامان وقارون وكلاب حراستهم وحراس كلابهم، فالنجاح -القادم- لمبارك سوف ينتهى بمأساة سياسية للوطن.
كيف؟
هكذا..

١- سينتهى أمل قطاع مهم من المجتمع المصرى «ولو كان ضئيلاً.. ولو كان ضعيفاً» فى قدرة الديمقراطية على التغيير السلمى، وسوف يكفر الناس بالديمقراطية ويعتبرونها فيلاً ومسرحية وضحكا على الذقون.. ومن ثم يتم استبعاد الحلم الديمقراطى من الوعى الوطنى.

٢- سيريز إحساس هائل باليأس عند أفراد وتيارات وجماعات «ليست بالضرورة» جماعات دينية - بأن العنف هو البديل وأن مواجهة هذا النظام الغاشم الذى يسعى للتأييد فى الحكم عبر مبارك أو توريث الحكم -عبر ابنه جمال- لا يمكن مقاومته بالديمقراطية السلمية بل لا بد من السلاح السرى ويشرع البعض فى حفر «أقبية» للعمل السياسى تحت الأرض وكل ما هو تحت الأرض يلجأ دائماً إلى العنف والدم.

٣- مع انسحاب الأمل في التغيير السلمى الديمقراطى سيتجه الكثيرون من راغبى التغيير إلى الرهان على التيار الإسلامى والذى ستكون ساعتها جماعة الإخوان المسلمين هى أخف الأضرار وأقل الخسائر تحول دون اللجوء إلى جماعات التكفير الدينى والتخوين السياسى والاغتيال الدموى.. ومن ثم يكون النظام-الذى عاش للحرب ضد الإخوان- هو أقوى مورد للجماعة من كوادر وأنصار ولاجئين يأسين.

٤- سينتصر الشكل على المضمون، سيفوز ديكور الديمقراطية ويتراجع مضمون الحرية والديمقراطية الحقيقى وهذا سيجعل الوطن-أكثر مما هو فيه- ينتصر للشكل على المضمون، ويتفوق المظهر على الجوهر، سواء فى الدين حيث المظاهر والطقوس أهم-عند المصريين- من التدين الحقيقى، أو فى السياسة والاقتصاد وشتى شئون الحياة، سيكون عندنا شكل برلمان لكن ليس برلمانا، شكل أحزاب لكن ليست أحزابا، شكل حكومة لكن ليست كذلك، شكل صحافة لكن ليست صحافة، شكل شرطة، شكل تعليم، شكل اقتصاد، شكل جنود، شكل رجالة، شكل وطنى.. لكنه ليس كذلك!!

مبارك بشـر!

هل يبدو واضحاً لكم أنني أكره الرئيس مبارك؟
غريبة جداً، لقد واجهت على مدى الشهور الماضية سؤالاً ملحا ومكررا: لماذا
تكره الرئيس مبارك بهذا الشكل الذى يبدو شخصيا؟
وقد فوجئت بالسؤال كما فوجئ كل من جاوبتهم، أنا لا أكره الرئيس مبارك
إطلاقاً، لا بشكل شخصى ولا بشكل غير شخصى، أولا هو أكبر سنا من والدى
فلا شئ يجوز شخصيا أبدا فضلا عن أنى لم أعرفه عن قرب (وأكتفى بالبعد)
وليس من طموحاتى أن أتعرف على سيادته شخصيا ومؤكد أنه ليس من اهتماماته
قطعا، ثم ثانيا لقد دربت نفسى (وهو أمر لو تعلمون عظيم) على ألا أكره أو أحب
فى السياسة، فالمشاعر العاطفية فى العمل والبحث والكتابة السياسية ترهق
وتضعف (شأن كل العواطف!) كما أن الحب مثل الكراهية تماما يعمى ويصم، فأنا
لا أكره الرئيس مبارك ولا الرئيس عبدالناصر ولا الرئيس أنور السادات ومع ذلك
فأنا لا أحبهم أيضا فأنا لا أحب الفراعنة وإن كنت أحب آثارهم!!

المحصلة أن المعارضة الحادة الجادة التى نخوضها ضد مبارك ظنها البعض كرها
شخصيا (صادر نظام مبارك لى روايتين وكتابا وأغلق جريدة الدستور فى إصدارها
الأول وتسع جرائد أخرى لى لم يسمع عنها أحد ولكنه هو الذى عين حراسة أمنية
على شخصى المتواضع لمدة أربع سنوات نتيجة وضع اسمى فى قائمة الكتاب المطلوب
اغتيالهم من الجماعات الإرهابية..ولكن الحقيقة أن معارضتنا موقف وحكم على
سياسة ومنهج وممارسات مبارك لرئاسة مصر ونحن نظن أن رحيل مبارك عن
حكم مصر هو أفضل ما يمكن أن يقدمه مبارك لمصر وربما لنفسه، ويبدو السؤال

التالى حاضرا فى مواجهتى دائما: ألا ترى أى شىء إيجابى وميزة حقيقية للرئيس مبارك طوال الستة وعشرين سنة الماضية؟ وأنا أرد أن مجرد ذكر ست وعشرين سنة يهدم أى إيجابية فالحكم الأبدى الطويل كارثة على أى وطن ولا يوجد فى أى مجتمع أو دولة محترمة (أكرر محترمة!) رئيس مدى الحياة، إن استمرار مبارك على مقعد الحكم أربع دورات وعازما على الخامسة هو ما يجعل ومن اللحظة الأولى مبارك فى مصاف الحكام الأبديين من أمثال كيم سونج وولده وكاسترو والقذافى وحافظ الأسد، ولاشئ فى الدنيا يقتل وطنا ويجعل من شعب عبيدا وأقنانا قدر بقاء الحاكم للأبد فالبقاء للأبد بحكم الإنسانية والبشرية (ومبارك بشر رغم تأليه من حوله لشخصه!) ينهى الفساد والاستبداد ويجعل الحاكم فوق مستوى المساءلة والمحاسبة ويزرع اليأس فى قلوب الناس والعجز فى عقولهم ويصيب الأمة بالجمود والتصلب، فالخلود على العرش لله وحده والفرعون القديم والحديث ينازع الله فى خلوده، لكن دعنا نتوقف عند ما يظنه البعض مميزات مبارك، مثلا: إنه رئيس غير دموى لم يلجأ لتصفية معارضيه وقتلهم كما يفعل الحكام الأشقاء الذين يحكمون الوطن العربى من المشارق للمغرب والحقيقة أن مصر نفسها ليست دموية فنحن شعب خنوع لسنا فى حاجة إلى سيف كى نخضع بل يكفى مجرد كرجاج، وفينا بعض من جبن ورضاء وطاعة للحاكم واللى يتجوز أم المصريين فالمصريون لا يتورعون عن مناداته يا عمى، فنحن إذن لسنا دمويين ليحكمنا دموى، لكن كذلك إذا نظرنا للحكام المصريين منذ ثورة يولييه فلن ترى منهم دمويا لكن سترى ديكتاتورا، عبدالناصر أعدم معارضيه (خميس والبقرى وعودة وقطب ومات فى السجن شهدى عطية) وكذلك سجن وعذب، والسادات أعدم معارضيه المسلحين من جماعة انقلاب الفنية العسكرية و التكفير والهجرة لكنه سجن كذلك واعتقل، ومبارك حكم بقانون الطوارئ طيلة سنواته و فى سجنونه عشرات الآلاف من المعتقلين فضلا عن إعدام العشرات بأحكام عسكرية غير قابلة للاستئناف بل هو صاحب أعلى رقم فى عدد المعتقلين وأكبر عدد فى الشخصيات التى أعدمها!! فضلا عن كثيرين ممن ماتوا قتلا على أيدي الشرطة سواء فى اقتحامات أو قبض أو

تحت التعذيب فى الأقسام والمعتقلات، وبالإضافة إلى ممارسة التعذيب بشكل منظم و يومى وعادى فى السجون والأقسام، من هذه الزاوية قد يرى بعضنا أنه رئيس غير دموى ولكن سياسته دموية!

وقد يتصور فريق من الناس أن أهم مزايا مبارك أنه لم يدخل بمصر إلى مغامرة عسكرية وسياسية ضاع فيها مصريون وأزهقت فيها ثروات؟

وهنا يجب أن نلفت الانتباه إلى أن الرئيس مبارك حين كان نائباً للرئيس كان هو المسئول السياسى عن ملف أفغانستان بمعنى أن ترتيب التحالف الأمريكى السعودى المصرى لتوريد وجلب الشباب ودعمهم ودفعهم للسفر إلى جبال أفغانستان كان مبارك فى قلبه تماماً، ثم إن سفر الشباب المصرى زاد وتضاعف مع وصول مبارك للحكم وشهدت بداية الثمانينات وحتى ما بعد منتصفها أكبر نزوح شباب مصرى إلى معركة ليست معركةه وإلى أرض حولته إلى شباب إرهابى مفخخ نفسياً وفكرياً (وعددهم يصل فى بعض التقديرات والاجتهادات إلى عشرة آلاف شاب نصفهم تقريباً ذهب للموت وللسجن وللجوء سياسياً والتشرد الدولى) والحقيقة أنه يكفى حاكماً واحداً مغامرة مثل هذه لتكون هديته المأساوية لشعبه والأمر يشبه حرباً وتورطاً لا لبس فيه عانت منه مصر إلى درجة مذهلة مع بدايات التسعينات بل وعانى منه العالم بأسره حتى الآن، ثم لا يجب أن ننسى مشاركة مصر فى الحرب على العراق ١٩٩١ وشبابنا الذى ذهب لحفر الباطن وقد كانت مغامرة كاملة بهؤلاء الرجال والشبان لولا ستر ربنا الذى أبقانا بقاء صدام حسين!

لكن أكثر ما يقدمه أنصار الرئيس مبارك ميزة له هو إنجازاته على مدى الستة وعشرين عاماً وهو أمر يستدعى الدهشة فعلاً فهل كان مفروضاً أن يستمر الرئيس لستة وعشرين عاماً ولا ينجز، وسبق وقلت إن صدام حسين أنجز وهتلر أنجز وكاسترو أنجز وكيم سونج ونوشيه أنجز وقرافوش أنجز والحاكم بأمر الله أنجز!

الدهش أكثر أنتى أقيس الإنجازات بطريقة أخرى وهى عدد الذين أصيبوا

بمرض الفيروس سى فى البلاد، وأمراض السرطان والكبد والسكر والقلب والضغط ومواليد الأطفال المتسرين والمشوهين، هل هذا العدد فى ارتفاع وتزايد مخزن ومخجل أم فى انحدار وتراجع؟ قياس الإنجازات بصحة المصريين وكذلك بما يتعرضون له من تلوث فى الغذاء والماء والهواء (نحن من أعلى البلاد فى العالم فى نسبة التلوث) لقد زاد فعلا عمر المصريين كما يقول البعض فى عصر مبارك ولكن ما زاد من عمرهم قضوه فى مستشفيات الحميات والأورام وعند أجهزة الغسيل الكلوى، ثم هل زادت نسبة البطالة وهل ارتفعت نسب الانتحار؟، هذا هو مقياس الإنجازات عندى، ثم بفرض أن مبارك قدم إنجازات لم يقدمها إنس من قبله ولا جان فهذا لا يعنى بقاءه على الحكم كل هذه السنوات فى أوروبا والدول المتقدمة أنجز ما شئت فإنك راحل عن الحكم بعد دورتين ويمكن دورة فقط بإرادة الشعب والناس والديمقراطية ومفئش فى الدنيا رئيس يقول: أنا قاعد على قلب البلد عشان إنجازاتى ولا فيه شعب عنده إحساس يهتف لحاكم «اقعد للأبد والنبي أحسن إحنا نضيع من غيرك» فهذا يبقى شعبا من التافهين والعيال والأرامل!

ثم تجد أهم أسباب التمسك بمبارك لدى البعض هو أننا عرفناه ومن ثم فاللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش وهى حكمة تليق فعلا بشعبنا الكريم وتضعها إلى جانب درره الميونة من عينة ضل راجل ولا ضل حيطه، لكن المشكلة هنا أننا لا نعرف مبارك حتى نقول إنه أحسن ممن لا نعرفه، فهل تعرفون مثلا ثروة مبارك وحجم أمواله وممتلكاته وعقاراته وهل تعرفون ماذا يعمل أولاده علاء وجمال وفى أى وظيفة أو شغلانة وما هى حقيقة ثروتها من بيوت وقصور وشركات؟ هل تعرفون كيف يتخذ مبارك قراراته ومن هم مستشاروه وهل تعرفون كيف يعيش؟ (وماذا يفعل فى الإجازة وهل هو زملكوى أم أهلاوى؟) هل رأيت طائرته من الداخل، بيته وسكنه؟ هل تعرفون أصدقاء المقربين وأصحابه المفضلين ومن هم الذين كان يلعب معهم اسكواش وهل كان من الممكن أن يهزم فى مباراة اسكواش يلعبها؟، هل تعرفون دخله السنوي؟ هل تعرفون حالته الصحية بالضبط؟ فى أصول الديمقراطية والشفافية من المفترض أن يعرف الشعب كل

هذه الأمور عن رئيسه حتى يقضى الرئيس مدته القانونية ويرحل ليصبح شخصا عاديا لا يجب أن ندقق في حياته الأقل خصوصية، لذلك نحن لا نعرف الرئيس مبارك حق المعرفة، ومن ثم يسقط تماما المبرر المصرى الأصيل «اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش».

أما الشعار الذى يرفعه مؤيدو مبارك أنه هو الأكثر خبرة فى الحكم من أى مرشح منافس له! فهذا كلام يودى أى بلد فى ستين داهية، فالحقيقة أن مبارك حين صار نائبا للرئيس لم يكن يملك خبرة سياسية على الإطلاق بل كما قال السادات إنه اختاره لأنه لا يملك أى خبرة سياسية أساسا، وقد كان مبارك نفسه يقول بصراحة فى بداية عهده إنه حين استدعاه الرئيس السادات تخيل أنه سيعرض عليه منصب سفير مصر فى لندن أو رئيس شركة مصر للطيران ويبدو أنه فوجئ بأن مصر كلها البلد وليست الشركة قد عرضت عليه، لم يكن مبارك يملك خبرة ثم إنه صار موظفا كبيرا فى الدولة وليس سياسيا رهيبا ولا بمفكر داهية بل مارس صلاحيات ثم تحول إلى صلاحيات رئيس الجمهورية بعدها، ومن هنا فليس مطلوبوا من الرجل الذى سيصبح رئيسا لمصر أن يكون فى خبرة رئيس منذ أربع وعشرين سنة خصوصا أن الدول المتقدمة (وأنا آسف أنتى مشغول جدا بمقارنتنا بالدول المتقدمة) أى رئيس ممكن يقعد أربع سنين أو ست أو ثمان وهذا بالقياس لخبرة حكام عرب فى الحكم منذ ٣٥ و ٣٠ و ٢٠ سنة تلامذة طبعاً، ثم ألا نقول طول الوقت إننا دولة مؤسسات معنى ذلك أن فرد الرئيس ليس نبيا كى نختاره بمواصفات الأنبياء فهناك مؤسسات تدير البلد وتلجم سلطات الرئيس وتقومها، ثم لنفترض أن الرئيس بشر (وهو افتراض يغضب زملائى رؤساء تحرير الصحف الحكومية جدا ومع ذلك فأنا مخرج أن أقول لهم إنها الحقيقة!) وإنه ميت وإنكم ميتون (شأن البشر) فماذا ستفعل البلد من غير الخبرة بتاعته!!

ثم مصر نفسها بلد مطواعة وطيبة بمجرد ما يمسك أى شخص الحكم سوف يجد شعبا طيب الأعراق فى النفاق وقيادات دولة طيبة مدهنة محادثة وصحفا ترفع من شأنه وتمجد من قدره وفى ظنى أن مصر هى أسهل بلد يمكن أن يحكمها

أى شخص لو لديه قوى عقلية متوسطة فشعبها منقاد ونخبتها رخوة وموظفونها عبد المأمور وأى أستاذ حقوق أو نائب برلمان يمكنه أن يدير مصر فى ٢٤ ساعة وسوف تتغير فى ثوان يفظ الجزائريين والفاكهانية ومحلات السوبر ماركت ومحطات البنزين وغربيات الكشرى التى تؤيد الرئيس لتبارك لغيره!

ما أريد أن أقوله إن المصريين الذين سيؤيدون الرئيس مبارك لن يؤيدوه لأنه مبارك بل لأنه الرئيس.... ومجرد أن يصبح فى مصر رئيس آخر سوف يؤيده المصريون فوراً بالروح والدم، فقد علمتنا الحياة أن روح المصريين طلعت من زمان وصعدت إلى بارئها..وأن المصرى فى الغالب لا يحس على دمه!

القابلية للاستحمار!

نجح مبارك في انتخابات الرئاسة الأخيرة بعدد أصوات أقل من عدد اللافتات التي كانت معلقة في شوارع مدن وقرى مصر؟ هل يعنى ذلك لك شيئاً؟

نعم يعنى أن مصر لم تعد بلد شهادات بل صارت بلد لافتات! وها هي مصر تتحدث عن نفسها فتكذب كالعادة وتدعى أن هذه انتخابات تاريخية وأن مصر تبدأ عهداً جديداً، ولا أعرف كيف يمكن أن تبدأ مصر عهداً جديداً برئيس قديم! عموماً الأمر كله يذكرني بتلك الحكاية عن رجل سأل صاحبه: هل ينفع أصلى من غير وضوء؟، فرد صاحبه مستنكراً نافياً: لا طبعاً فرد عليه الرجل: طيب إيه رأيك إني عملتها ونفعت!

شئ من هذا حدث بالتفصيل في مصر الشهور الماضية كل ما كان يهم مبارك الأب والابن (من غير روح قدس) أن تجرى انتخابات شكلها تنافسى تعددى..وتنتفع، سيديك بقى من أى وضوء فى الموضوع كله، فالوضوء ليس شرطاً كي تصلى بل شرطاً أمام ضميرك فقط كي يتقبل الله الصلاة، والعدالة والرقابة والحرية والمساواة والشفافية وعدم ابتزاز الناخبين ولا الضغط عليهم وتكافؤ الفرص ومثل هذه الأمور شرط كي تكون الانتخابات صحيحة ولم يفعل مبارك وحزبه وولده أى شئ من ذلك ومع هذا نفعت الانتخابات...لم يكن المهم أن تكون أمينة وكاملة وصحيحة وشريفة المهم أن تتم فقط، إنها انتخابات تحريك وليست انتخابات تحرير، المطلوب منها أن تعطى مبارك فرصة البقاء فى الحكم وتمنح ابنه فرصة القفز على الحكم، انتخابات تحريك تهدف إلى رفع الضغط الأمريكى والأوروبى عن نظام مبارك والتوقف عن اتهامه بالديكتاتورية والاستبداد، ومبارك عارف أن أمريكا

عارفة أنه عارف أنها عارفة أن الانتخابات تمثيلية حسب الصداق المسمى بينها، النظام المصرى يمثل والحكومة الأمريكية تصفق، وهى الصفقة التى عقد بعضا من أطرافها مسئولون ومبعوثون مصريون وأمريكا، مؤداها: دعوا الرئيس يستمر فى الحكم وسوف نسمح بإجراءات وخطوات ديمقراطية تستجيب للضغوط وتفك القيود عن الساحة السياسية المصرية، وافق الأمريكان على التفويت لمبارك انتخابات الرئاسة مقابل الحزم والحسم فى التزامه بالقواعد الديمقراطية فى انتخابات البرلمان، لاحظ أن مكاملة بوش الهاتفيه التى هلت لها الصحف الحكومية علامة الرضا والاعتقاد الأمريكى ضمت مع ما أغفلته دوائر النفاق وهى توصية (مشيها توصية) بوش بالتزام قواعد انتخابات جديده فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، كأن الكل يعرف ويتواطؤ على عدم جديده انتخابات الرئاسة ومن ثم الطناش الجماعى على عوارها وعوراتها وتزويرها، كل خيوط القصة أن أمريكا وجدت المجتمع المصرى غاضبا ومنفجرا من الفساد والاستبداد ومصدرا للإرهابيين ومع ذلك فهو مجتمع قادر على التعايش مع الفساد والاستبداد وغير متمرّد وغير قادر على مواجهة حاكمه الديكتاتورى، من هنا اعتمدت الرؤية الأوروبية فى التعامل مع النظام المصرى، وملخصها أن شعبنا عبيد وأقنان ولا فائدة منه ترتجى ويمكن أن يظل راضيا بحسنى مبارك وعائلته حتى حفيده دون أن يثور أو يعترض، لكن هذا الوضع المستقر قد ينفجر فى أى لحظة ومن ثم لابد من عوامل إنقاذ مبكرة تمثل فى ديمقراطية حقيقية والديمقراطية عايزة فرخة والفرخة عايزة قمحة ورغم إدراكنا أنه فى مصر ليس أكثر من الفراخ والدواجن إلا أن لا أحد سوف يبيض الديمقراطية فى مصر سوى النظام نفسه فمصر تعبد حاكمها وتمشى وراءه (غالبا إلى أى داهية ٦٧ مثلا، تطبيع يجوز، فقر وتوريث ممكن جدا) فالمطلوب هو الضغط على الحاكم، والتنازل الطوعى عن ديكتاتوريته، ومن هنا بدأ الحوار الدولى مع مبارك يأخذ شكل التعليقات الهادئة والصبر الطيب وطول النفس وبدأ مبارك سعيا لإقناع الغرب وأمريكا بابنه يفك قبضته ويعفو ضباطه عن قفا الشعب، وبدأت خطوات المكياج والتمثيل بتعديل المادة ٧٦ ثم السيرك الانتخابى الذى

«وضعوا أيديهم على صدر مصر تنور، على بطن مصر تنور، على فخذ مصر تنور»، وانتهى السيرك بالنجاح الأوروباتي لمرشح الحكومة.. للرئيس الممتد الأبدى... وصلوا بدون وضوء ونفعت!!

في هذه اللحظة حد يسألني تفنكر لماذا نجح مبارك؟

أجيبه فوراً: وهو فيه حد ابن مجنونة كان فإكر أنه ح يسقط؟ لقد كان مبارك أوضح مما ينبغي حين قال بعد تعديل المادة ٧٦: (وهي تستحق أن نطلق عليها كما قلت قبلاً نكسة ٧٦) أنا عدلت المادة مش عشاني ده عشان الأجيال الحاية (لاحظ أنه قال الأجيال الحاية وليس الجيل القادم واخذ بالك) لكن السؤال الحقيقي هو كيف نجح مبارك؟

نجح مبارك (وربما ينجح ابنه كذلك) لأننا في مصر منذ يوليو ٥٢ (والله يجازي اللي كان السبب!) ومنذ خرج الأحرار (متأخرين ساعة) وسيطروا على الحكم فلم يرجع الجيش إلى ثكناته حتى الآن، بمعنى سيطرة نظام مستبد فاشل على الحكم في مصر حتى أيامنا الكحلى الحالية، ومنذ ٢٥ عاما تحديدا مصر تحيا في بيئتين، بيئة فاسدة وبيئة منافقة (من هنا الأصل العلمى لكلمة ناس بيئة التي اشتهرت على ألسنة الشباب اليوميين دول) ونجاح النظام الحالى في البقاء ربع قرن «كابس» كأنه مصارع سومو على أنفاسنا بسبب خلق ثم استثمار البيئة الفاسدة والمنافقة، لم يعد أحد يستغرب الفساد ولا يندهش منه بل يتعامل معه على أنه أمر واقع وحقيقة لا مفر منها وأصبح النفاق موضع قبول ورضا وتسليم وأطلقوا على النفاق (إمعانا في الاستهبال) وجهة نظر، يقول لكم أحدهم: أنا باحب مبارك يا أخى ورأى أن جمال ابنه أحسن واحد يحكم بعده وجهة نظرى يا أخى وأنا حر فيها إنت كمان ح تعترض على أنه يكون لى وجهة نظر!! وحين يصبح المجتمع المصرى قابلا للتعايش مع الفساد والنفاق فينفاق كى تركه يفسد على حريته فهذا يجعل وطنا مثلنا تنطبق عليه نظرية مالك بن نبي المفكر الجزائرى الراحل صاحب نظرية (القابلية للاستعمار) بمعنى أن هناك مجتمعات بعينها عندها نقط ضعف وثغرات نفسية وثقافية وضعف مناعة تجعلها عرضة لمجى الدول الاستعمارية

وغزوها واستعمارها (مصر تعرضت للاستعمار طول تاريخها) هذه النظرية تنطبق على مصر حتى ١٩٥٢ لكن بعدها تبدأ نظرية أخرى في الانطباق على مصر و ماحدث فيها وهي نظرية(القابلية للإستعمار)، فمصر (وهي عموما في خاطري وفي فمي زى ما أوصتنى السيدة أم كلثوم) تعاني من القابلية للإستعمار، فحكمانا يستحمرون الشعب ويقودونه كالقطيع ويأمرونه فيطيع...ويضيع!

هذا المناخ الذى نحياه هو الذى يجعل فرصة أى رئيس يحكمنا أن يحكمنا إلى الأبد فرصة سعيدة..وسهلة..مباحة..ومتاحة!

ولذلك فلاشئء يفاجئ عاقلا فى بلدنا حتى لو نجح مبارك بـ ٨٨.٥ % وإنشالله ما حد حوش، وهى نسبة تدل على حكم متغرطس ومغرور ولا يقبل أن ينافسه أحد ولا يطول قامته شخص ومن ثم يخسف الأرض بنسب منافسيه ويرفع من أرقامه ويزيف فى نسبه حتى يبدو فوق الجميع ومتفق عليه من عموم الشعب ولهذا تأتى نسبة نجاح مبارك فى الانتخابات أقرب الى أى استفتاء فالمطلوب أن يشعر الرئيس أنه فى السما على وأنا فى الأرض مش طايك على رأى محمد عبدالوهاب، كما يدل قبول البعض هذه النسبة كأنها حقيقية عن وقوع المخطوف فى هوى خاطفه وهى مسألة علمية مؤكدة حيث حدث فى بعض حالات الاختطاف أن أحببت المخطوفة رجل العصابة الذى خطفها كما تحب المريضة الدكتور وكما تهوى ضحية الاعتصاب أحيانا مغتصبها، وهو المعروف علمياً «بالتقمص مع المعتدي» فبدلاً من أن يبقى المخطوف ضحية يتحول إلى شبيه المعتدى ويتأمل مع آرائه وأفكاره وسلوكياته هنا الذى يقبل أن مصر تريد مبارك بنسبة ٨٨،٥% ومن لا يقبل غير مبارك حاكماً (انظر حالات الفقراء والأقباط والموظفين) هو بالضرورة العلمية مريض بحب خاطفه!

والمدهش فى الذين يطلبون من مبارك تنفيذ وعوده (وهى التى لم يضع لها أى جدول زمنى ولا توقيتات على الإطلاق) لكن أخشى ما أخشاه أن ينفذ الرئيس وعوده فعلا، فستأتى كلها على شاكلة تعديل المادة ٧٦ فقانون الطوارئ يتم إلغاؤه وتعديله بقانون أوسع منه، ولجنة الأحزاب تبقى أسود مما هى موجودة، وإلغاء

قانون حبس الصحفيين يتم بقانون جديد يضع السيخ المحمي في صرصور ودن الصحفي، هذه هي الكارثة أن البيئة الفاسدة والبيئة المناققة صنعت نخبة تعتمد منطلق التسول والتوسل للحاكم من أجل أى إجراء إصلاحى وهى كذلك ترضى بأقل القليل وبالمقسوم وطموحها لا يتجاوز كعب رجلها، ثم إن منهج النظام هو الإصلاح الشكلى والتجميلى فلا أكثر من سليكون سياسى لثدى الأمة (الأمة مؤنث!) بلا أى مضمون أو جوهر حقيقى المهم هو المظهر والتغليف ومن هنا أشك أن مبارك سوف يقدم إصلاحات سياسية حقيقية فإذا كان الحزب الوطنى يعمل زفة بلدى فرحا بنجاح وهى وإذا كان جمال مبارك وزع شيكولاتة وإذا كانت الصحف الحكومية تصنع من انتخابات هزلية حدثا أسطوريا وإذا كانت أمانة السياسات تجتمع فيما تظنه دار الأرقم ابن أبي الأرقم وإذا كان أى معارض مثلنا فى نظرهم مجنونا أو موتورا أو عميلا..فكيف تأتمن هؤلاء على أى إصلاح أو تغيير حقيقى إلا إذا كان تغيير دمك؟!!

الحكم البائس والشعب اليأس!

وصل اليأس والإحباط بأحد المواطنين من كثرة ما شهد من ظلم وجبروت إسرائيل ضد الفلسطينيين أن أرسل يوماً للشيخ القرضاوى سؤالاً يقول فيه: لماذا لا يرسل الله طيراً أبايل إلى إسرائيل لترميمهم بحجارة من سجيل وتحمي المسلمين والعرب هناك وتقضى على الإسرائيليين؟

وقد كان السؤال وجيهاً رغم عبثه، صحيح لماذا لا تتدخل قوى خارقة مارقة يرسلها الله عز وجل كي ينقذنا من البلاء والبلاوى التي نحيا فيها؟ وقد كشف السؤال (أو الأمنية أو الدعاء!) عن العقل العربي الموكوس هذه الأيام بالتسليم للتخلف والاستسلام للهزيمة والقناعة بالبلوى والتعايش مع إهدار الكرامة والكبرياء والخضوع للاستبداد سواء من رؤساء وحكام عرب أو من محتلين أعداء أجانب!!

المواطن المصرى مثلاً تحت بير السلم خائف من أمريكا وإسرائيل وتحت السرير مرعوب من الرئيس وأمن الدولة، فيلجأ إلى الحل العبقري الذى ينقذه من صراع الضمير، وهو اليأس، ولليأس حلاوة وطراوة وطلاوة، فهو يوفر عليك عناء المحاولة ومشقة الجهد ويبرر لك عجزك واستسلامك، هو يبرر لنفسه ثم لزوجته ثم لأولادها ثم للجيران ثم للتلاميذ فى المدرسة وللزملاء فى الوظيفة وللعابرين فى الشارع موقفه بأنه مفيش فايدة، وأخطر ما فى اليأس أن يتحول من صفة جبن وضعف إلى وجهة نظر، فالمصريون يأسون من أى تغيير أو تقدم أو تطوير ومن ثم تكون حيلته الوحيدة التى يرفعها فى مواجهة من يطالبه بالتحرك بالرفض بالتمرد بالثورة (من غير ضباط وعساكر أرجوك) ومش فى شهر يولية أنا اتعقدت) هو أنه البلد كده ومفيش فايدة فيها ومتحاولش، ثم ينتقل الأمر من

التطبع إلى الطبع إلى الاقتناع بما هو فيه، طيب وإحنا مالنا ما أحنا عايشين أهوه، ناقصنا إيه، ثم يصدق ويؤمن تماما بما ظل يحكيه طول عمره من مبررات للضعف والتسليم بل وصل الأمر بمجتمعاتنا بعد ثلاث وخمسين سنة من حكم العسكر والكاكي إلى أمرين، الأمر الأول أننا نكاكي!! كنايكت مذعورة في عشة الوطن الضيقة؟ والأمر الثان أن قطاعا واسعا (ويتسع على الرتق) بات يؤمن ويطبّق نظرية جما الشهيرة، ومؤداها أن الناس قالت لجحا إن التتار وصلوا حتى حدود بلدك فرد مش محم طالما لم يأتوا حتى بلدى، فلما وصل التتار للبلد قالوا له وصلوا يا جحا البلد رد مش محم طالما لم يصلوا حتى مدينتى فلما وصل التتار قطعاً لمدينته قال مش محم طالما لم يصلوا حتى شارعى فلما وصلوا لشارعه قال مش محم طالما لم يصلوا حتى بيتى فلما وصلوا حتى بيته قال مش محم طالما لم يصلوا حتى سريرى فلما وصلوا حتى سريريه قال مش محم طالما لم يصلوا حتى... ولا بلاش حتى ظهرى فلما وصلوا حتى ظهره تردد فى رواية أن جحا هتف الحمدلله إنها جت على قد كده، وفى رواية أخرى أنه قال إنه كان فآكرهم أرجل من كده!!

نظرية جما الذى يذفس رأسه فى الرمال ويحدث ما يحدث لظهره المكشوف هى السائدة عموماً فى الوطن العربى على المحورين الخارجى والداخلى، فنحن لا نملك أمام التحدى الحضارى الذى يمثله تقدم وتطور وغنى وثراء الغرب العلمى والمادى والثقافى سوى أن نتشفى فيه إذا ألمت به مصيبة، أو ندعو عليه إن طغى وبغى علينا!

وعلى المحور الداخلى (وأنا لا أقصد هنا محور ٢٦ يوليه رغم أهميته السياسية!!) فإننا نكنفى أمام الظلم والاستبداد السياسى الذى يمارسه علينا حكم مبارك بأحد حلين، حل الـ ٨٨,٥% أو حل الـ ٧٧% لكن ما معنى هذين الحلين؟

أما حل الـ ٨٨,٥% فهم الذين انتخبوا وصوتوا لمبارك (بفرض عدم تزوير النسبة) من منطلق التسليم بفوزه أو اللى عرفته أحسن من إالى ما تهبيتش عرفته أو بمنطق أننا سنضيع ونموت ونروح فى ستين داهية لو غيرنا الرئيس أو

عن قناعة بأنه ليست مشكلة على الإطلاق أن يحكمنا شخص ثلاثين سنة وفيها إيه أو بنظرية أنه إلى سرقوا وشبعوا أحسن من إلى لسه ما سرقوش وعلى ما يشبعوا ح ينهوا البلد، وكل هذه التشعبات والحوارى الفكرية التى تؤدى لنتيجة واحدة وهى رضا الشعب الذى يعانى من القهر والفقر والاستبداد بما يحصل فيه وعبودية العبيد لسيدهم كما يجب الخادم النبوى فى فيلم الماضى المجهول سيده أحمد بيه بالضبط!!

أما حل ال ٧٧% فهو حل الاعتزال والسلبية وإليأس والتيقن من أن هذه بلد أبوهم مش بلدنا وشراء الدماغ وأنه ففيش فايده..وجملة ما تسمعه من ٧٧% من الشعب المصرى فعلا وهو بالضبط ما يريد الرئيس مبارك ونظامه عن قصد أو عن دهاء فطرى لنظام لديه غريزة حب البقاء والخلود على الكرسي مستيقظة مستنفرة تلتقط أى خطر، والخطر الحقيقى على هذا الحكم الذى عاث فى مصر فسادا واستبدادا هو أن يتخلى الناس عن الرضا بالأمر الواقع، إليأس، انظر إلى ما كتبه دكتور أحمد زويل فى كتابه عصر العلم عن فكرة راحة إليأس فيقول عن فكرة عدم إمكانية تقدم الشعوب العربية أنها (رؤية تأمرية محدودة وقاصرة تؤدى إلى راحة إليأس) ويتحدث دكتور زويل عن الدول التى لم يبت حكما فيها راحة إليأس قائلا (ثمة أسطورة أخرى حول أن التقدم العلمى يحتاج إلى قرون وهى أسطورة لا تحتاج إلى جهد كبير للمناقشة فالكثير من دول العالم المتقدم قد حققت انطلاقتها الراهنة فى غضون سنوات أو عقود...إن التجربة المإليزية هى نتاج حوالى عشر سنوات لا عقود طوال، كما أن التجربة الصينية نفسها لايزيد عمر تألقها وامتيازها على العشرين عاما، وكوريا الجنوبية قد سعدت من التخلف إلى صدارة الصناعات فى آسيا وإلى موقع بارز فى العالم فى غضون سنوات وفى الهند يندهب المرء من القلاع الصناعية العملاقة التى تنتج السوفت وير فى بنجالور وفى سنغافورة التى تحطو إلى أفق غير منظور ومثل هذه التجارب المضيئة تشكلت فى سنوات وأيضا عندما ننظر إلى تجربة أيرلندا الحألية نجد نهضة وتقدما فى عشر سنوات أصبحت أيرلندا من أكبر بلاد العالم تصديرا للتكنولوجيا

الحديثة....) إذن تخلف مصر يا جماعة ليس قدرا وما نحن في عزه وزهوه مع أزهى عصور الرئيس مبارك يثير الخجل إذا قارناه مع الدول الأخرى وإذا كنت من المعجبين بالدكتور زويل فاسمح لى أن أنقل لك مقولة أخرى (شئ لزوم الشئ) من كتابه حيث كتب : (وأخيرا الديمقراطية وهى كلمة غريبة والمهم بالنسبة لى ليس كونها مفهوما غربيا وإنما ما تحتويه من معنى والشروط الأساسية لها، المعنى الحقيقى هنا هو حرية الفرد والمشاركة الفعالة فى الحكم، أما الشروط الأساسية فهى مسؤلية ومحاسبة الشعب للحكومة، الشفافية وهى الإطار الأساسى لمحاربة الفساد والحكم بالقانون العادل أما بالنسبة للإبداع فلا يمكن أن يدع الخائفون) اسأل نفسك بعد كلام زويل هل هذا يتوفر فى مصر مبارك على الإطلاق؟ وهل رد فعلك لغياب كل هذا هو اليأس أيضا وحلاوته وراحته والرضا بال مكتوب على جبين البلد ونشكر مبارك على اللقمة والهدمة!! إلى هذا الحد وبكل هذا القدر بلغ بنا اليأس حافة الموت أحياء

إذن نحن لانواجه نحن نهرب، فنطلب من ربنا أن يرسل طيرا أبايل أما نحن فمشغولون بالطير المسافر للسعودية وعقد عمل للخليج، ندعو على أمريكا ونشمت فى الأعاصير التى تهب عليها بينما لا نستطيع نحن مواجهة سحابة سوداء فى السماء وليس إعصارا بل شوية ميه فى الشتا قادرة على إغراق شوارع مصر فى وحلة فظيعة وقطع الكهرباء فى الريف وغياب العيال عن المدارس!

ومع حكمانا نحن لا تقاوم ولا نرفض ولا نعترض بل نرضى ونسلم ونستسلم ونوافق ونوافق ثم نكره من يحذرنا ومن ينهنا إلى كارثة الاستسلام للرئيس ولتقديس الرئيس وهو ما تفسره كلمات دكتور جمال حمدان فى كتابه العملاق شخصية مصر حين يقول: المثير والمؤسف أكثر أن على رأس هؤلاء الأعداء لمصر بالجهل والجهالة وضيق الأفق يأتى غالبا ولا نقول دائما الحكم والحاكم فالسياسى الذى بالتعريف يبيع الوطنية للمواطن لا يملك إلا أن يقدم الأوهام الوطنية والمخدرات التاريخية للجماهير فمصر أم الدنيا، أم الاختراع، أم الحضارة، فاتحة التاريخ، فوق الجميع، خير أمة أخرجت للناس وأم العرب أيضا إله والحاكم فى

الوقت الذى قد يكون أكثر من يسوم الشعب العسف والخسف والهوان والنذلة والقهر الجسدى أو المعنوى أو كليهما... والقاعدة تقريبا عند كل حاكم أننا بزعمه نعيش دائما فى عصره أروع وأمجد فترة فى تاريخنا وحياتنا بلا استثناء، كل عصر عند صاحبه هو، هو وحده، عصر مصر الذهبى، تلك نعمة أزلية وبضاعة مزجاة يكررها كل حاكم منذ الفراعنة فى نقوشهم وسجلاتهم الهيروغليفية على جدران الآثار وحتى اليوم فى أبواق الدعاية ووسائل الإعلام العميلة التى لا تتحرج ولا تتحجل، ومن يتأمل المشهد المصرى بعد أكثر من عشرين عاما على كتابة جمال حمدان لكتابه يدرك أن الرجل شرح وحلل وتوقع تماما ما يجرى لهذا الشعب الذى يعيش فى أوهامه الخاصة عن ذاته بينما يقدر حاكمه ويسلم نفسه وضميره ومستقبله لرئيسه نفاقا أو تسليما أو ياسا ويرفض أن نوقظه على حقيقة استسلام الشعب وطغيان الحاكم وكما يضيف جمال حمدان أيضا فى كتابه : الغريب أن الشعب المخدوع الساذج نصف الجاهل قد يستأسد ويبطش بأنه ناقد الوطنى الذى يريد له الخير والسيادة فيدينه ويسلمه تسليما لسوط الحكم وذلك بالقدر نفسه الذى يخنع فيه ويخضع ويستكين تحت هذا السوط، وهكذا للغرابة والدهشة قد نجد الشعب المسكين المضلل (ولا نقول الخائف المروع) يتبادل مع قيادته العاجزة الفاشلة الباطشة غالبا وجلاده الغاشم الخائن أحيانا خداع النفس وعبادة الذات، الأول يتغابى عن عيوبه الجسمية بل ويتغنى بها، والثانى يلهيه ويخدره عن استبداده وقهره أو خيانتته وغدره بأحاديث المجد والوطنية والأصالة إلخ، ويضيف جمال حمدان كأنما يشرح بالضبط (أى والله) ما تتعرض له، فيكتب قائلا : ولقد يشارك بعض زواحف الكتاب الانتهازيين والمأجورين والعلماء العملاء فى هذه المحاورة المخزية أو الديالوج المدمر فتمجد كل سلبياتنا ومثالبنا بأى منطلق بل وقد تزين لنا العبودية فى الداخل أو فى الخارج، أى للحكم الغاشم أو للعدو الغاصب على الترتيب ولئن كان منطلق عملاء الطغاة الزائف ليس إلا منطلق العبيد إلا أن الناقد المثقف المفكر الوطنى الحق يجد نفسه هكذا فى النهاية محاصرا للغرابة والدهشة أكثر - بين قوسين من الإرهاب والترويع الفكرى والجسدى، الحاكم

الطاغية المغتر من جهة والشعب المكبل المقهور المغلوب على أمره من الجهة الأخرى وهكذا يعود الناقد الوطني مرغما مرة أخرى إلى المنطق المعكوس المرفوض منطق " عيوب هذا الشعب وأمراضه ومآسيه ومآله ومصيره هي جميعا عقابه الطبيعي المستحق "

ولكننى - مع إيماني بقواعد جمال حمدان ونتأجه - مازلت أشعر أن مصر بحير طول ما فيه ناس تدعو بجرارة قلبها (ربنا على الظالم والمفتري وابن الحرام) هذا الدعاء الذى أكثر أهله النساء هو ما يشعرنى أنه لاتزال هناك جذوة مشتعلة من النار والنور داخل ضمير المواطن ووعيه، فها هو المواطن يحس على الأقل بالظلم وهو ضد المنكر بأضعف الإيمان وهو القلب لكن على الأقل لايزال القلب فيه نبض ولم يتوقف طنين حجاز رسم القلب وعمل الخط الأخضر المستقيم الذى يعنى أن تقرأ فوراً الفاتحة على روح المرحومة مصر، الوعي الكامن لدى المواطن يريد من يحركه فيجد من يخدمه، بنفاق الصحافة والساسة وقيئ النفاق الذى يشهده فى التلفزيون والجرائد الحكومية، باختراق المباحث وأمن الدولة لأعز ما يملك المواطن المصرى شرفه..(السياسى)، بالقبض والترويع والاعتقال للمشتغلين بالسياسة أو مجال حقوق الإنسان أو سجن أعضاء التيارات الإسلامية واليسارية، بتعيين ضباط الشرطة فى سلك القضاء، فى تحول حرس الجامعة إلى أساتذة فى كلية الحقوق (آه والله العظيم) فى تعيين الفاسدين عمداء للكليات فى تولى الفسدة والفسلة أهم مقاليد الدولة، فى استئراء فيروس سى الذى ضرب أكباد المصريين، فى هواء البلد الملوث الذى خنق صدورنا وأفكارنا وتعودنا معه على رائحة الشياطين والحريق فى الجو كأنها رائحة الوطن ولم نعد نستغرب ولا نستنكر فضلا عما نراه جميعا من المداود التى جلس عليها شر البقر!

توكيل مصر

مصر كلها، كبارها وعيالها، بل وحتى عصافير وقرود حديقة حيوان الجيزة تعرف أن أولاد الرئيس مبارك علاء وجمال يعملان بالبنس والتجارة (والتجارة شطارة كما نعرف) ورغم أننا كلنا (بما فينا أفيال وأسود حديقة حيوان الجيزة) نجهل ماهى طبيعة شغلها بالضبط إلا أننا ندرك أنهما رجلا أعمال، لكن أعمال إيه؟، الله أعلم وشركاهم، فنحن لا نعرف هل مثلا حصل أحدهما أو كلاهما على قروض من بنوك؟ وهل اشترى مثلا نصيبا وأسهما من شركات القطاع العام التي تم خصصتها، هل هما شركاء لآخرين اشترى مصانع ملك للدولة، هل يستوردان من الخارج، طيب إيه ومن أى دولة؟ لا شئ نعرف عنها أكثر من كونها رجلى أعمال ومن ثم تحتشد مصر منذ سنوات بنكت توضح وتشير على مظنة الناس فى حجم ومجال عملها وتكون بمثابة المقاومة المصرية الصامتة لتغلغل نشاط وأعمال أبناء الرئيس والمسئولين الكبار فتتكلم بهم عن طريق السخرية الحادة والعاجزة عن شئ أكثر من تلطيف السيرة بالضحكات وكذلك بالشائعات التي تجهد أى جمهاز أمنى من كثرة ملاحظتها وحصرها وحصارها وكلها شائعات دخانية (ولا دخان بغير نار) على مشاركة علاء ثم بعد ذلك جمال مع رجال أعمال بدأت الشائعات بوجيهه أباظة صاحب توكيل بيجو وانتهت بأحمد عز صاحب توكيل مصر (أقصد حديد مصر)، وقد طبق الابنان أعلى درجة من درجات الشفافية (وهى ليست مثل الشفافية الديمقراطية بل هى شفافية تقصيل مصرى) فلم يتحدثا أبدا للشعب عن مجال نشاطها وظل حجم التعاملات وأنواع الشغل وطبيعة الشركاء طى الكتمان المخفى الذى إذا حاول أحدنا الكلام عنه وصل السيخ المحمى فورا لصرصور ودنه (وياريت تيجى على قد صرصور ودنه) والذى يدهشك فعلا أن ابنى الرئيس ومعظم - إن لم يكن كل - أبناء المسئولين الكبار والوزراء المعمرين فى مصر

يعملون بالتجارة والتي هي شطارة كما نعرف، ليس من بينهم واحد عرفناه يشتغل بالعلم والأكاديمية ولا واحد منهم يقف في معمل أو أمام سبورة أو غرفة عمليات أو على بريمة بترول، ولا أى من تلك الأعمال التي يمكن اعتبارها انتصارا للعلم والجهد والفكر بل معظمهم إن لم يكن كلهم رجال أعمال وأهل بيزنس وتوكيلات وسمسرة (مالية) وما إلى ذلك وذلك نفسه! هل يدلك ذلك على شيء؟

الحقيقة أن بطن النظام المصرى منذ حمل بثورة يولييه وهو يجرى نحو علاقة المصاهرة بين هيمنة السلطة وسطوة الثروة (بعضها لم يكن مصاهرة بقدر ما كان زواج متعة أو زنا لم تتوفر له شروط الشهود الأربعة) ولكن لم تشهد السلطة في مصر كل هذا التحالف الوثيق اللصيق بين المال والسلطة بقدر ما تشهده منذ مطلع التسعينات، والغريب وعكس كل خلق الله فإنه كلما زادت واتسعت الطبقة الرأسمالية وتنامى دور رجال الأعمال كلما زاد استبداد الدولة وغشومة الحكومة وغطرسة الحزب الحاكم! وهي حقيقة عكس كل الدنيا ففي الدول المتقدمة المواطنون الذين يدفعون الضرائب هم الطرف الأقوى في اختيار حكائهم، فالمواطن يدفع من دم قلبه ضرائب للبلد ومن ثم حقه أن يجاسب الحكومة على السحتوت ويبيع ويشترى في السياسيين ويختار من يشاء ويحاسبهم في كل انتخابات فيمنح هذا الرضا ويمنعه عن آخرين، ففي تلك المجتمعات المواطن مالك هذا الوطن ونصيبه يدفعه بالعمل والضريبة والخدمة العسكرية يبقى مفيد حاكم له ميزة على أى مواطن والكل سواسية فيختار الناخب بحقه وفلوسه وعمله وعرقه في البلد رئيس فرنسا أو مستشار ألمانيا أو غيرها، لكن في مصر هنا ورغم أن خمسة مليون موظف مصرى هم مجموع العاملين في وزارات وأجهزة الدولة يدفعون الضرائب من المنع وكفرانين خصومات ورسوم وتمغات إلا أن الدولة لا تعبرهم ولا تعبر إلى خلفهم في أى قرار كما أن المواطنين من دافعى الضرائب لا يستطيعون اختيار رئيسهم ولا محاسبته ولا مساءلته ولا يمكنهم تغيير وزير ولا تحريك مؤخره مسئول عن مقعده!! بل إن المصريين العاملون بالخارج الذين يصرفون تقريبا على الحكومة في مصر ولحم أكتاف الدولة من خير تحويلات المصريين العاملين في

الخارج (للمفارقة أكثر العائدات قادمة من المصريين في أمريكا وأغلبهم أقباط ومن المصريين في الخليج وأغلبهم غلبة) هؤلاء ممنوعون من الإدلاء بأصواتهم في انتخابات الرئاسة ولا كأنهم موجودون أساسا، ورغم أن القاعدة الذهبية في الاقتصاد والسياسة أنه لا ضرائب بدون تمثيل سياسى، أى لن يدفع مواطن ضرائب بدون أن يشارك في صرفها عبر اختياره للرئيس وللحكومة ومحاسبتهم على كل فلس ومليم فيها إلا أن مصر لها قاعدة مختلفة وهى (أيها المواطن ح تدفع ح تدفع والحزمة فوق دماغك وقابلنى لو حاسبت الرئيس أو حكومته أو حزبه على تصرفهم، تحبى إيه إنت يا مملوك صعلوك أمام صلعة يوسف بطرس غالى الذكية ونظارة محمود محبى الدين الثاقبة ووقفه جمال مبارك الواثقة الساندة على صورة والده؟، هؤلاء يتصرفون فى الاقتصاد كما يحلو لهم) وكما يقول دكتور سامر سليمان فى كتابه القيم (النظام القوى والدولة الضعيفة) عن المجتمعات التى تنفق على دولها فإن الدولة فيها تحتاج للمجتمع من أجل تمويل نفقاتها لذلك فالمجتمع يقف من الدولة موقف الندية ويكون محموما بالرقابة والإشراف عليها والمسألة بسيطة من يعطى له سلطان على من يأخذ، ورغم هذه الحقيقة البينة التى يقولها د.سامر سليمان فالمدهش أن الدولة فى مصر كاسرة عين مواطنها ومجتمعها، على إيه مش عارف؟ تقولش بيجمعوا الغلة من قصر القبة وبيأكلوا الشعب منها! ورغم أن المواطن الذى يجند فى الخدمة الإجبارية ويدفع الضرائب وكافة رسوم وتمغات وجمارك جباية الحكومة فإنه لا يملك أن يحاسب بواب وزارة الزراعة وليس وزيرها الأسبق، المواطن الذى غرس إصبعه فى الحبر الفوسفورى كان عليه أن يغرس نفس الإصبع فى عين حكومته مطالبا بحقه فى الرقابة والمساءلة والمحاسبة لكنه لا يفعل ذلك لتآمر الثلاث الوحشى فى مصر، أمن الدولة وتعليم الدولة وإعلام الدولة، الذى يجعل من المواطن مثل الكتكوت المبلول أمام قطط الدولة التى تأكل خير البلد وتتعفف عن أكل فترانها ولو على سبيل الزكاة عن النفس، المهم إذا كان هذا وضع المواطن فما الذى يجعل رجال الأعمال أصحاب الملايين راضين عن الحكومة والحاكم وهم يرون الاستبداد والفساد رأى العين، حسب

المنطق الطبيعي في كل أنحاء المعمورة (والعجمي) ومن المحيط الهادى وحتى المحيط القلق، هناك قاعدة تقول إن الرأسمالية والاقتصاد الحر لا ينجحان إلا في دولة تحكمها الديمقراطية ومن ثم تصبح مصلحة رجال المال والأعمال في نظام ديمقراطى قائم على تعدد المصالح وقدرة الشعب على تغيير الرئيس ومحاسنته، لذلك تجد من الطبيعي جدا أن يكرس ملياردير أمريكى اسمه بيرو منذ سنوات ملايين الدولارات لإسقاط مرشح للرئاسة الأمريكى ثم للترشح ضده ونفس الشئ فعله الملياردير سورس في انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية الأخيرة حيث رصد مليارات لإسقاط جورج بوش، وفي أوروبا واليابان وكوريا الجنوبية وماليزيا وحتى الهند يلعب رجال الأعمال دورا هائلا في التحريك السياسى والتغيير الديمقراطى على الأقل لضمان مصالحهم وصيانة مشروعاتهم، في مصر إذن لماذا لا يختار رجال الأعمال رئيس مصر أو حكومة مصر لسبب جوهرى أن الرئيس ورجال الحكومة هم الذين اختاروا رجال الأعمال وليس العكس، في مصر رجال الأعمال أبناء النظام المستبد الفاسد وحلفاؤه لأكثر من سبب:

١- معظم رجال الأعمال شركاء لكبار رجال الدولة وأبنائهم في المشروعات والصفقات ومن ثم فالمصلحة تقتضى التحالف والتعاون.

٢- معظم رجال الأعمال يعتمدون على قروض من البنوك (وهذا شئ طبيعى تماما ولا استنكار له ولا استغراب منه) لكن الدولة هى المتحكمة فى منح القروض نتيجة سيطرتها المباشرة على البنوك وتعيين رؤسائها (حسب ما يذكره د.سامر سليمان فى كتابه النظام القوى والدولة الضعيفة فالحكومة تملك ٦٠% من الودائع فى الجهاز المصرفى ٥٤,٦% من قروضه) وهى بهذا الحال تملك إسعاد رجل أعمال بقروض بلا حساب وبلا ضمانات ويمكنها قضم وسط إلى خلفه بإشارة من أصغر إصبع لأصغر عيل من عيال رجال الحكم.

٣- الدولة فى مصر متحكمة فى كل شئ وأيضا تذهب ببقائك فئمة كفى الحكومة سواء بالقوانين المكبلة المقيدة أو الضرائب والرسوم المستنزفة أو فى جهاز بيروقراطى مرتش وفاتح بطنه للأكل الحرام أو إتاوات لكبار قيادات الجهاز

البيروقراطي ولا يملك أى رجل أعمال لو حاول الفلنفة من الدولة إلا أن يدخل السجن أو يخرج من البلد.

٤- لاتزال الدولة - وأنا هنا أعتمد على معلومات د.سامر سليمان فى كتابه - تسيطر على منظمات رجال الأعمال سواء اتحاد الصناعات المصرية (أؤكد أن الفساد فيه ليس للركب بل للترقوة) والاتحاد العام للغرف التجارية فلا يزال وزير الصناعة يتدخل بتعيين ثلث أعضاء مجلس إدارة اتحاد الصناعات ورئيس الاتحاد (وهو فى الوقت الحالى صديق جمال مبارك المقرب والحميم سياسيا واقتصاديا الأخ الكويزى الكبير (نسبة إلى اتفاقية الكويز) جلال الزوربا وهو قطعاً غير زوربا اليونانى ومن قاصرها زوربا اليونانى أفضل عندى) ومازال وزير التميمين يعين نصف مجلس إدارة اتحاد الغرف التجارية وهو ما يعنى أن مصر كلها بالتعيين حتى وددت لو قررت الحكومة تعيين الشعب كمان ونخلص، والأمر كله يعنى من الآخر أن قبضة الدولة تمسك منظمات رجال الأعمال من لغوغها!

٥- إن مجموعة رجال الأعمال الموجودين فى مصر الآن والفاعلين لم يتربوا على الإطلاق فى أجواء ديمقراطية ولم يؤمنوا بالديمقراطية شأن كل أجيال يوليه التى ولدت وتربت فى عصر عبدالناصر وعندما دخلت مجال المال والأعمال دخلته برعاية ومشاركة وإتاوة من الدولة ورجالها فهم أقرب إلى موظفين فى الدولة بدرجة رجل أعمال وليس أدل على ذلك من رجال الأعمال الذين صاروا موظفين فى الدولة بدرجة وزراء.

٦- إن جميع خبرات رجال الأعمال فى الاختلاف مع الدولة منيلة بستين نيلة، أحد رجال الأعمال حين فتح قناته التليفزيونية للراء الحرة وللتعبير الجريئ غير المناق، ضغطت عليه الدولة حتى كادت أن تدهسه ولولا ستر ربه لكان فى السجن الآن، ودكتور رجل الأعمال من مؤسسى حركة كفاية خسر أو أخسرتة الدولة الملايين بهذا الموقف، وأى رجل أعمال يفكر فى التبرع لمنظمة حقوق إنسان أو جماعة للدفاع عن سجناء الرأى أو حتى ينشر إعلانا فى جريدة معارضة، سوف يزور مفتشو الصحة مشروعاته ومندوبو الدفاع المدنى ومحصلو الضرائب والتهرب

الجمركى والمصنعات الفنية، بل ولو فكر ليس فى التنافس السياسى مع الدولة بل التنافس التجارى مع رجال الدولة فسوف يزور البوليس فيلته وينزل لقبو تخزين الخمر ويلاقوا بالصدفة سى دى مع راقصة وبالصدفة سوف يتسرب من أيدى البوليس لأيدى جماهير مصر الوفية، وسوف يعصفون به وبسمعته وباللى يتشدد له، لهذا كله لن يقرب رجل أعمال من معارضة النظام ولن يساهم فى بناء حركة ديمقراطية إلا طبعا المؤمنون حقا بالديمقراطية وحق هذا الشعب فى اختيار رئيسه ومراقبته ومحاسبته هو ومحاسبه، فيما عدا ذلك سيظل هذا التحالف بين رجال الأعمال ورجال السلطة حتى إنك لم تعد تستطيع أن تفرق بينهم وإذا اشتكى عضو فى اتحاد الصناعات اشتكى له سائر أعضاء الحكومة بالسهر والحلمى، حمى تاخدمهم يا قادر يا كريم!

ولكن التاريخ والجغرافيا والمنطق وحساب المثلثات علمونا أنه لا يمكن أن تنشأ حركة ثورية إلا بممولين (حتى الحزب الشيوعى يحتاج إلى ممول وحتى ماركس كان إنجلز يبصر عليه) ولا تغيير سياسى ولا تيار إصلاحى ولا دعوة سياسية إلا بمشاركة فاعلة من طبقة الرأسمالية أو التجار أو أصحاب المال والأعمال ولذا تبدو الدعوة للديمقراطية السياسية فى مصر فى حاجة ماسة لأن يعزها الله برجال أعمال ورأسماليين إصلاحيين يعودون بنا إلى مجد عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه، ملياردير الإسلام الذى كان يمولى حروب جيوش النبى عليه الصلاة والسلام وكان واحدا من ممولى حركة الإسلام فى الانتشار والانتصار وحيث كانت تجارته تنمو وتزداد وأصبحت قوافله ذاهبة رائحة من المدينة حاملة القمح والدقيق والدهن (الزيت) والثياب والأواني وكل ما يحتاج إليه أهل المدينة وفى يوم من الأيام قدمت قوافل عبد الرحمن بن عوف على المدينة وكانت مؤلفة من ٧٠٠ راحلة فقد كان ابن عوف التاجر والمستورد الأول فى المدينة. فهو الثرى الغنى التاجر الملياردير الذى يكفل المدينة والجزيرة العربية والمنطقة كلها بالاحتياجات من أول الكسوة والطعام وحتى الأدوات والمعدات. ودخلت تلك القافلة المكونة من ٧٠٠ راحلة حتى رجت الأرض بها رجا فقالت

عائشة رضوان الله عليها " ما هذه الرجة؟" ف قيل لها " قافلة عبد الرحمن بن عوف بـ ٧٠٠ دابة تحمل البر والطعام والدقيق " فقالت عائشة رضوان الله عليها " بارك الله فيما أعطاه في الدنيا ولثواب الآخرة أعظم ". عندما بلغ هذا القول عبد الرحمن بن عوف حتى طار مسرعا قبل أن تبرك النوق إلى السيدة عائشة وقال لها: أشهدك الله يا أم المؤمنين أن هذه القوافل جميعها بأحمالها ورحالها في سبيل الله " تبرع عبد الرحمن بن عوف بالسبعمئة ناقة في سبيل الله. وهذا المشهد الذي ينقل لك صورة حقيقية عن الغنى أو الملياردير المسلم أو الرأسمالى المسلم. لقد حمل مجاهدين في سبيل الله على ٥٠٠ فرس يملكها وفي مرة أخرى ١٥٠٠ راحلة، لقد ترك ابن عوف لورثته من كتل الذهب والفضة ما قسم بينهم بالفئوس حتى أدمت أيدي الرجال من تقطيع الذهب، هذا النموذج هو ما تبحث عنه أى حركة أو دعوة للتقدم وللتغيير ولتنوير الجماهير وإيقاظهم من الاستبداد والفساد، وقد يبدو عبدالرحمن بن عوف حلما لكن وقائع الواقع تقول إننا فى حاجة إلى خطوات يمكنها أن تنجب لمصر رجال أعمال ينقذون البلد مع مثقفيها وسياسيها وشبابها وطلابها من براثن النظام الفاسد والمفسد ولا حل ومن ثم لا أمل من وجهة نظرى إلا عبر خصخصة البنوك وتفكيك ملكية الدولة لمصادر التمويل والإمداد والإفساد لرجال الأعمال بحيث تكون جدية المشروعات هى أساس الإقراض وليس عن طريق التليفونات من زيد أو عبيد (مقصدش عاطف عبيد) ولا برضا سامى من الأسرة الحاكمة والوزارة المالكة، ثم كذلك خصخصة المؤسسات الصحفية التى ترتع فى فساد رائحته أنتن من رائحة خنازير عزبة الزبالين وتعيش على تقديس الرئيس ونفاق الحاكم والعُهر السياسى، ثم كذلك تفكيك ملكية الدولة لأجهزة الإعلام بحيث يلعب الوعى الحر عزفا جديدا لمصر ينقذها من نشاز الشواذ (سياسيا أو غير ذلك) ثم فى الأول والآخر تفكيك جهاز أمن الدولة و إنهاءه تماما حتى يتمكن المواطن المصرى من رفع رأسه فقد مضى عهد الاستعمار وجثم بعده عهد الاستعمار ولا تحرير رقبة شعب ذى مسغبة إلا بإلغاء جهاز أمن الدولة الذى تتحكم تقاريره فى كل أنفاس ولهات مواطن عادى أو سياسى أو

مثقّف أو رجل أعمال، ثم قبل هذا كله وبعده تعديل الدستور الذي تحوّل من عقد اجتماعي بين الشعب والحكومة إلى عقد شقة مفروشة أجزها الشعب الغلبان للنظام الفلّتان وبينما يشترط كل مالك شقة على الشخص الذي يؤجرها له مفروشة أن يمتنع عن العبث بمحتوياتها وألا يجلب لها ستات لأن هذه العمارة تسكنها عائلات فإن الشعب المصري أجز شقته لنظام فاسد وأجز معها ضميره!!

مصلحة مصر

هل مصلحة مصر هي مصلحة الرئيس شخصيا، والذي يراه حسنى مبارك مصلحة نعتبره فوراً مصلحة مصر، وهل مصلحة مصر فى أى موقف أو تصرف هى ما يقول صفوت الشريف أو حبيب العادلى أو أنس الفقى إنه مصلحة مصر؟ المذهل المبؤس أن جماعة الحكم فى مصر حرسه القديم والجديد ومراكز القوى فى القصر الجمهورى أو فى البيت الحاكم أو فى شارع القصر العينى (حيث يقع مبنى مجلس الوزراء) أو فى لاطوغلى (وزارة الداخلية) تتصور هذه الجماعات (والذين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) أنها تمتلك حق تحديد ما فيه مصلحة البلد وما فيه ضدها، فإذا أردنا أن نتحدث عن الفتنة الطائفية نطوا فى كرشك: بس هس مصلحة البلد، وإذا أردت أن تطالب برقابة دولية على الانتخابات كتفوك وألجوك وصرخوا فيك: أسكت اصمت، مصلحة البلد؟ وإذا رأيت أن التطبيع جريمة قالوا لك مصلحة مصر وإذا عارضت مشاركة مصر (أو تواطؤها) فى حرب مع الأمريكان ضد العراق قالوا لك أصلها مصلحة مصر، وإذا وصفت أن ما يحدث من مصر وحكومتها فى القضية الفلسطينية بالسمسرة السياسية غنوا علينا بأغنيتهم الشهيرة مصلحة مصر؟

والواحد يسأل نفسه أحيانا أين هى مصر تلك الطيبة العبيطة التى تسلم نفسها ومصلحتها لمستبدين فسدة لم ينجحوا إلا فى شئ واحد وهو الفشل؟ فنحن فى قاع قوائم الدول فى العالم من حيث درجة الشفافية فى سياستنا وتصرفاتنا السياسية والاقتصادية ونحن فى قعر دول العالم من حيث التصدير ونحن من بلداء الفصل (بل والمدرسة) فى مكافحة الفساد ثم كذلك نحن دولة غير مصنفة دولياً فى التكنولوجيا وكمان عشان الواحد يقول للأعور إنت أعور فى عينه نحن

في ذيل الدول فيما يخص حرية الصحافة وحریات التعبير فضلا عن موقعنا المنتدى في قائمة ترتيب الضيفاء، فإذا بمصر هذه الغفلانة الشقيانة التي تركت مصلحةها في أيدي دبة سياسيين جابوها الأرض لا تزال تعتقد أن مصلحة مصر هي تلك التي يحددها ويقرها شركة فساد استبداد ليمتد التي يعرفها الناس إختصارا باسم الحكومة، فكلما أرادت الحكومة أن تكتم الأفواه وتلجم الألسنة وتصادر رأينا (وربما صحفنا) تكلمت فوراً عن مصلحة البلد وتحججت في كل ما تفعله من قرارات غاشمة وإجراءات قمعية بأن هذا ما تلميه مصلحة مصر (يا حبيبتى يا مصر أو يا حبيبة شادية يا مصر).

لقد أدخل مبارك الآلاف إلى المعتقلات والسجون تحت دعوى أن هذا لمصلحة مصر وغير وبدل وشال وحط ومد في قانون طوارئ ووقف أمام أى إصلاح حقيقى وأية تغييرات جوهرية جذرية في الدستور بدعوى أن هذه مصلحة مصر وعشرات الأمور على مدى ستة وعشرين عاما يمشى فيها الشعب وراء الرئيس باعتباره هو وحده إلى عارف مصلحة مصر ومصلحتنا، أما نحن فأشبهه بجنان ترك في مسلسل سارة لا نملك إلا أن نتهته (أيزة أروح لحسن)، ثم إن كل السياسيين والموظفين المحيطين بمبارك يعتبرون أن مصلحة مصر هي مصلحة الرئيس طبعاً وإلى فيه خير للرئيس فيه خير للبلاد والعكس ليس بالضرورة صحيحاً لأن خير مصر أن يكون رئيسها محدد المدة بفترة على حد أقصى كما في كل أنحاء العالم المحترم والمتقدم، فمن مصلحة مصر أن يتم التعامل مع رئيسها بإعتباره بشراً سوياً وليس نصف إله ونبياً يجلس على مقعد الرئاسة مدى الحياة ولا راد لقضائه ولا نص في الدستور أساساً لمحاكمته (على سبيل الفرض الجدلى النظرى السفسطائى أن لو ارتكب رئيس الجمهورية جرماً أو جريمة كالقتل أو السرقة مثلاً فإنه لا يوجد مادة في الدستور تنص على كيفية محاكمته..!)، فضلاً عن أن مصر خرجت من نظام ملكى استبدادى يحدد فيه مولانا مصلحة البلاد حيث نحن مجرد كنب ومصاطب ورعايا لجلالته إلى حكم جمهورى فاشستى ناصرى ساداتى مباركى كلهم ضباط تعودوا على لغة الأوامر والتعليقات وتقام يا

أفندم "وعلم وينفذ" "ودور نفسك مكتب" و"نقد وانتظلم" ومن ثم لم يكن هناك أصالة ديمقراطية في فكر أى رئيس! بل تراتبية عسكرية والتزام بقرار القائد ولو خطأ ولو كارثة، فضلا عن أن السخف الذى يردده منافقو النظام حول أننا دولة مؤسسات فرما يكون حقيقيا لو أضفنا فقط أننا دولة مؤسسات معينة، فكيف نتعامل مع مؤسسة القضاء على أنها مستقلة والرئيس يعين رئيس المجلس الأعلى للقضاء ورئيس المحكمة الدستورية ووزير العدل يفعل ما يشاء فى حركة القضاة وكيف نتصور أن مجلس الشعب المزور بالضرورة والذى يسيطر عليه حزب غاشم بتزوير فاضح مؤسسة مستقلة عن الرئيس وهو الذى لا يملك أن يقول للرئيس بـ، ويفوض الرئيس فى سلطات الأمة حول التسليح والصفقات والمعاهدات وغيرها من أمور سيادة الشعب التى ذهبت لسيادة الرئيس، فضلا عن مجلس الشورى الذى يعين نصفه الرئيس وكذلك رؤساء الجامعات وعمداء الكليات وعمد القرى ومحافظى المحافظات ورؤساء الصحف الحكومية ومديرى المحطات التليفزيونية الرسمية وكلهم على بعضهم معينون بقرار من الرئيس أو من ينوبه، وبقون برضا الرئيس (من غير من ينوبه) إذن لا أحد من هذه المؤسسات يشارك فى تحديد مصلحة مصر بل هى تعليمات من رئيس مصر فيها شفاء للناس!! وهو نفس ما نشهده فى الدول العربية التى تعانى من الاحتلال المباشر أو الضغط المباشر (هم السابقون ونحن اللاحقون) حيث مصلحة العراق كان يحددها صدام حسين ومصلحة سوريا يحددها بشار وحزبه وعائلته ومصلحة ليبيا يحددها آل القذافى الأب والابن والابنة، ومصلحة تونس يحددها زين العابدين، ومصلحة السودان يحددها البشير ومصلحة اليمن عند رئيس اليمن وهم جميعا قادرون على اعتبار العداء لأمريكا مصلحة لبلدهم ثم العودة للتنازل لأمريكا مصلحة لبلدهم وهم جميعا (ونحن فى مقدمة الصف باعتبارنا دولة رائدة وعقيدة وعميدة) يحددون مصلحتهم بالقدرة على البقاء على مقاعدهم أو توريث أبنائهم (للغربة ولا اسم من الذين سردتهم لديهم فترات محددة للبقاء فى الحكم)، وتتجلى فى المشهد المصرى آفة التعامل مع الرئيس باعتباره كبير العائلة والوالد والأب وهو الذى ينزع من

مصر صفة الدولة ويتحدر وينحدر بها إلى حالة القبيلة، فالوصاية الأبوية التي يفرضها الرئيس ومناقضه على الشعب هي التي تسحب من الشعب حق تحديد مصلحته وتمنحها كالابنة البتول العذراء والقطة المغمضة لوالدها، ويتحول الرئيس من رجل منتخب لمدة محددة لتمثيل الشعب وتنفيذ إرادته إلى ولى أمر الطالبة مصر التي لا تعرف مصلحتها كما يعرفها باباها!! بل وإذا حاولت أن تناقش وتختلف يصكعها والدها على وجهها قلما ويتبارى الناس في الدفاع عنه باعتباره بيريها!!

الروح العسكرية والسلطة الأبوية هما اللذان جعلتا هذا البلد تحت وصاية رئيسه وحاكمه ولا يتردد مبارك عن التصريح في حوارات كثيرة عن أن مصلحة البلد لا تسمح بتغييرات جذرية أو إصلاحات شاملة ومن المفروض أن يسلم الناس ويوافقوا الرئيس على اعتبار أنه عارف مصلحة البلد أكثر منا بل وتتخذ الدولة عندنا حكاية مصلحة مصر وسيلة كي ترهب المختلفين معها ومعارضيه وتعبء وتحشد جنودها في الأحزاب ومخبريها في الصحافة وأراجوزاتها في الإعلام كي يهددوا أى واحد منا يتجرأ ويتصور (شكلته أمه) أنه يتصرف وفق إيمانه بمصلحة مصر، فمصلحة مصر مثل حديد مصر يحتكرها الأعز والأقرب للسلطة ولا يصح أبدا أن نقول إن من مصلحة مصر أن يترك مبارك مقعد الرئاسة ويمضى للاعتزال لأسباب صحية وسياسية لا لبس فيها ساعتها هذا يضر بمصلحة مصر من وجهة نظر السادة الحكام (وحاملى الراية)، ونحن نظن أن مصلحة مصر فى إلغاء قانون الطوارئ وتغيير الدستور بينما السادة فساد ليمتد يجدون هذا الإجراء ضد مصلحة مصر، ويكاد رجال الحكم يكون وتنزل الدموع حارقة من عيونهم دفاعا عن مصلحة مصر، وتطلع أنت قدامم العميل أو الخائن السافل أو المعارض الموتور الذى لا يهيمه مصلحة مصر، ولأن مصر لا تتطق وإنما ينطق الرجال (وأشباه الرجال) فإن ممالك الدولة يخلطون دائما بين مصلحة مصر ومصلحة سجون مصر فالثانية هي التي من مصلحتها أن يخرس الناس ويسمعوا الكلام ويمشوا على عجين ما يلخبطوش من أجل زنازين أقل وعمل أريح، أما مصر نفسها

فلا نظن أن من مصلحتها أن يقول الناس كلهم رأيا واحدا وكلاما واحدا ويتخذون موقفا وسلوكا موحدًا (طبعًا هو موقف الحكومة وحسب أوامرها وتعليماتها)؟ بل مصلحة مصر الحقيقية في تعدد الأفكار والآراء بل وتعارضها وتطاحنها؟ لكن كيف أعرف أنا مصلحة مصر إذن؟ وكيف أنزع عن الحكم ورجاله فضيلة قراءة الودع ومعرفة مصلحة مصر بينما أنسبها لشخصي المتواضع الذي لا يعرف مصلحته أصلاً وإلا ما كان الآن فيما فيه الآن؟ هذا سؤال ذكي ووجيه مع ملاحظة أتى الذي أسأله لنفسى!

حسنا مصلحة مصر أو أى دولة محترمة يقرها عنصران.

الأول المؤسسات المنتخبة وهى هنا فى مصر غير موجودة وغير فاعلة وكلها مزورة ومحتكرة من حزب واحد ومن ثم فلا يمكن أن أقطع بأن البرلمان أو قصر العروبة أو غيرها معبر عن الشعب المصرى بل هم محتطفو الشرعية ومغتصبوها ويسحب عنهم أى مراقب موضوعى صفة وسمة التعبير الحقيقى عن الشعب.

العنصر الثانى هو الرأى العام الذى تكونه الصحف والمطبوعات والمحطات التليفزيونية والبرامج ومؤسسات البحث واستطلاعات الرأى، ومن الطبيعى البديهى أن نقول إن مصر خالية تقريبا من أى صحف قومية مستقلة بل هى صحف حكومية تعبر عن الحزب الحاكم بل ويتوزع ولاؤها بين أجهزة مباحث أو أفراد البيت الحاكم أو الحرس القديم، فضلا عن احتكار كامل ومطلق من الدولة للتليفزيون وغياب تام لأجهزة الاستطلاعات المستقلة حتى لو افترضنا أن كل هذه العناصر والأطراف اجتمعت على أن مصلحة البلد فى شئ أو قرار معين فليس معنى هذا أبدا أن نمنع أحدا أو صحفا أو حزبا أو غيرهم من رفض هذا الاجماع والتنديد به ومعارضته، فالأغلبية (غير المزورة طبعًا وغير المطعون فيها) من حقها إصدار القرار الذى تراه ولكن هذا لا يمنع أبدا صوتا مخالفا وأصوات معارضة من الوجود والتواجد على الساحة (ومن يعرف فقد تكون الأقلية على حق بعد اتخاذ القرار وانكشاف الحال!).

إذن فى مصر (وعلى ما أظن) ليس هناك طرف الآن مؤهل أن يدعى وحده

أنه يمثل مصلحة مصر (بما فيهم أنا طبعاً العبد الفقير المعترف بالتقصير) ولهذا فكثير من البلاوى والمصائب تجرى فى حياتنا السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية نتيجة احتكار مجموعة محدودة (العدد والعقل) لحق تحديد مصلحة مصر، وأظن أن تحديد ما هى مصلحة مصر يتطلب منا أن نحدد أولاً من هى مصر، هل مصر دولة ديمقراطية أم أنها دولة يحكمها رئيس وإبنه وعائلته؟ هل مصر دولة كل مواطنيها أم دولة رجال أعمالها؟ هل مصر دولة مدنية أم عسكرية؟ هل هى دولة أساساً أم قبيلة وعائلة؟

إن مصلحة مصر الحقيقية أن نتوقف جميعاً عن ربط الحمار مطرح ما صاحبه عايزه، لأن مصلحة الوطن ليست حماراً يتم ركوبه لكن ربما يكون بقرة بدليل أنهم يبخلوها!

أعز ما تملك

خلا برنامج مبارك للترشيح للرئاسة من أى كلمة أو سطر عن الثقافة أو الفن لا شئ فى برنامجى ولا شئ كذلك فى تفكيره تجاه الفن والثقافة بشكل جدى وحقيقى.. دعك من الثقافة الآن، سأحدث عن الفن وهو الذى لا يعتبره رجال الحكم فى مصر شيئا ذا بال، فقط شاهدت بنفسى مدى ولع رجال دولة كبار بمعرفة أخبار الفنانات والزيجات والطلاقات، وم كما كان مسئول كبير متخصصا فى السؤال لبعض زملائنا المحررين الفنين عن آخر رفقات ومرافقات فنانة بعينها (إن شئت الدقة لم يكن معنيا بعينها بل بمناطق أخرى) أو غيرها، ثم لك أن تلاحظ بدون بذل مجهود كبير أن استخدام أجهزة خاصة الفنانات فى فترة الستينات لأدوار غير أخلاقية فى أفلام غير سينمائية يدل على نمط التفكير الذى ظل يحكم نظرة الدولة (وإعلامها) فى الفن والفنانين بعد ذلك، الدولة غير منشغلة بالفن ولا تتعامل مع مشاكله وقضاياها (وهى مكررة ومحفوظة) باهتمام ولا أهمية فالفن لديها هو مجرد شغل عوالم ومشخصاتية رغم أن أحدا من كبارات الدولة لا يمتنع عن تلبية دعوة على عرض خاص لفيلم أو مشاركة فنان فى مؤتمر سياسى أو استخدام فنانين فى مواجهة حمى تطرف وإرهاب لكن كل هذا يظل محاصرا بحالة من الفصام بين النظرة الدونية للفن والفنانين، وبين الشغف بسيرتهم والجلوس معهم، ولعل الوسط السياسى كله يتذكر مرابطة سياسى كبير ظل لفترة محل احترام أكبر مما يستحق لفنانة وجلساتها وأمسياتها بل وطنظت قصص كثيرة عن زيجات وعلاقات بين رجال دولة وفنانات على مدى العشرين عاما الماضية تتقارب كثيرا مع حالات عرفناها فى منتصف الستينات فى مصاحبة ومزاوجة بين فنانات ورجال دولة، ربما الذى جد فعلا هو دخول عالم المديعات إلى دوائر التشابك بين

الساسة والغرام بالمشاهير (الشهيرات تحديدا) في هذا العالم المنتفخ بالمغربيات! على الجانب نفسه تكتمل الصورة بتلك الزيجات (أو أشبه بذلك) التي انعقدت (ما هو مؤكد وما هو مشاع) بين رجال نطق السياسة وأمراء مشايخ وقبائل في الجزيرة والخليج مع فنانات مما جعل الأمر كما يبدو مشبعا بالرؤية السقيمة لدور الفن والفنانين حيث هم مجال تسرية (بمعناها الحسي ومعناها النفسى الشريف) وتسلية (بمعناها الراقى المتحضر وبمعناها الهلوانى المستخف) بل ليس قليلا في العدد داخل الوسط من يعرف تلك الدعوات التي كان يدعى لها فنانون كوميديون وأولاد نكتة على غداء أو عشاء مع الشخصيات ذات المقام.

في سياق السياسة المصرية القائمة على فصام الشخصية التي تقدم وجهها ملتزما وصارما أمام الجماهير ثم تعبت (ككل رجال الدولة في العالم) وتلعب بذيلها مع جوارى السلطة وفي جوار النفوذ والشهرة، يبدو طبيعيا أن تجد صناعة الفن (سينما ومسرح ودراما تليفزيونية وغناء وموسيقى) وقد تراجعت وانهارت لصالح صالح كامل (وهو رجل أعمال سعودي نابه ولا انتقاد له عندي) أو لصالح هذا أو ذاك من الرأسمال العربي أو الخليجي!

وليس غريبا أننا عشنا طول السنوات الماضية بكائيات على احتكار صالح كامل ثم علاء الحواجبة ثم الوليد بن طلال للسينما المصرية ولم تتحرك شعرة في رأس النظام ولم يسأل واحد من سادة مصر الكرام عما يحدث ولم يجفل أو يججل، هذا كذلك في الموسيقى والغناء.. ثم يتفشى واضحا فاضحا في الدراما التليفزيونية كما نلاحظ (وكنا قد لاحظنا من قبل) في شهر رمضان الحالى.

و قبل أن نتفح فمنا عن دراما المسلسلات المصرية ونموذج ما تم تقديمه في شهر رمضان الماضى علينا أولا أن نؤكد على عدة حقائق:

- 1- أن الفن أكبر وأهم من أن يتكلم عنه الفنانون فقط.
- 2- أنتى لست مغرما بالشوفينية الحمقاء التي تثرثر عن أن مصر رائدة ولا يجب أن يسحب السوريون البساط من تحت قدميها وهذا الكلام الخائب فالحقيقة أن الشوام هم الذين أدخلوا المسرح بشكله الغربى الحديث إلى مصر

وأنشأوه وأسسوه ونشروه وأنجحوه فهم رواد لنا وعلينا في فروع من الفن بل ساهم كثيرون منهم في إنهاض فن الغناء والموسيقى لدينا، وقبل هذا فالشوام هم الذين أدخلوا مصر عالم صناعة الصحف وفن الصحافة عن حق وكبريات المؤسسات المصرية الصحفية المؤممة والمملوكة للدولة الآن هي من إنشاء وتأسيس وملكية شوام من رواد الصحافة العربية التي أنبتوها من القاهرة وقد كانت عدما فيها (الأهرام - دار الهلال - روزاليوسف غير عشرات الصحف والمؤسسات التي أفتتها مصر إهدارا أو إهمالا) ومن ثم فأنا لا أجد ضرا ولا ضارا أن يعود الشوام ويحملون راية الدراما التلفزيونية بعدما ترهلت مصر واتهدلت، حلال عليهم خصوصا في وقت عصيب تقبض أصابع ميليس والأمم المتحدة على نظام تعس فعلى الأقل يسعد فنانوه وجمهوره بنجاح فهم وإبداعهم.

٣- أن الفن في مصر عانى المرين الأمرين من التحقير والتكفير، تحقير الدولة التي لا ترى في صناعة الفن إلا تحصيل الضرائب والرسوم وقصم ظهر المستثمرين شأنهم شأن بقية المقصومي ظهورهم في مصر، وأيضا تكفير المتطرفين والغلاة والمتعصبين للفن وللإبداع حتى صار لدينا نجوم وكتاب على قوائم المستباحة دماؤهم من الإرهابيين ولعلنا في السياق نفسه نذكر أن مسرحية في أسبوط شهدت هجوما من المتطرفين ثم مسرحية مسيحية شهدت تفجيرا لفننة وبينها مسرحية شهدت إهمالا وجرما حكوميا انتهى بحريق أودى بحياة زهرة وخيرة مسرحي مصر، ألا ينتبه عاقل رشيد أو حتى عادة رشيد إلى أن مصر لم تشهد مظاهرات بالآلاف المؤلفة ضد شئ غير إسرائيل وأمريكا إلا رواية «وليمة لأعشاب البحر» ومسرحية «كت أعمى والآن أبصر»، ومع ذلك لم يلتفت ملتفت واحد من حكام مصر أو من بقالة الأمانة التي تحكم مصر لدور الفن والإبداع وأهميته لدى الناس سواء لإشعال قنابل الفننة أو إشعال شموع التنوير.

٤- أن حجم الأموال الدائرة في عالم الفن (سينما ودراما تلفزيونية وغناء وموسيقى) لا يصل أساسا لحجم الأموال في صناعة شكير البلاستيك في مصر، الفن صناعة ذات رأسمال محدود مقارنة بأية صناعات أخرى ولكن أهميتها أكبر من

صناعة السلاح حتى، لماذا؟.

أ - لأن ضعف حجم الأموال وقتلتها دليل على فقدان استراتيجية وخطة والاعتماد على الارتجال والاستهبال في هذه الصناعة وذلك السوق الذى يمكن أن يتحول للمليارات لو توفر العقل.النابه والضمير الصاحي.

ب - أنها صناعة أفكار ومشاعر ووجدان ومن ثم تأثيرها أوسع وأكبر وأشد عمقا من أى صناعة أخرى، ليست صناعة عقول فقط بل قلوب أيضا.

ج- أنها كانت الدخل الثانى من العملة الصعبة لمصر حتى ثورة يوليه ومن ثم التدهور فيها ليس مسئوليتها فقط وليست إمكانياتها بل المسئولية عن ذلك تبعد عنها أكثر مما تقترب منها.

د- أنها صناعة متميزة لدينا ونحن لسنا متميزين في صناعات كثيرة في الحقيقة ربما تكون هى الصناعة الوحيدة التى تنفرد مصر بوجودها دوننا عن كل الدول المحيطة (أقصد هنا السينما فقط).

هـ- ثم هى صناعة نادرة وليست متاحة كثيرا في أنحاء أخرى من الشرق الأوسط كما أنها تمتلك تميزا عن آخرين، تلك الجذور الصناعية والترية الحصبة التى لا تقدر بثمن، لكن مرة أخرى الدولة لا تفهم هذا ولا تعرفه ولا تحرك ساكنا لأنها لا تفهم سوى أنهم شوية فنانيين ومشخصاتية وعوالم ومن ثم فالفن في مصر صناعة وتجارة عشوائية ولا يحكمها منطق ولا خطة ولا استراتيجية، لا أعنى من ذلك رغبة في أن تدخل الدولة مجال الصناعة الفنية فهى أردأ من أن تفعل شيئا جيدا ولكن ذلك يعنى خطة دولة ومشروع أمة متكامل وليس فوضويا عشوائيا وهو ما جعل الفن المصرى (دون موارد) يفقد بريقه وجوهرة ومن ثم تفقد مصر أعز ما تملك وهو الفن بترونها الثقافى والوجدانى!

نأتى إذن للدراما التليفزيونية التى هى نتيجة وليست سببا، التى هى العرض وليس المرض وقد تابعت الصيحة الصادقة والمخلصة لنجم الإعلام المصرى الصحفى الكبير المحترم محمود سعد حين حذر وأندر ووصف وكشف وفضح وأفصح أن الدراما التاريخية التى تنتجها سوريا تجاوزت الدراما المصرية تماما وأنا

تراجعنا إلى حد مؤسف ومؤلم، وهو صواب دقيق أعلنه محمود سعد خصوصا عندما ترى مسلسل «ملوك الطوائف» وهو عمل قل أن يجود الزمان بمثاه بل لعله أعظم عمل درامى منذ عرف العرب الكتابة الدرامية وفن التشخيص ثم ترى ما وصل إليه (أى عمل مصرى) من تواضع وضع يخجلك أنه حتى إتقان الصنعة بات شيئا من حفريات الماضى، والحقيقة أن ما أصاب التلفزيون هو نفس الفيروس الذى أصاب السينما قبله، أخطر ما تعرضت له صناعة الدراما السينمائية والتلفزيونية فى مصر هو وقوعها فى يد القطاع العام الفاسد ثم التهاوى فى يد القطاع الخاص الجاهل، فهناك أربعة منتجين أو أكثر قليلا يتحكمون فى صناعة السينما المصرية فطمخوا فنها ورفعوا قدر هزلها وهزالها ثم استداروا على التلفزيون وها هم يمارسون نفس الجريمة (الذين قرأوا كتاب من يدفع للزمار وهو يحكى عن دور المختبرات الأمريكية فى نشر أنواع معينة من الفنون فى العالم لمواجهة الفن الواقعى الاشتراكى لا يستبعد دورا خفيا فيما يجرى فى السينما والتلفزيون وإن كنت لست من أنصار هذا التفسير - التبرير فلا أستبعد دورا نطليا وهايا منذ السبعينات هدفه أن تسود سينما اللبى على سينما سواق الأتوبيس والبرى وسوبر ماركت) هؤلاء المنتجون بهذه الحالة العقلية التى لا تحمل ثقافة ولا تملك دراية ولا تنشغل بما انشغل به حتى رجل صناعة محترف مثل رمسيس نجيب زمان، هم الذين بالوا على الفن بشيئين، الأول هو تحويل العمل الفنى إلى صفقة مثل رجل الأعمال الذى يتعاقد على صفقة لحوم بشكل عاجل لأن البلد شاححة لحوم فننزل السوق وتخلص فى أسبوع ويلم خمسة ملايين جنيه مكسب ثم يبحث عن صفقة بلح عشان رمضان أو صفقة أساتيك عشان موسم الدراسة، هذا النوع من رجال الأعمال الذين هم ليسوا صناعا ولا خبراء ولا أولاد كار ولا محبى فن هم الذين يسيطرون على كل شئ كما المافيا تماما فى عالم السينما الآن، ورغم أن أحمد عز يحتكر الحديد ولا أحد يردعه إلا أننا نهاجمه ليل نهار بينما تترك من يحتكر وجدان مصر وليس حديدها لا تقترب منه لأننا (حكومة وشعبا) شايفين أنها سينما وكلام فارغ وهايف فلا تقترب ولا نستغرب!

الشخ الثاني الذي بلينا وبلانا به هؤلاء المنتجون إضافة لاحتكار الصناعة فإنهم احتكروا كذلك الذوق وأمموه بتوحيد شكل الفيلم وهو الكوميدي، كل الأفلام كوميدية لأنها الأكثر طلبا وربحا فصارت صناعة السينما مثل صناعة البالونات والجميم تزدهر في الأعياد، ومثل صناعة اللب والسوداني والذرة تزدهر في الصيف، وبتنا نشاهد أفلاما كالسمنة نفس النكهة والطعم مع تغيير الاسم! ثم فعلوا فينا ما هو أفدح فاحتكروا لنا من نخب، فصارت هناك أسماء تعلقو و تبرز وأخرى يتم طردها ونبذها من السوق، وصارت أفلام السينما رهن إشارة النجوم الهزليين الذين لم تضبط منهم شخصا واحدا يمتلك عقل فريد شوقى ولا وعى أنور وجدى ولا موهبة أحمد زكى ولا عبقرية عادل إمام، بل منتجين بلا وعى ينتجون لنجوم بلا ثقافة أفلاما بلا فن لجمهور بلا إرادة، وإذا هؤلاء المنتجون يمارسون نفس الهراء المربح في التليفزيون، نجوم معينون مفروضون ومعرضون وحدهم مثل عصا العسلية ثم تلف حولها العسلية، وقصص تافهة ومملة وسخيفة وبلا أى خيال، كله فى المکرور والمعاد، وهدر مدهل لطاقة فنانيين عظام من الجرم أن تتركهم يفكرون لأنفسهم فيبددون الطاقة واللياقة الذهنية لديهم، ثم الشره المتوحش للربح الذى يجعل المسلسل فى خدمة الصابون والشامبو وكأنها إعلانات طالع لها مسلسل وليس مسلسلا طالع فيه إعلانات، المحصلة، منتج بلا ثقافة ولا أفق مع نجوم بلا وعى ولا خطط تجمعهم رغبة الربح السريع الشره المتوحش مع إدارة إنتاج تليفزيونى ليست فوق مستوى الشبهات، وجهات متواطئة مع محطات عربية تحب أن يفشل الفن المصرى (على سبيل المنافسة التجارية قبل السياسية) فننعم على هؤلاء بأموال طائلة تشبه جر قدم مدمن للإدمان، فتتهاوى أعمدة صناعة تليفزيونية مدهشة وناجحة جرت فى مصر على سبيل الصدفة ومن حسن الحظ رغم العشوائية، حين خرج علينا سيد الدراما التليفزيونية الأساتذة (فهو فى هذه المهنة ليس أستاذا واحدا ولا يصح أن يكون كذلك) أسامة أنور عكاشة وفى صحبته عطاءات وفيوضات محسن زايد وعاصم توفيق ولينين الرملى، والأفذاذ وحيد حامد ومحفوظ عبدالرحمن ثم مبدعو الإخراج الأكبر الأفاضل محمد فاضل

ويجيب العلمى وإسماعيل عبدالحافظ وإنعام محمد على، هؤلاء الذين وضعوا الأسس والأساسات إذا بالأبناء قد جاءوا مثل العيال المدللة محمته تبيد ثروة العائلة، يساعدها مناخ عام فى مصر تسيطر عليه شراهة الربح واقتناص الفرص وحصد المغامم وفهلوة العمل وكروثة التشطيب وقرطسة الزبون وصارت قواعد السمسة والعمولات والرشاوى تحت الترابزة والهدايا من فوقها هى التى تصنع دراما مصر بل هى فى الحقيقة تصنع الآن مصر كلها.

منذ سنوات كنا ننتقد فوازير رمضان ووجودها المفروض علينا تكرارا ونشأها ومللا ثم تراجع مستواها وانظفاً نجومها وتضاءلت جماهيرتها ثم اختفت، وأظن أن المسلسلات تمشى على نفس تلك الخطوات، والمؤكد أن مصر لم تعد تنفرد بإنتاج الدراما ولا بجودتها ودخلت أقطاب أخرى تلك الصناعة والتجارة مثل سوريا والأردن وقطر ودبي، ثم لم يعد النجم المصرى هو سيد الموقف بل توزعت الأمزجة وتعددت مراكز القوى وكما صار هناك نجوم غناء غير مصريين ملء السمع والبصر ونجوم برامج تليفزيونية وإعلاميين غير مصريين كذلك صار هناك نجوم تليفزيون ربما لم يزروا مصر حتى، والذى لا يتنبه لهذه الحقائق جمول أو غشوم، فلم تعد تنطبق من زمن على مصر المقولة الأشهر فى عالم الثقافة (مصر تكتب وبيروت تطبع والعراق تقرأ)، لم يعد هذا سائدا نتيجة تطور وتقديم الآخرين وتخلفنا وتراجعنا نحن، وليس هناك أبلغ من أن نذكر أن فى شهر رمضان هذا العام لم تعرض محطات تونس والمغرب لأول مرة مسلسلا مصريا فهل يكفى هذا للتدليل والتعليل، مع ثقة مطلقة لدى أن أحدا من المسئولين سوف يتحرك فالكثيرون داخل مبنى الإعلام المصرى متورطون أو متواطئون، والآن أنزل بأغنية تتر النهاية لهذا المقال من كلمات العظيم أحمد فؤاد نجم ومن تلحين حضرتك حسب ما تغنيها..

مر الكلام

زى الحسام

يقطع مكان ما يمر

أما المديح
سهل ومرح
يخدع صحيح وبغر
والكلمة دين
من غير يدين
بس الوفا
على الحر..

حزب عبادة سيادة الرئيس!

سقط حزب البعث العراقي الذي كان يحكم العراق بأغلبية مزورة وإجماع زائف عن طريق غزو عسكري أنهى عصرا حين أنهى حزبا، وأسقط أمة حين أسقط وطنا، وها هو حزب البعث السوري الذي يحكم سوريا بأغلبية مزورة وإجماع زائف يسقط ويتهادى نحو الهاوية عن طريق ضغط دولي وحصار سياسي وقانوني عالمي، فهل يمكن أن يسقط الحزب الوطني الذي يحكم مصر بأغلبية مزورة وإجماع زائف عن طريق الإرادة الشعبية من جموع المصريين أم أن انهيار الأحزاب الغاشمة الباطشة التي تزور إرادة الناس وتريف كل الانتخابات وتتحكم في أكثر من تسعين في المائة من مقاعد البرلمان لا يمكن أن تسقط في أوطاننا عبر حرية المواطن بل باحتلال الوطن.

البعث العراقي والسوري صورة طبق الأصل من الحزب الوطني الذي يحكم مصر منذ أكثر من ربع قرن بانتخابات باطلة مزورة ومزيفة وبلا شرعية بل باغتصاب وطن والركوب على أنفاسه بالطغيان وكلها أحزاب يرأسها الرئيس الطاغية نفسه صدام /عدى، حافظ / بشار، مبارك/ جمال، توضع صورهم في كل ثقب في البلد وعلى كل حائط ويقال عنهم الزعماء الحكماء القادة الأبطال، يحتكرون السلطة رغم أنهم يقومون بإجراء انتخابات وكلهم يدعون أنها انتخابات حرة نزيهة تعبر عن إرادة الناس، نفس الشبه والشبهة، نفس الملامح والقواسم، نفس الوجوه والأفقية، فهل ينتظر المصريون ساعة من السياء لتخلصنا من الحزب الوطني أو ضغط دولي سافر أو احتلال أجنبي سافل، أم يثبت المصريون خطأ من ادعى أنهم خاضعون خانعون عبيد وحفدة عبيد،

ويقومون ليسحقوا هذا الحزب الفاشل والفاشي من على صدر مصر التي
كتم عليها بفساده وإفساده وباستبداده!

إن الحزب الوطني من لحظة نشأته الأولى منبت سوء سياسي حيث هرول
إليه انتهازيون وأفاقون يسعون للجلوس على حجر الحكم وتحت أقدام الحاكم فتكرس
منذ ولادته سوء أصله وقلة أصلته، وبدا من يوم ميلاده حزب الفرعون، وهو ما
يتكرر ويتأكد منذ أن ترأسه مبارك الذي شارك في تأسيسه وكان نائباً له باعتباره
حزب السلطة والدولة فلم يكن مبارك يوماً رجل أحزاب ولم يعرف له مواطن
واحد قابله أو تعرف عليه حتى يوم توليه منصب نائب الرئيس اهتماماً بالسياسة
أو بالعمل الحزبي، ومنذ تولى رئاسة مصر صار الحزب هو حزب عبادة سيادة
الرئيس فلم نشهد يوماً عضواً واحداً ناقش مبارك واختلف معه في شأن سياسي
أو قرار حزبي، ولم نر حواراً حاداً ولا حراً بينه وبين قياداته ولا نازعه أحد في
صلاحية ولا صارعه أحد على مقعد رئاسته للحزب بل هو الحزب الوحيد ربما في
العالم (ومعه البعثان العراقي والسوري) الذي يقوم فيه عضو حزبي بالهتاف
بالروح والدم لرئيس الحزب كأنهم أنفار في عزبة وليسوا أعضاء محترمين في حزب
سياسي، ولعل الحزب الوطني أيضاً كاشف تماماً لتفاهته الحزبية وركاكته
السياسية حين نرى الحزب كله بالتعيين، كل مناصبه يعينها رئيس الحزب الذي لم
يترشح ضده في منصب الرئاسة أى عضو في الحزب أبداً وإطلاقاً والبتة، فهل
يمكن أن يترشح شخص من الكهنة والرعية ضد الفرعون أبداً؟!، ثم هو نفسه
الرئيس الأول والآخر والظاهر والباطن في الحزب الوطني الذي يعين نوابه وأمناء
الحزب وكل كرسي في الحزب صغر أم كبر عن طريق التعيين، ثم أى حزب هذا
الذي لا يرى رئيسه فرقا بين الجمود والاستقرار، بين الركود والاستمرار، بين
الثبات والتصلب!

كان طبيعياً إذن أن يكون حزب عبادة سيادة الرئيس حزب المصفيين
والمنتفعين والمطففين في الميزان، ركوعاً سجوداً أمام حاكمهم ثم يلتفتون فينهشون
ثروات البلد بالاحتكار والرشاوى والفساد والقروض، كان بديها أن يصبح حزب

السوء والسوءة، حزب السوق والسوقة حزب السرطان والفيروس سى
والسحابة السوداء والفشل السياسى والكلى، حزب البطالة والرتانة، حزب
نواب الخدرات والقروض والهاربين من التجنيد والذين لم يصهم الدور ونواب
سميحة!

حزب قام على تزوير الانتخابات (كل الانتخابات التى خاضها مزورة بأحكام
قضائية و بقضاء الشعب) فكيف يمكن أن يملك ماءً فى وجهه وحياءً فى خلقته
ودماءً فى عروقه ويستمر فى حكم بلد زور إرادتها وحكمها بسيد قراره (الذى هو
نائب السيدة) وبنطاعة حزب يعترف أنه زور بينما يطنطن بنزاهته، ومع ذلك فهو
يملك من البلادة السياسية ما يجعله يطالب المصريين بانتخابه، أى بعدما نصب
على البلد بالتزيف وبعدهما ضرب الوطن على قفاه وخطف شرعية حكم بالتزوير
وأمن الدولة والأمن المركزى وقانون الطوارئ وسيد قراره ورمى الأحكام القضائية
من بلكونة البرلمان يعود وبتمتهى السخافة والسماجة كأنه لم يرتكب ذنباً ولم يجن
إثماً ولم يجرم فى حق أحد ويتقدم إلى الانتخابات طامعاً فى فوز يضمن له ثلثى
المقاعد وهو أمر سيتحقق (فى ظنى) بالتزوير العنيف الفاضح والحريرى الحفى
وبعشرين فى المائة من الناخبين الذين يذهبون لصناديق الانتخابات وبهؤلاء الذين
ترشحوا تحت لافتة الحزب الوطنى أو سينضمون له بعد نجاحهم وقد قدموا الملايين
من الجنيهات من أجل مئات الأصوات، لقد انتشرت الاتهامات للمرشحين بشراء
الأصوات وبإتفاق الملايين من أجل الحصانة ولم لا فقد انتشرت الرشوة فى مصر
حتى صارت القاعدة اليومية للتعامل فى أى مصلحة أو هيئة ومقابل الحصول على
حقك القانونى والرسمى لا بد أن ترشو المدير والموظف فإذا كان المواطن المصرى
يرتشى ويرشو، فما هو فى الانتخابات على نفس الخط وفى نفس السياق يرتشى
ويدس له المرشح عشرة أو عشرين أو مائة جنيه فى جيبه من أجل توقيعه على
اسمه فى ورقة الانتخابات كأنها استمارة حكومية تماماً كما تدس أنت فى درج
الموظف حلاوته أو الشاى بتاعه مقابل ختم النسر، وكما يلجأ المصريون إلى
العنف والبلطجة ووضع اليد على الشقة أو الأرض فإن المرشح يلجأ إلى نفس

الأسلوب في البلطجة ووضع اليد للحصول على مقعد البرلمان، لقد صارت الانتخابات مرتعا لأصحاب الملايين الراشدين ولآلاف المواطنين المرتشين وإلا بماذا تسمى مرشحا ينزل قرية فيمنح أهلها تبرعات ولعائلاتها هدايا وهذا المرشح الذى يوزع ثلاثيات وغسالات وآخر يوزع أسمدة وآخر يمشى يرمى عشرات الأوراق النقدية لكل من يصافحه، بماذا تسميهم؟ ثم بماذا تسمى الذين يقبلون ويمدون اليد ويرتشون مبتسمين شاكرين؟!، لقد نجح حزب الفساد فى إفساد الحكم والشعب، فكان طبيعيا أن يكون حزب السلطة والتسلط، حزب الأوامر والتعليمات، حزب التمديد والتوريث وعبادة الرئيس فصار الرئيس هو الفرض والابن هو النفل. وكما جاء مبارك على رأس الحزب بلا خبرة سياسية ولا سابقة أعمال حزبية جاء ابنه راكبا على حصان أبيض منذ دخل الحزب وحصانه يرتع فى المرعى وينعم بحظوة الراعى، لم يكن جمال مبارك يوما طالبا مشغولا بالسياسة ولم يكن عضوا فى اتحاد ولا رابطة ولم يخض انتخابات أبدا ولم يقل له رئيس أو مدير «أف» ولم ينهره زعيم فوقه ولا رئيس قبله ولا زميل منافس ولا خصم معاند، بل ولد وفى فمه ملعقة حزبية من ذهب، ودخل والكل يفتح له الأذرع والأحضان والبساط والسجاد والمدح والتمجيد، فكان أشبه بولى عهد فى بلاط قصر وليس مجرد مواطن يدخل السياسة من أبوابها ويصعد السلالم من أولها، بل قفز مثل قفزة الزانة وصعود مثل صعود كبسول فضائى، ليحتل مقعد الوريث وتفتح له أمانة يترأسها ويحكم الحزب ومصر من خلالها فتصبح من طبائع الأشياء أن يتخيل ولى العهد أنه الأجدر والأولى والأقرب، وصار له رجاله وحلفاؤه والناطقون باسمه والعاملون برهن إشارته من وزراء ورجال دولة وكتبة وعرضحالية من أجراء الصحفيين ومخبرى الصحافة، وصار مبارك الابن فى موقعه وسلطته لم يسمع فى يوم جدلا حولها فى الحزب ولم يصادمه قيادة حزبية ولا وزير فى وزارة ولا رجل دولة ولا شاب نزق مغامر من أبناء المسؤولين فى بلاط الحكم بل تسمح بقميصه السياسى الجميع وطلبوا رضاه ونعمته وتجنبوا مخالفة ولائه وقمته، فصار جمال مبارك نتيجة كل هذا لا يطبق معارضته ولا يتحمل نقده بل صار أضيق صدرا

من والده الذى قد تبرر سنوات عمره وعمر حكمه الطويل أن يقول كلاما غضوبا أو يأمر أمرا عجولا، لكن صاحب أمانة السياسة لا يتحمل نقدا ولا شدة فيطلق تصريحات أو بيانات تخلط بين الحماس والعصبية، بين الثقة والغطرسة، بين التنديد والتهديد، بين السلطة والسطوة، بين أمين لجنة فى الحزب وبين ابن رئيس الحزب، لكن هل معنى هذا كله وهو مرير ومؤلم أن الحزب الوطنى حزب المضللين يخلو من المحترمين ؟ قطعاً لا، فى الحزب الوطنى محترمون ومخلصون يفعلون ما يصدقون ويصدقون ما يفعلون، لكنهم فى هذا الحزب العاشم الفاسد المفسد شأنهم شأن منافع الخمر، ألم يقل لنا الله عز وجل إن فى الخمر منافع للناس لكن إثمها أكبر من نفعها؟، فها هم محترمون وأفاضل وأجلاء وشخص راقية وشخصيات نبيلة فى الحزب الوطنى لكنها لا تجعله حزبا محترما سياسيا أو تنزع عنه استبداده وفساده وعبادته للحاكم وكهونته للفرعون، فلم تجعل منافع الخمر يوما الخمر شرابا حلالا طهورا..

هذا الحزب ينهى مستقبل مصر، يدفع الناس إلى يأس مقيم، واليأس باب الإحباط و الإحباط يقود للغضب والغضب يولد الانفجار، وليست المشكلة أبدا فى شريحة من المثقفين والسياسيين المعارضين أو فى جرائد مستقلة سوف تشعر أنها تحترق فى البحر فليس هناك واحد منا (على الأقل) ينتظر انتخابات حرة كاملة تنتهى نهاية سعيدة فأى شخص حصل على شهادة محو أمية سياسية يعرف أن هذه الانتخابات متى تمت بطريقة المقعد الفردى وتحت ولاية حكومة حزب وطنى وبامرة شرطة حبيب العادلى وبطموحات جمال مبارك وتخطيطات أحمد عز وبآخر أمتار فى مشوار كمال الشاذلى وصفوت الشريف وفتحى سرور فلن تحقق إلا ما توافق عليه هذه العصابة وتقسم عليه هذه الضغمة، لكن المشكلة فى هؤلاء المواطنين الذين تضللهم وعود حزب كذوبة وإعلام حكومة مضلل وصحف دولة منافقة، هؤلاء المواطنون الذين يتراوح عمرهم بين اليأس والأمل، وتضغط عليهم ظروف الحياة وصنوف الفقر، سيجدون أن شيئا لم يحدث وأن جديدا لم يجد واختلافا لم يأت فستترام طبقات الغضب واليأس والفتنوط فسيطرقون باب

الجهل والتطرف الدينى، أو النهب والرشوة، أو البلطجة واللصوصية، أو حين يشتعلون فى شغب وغضب مثلما جرى فى انتفاضة عساكر الأمن المركزى عام ١٩٨٦ أو كما جرى فى شهر أكتوبر الماضى فى محرم بك بالإسكندرية وهى لحظة مرعبة تمنى أن يجنبها الله مصر بينما يقودنا لها الحزب الذى يصر على أن يحكم مصر!

ما جرى فى دول صربيا وجورجيا وأوكرانيا من ثورات ديمقراطية لشعوبها قامت لترفض الاستبداد والديكتاتورية وتطيح بنظم فاسدة وقيادات غاشمة جرت كل هذه الحركات والثورات بعد انتخابات رئاسية أو برلمانية وليس قبلها، بل الانتخابات المزورة المطعون فى شرعيتها هى التى فجرت بركان الغضب فى أوروبا وغيرت الحكومات وطردت الحكام، ولا أقول إن هذا سوف يحدث فى مصر بعد تزوير الانتخابات البرلمانية القادمة... لكننى أقول إن النمل قد أكل عصا سليمان ومع ذلك لانزال نخاف منها!!

جمال سر أبيه!

أثبتت انتخابات مجلس التصفيق الأخيرة (المعروف نظريا باسم مجلس الشعب) أن الولد فعلا ابن أبيه، وأن جمال مبارك هو ابن حسنى مبارك بالدم وبالسياسة، وأنه فعلا وريثه فى الأسرة وفى الحكم، فالرئيس مبارك حين جلس على عرش الحزب الحاكم اعتمد على كمال الشاذلى وصفوت الشريف وبينما كانت مصر كلها تشعر بالكراهية (السياسية ولا أمك ولا أقدر أن أوكد على الكراهية الإنسانية لها) فقد كانا الأقرب لعقل وقلب رئيس الحزب الحاكم الذى جعل للأول محمة العضوية وتضبيب الأعضاء وتصريف الانتخابات والترطيب والصفقات وتوزيع الغنائم والمغانم السياسية، أما صفوت الشريف فقد كانت محمته الإعلام المطنطن والمطبل والمضلل الذى كان يغنى عن نزاهة الانتخابات وروعها وديمقراطيتها وكان يأمر وينهى فى رؤساء تحرير الصحف ونشرات الأخبار والضيوف وهيئة الاستعلامات والمراسلين وكله على كله، ثم كان هناك وزير الداخلية أيا كان الذى يزور ويزيف ويقفل ويسود ويعلن النتيجة التى يخرج فيها الحزب الوطنى مكتسحا كاسحا للشعب وللأمة، نفس ما فعله الأب يفعلها الابن بالسنتى والملى وكأنه حتى لم يدرس فى الجامعة الأمريكية أو قضى أعواما فى لندن، بل هى نفس تربية القصر وبلاط الحكم ونمط تفكير ولى العهد الذى يطبق ما رآه وتعلمه من حكمة السيد الوالد، فها هو جمال مبارك بعدما مكنته الرئيس الوالد من الحزب الحاكم يعتمد على نفس الضلعين لذات المهمتين، أحمد عز للعضوية واختيار الأعضاء والإشراف على تصريف الانتخابات والتضبيب والترطيب وإخراج النتائج والصفقات وتوزيع الغنائم والمغانم وكأنه لا فرق بين محام قديم ريفى مسن قضى شبابه كله فى الباجور كالشاذلى وبين أحمد عز الملياردير ابن المليونير زميل جمال

مبارك في المدرسة وفي الحزب وفي القصر! ثم الضلع الآخر محمد كمال الذي يلعب نفس دور صفوت الشريف من حيث السيطرة على إعلام مطنطن ومطبل ومضلل يعني(بتعليقاته وأوامره وسعيا لرضاه ومكالماته التليفونية) عن نزاهة الانتخابات وروعها وديمقراطيتها، وهي أكاذيب وأضاليل لا يصدقها سوى موظفي محمد كمال في الحزب وخارجه، وكأنه لا فرق بين ضابط سابق مثل صفوت الشريف بنى نفسه بعد نكسة وطنية وشخصية وبين شاب بورسعيدى انطلق من مذاكرته في المدينة الجامعية إلى الدكتوراة من أمريكا، لا فرق بل نفس الإعلام الموجه، نفس التصريحات والغمغمات والدعاية التي يرددتها بينغوات المنافقين والمضللين وراء محمد كمال وتعليقاته، وهما ضلعا الابن أمام الرأى العام ومصر كلها تشعر تجاهها بالكراهية السياسية(ولا أملك ولا أقدر أن أؤكد على الكراهية الإنسانية) ويتكرر دور وزير الداخلية أيا كان اسمه وتحول وزارة الداخلية سلاحها في التزوير من طريقة السونكى الغليظ والعصا الكهربائية إلى التزوير بالسم السياسى وبتزوير الآلة الحاسبة وتغيير الصناديق و بدلا من ضرب الناخبين لجأت إلى ضرب الأصوات، ولأن الابن سر أبيه، فقد كان الرئيس الوالد قد أبقى رؤساء تحرير صحف يدينون له بالولاء على مدى خمس وعشرين سنة ينافقون فيه كل يوم ويجعلون منه قديسا وحكيا ونصف إله ولم ينقده في همزة لمزة ولم يسمحوا بأن تعفر جاكنته ذرة من نقد ولا شئ من هجوم، وها هو جمال مبارك ابن أبيه تماما حين يعين بنفسه وبأمانة سياساته رؤساء تحرير اختارهم بنفس الهمة ولنفس المهمة، وكما كان الأولون رجال الأب جاء التابعون رجال الابن يجمعون بين ولاء عساكر الأمن المركزى مع ضالة الموهبة وغياب المصداقية ونهم النفاق كأنهم أرقاء جدد انضموا إلى ممالك القلعة فيقدمون أخلص ما لديهم لسيدهم ردا للجميل وطلبا للعطايا، ويجمع منهم الابن ووالده نفس الإصرار على الاستحواذ على السلطة كاملة ومطلقة، فتتجلى غطرسة قيادات الحزب الجدد الذين لا يطيقون منافسة ولا يرون خصوما، مغترون ومعتزون بقوتهم وأنهم يقولون لأى شئ في البلد كن فيكون وهم يتصرفون كأولاد الأعيان الذين يعملون

مع ولى عهد، يكفى أن تشاهد أحدهم فى التلفزيون لترى إلى أى درجة بلغ فرحه الغشيم بسلطته وتباهيه الفج بقوة ويكفى أن تشاهدهم فى مؤتمر انتخابى طواويس صنعها الكبر لا الكبرياء، الاعتزاز بالنفوذ والسلطة والمنعة والنعمة التى جاءت من الآباء أو من القرب من الابن أو رضا القصر، شاهد م-م وهو يتحدث عشية الانتخابات كأنما يا أرض اتهدى ما عليكى قدى، تأمل م-ك وكأنه يصدق أن الجماهير تقبل ظهر كف حزبه أن يتكرم فيحكمهم، أمعن البصر فى ي-غ متعاليا على أى نقد كأنما فعلا أصوات الوزارة التى أنجحته هى أصوات حقيقية تحبه أو تريده، تأمل لغة الجسد وإيماءات وحركات أ-ع وهو يتابع نتائج الانتخابات وكأنه فى مخيم فلوريدا كأنما يظن أن مصر عند أطراف أصابعه وأن مواطنى البلد هم فقط أولئك الذين يلتقى بهم من قيادات حزبه أو مصانعه أو صحفيين دعائنه أو زملائه من رجال الأعمال، أما جمال مبارك فهو يقف فى مؤتمراته الانتخابية يقول نفس الحروف والألفاظ، نفس الكلمات والأرقام، نفس ما يقوله والده والذى يعتقد أنها إنجازات تبرر أبدية حكمه ووراثة نجله لنفس مقعده فى قصر العروبة، إن أفضل ما جرى الأيام الفاتئة أن الذين راهنوا على أوهام الحرس الجديد وعلى أن جمال مبارك يختلف عن والده وأنه شاب مدنى غير عسكري يسعى للإصلاح وكل هذه الخرافات التى حاول أن يروجها الكثيرون تبريرا لسعيهم خلف أطراف بدلة جمال مبارك قد انكشفت كالبرد فى ليلة تمامه، فالابن سر أبيه وتوأم سياسته، وذات المنهج المستبد المتغطرس القائم القائم، لعل الذين راهنوا على جمال مبارك قد انسحبت حجته وتداعت دعاياتهم وانهارت مبررات المنافقين والمتوافقين والموائمين والمتوائمين والمشتاقين والموالسين لجمال مبارك الذين كانوا ينتظرون لحظة انتقال السلطة له بنفاقه وترويج وتسويق دعاياته عن أوهام إصلاح أو إصلاح أوهام، حتى الذين لاكت أقلامهم وتوجعت أسنانهم وهم يبررون لجمال مبارك وأمانة سياساته العجز عن إقناع الناس بصدق النية فى زعمهم الإصلاح بأن هذا سببه الحرس القديم فقد خابت حجته فما فعله عز لا يختلف فى حرف عما فعله الشاذلى بل لعل الشاذلى أوضح، وما قدمه محمد كمال لا يفرق عما قدمه

الشريف بل لعل الشريف أرق وأفطن، وما ظهر من صحف الحكومة الذى عين رؤساءها جمال مبارك لا يختلف فى الغوغائية والدعاية الفجة القميئة عما فعلته صحف الحكومة فى السابق بل لعل رؤساء تحريرها السابقين كانوا أ عقل وأحرف، إن الرهان على جمال مبارك لم يعد الآن سوى محض نفاق من منافقين أو خيبة وسداجة من آخرين، يحكى لنا التاريخ الحديث أنه لم يمنع النظام الوراثى الملكى فى البلاد العربية كما يذكر ملف هام لمركز أبحاث قناة الجزيرة على النت من حدوث حالات عزل وعنف وقوة رافقت انتقال السلطة كما حدث فى الأردن عام ١٩٥٢ عندما أعفى الملك طلال من منصبه، وفى السعودية عام ١٩٦٤ عندما عزل الملك فيصل أخاه الملك سعود وفى عمان عام ١٩٧٠ عندما عزل السلطان قابوس أباه سعيد، وفى قطر عام ١٩٧٢ عندما عزل الشيخ خليفة بن حمد سلفه وابن عمه الشيخ أحمد بن على وفى عام ١٩٩٥ عندما عزل الشيخ حمد بن خليفة أباه، وفى حالات السعودية وقطر وعمان كان ولى العهد هو الذى يقود عملية العزل أو الانقلاب السياسى، وأخشى أن لهفة البعض من مريدى أمانة السياسات قد تجعل الوراثة الحزبية لا تقل تعجلا عن الوراثة الملكية مما جعل صعود جمال ورجاله فى الانتخابات الحالية متعجلا ومتعظسا ومفضوحا من حيث اختيار الأسماء وتحديد الناجحين وقوائم المطلوب اسقاطهم والتليفونات التى تلقى التعليمات لرؤساء اللجان فى اللحظات الأخيرة وعدم إعلان أى نتيجة لوطنى أو إخوانى أو معارض إلا بعد إبلاغ أمانة السياسات أولا، وهو ما يؤكد ما تذهب إليه نفس الدراسة السابقة التى تشير من وجهة نظرى إلى ممكن الخطر حيث إنه فى الدول التى حكمها حزب واحد كما فى العراق وسورية ومصر وتونس لعبت الصراعات الداخلية بين مراكز القوى فى الحزب أو مؤسسات الحكم دورا فى انتقال السلطة أو التوازن بين مراكز القوى، ولكن الأحزاب تحولت أيضا(الآن) وكما نرى ونتابع ونتتبع فى مصر جمال مبارك وفى العراق كان عدى صدام وفى سوريا شفنا باسل ثم بشار) إلى مؤسسة فرد واحد وانتهى صراع مراكز القوى لأنها لم تعد موجودة، ولم تعد الأحزاب القائمة حتى وهى أحزاب حاكمة تؤدى دورا

حقيقيا في تنظيم انتقال السلطة. وإذا بقيت هذه الحالة قائمة في دول الحزب والجمهوريات فإنها ستؤسس لعائلات حاكمة تتحول إلى ملكية، وهكذا فإن الدول العربية تتجه إلى الحالة السابقة للجمهوريات لتعود ملكية من جديد، والواقع أن تجربة الجمهوريات في تطبيقها الفعلى في الدول العربية جعلت تهمة الرجعية والاستبداد التي كانت تطلق على الدول الملكية تبدو مضحكة وغير واقعية.

هذا ما تذهب إليه دراسة موقع الجزيرة لكنى أريد أن أذهب لأبعد من ذلك، فالواقع أن صراع الأجنحة يصبح خيرا وبركة لو كان على مبادئ ومن أجل غايات و أفكار لكن الصراع في الغالب داخل الأحزاب التي تحكم الوطن العربي(حزب البعث والحزب الوطنى) ليسا كذلك إطلاقا بل هو في مصر تحديدا صراع بين رجال الرئيس الوالد الذى يتحدث الجميع على أن هذه هى مدته الأخيرة فى الحكم وبين رجال الابن الذى يتحفز للقفز على مقعد الرئاسة الملكية ومن هنا يبدو الصراع شخصيا وما يؤكد ذلك أن طرفى الصراع متشابهين تماما فى كل شئ من الاستبداد والغطرسة والاستحواذ واحتكار السلطة واحتقار المعارضة والانتصار لقانون الطوارئ وللحد من الحريات وللإستخدام الفاشى لقوى الأمن وتجاهل أحكام القضاء والتحليل عليها باستشكالات تعطل وتعوق لتفرض حكم سيد قراره الذى يرسخ التزييف والتزوير ثم هذا الكذب الإعلامى والتضليل بل و إنكار الاختلاف بينها وبدا مدى التشابه المذهل والتوأمة السياسية والنفسية والسلطوية فى هذه الانتخابات غير المحترمة والتي صنعت عارا مشتركا للطرفين ومزقت فناع أمانة السياسات نهائيا بعدما تمزق ونسل وبره فى انتخابات الرئاسة ذات الـ ٥٨.٨٨%، لقد تشابهوا علينا ولا خلاف ولا اختلاف بينهم سوى هذا الصراع حول البقاء فى المقعد فى الكراسى الموسيقية التى يلعب فيها وبها رجال الحرسين القديم والجديد(وكلاهما حرس) كان(وربما لا يزال) هناك فريق من المثقفين والمنتمين الذين يشبهون الموتسيكلات التى تسبق مواكب المسئولين يزعمون فى زفة زار دعائى أن جمال مبارك هو البديل المدنى الذى يسعى للإصلاح بل كانت هناك(ولا أظن إنه يزال) دوائر أمريكية وغربية تتصور أنه

يمكن التفاهم مع الابن حول إصلاحات حقيقية، لكن يشاء السميع العليم أن الابن سر أبيه فعلا وملتصقا بسياسة ومنهج السيد الرئيس الوالد في الحكم، وما كنا نحاول أن نشرحه للكافة من خطيئة الرهان على جمال مبارك بدا واضحا تماما بعد انتخابات الرئاسة التي خطط لها النجل وأدارها لصالح الأب وخالفت كل القواعد الديمقراطية وانتهت إلى استفتاء مقنع، ثم هاهي انتخابات البرلمان التي يقدم جمال مبارك فيها نفسه باعتباره (ورجاله) مخ وعصب الحزب فإذا به لم يفرض التزاما على أحد من أعضائه ثم اختار من الثمر الطالح أعطنه ثم أدار مع حزبه عمليات أقل ما يقال عنها إنها تزوير يماثل تزوير حزب الشريف والشاذلي، سقطت كل دعوى ودعايات الترويج لجمال المدني الإصلاحى و الشخص الذى لا يرى ذلك إما غافل أو متغافل ضرير الضمير، يبحث لهاثا عن مصلحته وليس عن مصلحة وطن، المشتاقون والمتشبثون بحلم القفز فى مركب الابن المبحرة(فى زعمهم) نحو شاطئ قصر العروبة هم وحدهم الذين لم يروا أوراق التوت الساقطة من جسد حزب سياسى سلطوى مزور ومزيف، تحطمت دعاوى الرهان على الابن مع تحطم زجاج صناديق الانتخابات مع البلطجة وتزوير الآلة الحاسبة وجدول الضرب، والسؤال فعلا ومن أين تعلم جمال مبارك الديمقراطية وهو ابن رئيس يحكم بلدا منذ أربعة وعشرين عاما ولمدة خامسة بدون انتخابات حقيقية؟ ومن أين يعرف الديمقراطية وتداول السلطة وهو فى حزب يحتكر السلطة ولم يتزحج عن أغلبيته المزورة منذ حوالى ثلاثين عاما؟ هل عرف الديمقراطية من أصدقائه فى جمعيات رجال الأعمال والغرفة التجارية الذين يصيفون فى أسبانيا ويملك أقل واحد فيهم يحوثا للويك إند؟ هل من الصبية والشباب الذى يلتقى بهم فى جمعية شباب المستقبل يصفقون ويهللون له أم من جموع الموظفين الذين يجتمعهم له حزبه فى المؤتمرات الحزبية ويهتفون له بجنا عن منفعة؟! لقد أثبتت الأحداث والحوادث حقيقة الوهم الذى حاول المغرضون والمنتفعون(وبعض من أرباء طبيين) تزويجه وتبليسه وتبليعه للدصريين، ساحت مساحيق المكياج وبانت الملامح الحقيقية ولم يعد ينفع فيها سيلكون ولا نفخ ولا عمليات تجميل،

ويا أيها المروجون والتابعون لجمال مبارك والمثقفون حوله والواقفون وراءه، سمعونا
صلاة النبي!

www.alkottob.com

هواء «الوطن» ملوث!

كأنه لا يكفينا التلوث السياسى الذى نعيشه من سياسة الحكومة بالتزوير والتعذيب والبطالة والنطاعة السياسية حتى تأتينا موجات التلوث البيئى على يد حكم وحكومة هذا الحزب الملوث سياسيا بسنوات الاستبداد والفساد..

مش معقولة.. هواء القاهرة ومصر الذى امتلأ منذ الأحد الماضى بالغبار الأسود والدخان الثقيل الذى يجثم على الصدور ويفسد الرئة ويخنق التنفس ويثير الكآبة والاكتئاب ويعصف بصحة عيالنا وأطفالنا ويرمى بهم للاعتلال والمستشفيات، فنقف نتفرج على عجز الحكم عن تنقية سماء مصر وهوائها من التلوث المدمر للصحة وكأن هذا الحكم متواطئ بجهله وإهماله وفساده مع السرطان والفشل الكلوى والضغط والسكر وكيان مع الأمراض الصدرية ضد شعب مصر الذى يقف بصحة معتلة وإرادة مسروقة أمام هذا الحكم عاجزا عن طرده خارج سلطته بل ومحامته على جرائمه فى حق ثروة مصر وصحتها!

شعب مصر المسلوبة والمسروقة ها نحن نرى صحتنا تنسل منا تدريجيا، ها نحن نرى الحزب الوطنى الحاكم الذى لا يرى سوى هواء شرم الشيخ وهو يعجز عن حماية حدودنا من التلوث، فى ماء النيل وهواء البلد، فماذا ننتظر؟.. أن يردوا لنا صحتنا.. أم يردوا لنا وطننا..
أم نرد لهم الصاع صاعين!

اشبعوا بيها!

إذا كانت أغلبية ثلثي أعضاء مجلس الشعب هي التي ستريخ قيادات الحزب الوطني وتبرد نارهم، خلاص يا سيدي، اشبعوا بيها، مطرح ما يسرى يهري! نحن نعلم طبعاً أن الغرض الأساسي من هذا السعي المحموم والمهووس من قيادات الوطني، قديمه وجديده، لنسبة الثلثين في مجلس الشعب هو إطلاق يد الرئيس وتفويضه في عقد صفقات واتفاقيات لا يجرؤ أحد على سؤاله عنها ولا مناقشته فيها ولا معرفة أية تفاصيل لها لتظل سرا مخبوءاً في قصر العروبة لا يطلع عليه أحد ولا يقدر ممثل للأمة أن يسأل فيه وعنه رئيس الأمة وهي تلك الصفقات التي يفوضه فيها المجلس بأغلبية الثلثين تحت شعار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون!

الحزب الوطني يريد أن يفوض سيد الحزب في عقد تلك الصفقات منفرداً ومنزهاً عن السؤال والمساءلة كأنه تفويض للرئيس بالفرعنة، أن يكون فرعونا في قراراته فوق المحاسبة، سواء من الكهنة أو من الرعية، وهو أمر لا شبيه له ولا نظير سوى في البلاد الديكتاتورية المستبدة ومصر والحمد لله تاج على رأس دول الاستبداد ونظم الطغاة!

ليكن، ليوقع الرئيس ما يوقعه ليفعل ما يفعله وحده دون سؤال ولا استفسار ولا معرفة ولا اطلاع من ممثلي الأمة، فلتسحق الأمة كلها إذن تحت وطأة التزوير والبلطجة وإرهاب الدولة حتى يتم هذا التفويض ليرتاح ويهنا النظام في مصر وينام قريح التفويض!

لكن أسوأ ما يكشف عنه هذا الإجرام السياسي الذي يمارسه الحزب الوطني من تزوير وتضليل وكذب وعنف وترويع وتهديد الناس والصحف المستقلة ومنع

الناخبين عن الوصول للجان الانتخابات، أسوأ من هذا كله أنه يكشف من حزب فاشل منقوع في الفشل، هو فاشل لأنه للدورة التالية على التوالي يضرع ويركع للمستقلين مطاريد الوطنى كى ينقذوه ويحموه من فقدان أغلبية الثلثين، هذا ما حدث فى انتخابات قادها الحرس القديم عام ٢٠٠٠ وهو منقوع فى الفشل لأن ها هو حدث بجذافيره مكررا فى ٢٠٠٥ حين قاد المسيرة التى تحولت إلى مسخرة الحرس الجديد بنفسه، فإذا لم يكن هذا هو الفشل، فما هو تعريف الحزب الوطنى وتابعيه وأتباعه للفشل؟

الجانب القاتم فى مشهد الحزب الوطنى هو حصوله على ٦٨ مقعدا فى المرحلة الأولى ثم ٣٤ فقط فى الثانية ثم ٤ فقط فى الجولة الأولى من المرحلة الثالثة، هذا ما حصل عليه الهلال والجمل وهو كما ترى سيادتك تعبير عن هزال الحزب وهزله، أما هزاله ففى هذا العدد الضئيل الذى لا يوفر له (بفرض نجاح حتى الستين هلال وجمل الذين يدخلون إعادة المرحلة الثالثة) أغلبية نصف مجلس الشعب وليس ثلثيه أساسا، أما هزل الحزب فهو هذا الإصرار الذى يشبه إصرار وحماس المذيع الكبير أحمد سعيد فى البيانات الكذوبة التى كان يلقيها فى إذاعة صوت العرب أثناء نكسة يونيو ٦٧ عن مئات الطائرات التى كانت مصر تسقطها للعدو الإسرائيلى، ها هم قيادات الحزب الوطنى فى حالة هزلية مشابهة يتحدثون عن أغلبية الثلثين التى حصلوا عليها وهو محض كذب بائن فاضح فاجر! ومع ذلك اشبعوا بيها!

فهى تكشف لنا أيضا عن حزب تتحكم فيه عقلية الإكتساح، فهويتصور أن الانتخابات كده والسياسة كده، اكتساح وفرم وسحق للمنافسين والحصوم، و نهم أكول شره يريد أن يستحوذ على كل شيء ومن كل جوانبه حتى يشبع، حتى يهجع، وهذا بالضبط ما يؤكد على خراب ديمقراطى بين جدران هذا الحزب وفى الحزب لا تسمع سوى عويل الرياح وعواء الذئاب فضلا عن الروائح التى لا مبرر لوصفها!!

كذلك يبدو هذا الاستبحس الذى أصاب الحزب الوطنى بعقدة الثلثين أقرب

إلى تعرية ضعفهم الفكري وتهاوى منطقتهم السياسى فهم لا يملكون قدرة على إقناع أى معارض أو خصم تحت قبة البرلمان برأيهم ومشروع قانونهم ويعلمون يقينا أن ما يقدمونه لن يستطيعوا إقناع عاقل به ومن ثم لابد من الأغلبية الساحقة الماحقة الاستحواذية التى تقول للمعارضين اللى مش عاجبه يضرب دماغه فى الحيط، لا مناقشة ولا مناهدة ولا وجع دماغ، إنهم يسعون إلى قوانين يتم تفصيلها وسلقتها وطبخها فى ليلة وهوب عينك ما تشوف إلا النور موافقون ومصفقون أينما كان زكريا عزمى والشاذلى نكون!!

وفى سعى الحزب الوطنى لتلك الأغلبية الكاسحة الماسحة لأى معارضة حقيقية يفقد أعز ما يملكه أى حزب حاكم فى أى دولة ديمقراطية، يفقد السلطة الأخلاقية!!

نعم هناك سلطة سياسية وقانونية لكن هناك شرعية وراء كل هذا فى السلطة الأخلاقية!

كيف؟ (كويس إنك سألت!) هل تتذكر السيد أحمد عبد الجواد (سى السيد) عندما رآه ابنه الكبير ياسين (أرجوان تكون قد أخذت بالك انا أتحدث عن ثلاثة العظيم نجيب محفوظ بين القصرين) عندما رآه ابنه فى عوامة العوالم يرقص ويسكر ويميل على زنوبة العاملة فى موقف مسخرة وقلة أدب، هنا فقد سى السيد السلطة الأخلاقية على ابنه، نعم سقط فى نظر ولده، يظل الوالد له سلطة الأبوة وسلطة المال الذى ينفقه على ابنه لكن الأخطر هو سلطة القدوة والمثل وتلك هى السلطة الأخلاقية!

ولأن سى السيد هو أب ووالد فلا يستطيع الابن أن يحاسبه على سقوط سلطته الأخلاقية ولكن فى الدول ومع الرؤساء هم ليسوا آباء ولسنا عائلة بل مجتمعا وشعبا يمكن أن يحاسب بل مفروض أن يحاسب الحكام والحكومات حين يرى سقوط سلطتهم الأخلاقية.

ينطبق هذا تماما على الدول والحكومات والرؤساء المحترمين، حين أجبر الأمريكان نيكسون على الاستقالة لأن سلطته الأخلاقية انهارت مع تورط إدارته

في التجسس على الحزب المنافس، وحين كذب كلينتون على الشعب الأمريكي حاسبه الجميع على كذبه وانهار السلطة الأخلاقية للرئيس الأمريكي ليس لأنه داعب فتاة في مكتبه بل لأنه كذب على شعبه!، كذلك جورج بوش اهتزت شرعيته في مدة ولايته الأولى لأنه جاء بانتخابات مشكوك فيها مما جعله لوقت طويل عاجزا عن ادعاء تفويض الشعب له. الأمر هنا واضح تماما مع الحزب الوطني الذي يعتز ويعتر بحكمه وسلطانه بينما النظام كله فقد سلطته الأخلاقية على المصريين فكيف له أن يطالب الشعب بعدم تلقي الرشوة وهو حزب يرشو من أجل فوزه، وكيف يجروا على محاسبة الناس على العنف والبلطجة وهم يمارسها دون أن يرمش له جفن أو تهتز له شعرة في صدره، كيف يملك أن يقول للناس لا تزوروا وهو المزور الأعظم، لا تنتزعوا وتغتصبوا حقوقا وهو مغتصب سياسي منتزع سلطة؟ كيف يواجه من يضع يده على أرض دون وجه حق أو قانون بينما هو يحكم مصر وضع يد؟ كيف يقول عن جماعة الإخوان المسلمين إنها محظورة غير شرعية وهو نفسه غير شرعي؟ صحيح من الذي حظر جماعة الإخوان؟ ومن ذلك الذي يمكن أن يمنحها أو يمنعها الشرعية؟

هل يمكن أن يمنح أو يمنع نظام فاقد لشرعيته شرعية لأي أحد فنحن نعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه!؟

ثورة يوليو التي كانت يوم قامت انقلابا عسكريا انتزع السلطة من الملك، كانت نظاما يفتقد الشرعية فسحبها عن الأحزاب السياسية وجماعة الإخوان، فمن ذا الذي يمنح ويمنع؟ سلطة انقلابية وحكم ديكتاتوري؟ تماما مثل الآن حين يتحدث حكام النظام وبيغاواته عن عدم شرعية الإخوان، انظر من المتكلم؟ هؤلاء الذين حكموا مصر بانتخابات مزورة ومزيفة طيلة كل هذه السنوات وباعترافهم وبأفواههم التي ستاكلها الديدان في قبر لا أحد منا سينجو منه، هل يعتقدون أنهم سلطة شرعية إلا إذا كان اغتصاب صناديق الانتخاب بالتزوير والتزيف شرعية؟ إن الحزب الوطني يحكم مصر طبقا لنظرية المالك القديمة «الحكم لمن غلب» فتونة وفرد صدر ووضع يد ومن يقدر بماليكه على الصعود

للقلعة يصبح هو الحاكم ويعترف به الجميع فالحكم لمن غلب، والشعب المصرى يتعامل مع حكم الحزب الوطنى وحكامه تماما كما كان يتعامل مع المماليك والطفلة على طريقة بيعة المكره، أى المنصوب على فعل شئ، المحبور على الاستسلام، (وبالمناسبة فى أصول الشرع لا بيعة لمكره مستكره!) فكيف يأتى هذا الحزب ويدعى أنه يملك شرعية لسحب شرعية الإخوان المسلمين أو أى جماعة كالشيوعيين أو أى حزب وتيار؟ هل لجنة الأحزاب السقيمة الحكومية عبدة المأمور هى التى تملك منح الأحزاب الشرعية وإذا كانت هى نفسها غير شرعية فماذا نفعل؟ هل هؤلاء الحكام الذين يحكمون وطننا بلا انتخابات حقيقية ولا نزاهة ولا قانون إلا البلطجة واللى مش عاجبه يضرب دماغه فى الحيط، هؤلاء هم الذين يحددون الشرعية؟ يا نهار أسود، إنهم يشبهون الإدارات الهندسية فى الأحياء داخل القاهرة التى تمنح الرخص بالرشوة العلنية والفاضحة فهل إدارة هندسية مرثسية أو مهندس تنظيم هو الذى يحدد شرعية بناء من عدمه وهو فاسد فى أصل وشه!

لهذا أقول إن جماعة الإخوان شرعية أو غير شرعية حين تكون هناك ديمقراطية فى البلد تأتى بحاكم منتخب بنزاهة وحكومة معبرة عن أغلبية الشعب ساعتها يمكن أن تقول شرعية أم غير شرعية، لكن أن يتولى ذلك من لا شرعية له فيتحكم فى أعناق التيارات السياسية وأعماق ضمائر الناس فهذه والله لمسخرة تمسخرنا عليها الأمم!

ما حدث من الحكم والنظام والحزب الوطنى فى هذه الانتخابات لم يكن سقوطا سياسيا أو قانونيا فقط حين زور وزيف ودلس وضلل وحاصر وقتل وكذب وبلطج ليغتصب سلطة وينتزع حكما بل كذلك سقط أخلاقيا، سيظل هؤلاء يحكمون مصر كما حكمها المماليك ولكن من قال إن من يحكم الأجساد يملك القلوب والعقول والأرواح، ولكنى تتأكد من أن هذا الحكم لا يملك قلب أحد ولا عقل مواطن انظر لهذه الحشود من قوات الأمن التى تشبه قوات الاحتلال تماما وهى تمنع مواطنين من عبور الحواجز للوصول إلى الإلقاء بأصواتهم فى الانتخابات

تأمل الصور التي التقطت في المحطات الفضائية أوفى الصحف (انظر إلى أى صورة جيداً) سوف يتشابه عليك الأمر لحظات ودقائق هل ما تراه من جنود وخوذات وبنادق ومباريس هو حاجز أمنى محصن فى غزة أم فى المنصورة؟ هل هؤلاء جنود يعتدون على مواطنين متظاهرين فى رام الله أم فى الرقازيق؟ هل هذه العربات المصفحة تمشى فى المنطقة الخضراء ببغداد أم فى ميدان الكباس بدمياط؟!

هل تيقنت؟، هل تأكدت؟

أليست قوات احتلال!

انتهى الدرس يا وطنى!

أى مواطن منحه الله نعمة العقل ونعمة الضمير الصالحى وقف بين اختيارين فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، الحزب الوطنى وجماعة الإخوان المسلمين وقد اختار فعلا و بلا تردد الإخوان المسلمين.

أنا أصدق مبدئيا أن كل صوت حصل عليه مرشح الإخوان هو صوت حقيقى لمواطن خرج من داره متغلبا على السلبية و متحملا ضغط الدولة وعسس أمن الدولة وصنوف الإرهاب الأمنى والترويع وسنج البلطجية وسيوف المسجلين خطراً و إمكانية تزوير صوته وتزييف إرادته وراح إلى صندوق الانتخابات وأعطى صوته لمرشح الإخوان!

وأنا لا أصدق أن أى صوت حصل عليه مرشح الوطنى ليس مزورا ولا مزيفا ولا محسوبا بطريقة حسابات لجنة آمال عثمان!

لكن لماذا اختار المواطن مرشح الإخوان ؟

ولماذا انتصر المصريون للإخوان المسلمين فى هذه الانتخابات ؟

انتخب المواطن الإخوان لأنهم لم يرشعوا فاسدا ولا ناهبا للبنوك ولا سارقا لقوت الناس ولا ضباط أمن دولة متهمين بتعذيب المواطنين.

لم يرشعوا محتكرا لسلعة أو صناعة ولا تجار مخدرات ولا مزورا ولا شخصا شارك فى بيع ثروة مصر ولا ناهبا قطاعها العام ولا مستبدا أبدا للرئيس ولا منافقا مصفقا مطبلا مزمرا ولا مفصلا لقوانين ولا ترزيا للتشريعات ولا مطبعا مع إسرائيل ولا متعاملا مع منح الأمريكان ولا شريكا فى الكويز ولا أفاقا ولا نصابا ولا مدلسا!

اختار المواطن جماعة الإخوان المسلمين دون تردد ودون شك عندما يكون

منافسها حزبا فاسدا مستبدا أو حزب المسجلين خطراً، خطر على مستقبل مصر وماضيها و حاضرها، مسجلون في تاريخ مصر السياسي باحتكار الحكم وأبدية السلطة وتوريث الوطن، مسجلون خطراً باستخدام الطوارئ في قمع الناس وكبت الحريات، حزب المحاكم العسكرية واثنين وعشرين ألف معتقل، حزب أسقط مصر في قاع الدول اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وعلميا وتعليميا، حزب البطالة وقطع أرزاق الناس.

اختار المواطن جماعة الإخوان التي تمسك أعضاؤها رغم السجن والاعتقال والتعذيب والموت في سيارات الحجز ورغم محاكم أمن الدولة العليا والمطاردات في الرزق، تمسكوا بأفكارهم ومبادئهم (أيا كانت ومهما اختلفنا معها أو عليها) في مواجهة النصابين السياسيين والمخبرين وعبدة السلطة وماسحى الجوخ ومنافقى السلطان ومصطفى قوانين سرقة البلد وأفراد عصابة سياسية تأمرت على وطنها ببيع ثرواته واستنزاف موارده والإثراء الشخصي على حساب جوع الناس وبطالة ملايين الشباب!

اختار المواطن الإخوان المسلمين لأنهم رجال تضحية وبذل من أجل فكرتهم ومشروعهم الفكرى والسياسى (أيا ما كان الاختلاف معه أو حوله) في مواجهة بائعى ضائير وحرباءات نفعية تتلون بالاشتراكية حيناً وبالرأسالية حيناً، تقدى زعيمها أيا كان بالروح والدم ثم تنهش في سيرته وسمعته بعد أن يموت ثم تسلم ضميرها مؤجراً مفروشا أو تملكيا لرئيس جديد يقبلون أعتابه ويتمرغون في نفاقه ثم يرفعون رئيسهم لمصاف الأنبياء والآلهة لا يسألونه ولا يحاسبونه، يتلونون مع كل نظام و يتشكلون مع كل مرحلة، انتهازيون في السياسة نهازون للفرص، مع معاداة إسرائيل إن قال الرئيس، ومع الصلح معها لو أمر، ومع الشراكة التجارية والصناعية معها لو أشار.

اختار المواطن الإخوان المسلمين لأنهم لم يمسكوا سلطة ذات يوم فأدلوا الناس ولا صادروا الروح ولا اعتقلوا ولا قتلوا ولا عذبوا ولا نهبوا ولا بددوا ولا مرمغوا بسمعة بلدهم في الوحل ولا انهزموا في كل موقعة ولا نالوا صفرا في كل

محفل، في مواجهة من خيب الأرض فبورها بقوانينه وتواطؤه ومن نحر النهر فلوته بإهماله وتورطه ومن نشر السحابة السوداء بغبائه وقلة حيلته ومن بث السرطان في النفوس بتلويثه الزرع والسماد ولا نشر فيروس سى في أكباد وكلى المصريين بتلويث مائه وعطانة هوائه.

اختار المواطن جماعة الإخوان لأنهم أغنياء من الحلال لا ضبطوا منهم أحدا يتاجر في ممنوعات ولا محربات ولا يحتكر سلعا ولا مصانع بل تقفل لهم عيادات وصيدليات ومحلات وورش ومصانع نتيجة الاعتقال والمطاردة في مواجهة مليونيرات حزب وحزب مليارديرات كسبوا بالحصانة والصفقات المشبوهة والقوانين المفصلة لهم وبالمصاهرة مع رجال السلطة وبالمشاركة مع أولاد النظام، يصرف الإخوان من أموالهم ويصرف منافسهم من أموال الناس الغلابة!

إن أى انتخابات فى الدنيا هى بين اختيارات، ليست اختيارا. لنموذج المثالية ولا للأروع والأبدع والأكمل بل اختيارا للأفضل بين متبارين ومتنافسين، ومن هنا فاختيار الناس للإخوان هو ليس اختيارا للإخوان فى المطلق بل اختيارا للإخوان فى مواجهة منافس معين وهو هنا حزب السلطة المحتكر المستبد المتهم طول الوقت بالفساد وتبديد ثروة البلد، إذن الذى يريد أن يفهم لماذا يجوز الإخوان هذا الإقبال الشعبى المدهش (أدهشنى أنا على الأقل) لابد أن يعى من هو منافس الإخوان، وهذا الحزب الفاشى الفاشل الذى يطلق كلاب حراسته تعوى على الإخوان وتنهش فى أعراضهم ودينهم لا يدرك أن هذا التوحش الضارى والعداء الهستيرى والهوس المرضى بمعادة الإخوان هو واحد من أهم الميزات التى يضيفونها إلى الإخوان المسلمين، ولأن الحزب الوطنى أفضل من أن يعرف فشله فقد تصور أنه بمجموعة قوات مخبرينه المحمولة للتليفزيون أو المرمية على صفحات الصحف سوف يواجه الإخوان والحقيقة أن أى عاقل يجد نفسه تحت قذف موعظة من مناقق للسلطة أو مخبر صحفى يثرثر فى مهاجمة الإخوان سوف يجد نفسه دونما أى حاجة للتردد ميالا للإخوان فتمى صدق الناس الاتهازيين والمخبرين!؟

هذه هي حملة تضليل تمارسها الدولة في جنون يستأهل الشفقة على حال مصر التي تسلمت قيادتها ضغمة مستبدة فاشلة محتكرة للسلطة أبدية الجلوس على الحكم مورثة سلطانها وجاهها لأولادها متوسطى الموهبة الذين جمعوا وشغلوا مأجورين و أجراء من الساسة وأساتذة الجامعة وصحفيين لا يقدرّون على المواجهة لأنهم احترّفوا كتابة التقارير الأمنية والسرية في زملائهم حتى يصعدوا في الترقية ويجلسوا على المناصب و أجروا ضائرهم لأول ضابط أمن دولة كلمهم في التلفون سواء في الجامعة أو في المؤسسات الصحفية أو غيرها، تحاول حملة التضليل ضد الإخوان أن تصم الإخوان بصفات وممارسات الجماعات الإرهابية والفرق كبير والفارق هائل.

ليس من مصلحة هذا الوطن الدمج في النظرة (اللهم إلا إذا كانت نظرة وزارة الداخلية) بين الإخوان المسلمين وجماعات الإرهاب المسلحة، فالإخوان تيار سياسى سلمى له برنامج الواضح وحضوره المدنى الواسع وانصهاره فى الحياة العامة والنقابات والبرلمان والصحف، أما الجماعات المسلحة فهى سرية تحتية تكفيرية إرهابية.

الإخوان لم يكفروا فى يوم أحدا، ولم يرفعوا سلاحا فى وجه أحد ويعلنون ليل نهار قبولهم بالحكم المدنى والاحتكام لصناديق الاقتراع بل ولم يلبس مرشدهم جلبابا ولا نراهم إلا بملابس عادية وبكلامنا اليومى لا تقفروا ولا ترمزوا بأساء مثل أبى مصعب أو القعقاع!

الإخوان أبناء العصر بينما الجماعات الإرهابية منفصلة عن العصر فى الزى والفكر، فى المظهر والجوهر. جماعة الإخوان كائن يتطور وينضج سياسيا ويدخل حلبة المنافسة المدنية الديمقراطية ويتسع جمهوره وأنصاره بينما الجماعات الإرهابية لا تعترف بالحكم المدنى ولا بالديمقراطية والبرلمان وتكفر الجميع وتقتل الجميع!

من مصلحة هذا الوطن أن يكون هناك تيار إسلامى سلمى ديمقراطى ينافس الجميع على السبق بالفوز فى الانتخابات مثلما جرى فى تركيا أو فى ماليزيا، ولا أفهم من يهيمهم مصير هذا الوطن وتلك الأمة، ما هى مصلحتهم فى نفى الإخوان

المسلمين من الساحة السياسية والجمهورية؟، إذا كان البعض يخشى ويخاف من أن الإخوان سينقلبون على الديمقراطية فهذا تفتيش في الضمائر فالإخوان قالوا وأقسموا أنهم لن يفعلوا. فلماذا نصر ونصم على العبث داخل قلوبهم والحكم على النوايا وتلك الروح البوليسية الغثة التي يمارسها حتى عقلاء كثيرون في الوسط السياسي واليساري؟!

الحقيقة أن الذى يحتكر الدين والدنيا هو الحزب الوطنى والذى يحكم بالكاكي والأمن المركزى هو الحزب الوطنى والذى يمارس الاستبداد هو الحزب الوطنى و الذى يصادر رأى هو الحزب الوطنى والذى يمنع الأحزاب هو الحزب الوطنى، و الذى يفرض الطوارئ هو الحزب الوطنى فلماذا نهاجم الإخوان على ما نعتقد أنهم سيفعلونه بينما لا تقاوم الحزب الوطنى على ما يفعله؟!

من حق الناس أن ترى تجربة الإخوان فى البرلمان بشكل أوسع و أدق، فإن كانت خيرا أيدهم من أيدهم وإن كانت شرا وخيبة سحبوا أيدهم وبحثوا عن غيرهم شأن كل الديمقراطيات فى العالم.

أما السحق الذى يريده الحزب الوطنى ومخبروه للإخوان وهذا الذعر من المثقفين واليسار تجاه الإخوان فهو محض ضعف عن المواجهة والمنافسة واحتكار مضاد للحقيقة ورفض عميق للآخر واستسهال مزر للفضل.

أما التلويح والتهديد بأن وصول الإخوان لمجلس الشعب قد يدفع الأقباط للفرع وربما الهجرة فالمؤكد أولا: أن الأقباط هم أكثر شرائح مصر هجرة قبل صعود الإخوان بل فى قلب فترة اعتقال الإخوان أيام عبدالناصر، هذه واحدة، أما الثانية: أن الأقباط يعلنون كل يوم عن اضطهادهم فى عصر مبارك وكثير من هذا حقيقى وله منطقته وبعضه مبالغة مبررة وهذا كله فى ظل فترة ليس للإخوان فيها شيء لا فى المعارضة ولا فى الحكم، ثم من الذى تجاهل ترشيح الأقباط وأبعدهم عن السياسة؟، هل هم الإخوان؟ ثم أخيرا يجب أن يتوقف الأقباط فى الحقيقة عن التصرف كأقلية مدعورة فهم مواطنون فى هذا البلد لهم حقوق كما لاكبر رأس فيها ومصر وطنهم قبل أن تكون وطن أحد آخر، مجمل الأمر أنى لا أتصور أن

الأقباط يمكن أن يشكّلوا حق فيتو على اختيار الشعب الديمقراطي ولا أظن أن عقلاء الأقباط يسمحون لعواطف متوهمة أن تجعلهم في موقع مضاد لاختيار المصريين، مع ظني أن كثيرا من الأقباط قد منحوا أصواتهم للإخوان من باب النكايّة في الحزب الذي تجاهلهم واستبعدهم!

إذا كان الاختيار بين جمال مبارك وعصام العريان فمن حق الناس أن تختار عصام العريان، وإن كان السجال بين أحمد عز وعبد المنعم أبو الفتوح فطبيعي أن يختار الناس عبد المنعم أبو الفتوح، وإذا كانت المنافسة بين كمال الشاذلي ودكتور محمد حبيب فالاختيار الأكيد لمحمد حبيب!

الجرى نص الجدعنة!

لا يوجد شخص واحد في الوطن العربي كله اتخبط في دماغه وطلب من الرئيس مبارك أن يحارب!
ولا بنى آدم صغير أو كبير، وزير أو خفير، عاقل أو أهبيل طلب من الرئيس مبارك أن يحارب إسرائيل، ومع ذلك فالنظام المصرى لا يتوقف عن الصياح والنواح يوميا بأن مصر لن تحارب، يا سيدى فهمنا، ده مفيش عيل من اليمن حتى موريتانيا إلا وعرف، خلاص!

هل النظام المصرى سمعه تقيل للدرجة التى لم ينتبه فيها للسيد حسن نصر الله زعيم المقاومة وهو يقول إننا لا نراهن على الحكام العرب، بل وكررها وأكدها لا نريد سيوفكم ولا قلوبكم، حلوا وفكوا عنا، حد جاب سيرتكم ساعتها، هل طلب منكم أحد شيئاً غير الصمت بدلا من التواطؤ السافر والتحالف الرخيص مع إسرائيل ضد المقاومة والتغطية على العدوان الإسرائيلى جهارا نهارا وتكرار التصريحات التى لا تتوقف كجلمود صخر حطه السيل من عل لتبرر لإسرائيل وحشيتها وجرائمها وتحمل حزب الله الذى أسر أسيرين فى موقع حربى جريرة العدوان الإسرائيلى على المدنيين والأطفال والبيوت والأشجار وارتكاب المذابح الدموية فى الوقت الذى لا يملك فيه نظام مصر سوى أن يصف مذبحه قانا بأنها عمل غير مسئول؟! بخ بخ، ما كل هذا الوضوح الأخلاقى والشجاعة السياسية الدولية، فهمنا والله العظيم ثلاثة أن مصر وهذا حالها وذلك رئيسها لن تحارب لنصرة العرب رغم أنها حاربت ضد العراق لتحرير الكويت ورغم أنها أرسلت أبناءها الذين يخاف عليهم الرئيس كأبنائه تماما إلى حفر الباطن لمشاركة أمريكا حربها ضد العراق ولم يخش عليهم ساعتها من صاروخ كياوى ولا مدفع ولا

رصاصه، فقط أخرج الرئيس أبناءه وشعبه عندما كانت أمريكا في تحالف دولي معه وحين كانت أمريكا تريد لكن عندما لا تريد أمريكا فإن الرئيس يخاف على أبنائه وشعبه جدا فلا يجارب (بالمناسبة أنا أحب الكويت وأراها من أكثر الدول العربية ديمقراطية وتحضرا وأرى أن أم جرائم صدام حسين هي غزوه للكويت) وسيقول البعض منا إن مصر حصلت على جائزة المشاركة في الحرب ضد العراق بإسقاط ديونها وهذا كلام حقير لا يعنى سوى أن مصر تقاتل بأجر وبمقابل وكأن مصر هانت ليصبح شبابها مرتزقة حروب!

عموما وبمناسبة الإلحاح الرسمي المصرى على أنه لن يجارب رغم أن أحدا لم يطلبها منه ولم يفكر أن يطلبها منه أساسا، أصبح كل ما يرجوه الجميع والحال كذلك أن تتوقف قيادات مصر السياسية عن الإعلان اليومي أن الجرى نص المدعنة!

فالمستولون المصريون وكثائب الحراسة الإعلامية والمنافقون والطبالون وراكبو موتسيكلات المواكب أمام الرئيس وعازفو الإيقاع وراقصو التنورة السياسية أظن أن عليهم التوقف فورا عن ترديد أغنية أننا دولة رائدة للوطن العربى أو عميدة للأمم العربية، فلا يمكن أن يتحسنا هؤلاء بالعزف المنفرد على الرق بأن مصر دولة رائدة بينما كلما اتزق المجتمع العربى سأل أين مصر فإذا بمصر تخلع!!

لا يمكن أن نزايد على العرب فى الرايحة والجاية ونعمل فيها زعماء ورجالة وريادة طول عمرك يا بلدنا ريادة، بينما ساعة الجد نقول إحنا ملناش دعوة والجرى نصف المدعنة وشوف مصلحتك وإن جالك الطوفان حط العراق وفلسطين ولبنان تحت رجلك!!

من المذهل ومن المخزى فى الوقت ذاته أن تتبدل كل يوم نغمة التصريحات السياسية المصرية فتارة تتحدث عن ريادتها للأمم العربية فإذا كان هذا حقيقيا فمن الطبيعى أن يسأل المواطن العربى فى أى بلد غير رائد: أين هى الدولة اسم الله عليها الرائدة؟

الريادة ليست كلمات تافهة تتردد في أفواه منافقة أو ميكروفونات كاذبة
وخلاص!!

الريادة موقف وفعل ورجولة سياسية وليست سياسة مائعة خوافة تتطوع
بنشر اليأس والفرع والتخويف من العدو والتهويل من قدراته وتحميل رجال
المقاومة المسؤولية عن وحشية الاحتلال والعدوان والريادة بالقطع ليست
تصريحات منكفئة تتطوع بتبرير العدوان الإسرائيلي وتخلق له أعدارا، إذن نظام
مصر منذ ٢٥ عاما قرر يخلع ويتخلى عن الريادة وهذا حقه تماما حيث يحفظ دور
الوكيل والوسيط وحامل الحقيقة وموفق الرؤوس في الحلال نظام مصر من أى
خطر أمريكى أو غضب إسرائيلى، لكن كل المطلوب أن تتوقف قيادات الحكومة
المصرية عن تصريحات الريادة والزعامة والمكائنة وترى وتستريح، ساعتها سوف
يفيق المجتمع العربى الذى سيقطع لسانه من لغلغته لو قال مرة أخرى أين مصر؟
أما حكاية الزج بمصر فى حرب فهم أسطورة أخرى علينا أن نناقشها
كصريين بتواضع وموضوعية ومع كل احترامنا لشهادتنا العظام وأبطالنا البواسل
فهى تستحق أن تتخلى عن أى غرور أو ادعاءات فارغة أننا حاربنا من أجل
العرب وليس من أجل أنفسنا!

أكرر كما كتبت من قبل أنه لمعلوماتكم مصر لم تطلق رصاصة من ماسورة
بندقية من أجل فلسطين (ولا حتى من أجل مصر) منذ ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٣
مع قرار وقف إطلاق النار، أى منذ ثلاثة وثلاثين عاما، ولو جئنا لنرى الحروب
المصرية من أجل فلسطين والعرب فسوف ينتهى البعض إلى ياريتها ما حاربت،
ففى ١٩٤٨ فى عهد الملك البائد كنا أكبر جيش وأكبر دولة ومع ذلك ضاع نصف
فلسطين وانهزمنا ؛ طبعا هناك ظروف وعوامل وأسباب لكن النتيجة أن
فلسطين ضاعت أو على الأقل ضاع نصفها، لندخل بعدها فى عصر يوليو فإذا
بمصر وهى الدولة الأكبر والجيش الأكبر تنهزم فى يونيه ١٩٦٧ شر هزيمة ويضيع
نصف فلسطين الآخر ومن ثم فلسطين كلها (ومعها سيناء بالمرّة)، أما فى عام
١٩٧٣ فقد انتصرنا انتصارا مجيدا وعبرنا القناة ثم حصلنا على جزء من سيناء

بالتفاوض ومع معاهدة السلام مع إسرائيل استرددنا ما تبقى من سيناء لكننا لم نطلق في ١٩٧٣ ولا ما قبلها رصاصة واحدة على تل أبيب ولم نصل حتى حدودنا مع فلسطين وحاربنا فقط من أجل استرداد سيناء التي أضعتها (نحن مش حد غريب) ثم يأتي هذا النظام وأزلامه وأذنامه ويملكون من الوقاحة الادعاء أنهم أفنوا أعمار وثورات شعوبهم في الحرب من أجل فلسطين وهي كلها حروب ضيقت فلسطين وانهمنا فيها عارا وشناراً بل إن الحرب الوحيدة التي انتصرنا فيها في أكتوبر ١٩٧٣ كانت (أكرر لأؤكد) من أجل استعادة سيناء (استغرق الأمر عشر سنوات تقريباً كي تعود سيناء!) ومن ساعتها فنحن نعيش عصر السلام والنيام وملناش دعوة بجد وخلينا في نفسنا وإحنا مش قدم بابا ولما تترنق اقلع أو اخلع.

ثم يشتغل الحكم في الأسطوانة اليومية بتاعة مصلحة مصر وإن تصرفات الرئيس وتصريحاته تجاه العدوان الأمريكي الإسرائيلي على لبنان (أو أى دولة عربية) قال إيه تنع من مصلحة مصر ولا نعرف هل هي مصلحة مصر أم مصلحة الحكم في طول البقاء والجلوس على الكراسي أبد الدهر وحتى الموت، هل مثلاً يعني مصلحة مصر أن تصبح دولة مرتشية من أجل قروض (تبددها الدولة كالعادة وتفلسنا كالمعتاد وتسرق منها طبعاً وتفسد من خلالها وشيء لزوم الشيء وأبجنى تجدنى وما إلى ذلك ثم ذلك نفسه؟! أم مصلحة مصر أن ترى الفلسطينيين واللبنانيين قتلى ومذبوحين وليس عليها سوى إرسال بطاطين، كأن بطاطين مصر تحيي الموتى!، ثم يقولون إن مصر لن تجازف ولن تحارب، حد جاب سيرة الحرب؟

طيب بالذمة تسمى هذا الموقف وذلك التصرف إيه في عالم السياسة، بلاش السياسة، في عالم الأخلاق والكرامة، ثم مصلحة مصر يا حبايب مصر حبايبنا، ليست أبداً في تلقى أموال ومنح أجنبية أو بقاء رئيس على مقعده أبد الدهر أو توريث النجل مقابل تواطؤ سياسى وصمت مريع ومخز وتواطؤ مع تل أبيب وتعاون سرى وعلنى مع أمريكا، هذه ليست مصلحة شعب وبلاد هذه مصلحة حاكم

البلد، الحاكم العربي لا يرى إلا عرشه أو وراثة أبنائه لعرشه ومن ثم فكل ما يفعله على كرسى الحكم هو للبقاء الأبدى على هذا الكرسي، لا شعبه يساوى عنده مثقال حبة من خردل، فالحاكم الديكتاتور فقط هو من يصف الرأى العام فى بلده بأنه عاطفى وغير عقلانى، هو الذى لا يعبر الرأى العام فى بلده هما ولا اهتماما، الحاكم الديكتاتور فقط الذى لا يمشى وراء إرادة شعبه بل يسوق الشعب بقراراته كأنه شعب نعاج، الحاكم الديكتاتور هو الذى يقمع مظاهرات التعبير عن الرأى ويضرب المعارضة ويسحل المعارضين ويسحق أى مطالب شعبية ويترفع ويحتقر عواطف وأفكار جباهيره، ويضرب بأغلبية الشعب عرض الحائط، الحاكم الديكتاتور هو الذى يقود البلد ومواقفه لمصلحته وهواه وليس لمصلحة وإرادة الناس!

لقد فقد النظام المصرى أى شرعية فهو نظام يحكم ويستمر فى الحكم وهو فاقد الشرعية تماما كأنه خطف هذا الوطن، فقد شرعية الانتخابات فهى مزورة ومزيفة، فقد الشرعية الدستورية فهو ينتهك الدستور ويتلاعب به ويخالفه ويتعامل معه كأنه ورقة كلينكس، فقد الشرعية الثورية التى ادعى أنه سليلها فبإدائى ثورة يوليه تحت حذاء هذا النظام وقد خالفها ومزقها وقضى عليها! فقد شرعية العروبة والريادة فقد تنصل منها وانعزل واعتزل وقال عن نفسه وسيطا محايدا (إيه ده سويسرا بتتكلم عربى).

لقد نجحت سنوات حكم مبارك أن تزرع فى هذا الشعب جينات الخنوع والخضوع وإهدار الكرامة والكبرياء من على حدود رفح حيث يقتلون جنودنا ونسكت وحتى داخل قسم قصر النيل حيث يضرب الضباط أبناءنا وينتهكون أعراضنا ونسكت، نضع جزمة فى فمنا ونخرس أمام عدو يقتل إخوتنا وبنى جنسنا وديننا وعروبنا فى لبنان وفلسطين، ونضع نفس الجزمة فى نفس الفم ونخرس أمام مليونيرات فسدة يحكموننا فينهون ثروتنا وثروة بلدنا!
هذا النظام المصرى الحاكم يحكم ويعيش فقط لأننا متنا!

ظهر الفساد في البر والبحر!

في كل مصيبة تحدث للبلد يكون همهم الأول هو نفاق حسنى مبارك قبل أى شئ آخر، عقب كارثة غرق الباخرة هلى وكبر ويكاد زغرد المنافقون لأن الرئيس مبارك قد أمر بتحقيق فورى، فورا قرروا تبرئة الرئيس من المسؤولية تنزيها له عن الخطأ وتقديسا له من توجيه النقد والالتهام لسياسة حكمه ومنهج نظامه وانحيازه للأغنياء والمليونيرات على حساب فقراء البلد، وكأن التحقيق الفورى الذى أمر به الرئيس لا يشمل الرئيس نفسه، عن شعبه كيف تركه للإهمال والاحتقار، عن فقراء بلده كيف تركهم للعوز والحاجة، عن رجال أعماله الذين منحهم الحصانة وعن رجال حكمه الذين تواطأوا وتشاركوا مع رجال أعمال فى نهب البلد ومص دم الفقراء؟

كأننا لا نستطيع أن نرفع أيدينا (دعك من رؤوسنا) لنواجه رئيسنا بالمسؤولية أو نوجه له إصبع المساءلة!

عندما حدثت كارثة طبيعية هى إعصار كاترينا فى أمريكا وتعامل المسئولون هناك بإهمال يصل لحد الجريمة قال الجميع إن المسئول هو جورج بوش، ووضعوا الاتهام على كتف رئيس الجمهورية شخصيا، أما هنا فالرئيس منزه منزل، فرعون الإله، لا يقترب منه إنس ولاجان، حتى والناس غرقى أو حرقى، كأنه ليس مسئولا بحكم منصبه عنهم، كأن الناس كلهم محل مساءلة إلاه، إلا هو، وكأن مبارك لو لم يأمر بتحقيق فورى ما كان يمكن أن يحدث تحقيق فورى (أو غير فورى)، سبحان الله وهل هو نصر مؤزر وحكمة مصفاة ورؤية ثابتة وعقل راجح أن يأمر الرئيس بتحقيق فى كارثة مثل هذه؟! ثم سارع المنافقون والأفاقون والركع السجود إلى الإشادة بالملاحاة السمجة بذهاب الرئيس إلى زيارة الناجين والمصابين

في مستشفى الغردقة إلى درجة أن أحد المسؤولين قال بمتهى الوقاحة للإذاعة المصرية إن الناجين استعادوا قوتهم وفرحتهم لما رأوا الرئيس مبارك، بينما تجاهل الجميع أن الرئيس مبارك لم يذهب لسفاجا ولم ينزل لرؤية أهالى الضحايا وهم محتشدون بالآلاف ملهوفين ومحزونين وملتاعين بينما رجال أمن مبارك وقوات داخلية مبارك وجنود وعساكر وزير داخلية مبارك يضربونهم ويعتدون عليهم ويقذفونهم بالقنابل المسيلة للدموع ليس لأى سبب -لاسمح الله- سوى أنهم يريدون معرفة مصير أهاليهم الغرقى الحرقى، يا ساتر يارب ألهذا الحد رق قلب نظام الرئيس وحكومته للضحايا؟ ما كل هذه الرقة وما كل هذا التعاطف والتضامن الذى يستخدم فيه الدروع والبنادق والرشاشات والمدرعات والهراوات والقنابل والعصى الكهربائية؟!

لم يذهب مبارك لسفاجا ولم يلتق أهل الضحايا ولم ينزل لهم ولم يصادفهم حتى، دائما مصحوبا ببطانته ودروعه البشرية عن الناس! ومن ثم جرى كل الوزراء والمسؤولين الى الغردقة فى صحبة وركب الرئيس العظيم حتى يطمئنوا قلبه ويجيبوا أسئلته ويرثوا ساحتهم وساحته ويتلقفون أوامره ويلقمهم حكمته بينما تركوا آلاف الأهالى لعساكر مكافحة الشغب، المعذنين والملتاعين الباحثين عن جواب واحد فقط يطفى نار قلوبهم، ماذا حدث لابنى أو لأبى وأمى؟ ما أخبار الغرقى أو الناجين؟ فلا إجابة سوى الضرب والإهانة! ألا سمحا لهذا النظام الذى تحجر قلبه بعد أن تصلب عقله بعد أن تجمد بدنه على العرش!

المؤكد أن كارثة غرق الباخرة التى تحمل للمفارقة اسم السلام، هى نموذج للإفساد السياسى فى مصر فصاحب هذه البواخر التى تكاد تكون محتكرة رحلات البحر الأحمر كلها هو رجل أعمال وعضو مجلس شورى معين، أى أن الذى عينه هو الرئيس مبارك لا أحد آخر بناء على تقارير مرفوعة أو تركيات مقدمة أو معرفة شخصية، ومن ثم فقد حصل على الحصانة التى تمنع عنه وعن أعماله الرقابة والمحاسبة ثم هو شخصيا تربطه علاقة متينة ببعض القريبين يقولون إنها ليست صداقة فقط بل شراكة بينه وبين مسئول قريب جدا من الرئيس

ونجده بل لعله أقرب المسؤولين مكانا ومكانة لدى الرئيس ونجده وهذا ما وفر لرجل الأعمال حصانة مضاعفة ولكي تكتمل الدائرة الجهنمية فصاحب الشركة قيادى فى الحزب الوطنى يتولى أمانة دائرة الرئيس تلك التى تم تزويرها بمنتهى الفجر وقلة الأدب ضد السيدة مكارم الديرى مرشحة الإخوان المسلمين فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة، إذا هذا هو الثالث المقدس لأى رجل أعمال يريد أن يفعل ما يريد فى هذا الوطن، من أول احتكار الحقيقة إلى احتكار الملاحاة مروراً باحتكار الحديد، أن يجمع مالا لبدأ ثم يبنى علاقة متينة وثيقة مع رجال الحكم، الأهم والأكثر نفوذاً هو أن تكون قريباً من قصر العروبة سواء ساكنيه أو موظفيه أو مسئوليه، والعلاقة تبدأ بالمصاحبة وربما تتحول للمصاهرة لكن المشاركة المالية والتجارية أصدق أنباء من الكتب، ثم توفر لك هذه الصداقة الفرع الثانى من الثالث وهو الحصانة إما بتعيينك فى الشورى أو ترشيحك فى مجلس الشعب ومن ثم تفرض سياجاً على أعمالك وتوسعها وتتوسع فى المخالفات والانتهاكات مدعوماً بصداقة الكبار وحصانة البرلمان لكن الثالث لا بد أن يكتمل بالولاء الحزبى وهو الانضمام إلى الحزب الوطنى الذى يمثل لدى رجال الحكم شركة العلاقات العامة التى تسمح لهم بالظهور ولعب الدور الإعلامى والتواجد فى ساحة الاهتمام الصحفى والحزب-الشركة فى حاجة إلى تمويل والتمويل فى حاجة إلى رجال أعمال ورجال الأعمال فى حاجة إلى حماية ورعاية فيدفعون ويمولون وهم مطالبون كذلك بإبداء فروض الولاء والطاعة ورد الجمال للسادة ومن ثم ينضمون ويتبرعون ويمولون، نحن نعيش إذاً داخل هذه الدائرة الجهنمية وفى قلب هذا الثالث الذى ينتهى بمصر إلى فيضان الفساد الذى نراه ونعانى منه فيكاد يغرقنا إن لم يكن قد أغرقنا (ونحن جميعاً نتنفس تحت الماء).

أغرقنا نهب رجال الأعمال المحتكرين لكل شئ فى حياتنا، بل احتكروا حياتنا، شركاء رجال الحكم الذين يتحدون القانون بصلافة شراكتهم بالمسؤولين وأولادهم وأى كاتب على الآلة الكاتبة فى أى جهاز رقابى أو ناسخ على مكينة تصوير فوتوكوبى يدرى تماماً وهو ينسخ التقارير الرقابية السرية كم أن مصر منهوبة من مسئوليهها

وأولاد مسغولها وأن الفساد ظهر في البر والبحر (والنهر) كذلك، من المؤكد أن هناك رجال أعمال محترمين وشرفاء لكن الحقيقة أن منهج العمل في مصر لا يمكن أن يترك شريفا على شرفه فلا يستطيع رجل أعمال (وإن أراد) مواجهة نظام فاسد ومرتش حتى النخاع ومن ثم يبحث كل رجل أعمال عن كفيل له في الحكم وحليف له في الحكومة وشريك له من الأنجال حتى ينجو من مصير المليونير حسام أبو الفتوح ومن سبقه من الذين صاروا عبرة لمن لا يعتبر، رجل الأعمال الذي يريد أن يبقى ويستمر في السوق (والسوء) لابد أن يكون محصنا ومقربا من منطقة النفوذ الحزبي والرئاسي والسياسي، عندها تتأمل تفسير الآية الكريمة في سورة الروم الآية (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، ٤١ تكتشف ساعتها أننا نحيا هذه الآية تحديدا وتفصيلا، ففي تفسير القرطبي أن فساد البر هو قتل ابن آدم أخاه؛ وهذا ما ينطبق كذلك على التعذيب والتنكيل وظلم الاعتقال. وفساد البحر هو الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا وهو ما نظنه قائما مع حالة الاحتكار للبواخر وضرب المنافسين وشراكة وتجارة رجال الملك. وقيل إن الفساد هو القحط وقلة الثبات وذهاب البركة وهو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا وقيل: الفساد كساد الأسفار وقلة المعاش. وقيل: الفساد المعاصي وقطع السبيل والظلم؛ أي صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كله متقارب كما يقول القرطبي أي ظهر قلة الغيث وغلاء السعير. والقول الآخر أنه ظهرت المعاصي من قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة في الآية وفي واقعنا المصري تماما. فلم يعد ممكنا أن نتحدث الآن عن فساد في الإدارة (إدارة مصر من القاع إلى القمة) بل المؤكد أنه يمكنك أن تتحدث عن إدارة فساد في مصر، لم يعد الفساد عشوائيا أو جزئيا أو فرعيا، بل صار الفساد منهجا لحكم البلد وصارت الإدارة الحاكمة هي التي تدير الفساد وتنظمه وتضع ضوابطه الداخلية وقواعده الشخصية كما يحدث تماما في القواعد المرعية بين العصابات وقبضيات الكباريات، لا نشال يسرق في منطقة غيره ولا حرامي هجم ينط على منطقة هجم آخر، ولا بتوع مخدرات يشتغلوا

من غير ما يستأذنوننا، وكما ترى زعيم عصابة يقول لغريمه أو زميله دى مش أصول يا معلم ولا تصرفات يرضاها الكبار، هي هكذا بالضبط في قواعد الفساد السياسى الذى يدير الحياة فى مصر من كافة جوانبها استيرادا وتصديرا وزراعة وتجارة وإسكانا وتقسيم أراض وساحل شمالى وجنوبى وفى البر والبحر والنهر، وصار المشهد السينمائى التقليدى الذى يجلس فيه الرجل الكبير معطيا ظهره للشاشة لا يظهر منه سوى السيجار فى فمه والخاتم فى يده ويقف أمامه زعيم العصابة يطلب أوامره ونواهيته وتعليماته وحمايته، هذا المشهد لم يعد سينمائيا بل حقيقيا يوميا، ولم نصبح فى حاجة لانتظار نهاية الفيلم لنعرف وجه الرجل فقد صارت وجوها تملأ واقعنا المصرى، كل رجل أعمال نتكشف فساداه أو نتعرف على نفوذه وراءه سيجار وخاتم رجل من ذوى الشأن والشأو فى السلطة يحميه ويشاركة، وليس بعيدا عن أى منا هذا العدد الهائل من الحكايات والروايات وحتى النكت التى تحكى عن أن رجل الأعمال فلانا شريك فلان بن فلان أو علان بن علان، حتى بات الأمر مثيلا وشبيها ومشبوها تماما كما خرج ذات صباح من يولية الحار منذ ٥٤ سنة رجل يقول فى الإذاعة: «اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم....وتسبب المرتشون والمعرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد..... وتولى أمرنا إما جاهل أو فاسد»..

إما جاهل أو فاسد!!

وكأن ٥٤ عاما لم تمر!

مبارك لن يغير ثم أنه لن يتغير!

لن يتغير حسنى مبارك ثم أنه وهذا هو الأهم لن يغير. لا شئ غير أفكار الرئيس وسياسته وطريقته نفسها منذ ثلاثين عاما، يا للهول شخص لا يتغير ثلاثين عاما هو بالتأكيد شخص لا يمكن أن يغير وطننا، مفهوم مبارك عن الثبات هو فهمنا عن الجمود، تصوره عن الاستقرار هو تصورنا عن الركود، ومن ثم لا شئ يفاجئنا ولا يدهشنا أنه يعلن أن لا أحد يعرف متى التغيير الوزارى، والحقيقة أن التغيير الوزارى نفسه كلام لا يودى ولا يجيب فمن هم هؤلاء الذين سيأتى بهم مبارك غير من أتوا وكلهم صنف واحد ولا بضاعة غيرهم فى سوق الحكومة والحكم المصرى، الوزارة فى مصر هى سكرتارية للرئيس وهى مجرد حشم فى بلاط الرئاسة، موظفون لا يعرفون من السياسة شيئا ولم يمارسوا منها أمرا بل ظلوا حياتهم كلها فى خدمة أوامر الأمن وحرس الجامعة فمعظمهم أساتذة جامعة لم يدخلوا يوما انتخابات نادى أعضاء هيئة التدريس ولم ينبسوا بكلمة فى السياسة ومستمعون مأمورون من السيد مدير الحرس الجامعى أو مدير فرع الجامعة فى مباحث أمن الدولة بشارع جابر بن حيان فى الدقى، وللإنسان أن يتعجب ممن يتحدث عن التغيير الوزارى كأن شيئا يمكن أن يكون، فلا هذه وزارة حقيقية ولا هؤلاء رجال سياسة حقا ولا يملكون شيئا سوى تنفيذ تعليمات وطبقا لتوجيهات السيد الرئيس، وتغرق مصر بالتوجيهات نفسها فى نسبة بطالة مروعة وديون متضخمة وفساد منتفخ وعشرات الألوف من المعتقلين وتلفيق لقضايا واعتداء على صحفيين وانتهاك لاستقلال القضاء والجامعة والإعلام، ومع ذلك يجد الرئيس من يفرعنه ويتحدث عنه ومعهم كأنه ولى النعم فى القرون الوسطى أو لعله فرعون مصر فى القرون الأولى، ومن هنا تواطؤ الصمت المزرى فى الحديث عن مسئولية رئيس الحزب الوطنى السيد محمد حسنى مبارك عن مصاب ومصيبة

الحزب في الانتخابات الأخيرة، فقد فشل الحزب في الحصول على أكثر من ٣٢% من مقاعد البرلمان ومع ذلك لم يوجه إصبع واحد ولا سبابة كف في هذا البلد ليلوم رئيس الحزب على نتيجة حزبه، كل هذا الجاه والسلطان والصولجان والإعلام الطاغى وصحافة وتليفزيون الطغيان وكل هذه الأجهزة الإدارية والمحلية الغاطسة في النفاق والموالسة والمداهنة للحزب الوطني وهذا العدد الهائل من الموظفين المرتجفين والمرتعبين والجالسين على حجر السلطة أو تحت نعل أذية الحكم ينفذون أوامره ويعبدون أسيادهم ومع ذلك لم ينجح الحزب الوطني في الحصول على ٦٨% من مقاعد مجلس الشعب فمن الذي نحاسبه؟ أهو الحرس القديم الذي يلصق به أصحاب جمال مبارك السبب أم هو الحرس الجديد الذي يرمى عليه رجال صفوت الشريف السبب، أم قبل هذا وذلك رئيس هذا الحزب نفسه؟ أليس كل رئيس مسئولاً بالضرورة عن حزبه ورجاله ونجاحه وفشله؟ يلف الجميع ويدور ولا يقترب أحد من رئيس الحزب، فإذا كنا نطالب نجان جمعة رئيس حزب الوفد بالاستقالة لنتيجة حزبه وكذلك نطالب رفعت السعيد رئيس حزب التجمع بالاستقالة إزاء انهيار نتيجة حزبه فمالنا لا نطالب مبارك رئيس الحزب الحاكم بالاستقالة نظراً لفشل حزبه في الحفاظ على أغليته بل والحصوله على نسبة لا تؤهله لتشكيل حكومة محترمة. لقد وقع مبارك بأصابع يده على قائمة مرشحي الحزب الوطني ولف ودار ابنه ورجاله ومسئولوه في المؤتمرات يتحدثون عن أن الحزب ومرشحيه ملتزمون ببرنامج مبارك الانتخابي فإذا بالشعب يقول بمنتهى الوضوح لا المرشحي مبارك ولا لحزبه ولا أضخم وأكبر لبرنامجهم فقد أسقط الناخبون ٢٨٧ مرشحاً لمبارك من أصل ٤٣٢ مرشحاً، فمن هو الذي يخرج علينا بعد ذلك ليدعى أن الناس قد اختارت مبارك وبرنامجهم الانتخابي الذي صمت عن الحديث عنه كل رجاله في المرحلة الثالثة حين خرست السياسة وانكمت وتكلمت المدافع والرشاشات والقناصة والعربات المصفحة وقوات احتلال الحزب الوطني لمصر؟! إذا أردنا أن نطبق الديمقراطية على أصولها، بل هي في الحقيقة أصول الأخلاق قبل أصول السياسة فليتحمل من يفشل مسئولية فشله وعندما يفشل حزب

حاكم في أن يحكم، ثم يتلقى صفة مهينة أقرب إلى الركلة القوية من الشعب ولا يحظى مرشحوه سوى بحوالى ثلث مقاعد البرلمان فعليه أن يتوكل -الحزب- على الله ويتكلم خارج الحلبة أو على أقل الأحوال أن يعلن رئيس الحزب عن مسئوليته ويمضى خارج مقعده وأنا هنا لا أطلب من مبارك الاستقالة من منصب رئيس الجمهورية فهذا أمر لا يرقى إليه خيالي ولا تصل إليه حماقتي، ولكنني وهذا عين المنطق وأنه أيضا أطلبه كما أطلب كل رؤساء الأحزاب الذين فشلوا بالانسحاب من رئاسة الأحزاب التي فشلوا معها أو أفسلوها!

ومع ذلك أعلم يقينا أن الرئيس لن يستقيل فلا هو ولا أى مواطن في مصر يصدق أننا نعيش ديمقراطية أساسا وأن كل هذا فض مجالس وطق حنك، ثم أننا كلنا نعرف أنه منذ أطلق سيدنا عثمان بن عفان صيحته الشهيرة رافضا خلع نفسه من الخلافة قائلًا (لا أخلع قميصا ألبسه الله لى) ولا يوجد لدينا حاكم عربى خلع بدلة الحكم والخلع عندنا بالموت أو بالانقلاب أو بالغزاة!!

إذن لن يستقيل مبارك لأن الناس رفضوا مرشحيه وأن برنامج حزبه الذى هو برنامجه لم يحصل على الأغلبية، ورضى الناس جميعا بالتلفيق والتضليل الذى أداره قادة الحزب الوطنى باغتصاب السلطة وانتزاع الشرعية بضم مستقلين ومنشقين فى واقعة لا تحدث فى أى بلد محترم ديمقراطيا ونحن لسنا كذلك بالطبع، لكننا أيضا لم نشهد الرئيس مبارك وهو يقول لنا إنه محتم بالقتلى الذين راحوا شهداء الانتخابات الأخيرة، كما لم يتحدث مفسرا أو شارحا (لن أقول معتذرا فهو لا يخطئ كى يعتذر كما هو واضح) عن العربات المصفحة وموقف الأمن المزرى الذى جعل من مصر فضيحة بين كافة دول العالم وعن الاعتداء على القضاة وانتهاك هيبته ومكانتهم وعن ضرب ضياء الدين داود رئيس الحزب الناصرى وهو فى الثمانين من عمره وعن وقائع التزوير الفاجر التى كشفتها تقارير القضاة، لم يتحدث ولن يتحدث مبارك عن هذا كله، وهو فى قلب مسئوليته، وسيدعى من يدعى أن الرئيس لا يعرف تفاصيل ما جرى والرد أنه لو كان يعلم فهى مصيبة ولو كان لا يعلم فالمصيبة أعظم، ألا يقرأ التقارير الدولية؟! ألا يطالع على تقارير منظمات

حقوق الإنسان ومراقبة الانتخابات وبيانات القضاة وتقارير الفضائيات والصور والشهود والشهادات بل وتصريحات المجتمع الدولي أم أن الرئيس اكتفى بتصريحات صفوت الشريف في البيت بيتك وتصريحات محمود أبو الليل في صباح الخير يا مصر؟ الأغرب أتى أوكد أنه في الأغلب الرئيس مبارك يعرف بل ومعجب بما فعله حبيب العادلى إلى حد يمكننى أن أراهن عنده على أن العادلى باق فى التشكيل الوزارى القادم فهو موضع ثقة الرئيس وإعجاب، وأنا كذلك يعجبني جدا الوزير العادلى لأنه لا يهमे سوى إعجاب الرئيس مبارك!

لا تغيير وإن جرى، فالتغيير الحقيقى والجذرى هو رحيل هذا الحكم عن مقاعد السلطة، والسؤال القائم القائم: وكيف يحدث هذا مع ما جرى فى الانتخابات الأخيرة والذى أظهر أن هذا الحكم الغاصب للشرعية والمغتصب للسلطة لن يقبل أن يترك الحكم بالديمقراطية أبدا؟ الإجابة تستلزم منى العودة إلى العلامة العظيم الدكتور جمال حمدان وكتابه شخصية مصر (الجزء الرابع الفصل الثانى والأربعون) الذى وضع نظرية علمية لإمكانية حدوث تغيير فى مصر كأنها ضوابط ومحددات وثوابت لا فصال عنها ولا فكك منها كي نشهد تغييرا فى هذا الوطن المبتلى بالجمود والطغيان. قدم جمال حمدان قواعد ستا للتغيير حين تقرأها تجدها متحققة الآن ومؤشرة ومنذرة ومؤملة بتغيير حقيقى جذرى قادم حتى ولو وقفت أمامه جحافل أمن الدولة وحرس الحزب الوطنى وجنود الاستبداد فى السياسة والصحافة ومفاصل الدولة فى المحليات والجامعات.

القاعدة الأولى التى يضعها جمال حمدان بكل المباشرة والوضوح أن مصر قلما تتغير بإرادتها فى العادة وإنما هى بالرغم من إرادتها تتغير.. وتغيرها بالقسر أكثر منه بالاختيار نسبيا، واختيارها يتم بصعوبة وتردد، والأصل بعد هذا أن الأشياء فى مصر تميل إلى أن تبقى على ثباتها وفى خطها إلى أن تواجه قوة مضادة لها فى الاتجاه مساوية أو فائقة لها فى القوة، فتفرض التغير فرضا.

هذه إذن القاعدة الأولى للتغيير فى مصر وإذا طبقناها مع ما يحدث فى مصر الآن لوجدناه فيما تعرض للضغط من أجل التغيير الذى يصل إلى فرضه عليها من

القوى الدولية رغما وإرغاما.

ننتقل إلى القاعدة الثانية التي يؤكد حمدان أنه كنتيجة للصراع بين القوة الخارجية ومقاومة التغيير الداخلية فقد يأتي التغيير بالضرورة بطيئا تدريجيا منذ البداية منضبطا ومحكوما جزئيا أكثر منه جذريا في نهاية المطاف. وهذا معناه بالتطبيق على الواقع الحالى أن التغيير بطئ وجزئى لكن القاعدة الثالثة تكمل وتوضح فيقول فيها إن مصر لا تتغير بسهولة بإرادتها فإنها تتغير فى الأغلب بفعل قوى من الخارج أكثر منها بقوى الداخل، وهذه بديهية كامنة فى تحول مصر الحضارى.

التغيير من الداخل إذن غير مطروح بقوة ثم أنه بطئ ولذلك فالتغيير من الخارج أقوى وأغلب ويشرح حمدان قائلا «إذا كان قرن الاستعمار قد ولى، ولكن إيقاع التغيير فى مصر قد زاد وتسارع وتساعد فى العقود الأخيرة، فهذا إنما يرجع فى معظمه إلى نبض العصر نفسه، عصر العلم والتكنولوجيا الباهرة والتغيير والمتغيرات بامتياز وثورة المواصلات والاتصالات المذهلة وثورة الآمال العالية والتطلعات المعديّة». ثم يطلق تفسيره وتحليله وحكمه المتنبئ المبشر قائلا «إذا كانت جمهرة المصريين فى الداخل قد عجزت حتى الآن عن تغيير مصر سياسيا من الداخل بسبب الإرهاب والطغيان المحلى، فإن حفنة ملايين المغتربين والعاملين فى الخارج قد تكون خميرة التغيير وجرثومة فناء الفرعونية الجديدة -القديمة، وبالتالى أداة تحرير مصر داخليا، أى أن ما عجزت مصر بأسرها عن تحقيقه من الداخل قد تنجح فيه قلة أبنائها من الخارج».

إذن قواعد حمدان للتغيير تشمل وتعتمد على الخارج بما فيه وربما أوله المصريون المغتربون ولاحظ هنا كم كانت الدكتاتوريات واضحة فاضحة فى حرمان العاملين المصريين فى الخارج من حق انتخاب رئيس الجمهورية فضلا عن الاتهامات الفجة السمجة لهم سواء الأقباط أو الإسلاميون أو غيرهم بالخيانة والعمالة وهذه الاتهامات يؤججها سفهاء الحزب الوطنى من الساسة وبوق ونوق الصحافة الحكومى.

ثم نأتى للقاعدة الرابعة الحمداية للتغيير فى المسألة المصرية فىقول «ولأنه تغيير انتخابى (انتقائى) جزئيا فإن التغيير أساسا غير متساو أو متساوق السرعة والمدى فى مختلف خطوط الحياة من بيئة ومجتمع. وعلى أية حال والكلام لحمدان فإن السياسة على القمة هى آخر وأقل ما يتغير فى مصر ولن تتغير مصر حقا وجوهريا إلا بعد أن تتغير سياسيا، والواقع أن الحكم والنظام الحاكم فى مصر كان دائما هو أكبر وأعد موانع وعوائق التغيير على مستوى الحياة السياسية والنيابية والديمقراطية وكان تقليديا أعتى وأغبى قوة تقليدية محافظة بل رجعية».

ثم يفتح لنا جمال حمدان بقاعدته الخامسة أملا مذهلا خصوصا أنه يكاد يتطابق كل ما يضعه من قواعد وخطوات مع ما يجرى فى حياتنا فى ذات اللحظة الراهنة، تقول القاعدة الخامسة «لأن التغيير المصرى الحضارى تغيير تدريجى، تراكمى، تصاعدى، فإنه فى المحصلة النهائية ونهاية المطاف أقرب فى طبيعته إلى ما يعرف فى قوانين التطور بالتطور الانفجارى، ففى التاريخ كما فى الجيولوجيا والبيولوجيا، أن مسار التطور يظل عادة رتبيا تقليديا كالخط المستقيم أو كالمحنى الانسيابى، ثم إذا به يتفجر فجأة فى ثوران بركانى قصير ولكنه عنيف يغير تضاريس الوجود ومعالم الزمان ويضع ملامح العصر وتوازاته ويحددها لأمد بعيد، حينئذ يكتسح التغيير أمامه آخر معادل الدكتاتورية ومعوقات التقدم والتنمية، ليصحح بذلك كل أخطاء وخطايا الماضى وأوزار وآثام الحاضر بضربة واحدة وإلى الأبد، وليفتح أخيرا آفاق التطور المستقبلى البكر، ولكن أساسا لشعب حر، بلا قيود ولا حدود، وستكون علامة البدء وإشارته ودالة التطور وقيمتها هى بالتحديد والدقة دفن آخر بقايا الفرعونية القائلة إلى الأبد، ولا شك بعد هذا أن من معجلات هذه المرحلة النهائية تلك الضغوط الرهيبة التى تجمعت علينا فى وقت واحد كأنها على ميعاد».

ويضيف حمدان «وما من شك أيضا -وما تخفى النذر- أن مصر المأزومة المهزومة المحرومة -الجريحة الكسيرة الأسيرة- ليست بعيدة جدا عن تلك المرحلة، مرحلة حتمية الانفجار، فلقد أصبحت من قبل بمثابة رجل ضخم يغلى ويفور

ويمور بعشرات التيارات العاتية والتقلبات العارمة والتفجرات المكبوتة المكتومة ولأن التغيير هكذا أصبح شرط البقاء، والاختيار الأخير صار بين التغيير والموت، فإذا تلك المرحلة هي بلا ريب مرحلة الخلاص».

القاعدة السادسة وأخيرا سؤال الجميع، تغيير لماذا؟، في نهاية المطاف إلى أين؟ وجهة التغيير كما تؤكد مقولة وقاعدة حمدان الحاسمة هي مصر في إتجاه «أوروبا المسلمة» أى باعتبارها «أوروبا الإسلامية»، هذه ولا سواها، هي وصفة كما هي بوصلة المستقبل، المستقبل المصرى. (القصد هنا هو المزج بين هوية عربية مسلمة والديمقراطية والتفكير العلمى).

تعالوا نطبق القواعد الست على ما يحدث الآن فإذا بكل ما يشرحه ويضعه حمدان ظواهر ومظاهر وخطوات التغيير هي بالفعل واضحة أمامنا تشى وتشير إلى أن التغيير لن يتم إلا هكذا وإلا بهذا، ونحو شىء وحيد لا آخر له وهو تحول مصر وتغيرها إلى أوروبا الإسلامية. ألا تشعر معى شيئا غربيا قريبا للمليزيا وتركيا... ووصول تيار سياسى للحكم هو رافض للاستبداد ومقاوم للطغيان ومتفتح غربيا مستنير دينيا ومتمسك أخلاقيا ومتحرر فكريا ومتقدم ديمقراطيا؟.. ليه لآ؟!

أحمد وفاروق ورشدى

قال الدكتور فاروق الباز العالم الكبير والشهير إن ماضى مصر مشرق أما مستقبل مصر فهو مظلم، والحقيقة أن أحدا غير جمال مبارك وأحمد عز وأسامة الباز شقيق فاروق الباز وضباط أمن الدولة وخدمهم فى الصحافة والسياسة هم فقط الذين يظنون أن حاضر مصر ومستقبلها مشرق بناء على تعليمات السيد الرئيس! بطبيعة الحال فإن فاروق الباز كان يقصد مستقبل مصر بمفهومه الشامل من الطبيعة والجغرافيا وحتى الأكل والشرب، وقد شرح الباز وجهة نظره فى ندوة له بدار الأوبرا، فأشار «إلى أن مصر فى الماضى كانت عظيمة ومزدهرة بعشرات العلماء والمبدعين، وأنجبت أحمد زويل، ومجدى يعقوب، وأم كلثوم، وعبدالوهاب وعشرات المبدعين فى كل المجالات، أما الآن فالإبداع قليل، والمواهب ندرت واختفت. فلماذا قل الإبداع؟! لأن الحياة أصبحت صعبة ونحن مكدسون فوق بعضنا.. الناس فى مصر يشعرون بحزن.. لم تعد هناك ابتسامات لأنه ببساطة لا توجد آفاق جديدة للعمل أو الترقى فى العمل.. الناس تشعر أنه بدون واسطة لن يكون هناك فرصة للعمل أو الترقى، والمفروض أن يكون واقعنا أفضل من ذلك لأن لدينا طاقات ولدينا إمكانيات.. ولكن للأسف الشديد نحن فى قاع السلم أمام العالم.. العالم كله ينتج أما نحن فلا يوجد لدينا إنتاج، ولا توجد أفكار جديدة، وأشار الباز على سبيل المثال إلى أن كوريا الجنوبية قبل عشرين عاماً عندما خصصت كل إنفاقها لمدة ٧ سنوات للتعليم فقط تمكنت من امتلاك ١٦٣٨٠ براءة اختراع فى المجال الصناعى والتكنولوجى فقط فى مقابل أن العالم العربى لم يحقق على مدى العشرين عاماً الماضية سوى ١٧٠ براءة اختراع فقط. وكانت العبارة الحازمة التى يؤسفى أنها تصدم بتوع أزهى عصور الديمقراطية وتلطم الذين

يدقون طبول النفاق الذين يكذبون طول الوقت ويقولون إن مبارك باني مصر الحديثة (طلع الأسمت مغشوش) كانت الجملة التي قالها الباز: « إن ماضي مصر عظيم ولكن للأسف المستقبل أسود فهل يمكن أن تعود مصر عظيمة مرة أخرى؟ ».

السؤال الآن: هل يمكن أن يكون فاروق الباز حاقدا جاحدا ومن الحاقدين على مصر مبارك أو من أولئك الذين يريدون أن يعكبنوا على مصر وشعبها العظيم فرحة الفوز بكأس أفريقيا؟

عموما مستقبل مصر أسود من وجهة نظر دكتور فاروق الباز لأن حاضرها من وجهة نظرنا زى النيلة!، ولكن هذا لايعنى أن نرمى أنفسنا من فوق برج الجزيرة أو نولع في روحنا بجاز بل المطلوب أبسط من ذلك جداً، فقط أن نستطيع تغيير الرئيس حسنى مبارك ونظامه!

أكاد أسمع من يقول «نولع بجاز أسهل»، لكن الحقيقة أن مصر في حاجة إلى شعبها وشبابها بالذات، بينما لم تعد في حاجة إلى سنوات جديدة ممدودة للرئيس مبارك ولا نظامه، فضلاً عن حزبه وابنه قطعاً، فهذا البلد لم يعد يحتمل شيخوخة القرارات واستبداد السياسات واحتكار الحزب الفاشى والفاشل للحكم، مصر تعاني مما فعلوه بها طيلة السنوات السابقة وأول شفاؤها هو تغيير طبيها، وبمناسبة الطبيب تعالوا نتأمل التشخيص، تشخيص حالة مصر «العيانة» باستبداد حاكمها واستسلام شعبها!

سألنى الدكتور أحمد زويل العالم العظيم: هل تظن أن هناك أملاً؟.. أو شككت أن أقول له إننى قبلت دعوته على الغذاء ليس طمعا فى السمك بل طمعا فى الأمل؟ لكننى أجبته: لقد تحدثت مصر كلها يا دكتور حول الجماهير التى تدفقت على مباريات منتخب مصر فى كأس أفريقيا رغم أننى لم أستغرب إقبالها فهو عادٍ ومكرر وطبيعى للغاية، لكن أحدا لم يلتفت لحضور حوالى أربعة آلاف شاب جاءوا لك فى محاضرتك بدار الأوبرا حتى ملأوا القاعات كلها والساحات المكشوفة والممرات الحالية، فى نفس توقيت مباريات المنتخب، ثم تكرر وجود الآلاف فى

محاضرتك بالجامعة الأمريكية، هؤلاء الذين قدموا لى الأمل يا دكتور، أن يذهبوا لعالم وأن يحتشدوا لعالم وأن يستمعوا لعالم!

دكتور أحمد زويل يعمل الآن فى مركز علمى تم تأسيسه حديثا وخصيصاً بعد أن نشر عدة أوراق بحثية هامة عن الخلايا البشرية، هذا المركز الذى بلغت ميزانيته أربعين مليون دولار يقوده زويل وفريقه العلمى لدراسة الخلية البشرية للتحكم فيها والسيطرة على الجينات، هذه الدراسات سوف تغير شكل الدنيا بعد عدة أعوام وقد يكون لها آثار مدوية على التغلب على الأمراض وبدء مرحلة مذهلة من الاستنساخ البشرى بل وكما فهمت سوف تنتهى معها الحروب بالسلح والصواريخ لتنتقل لحروب بالميكروبات والفيروسات فمن يتحكم فى الخلية ومن يسيطر على الجينات ويغيرها ويعدلها ويطورها سوف يملك العالم، طلبت من الدكتور زويل أن يخصص فى مركزه غرفة لا يدخلها سواه تكون مهمتها تغيير جينات العرب وتعديل خلاياهم كى يتطوروا ويتقدموا، ضحكك دكتور زويل جلجت وقال لى: ليست مسألة جينات إطلاقا، القضية أبسط من ذلك، ثم بدأ يعقدها لى تماما حين بسطها، أول شيء طرحه دكتور زويل كى نتقدم أن نتقرط، أى أن نكون بلدا ديمقراطيا يتمتع بحرية الرأى والتعبير وتداول السلطة ونزاهة الانتخابات، عندها ظننت لوهلة أتى لا أقل عبقرية فى الكيمياء عن دكتور زويل فأنا وغيرى يطالبون بهذا منذ بدء (...الخليفة)، لكن كما قال زويل: إن هذه شروط إنسانية مبدئية لأى تطور، ثم تقدم د. زويل وحكى: وفقا لمعهد المعلومات العلمية بلغ مجموع الأوراق العلمية التى نشرت فى كافة أنحاء العالم خلال السنوات الخمس الأخيرة ٣,٥ مليون ورقة كان توزيعها بالنسب المئوية كما يلى: الاتحاد الأوروبى ٣٧% فى المائة والولايات المتحدة ٣٤% ودول آسيا على المحيط الهادى ٢١% والهند ٢,٢% وإسرائيل ١,٣% أما مساهمة العالم العربى كله فهى أقل من مساهمة إسرائيل إذ تتراوح مساهمة كل من الدول العربية بين صفر فى المائة (الين) و٣%. و٣% فى معظم البلدان! أى أن العربى ينتج بين ٢.١ فى المائة مما ينتجه الإسرائيلى (استعنت بندوقه فى الأوبرا وكتابه "عصر

العلم" لتوثيق كلماته على الغذاء): هل معنى ذلك يا دكتور هو اليأس؟
الإجابة فوراً: بل هي العمل، وأخذ دكتور زويل يشرح مشروعه الذى كان
قد قدمه وتم إجهاضه (تفاصيل ما حكاه زويل ومنعنى من حكيه مذهلة) وحصل
زويل على موافقة مكتوبة من عشرة علماء حاصلين على نوبل فى العلوم للعمل فى
هذا المركز العلمى المصرى الذى كان بمثابة القاعدة الحقيقية لبناء عقل وعلم
واققتصاد مصر.

قلت لدكتور زويل إن الدولة تسوق للناس الإصلاح الاقتصادى وأقول دائماً
إذا كان إصلاح الاقتصاد الذى أفسدوه هم أنفسهم فى حاجة إلى ربع قرن فمتى يتم
إصلاح الوطن، أجب زويل مطمئناً..

ثم أسطورة حول أن التقدم يحتاج إلى قرون، وهى أسطورة لا تحتاج إلى
حمد كبير للمناقشة، فالكثير من دول العالم المتقدم قد حققت انطلاقتها الراهنة فى
غضون سنوات أو عقود، إن التجربة الماليزية هى نتاج حوالى عشر سنوات لا
عقود طوال كما أن التجربة الصينية نفسها لا يزيد عمر تألقها وامتيازها على
العشرين عاماً وكوريا الجنوبية قد صعدت من التخلف إلى صدارة الصناعات فى
آسيا وإلى موقع بارز فى العالم فى غضون سنوات، واليوم يعمل معهد كوريا
للعلوم والتكنولوجيا (كايست) فى تطوير صناعة الإنسان الآلى ليسبق العالم.

وفى الهند الآن يندھش المرء من القلاع الصناعية العملاقة التى تنتج
(السوفت وير) فى بنجالور وفى سنغافورة التى تخطو إلى أفق غير منظور.
وأيضاً عندما ننظر إلى تجربة أيرلندا الحالية نجد نهضة وتقدماً فى حوالى عشر
سنوات أصبحت أيرلندا من أكبر بلاد العالم تصديراً للتكنولوجيا الحديثة. وقد
حدث هذا برؤية واضحة وأعود الآن لكتاب دكتور زويل وأقول نصاً:

(إنه لمن المدهش أن ينسب البعض أسباب ذلك التخلف الشديد إلى نقص
الموارد فى العالم العربى، والأكثر إثارة للدهشة أن المرء يسمع ذلك فى مصر، كما
يسمعه فى دول الخليج البالغة الثراء. ولا يستطيع أن يفهم كيف يرى ذلك الثراء
فى الحياة اليومية للناس من سيارات فاخرة ومنتجات وشواطئ وقصور ومن

استخدام للسلع الاستهلاكية الحديثة تكنولوجيا... ثم يجد ذلك الحديث الأيديولوجي الثابت حول نقص الموارد. والمؤكد أن العالم العربي يصنف من بين مناطق العالم الثرية أو غير الفقيرة، كما أن هناك دولا تفتقد الموارد إلى حد كبير، وبعضها يفتقدها تماما ولكنها أنجزت وتجاوزت ولعل المثال الصيني والياباني والكورى والماليزى هو الأكثر حضورا فى هذا السياق، مما يجعل الحديث عن أسطورة نقص الموارد ضربا من الاسترخاء.) وأضيف أنا (وضربا من الاستهبال)، فكان لمصر أن تتقدم علميا بميزانية قريتين فى الساحل الشمالى أو بجملة ما نهبه بيزنس أولاد الكبار!

ومن المعلومات التى تعرفها من دكتور زويل تكتشف إلى أين تذهب مصر، إلى التقدم والتطور أم إلى مزيد من إهدار قيمة روح وكرامة المواطن وانحدار قيمة العلم والعلماء؟ مثلا هناك مجلستان عالميتان مرموقتان Science - Nature يعد النشر بهما دليلا على الأهمية القصوى للمكتشفات العلمية مثلما حدث فى إعلان أبحاث الاستنساخ وأبحاث الفيتنو وأبحاث الـدى إن ايه وغيرها، الخمسين سنة الماضية لم تشهد نشر بحث علمى من مصر والعالم العربى فى أى من هاتين المجلتين، طبعاً فنحن خبراء فى البحث الجنائى وليس البحث العلمى، نحن لا نخترع سوى النفاق والتأليه للحاكم وليست لدينا سوى عبقریات فى تفصيل القوانين لصالح نظام مبارك وحزبه وابنه وتفصيل قصائد المديح والرياء فى افتتاحيات الصحف الحكومية، عبقرية مصر مبارك تتجلى فى قدرة جهاز أمن الدولة على تجنيد عملائها فى السياسة والأحزاب والصحافة والجامعات والجوامع فيتحول المصريون إلى مخبرين وخدم فى خدمة رئيس مصر!

ما المطلوب من شعب وأمة لا مضممة لها سوى نفاق الرئيس! فهو الزعيم الملهم أيام عبدالناصر وهو الرئيس المؤمن وقت السادات وهو بانى مصر الحديثة وصاحب أول وآخر طلعة فى عصر مبارك!
ليقل لنا فاروق الباز إن مستقبل مصر أسود..
وليشرح لنا دكتور زويل طريق الحل:

لكن الحقيقة أن مصر ليست زويل والباز بل هي مصر مبارك وفي أكثر الأحوال تواضعا هي مصر جمال وعز!

كنت في جلسة مع العالم المصرى العظيم دكتور رشدى سعيد، سألته: ما هو شعورك الآن وقد خضت حربا وحدك منذ سنوات ضد جدوى مشروع توشكى باعتبارك خير النيل والجغرافيا الأول في عالمنا وكانوا يبنونك ويرفضون آراءك ويستخفون مواقفك ويستخفون بعلمك ويحولون توشكى إلى بقرة مقدسة لا يريدون حتى أن يسمعوا (مجرد أن يسمعوا) كلمة نقد عنها ومن يقترب فيمسها بسوء خرج عليه النباح والعواء من كل صوب، الآن ولم يبق من توشكى سوى خسارة مليارات الدولارات وأوبريت غنائى فاشل وسجائر توقف خط إنتاجها، ما هو شعورك يا دكتور رشدى؟

أجاب الرجل بحكمة وعلم وزهد السادسة والثمانين من العمر:
- حزين ليس لأنهم فعلوا ذلك معى بل لأنهم فعلوا ذلك بمصر!

حش واديله!

تدور مصر فى دوائر من الكذب السياسى المقيت والسقيم، يتحدثون عن دولة مؤسسات والبلد يحكمه حاكم فرد واحد أحد لا يناقشه شخص ولا تراجع مؤسسه ولا تعرف قراراته جهة ولا يرفض له وزير ولا غفير أمرا ويركع أمام قراراته الساسة والسادة، وتتوسل إليه أحزاب دار المسنين التى تحكمها هشاشة العظام والأفكار وأحزاب أمناء الشرطة التى يقودها مخبرون لجهاز أمن الدولة وتتسول منه نقابات رخوة، لا معقب على حكمه ولا راد لقراره ولا مناقش لكلمته ولا مجادل لرؤيته ولا معارض لسيادته ولا مستفهم ولا مستغرب ولا مستنكر، ثم هو يعد وعودا موعودة فى الإصلاح ثم يعيد وعده بوعوده ثم يضيف وعودا على وعود ثم يعد أن الوعود الأخيرة سوف تلحق بالعود الثانية مع الوعود الموعودة من الأول، والأدهى من ذلك كله أنه عندما يعد الوعد الأولانى يهمل له الجمع ثم عندما يعد نفس الوعد يصفق له الكافة ثم عندما يعد وعودا هى ذات نفسها الوعود اللى كان وعدها يرجع الكل ويحيوا الوعود الموعودة ثم ينتظرون وعده بتنفيذ الوعود اللى كان وعد إنه ينفذ وعده بتنفيذها! حتى إننى أقترح أن نغير النشيد الوطنى من بلادى بلادى إلى أغنية موعود لعبدالحليم حافظ، موعود يا قلبى (يا شعبى) بالإصلاح، موعود بالديمقراطية!

ومن المؤسسات المخجلات المذلات المذهلات أننا قد نرى البعض يصرخ ويسأل الله عز وجل لماذا نحن وحدنا يا الله دوننا عن بقية الأمم والشعوب الذين لا نرى رؤساء يتغيرون بدون أن يموتوا، ويأتى رؤساء غيرهم سلطاتهم ليست سلطات مطلقة أشبه بالإله، ووزراء يسقطون وحكومات تتبدل وسلطة يتداولها الجميع وانتخابات حرة بلا تزوير ورؤساء بغير انتخابات مزيفة بل عبر انتخابات

حرة (مش كده وكده) بين مرشحين ؟

لماذا نحن يارب وحدنا دون العالم كله الذين نعيش تحت حكم حكومات أبدية وعروش مسنة ومسنونة علينا خالدة على مقاعدها وجامدة على أفكارها، حكام لا يتركون مقاعدهم ولو انطبقت السماء على الأرض، يرثون أمتنا ويورثونها لأبنائهم من بعدهم؟

لماذا نحن وحدنا دوننا عن بقية شعوب السنغال وجنوب إفريقيا وكينيا ومالطة التي لا يسمع فيها أحد الأذان وقبرص واليونان وكوستاريكا وماليزيا وتركيا ونيكارجوا وفنزويلا (مش ح أقولك ألمانيا ولا فرنسا وأمريكا) الذين نعيش في استبداد بلا نهاية وطغيان بلا توقف وحياة بلا ديمقراطية ويتحكم فينا شرار الناس والحكام وأبناء الحكام وبطانة الحكام ورعاع الساسة وفسدة المسئولين؟

وأكد أقول للداعى : انزل يدك وخلي عندك دم فلن يستجيب الله لك محما دعيت، فالحرية والديمقراطية ليستا صلاة استسقاء ولا مطرا يهبط بالدعاء على أرض جفت، الحرية يكافح من أجلها الشعب والحرية تبذل الشعوب دمها فداء لها، وهى لا تأتى بالدعاء محما كان حارا ومحما بللته الدموع! فالبلد ملآن بهؤلاء الأغوات والماليك والخصيان الذين يطبلون ويزمرون للحاكم ويسبحون بحمده ويقصدونه كأنه الولي الصالح أو النبي العادل ويبيعون ضمائرهم وأوطانهم مقابل البقاء في المقاعد والحصول على الفوائد واكتناز الذهب والفضة والفيلات والشاليهات، فمن الطبيعى إذن أن يبلغ مسئولون مبلغ الشعور بالعظمة وعرض مرض السلطة وشهوة الحكم وشراسة الفساد فيتخيلون أنفسهم أنصاف آلهة وأنبياء ويضعون لخداء أولادهم مكانا على رقبة الوطن يرثون العواصم والخزائن والفساد والاستبداد من بعدهم، والمضحك المبكى أنهم (هم وأبناؤهم) يتحدثون طول الوقت عن ديمقراطيتهم وحرية مواطنيتهم فى كذب مريع وفصام فكرى ونفاق سياسى مذهل، والأدهى من ذلك كله هو ما نشهده من الاستسلام الرخو والسكوت المتواطئ والتخنى الذى نتعامل به مع طغيان الحكم والحاكم الذى يحدد مصير ومصائر البلد ويحركها كما يهوى ونحن نتفرج بل ونتحمل بل ونرفع شعارنا المصرى

الصميم (إذا لقيتهم يبعثوا العجل حش برسيم واديله) يدهشنى الصبر إذا تحول إلى تناحة! المسألة حين تصير استسلاما، السباحة حين تتبدل إلى نطاعة، وتحيل أن جمال الدين الأفغانى قال منذ حوالى مائتى عام هذا الكلام لنا نحن المصريين، قال :إنكم معشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد وريتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون من زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعاونون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الحيف والجور وتنزل بكم الحسف والذل وأتم صابرون بل وراضون، ويقول العلامة العبقري الدكتور جمال حمدان: إن آفة مصر اثنتان: الطغاة فى الداخل والغزاة من الخارج، الدكتاتورية فى الداخل والاستعمار من الخارج، هاتان هما نقطتا الضعف الأساسيتان فى شخصية مصر وهما قد تبدوان للوهلة الأولى شيئين منفصلين، ولكن الحقيقة أنهما جانبان لشيء واحد، والعلاقة بينهما مباشرة هى علاقة السبب والنتيجة، فنحن كشعب نخضع بانتظام لحكامنا الطغاة، وحكامنا يركعون بسهولة للأجانب الغزاة. ويضيف حمدان : لقد تعودنا على أن نبرى ساحتنا كشعب من مسئولية هذا الثنائى المزدوج القاصم لظهورنا بمقولة إننا ببساطة شعب مغلوب على أمره مفترى عليه، وإن الفاعل المباشر هو الطغيان والمجرم الأكبر هو الاستعمار، ومن جانبه، فإن الطغيان الداخلى بدوره يزيح المسئولية عن كاهله مسارعا بكل ترحيب إلى إلقيائها على عاتق الاستعمار الأثم الزنيم.. إلخ. والاستعمار ولاشك آفة وأفعى إلا أنه ليس رأس الأفعى ولا الآفة الوحيدة، كما يروج بعض السطحيين ومنظرى عملاء الطغيان، والحقيقة أننا أسرفنا على أنفسنا فى اتخاذ الاستعمار "كشجب" نعلق عليه كل مآسينا وعيوبنا ومشاكلنا، سياسية وغير سياسية، أولا: لأنه هدف سهل مباشر مشروع لا شبهة فى عدائه وعدوانيته، وثانيا: لأننا لا نكاد نجسر على أن نعلق الجريمة والعقاب فى رقبة الطغيان المحلى لأنه الحاكم المالك وظل الله فى أرضه أرض مصر... إلخ، وبهذا وبذلك اصطنعنا لأنفسنا سلما مريحا ومرضيا، غير أن الحقيقة التاريخية التى تثبتها مرارا وتكرارا تجربة ألفى سنة مازالت مستمرة معنا حتى اليوم، الحقيقة التاريخية هى أن كبرى الآفتين ليست الاستعمار الأجنبى ولكن

الطغيان المحلى، الحكم المطلق الداخلى بعجزه عن حماية الوطن فعلا أو بخيانتته له علنا ومساومته وتواطئه مع المستعمر ليحفظ على نفسه عرشه أو مركزه. إن الذى أتاح للاستعمار الخارجى أن يدخل ويبقى فى كثير من الحالات بصورة غير مباشرة دائما وبصورة مباشرة أحيانا هو الطغيان الداخلى وهو لا سواه، إنه فى كثير من الأحيان "وجه مصر القبيح" فى الخارج كما فى الداخل.

هكذا تكلم جمال حمدان فى كتابه الفذ «شخصية مصر» (أربعة أجزاء فى ألفى وستمئة صفحة، وما اقتبسناه هنا هو من المجلد الثانى باب الطغيان الشرقى) لكنه لا يتوقف عند تحميل الطاغية مسئولية الظلم والاستبداد بل كذلك يصل بها إلى المسئول الأول الحقيقى كما يكتب تحت عنوان رائع وهو سلم المسئولية، يقول حمدان: إنما الحقيقة بعد هذا أن مسئولية الطغيان الحاكم تتضاءل بدورها أمام مسئولية الشعب نفسه، الشعب -ولا أوهام فى هذا- هو المسئول الأول والأخير، الأصلى والأصيل، حتما وبالضرورة، فإذا كان الحكم فى مصر مأساة أو ملهامة، كارثة أو محزنة، فإن سببها الشعب وحده نظريا وعمليا، وكما كان الكواكبي (يقصد عبدالرحمن الكواكبي مؤلف الكتاب الأشهر «طبائع الاستبداد») صحيحا صادقا حين قال إن مبعث الاستبداد هو غفلة الأمة، ومرفوض مرفوض هو المنطق الانهزامى المعكوس الذى يعتذر للشعب أو عنه بأنه مغلوب على أمره لا قدرة له على الثورة، مكبل أعزل من السلاح.... إلخ، فالطغيان لا يصنعه الطاغية، وإنما الشعب هو الذى يصنع الطاغية والطغيان معا، والشعب مسئول عن الطغيان مسئولية الطاغية نفسه وزيادة، المثل الشعبى المصرى نفسه يقول "قال يا فرعون من الذى فرعنك؟ قال: لم أجد من يمنعنى" ومن هذه الزاوية فإن الشعب لا يعفى من اللوم، وليس له إلا أن يلوم نفسه أساسا، فهو الجانى مثلما هو المجنى عليه، الفاعل والضحية، ظالم لنفسه كما هو مظلوم بحاكمه. بل لعل الأوضاع السيئة التى يتردى فيها وإليها كل يوم تكون العقاب الطبيعى المستحق لتفريطه فى حق نفسه وتهاونه فى الدفاع عن حرته وكرامته وعزته وسيادته، فالحاكم الرديء الطاغية إنما هو عقاب تلقائى وذاتى لشعبه الذى سمح له بأن يكون ويبقى حاكما، إن خير

عقاب لمصر دائما على ما هي فيه، هو ما هي فيه بالفعل.
انتهى الاقتباس من جمال حمدان.

وقد يصف الكثيرون ما قاله حمدان بأنه ظلم، بل لعلهم يقولون إن هذا ما جعل حمدان يموت (يقتل) وحيدا معزولا (منبوذا من الدولة والحكم) أو يقول البعض في أن هذا كلام الغرض منه إشعار الشعب باليأس وبث روح الإحباط فيه والتعطيل عن أى حركة وفعل، والحقيقة كما أظنها أن مكاشفة المريض بمرضه العضال والخطير أفضل مائة مرة من الضحك عليه بأنه شوية برد ويخف بكوباية شاي وليمون وحبّة أسبرين، ثم إن هذا تشخيص الغرض منه أن يستيقظ الناس ويفيق المواطن ويشارك بالقلب واللسان واليد في تغيير المنكر، وهل هناك أكثر من طغيان رئيس واستبداد نظام وفساد حكم، منكر؟ بل هذا منكر كل المنكرات ومبعث كل البلاوى والمصائب، وأصل الداء وفيروس تخلف مصر وتراجعها. أقول هذا وأنا وأنت والناس كلها شهدت شهداء الانتخابات البرلمانية الأخيرة الذين قتلتهم قوى الطغيان الأمنى وهم يمارسون حقهم الانتخابى لتغيير المنكر، وكلنا رأينا زملاء صحفيين مناضلين ورائعين يتم ضربهم والاعتداء عليهم وهم يتابعون الأحداث لكشف وتعرية المنكر وفساد واستبداد الطغاة، وكان مشهد الستات المحجبات فى مظاهرات أمام اللجان فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة بحثا عن ممارسة حقهن السياسى مشهدا معبرا ورائعا، كذلك صعود سيدة على سلم خشبى لتتجاوز حصار الأمن كى تدلى بصوتها كان علامة على صحة المجتمع المصرى وأنه لا يزال يحمل شيئا من كرامة وبعضا من نخوة، كل هذا صحيح تمام الصحة، لكن المؤسف الذى يؤكد أن شعبنا سر بلاتنا بالطغيان هو أن الذين خرجوا للإدلاء بأصواتهم لا يتجاوزون فى النسبة ١٥ إلى ٢٠% من الذين لهم حق الانتخاب فى الوقت الذى خرج فيه أكثر من ٧٠% من العراقيين ليدلوا بأصواتهم فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة هناك، ثم هذا الكم السخيف السمج من الابتدال الثقافى حين يتهمك مثقفون ركع سجود للنظام أو مقعدون فى اليسار والعلمانية على اختيار الناس فى الانتخابات وكأنهم يطمئنون لطغيان هذا النظام

ويفرحون به لأنه يوفر لهم زجاجة بيرة فى بار آمن، ويأفنون من الشعب الذى اختار ٨٨ إخوانيا فى المعارضة، هناك تحالف من أحزاب الشيخوخة وقيادات دار المسنين السياسية مع الطغيان وهناك تواطؤ بين مثقفى حظائر الطغاة وهناك خدم وحشم ومخبرون يديرون الإعلام المصرى لخدمة الطغيان وتجميل وجهه وهناك جهاز أمنى قاهر قامع ينتهك الآدمية ويحتقر القانون ولا يتوانى عن ضرب القضاة أنفسهم، هناك آلة من الفساد فى أرض النفاق هى التى تتحالف وتدعم الاستبداد.

إن المشكلة الجذرية فى شعب مسالم حتى الاستسلام، يوطى للحاكم حتى التواطؤ، ونخبة رخوة وطليلة خائبة ترتجف من سيرة أمن الدولة وتبول على روحها فرحا لو عرضوا عليها منصبا ولو ضئيلا حقيرا، وتبول على روحها فرعا لو قيل لها إن النظام زعلان منك....مشكلة مصر فى الحقيقة هى التبول اللاإرادى!

ترتيب لو حصلنا عليه في ترتيب الفيفا لأكل المصريون عظم ولحم حسن شجاعة واتحاد الكرة، لكن عندما نحصل عليه في السياسة والاقتصاد والمعيشة لا يد بنى آدم بإصبع ممحلا رئيسه على مدى ربع قرن مسئولية هذا التدهور المخيف!، فمصر في ظل أزهي عصور الرئيس مبارك تنعصر تقدما ونموا زى ما أنت شاييف بنفسك لدرجة باسم الله ما شاء الله وكما أعلن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى قد جاءت في الترتيب الـ ٥٥ بين ١٠٣ دول نامية فقيرة، يعنى إحنا بعون الله أحسن من ناس كثير، أفضل مثلا من ٤٨ دولة نامية من بعدنا لكننا للأسف أقل من ٥٤ دولة نامية برضه قبلنا، تخيلوا مصر بكل إنجازات الرئيس مبارك وبالـ ٨٨,٥% التى حصل عليها في الانتخابات الرئاسية المزعومة مؤخرا وبعطاء وحكمة سيادته وبنشاط نجله (ألف مبروك على فكرة) وبنظافة رئيس وزرائها تقف في الترتيب الخامس والخمسين من بين دول العالم الثالث النامى الفقير، المأساة ليست في هذا الترتيب المزرى والكاشف الفاضح للحالة الاقتصادية التعبانة والكحيانة التى يعيش فيها المواطن المصرى (كون المواطن مش واخذ باله يتفلق أحسن!) المأساة لا تقف عند هذا الحد بل إن الخيبة التى لم ترد على أحد هى أنه طبقا للقائمة ذاتها وللتقرير ذات نفسه فإن الأراضى الفلسطينية المحتلة (غزة ورام الله ونابلس وغيرها) حصلت على الأداء الأفضل بين البلدان العربية واحتلت المركز السابع بين الدول الـ ١٠٣ النامية، ماذا أقول؟ أقولك سوف أخرس تماما وقل أنت! بدمتك ودينك لما يبقى المواطن الفلسطينى المحتل والذى لا يجد قوت يومه والمحاصر من الإسرائيليين وممنوعة عنه المعونات ويتم حرق حدائق زيتونه وبرتقاله أحسن منا اقتصاديا وأى مصرى فى أسيوط وقنا أو المنصورة والمنوفية أفقر من الفلسطينى فى غزة ولا جنين ورام الله، تقول إيه؟!!

لكن الأمر لا ينتهى عند ذلك بل هنالك كذلك نفسه حين تتأمل البنية لا مؤاخذه الأساسية فيما يتعلق بالمياه خصوصا وقد هزتى جدا مشاعر الملايين من المصريين الذين فزعوا تماما واستبد بهم الجرع وأحسوا بالخطر حين انتشرت شائعة (مشيها شائعة) تلوث ماء النيل بفيروس أنفلونزا الطيور نتيجة إلقاء الطيور الميتة فى النهر،

والمفارقة أن المصريين أظهروا في هذه الساعات العصبية حرصا رائعا على أن يشربوا ماء نظيفا غير ملوث وبدت لأول مرة مظاهر وعى مصرى شعبى بخطورة تلوث المياه على صحة الناس، وهذا مؤشر مهم على حالة فوقان جديدة على المصريين تماما مثلما يؤشر تجمع أصحاب مزارع الفراخ وتربية الدواجن وتجار وباعة الطيور في مظاهرات أمام قصر عابدين (مع أن الرئيس لم يذهب لقصر عابدين منذ سنوات لكن تعود الجمع على أن كل عرابى مصرى - من غير حصان- يذهب إلى قصر عابدين لكل خديو مصرى من غير ما يعمل فيها ولدتنا أمحانتنا أحرارا -) ومظاهراتهم كذلك أمام مجلس الشعب توحى بنمو وعى عند الناس بأهمية التجمع والتوحد والتظاهر من أجل رفع الصوت بالمطالبة بحقوقهم ولو فعلت كل فئة متضررة ذلك فسيقدر هذا الشعب على استرداد حقوقه من الفسدة الضلّة!

لكن المؤسف في الواقع ويعر ويكسف ويوكس أن المصريين لا يعرفون الحقيقة المؤكدة أنهم يشربون منذ سنوات مياهها ملوثة بما هو أخطر من هذا الفيروس الغلبان بتاع الفراخ (الذى لا يصيب إلا الكتاكيتو بونى فقط!)، المياه في مصر ملوثة وها هو تقرير التنمية البشرية الذى جلس رئيس وزراء مصر فاردا طولاه ورافعا رأسه وهو يقدمه في حفل رسمى فإذا بهذا التقرير الذى تتشارك فيه الحكومة مع الأمم المتحدة يضع الجلاجل على فضيحة الحكومة فهو يقول «يعتبر تدهور نوعية المياه قضية بالغة الأهمية في مصر. وتختلف شدة هذا التدهور بين مختلف المصادر المائية حسب حجم تدفق المياه الملوثة وهناك العديد من العوامل التى تؤثر على نوعية المياه مثل تصريف مياه الصرف الصحى الخاصة بالمصانع أو المنازل التى لا تتم معالجتها أو التى تعالج جزئيا، وتسرب المبيدات ومبيدات الأسمدة ومخلفات النقل النهري». ويشير التقرير إلى أن أقل من نصف تدفقات مياه الصرف الصحى فى المحافظات تتم معالجتها، ويعنى ذلك بوضوح أن أكثر من النصف الذى يذهب لمياه الشرب من الصرف الصحى بلا معالجة! ويقول التقرير فى موقع آخر «وهناك تدهور ملحوظ فى نوعية المياه فى فرعى النيل وقنوات

الرى والمصارف بإقليم الدلتا نتيجة إلقاء مخلفات المنازل والمؤسسات والمخلفات الصناعية والزراعية ويؤدى تكرار إعادة استخدام مياه الصرف الزراعى إلى زيادة كثافة الملوحة إلى ٣٠٠٠ مليجرام للتر أو أكثر من ذلك وقد نشأت الملوحة وتراكمت فى كل الأراضى القديمة بالدلتا حيث ترشح متبقيات الأسمدة والتربة فى طبقات الأرض لانعدام نظم الصرف الزراعى الجيدة. ويبلغ حجم الصرف الزراعى الذى يصب فى مياه النيل حوالى ٦٠٠٠ مليون متر مكعب سنويا محملا بالمواد الصلبة الذائبة التى تتجت عن غسيل التربة فى الأراضى الزراعية ومن متبقيات المبيدات والأسمدة». ووفقا لتقرير البنك الدولى تقدر التكاليف المترتبة على الإصابة بالإسهال أو الوفاة نتيجة تلوث المياه بحوالى ٨٠٠ مليون دولار سنويا. وبطبيعة الحال يعد السكان الفقراء أكثر الفئات تضررا، خصوصا وتقرير الحكومة والأمم المتحدة يشير إلى أن ٢٥% من السكان تصلهم المياه لساعات قليلة يوميا أو حتى ساعات قليلة كل أسبوع، أى ربع الشعب المصرى لا تصل إليه مياه الشرب منتظمة كل يوم مع ملاحظة انهيار مستوى جودة المياه، (سلم لى سيادتكم على البنية الأساسية). هنا نتوقف عند فقرة قاسية ومؤلمة وإذا كان لدى المسئولين نقطة دم لاعترفوا بالذنب والتقصير ونشوف عرض أكتافهم وهم يرحلون عنا بعد قراءة هذه الفقرة من تقرير التنمية البشرية «ويمكن القول بأن هذا الوضع يمثل كارثة نتيجة تضاعف الأخطار والمخاطر البيئية التى يتعرض لها المصريون، خاصة الأطفال، فى حياتهم اليومية، وكذلك نتيجة التدهور الذى يتزايد بمعدلات سوف تعجز أمامها تقريبا أى تدخلات للعلاج فى البيئة والموارد الطبيعية. وسيترتب على الفشل فى مواجهة هذه المشكلة بصورة كافية تراجع آمال ملايين المصريين فى التحرر من الدائرة المفرغة للفقر والمرض. وتبدو جسامته هذا الوضع فيما تترتب عليه من آثار متوسطة وطويلة الأمد على تكوين رأس المال البشرى، أى على أطفال مصر، فقد ثبت أن الفقر مع تدنى أساليب رعاية الأطفال والإسهال المتكرر وسوء التغذية، كل هذه العوامل مجتمعة، تؤثر على المخ وعلى الجهاز العصبى. وقد أوضحت نتائج الدراسات التى أجريت خلال العقد الماضى عن النمو

النفسي والاجتماعي للأطفال المصريين وعن قدراتهم على الإدراك أن هؤلاء الأطفال يعانون من قصور في قوى الإدراك والتحصيل الدراسي وأن أطفال الريف الفقراء أكثر تأثراً». ها.. ما رأى تعليمات وتوجيهات السيد الرئيس التي يعمل بها رجاله وسدنته منذ ربع قرن؟ إلى أي درجة وصلت بنا هذه التعليمات؟ هل هناك حكم في العالم وصل بشعبه إلى هذا الحد وعازر يقعد كمان ويورث ابنه وحزبه؟ لقد دمروا صحة المصريين إهمالاً وتقصيراً وفساداً واستبداداً، ووصل الأمر إلى كارثة هم أنفسهم يعرفونها وقد شاركوا في صناعتها بل وصنعوها ومع ذلك لا يزالون على مقاعدهم ملزوقين بغراء رغم ما وصل إليه تحليل البنك الدولي من أن تدنى نوعية المياه يؤثر على صحة الأفراد وعلى إنتاجية الأرض. وقد قدرت تكلفة هذا التدهور بحوالي ٥.٣٥ مليار جنيه، وإذا لم يتم اتخاذ أي تدخلات لتحسين نوعية المياه، فإن تكلفة التدهور سوف تزيد إلى ٩.٥ مليار جنيه، لا أعرف إذن من أين يأتي الرئيس مبارك بكل هذه الثقة وهو يحطب في الشعب معددا إنجازاته على مدى ربع قرن بينا البلد في ظل ربع قرنه الحاكم يشرب ماء ملوثاً ممرضاً بل ولا يشرب من فضلة خير هذا الوطن بل يشرب من فضلاته، دعك من البطالة وملايين الشباب الذين لا يجدون وظيفة، وسبيك من المعاش المبكر نتيجة بيع القطاع العام العالي بالرخيص، ودعك من تلوث الهواء والأسعار المرتفعة والغلاء الذي نحياه وسبيك من آلاف المعتقلين والتعذيب في السجون والأقسام ودعك من الفساد الذي يسرى في البلد مسرى الدم في العروق وسبيك من تزوير كل انتخابات مرت بمصر، دعك من كل هذا الفشل الواضح الفاضح لنظام مبارك وحزب ابنه، ولنتوقف عند هذا الحكم الذي عاش على عرش مصر ربع قرن فلم يوفر لشعبه سوى الماء الملوث، ولم ينجح في شيء سوى أن يضع مخلفات المصانع وفضلات الشعب في ماء الشرب فيعود المواطن ليشرب سما وبولا في جوفه طيلة خمسة وعشرين عاما والناس ساكنة سواء لأنها لا تعرف فلا تفهم فلا تتحرك أو لأنها تعرف ولا تقدر على أن تتحرك، لكنها حقيقة ثابتة لا ذرة شك فيها ومع ذلك يملك حزب الرئيس وابنه جرأة تصل لدرجة الوقاحة حين يعايرون الناس

بإنجازاتهم ويتحدثون بمنتهى السجاجة عن مستقبل مصر!

من المسئول عن هذا السم الذى نشره؟

ستجد طبعاً منافقين ولاد هررة يقولون إن الشعب السبب على اعتبار أنه شعب مش متربى ميمقرش فيه وبيرمى ككا فى النيل وهى النظرية السائدة فى مفهوم رجال مبارك وابنه وعصره أن مبارك حاكم عظيم لكن الشعب هو الذى ميعرفش يتحكم، ويعرف القاصى والدانى والدنى أن هناك مواطنين ومصانع يلقتون بالخلقات فى النيل لكن الدولة فضلاً عن أنها تتفرج وتتواطؤ فهى كذلك تلقى بالخلقات والفضلات فى النيل وتصرف المجرى فى النهر وتفتح النهر على المجرى..

وتمارس أبشع عملية تسميم مباشرة وغير مباشرة للناس!

استمر حسنى مبارك فى الحكم ربع قرن ويريد أكثر له ولابنه من بعده وهو يقول للناس إنه عمل معجزة حيث أقام بنية أساسية هى كل دعايته عن نفسه ومع ذلك فإن ٦٣% من أسر الدلتا و٦٧% من أسر الصعيد تعيش بدون سيفون طبقاً للمسح السكانى والصحى لمصر نعم إذا كانت الحكاية لا ديمقراطية ولا خوتة دماغ تعالى نحسبها بالسيفون باعتبار السيفون دليل تقدم «وراحة» الشعوب، هناك ٥٤% من المصريين يعيشون بمرحاض بلدى بدون سيفون.. ما رأيكم؟

إف يا وطن!

حكومة مبارك الأخيرة!

حسنى مبارك من عائلة بسيطة لم تشتهر بالمال ولا النفوذ ولا السياسة ولا الأطيان ولم يكن أحد خارج قريتها يعرف شيئا عنها ولا يشغل باله بها حتى وصل مبارك إلى ما وصل إليه من مقعد حكم مصر، وقد نجح مبارك في الصعود السياسى عبر الالتزام الوظيفى شأنه شأن الضباط المنايفة الذين صعد بهم التزاحم وإخلاصهم للميرى إلى أعلى المراتب وكثيرون منهم ذهب إلى مرتبته فى البلد يقضى ما تبقى له من حياة فى الزراعة وتربية المواشى.

مبارك لم يقل كلمة واحدة فى السياسة ولا فى أى شأن يخصها قبل أن يصبح واحدا من المتحكمين فيها وهو أمر من مفارقات الأقدار أن يصنع السياسة من لم يعرفها أو من لم يشتغل بها أبدا ومن لم يرشح نفسه فى انتخابات طلبة مدرسة ولا كلية ولا ظهر فى مؤتمر ولا شارك فى مظاهرة ولم يقترب يوما من ندوة ولا عدى على كاتب ولا كتاب فإذا بهذا النموذج تحديدا يا سبحان الله هو الذى يحكم مصر الآن سواء من حسنى مبارك الأب أو جمال ابنه أو نظيف وزيرهم الأول، عموما مبارك الذى يتشارك مع الرؤساء الراحلين محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات فى أن عائلاتهم جميعا متوسطة اقتصاديا أو أقل قليلا، لا تشتهر بالمال ولا الأطيان ولا تشغل بالسياسة، إذا به هو تحديدا، الرئيس مبارك، تضم أسرته الصغيرة اثنين من أهم وأشهر رجال أعمال مصر وهما علاء وجمال مبارك وليصبح حسنى مبارك الذى لا يملك أكثر مما وفره له مرتبه عبر سنين طويلة من الخدمة أبا رئاسيا لنجل يملك شركة وثروة تساوى كما قال هو للصحف الأجنبية ٧٠٠ مليون جنيه أى ما لا تملكه محافظة المنوفية طولا وعرضا تلك التى ينتمى لها الابن والتي خرجت منها العائلة البسيطة!

ومن هنا صار منطقيا وطبيعيا أن يرى رئيس مصر، الذى لا يرى أحد غيره فى هذا البلد، أن رجال الأعمال هم القادرون على إنقاذ البلد (ودعنا نسأل ومن الذى هوى بالبلد إلى حد أنها تحتاج من ينقذها ؟) وأن تصبح ثقة الرئيس كاملة فى مجموعة من ملاك ومستثمرين نموا وترعرعوا فى ظل حكمه وتلاقت علاقاتهم بنجله وربما بنجليه فقد التقوا فى محافل الغرفة التجارية الأمريكية ومؤتمرات البيزنس ومحافل المليونيرات وأن يتم تسليم هؤلاء الذين لم يتحدثوا فى السياسة ربما حتى لزوجاتهم فى يوم من الأيام ولم يشاهدوا سوى شاشات البورصة ويتحدثون مع بعضهم البعض ومع أبنائهم باللغة الانجليزية، هؤلاء جاء بهم مبارك ليحكموا البلد كما يحكمون شركاتهم ومؤسساتهم باعتبار أن المصريين موظفون عندهم وأن مصر نفسها موظفة فى خدمة رئيسها الى يؤمر بيه الباشا تحت أمره!

منذ صعود رجال يوليو ١٩٥٢، وغالبيتهم كانوا أبناء طبقات بسيطة ومتوسطة، بدأ المال يتحالف مع السلطة، رجال الثروة القدامى خافوا من ضياع ما تبقى فتصاهروا مع شوية ضباط وأقاربهم، وبعض الضباط طمعوا فى الثروة والمال بجوار النفوذ والسلطة فسهلوا وتساهلوا واشتبكت العلاقات ثم اندمجت عندما ظهر رجال الإدارة فى القطاع العام والمصالح الحكومية الذين كان فى أيديهم أذن التوريد والتخصيص والاحتياجات فصاروا شركاء فى الظل ثم فى العلن، وعندما جاءت السبعينيات كانت هناك طبقتان اندمجتا، طبقة قادمة من ثراء ما قبل الثروة، وطبقة من ضباط ومديرى ورؤساء مجالس إدارات حكومية ووزراء، ثم انضمت لهم فورا طبقة ثالثة وهى أغنياء الثراء الانفتاحى السريع الذى أنتج مليونيرات فى شهور فخط هذا فلوسه مع الأصل الاجتماعى لهذا والنفوذ السياسى لذلك وبقوا دوكهم مع دلم طبقة جديدة تحالف معها فورا مليونيرات الثمانينات الذين جاءوا برعاية من الدولة وبقروض ميسسة منها وضم هؤلاء القادمون الجدد معهم أبناء المسئولين والوزراء والكبار الذين تخرجوا من الجامعات فتلقفتهم شركات الأغنياء الجدد الذين بنوا معهم وباسمهم وبمشاركاتهم صروحا من الغنى التى وصلت بنا إلى وجود الفحش والتوحش المالى الذى نعيشه وصارت كل هذه الفروع

المحمية بمقولة حسنى مبارك (احنا بندى ونسهل وبنقوى الأغنياء عشان يفتحوا فرص عمل ويشغلوا ويدوا الفقراء) هى التى تسيطر على اقتصاد مصر تالت ومثلت فضلا عن أنها صارت طبقة متسعة تتخللها فروقات وتباينات لكن تجمعها مصلحة واحدة مندججة على نفسها ومعزولة عن المجتمع كله فإذا كان رجل يدخن سيجارا واحدا يساوى مرتب شهر لموظف شغال منذ عشر سنوات فهل تنتظر أنه يشعر بمعاناة الناس؟! ثم تفاهم الوضع حين قررت هذه الطبقة المعزولة ماليا والمنفجرة نفوذا أن تحكم البلد فعليا ومباشرة عبر البرلمان أو الوزارة لتنفيذ مصالح مباشرة، وأنا أعلم يقينا أن هناك فى هذه الطبقة رجالا محترمين كثيرين لكنهم جميعا مربوطون بمصالح وعلاقات وفلوس وملايين بشركات خارجية وداخلية وبنوك واستثمارات وروابط وهو أمر يجعلك رجل أعمال كبيرا لكن لا يجعلك إطلاقا سياسيا ووزيرا، فالدكتور نظيف قال إن رجال الأعمال الذين انضموا للوزارة سوف يجعلون آخرين يديرون أعمالهم الخاصة (ألن تظل شركاتهم وفلوسهم يا دكتور نظيف!! وهل سيفرطون فيها وفى ربحها؟ وهل سيمنعونها من الدخول فى المناقصات والممارسات؟! قل كلاما نصدقه يا رجل!) إنه دليل مزر على محزنة أن يتولى هؤلاء محاماً لها علاقة بسياسة الدولة فضلا عن أننا لم نسمع أن رجال الصناعة والتجارة العظام فى العالم كله يحملون حقائب وزارية فضلا عن وزراء مصر قبل الثورة وفى عزم ما سعى بسيطرة رأس المال على الحكم كانوا مدرسين ثانوى ومحامين (معظمهم كانوا محامين) ومشتغلين بمهن ووظائف وليسوا أصحاب مصانع أو شركات وظل طلعت حرب وعبود باشا وأبورجيلة وياسين والنايلسى شاهين وعمر أفندى وصيدناوى وغيرهم رجال مال وتجارة وصناعة وليسوا رجال وزارة!

لكن الجديد الآن أن المال لم يعد يستفيد من السياسيين فقط بل قرر هو الآخر أن يحكم ويتيسس، وهذا البروز المحموم لرجال الأعمال فى الانتخابات البرلمانية والسعى المهبوس للحصول على مقعد برلمانى عبر الرشوة والفساد دليل على دخول المال مرحلة أخرى هى ذات نفسها المرحلة التى شقها وقعد فيها جمال

مبارك فهو نموذج صارخ لدخول المال عالم السياسة ولوصول السياسة إلى عرش المال!

جمال مبارك ابن موظف يشغل منصب رئيس الجمهورية بدأ العمل في البيزنس كما شقيقه علاء مبارك، ها نحن أمام شاين لا يشتغلان في العلم أو المعمل، في المصنع أو الجامعة، بل هما بحكم التكوين الجديد لطبيعة الحكم في مصر يذهبان مباشرة إلى الهدف، ويبدأ حامل اسم أبيه في التجارة كما فعل ابن صفوت الشريف وكافة أبناء النظام، حتى هذه اللحظة كان هناك بعد واضح وهو حالة الرغبة لدى السلطة في عمل أبنائها بالبيزنس وهذا يتماشى مع المصاهرات التي عقدها رجال الحكم منذ السبعينيات مع رجال المال وعائلات الثروة ومن المؤكد أنك لو فحست الآن خريطة العلاقات العائلية لأدركت فوراً أن فلانا ابن الوزير علان واخذ بنت فلان صاحب شركة كذا أو أن علانا ابن فلان المليونير متزوج من فلانة بنت وزير الى مش عارف إيه، خريطة المصاهرة في مصر بين الحكم والمال كاشفة بغلظة مدى التحالف السياسى المالى بين الطرفين وهذا كفىل بتوضيح الاعتماد المتبادل بينها على أدوار بعض فى المساندة أو المساهمة. نعود إلى نموذج جمال مبارك وهو نفس الطموح الذى راود رفاق المال والثروة بعد ذلك، إذا كان هو يعمل فى البيزنس (وبالمناسبة البيزنس حاجة غير الاقتصاد!) ويرى قرارات يتخذها شوية أساتذة جامعة مش عارفين حاجة عن شغل البيزنس وقاعدين ينفذوا تعليمات مش فاهمينها، طيب ما أقول، طيب ما أتدخل، طيب ما ادخل، وهى درجات السلم التى يصعد عليها رجل الأعمال إلى الحكم، فهو يكتفى أولاً بالامتعاظ أو الإشارة أو الإشاحة، ثم يبدأ يقترح ويطلب ويطلب، ثم يدخل بنفسه ليخطط وينفذ!

فقرر الرجل أن يدخل اللعبة ويلعب وباعتباره ابن الرئيس فقد تحول البحر أمامه إلى طحينة ولأول مرة يدخل نموذج رجال الأعمال الجدد عالم السياسة الصرف الواضح حين دخل جمال مبارك ومعه الرفيق أحمد عز الذى لم يكن قد عرفه شخص واحد كشاب محتم بالسياسة أو الأحزاب أو اسمه إيه ده الإصلاح

سوى عندما وجد نفسه مع رفيقه ابن الرئيس قد صاراً فجأة في قلب الحزب فقلبه!

ومع استثناء وجود جمال مبارك رجل البيزنس الذى لا يملك مصانع ولا يلتقى بعمال ولا يعرف التزامات مع بشر بقدر التزاماته مع أوراق فى بورصات وأسواق مالية، ثم أحمد عز الذى كلما زاد دوره فى الحزب زاد عدد مصانعه وثمرته وزادت أرباحه وتجاوز الجميع عن أى شرثرة حاقدة (!! عن احتكاراته!!، مع كل هذا انتفخ دور رجال الأعمال وأبناء البيزنس وتحولت مصر إلى محمية طبيعية لرحلات ونزوات هؤلاء فى السياسة وهم الذين لا يملكون أولياتها ولا مبادئها ولا نظرياتها ولا يعرفون منها سوى السلطة، بل وعلى قناعة أبرزها نظيف تامة مكملة وهى أن الشعب المصرى ليس ناضجاً للديمقراطية ثم يلحون طول الوقت على أن الإصلاح السياسى بتعليمات الرئيس أى أنهم ليسوا بتوع سياسة ولا إصلاح وتغور هى وأصحابها أمام الإصلاح الاقتصادى الذى لا يعنى لديهم سوى فتح الأسواق وتخريب الخدمات (بتعبير نظيف)، وحين صار جمال مبارك بفعل دعم الأسرة غير المحدود فى مواجهة أى ممن يواجهه أو يؤذى مشاعره من داخل النظام أو خارجه، وعبر دخول الأب إلى سن تقتضى الراحة من التعب ومن المناقشة والمناهدة (حكى رجل أعمال أن الدكتور زكريا عزمى دخل عليهم قبل بدء اجتماعهم مع الرئيس فى عيد الإعلاميين وقال لهم الرئيس جأى ومش عايزين حد يقوله كلام يزعله، فاهمين!) فإذا كان المحيطون بالرئيس لا يريدونه أن يسمع كلاماً يزعله (تخيل أنت أن كلاماً يقوله وزراء أو رجال أعمال أو المحسوبون على الدولة ورجال الإعلام المنافقون للرئيس يمكن أن يزعله فما بالك بما يقوله المعارضون) بدأ الابن إذن يكسب امتيازات غياب الوالد رغم أنه يثبت طول الوقت عدم كفاءة فى إدارة المواقف سواء داخل الحزب وانشقاقاته التى تحسمها قرارات الرئيس المنحازة له بإزاحة من يريد من أمامه، أو فى الانتخابات التى جاءت فى شقها الرئاسى مسرحية هزلية لم يفرض لها سواء ومعاونوه على طريقة مفيش داعى يسمع كلام يزعله، أو فى شقها البرلمانى الذى جاء فضيحة ومجزلة غير مسبوقه، وسواء

في الشق الذي بدأ أمام والده خير من يمثله وهو شق الإعلام الخارجي فإذا به يحول مصر إلى مسخرة ومسخرة من سوءات ما يفعل نظام مبارك و ابنه أو على الصعيد الاقتصادي الذي كلما أخذ جرعة من أوهام الإصلاح «البيزنسي» لرجالة جال ولم يشعر الناس به زادوهم بجرعات أخرى حتى سينفجر الناس في اللحظة التي يتصور فيها رجالة جمال أنهم على وشك انفجار الشاميين في حب مصر!

وقد أكد نظيف أن الرئيس مبارك لم يتدخل في التشكيل الوزاري الأخير سواء في اختيار أو استبعاد أى وزير وأنا لا أصدق نظيف ولا تصريحه ولا أصدق أى فتحة صدر من أى مسئول مصرى يزعم أنه يتنفس سياسيا قبل أن يعطيه الرئيس مبارك تعليماته بالتنفس ومع ذلك قد يكون نظيف على حق في تصريحه الذي لا يخلو من تكرار ممل للجملة ما يقوله كل مرة فرما لا يكون مبارك قد تدخل لأن جمال مبارك قد اختار!

فكر جمال مبارك كرجل أعمال يخلو من السياسة رغم أنه يبذل مجهودا كى يبدو سياسيا وهو غير لائق فكريا ولا جاهيريا عليها إطلاقا ربما لعدم دراسته أو ممارسته أو اشتغاله الحقيقي بالسياسة أو لأن والده ليس سياسيا ومع ذلك يحكم فلم لا يحكم هو مثله وربما بسبب أنه يعتقد أنه يفهم فى السياسة جدا فلا يمنح نفسه فرصة للتعلم، ربما لأنه يريد أن يشتغل بالسياسة فى بلد لم ينزل يوما فى شارعها بدون موكب ولم يقف فى إشارة مرور ينتظر أن تفتح ولا اتخاق مع سواق تاكسى على الأجرة ولا شم رائحة العرق فى مترو الأنفاق والناس راجعة من الشغل ولا ركب ميكروباص ولقى السواق ببسب أم الواد اللى بيلم الأجرة ولا وقف فى مظاهرة تهاجم الحكومة ولا سمع كلمتين يسمموها البدن فى ندوة عن سياسة والده ولا أى شيء فهو شاب ولد فى كنف النظام وتربى بجوار كرسى العرش رأى مصر بالألوان وشاف الفقر فى التلفزيون والأفلام فمن أين له أن يفهم فى السياسة وهو لا يفهم شعبه؟! هو فقط يصدق الحاشية التى تتجمع دائما حول من تراه ولى العهد فتبث فيه ما ليس فيه ولا فيها!

ما يهمنى الآن هو أن وزيرا فى حكومة نظيف انضم إليه ابن خالته ليصبح

وزيراً معه فى الحكومة والمشكلة التى تشغلنى هى مشاعر ابن عمته الذى تجاهلته
الحكومة فى الاختيار فكيف يكون معه ابن خالته فى الوزارة بينما خارجها ابن
عمته؟ إشمعنى ابن عمته؟.. هل يرضاها أى واحد فىنا على ابن عمته؟

أيجب أن لن يقدر عليه أحد؟!!

ليست هناك صفة واضحة عند الرئيس مبارك أكثر من العناد، فالرجل عنيد بشهادة من حوله وبدليل ما يفعله من سياسات وتصرفات وقرارات وبشهادته شخصيا حيث لا يتورع البعض عن الفخر بعناده، والحقيقة أن أى شخص حر تماما فى أن يكون عنيدا فى بيته أو أسرته بل وفى شغله وحياته لكن عندما يكون من يشغل موقع الرئيس والمسئول عن دولة ووطن هو نفسه عنيدا ويتجاوز العناد مع طول البقاء فى الحكم والمنصب ومقتضيات السن وطبيعة العمر فهذا ما يجعل البلد يدفع ثمن عناد شخص ساقه الله لموقع كل صفة شخصية فى صاحبه تؤثر فى حياة كل بنى آدم يعيش على أرض مصر، وهناك من يفخر بعناد الرئيس كأنه شيء يستحق الفخر، وهناك من يستسلم له ومن يتعامل مع هذا العناد كأمر واقع وقضاء نازل، وهنا ممكن خطر وفتح انهيار أمة وتداعى دولة فليس هناك أصعب وأشق وأفدح من رئيس عنيد لوطن مستسلم وشعب يأس خنوع، والتأمل الموضوعى لقرارات مبارك لا يمكن أن ينتهى بك إلا إلى حقيقة واحدة هى أن مصر تدفع كثيرا ثمنا لعناد رئيسها. لم نجد الرئيس مبارك يوما يستجيب للرأى العام ولا يستسلم لإرادة الناس ولا يعير اهتماما لمطالب القوى السياسية ولا يرجع لاستطلاعات رأى ولا يبدى قبولا وموافقة على مطالب نقابات أو هيئات، بل هو يظل يرفض تماما الاستجابة ويعلن أن أى تعديل أو تغيير فى الوقت المناسب وهو الوقت الذى يناسبه هو وليس بالضرورة يناسب الناس أو الوطن أو ضرورات الواقع وتطورات الأحداث، فهو يرفض منذ سنوات أى مطلب للإصلاح السياسى بل ويتهكم عليه بل ويتهم المطالبين بالإصلاح بأنهم يلعبون بمقادير البلد ويصف تغيير أو تعديل الدستور بالخطر الذى يمكن أن يثير فوضى

ثم يعود هو في الوقت الذي يريد هو وبالطريقة التي توافقه هو ويتراجع عن كل هذا الكلام ويقرر على مضمض أن يعدل ويغير شيئاً طفيفاً و مطفياً وبشكل مجوج وسخيف هو المادة ٧٦ في الدستور وبطريقة مفصلة عبر أردأ وأسوأ وأبشع ترزية قوانين يقبلون حذاء النظام ويوسون الأرض التي يمشى عليها المسئولون فيفصلون تعديلاً على مقاس أسيادهم وأبناء أسيادهم، المهم عند الرئيس أن يقرر هو ليس بناء على مطلب من الشعب ولا إلحاح من المعارضة ولا استجابة لقوى سياسية أو محنية، بل يقرر هو وحده وبنفسه وفي الوقت والزمان الذي يحدده ما يريد أن يفعله، أما الناس فتضج بالشكوى وترفع صوتها بالمطالب وتستغيث أو تلح أو تصرخ أو تضرب دماغها في الحائط دون أن يستجيب الرئيس فلا أحد يفرض رأيه على مبارك حتى لو الرأي العام ولا أحد يضغط على مبارك ولو كانت جماهير الأمة ومواطني البلد، وهذا بالضبط وبالتحديد نموذج الدولة الشمولية التي يحكمها رئيس فرد لا يسأله أحد ولا يراجع شخص ولا تملك جهة أو هيئة أن تحاسبه أو تراقب تصرفاته أو تنتقد قراراته أو تعارض سياساته، هذا بالضبط نموذج حكم الفرد الفرعون الذي يأمر ولا يتلقى أمراً من شعبه أو مواطنيه، هذه دولة حكم الفرد وليست دولة مؤسسات فالمؤسسات كلها في هذا البلد خدمة لبلاط قصر الرئيس، موظفون يعملون في خدمة الفرعون يطيعونه ويعبدونه من دون الله (مثلما كان يفعل اليهود مع أحبارهم)، ومن هنا تفهم مثلاً لماذا يصر الرئيس مبارك على ألا يستجيب لمطالب نادى القضاة وأنه لن يسمح لمطالبهم وحقوقهم بالتحقق بل هو لن يمرر (إن مرر) سوى مشروع المجلس الأعلى للقضاء وليس مطالب ومشروع نادى القضاة فالسياسة العنيدة التي ترفع شعار أن أحداً لن يلوى ذراعى هي التي تتحكم وتحكم وتدير حياتنا السياسية وكأن العناد مع القضاة هو دليل سيادة رئيس أو سلطة حاكم، وكأن الاستجابة لمطالب مشروعة لفئة محترمة في مصر هي بمثابة ضعف من الدولة (النهارده تستجيب للقضاة وغداً تفعل ما يريد الأطباء وبعده ما تنادى به منظمات حقوق الإنسان متبقاش دولة دى تبقى فوضى!)، نعم هذا هو السائد السارى في بلدنا ولعل معاندة النظام في

إلغاء قانون سجن الصحفيين الذى تجاوز وعد مبارك بتنفيذه (والذى أخلفه) أكثر من عامين ولم يتحقق فيه شيء للصحفيين ليست سوى مثال على حالة العند مع هيئات المجتمع فالذى يطلب لا يأخذ بل وحتى الذى يتوسل ويتسول عليه أن يقبل حقيقة أن الرئيس سوف يستجيب فى وقت يحدده هو بالطريقة التى يريدها هو وبالشكل الذى يوافق عليه هو وليس ما يريده ويطلبه أصحاب الحقوق!

لقد طالبت مصر كلها بتغيير الوجوه الكالحة التى شاركت مبارك حكمه وعملت أدوات لرئاسته فلم يقرر مبارك تنحيتهم إلا بعد ٢٤ عاما سواء من كان فى الوزارة أو من كان يدير المؤسسات الصحفية، وهذا هو وقت مبارك المناسب الذى يحكى عنه دائما، لا يأتى إلا بعد أربع وعشرين سنة، وأبلغ دليل على سياسة وسيادة العند فى اتخاذ القرار المباركى هو رفض إلغاء قانون الطوارئ رغم أن إلغاءه مطلب شعبى إجماعى لكن الرئيس لا يبلغه ولن يبلغه إلا حين يقرر هو وليس حين نطلب نحن، فمن نحن كى نطلب ونقرر، نحن رعايا للرئيس ولسنا مواطنين فى بلد لنا حق أن نطالبه بل وأن نقرض عليه أن يستجيب لنا عبر مجالس الشعب وأحزاب المعارضة والنقابات والجمعيات الأهلية والنقابات واتحادات الطلاب والصحف الحرة، لكن أين كل هؤلاء صحيح؟

لقد ألقى مبارك كل شيء فى هذا الوطن وحوله بنظامه وجهاز أمن الدولة إلى مسوخ وأشباح، فالبرلمان مزور وسيد قراره وقرار سيده، والأحزاب تحولت إلى أحزاب دار مسنين ومشفى للشيوخ أو أحزاب أمناء الشرطة الذين يديرون هذه الأحزاب التى جاءت بموافقة أمن الدولة ومصنعية على يديها، والنقابات مفروض عليها الحراسة أو موءودة ومصر كلها بالتعيين فقد ألقى الرئيس الانتخابات حتى عمداء ورؤساء الجامعات وعمد القرى، أما الصحف الحكومية فهى نوق يركبها السادة وبوق ينافق الحاكم، لقد أخرست سنوات حكم مبارك حنجرة مصر فصارت بكاء بل ولا تجيد حتى لغة الإشارة ومع ذلك فإن الشعب المصرى لا يزال يملك قلبا يحب ويكره وعقلا يرفض ويوافق ولا يزال هناك من يعى مصلحته

ومن يطالب بها وهؤلاء لا يعتبر لهم الرئيس ولا يضعهم في اهتمامه وهمومه!

ولعل التعديل الوزاري الأخير صورة من صور العناد الواضح والمعروف فالرئيس ينفيه لأن الناس تتحدث عنه أو تطلبه ثم يخبر الجميع أنه سيجرى تغييرا بعد فترة ثم يعلنه بعد ساعات وهكذا تعودت مصر طيلة سنوات حكم مبارك بل إن الثابت لدينا أن كل وزير يتصور الناس أنه سوف يرحل وتكتب الصحف مبشرة بذلك إذا به يبقى لأن الرئيس لا يرضخ للناس بل وكانت نصيحة تتردد في دوائر الإعلام والبرلمان بأن الوزير الذي تكرهه لا تهاجمه فهذا الهجوم سيكون مبرر إبقاء الرئيس عليه وها هو في التعديل الأخير وزير الداخلية الذي تورط رجاله في اعتداء على المواطنين والقضاة والذي شارك في تزوير الانتخابات والذي قتلت قواته مواطنين أبرياء وفتحت عيونهم في المظاهرات والذي طالب القضاة بتنحيته والذي كشفت منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان العالمية والمحلية تورط وزارته في التعذيب البشع والمنظم للسجناء والمعتقلين، هذا الوزير الذي انتظرت مصر كلها أن يرحل (ما عدا أنا وكت قد كتبت أنه لن يرحل) فإذا بالرئيس مبارك يجدد فيه الثقة ويصر عليه ويلقى بكل هذه الاتهامات القانونية والسياسية الموجهة إليه عرض الحائط ولنذهب نحن جميعا للجحيم ما دام مبارك راضيا عن تنفيذ وزيره لتعليماته وتطبيق توجيهاته، ونفس الشيء مع وزير الثقافة الذي بقى كثيرا على مقعده وتجمعت ضده دوائر من الرفض خصوصا بعد حادث حريق مسرح بنى سويف ولم يكن مفاجعا للوزير نفسه أن يرحل بعد ١٨ سنة من جلوسه على مقعد الوزارة ومع ذلك فالعناد أبقى عليه فلا يصح أن يرحل من يطالب الناس برحيله، وهو ما تكرر في الإصرار على إبقاء وزير العدل السابق على مقعده الذي لا يوجد أى منطلق في الإبقاء عليه سوى عناد الرئيس.

وقد فرد العناد ظلّه على الوطن كله فصار هذا النظام السياسي وإدارته الحكومية على درجة من العناد ضد إرادة الناس واستخفافا واستهتارا بمطالب الرأى العام وترفعاً عن الاستجابة له وبات الحكم الفردى الاستبدادى سمة وطن من الرئيس الحاكّم إلى أحزابه المحكومة إلى إداراته الحكومية وجامعاته وكلياته ومؤسساته فالناس على عناد ملوكهم!

لكن المشكلة الأفدح تظهر عند الاقتراب من سمات وصفات هذا النظام من قته إلى قاعدة حكمه والتي تبدى معها مسوغات تراجع مصر وتدهورها على أصعدة السياسة والاقتصاد فالنظام لدينا يتصف ويوصف بـ:

١ - البطء الذى يصل إلى حد الجمود، فكل قراراتنا بطيئة ويّدة تأتى على محل فالإصلاح السياسى يعانى من واقع التفكير الجامد الذى يقودنا فيأتى متردداً وبطيئاً ومتأخراً وتدرجياً ووهيمياً ومملاً، يوضع مشروع القانون فى الأدراج شهوراً وسنين وقد يصدر وقد لا يصدر وإن صدر فبتشويه مواده وتفريغ معناه وتفصيل مغزاه، والوجوه النافذة والمنتفذة فى البلد هى ذاتها على درجة من الجمود الذى لا يجد مبرراً للحركة بل يرى الحركة فوضى ولا يجب التغيير بل يظنه خطراً ومن ثم ترى نظاماً سياسياً هو فى ذاته آية من آيات البطء والجمود فينشر بطأه وجموده على كل مناحى الحياة من تغيير القيادات إلى تعديل الحكومات وتبديل السياسات إلى تطوير التعليم كله يغطس فى جبل الجليد، كما أن قوانين الحريات مدفونة فى قاع التفكير، ونحن أمة ابتدعت فكرة تحويل أى موضوع للجنة لتبحثه كي يموت ثم تحولت الظاهرة الجديدة إلى قتل أى قضية بتحويلها للنائب العام وإفشال أى قانون ودفنه بإحالتة إلى لجنة استماع، إيقاع البلد إذن رتيب وبائس ومصاب بروح شيخوخة تبيست معها عضلات البلد وتصلبت دماؤها فى شرايين متجمدة وإذا كان من وصف حقيقى دقيق لحالنا السياسى الراهن فهو البطء والملل والجمود على صعيد الدولة كما

على صعيد المعارضة!

٢- الغطرسة والاستخفاف فلدى هذا النظام قدر هائل من الغطرسة التي توهمه بأنه لن يقدر عليه أحد، متعاضم ومنسوخ باستقراره واستمراره وتضخم قواته وقدراته البوليسية وإحساسه العميق بأنه مسيطر على مقاليد الأمور ومنافذ ونوافذ التغيير ومالى يده جدا من إحكام قبضته على أعناق الناس وقد ساهم البقاء الطويل فى السلطة فى امتلاء بالونة النظام بالثقة فى البقاء التى أنتجت غرورا وأودت إلى الاستخفاف بالجميع، فهو يظن أن حركة كفاية وغيرها لا تقدر على مواجهته وأن أحزاب المعارضة تحت نعله وأنه فرم التيار الإرهابى المسلح وأنه أجم المعارضين الإسلاميين المتطرفين باعتقال اثنين وعشرين ألفا منهم وأنه قادر على اللعب (والتلاعب) بالإخوان المسلمين بالقبض والاعتقال أو الحصار والإعلام الحكومى والترويع والصفقات مع الأمريكان، كما يستخف بمنظمات حقوق الإنسان والمجتمع المدنى ويظن أنه متمكن فى فن محاورة ومناورة المنظمات الدولية ومستوعب احتواء أو انطواء الضغوط الأمريكية والأوروبية، هو بالقطع نظام متغطرس مغرور فضلا عن أنه فرعونى تماما استخف بقومه فأطاعوه فلم يعد يرى رجلا يواجهه ولا تنظيما يقاومه ولا تيارا يعارضه ولا شعبا يغيره.

٣- البلادة والجلد التخين، طبيعى أن النظام الذى يتصف بالبطء والجمود ثم بالغرور والاستخفاف ينتهى به مقامه إلى البلادة والجلد التخين فهو لم يعد يهتر أمام الكوارث ولا تهزه المأسى فحين يضرب متظاهرين ويقتلهم لا ترتعش يده ولا ترتجف رموشه وحين يقتل لاجئين سودانيين لا يتحرك ضميره ولا يتأسى فؤاده ولما يرى ملايين الشباب العاطل لا يشعر بمسئولية ولا يحس بذنب ولما تفضحه شهادات القضاة وتصمه بالتزوير لإرادة المواطنين لا يرجع ولا يتراجع وخذ عندك ملايين المصريين تحت خط الفقر ومحدودى الدخل بعجزهم عن توفير لقمة العيش

للأبناء ومشردى الشوارع وضحايا المستشفيات، كل هذا يذهب هباء
منبثا ويقترب الحال إلى مشهد مأساوى شبيه بمارى انطوانت التى طلبت
من الجوعى الذين لا يجدون الخبز أكل الجاثوه، نظام مصر الآن انطوانيتى
الزعة من جراء تلك البلادة وسماكة الجلد وموات القلب الذى صار عليه
مسئولون يعتقدون - بعد حكم طويل مديد ممتد - أن شعوبهم لا تستحق
حكمتهم ولا تتمر فيهم نعمة حاكمهم، ومن ثم فالرهان على إنسانية النظام
رهان أهطل والظن بأن التغيير وارد (فضلا عن كونه قادما) من هذه
الوشوش أمر يدخل فى بند المستحيل أو كونه فى النهاية هرتلة سياسية!

إذن ما العمل ؟

مبدئيا العمل عمل ربنا، ثم على هذا الشعب أن يعمل شيئا!
لكن هذا كلام آخر يتسع جرحه ويطول شرحه!

اندهشى يا مصر!

فى أمريكا كانوا يطالبون بعزل جورج بوش الرئيس الأمريكى عن منصبه لأنه تجراً وقرر وأقر قيام حكومته بالتجسس والتنصت على مكالمات مواطنين أمريكان، ياللهول، أن يجلس مواطن فى بيته أو سيارته يتحدث فى التلفون فيتجسس عليه ضابط أو مخبر جالس وراء ماكينات تنصت ويتلصص على خصوصيته وحقه، يا واقعة سوداء، أمريكا تهتز وترج، والدنيا تقوم وتقع، ومطالبة داخل مجلس النواب بعزل أهم رئيس فى الكون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ذات نفسه وذات نفسها..

تعالى عندنا إحنا يا حيبى، نظام وحكومات ووزراء داخلية الرئيس حسنى مبارك يتجسسون على المواطنين ويتصنتون على تليفوناتهم ويضعون أجهزة تجسس فى مقرات أحزاب المعارضة والإخوان المسلمين والجوامع والصحف المستقلة ويراقبون ليل نهار المعارضين ويسجلون جميع مكالماتهم بل ويتصنتون على بعض الشخصيات ويصورونهم بالفيديو ويوزعون أحياناً أسطوانات وسى دى لإثارة فضائح وتصفية حسابات وابتزاز رجال سياسة أو أعمال، بل ووزير الداخلية حبيب العادلى الذى يحظى بثقة أسطورية من رئيسه مبارك يعلن فى تليفزيون الحكومة (مش عند حد غريب) أنهم يتجسسون على التليفونات فعلاً واللى يخاف ميتكلمش، ومع ذلك وبرغم كل ذلك لا يوجد رجل واحد فى مصر رضع من صدر أمه ولا نائب فى برلمان مصر يملك من جسارة الضمير، أو حزب معارض أو شخص محترم، زعل وتأثر وغضب وتممر فطالب بعزل حسنى مبارك أو حتى على اعتبار أن الجبن سيد الأخلاق طالب بعزل حبيب العادلى لأن الحكومة تجرأت وراقبت وتصنتت على المواطنين واعترفت بذلك فى بجاحة تشبه

بجاجة جورج بوش التي لم يغفرها الأمريكيان بل يطالبون بعزله وتنحيته ويجوزون حربا سياسية و إعلامية ضده وضد حكومته دفاعا عن حق المواطن الأمريكي في خصوصية واحترام حياته الخاصة وأفكاره وتصرفاته السياسية والشخصية، إنما في مجتمعنا المصرى فلا ترى سوى النطاعة العامة كأن من حق مباحث دولة مبارك أن تراقبنا وتتجسس علينا ولا حق لنا ولا احترام ولا يسألون فينا ولا فى اللى خلفونا، والمسألة عادى جدا، فيها إيه يعنى، ما طول عمرهم بيتجسسوا ويراقبوا ويتصنتوا، إلى هذا الحد من الهوان والمهانة وصل المواطن فى مصر أن تنتهك حياته وخصوصيته ثم لا يغضب، وبهذا القدر من الرعونة والاستخفاف يواجه رجال السياسة والمعارضة فى مصر هذه الجريمة البشعة من حكم مبارك دونما أن نحس على دمنا أو يهتز الضمير الضير!

يا الله... ويسألون ليه البنى آدم رخيص قوى فى بلدنا ؟ ليه كل حاجة بتغلى إلا المصرى وروح المصرى بترخص ؟

لقد أوجعنى شاب مصرى قابلته فى الخليج وكان مفصولا من شغلته و"متفئش" من ساعات قال لى وهو بيكى على رصيف التقينا عليه صدفة أن رئيسه فى العمل قرر ترحيله فطالبه الشاب بحقه فرد عليه: لما تاخذ حقك من النيل تعالى خده من البترول ؟

انظر للذين يهاجمون الإدارة الأمريكية على جرميتها البشعة بتعذيب سجناء ومعتقلى سجن أبو غريب فى العراق أو سجناء جوانتانامو وهم يسكتون على جرائم نظام مبارك المدان بتعذيب مئات وربما آلاف المواطنين إذا احتسبنا ما يجرى فى أقسام الشرطة فى مصر وليس فقط فى معتقلاتها وسجونها، بل إن فى أمريكا التعذيب تم خارج حدود ومدن الولايات المتحدة وفى سجون حربية تقريبا ومع أجنب وليس ضد أمريكيان على الإطلاق، ثم كذلك فإن الذى كشف التعذيب هم مواطنون وضباط أمريكيان ارتاعوا مما وصلت إليه حكومتهم وكشفوا وفضحوا ما يجرى سواء فى سجن أبو غريب أو جوانتانامو ثم إن الصحافة الأمريكية والإعلام الأمريكى نفسه وليس أى كائن آخر هو الذى أذاع ونشر هذه

الفضيحة وحول أيام بوش إلى حجم من جراء هذه الانتهاكات التي صارت موضع تحقيق في الكونجرس جلس أمامه أكبر رؤوس في حكومة أمريكا، أمام ممثل الشعب الأمريكي، كل هذا لأن الأمريكيان عذبوا وليس لأنه قد تم تعذيبهم فما بالك بنا في مصر (والوطن العربي كذلك كله) الذين ياكلون عيشهم ويتعاطون رزقهم من شتمة أمريكا نسوا أن هناك مجتمعا أمريكيا محترما وقادرا على محاسبة حكامه بينما نحن لم نواجه رئيسنا ولا حكوماته بجرائم التعذيب التي يمارسها ضباط مصريون ضد مواطنين مصريين، أبناء شعب واحد ووطن واحد ومع ذلك جرائم تعذيب حقيرة ومنظمة ويومية يرتكبها رجال النظام المصري وزادت إلى حد مرعب في الأربعة وعشرين عاما الأخيرة ولم يتحمل مسئول واحد لدينا المسؤولية ولم نحكم كبيرا أمر أو وزيرا أشرف أو حكومة تورطت أو حاكما يحدث كل هذا في عصره وعهده! وكأنه من الطبيعي أن يمارس الحكام المصريون التعذيب ضد المواطنين المصريين، ولم نجد أحدا من حكام مصر أو مسئولها أو وزراءها ملتاغا مفزوعا مما سمع أو عرف أو نشر أو قيل أو ثبت من تقارير حقوق إنسان ومنظمات محلية أو دولية، مرة أخرى النطاعة الكاملة وكأن التعذيب قدر وفيها إيه ما طول عمرنا بنعذب ونتعذب، بل ويتعامل المواطن مع فكرة التعذيب كأنها مسألة طبيعية، كذلك يرتكب ضباط مصر هذه الجريمة ويذهبون بعدها للصلاة والحج كأنهم لم يرتكبوا إثما ولم يقرتفوا ذنبا، ويسمع حكام مصر هذه الحقائق فينكرونها ولا يعيرونها اهتماما ولا يسألون فيها أو على أقل تقدير يوجهون توجيهاتهم ويعلمون تعليماتهم بالتحقيق فورا ثم تحفظ القضايا عند النائب العام أو لدى أحمزة الدولة أو يتم عقاب ضابط صغير ككبش فداء مثل صببية المعلم أو الجزائر الذين يشيلون عنه قضية التموين مقابل أن يتكفل بعائلاتهم وهم في الحبسة.

أظن أن كارثة مصر أنها فقدت الدهشة وصار كل ما نراه من جرائم عادية لا يحرك أحدا وطبيعيلا لا يثير غضبا وبديهيلا لا يهز قلبا، ومع ذلك فأنا أدعوكم جميعا للدهشة إزاء حقيقة أن جميع الضباط الذين حوكموا بتهمة التعذيب ذرا للرماد في

العيون كانوا فقط ضباطا في أقسام شرطة عذبوا متهمين جنائيين أو مشتبه بهم في سرقة أو قتل بينما لم يتم إلا نادرا جدا (إن تم) محاكمة متهمين بتعذيب معارضين سياسيين أو معتقلين من التيار الديني، إطلاقا، فالدولة تكفي بتعويض مالى نأفه هزيل مقابل انكشاف التعذيب وثبوته (للمفارقة أمين عام المنظمة المصرية لحقوق الإنسان حاصل على حكم بالتعويض نتيجة تعذيبه في السجن!!)..

وبعيدا أو قريبا من هذا (محدث عارف) نرمى عدوتنا إسرائيل بكل الموبقات والجرائم التي تستحقها قطعا ولكننا ننسى أن نتعلم من العدو كي نتنصر عليه، فهى ديمقراطية إسرائيل التي تسمح لأى رجل سياسى وحزبى بالتمرد على حزبه وتشكيل حزب جديد فى ٤٨ ساعة كما حدث مع شارون حين خرج من حزب الليكود وأسس فى بضعة ساعات حزبا جديدا، بينما فى مصر هذا القانون الوضعى المسمى قانون الأحزاب وهذه اللجنة الفاشية البوليسية التى تسمى لجنة الأحزاب تمنع الأحزاب عن الظهور والتشكيل، و تسمح فقط للأحزاب التى يعمل أصحابها ويتعامل رجالها مع جهاز أمن الدولة هكذا بمنتهى الوضوح والسفور فلا يوجد حزب ظهر من لجنة الأحزاب بل ومن محكمة الأحزاب إلا بموافقة ورعاية من وزارة الداخلية وأمن الدولة، وباستثناء أحزاب الوفد والتجمع والناصرى والغد، فمعظم مسئولى الأحزاب الأخرى رهن إشارة وتحت أمر الدولة وأجهزة الأمن والوقائع التى يملكها المرء أمرّ بل وأكثر مرارة من أن نحكيها فحقيقة الوضع أن جهاز أمن الدولة هو الذى يدير أحزاب مصر كلها إما مباشرة وعبر مسئولى هذه الأحزاب من كبيرها لصغيرها والذين لا يفعلون أمرا إلا بأمر الضابط المسئول فى إدارة الأحزاب بأمن الدولة ولا يمشون مترا إلا بموافقة تليفونية من الجهاز اللى مشغلهم وإذا بحثت عن مواقف هذه الأحزاب فهى كلها مواقف لاطوغلى ومن الصعب بل من المستحيل أن تجد أحدا منهم خارج منظومة أمن الدولة وأوامرها أو تليفونات ضباطها، ثم كذلك يخترق جهاز أمن الدولة عبر عملاء مباشرين له حتى الأحزاب الأربعة وفد وتجمع وناصرى وغد، وهذا الجهاز قادر على تحريك ودفع رجاله فى الوقت المناسب وهم معروفون يكاد يكون بالاسم للجميع فى مشهد

هزلى لا تجده إلا فى مصر أن يتفاخر رجال الأحزاب بعلاقتهم برجال أمن الدولة أو ضباط الداخلية ويمطرونك لغوا ورغيا حول مصلحة البلد وكأن مصلحة البلد هى مصلحة مدير إدارة الأحزاب فى جهاز أمن الدولة، وهكذا فلا يستطيع أن يقوم أى مختلف مع رئيس حزبه أو رئيس حزب منقلب عليه بالخروج من الحزب وتشكيل حزب جديد فى ساعات أو أيام، فالموافقة على حزب جديد وإجراءاته تستغرق سنينا إن وافقوا عليه أساسا، ومن ثم تنحصر اللعبة داخل كل حزب إلى درجة تقطع الناس نفسها وتحارب بعضها من أجل الوجود والسيطرة على الحزب بينما لن يحدث ذلك أبدا لو كانت هناك حرية تشكيل أحزاب بلاش رى إسرائيل ياسيدى ولا حتى العراق ولا داعى للطموح أن نكون مثل إيطاليا أو اليونان، بل لكن مثل مصر نفسها فى عصر ما قبل يوليه ١٩٥٢ التى كان تشكيل الأحزاب فيها بالإخطار وليس بأمن الدولة!

يواجه النظام فى مصر كل هذه الحقائق بحجج خائبة وبليدة ومش مبذول فيها جهد حتى لصياغة جديدة عاقلة، يقول جهابذة الحزب الوطنى و«مطبلايتهم» فى الصحف اللاطوغلية كالأسطوانة المشروخة أن الضغط الخارجى من أجل الإصلاح مؤامرة ضد مصر، وأنا أسأل مؤامرة على إيه يا حشرة؟!، لا نهدد أحدا ولا ننافس دولة ولا نرفض أمرا من أمريكا، سياسة ووسطاء ووكلاء فى المنطقة نوفق رؤوسا فى الحلال (إن كان حلالا) بين إسرائيل وسلطة فلسطينية، بين أمريكا وسوريا، بين لبنان وسوريا، بين ليبيا وأمريكا، بين السودان والعالم، نحن لا نقدر أن نهش ذبابا عن وجوهنا فكيف نههد أمريكا أو إسرائيل كى تتأمر علينا، ومن أعلى الألبومات الحكومية مبيعا هو أغنية أن الإصلاح يجب أن يكون تدريجيا وهو ما يعنى والحال هكذا أنه لن يوجد إصلاح أساسا وأنه عبارة عن قرارات لا تغنى ولا تسمن من جوع، قرارات على الورق لا تساوى الخبر الذى كتبت به، لا هدف لها سوى تلميع سريع لسياسة نظام فاسد مضغوط عليه من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى ومحاولة لتصوير أن الحكم يستجيب للعالم المتقدم الذى يطالبه بالتخلى عن الشمولية وعبادة الفرد،

الإصلاح التدريجي معناه بالبلدى سيونا نحكم ثلاثين سنة أخرى أنا والورثة!
أو نسمع من الحكومة ومن سدج طيين أو متواطئين أو متورطين معها
يقولون إننا لابد وأن نرفض أى صيغة أمريكية للديمقراطية ونتصدى لأى شكل
ديمقراطى لا يتناسب مع قيمنا وثقافتنا تريد أمريكا فرضه علينا، وأنا أريد من أى
مسئول رسمى أو مثقف متحمس ممن يردد هذا الهراء أن يقول لنا مثلا واحدا
لأى إجراء ديمقراطى مطلوب منا أو مفروض علينا وتأباه وترفضه ثقافتنا العظيمة
العميقة العريقة، أكرر، أوكد، أتحدى، نريد أن نعرف ما هو هذا الشئ الديمقراطى
الفظيع الرهيب المريع الخطير الذى يريد الغرب المتوحش أن يفرضه علينا، هل
التوقف عن التزوير العلنى الفاضح فى الانتخابات؟، هل إطلاق حرية تكوين
الأحزاب وإصدار الصحف؟، هل وقف أبدية الحكم أو توريثه؟، نريد أن نعرف
بشكل واضح محدد وليس فيه تعويم ولف ودوران وكلام بلا معنى عن فرض
شكل ديمقراطى معين على مصر، (اللى هوه إيه ولا مؤاخدة؟!)، ففى العالم
الأوروبى والأمريكى الديمقراطى أكثر من شكل لنظام حكم، ملكى ورتاسى
وبرلمانى، وأشكال متعددة من نظم الانتخابات، لكن هناك ثوابت ديمقراطية من
الهند والسند وحتى بحر الظلمات، تداول السلطة وحرية إصدار الصحف
وتكوين الأحزاب ومحاسبة الحكام ومراقبة الحكم.. إيه اللى لا يعجبك فى هذا
الشكل؟

المحصلة أن مصر فقدت الدهشة أمام أسوأ جرائم يرتكبها النظام ضد إنسانية
وحقوق المصريين، لا نرد ولا نصد، وأسوأ من وقوع الظلم ألا نحس أنه وقع علينا
فعلا، لكن هذه هى مصر مبارك التى تعيش أزهى عصور الديمقراطية والأمانة
والنظافة، ديمقراطية تصنت وتعذيب العادلى وأمانة جمال مبارك ونظافة نظيف
طبعا!!

الفراعنة لا يتعلمون إلا بالغرق في النهر!

دعني ألخص لك الدروس العشرة التي أتصور أننا لا بد أن نتعلمها من انتصار حماس الساحق في الانتخابات الفلسطينية الأخيرة.

الدرس الأول: هذه ثاني انتخابات عربية تحت الاحتلال ومع ذلك تخرج أكثر شفافية واحتراما وديمقراطية من الانتخابات التي تجرّبها مصر الدولة المستقلة المستقرة، الدرس الثاني: نتيجة انتخابات فلسطين تؤكد أن بقاء سلطة مستبدة فاسدة حتى التعفن في الحكم هو أمر مرفوض شعبيا وجماهيريا تماما، وهو نفس مصير الحكم المصري الذي يغطس حتى أنفه في ذات فساد واستبداد السلطة الفلسطينية، الدرس الثالث: الناس احترمت حماس وصوتت لها لأنهم وجدوا قيادات حماس معهم في الشارع والحى، متسقين مع أنفسهم مؤمنين بما يفعلون ويفعلون ما يؤمنون، من هنا منحهم الشعب الأغلبية أمام المستبدن الفسدة، الدرس الرابع: نضوح التيار الإسلامى العربى وقبوله بالديمقراطية منهاج ونهجا فى التعامل مع السياسة، انتهت حالة التردد والتوتر بين أفكار التيار الإسلامى والديمقراطية فهناك قبول بالاحتكام إلى الانتخابات والبرلمان والديمقراطية، الدرس الخامس: إن أمريكا والغرب ممّا بدأ من تخوفها لوصول التيار الإسلامى للحكم إلا أنّها على استعداد تماما لقبول إرادة الجماهير وديمقراطية الانتخابات مادام جاء التيار الإسلامى بالانتخابات وصناديق الاقتراع، الدرس السادس: سقطت فراعة الإسلاميين التى كان يرفعها الطغاة العرب أمام الغرب، وصار رحيل الحكام المستبدن مقبولا حتى لو كان بديلهم الإسلاميون، الدرس السابع: القوى اليسارية والليبرالية التى رضيت بالانضواء تحت جناح الاستبداد والفساد وتحالفت مع رئيس أو زعيم دكتاتورى باءت بالخيبة والهزيمة الوضيعة سواء فى فلسطين أو فى

مصر في الانتخابات البرلمانية الماضية. الدرس الثامن: يمكن أن تدعم حماس الديمقراطية في مصر بأن تكف عن منح النظام المصري الفتاوى أوراقا للعب بها مع الأمريكان والأوروبيين. الدرس التاسع: نجاح حماس وما يجبره ذلك على الحكم في مصر من تعامل معها وثيق وشبه يومي يفضح حين يكشف فصام هذا النظام وازدواج شخصيته حيث يفاوض ويجالس ويحاور منظمة حماس بينما في مصر يرفض أن يحاور نفس النظام ويناقش ويفاض «ليه لأ؟» جماعة الإخوان المسلمين أما الدرس العاشر فهو الأهم: لا شيء يقف في طريق الشعوب، فالديمقراطية هي طريق الخلاص من حكام مستبدين ونظم فاسدة.

السؤال: هل ستصل هذه النتيجة بهذه الطريقة لنظام مبارك ورجاله وهل سيتعلم ابنه ورجال ابنه من هذه الدروس؟

المشكلة أن أحدا في مصر لن يتعلم شيئا من سقوط حكم وحكومة فتح في الانتخابات الفلسطينية بعد فساد وجمود وشيخوخة، فهم لم يتعلموا كذلك من سقوط حكم حزب البعث العراقي ذليلا محانا جبانا بعد استبداد ودكتاتورية، ولا من تهاوى حزبهم الوطني الساقط في الانتخابات البرلمانية الأخيرة، لا أحد في مصر سيتعلم شيئا فنحن أعصى على التعلم، نحن أوطان لا أمل أن يتعلم فيها ومنها حكمانا، قلوبهم غلف عليها أبقالها صم بكم لا يفقهون، فالمستبدون المصريون لن يتعلموا شيئا أبدا من سقوط مثل الحكم دكتاتوري عربي «بالشعب والانتخابات كما في فلسطين ولبنان أو بالاحتلال كما في العراق» فالنظام المصري الاستبدادي يظن نفسه أذكي وأبنة وأعظم وأفكه وأفقه من أى حاكم أو حكومة عربية انهزمت وانحدرت، هنا في مصر داخل دوائر الحكم والسيادة وأمانة الحزب الحاكم بالعجائز القدامى والأشبال الجدد فاكرين أنفسهم قادرين على اللعب ببضة الشعوب وحجر الأمريكان ويقدر كل واحد منهم على تلبيس طاقة هذا لذلك ويلعب الأمريكان ويصبر على بوش «السو إما يمشى أو تيجى مصيبة تأخده» كما يتلاعبون برجال المعارضة فيسجنون الزعيم الجماهيري الشاب ويجمدون الحزب التاريخي التقليدى ويؤجرون قيادات الحزب النضالى ويظن النظام المصري الحاكم أنه سيخرج من كل

هذا منتصرا مزهوا بنفسه راجبا حسان شعبه، قاهرا معارضى حكمه، ضاحكا على الأمريكان، ساخرا من دعوات الإصلاح والديمقراطية، كل طقم الاستبداد في بلدنا يرون صدام دكتاتوراً غيباً وعيباً ومعترضين على غيائه وليس على دكتاتوريته، وبشار لا يملك حكمة وذكاة كالتى نملكها في مصر، ويرون أن حركة فتح لم تلعب صح وأن أبومازن ضعيف بينما رئيسنا قوى وحكنا تليد عتيد.

إن الحكم المصرى الذى يقمع شعبه ويرتع فسادا فى بلده يعتقد رجاله من أكبر إلى أصغر رأس أنهم يستطيعون مواكبة الرياح والانعناء أمام العواصف والمهادنة مع الأمريكان وتطبيب العلاقات مع تل أبيب فيعيشون أكثر ويحكمون أطول! ويضللون الداخل والخارج مقابل البقاء فى الحكم لطلون، فلا يوجد لهذا النظام الذى يحكنا وصف دقيق وواف وشاف سوى أنه نظام كذاب، هذا النظام يكذب كما يتنفس، بل هو يكذب كلما تنفس، ليس الأمر أن النظام يعد للداخل والخارج وعودا ويخلفها ويخالفها فقط بل إنه يكذب ويتصور نفسه نظاما من الأنظمة السياسية الخضرا الشريفة!، حزب حاكم سقيم حصل فى انتخابات متلاحقين على ٣٨% من أصوات الناخبين بعد التزوير والتزيف ثم فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة على ٣٤% من أصوات الناخبين بعد تدخلات التزوير على يد بلطجية الحزب والدولة وتزيف وتضليل اللجنة الحكومية المعينة للإشراف على تزوير الانتخابات، هذا الحزب الذى يحكم مصر بدون شرعية مغتصبا السلطة هو ورجاله وحكامه والذى لا يمكن أن يبقى فى الحكم ساعة واحدة لو أجريت انتخابات نزيهة حقيقية يشرف عليها القضاء والرقابة الدولية، بل هذا الحزب الساقط تصويتيا وانتخابيا وسياسيا تتمتع زعاماته الورقية المعزولة والمنفصلة تماما عن الجماهير بأنها أكثر وجوه رسمية مكروهة جماهيريا فى مصر طولاً وعرضاً سواء الوجوه المسنة العجوز أو الوجوه المراهقة الجديدة، هذه الزعامات المتعجرفة التى تعودت السير فى مواكب الحراسة وفى طائرات خاصة وتمتلك مئات الملايين لا تملك حتى القدرة على التعلم من دروس الشعوب والاعتراف بخطأها أو فشلها بعكس وجوه حركة فتح الفلسطينية التى خرجت

تعترف بالهزيمة في انتخابات فلسطين الزهية الأخيرة التي أجريت في دولة محتلة
وتحت إشراف دولي ولم تتمحك القيادة الخاسرة ولم تثبت بالسلطة ولم تستنكف
أن تقول إنها فاشلة وفشلت، بينما لدينا حزب كذاب يخرج من أزمته بشراء نواب
مستقلين تحت الإغراء والإغواء في فضيحة سياسية تتكرر دون حياء ولا نجل
وينكر تماما أنه فاشل بل يثرثر الكشافة التي تتحكم فيه أو الشيخوخة التي تتحكمه
بأنهم حزب الأغلبية، يكذبون على الداخل والخارج حين يرددون هذا الكلام
الأهبل بأن الإصلاح الاقتصادي هو الأولوية للبلاد ويسافرون ويحضرون
مؤتمرات ويخاطبون العالم بهذا الكلام الفارغ الذي يظن كبارؤهم الذين علموهم
السحر أن تلك الحجج تنطلي على الغرب والأمريكان، يزعمون - كبرت كلمة تخرج
من أفواههم إن يقولوا إلا كذبا - أن الشعب المصرى لا يهتم سوى بالوظائف
والمرتبات ولقمة العيش ومن ثم فإن جمد الحكومة هو للإصلاح الاقتصادي،
وهذا تدليس يقوله ويدعيه ويردده ويوافق عليه كما قلت دوما المستفيدون
والمرتشون والأفاقون والمنافقون والجامدون والمستهبلون والنهايون والحكوميون
والمشتاقون أو الركع السجود للحكم والحكومة، والحقيقة المؤكدة أننا نسمع ونرى
ونقرأ ونشم ونلمس منذ عام ١٩٨٢ في مصر مثلا هذا الكلام الهرائى عن
الإصلاح الاقتصادي منذ ٢٤ عاما ولم ولن يحدث هذا الزيت الإصلاح
الاقتصادي، إن الإصلاح الاقتصادي يعنى فى الأصل والجذر قدرة الشعب
المصرى على محاسبة بل ومحكمة الأنجال وأصدقاء الأنجال الذين يحتكرون السلع
ويرفعون أسعارها لأنهم يديرون الحكم وحزب الحكومة ويقررون السياسات
ويضعون القوانين التى تحمى احتكارات وتسهل امتيازات وتثرى السادة وعيال
السادة، ما فائدة أى قرار اقتصادى للناس إذا كان الهدف منه هو إثراء شوية
رجال أعمال يعملون خدما لدى الدولة والحكم؟ دعنى أقول للجميع حقيقة واقعة لا
تقبل الشك ولا التشكيك حيث اجتمع الرئيس مبارك فى قصر الرئاسة بعد نجاحه
«المفترض» فى انتخابات الرئاسة الأخيرة بعدد من رجال الأعمال والمليارديرات
المصريين كى يشكرهم على مواقفهم العظيمة الداعمة لحملة الانتخابية وتأييدهم له

بقوة وبقدرة، وقد سمع منهم الرئيس يومها كلاما قريبا من لحم أكتافنا من خيرك يا ريس «أو من خير نظامك»، دعنا هنا من سؤال كيف دعم وأيد رجال الأعمال الرئيس في حملته الانتخابية ومن يعرف هذا وما هي حدوده وماذا أخذوا مقابل ذلك أو سيأخذون؟ دعك من كل هذا فأنت تعرف إجابته. السؤال هنا: ماذا تكشف لك هذه الواقعة سوى أن ما يسمى الإصلاح الاقتصادى أو مثل هذه القرارات التى تصدر والقوانين التى يتم تفصيلها تضى نحو هدف واحد هو خدمة متبادلة بين النظام ومليونيرات النظام الذين يعملون معه أو عنده؟ ولعل ما كشفه رجل أعمال هارب خارج مصر من أنه كان يوظف عنده عددا من أبناء المسئولين فى وظائف شبه وهمية مقابل مرتب بالآلاف يظهر عينة من التحالف بين المال والسياسة لا حس فيه ولا خبر عن رغبة أى من الطرفين خير مصر ورفاهية شعبها، وأضف إلى ذلك حجم رجال الأعمال الذين يحكمون مفاصل مصر الاقتصادية الآن ويتحكمون فى قوانينها وقراراتها الاقتصادية والاجتماعية وهذه الشراكة بين حزب ساقط وفاشل يحكم البلد عنوة وغصبا وبين رجال أعمال لا ينتمون إلا إليه ولا يشتغلون بالسياسة إلا فيه، ويكمل هذا المشهد الرديء وجود مجموعة من أبناء المسئولين الكبار يملكون شركات وأعمالا بعشرات الملايين من الجنيهات، الحقيقة أن أية محاولة لإصلاح الاقتصاد إن كانت موجودة فعلا لا يمكن أن تحقق شيئا طالما غابت الرقابة والمحاسبة والشفافية والديمقراطية فنحن لا نعرف لماذا تتبع الدولة شركات قطاع أعمال ومصانع وبنوك ناجحة وبكام ومن حدد سعرها ومن مسئول عن هذا السعر ولين باعها وبسرعة قوى كده ليه وأين تذهب أموالها وفى أى شيء تصرف وعلى أى شيء تنفق؟ وكيف تسحب الدولة أو بالأدق تسطو على معاشات وتأمينات المصريين ومن قرر هذا ومن يراقبه؟ بل ولا نعرف شيئا عن منح أوروبية وأمريكية غير منظورة ولا حكومية تقدر بمليار جنيه وأكثر تحصل عليها جهات فى الدولة دون أن تعلن ذلك أو تكشف فيما أنفقتها ولمن؟ وحياة ربنا ولا إصلاح اقتصاد العالم كله سوف يفعل معنا شيئا إلا لو كانت هناك انتخابات حرة حقيقية مش كده وكده، وقدرة على محاسبة الرئيس

ومساءلته وتحويل رئيسنا من فرعون إلى حاكم بالكثير يقعد دورتين ويمضى، ولا بد من تداول للحكم واستقلال قضائى كامل ومطلق وحرية تكوين الأحزاب، وحرية إصدار صحف، بعد هذا كله أقول وأنا مستريح الضمير: إن النظام المصرى ورجاله وأولاده لن يتعلموا من سقوط حركة فتح فى الانتخابات وانتصار حماس المدوى فهذا نظام خرب مصمم أن يقودنا للخراب السياسى!

أما الشعوب فأتمنى أن تتعلم درس الشجاعة من مشاهدة دكتاتورية فاسدة مذلولة ومرفوضة جماهيريا أو حزب عربى حاكم مهزوما ساقطا، فقد عاش الناس فى مصر وهم لا يعتقدون أبدا أن الطغاة يمكن الثورة عليهم بالديمقراطية والانتخابات، بل ويتعامل المصريون مع استمرار مبارك فى الحكم كأنه قدر منزل من السماء وأن توريث ابنه قضاء ولا راد لقضائه وأن المقاومة الوحيدة لفساد الحكم هى أن نفسد مثله، لم يعتقد المواطنون أن من حقهم وواجبهم تعرية فساد حكام مصر ووزرائها وعمالهم وملاحقة أبناءهم أو طردهم من الحكم أو إجبارهم على التنحى والاعتزال، أما المنافقون فى مصر وهم أكثر من الهم على القلب فلا يوجد راشد عاقل فيهم يدرك أن أسياده إنما هم أقزام «ساعة الحقيقة» لن ينفعونه بشيء، وأن النفاق مفسدة للأمة وللضمير وللدين، سيواصل المنافقون نفاقهم بنفس الحرارة والحماس، يتحدثون عن حكمة الحاكم وعبقريته الرئيس والسادة والساسة، ويلحسون الأحذية ويلعقون النعال ويكزنون المال ويؤجرون الضمير ويبيعون القلم والكلمة..... وسحقا «بالفصحى الأصيلة» أو طز «بالمصرية الصميمة» فى القيم والمبادئ والوطن والوطنية والديمقراطية، طز عميقة وفحيمة وعريضة وبلغية وسافرة وسافلة!!

أما المعارضون فى مصر من أحزاب الشيوخوخة أو أحزاب أمناء الشرطة ومخبرى مباحث أمن الدولة فلن يتعلموا الدرس أبدا وسيسعون طول الوقت للتحالف مع حكوماتهم وحكاهم ضد أى ضغوط أو تعرية سياسية دولية، من أجل فتات المكاسب وبقايا موائد ومآدب السلطان وسيدعون زاعمين وطنية زائفة فى الدفاع عن الطغاة والمستبدين، وسيدعمون الطغاة فى مواجهة الأوروبيين

والأمريكان، سيختارون الطغيان في مواجهة الأمريكان، رغم أن الطغاة أنفسهم إما متعاونون أو متعاملون أو معاونون أو عملاء للأمريكان أنفسهم، بدلا من أن يرفض الجميع الطغيان والأمريكان معا، إذا بهم يضعون أيديهم في أيدي الطغاة الذين كانوا يعذبون المواطنين ولا يزالون، الذين كانوا يدلون الشعب ولا يزالون، الذين كانوا يزورون انتخابات الوطن ولا يزالون!!

لا أحد سيتعلم من درس سقوط الحزب الحاكم في فلسطين.. فالنظام في مصر لم يتعلم أبدا من نكساته ولا هزائمه، الفراغنة لا يتعلمون إلا بالغرق في النهر.. هذا إن تعلموا!!

صعيدك يا مصر

أظن أننا نهمل الصعيد وننساه وننكت عليه لأن الصعيدة يملكون كبرياء لا نملكه وكرامة لا نقدرها ونخوة لم نعد نختملها ويجرى في عروقهم دم حام وقد برد دمنها وتثلج ولأن الصعيدة يتميزون بخشونة نعيبها لأننا نعمنا حتى تخنثت الضمائر، فقلنا عليهم محهم ضيق لأن ذمتنا واسعة، ووصفناهم في النكت بالغباء لأنهم لا يعرفون لوعنا ومراوغتنا ولفنا ودوراننا، لذلك حين أجرم هذا النظام اقتصاديا واجتماعيا في حق الصعيدة تواطأنا مع ظلم وجرم النظام بالصمت والرعونة والمياعة السياسية، تركنا الصعيد وحيدا ومنسيا ومحملا ومظلوما، حتى حين انفجر الصعيد في غضب الإرهاب الغليظ سكتنا على قمع الدولة الأمنى والمدوى لهذا الإرهاب بإحراق حقول القصب والاعتقال العشوائى وابتزاز المواطنين وخطف الرهائن من الناس وتطليع روح فقراء الصعيد وتشفى ظاهرة المرشدين الذين عاثوا فسادا وابتزازا، وسكتنا تماما، لم نمد يدا للصعيد ولم نسمع آذان ولم نتفتح قلوب ولم نتفهم عقول، توحشت الدولة فى الصعيد فحمدت غضبته دون أن تزول أسبابها!

ظنى أن النظام فى مصر لا يقوم بتقسيم البلد إلى شمال وجنوب أو إلى صعيد ودلتا ولا حتى مسلمين ومسيحيين، هو يبقسمها أغنياء وفقراء، ونظام مبارك وحكومته من رجال جمال الأعمال ينظر للمواطن الفقير كما ينظر للشغالة بتاعته فهى من وجهة نظره تتقاضى أجرا ممتازا ويتعاملون معها بتحضر وتصحبهم إلى المصايف والمشاتي رغم أنها لا تعمل من وجهة نظرهم بكفاءة وتترك ترابا تحت السجادة وتتكاسل عن إزالة الأتربة فوق الرسيفير، ومن ثم فالقوانين يتم تفصيلها للكبار ووضعها موضع التنفيذ لخدمة أقرب الأقربين والخلصاء والشركاء، والقرارات والصفقات وبيع القطاع العام وشركات ومصانع الدولة وبنوكها كل هذا لخدمة الغنى

الثرى ويروح فى ستين داهية الفقير الذى يجب أن يحمد الله على أنهم
مستحملين قرفه وبلاويه، الفقراء فى مصر كومبارس فى فيلم الأغنياء حيث من
المستحيل أن يظهر فيلم من غير كومبارس لكن لا يمكن كتابة سيناريو من أجل
هؤلاء الكومبارس!

لكن هل يضطهد النظام الصعايدة، هن يضطهد الأقباط؟، أبدا هو يضطهد
الفقراء سواء مسلمين أو أقباطا، بحاروة أو صعايدة، ويرفع قدر ومكان ومكانة
الأغنياء مسلمين أو أقباطا، صعايدة أو بحاروة، لكن المشكلة العميقة أن الفقراء
فى الصعيد أكثر فقرا، ومنسيون أكثر، ومحملون جدا، وبعيدون للغاية، فالصعيد
يتم إهماله وإفكاره عبر اضطهاد مزدوج، لأنه فقير من فقراء الوطن، ثم لأنه صعيد
أساسا!

المشكلة أن الصعيد ٣٠% من سكان مصر و ٧٠% من أحزان مصر!
آثار مصر فى الصعيد يزورها السياح الأجانب وآثار القهر والقمع هناك كذلك
يندد بها المراقبون الأجانب!
فى الصعيد المعابد القديمة العظيمة لملوك التاريخ والميادين الجديدة للمواطنين
العبيد العصريين!

٦٠% من أقباط مصر يعيشون فى الصعيد وتتعايش معهم الفتننة الطائفية
أيضا.

هناك النيل يجرى...والدماء كذلك.

الأديرة ذات الهيبة والرهبنة والرهبان والسلام والأمان، والسجون أيضا ذات
القسوة الأسطورية التى تضم مشتتها فيهم مضوا سنوات دون سؤال بل
ويسجون أطفالا يكبرون داخل أسوار الظلم الكريمة ومظالم دون تحقق
ومساجين دون إنسانية وزحاما وتكدسا دون التصور!
نكبات مصر فى السنوات الأخيرة تتوزع جغرافيا وسكانيا على الصعايدة
فقط، كيف؟ ثم لماذا؟ يبقى السؤال.

رأس النظام من ربع قرن هو حسنى مبارك (هل لاحظ أحد أنه سلم كأس

أفريقيا في ١٩٨٦ ثم عاد وسلمها ٢٠٠٦ في سابقة لم يفعلها رئيس في تاريخ البشرية لا ينافسها فيها سوى حسام حسن (!؟).

خدم الرئيس كقائد قاعدة في بنى سويف في منتصف الستينيات ويبدو أنه من يومها يرى الصعيد من وراء أسوار وحواجز ومن موقع الطيار الطائر، والمواطن الصعيدى الوحيد الذى نعرف أن الرئيس التقى به هو المخبر في وزارة الداخلية الذى قابله مبارك فى المنيا على أنه مواطن فى عشة صادفه (يا جمالات الصدف) فى جولاته الدعائية لانتخابات الرئاسة، غير كده، لا صعيد لدى مبارك سوى زيارته التى ينزل فيها أرض الصعيد بالهليكوبتر ليفتتح كوبرى ويعود، لم نشهده خلال ربع قرن أقام ليلتين أو ثلاثا فى مدينة بالصعيد أو حتى فى أسوان، يلتقى برجال دولة ويصحب رجال نظامه فى رحلاته المحمولة جوا إلى مدن الصعيد فلا يرى من المواطنين الصعايدة سوى الذين يلوحون ويهتفون ونصفهم مخبرون والباقي أعضاء مجالس محلية وموظفون تم جمعهم لتمثيل المشهد، ثم يذهب الصعيد إلى مبارك أرقاما وبيانات فى أوراق أو على أفواه مسئولين منتهى أملهم أن يرضى عنهم الرئيس فيرضونه بالأرقام الملعوب فيها بينا الرئيس نفسه راض جدا عن سياسته ومؤمن تماما بحكمته ولا يمكن أن يتصور لوهلة أو لحظة أنه أخطأ (لم يرد على لسانه أبدا ذكر لشيء أو قرار أو قانون أخطأ فيه) فى حق صعيد ولا بحرى بل هو فى قرارة نفسه كرئيس منذ ربع قرن يثق أن هذا الوطن لم يكن له ليحيا ولم نكن لنأكل أو نشرب أو نتنفس لو لم يكن هو رئيسنا، ومن ثم فلا الصور التى يراها مبارك ولا الأرقام التى يقولها أو تقال له معبرة عن صعيد حقيقى بل هو عالم افتراضى متخيل سياسيا يعيش فيه مسئولو النظام ورجاله لسنا فيه بصد الحقيقة بقدر ما يريد أن يتصور النظام أنه الحقيقة، ولهذا فلم يعترف مبارك أبدا وهو الرئيس المسئول (لا أقول المنتخب) بمسئولته عن قطار الصعيد ومئات الصعايدة الذين ماتوا فيه ولا كارثة غرق الباخرة والمئات الذين ماتوا فيها بل حتى لم يتضامن الرئيس بحداد عام على الموتى أو بابتعاد محسوب وحكيم عن مظاهر الفرحة والتهليل!

لا القوانين أنصفت الصعيد ولا الاقتصاد ولا الرئيس ولا المشاعر ولا العواطف.

ظل الصعيد كما كان دوما الضحية التي نحب ألا نراها والنموذج الذي نفضل أن ننكت عليه والمكان الذي نعتبره منفي للموظفين والضباط والأطباء.. يقول جمال حمدان في كتابه شخصية مصر: (الصعيد الضحية الأولى والكبرى، وبهذا التخلف - مع الموقف المتخلف - أصبح الصعيد بحق هو الإقليم الخلفى في مصر من كل معنى جغرافيا وحضاريا وماديا وبشريا، اقتصاديا واجتماعيا).

الواقع أن النظام في مصر لا يهتم لا بصعيد ولا بحرى ولا الجن الأزرق، هو نظام فاسد مستبد كل همه أن يثرى رجاله ويغتنى أفراده ويبقى على الحكم دون تهديد ولا قلق، وليس غريبا والحال هكذا أن تنمو وزارة الداخلية مثلا في عهد مبارك نموا سرطانيا يعطى صورة عن الهوس البوليسى الذى أصاب حكام البلد، وصارت مصر دولة بوليسية محكومة بهراوات الأمن وتقارير أمن الدولة وعساكر الأمن المركزى فقد زاد عدد أفراد الشرطة من ١٥٠ ألفا عام ١٩٧٤ إلى أكثر من مليون عام ٢٠٠٢ ومن ٩% من العاملين فى الدولة إلى ٢١% فى نفس الفترة، وباعتبارات التطور المستمر فى العدد نكتشف أن ربع العاملين بالدولة ضباط وعساكر ومخبرون، ألا تكون هذه دولة أمنية مرعبة ومريعة!؟

لا أتجاوز إن قلت إن زيادة عدد المخبرين والعساكر والضباط سببها فى الغالب الصعيد وأهل الصعيد!

لم يعد أحد فى مصر تخفى عليه حقيقة أن الصعيد أفقر مناطق مصر، على سبيل المثال النيل قادم من الصعيد (يا أهلا وسهلا) ومع ذلك آخر إحصائيات متاحة تحكى عن وجود أسر لا تحصل على مياه نقية بنسبة ١١% فى القاهرة و ٣٥% فى السويس و ٨٨% فى بنى سويف والفيوم والمنيا وقنا رغم أن النيل مازال يجرى هناك ولم يخلف وعده!

مثلا أكثر المناطق تخلفا اقتصاديا وتأخرا فى التنمية فى مصر حسب كتاب دكتور سامر سليمان (النظام القوى والدولة الضعيفة) هى على الترتيب: دار

السلام بسوهاج ومركز طمية بالفيوم ومدينة ناصر بنى سويف وأبنوب بأسسيوط وأبشواى بالفيوم وملوى بالمنيا وطمية بالفيوم (غير المركز) والغنايم بأسسيوط والمنشأة بسوهاج والبلينا بسوهاج، أى أن العشرة الأوائل فى التأخر والتخلف فى مصر صعايدة، أظن أن الأمر ليس فى حاجة لشرح كبير فمصر كعادتها تتحدث عن نفسها!

فى تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥ والذى صدر منذ ساعات تكتشف أنه من الطبيعى جدا أن يعانى الصعيد من الحرق والغرق فهذه نسب الفقر فى مصر تلكم أنوفنا كالفضيحة فمحافظة أسسيوط ٦١% من سكانها فقراء لكن الأفطع أن من بين هؤلاء أشد فقرا يصلون إلى نسبة ٢٤.٩%، إذا ترجمت لك هذه النسب فمعناها أن ربع سكان وأسر أسسيوط يعيشون على أقل من خمسة جنيهات فى اليوم بينما حوالى نصف أسسيوط تعيش على أقل من عشرة جنيهات فى اليوم أما سوهاج ف ٤٥.٨% من أهلها يعانون الفقر و ٤٣% من الفيوم فقراء (أعلى نسبة فقر فى بحرى فى محافظة الشرقية ٢٨% وأقل نسبة فقر هى القاهرة ٤.٣%) ومع اعتبار أن هذه هى أرقام الحكومة مش حد غريب لا أجنبى ولا هندى، ومع اعتبار أن الحكومة تكذب كما تنتفس فهى تخفف من الأرقام وتقلل من جريمتها فى حق الشعب فالمؤكد - خذها منى ثقة - أن الأرقام أكبر والفقراء أكثر (نسبة الفقراء فى مصر على كلامهم ٤٤% يعنى حوالى نصف مصر فقراء فى عصر مبارك الذى إن طال أكثر من ذلك ستصبح النسبة أنيل من ذلك!).

ألا تشعر معى بالعار؟! لم يكن آلاف الصعايدة وحدهم هم الذين يركبون قطار النار رقم ٣٨٢ المتوجه إلى الصعيد ولم يكن ألف من الموتى حرقا هم فقط موتى هذا القطار بل كنا جميعا فيه ولم يكن مئات الصعايدة والفقراء وحدهم هم الذين يركبون باخرة السلام ٩٨ التى غرقت إجراما وفسادا وإهمالا، بل نحن جميعا مواطنو الصعيد الصامت والبحرى الساكت، مواطنو الجنوب الخانع والشمال الخاضع، كنا نحن جميعا نجلس فى هذا القطار ومنتظر الحرق.. نقعد على سطح هذه الباخرة ومنتظر الغرق وقد جاء الحرق والغرق!

مصر تعاني الآن من تشوهات حريق الفساد الاقتصادى واسفكسيا الغرق
السياسى بينما القبطان يمضى فى زورقه مع بطانته يلوح لنا بالتحية!

يا خسارة على الرجالة!

حين قال الرئيس مبارك ذات مرة إنه لم يعين نائباً لرئيس الجمهورية لأنه لم يجد شخصاً مناسباً، وقال إن السادات كان محظوظاً أن وجدته بينما هو ليس محظوظاً بدليل أنه لم يقابل أحداً مثله، صمت رجال مصر عن التعليق، لم يرد أى واحد ممن يتمسحون ببلاط قصر الرئاسة، ولم يلفظ بحرف معترض أى رجل طويل عريض ممن يلوثون مصر بوجودهم، ولم يحس أى مسئول أو وزير على دمه فانتفض لرجال مصر الذين اتهمهم الرئيس مبارك بأن أيا منهم لا يصل إلى مكانته ومميزاته وصفاته، خرس الرجالة فى البلد حتى شنبات المعارضة من المسنين تحملوا الإهانة وربما لم يشعروا بها أصلاً!

وعندما يسرب مبارك عبر مندوبيه وحراس نظامه وخدم بلاط عرشه كلاماً من قبيل أنه لا يوجد بديل لمبارك كأن مصر الشاخخة السامقة عقلت أن تنجب مثل الرئيس كأنه الفرد الصمد الواحد الأحد، فهذا يعنى أنه لا يصلح أن يصير فرعوناً إلا ابن فرعون شخصياً، أظن أن مبارك فعلاً لا يرى رجالاً حوله وأمامه خصوصاً بعد سنوات طويلة من الحكم الذى بدأ أبدياً سرمدياً لا ينتهى وليس له أن ينتهى، لم ير فيه داخل الوسط السياسى رجالاً يقول له لا، ولا رجالاً ينافسه ولا رجالاً يقاومه ولا رجالاً يعارضه ولا رجالاً يهاجمه ولا رجالاً من أقصى المدينة يسعى يرفض ما يفعله مبارك ويدينه فصار مبارك مصدقاً مؤمناً أنه ولا واحد فيكى يا بلد يملأ عين رئيسها ولا يخشاه حاكمها وأنه ولا واحد فيكى يا بلد إلا ويقدر هذا النظام على أن يفعضه فى لحظة إذا فكر أو حاول أو انتوى!

لهذا يمكن أن أزعج باطمئنان شديد أن مشكلة مصر ليست مشكلة فى السياسة ولكن مشكلة فى الرجولة، نعم البلد مبقاش فيها رجالة، هل تتذكر محمد

أبوسويلم في حوارهِ الرائع في فيلم الأرض بأداء الفذ محمود المليجي، حين كان يشرح كيف قاوموا الاحتلال زمان، كيف؟ لأنهم كانوا رجالاً ووقفوا وقفة رجالاً، وبلح المليجي في الحوار (الذي كتبه الراحلان العظيمان عبدالرحمن الشرفاوي وحسن فؤاد) عشان كنا رجالاً ووقفنا وقفة رجالاً، في عصر مبارك لم نر (ربما حتى سنة مضت أو أكثر قليلاً) رجالاً ووقفوا وقفة رجالاً، بل مجموعات من الخرفان والنعاج تمشى زرافات زرافات في الساحة السياسية (حكومة ومعارضة) يتوسلون من مبارك الرضا ويتسولون من مبارك النعمة، فقد نجح عصر مبارك ونظامه في نزع الرجولة من رجال السياسة، أما من واجه من خارج الحقل السياسي فكان النظام بقمعه وفاشيته وقهره وجهاز أمنه الغاشم كفيلاً بتوجيه حملات تشويه سمعة ضده واغتيال شخصية معنوية وانتهاك خصوصية من خلال مخبري الصحافة الحكومية وأمناء الشرطة وصحفي المباحث وعملاء الأمن والمنافقين الأفاقين وبرعاية من المسؤولين الذين يوجهون الأوامر «هشك عليه» أو بتلفيق التهم لهذا الرجل أو ذاك ومطاردته في المحاكم وزجه في السجون والمعتقلات، أو بالقبض على عشرات ومئات أساتذة الجامعة والدكاترة والمهندسين من زعامات الإخوان المسلمين حيث استخدم النظام ضدّهم المحاكم العسكرية لاستنزاف قواهم وهد حيلهم وتعطيل مسيرتهم ولا يخلو سجن مبارك منذ تولى الحكم حتى الآن من سجناء ومعتقلي الإخوان، أو يلجأ النظام إلى اتهام المتمردين عليه بالجنون أو الخبل أو يرمى هذا النظام الدكتاتوري الفاسد الرجال المعارضين له بتهم العمالة للغرب والأمريكان، وهي صفاقة لا تجدها إلا في هذا العصر الذي يتميز بأن حكامه ومسئوليّه وأحفاد مسئوليه أمريكيان بالجنسية أو بالولاء السياسي والعقائدي أو بالبيزنس والمصلحة ومع ذلك فهو لا يكف عن اتهام أي معارض له بالعمالة لأمريكا على طريقة راقصات شارع محمد علي اللّي فيها تجيبه فيك!!

نجح نظام مبارك في قمع وقهر الرجال، فلم يعد على الساحة إلا أشباه الرجال الذين لا يتعب هذا النظام في التعامل معهم أبداً، فكل رجل في هذا البلد سواء

في الجامعة أو أجهزة الحكومة أو مؤسسات البحث أو هيئات الإعلام أو أحزاب المعارضة له ثمن وسعر، ويبدو أن أحدا لم يحب ظن النظام فلم يقاوم ولم يفاصل حتى في السعر إلى حد أن النظام بات على قناعة راسخة بأنه فعلا مفيش رجالة، فهؤلاء يركعون أمام الضابط ويسجدون أمام الحاكم، ومجرد أن يكلم مبارك واحدا منهم في التليفون يتحولون إلى عبيد إحسانات نظامه فورا ويشترهم الحكم بمنصب وزارى أو حكومى أو بمحاضرة شعب أو شورى أو بعمادة كلية أو بلجنة أو سفريه أو حتى علاج على نفقة الدولة (وهذا حق للمواطن كان معارضا أو منافقا) أو حتى تعيين زوجة في شركة أو تخصيص نسبة من الأسهم باسم المدام أو الأولاد في شركة أو أبناء في بنك وهناك من يشترونه بتركه يفسد وتشجيعه على الفساد والترج والعبث بالمال العام، وحين يجد الجد لا تجد رجلا واحدا يقول لا أو يعارض أو يواجه أو ينافس!

الأمر كله يشرحه تشريحا فائق الروعة جليل المعنى أستاذنا العبقري الراحل يوسف إدريس في قصة قصيرة صغيرة للمفارقة هي آخر قصة كتبها قبل وفاته، كأنها الرؤيا أو كأنها البوصلة أو كأنها الخريطة والشفرة لفهم ما جرى لهذا البلد! القصة التي تكشف كيف سقط الرجال في مصر تحمل للمفارقة أيضا عنوان «أبوالرجال» ونشرت في مجموعة قصصية لم يلتفت لها كثيرون وعنوانها للغرابة «العتب على النظر» يحكى يوسف إدريس في قصته عن رجل اسمه سلطان، أصبح سلطان زعيما ويسرد حياته التي تشبه آلاف الرجال المتعلمين والمثقفين الذين بدأوا هكذا حياتهم في مصر «قضى سنة الجامعة الأولى ومسكنه ومأواه وملاذه بيت، بالأصح عشة تقع في الطرف القصى لسور الجامعة كان يحمل مسئولية أن يتعلم وأن ينبغ وأن ينجح بحيث يحظى بالاثني عشر جنيا شهريا مكافأة الناغبين، كان يحيا منها بستة ويرسل لأهله ستة، عليهم وبعائد إخوته الأصغر من أعمال أصغر، أن يدبروا وجودهم بها». ثم يبرز سلطان «وعضوا في الاتحاد صار، وأوتادا للثقة به أخذت تندق، وخيمة هيمنتها تتسع، واسمه وجرائد حيطانه، وخطبه واعتقالاته تصبح حديث الكلية، ثم حديث الجامعة، بل وأيضا

حديث المدينة الجامعية». ها نحن أمام رحلة حياة «لا أقول كفاح» كل من يحكم الحياة المصرية غالباً منذ سنوات طويلة الذين تحولوا كما يقول يوسف إدريس في قصته من «الصبي النكرة المصفر الوجه بالأنيميا ونقص الغذاء، إلى الحاصل على درجتين، واحدة في الاقتصاد والأخرى في التاريخ، مفخرة جيله وكل ما تلاه من أجيال، بل مفخرة من مفاخر مصر ووثبتها التي نقلتها من مجرد دولة محتلة في عالم قديم قبيح إلى دولة قائدة تحرر وزعيمة شعوب ومفجرة انتفاضات وثورات». حتى أصبح سلطان سلطاناً فعلاً. «وكان أول زعيم شاب يقابله الرئيس الزعيم، ويصافحه، بل ويمنحه وساماً وتصبح له حظوة، وجاه، وصاحب مدرسة واتجاه، حوله ومعه جيش صغير تابع من النوابغ والمعجبين وتابعي التابعين». يضع إدريس مشروط الجراح على الورم الذي نشب في مجتمعنا السياسي والثقافي حين تحول الرجال من ثائرين مناضلين إلى مدلسين موالسين، من أشداء إلى مائعين، من مستقيمين إلى منحرفين، من مرفوعي الهامة إلى منبطحى الظهر بالمعنى النفسى والبيولوجى، ويمهد يوسف إدريس لهذا الانحناء والتخنت وفقدان الرجولة بفقرة في قصته يقول فيها «الرجل ليس بكثافة شاربه وشدة طغيانه ولكن الرجل رجل لأنه شهيم وكريم وشجاع ومضح ومغيث للملهوف وواقف بجوار المظلوم، مع الضعيف حتى يقوى، وضد القوى حتى يعدل ويعتدل، وتصبح قوته فى خدمة العدل والحق. والمرأة امرأة لا بحسبها ودلالها وأنوثتها وإنما بعملها الأعظم أن تكون الأم الأعظم لبشرية أرقى، فالأمومة كالرجولة ليست صفة، ولكنها قيم، درجات عليا من السلوك البشرى العاطفى والعقلى وحتى الجسدى، بها تفرد الإنسان وعلى هديها وصل إلى قمة التطور التى جعلته أسمى حى فى الوجود...» ولهذا نرى سلطان المثقف السياسى الزعيم الشاب وهو يتحول إلى كائن آخر، يحكى إدريس أن سلطان بمرور الوقت يضعف أمام المواجمات، يتراجع أمام الإغراءات، يتهاوى أمام التحديات «وجد الرجل داخله ينكمش، والخوف وإجراء الحسابات داخله يتكاثر، وطال سكوته أو طال تردده...ونحياً خرج صوته وكأنه صوته حيناً كان صبياً لم يراهق أو يخشوشن صوته، وكأنه صوت عيل أو رجل

أثر أن يكون قراره قرارا عياليا، وصوته ينطق به وكأنه صوت خنثى: أنا رأيت إننا نفوتها عليهم المرة دى ونرضخ، ونختار نحن بعد هذا الوقت المواجهة ومكانها....

وساعة طويلة ظل يتحدثهم عن أهمية الوقت المناسب والمكان المناسب واحتمال الهزيمة المؤكدة إذا لم يتم هذا بدقة. وانصرف بعضهم وهو لا يزال يتكلم، مع أن شيئا كهذا أبدا ما حدث، ولا أحد يتصور حدوثه، فالحديث تام الوضوح أنه تبرير في تبرير، وأنه في داخله خائف يرتعش، وأنه في هذه المرة ليس بسُلطان وإنما هو إلى بهلوان السلطان ومضحكه أقرب...». يواصل إدريس في قصته يحكى «زعيم صار، صاحب الرأى والكلمة المسموعة والقرار. حين جاء وقت الجد والقرار يتحداه في عقر داره وعقر مذهبه تحول إلى صعلوك من البشر، فولى الأدبار، وإن حاول أن يبدو قراره قرار حكمة وروية، وهرولته الداخلية يفعلها بتؤدة ووقار.....ولو كان قد أطلق العنان لما كان يحسبه حقيقة ويود حقيقة فعله، لوضع ثوبه فى أسنانه، وانطلق يجرى جرى الأرنب المذعور. كيف يتطى الجبل ويولد فى النهاية فأرا، أم أن الفأر فيه كان هناك طول الوقت إنما كان ينفش نفسه ويضخم صوته وغلظة جسده وحديثه ليخفى نفسه وحقيقته؟... أيام وليال وبضع سنين ظل يحلل ويفتش خبايا نفسه، ويجتث يستدرج محدثه وندمائته ليعرف لماذا فى رأيهم فعل ما فعل، لماذا خاف وارتعش وولى الأدبار، وفى معظم الأحيان كان يسكت بكل ما يملك بقوة الرغبة السؤال والإجابة عن التساؤل إذا يكاد يواجه ما يشبهه مر الحقيقة العلقم.. إنه أبدا لم يكن ذلك الجبار الذى صنعوا حوله الهالة، ولا ذلك الشجاع الذى ترتعش لمرآه النفوس، إن الخارج فقط هو ما يظهره هكذا أما الداخل فكأنه كان طول الوقت أجوف فارغاً». ثم بدأ فقدان الرجولة يتحول من فقدان فكرى وسياسى يداريه إلى فقدان بيولوجى يتمنى ألا يداريه ويخفيه، نمت داخل سلطان مشاعر شاذة تجاه الرجال فعلا «و فعلا يحس، حتى بجسده قد بدأ يتغير، حريص ألا يكشفه أمام أولاده الشباب الكبار حتى لاحظ أن شعر ساقيه وصدرة قد بدأ يقل ويمحى تماما من أجزاء، ويمحى كلما نظر إليه شاب أو أطلال النظر، أنه يرى فيه ما يخجل، فيخجل خجلا ليس

مثلما كان يخجل حينما كان السلطان ولكنه نجل الخجلان من نفسه فعلا، الخائف على نفسه من الآخرين فعلا، الموشك أن يخفى كل قطعة من لحمه أو عضلاته كأنما ستفضح خجله، أو تفضح أنه لم يعد أبداً ذلك الرجل الذى كانه. استغرب المشاعر ثم حاول أن يقاومها بالسخرية من ابن شقيق رجل اشتهر باللواط فى قرية سلطان الأصلية، استفز سلطان بكل ما فى داخله من صراع بين الرجولة والخنوثة الولد الذى قتل عمه غسلا للعار وفى لحظة مواجهة خطيرة «فجأة ألقى الولد بحزمة البرسيم جانبا، وقفز على السلطان، واضعا عليا ساقه خلف ساقيه، فتهوى السلطان على الأرض كالشجرة الفارهة، وانقض الولد عليه وهو عليه وفى يمينه (الشرشرة) التى (يحشون) بها البرسيم وفى عينيه نار من قرر أن يذبح الرجل ليقتله فورا.

اندفع أكثر من رجل ناحية الراقد والراقد فوّه فإذا بالولد يزار:

- والله اللى حىخطى ناحيتى لجازر رقبة ال.....دهه..

وتجمد الكل فى مكانه.. فالتفت إلى السلطان وطرف الشرشرة مغرور فى أمين عنقه، ما هى إلا جرة واحدة حتى يذبحه ذبح الشاة، والنار لا تزال تنلظى من عينيه وقال: مش حسيك إلا لما تقول أنا مرة، قول..

تعالّت أصوات الاحتجاجات من خلف الولد وأمامه وقد أصبح هو والسلطان وسط حلقة لا نهاية لها ولكن الولد صرخ كالوحش الجريح:

- اللى عنده كلمة يوفرها والله والله إن ما قالها، حالا لدابجه، انطق..قول أنا

مرة.

كان صعبا تماما أن يقولها أو يتلفظ بها، لكن الموت أمامه ويا روح ما بعدك روح، حاول أن يستجمع رجولته أو يزار أو حتى يسكت ولو جرت الشرشرة رقبته ولكن إرادته التى كانت قد تفتت منذ موقفه المتردد الأول، وتتابع تردداته، أبت أن تتجمع أو تقاوم أو حتى تأخذ قرارا بالمقاومة.

وأشد ما أذهله أنه لم يقلها بتسليم أو خضوع للأمر الواقع ولكنه قالها وكأنه

يتنفس الصعداء راحة: أنا مره.

وتهدجت صدور الجماعة الملتفة وكأن السماء انطبقت على الأرض أو كأن الأسد قد تحول أمام أعينهم إلى لبؤة، تهدج وأصوات همهمة قطعها الولد بجبروت المنتصر قائلاً:
- اتقوا عليكم..».

«سيد الرجال قالها وأعلن أنه امرأة، حتى ولو كان إعلانه إنفاذا للحياة، فهو إعلان قد تم وحدث، غيره يموتون فعلا من أجل مواقف أقل، غيره لا يزعمون أنهم أسياد الرجال أو أصحاب سطوة أو زعماء، أناس عاديون يقتل الواحد فيهم أو يقتل لسبب أقل، يقتل أو يقتل ولا ينطقها.

تحييه - ذلك الإنسان - كلمة، وتميته كلمة، إرادته هي الأخرى تصلبها كلمة وترخيها كلمة، ولا تتراخي الإرادة مرة، وإنما، إذا هي بدأت الطريق إلى التراخي، لا تتوقف، فكل تراخ يقود إلى تراخ أكبر».

ها هو السياسي المثقف الراجل الذي كان موضع احترام وهيبة ورهبة تحول بترده وخنوعه وخضوعه للإغراءات وضعفه أمام القوة والسلطة والنفوذ، إلى رجل يعترف بكل راحة بأنه امرأة، ليس فقط تقبل الإهانة بل تلذذ بها، بل افتخر بها، ها هم رجال الوطن الذين كانوا وقد تحولوا وتبدلوا وخانوا رجولتهم جعلوا هذا النظام يفاخر ويتفاخر بأنه مش لاقى رجالة، ها هم الذين باعوا رجولتهم ومواقفهم فجعلوا النظام يدعى أنه يعدم البديل ولا يعترضون ولا يعارضون بل هم مثل وشأن أبوالرجال بطل قصة يوسف إدريس، فلا يستحق أحدهم سوى ما فعله هذا الشاب في سلطان أبوالرجال، بعد أن انتزع اعترافه بأنه مرة، قال: اتقوا عليكم، بصق عليه.. وعليهم!

فلا سهرت أعين الرؤساء!

مصر لا ينطبق عليها سوى النظرية الاقتصادية الخطيرة كلشئكان (كل شيء إن كان) فالأوضاع السياسية والاقتصادية في بلدنا على درجة من العشوائية والخلطية والفضخينا، وإلا كيف تجد تفسيراً لأن دستورنا ينص في المادة الأولى له على أن «جمهورية مصر العربية دولة نظاماً اشتراكياً ديمقراطياً يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة». أى والله العظيم هذه هي المادة الأولى لدستور مصر أن نظامنا اشتراكياً ديمقراطياً وكما ترى حضرتك فلا هو اشتراكياً طبعاً ولا هو ديمقراطياً قطعاً، بل وفي المادة الثالثة يرزك الدستور بالمفاجأة التي تستحق جردل فيه ساعة كى تفوق بعدها حيث تنص على أن «الأساس الاقتصادى لجمهورية مصر العربية هو النظام الاشتراكى الديمقراطى القائم على الكفاية والعدل، بما يحول دون الاستغلال ويؤدى الى تقريب الفوارق بين الدخول، ويحمى الكسب المشروع، ويكفل عدالة توزيع الأعباء والتكاليف العامة» ولأنك قارئ طيب لن أسرد عليك المادة التي تنص على أنه «يسيطر الشعب على كل أدوات الإنتاج، وعلى توجيه فائضها وفقاً لخطة التنمية التي تضعها الدولة. أو مادة من نوع «الملكية الخاصة تتمثل في رأس المال غير المستغل» (خذت بالك من حكاية غير المستغل) وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية، دون انحراف أو استغلال، ولا يجوز أن تتعارض في طرق استخدامها مع الخير العام للشعب (كتر خيركم)..

ثم ووسط حالات بيع القطاع العام أحب أسمع أحلى صلاة على النبي (عليه الصلاة والسلام) عندما تقرأ هذه المادة في الدستور المصرى «مادة ٣٣: للملكية العامة حرمة، وحمايتها ودعمها واجب على كل مواطن وفقاً للقانون، باعتبارها سندا بقوة الوطن وأساساً للنظام الاشتراكى ومصدراً لرفاهية الشعب»، إذا كان

هذا دستور مصر فلا أنا ولا أنت ولا أعبرنن (الأكثر عبقرية) مفكر اقتصادى فى العالم يمكن أن يحدد لنا الصنف الاقتصادى الذى نتعاطاه فى بلدنا فلا هو اشتراكية ولا هو رأسمالية ولا تفهم رأسه من رجله، وجهه من قفاه، ومع ذلك سأعتبر بما أن رجال الأعمال هم الذين يحكمون مصر الآن وحيث أن كل المسؤولين فى حزبهم الوطنى وحكومتهم الرشيدة (التفيدة) رجال أعمال أو أصحاب شركات يبقى نظام مبارك عايزها رأسمالية واقتصاد حر، وليس محما هنا ماذا يقول الدستور فالدستور يقول اللى يقوله ويبقى يقابلنى لو حد عبره، المهم ماذا يريد الرئيس مبارك ونظامه، لكن الذى يدهش أنه حتى فى الدول الرأسمالية واللى تتبع الاقتصاد الحر لا يوجد هذا الفارق الوحشى والرهيب بين الطبقات مثل الذى نراه فى مصر فى وقتنا المبارك، أنوه فقط بأن أحدا ليس ضد الغنى بل كلنا نتمناه من الله غنى النفس وغنى المال، المهم يكون بالحلال ومن غير استغلال، فضلا عن وجود عشرات ومئات من رجال الأعمال والرأسمالية على قدر رائع من الاحترام والشرف والنبالة يجب ألا نعمم معه أبدا صورة الرأسمالى أو رجل الأعمال السلبى، لكننا هنا نتحدث عن منهج عام وعن حركة طبقة وليس مجرد أشخاص نكن لبعضهم احتراما بلا شك، المشكلة أنه قد تمكنت طبقة محدودة عددها بين ألفين وثلاثة آلاف أسرة من امتلاك مصر تقريبا، معظم الشركات، التوكيلات التجارية، المقاولات والسياحة، قطاع الاستيراد وصناعة السيارات، كما اشترت معظم ما تم بيعه من قطاع عام، وتدير استثمارات فى التعليم والصحة، هذه الأسر تتصاهر مع بعض وتزوج من بعض وتشارك مع بعض وتبيع وتشتري لبعض، وتساfer وتتنسح مع بعض، وتشتى وتصيف مع بعض، ونشأ من هنا عالم الغردقة والجونة والقرى الخاصة واليخوت والسياج الذى تلفه هذه الطبقة حول نفسها تماما كما أماكن التجمع الخامس وبيفرلى هيلز فى القاهرة الجديدة وكذلك الساحل الشمالى ومارينا تحديدا باعتبار هذه الأماكن بطاقة هوية وكارت تعريف لهذه الطبقة (هناك قطعاً فضوليون ومتسلقون وطموحون فى الدخول لعالم هؤلاء من أفراد الطبقة المتوسطة الذين يقاتلون

للانضمام للأغنياء ويتلذق البعض بأغنياء مارينا أو غيرها) هذه الأعداد من الأسر تتشكل خريبتهم من بقايا العائلات القديمة ذات جذور ما قبل يوليو ١٩٥٢ ثم من رجال دولة يوليو أنفسهم الذين استثمروا نفوذهم في التجارة وأثروا من خلال مناصبهم وتصاهروا واندمجوا مع هذه العائلات ثم مجموعات أغنياء الانفتاح الاقتصادي المبكرين وأغلبهم من الصاعدين بقوة من قاع المجتمع إلى أعلاه ومعهم رجال الأعمال الذين نشأوا في أحضان الدولة منذ الثمانينيات حيث تقاسموا مع موظفي الحكم والبنوك والمسؤولين وأولاد المسؤولين الثروة والمال المنهوب والموهوب من خزائن الدولة وفي قلب هؤلاء جميعا يتربع رجال دولة مبارك الذين لعبوا في البيزنس وشاركوا رجال الأعمال ونمت ثرواتهم بشكل جنوني مع امتداد نفوذهم وقيام أولاد المسؤولين الكبار لا نستثنى منهم أحدا باللعب مع عناصر الثراء والمال الموجودين على الساحة فكونوا الشركات وامتلكوا السوق ثم نجحوا في ركوب العمل السياسي وإدارة مشروعاتهم وهم يديرون الدولة ذات نفسها ولينتهي الأمر إلى سيطرة رأس المال على الحكم الذي إن كنت ناسي أفكر أنه كان أحد أهداف ثورة يوليو طيب الله ثراها القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم فإذا بعد ٥٤ سنة من قيامها يسيطر رأس المال بجلالة قدره ورجال أعماله وأصحاب بنوكه وشركاته على الحكم وقد يقف على قبر عبد الناصر أحدهم ذات يوم ليقول له «لقد عدنا يا أبو خالد حتى اسأل خالد» لكن مرة أخرى الذي يدهش أن هذه المرة ورأس المال يعود للسيطرة على الحكم فإنه لا يستفيد إطلاقا من خبرات وخيبات التاريخ فها هو مزاد قرية مارينا في الأسبوع الماضي يكشف لنا ما لم نكن في حاجة لنكتشفه أن هوة ساحقة ومرعبة وتفاوتا هائلا ورهيبا بين الأغنياء والفقراء في مصر قد بانت واستبان واستحكمت تماما حيث أكد تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٥ أن هناك هوة ضخمة بين الطبقات في مصر الأمر الذي أدى إلى تفاوت كبير في توزيع الدخل بين الطبقات حيث أوضح التقرير أن أغنى ٢٠% من السكان يحصلون على ٤٣.٦% من الدخل القومي بينما أفقر ٢٠% لا يتحصلون سوى على ٨.٦% من الدخل القومي وإذا بمزاد على شراء ٩ فيلات

و٦٥ شاليها في مارينا ينتهى عمليا إلى فضح هذا التفاوت الطبقي الذى يصل إلى حد العار على المجتمع المصرى، فقد دخل المزاد ٨٠٠ شخص انتهى المزاد إلى بيع الفيلا بأربعة ملايين و٨٠٠ ألف جنيه، هناك تسعة أشخاص كل منهم مواطن مصرى حى يرزق دفع كل واحد منهم من ثلاثة ونصف إلى خمسة ملايين جنيه فى فيلا لمصيف يعيش فيها أو يسكنها ثلاثة شهور فى السنة فإذا كان هؤلاء قد اشتروا فيلا المصيف بخمسة ملايين جنيه فكم ثمن فيلا الشتاء التى يعيشون فيها وإذا كانت هناك أسرة تستطيع فى مصر دفع خمسة ملايين جنيه فى مكان ليس أساسيا فى حياتها فكم تملك هذه الأسرة من أموال وملايين إذن؟! والأكثر مدعاة للسؤال من أين أتت هذه الأسرة بأموالها حتى تنفقها هكذا؟ وهل هى أموال من مصادر معلومة وشفافة؟ وهل يدفعون للدولة حقوقها؟ وقبل هذا كله من هو القادر على استفزاز شعبه ووطنه بمنتهى السفور حين يشتري فيلا مصيف بخمسة ملايين جنيه فى وطن يعانى ٤٤% منه من الفقر؟ والمزاد ذات نفسه شهد مشترين لشاليه، مجرد شاليه مصيف ١٦٥مترا، بسعر وصل ما بين مليون ومليون ونصف.

تقول إحدى الصحف اليومية فى وصف المزاد «قد بدأ بأفخر أنواع الفيلات المسمى سوسن بسعر أساسى ٧٠٠ ألف جنيه، انتهى ليصل إلى ٤.١٠٦ مليون، وتلا ذلك عرض فيلا ذات نموذج خاص بمنطقة نادى السيارات - كانت استراحة الوزارة - ورسى المزايده على من دفع ٤.٨٢٦ مليون جنيه، (سعر المتر يزيد على ١٩ ألف جنيه) وعندما دخل المزاد على النماذج الأصغر بيع نموذج الزمرده بسبعة أضعاف سعره فى زمن التخصيص، حيث كان ٥٦٤ ألف جنيه، وصلت فى المزاد إلى ٣.٥٥ مليون جنيه. وبعد انتهاء المزايده على الفيلات التسع، جاء الدور على الشاليهات، وبالطبع وصل سعر الشاليه دور أرضى مساحة ١٦٥ مترا إلى مليون ونصف المليون بالتام، وصل سعر أرخص شاليه إلى ٨٤٠ ألف جنيه». سعر أرخص شاليه بحوالى مليون جنيه، هذا بالضبط ما يشير إلى زلزال اجتماعى يمكن أن يحدث فى أى لحظة فى هذا الوطن الذى صار

وطنين، وطن يشتري فيلا في الساحل الشمالى بخمسة ملايين جنيه والشاليه بليون، وطن حجم ثروة مسئول ابن مسئول ستمائة مليون جنيه ووزراء فيه يشترون حصصا فى بنوك بمئات الملايين ورجال سياسة يعملون بالبيزنس يحتكرون صناعات بالمليارات، ووطن آخر مش لاقى ياكل، كما يؤكد تقرير التنمية البشرية وتقديرات البنك الدولى أن الأشخاص الأشد فقرا الذين يقل دخلهم اليومى عن ١ دولار (٥.٨ جنيه يوميا أى ١٧٤ جنيها شهريا) يقدر عددهم بنحو ٢.١ بليون شخص وقد ارتفع عددهم بحوالى ٢٠٥ آلاف شخص تدهورت دخولهم خلال الفترة الماضية. وبالنسبة للفقراء من يقل دخلهم اليومى عن ٢ دولار (١١.٦ جنيه يوميا أى ٣٤٨ جنيها شهريا) فيقدر عددهم بنحو ٣٥.٨ مليون شخص وأنه خلال الفترة الماضية تدهورت أوضاع ٧.٨ مليون انخفضت دخولهم الحقيقية إلى مستوى أقل من دولارين يوميا. نحن نتحدث إذن عن حوالى أربعين مليون مصرى يعانون من الفقر الشديد والأشد ثم نرى بين عشرة آلاف وعشرين ألفا يملكون المليارات والملايين من الجنيهات، ثم نلاحظ أن الأربعين مليونا الفقراء والثلاثين مليونا الآخرين من محدودى الدخل لا يملكون دخلا فى سياسة بلدهم كذلك، فالنظام يحكمه بلاط الرئيس من ابنه ورجال ابنه وساسة الحزب الأغنياء فاحشى الثروة، بينما الفقراء ومحدودو الدخل ممنوعون حتى من التصويت الحر، وهؤلاء الذين كان يقيم رجال حبيب العادلى الدشم والمتاريس والكمان حتى لا يصلوا إلى اللجان الانتخابية ويدلوا بأصواتهم فى الصندوق الانتخابى، وهؤلاء أيضا الذين باع بعضهم أصواتهم للانتخابية للأغنياء فى انتخابات مجلس الشعب، ليست المشكلة أبدا فى الفقر والغنى بل المشكلة الجذرية فى شدة الفقر وشدة الغنى، وفى هذا التفاوت المذهل والفارق المتوحش بين الفقراء والأغنياء، ثم فى مصادر ثروة هؤلاء الأغنياء هل بالحلال أم بالحرام؟ باستخدام النفوذ واستغلال الفقراء أم بالعدل والعدالة؟ ثم هل هناك عدالة اجتماعية فى الموضوع كله على بعضه؟ والعدالة الاجتماعية ليست مفهوما اشتراكيا على الإطلاق بل هى فى قلب الحديث عن أى رأسمالية، يقول الراحل العظيم

الدكتور سعيد النجار وهو مفكر ليبرالى بارز فى كتابه تجديد النظام السياسى والاقتصادى فى مصر «تقوم العدالة الاجتماعيه فى ظل الاقتصاد الحر على خمس ركائز أساسيه:

١- المساواة بين جميع الأفراد أمام القانون وحرية التعبير والعقيدة والمشاركة فى صنع القرار وتغيير الحكومة بالطرق السلميه (وهي أول ركيزة غائبة ومضروبه ستين قفا فى مصر فلا مساواة فالباشا وابن الباشا غير الناس البيئه زينا والمشاركة الوحيدة المسموح بها فى صنع القرار هي المشاركة بالتصفيق وفى مصر لا يستطيع المواطن تغيير الحكومة بالطرق السلميه ولا حتى بالطرق الصوفيه، فلا عدالة إذن ومع ذلك نكمل!).

٢- حق كل فرد فى ثمار عمله وثورته طالما كانت مكتسبه بالطرق المشروعه وبعبارة أخرى لا تستقيم العدالة مع وجود فوارق فى الدخل والثروات (وهنا أيضا تختفى ركيزة العدالة الاجتماعيه فنحن نرى الطرق غير المشروعه والدائرى والمحور ممهده ومعبدة والفوارق بين الدخل والثروات واضحه للأعمى ومع ذلك لا ينشغل أحد بها ولا يزعج فالبعض دخله ألف جنيه وثورته مليون، منين معرفش).

٣- حق الفقراء فى شبكة أمان اجتماعى (وشبكة الفقراء الوحيدة فى مصر هي شبكة الشباب والرياضة فى الإذاعة).

٤- تقدم الفرد فى الحياة لا بد أن يعتمد على جده واجتهاده وليس على الامتيازات الطبقيه أو الأسريه أو الانتعاءات أو الأصول العرقية أو الصلات بأصحاب السلطة (حلوة قوى حكاية الصلات بأصحاب السلطة آديك شايف بنفسك...!).

٥- الأهميه الخاصه لنظام الضرائب والنفقات العامه من أجل تضيق الفوارق بين الدخل والثروات (الفوارق تتسع لمرور أفيال!).

هذه هي ركائز العدالة الاجتماعيه فى الاقتصاد الحر فهل تعتقد أن شيئاً منها متوافر فى النظام الذى يحكمنا؟ وهل تعتقد أنه اقتصاد حر أم أنه اقتصاد حر.. امي؟!؟

تقول المادة (٧٣) فى الدستور المصرى: رئيس الدولة هو رئيس الجمهورية ويسهر (بالمناسبة كل الرؤساء المصريين بينما ما بدرى ومع ذلك فالدستور ينص على أنه يسهر) على تأكيد سيادة الشعب وعلى احترام الدستور وسيادة القانون وحماية الوحدة الوطنية والمكاسب الاشتراكية، آه وحياء ربنا مكتوب كده....والمكاسب الاشتراكية!!

وقد يسألنى سائل: وماذا يقصدون بتعبير مكاسب اشتراكية؟ أقول له احتمال قصدهم اشتراك الأيه آرتى!

يا عمال مصر اتحدوا.. أو.. وحدوه!

أين عمال مصر؟

عايز منهم إيه؟!

أبدا بأسأل.. هوه السؤال حُرْم؟

أين عمال مصر؟...أقولك، إنهم في مصر، لكن ليسوا عمالا، ربما عاطلون أو معاش مبكر أو مفصولون، أو منفصلون عن واقع البلد الآن.. استبدلوا شعار الاشتراكية القديم المطرقة والمنجل بالمطرقة والمندل!

العامل المصرى الذى كان يخشى منه الحكام وتهتز له أجهزة الأمن ويعمل له المجتمع ألف حساب، إذا به يستسلم فى رخاوة ورخامة مذهلة لتفتت مصانعه وشركاته وبيعها بل وبمنتهى الغرابة التى يمكن أن أقول إنها جزء من بلادة ونطاعة المجتمع بأسره، استسلم العامل لطرده هو شخصيا من العمل والرزق، فإذا بالعامل المصرى بصمته وسكوته الذى وصل إلى حد الخرس يشارك متواطئا أو متورطا فى عملية الفساد الاقتصادى والسياسى فى مصر وشوه وشوش وأهدر عمال هذه الأيام كفاح ونضال عمال مصر على مدى التاريخ، فقد تحول عامل المصنع ورئيس الوردية وفنى مكينة النسيج وأسطى الصيانة، تحول كل واحد من هؤلاء فى مصانعهم لموظف مطأطئ الرأس محنى الظهر، ثم لم يحصدوا من ذلك كله للأسف إلا الضرب على قفا الوطن والطرده من العمل على هيئة هذا الكائن السرطانى الخبيث الذى أطلقوا عليه المعاش المبكر، وهو جزء من سياسة تعطيل الرجولة فى مصر، فقد صارت البطالة التى يعانى منها جيل كامل (بين ٢٢ و٣٢ سنة) ثم البطالة المصنوعة للرجال (٤٥-٥٠ سنة) تعطيل لكل ملكات وقدرات وعطاء أى رجل، هى فى الحقيقة ضرب للرجولة وللذكورة فى مقتل،

حيث يفقد الرجل مع البطالة والعطالة جزءا من كبريائه ثم جزءا من كرامته ثم كثيرا من مكانته، فينتهى الأمر إلى تغييب دوره وانحسار وجوده فتضيع الرجولة كما ضاعت أشياء كثيرة في هذا الوطن (لا أتحدث عن الرجولة هنا بمعناها الحسى والجسدى، رغم أن تهريب طن و ٧٠٠ ألف قرص فياجرا منذ فترة يوحى بأن مصر تعطلت فعلا! وليس للأمر علاقة بقدرات جهاز تنظيم الأسرة على إقناع الناس فلعلها مقتنعة جاهز!!).

لقد بحثت عن عمال مصر في مظاهرات واحتجاجات الشعب ضد الاستبداد والدكتاتورية فلم أجد عمال مصر، اختفوا أو استخبوا أو تخبروا أو ضاعوا أو صاعوا أو باعوا، عمال مصر الذين كانوا قادة حركات الوطن العظيمة ضد كل العسف والظلم منذ سنوات الاستعمار والاحتلال إلى أيام قهر وقع المواطن وبيع الوطن، عمال مصر الذين كانوا زينة الضمير السياسى ومنار الشجاعة والجرأة والحساسة فى مواجهة الحكومات والأنظمة المستبدة والذين عانوا بالرفق والفصل والسجن وضياع الرزق وأكل العيش ومع ذلك كانت مواقفهم ناصعة وبطولاتهم رائعة ورموزهم منارات فى الحياة السياسية وفنارات فى الواقع المعتم والمظلم، كانت هناك حركات عمالية وحركة وطنية وسياسية بقيادة العمال إلى أن اختفوا منذ سنوات ولم نعد نسمع لهم حسا ولا صوتا ؛ رغم بقاء الأحوال على سوء مضاعف وتراجع محيف اقتصادى وسياسى وحرية تتآكل وديمقراطية تنهار، سبق وقلت أو كتبت هذا الكلام، وكلما كررته وأكدته طلع أصدقاء يدافعون ويفندون كلامى فأعود وأقول احتمال يا واد عندهم حق وإنه غلطان فحفف الوطأة على عمال مصر الذين تنتقدهم وتراهم قد حولوا ضمايرهم لمعاش مبكر يمكن أبكر شوية من المعاش المبكر الذى خرجوا به من المصانع والشركات فحصل بعضهم على ثلاثين ألف جنيه أو أزيد قليلا فتح بها دكانا أو جهمز بها ابنته ثم جلس عطلانا ومعتلا (تقول الدكتورة ناهد عزالدين فى رسالتها للدكتوراه عن العمال ورجال الأعمال إن هناك آلاف العمال كانوا يقفون فى طوابير لتقديم طلبات المعاش المبكر وإن ٨٠ ألفا تقدموا فى البداية وأحيل منهم ٦٠ ألفا ثم وصل الرقم إلى ١٣٠ ألف عامل

خرجوا للمعاش المبكر بعد عام واحد فقط من تطبيق قانون المعاش المبكر ووصل الآن طبقاً لأرقام حكومية إلى ٤٥٠ ألف عامل معاش مبكر مع مراعاة أن من تبقى من عمالة في القطاع العام قرابة الـ ٦٠٠ ألف عامل!

ورغم أنني أدرك تماماً أن عدداً من مصانع مصر تم بيعها وتفكيكها وكثيراً من عمال مصر معاش مبكر الآن وعلى مقاهي مصر المحروسة، إلا أن هناك مصانع لم يتم بيعها حتى الآن وأخرى يحاولون بيعها ومع ذلك لا يزال العمال بايعين القضية، أعرف تماماً أن الحكومة قد أخضت الحركة العمالية النضالية بالقهر والقمع حيناً وبالإغراء والفساد أحياناً، وموقن كذلك أن رجالات الحكومة والأجهزة سيطروا على مقاليد التمثيل العمالي وصعدت على مقاعد النقابات العمالية بعض نماذج بعيدة كلية عن تاريخ الحركة النضالية الجريء وألصق بالوجود الحكومي والسلطوي والرسمي، ووثائق كذلك من أن ظاهرة انتخابات العمال وممثليهم باتت قبة في المسخرة والكوميديا وأن الحركة العمالية أصابها إيدز السياسة المصرية وهو التعيين الحكومي الذي حول البلد كله من انتخاب لممثليها وقياداتها إلى تعيين، سواء العمداء في الجامعات أو العمدة في القرى، والنكته الرذالة والسخيفة في الخليات، وناقص يعينوا أعضاء مجلس الشعب، وهو الأقرب لما هو حادث في الحقيقة، لكن ومع ذلك وبالرغم من هذا الموت السقيم والمؤكد الذي تعيشه الحياة العمالية في مصر فقد كنت متوقفاً أن تتحرك قلوبهم وتهتز عقولهم ويستيقظ وعيهم وضميرهم السياسي (لا داعي أن أقول ضميرهم الوطني رغم أنها على لساني!!)

وينهضوا من سابع نومة ضد عمليات النهب الرهيبة والصارخة والتي لم يسبق لمصر أن شهدتها أبداً إلا في عهد مبارك الذي أخذ ابنه على عاتقه مهمة تفكيك المصانع وبيع الشركات بأبخس الأثمان وبأسوأ السبل وبأفصح الأشكال (تقول الدكتورة ناهد عز الدين في كتابها «العمال ورجال الأعمال» إن المتتبع للاحتجاجات التي انخرط فيها العمال منذ مطلع التسعينيات يسهل عليه ملاحظة أن القرارات والتصرفات التي صدرت عن مديري مشروعات القطاع العام والمملوكة للدولة كانت بمثابة المحدد لتفجير مشاعر السخط لدى العمال، ولذا لم

يوجه العمال أيا من أعمال الاحتجاج ضد الدولة، وهو ما يعود إلى كونهم ظلوا معنيين بالأساس بالقضايا الفئوية والمادية، حيث دارت أغلب مطالبهم حول الأجور والحوافز والمكافآت، وهى مجالات يخضع التحكم فيها فقط وبشكل مباشر للمديرين). وتضيف الدكتور ناهد فى رصدها «حالات الاحتجاج كانت بمثابة الاستثناءات التى تثبت القاعدة (والقاعدة هنا هى الاستسلام)، فرغم تزايد عدد الاحتجاجات ومعدلات حدوثها، فإنها ظلت محدودة فى مدتها ونطاقها ولم تتجاوز حدود المؤسسة أو الشركة الواحدة»، أى أن العمال حتى عندما احتجوا كان احتجاجهم احتجاجا داخليا قصيرا سريعا على قرارات وليس رفضا وغضبا واحتجاجا على منهج البيع، ثم بفرض احتجاج البعض على البيع كان يحتج وحده فى شركته فلم تعد هناك حركة عمالية وتيار عمالى واسع وشامل، ثم من ناحية أخرى لم تشارك جموع العمال منفردة أو منضمة لآخرين فى أى مطالب سياسية وطنية خاصة بالإصلاح أو المساءلة أو المحاسبة للرئيس ورجاله وقيادات حكمه الذين تورطوا فى الفساد والاستبداد فلم نشهد فى حركة كفاية عمالا ولم نر فى قيادات الأحزاب عمالا ولا فى القوى المطالبة بالتغيير عمالا، ولا أيضا فى حركة الإخوان المسلمين ولا فى المظاهرات ولا فى أى حثة، لم نشهد إلا السيد راشد وهو يجلس فى مدح السيد الرئيس وكذلك هؤلاء العمال المناهقين الذين يهللون لمبارك كل عيد عمال وكأنه كارل ماركس نصير العمال!

أصبنا بخيبة أمل رابكة جمل فى موقف عمال مصر الذين أثبتت حركتهم أنها مشلولة وأبان ضميرهم السياسى للعيان أنه نائم أو ميت وحاشا لله أن نقول، كما يغرينا الوسواس، أن نقول إن ضميرهم متباع كما بيعت مصانعهم وشركاتهم!
قلت وأقول وعلى رأى عادل إمام وما أكثر من قول قيل أو لم يقال، إننا كنا دائما قلة منحرفة مندسة نسعد بمشاركة عمال مصر فى قلتنا المنحرفة المندسة فى المظاهرات والاحتجاجات وصرخات الضمير، لكن يبدو أنه كانت من ضمن بنود مواد عقود بيع مصانع القطاع العام فقرة تنص على بيع الضمير السياسى أو على الأقل تسريحه أو إحالته على المعاش المبكر، ومن تبقى من عمالنا لم يعودوا كما

كانوا، كما أن قادتهم صاروا بكوات وباشوات وبتنوع حكومات ونسوا البداية
الزرقاء والأسطى حسن، وياعمال العالم اتنيلوا اتحدوا، وهكذا خرج ضمير العمال
ولم يعد، ولم تحركه مذابح الحكومة ضد ثروة البلد ولم يحسوا على دمهم حتى بعدما
خرج أولادهم وأحفادهم فى مظاهرات واحتجاجات ولم يرقوا إلى شجاعة ووعى
وبراءة عيالهم!!

اسألوا الرئيس!

قبل أن تحققوا مع ممدوح إسماعيل كيف أغرق المصريين في عباراته الفاسدة، اسألوا حسنى مبارك رئيسكم ورئيسه، كيف تركت هذا الرجل يمتلك العبارات والبواخر المهالكة وكيف تركته يغرق الفقراء والغلابة والطيبين الذين تصوروا أنك رئيسهم فتحميمهم من الفساد والإفساد، كيف تركته يحتكر كل هذه السنوات الملاحه في البحر ويمنع أى منافس؟ كيف تركته يشارك كبارا في دولتك ورئاستك؟ كيف عينته أمينا لحزبك الحاكم المتحكم في دائرتك الانتخابية؟ وكيف منحته الحصانة في مجلس الشورى الذى تعين بإمضائك نصف أعضائه؟ وأين كان سيادتكم وهو يسافر هاربا خارج مصر؟ ألم تسأل عنه، ألم تقل لرجالك وحراس نظامك قولوا لممدوح ما يسافرش اليومين دول؟ كيف سافر هاربا من تطلبه مصر كلها للتحقيق؟ كيف يأمن الفاسدون كل هذه السنين في هذا الوطن؟ لا تحققوا إذن مع ممدوح إسماعيل فقط.

وقبل أن تحققوا مع إبراهيم نافع عن ثروة كونها وخسائر مذهلة صنعها وديون متلثلة حققها في مؤسسة الأهرام وصفقات وشركات وشركاء وحسابات جارية، اسألوا حسنى مبارك رئيسكم ورئيسه، كيف وضعته في رئاسة الأهرام أربعة وعشرين عاما لم تمسه أو تلمسه؟ كيف أبقيت عليه قرابة ربع قرن ولم تراقب ما يفعله أو تعرف ما يصنعه؟ هل غابت أجمرتك؟ وهل لا يقدر رئيس الجمهورية الذى يعين رئيس جريدة لمدة قرابة ربع قرن على معرفة ممارساته وأفعاله أم ترى اكتشفت كل هذا فجأة؟ أين كانت التقارير وأين كانت الملفات وأين كانت الرقابة والمحاسبات؟ أنت وحدك الذى كنت تعينه وتبقيه على عرش المؤسسة وتجدد له فى بقاءه على المقعد بل وجعلته بقرارك أنت وحدك لا أحد غيرك يتجاوز كل

القواعد القانونية في الاستمرار على الكرسي بعد سن المعاش وكت وحدك يا سيدي الرئيس الذي يمد له في خدمته وتولييه رعايتك وتزوره في مؤسسته.. ألسنت أنت يا سيدي الرئيس الذي عينته بتوقيعك الكريم في مجلس الشورى ومنحته الحصانة؟ ألم يصل لمسمع سيادتكم خبر عن ثروته وأمواله وممارساته؟ أليس سيادتكم الذي كان يشيد به في الطائفة أثناء اجتماعك المعتاد مع رؤساء صحفك الذين منحتم مناصبهم ورضاك ربع قرن من الزمان فتأتى الآن أجهزة حكمتك لتقعنا أنها وأنت عرفت هذه المعلومات متأخرا، متأخرا جدا.....؟ أليس سيادتكم الذي كان يقرأ مقالاته الذي كان يدبجها حبا فيك (لا تقول لا سمح الله نفاقا لك) وكت تدلى له بحوارات خاصة وظل يسافر في كل رحلاتك (وهي كثيرة) إلى كل أنحاء المعمورة؟ هل من المعقول أن رئيسا يظل أربعاً وعشرين سنة لا يعرف أن موظفا لديه (موظفا أثرا عنده) على هذا النحو من الممارسات؟!!

لا تحققوا إذن مع إبراهيم نافع فقط!
لا تحققوا مع وزير الإسكان السابق محمد إبراهيم سليمان، بل اسألوا الرئيس مبارك من الذي عين سليمان هذا ومن أبقاه رغم كل النقد ومن أصر عليه رغم كل الحقائق ومن أجلسه على مقعده غضبا عن الرأي العام؟
لا تحققوا مع عبدالرحمن حافظ، بل اسألوا الرئيس حسنى مبارك.. ألم يصلك خبر عن ممارسات الرجل، عن ثروته، عن قراراته، عن صفقاته، عن علاقاته، عن وزرائه؟

لا تحققوا مع إيهاب طلعت عن ديونه للتلفزيون وللمؤسسات الإعلامية، بل اسألوا الرئيس مبارك الذي كانت تحتفى بطلعت كل أجهزته وكان إيهاب طلعت يتعامل ويتعاون مع كل رجاله وأدار حملة الرئيس الإعلانية في الانتخابات الوهمية التي جرت العام قبل الماضى.

لا تحققوا إذن معهم فقط!
لا تحققوا مع وزير الداخلية عن التعذيب في الأقسام والسجون وعن قتلى

الانتخابات والمظاهرات، ولا تحققوا معه عن آلاف المعتقلين عشوائيا في المعتقلات، ولا تحققوا مع وزير الداخلية عن التنصت والتجسس على تليفونات المعارضين والمثقفين ورموز التيارات الوطنية، ولا تحققوا معه عن انتهاك خصوصية المعارضين وملاحقتهم وضريرهم والاعتداء عليهم، بل اسألوا الرئيس حسنى مبارك، فهو من عين وزير الداخلية وقربه وأبقاه وآثره وضمه إلى خاصته وأعلن رضاه عنه في كل حوار ومقام.

لا تحققوا مع الذين نهبوا وينهبون مصانع وشركات القطاع العام وبددوا ثروة الأمة واختلسوا وسمسروا وسرقوا، لا تحققوا مع الذين اقترضوا المليارات وهربوا، بل اسألوا الرئيس حسنى مبارك فكل مسئولى الفساد كانوا من اختياره وكل مسئولى الفساد من مرؤوسيه وكل مسئولى الفساد من حزبه الحاكم وكل رجل أعمال اقترض وهرب يملك صورا مع الرئيس فى مصانعه أو معارضه. لا تحققوا إذن مع كل هؤلاء فقط!

أليس كل ما يجرى فى بلدنا بناء على تعليمات الرئيس وطبقا لتوجيهاته؟ لكن المؤسف أنه لا يوجد أى نص ولا أى مادة فى الدستور المصرى الدائم (رغم أنه لا دائم إلا وجه الله) يبين لنا من فى هذا البلد من حقه أن يسأل الرئيس! لقد اقتصر الدستور على نص بمحاكمة الرئيس، ولكن فى ظروف شبه مستحيلة وعن طريق شبه مبعوس منه، تقول المادة ٨٥ من الدستور (يكون اتهام رئيس الجمهورية بالخيانة العظمى أو بارتكاب جريمة جنائية بناء على اقتراح مقدم من ثلث أعضاء مجلس الشعب على الأقل، ولا يصدر قرار الاتهام إلا بأغلبية ثلثى أعضاء المجلس ويوقف رئيس الجمهورية عن عمله بمجرد صدور قرار الاتهام، ويتولى نائب رئيس الجمهورية الرئاسة مؤقتا لحين الفصل فى الاتهام. وتكون محاكمة رئيس الجمهورية أمام محكمة خاصة ينظم القانون تشكيلها وإجراءات المحاكمة أمامها ويحدد العقاب، وإذا حكم بإدانته أعفى من منصبه مع عدم الإخلال بالعقوبات الأخرى).. هذه هى المادة الوحيدة التى تتضمن شيئا عن محاسبة الرئيس وتشتمل على نقطة مهمة وهى أن ثلث أعضاء مجلس الشعب يملكون

اقتراح محاكمة الرئيس أو بمعنى أدق اتهامه بارتكاب جنائية ولا أعرف كيف سيعرف هؤلاء مثلا أن الرئيس ارتكب جنائية، نحن نحتاج أن نحاسبه في السياسة ونسائله في قراراته وليس عن طريق البحث الجنائي، لكن هل تعد أمور السياسة جرائم جنائية مثلا؟، ثم نجد هذا الشرط الواضح لضرورة توافر ثلث الأعضاء لإمكانية طرح هذا الاتهام والذي يكشف المحاولات المستميتة التي تقوم بها حكومات مصر وحكامها منذ العمل بهذا الدستور لتزوير الانتخابات والتحكم في عدد أعضاء المعارضة بحيث لا يمكن أن يصل عددهم لثلث عدد أعضاء المجلس (١٥٢ عضوا) كما أن هناك قتالا حكوميا شرسا مثلنا رأينا في الانتخابات البرلمانية الأخيرة لمنع أى تيار سياسى من الوصول إلى أكثر من ثلث مجلس الشعب بما يهدد أغلبية الحزب الحاكم التي تسمح له بأن يعطل أى إجراء مثل إمكانية اتهام الرئيس ومحامته، هذا فضلا عن قدرة أغلبية هذا المجلس على منح الرئيس تفويضا على بياض مذهل لعقد صفقات لا يعلم عنها أحد شيئا سوى الرئيس ومن وقع معه العقد من الجهات الخارجية! ثم إنه في المحصلة لم يصدر قانون أبدا لتحديد شكل محكمة الرئيس التي يفترضها الدستور، المهم أن هذا لا يشغلنا هنا بقدر ما يشغلنا حق الشعب فى مساءلة الرئيس ومحاسبته سياسيا، نحن نتحدث عن السياسة، عن القرارات السياسية، وعواقبها (الوخيمة)، نحن لا نتحدث عن مستحيل بل نتحدث عن واقع وهو أن الرئيس (أى رئيس) لا بد أن يكون مسئولا أمام شعبه وأمام جهات تمثل شعبه وتحاسبه من خلالها على الإجراءات والقرارات والاختيارات التي يتخذها خصوصا مع هول صلاحيات الرئيس المطلقة التي ينص عليها الدستور والتي تصنع من أى رئيس فرعوننا وإلهنا، لا بد أن نجد أحدا قادرا على أن يقول للرئيس: قف لقد أخطأت، أو هيا بنا نحاسب، ونحن لا نطلب الكثير بل هو أول ما نص عليه أول حاكم فى الإسلام حين قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «راعوني بأبصاركم، فإن استقمتم فأعينوني، وإن زغت فقوموني، وإن أطعت الله فأطيعوني، وإن عصيت الله فاعصوني»، هذا هو ميثاق أبو بكر الصديق، وبيانه إلى الأمة، هل هناك أكثر من ذلك احتراما لإرادة

الناس، حريتهم، وحقهم في سؤال الحاكم ومساءلته؟ عندما بويج أبو بكر الصديق للخلافة أعلق بابه ثلاثة أيام، وكان يخرج إليهم في كل يوم فيقول: «أيها الناس لقد رددت بيعتكم، فبايعوا من أحببتكم»، لا نريد حقا في مساءلة الحاكم ومحاسبته أكثر مما قاله بشير بن سعد لعمر بن الخطاب: «لو وجدنا منك ميلا قومناك تقويم السهم»، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «الحمد لله الذى جعلنى فى قوم إذا ملت عدلونى وقومونى».

نحن نريد حقا في سؤال الرئيس مثل كل الدول المتقدمة المحترمة كما يحدث كل يوم في فرنسا وأمريكا وألمانيا وغيرها، الذين لا يقصدون رئيسهم وحاكمهم ولا يعبدونه من دون الله، الذين لا يصنعون تماثيل لرئيسهم ولا يحتفلون بعيد ميلاده وعيد توليه العرش ولا يعاملون أولاده كأنهم ولاة عهد وأمراء قصر، والذين لا يضعون صور الرئيس في ملاعب الكرة وصلات الرياضة وملصقات الشوارع والميادين، نحن نريد حقا في سؤال الرئيس عن كل هؤلاء الفسدة وكل هذا الفساد الذى صال وجال وكبر وانتفخ وتمدد وبدد وزاد وغطى في عهده، أين كان وأين كانت عينه الساهرة على مصالح الشعب وأين كان قسمه على رعاية مصالح الجماهير، وأين كانت رقابته وأجهزته ومدى مسؤوليته عن كل ما يجري؟ ومن الذى تورط وتواطأ، ومن الذى صمت وشارك؟..

إذا أخطأ الرئيس يا جماعة (والخبر المهم هنا أن الرئيس بشر وليس ملاكا أو نبيا، والخبر الأهم هنا أن البشر يخطئ)، فمن إذن من حقه أن يسأل الرئيس؟ ومن الذى يمكنه أن يسأل الرئيس؟ ثم في النهاية من هو الذى يملك أن يحاسب الرئيس؟..

من يملك أن يسأل الرئيس ويحاسبه على الذى حدث ويحدث من قرارات وقوانين واختيار مسئولين والإبقاء على فسدة وفسلة؟! في مصر الجميع يتعامل مع الرئيس كأنه منزه منزل مقدس مؤله فوق المناقشة والنقد والحساب ويطالبه الجميع بالتدخل والتصرف في فساد فاسد أو انحراف منحرف أو قانون مشبوه وكان الرئيس لا دخل له بأى شيء سيئ أو سلبي أو كارثي مما جرى، برئ تماما والكل

متهم، إذا أصابتنا حسنة قالوا من عند الرئيس وإذا أصابتنا سيئة قالوا من عند
أى حد غير الرئيس، إذن طبقا للوضع الحالى فإن الوحيد القادر على أن يسأل
الرئيس ويحاسبه هو الله سبحانه وتعالى!
لا أحد منا ولا فينا!

لا مجلس الشعب ولا مجلس الشورى ولا كائن ولا مخلوق بل الخالق الواحد
الأحد هو الذى يمكن أن يسأل الرئيس ويسأله ويحاسبه والخبر الجيد هنا أن الله
عادل والخبر السيئ أننا لن نعرف نتيجة المحاسبة حيث يفر المرء يومها من أبيه
وأمه وأخيه فلن نجد وقتنا للانتباه ومعرفة النتيجة ثم إنها لن تهمنا ساعتها!

فأغرقتناه ومن معه.... جميعا!

همس في أذنى:

- هل تعرف أنه مريض بالسرطان؟

شعرت ساعتها بالذهول:

- وحياة ربنا، بتتكلم جد؟!

قال حاسما:

- بالسرطان.

رديت بقوة.

- مستحيل!

استغرب جدا من كلمتي ما هو المستحيل في أن يصاب شخص بالسرطان؟ لم يكن هذا ما أفكر فيه، كنت أفكر في شئ واحد طغى على كل خلايا مخي، كيف يكون مصابا بالسرطان وهو يعرف حقيقة مرضه بل ويتلقى علاجا كياويا ثم لا يعمل لآخرته بل ويبدو منشبثا بمنصبه ونفوذه لهذا الحد، إنه مسئول مهم في الدولة، مهم لدرجة أنه يملك إيدانة وفضح فساد وكشف عورات النظام وجرائمه، مهم لدرجة أن أحدا لا يستطيع أن يزيجه عن مقعده، ومع ذلك فهو لا يكف عن خدمة السلطة والسلطان، لا يتورع عن مساندة الاستبداد والفساد، لا يتردد في ممالأة الحكم والحاكم، لا يتهيب العصف والعسف مع المعارضين، يصدم الناس بحماية من يطلب الشعب معاقبتهم، يروع الرأي العام بستر ما يسعى الشعب لكشفه وتعريته، فإذا كان هذا كله وهو الرجل المريض شافاه الله وعافاه، وإذا كان هذا كله والرجل لا ينتظر من عمره إلا ما وهبه الله عز وجل من منحة قصرت وإن طال، فما السر؟

ما السر أنه لا يدرك أو ينتبه أو يفكر في أنه سيلقى وجه رب عادل منتقم جبار يسأله عن قراراته ومواقفه وأوامره؟

ألا يغزو في جلسة الكيماوى فيتخيل نفسه يمشى على الصراط وحيدا لا يجد رئيسا يسأله ولا رئيس وزراء يساعده ولا أمين لجنة سياسات يدعمه ولا صحافة تحشاه ولا برلمان يتواطأ معه... لا شئ ولا أحد، فقط رب منتقم جبار؟ فلماذا لا يعمل حسابا لهذا اليوم وكلنا نعلم أن المبتلى والممتحن بمرض السرطان يكون أكثر لجوءا لله سبحانه وتعالى وتقربا من الله عز وجل فإذا بهذا المسئول يكاد يتقرب للرئيس وليس لله، للوالى وليس للمولى!؟

وهناك مسئول آخر لعله عطل ضمير مصر المستقل عن العمل طيلة عشرين عاما، كان نائما على فراش المرض بين الحياة والموت في غرفة العناية المركزة يعانى من خرطوم التنفس الصناعى في فمه وأسلاك مغروزة في ذراعيه وعيون أهله معلقة على الخط الأخضر في جهاز قياس النبض منتظرين في رجفة ورعشة استقامة الخط عن التعرج وضياح النبض وطلوع الروح وشفاه الله بعنايته الإلهية فخرج المسئول بعد ثمانى وأربعين ساعة فقط من باب غرفة الإنعاش حتى مقاعد البرلمان ليروح بيديه المرتجفتين وبشحوب وجهه المريض مدافعا عن تمرير قانون مشبوهِ ويلهج بشكر الرئيس الذى رد للبلد روحه بينما نسى الله الذى رد روحه إلى قلبه. ثم مسئول آخر أجرى عملية قلب حرجة ودقيقة حيث دخلت أصابع الجراح إلى شرايين قلبه الذى توقف عن النبض وغامت روحه بين يدي الله ثم نجحت العملية وخرج صاحب القلب المشقوق ليتخذ قرارات ويمرر قوانين ويشارك في فساد ويكتب نفاقا، وهناك من أوشك على الثاين من عمره ومع ذلك يتشبث بالسلطة لا يريد أن يرحل عنها أو يتزحزح منها كأنه كل هذا العمر لم يشبع من النفوذ والفلوس!

ما السر؟

لماذا نجد في مصر مسئولين وموظفين دولة خلت مواقفهم من الذكورة والرجولة، يتشبثون بمقاعدهم ويلحسون أحذية الحاكم وينافسون محجوب عبدالدايم

لا يتورعون عن تسليم سعاد حسنى لأحمد مظهر ولا يتعظون من مرض ولا اعتلال صحة؟ لماذا لا نرى رجالا تستقيل وعواجز في السلطة (وفى الأحزاب) تعتزل أبدا، ولا مسئولين ينتقدون حكما أو قرارا؟!، لماذا نرى المسئول من أول المحافظ لغاية رئيس الوزراء مسحوبة شخصيته، مكسور ظهره، وعينه ملزوقة على كرسيه لا يتحدث إلا نقاقا للسيد الرئيس ولا يقول إلا مدحا للسيد الرئيس ويصلى في اتجاه القبلة ويركع في اتجاه كوبرى القبة؟!، تعال نحاول تفسير الأمر، إننا فى مجتمع غير ديمقراطى يقوم على عبادة السيد الرئيس وتقديسه ومن ثم لا مكان فى الدولة وعلى مقاعد السلطة إلا بالنفاق ومزيد من النفاق ووجود هذا الشخص على هذا الكرسي يأتى نتيجة ولاءه للرئيس ومسح بلاط النظام و وجوده فى السلطة ليس بسبب الكفاءة والموهبة والمقدرة وليس بسبب الولاء للشعب ولا للوطن بل لأنه خادم للنظام، فهذا الوزير يعلم يقينا أنه ليس سياسيا بل مجرد موظف وأنه موجود على هذا الكرسي لأن الرئيس عايزه أو لأن ابن الرئيس يحبه إذن.. ولاؤه لحسنى مبارك وولده ويتحرق أم الى خلفوا الشعب ولا نفرق نحن معه ببصلة، طيب إذا كان هذا سبب نفاقه لبقائه وسبب تحول مسئولين كثيرين للمالك وخصيان قصر، فلماذا يتشبثون بمقاعدهم حتى الموت؟

من الطبيعى جدا أن معظم هؤلاء المسئولين دخلوا دائرة السلطة بالولاء والثقة وليس بالكفاءة والاستحقاق الشعبى فاندمجوا مع الوسط الفاسد وفسدوا مثله أو انعاصوا بالفساد بحيث من المستحيل أن تجد وزيرا لا تضبط له مخالفات مالية ومعاملات مشبوهة وتجاوزات إدارية وتورطات مع شركات ورجال أعمال، فإذا خرج من السلطة يصبح معرضا فى كل لحظة لأن يتم التضحية به ككبش فداء وملفاته أكثر من المهم على القلب وبإشارة من إصبع أصغر عضو فى شلة أمانة السياسات يمكن لهذا المسئول أو الوزير أن يقضى بقية حياته (وبالقانون) فى السجن، لهذا فإن المسئول إما أن يحاول البقاء بكافة السبل حتى لو اقتضى الأمر أن يعمل عجيب الفلاحة أو يقبل الخداء كى يبقى فى مقعده حتى يموت، أو أن هذا المسئول عندما يخرج من منصبه يظل خداما فى القصر منحيا ومحنيا ويبالغ فى

ثقاقه وتذللّه حتى يبقى في كنف السادة يأمن شر الفضيحة والتجريس والسجن، بات إذن من الصعب أن تجد من يعاف المنصب أو يتعفف عن البقاء في الكرسي أو يسترجل فيستقيل أو يغسل ضميره ويتطهر ويعترف بوجود فساد أو يقلب ويعارض ويواجه الاستبداد أو ينتقم من السلطة التي هجرته وطردته فيفضحها وينشر أسرارها، أبدا لن تجد مسئولا واحدا لا على هذا النحو ولا ذاك بل على العكس ترى أذلاء مذلولين لو أمرهم سيدهم السامري أن يعبدوا عجلا له خوار لفعلوا وعبدوا، أضف إلى هذا أن معظم (ومعظم هنا للتخفيف والأدق أنه كل وليس معظم) المسئولين في كافة المجالات الحكومية وتلك المناصب التي تسمح لصاحبها بقاء الرئيس مباشرة يتم اختيارهم عبر تقارير أجهزة الأمن ليس للتأكد من نظافة أصحابها بل العكس للتأكد من أنهم تحت السيطرة وبالتعبير السياسي المعتمد «مجرحين» فالذي يصل لمقعده يجب أن يضمنوا ولاءه وهو غالبا مجند من أجهزة الأمن منذ نعومة أظافره (حوافره السياسية!) ويتم جلب معظم المسئولين من دوائر الجامعة أو الإعلام أو الحزب أو أجهزة الدولة وهؤلاء كانوا إما طلاب مباحث يكتبون تقارير أمنية عن زملائهم أو مدرسين بالجامعة مجندين في هيئة التدريس ضد زملائهم أو مخبرين على رفاقهم في أى مجال عمل، أو أصحاب صلات قديمة مباشرة بأمن الدولة، ولعلنا على يقين أن أيا من مسئولى مصر الحاليين لم يكن يشتغل بالسياسة في الجامعة أو غيرها على الإطلاق وإن كانوا جميعا على علاقة وطيدة بالأجهزة الأمنية كل في حقل عمله، وكل في صعوده الوظيفي، إذن يكون الاختيار محصورا في رجال الأمن والمخبرين من ناحية أو من المجرحين بالفساد من ناحية أخرى فهذا ممسوك عليه قضية رشوة وذلك تهرب ضريبي وهذا مذلول بقضية تحرش وآخر كان قمرنى أو ابنه مدمن، كل هذا ضمن الشروط الأساسية لاختيار العناصر التي تشارك في إدارة البلد ومن ثم لا تنتظر من أى واحد فيهم بطولة أو رجولة أو تمردا أو تمنا أو ترفعا أو تراجعاً!

ستقول لى معقولة كلهم هكذا، أقول لك هل لديك تفسير آخر لهذا التهافت على البقاء فى المناصب والذل أمام السلطة، والتذلل للرئيس وابنه والتواطؤ فى

الاستبداد والفساد، نعم كلهم هكذا والاستثناء صعب للغاية (لم أقل مستحيلا). هذا هو المنهج الذى يلد لنا النخبة الحاكمة فى مصر وبالمناسبة هذا الكلام ينطبق باللفظ والحرف على زعامات أحزاب أمناء الشرطة التى تسمح بها الدولة (عبر القضاء أو لجنة الأحزاب) وكذلك على بعض القيادات فى الأحزاب التقليدية (المصابة هى الأخرى بداء الشيخوخة)، ماذا يعنى ذلك؟، يعنى ببساطة أنه لا أمل على الإطلاق فى الطبقة الحاكمة ولن نحصل من أى شخص فى حزب مبارك أو ابنه على أى إصلاح من أى نوع بل تفصيل لقوانين وضعية السمعة (القوانين سيئة السمعة كانت أرحم) ومحاولة تنفيذ لسيناريو التوريث الفاسد السقيم ومزيد من الاستبداد والفساد فهى طبقة كلها من بعض، تحكمها قوانين شبكات الجريمة السياسية المنظمة، لا مراهنة ولا رهان على هذه المجموعة كلها فهى فضلا عن كونها فاقدة للشرعية حيث اغتصبت السلطة بتزوير الانتخابات وتزييف إرادة المواطنين فهى كذلك أشبه بطبقة الإقطاع منزوعة الصلة عن وجدان ومصالح فقراء الشعب، مجموعة من المليارديرات يقودهم المليونير جمال مبارك (إذا لم تكن شركته برأس مال ستائة مليون جنيه كما قال هو بنفسه وعظمة لسانه لصحيفة أجنبية ولم يكذبها بعدها فما هى حقيقة ثروته وحجمها؟.. إذا كان شفافا بجد فليقل لنا من يملك الطائرة الخاصة التى ينتقل بها؟ هل هى ملكه (بكم ومنين؟) أم مأجرها (من مين، وبكم؟)، أو هدية (من مين وليه؟) أم من ممتلكات الدولة وهو يستخدمها (إزاي؟)».

لا تغيير ولا تقدم ولا تطور إلا بإزاحة هذه الطبقة الحاكمة كاملة، فلا فرق بين فرعون وقومه، بين فرعون وآله، بين فرعون ومن معه، إن الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات أخبرنا أنه لا خلاص لهذا البلد تحديدا سوى بالتخلص من فرعون والذين معه، قال تعالى فى سورة الإسراء آية ١٠٣ (فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا) لم يستثن الله أحدا من معه، ولم يكتف بإغراق فرعون فقط، بل إن الذين معه لا يقلون خطرا عنه ويستحقون غرقا معه... فأعرقناه ومن معه... جميعا، واخذ بالك، جميعا!.

رئيس الطوارئ

تفتكر لما الرئيس الراحل أنور السادات قرر يقبض على جميع المعارضين له ويزج بالآلاف من معارضيه ومنتقفي وسياسى مصر وشيوخها وقساوسها فى المعتقلات فى سبتمبر ١٩٨١، تفتكر هل قال له نائبه حسنى مبارك وقتها كلمة واحدة (كلمة وليس جملة) يراجعها فى قرار أو يعارضه فيما ذهب إليه أو يناقشه (بلاش يراجعها أو يعارضه!) فيما يقدم عليه السادات، هل أوضح له نائبه مبارك خطورة ما يفعل؟ هل دافع عن حرية هؤلاء المعارضين فى التعبير عن آرائهم وأفكارهم؟ هل قال له إن هذا انقلاب على الديمقراطية، هل طالبه بأن يسمع هؤلاء ويناقشهم ويفكر معهم، هل كشف له خطورة إغلاق صحف وحل أحزاب وجمعيات وسجن مفكرين وسياسيين؟ هل قال له إنهم وطنيون يحبون مصر مثلى ومثلك (مثل سيادتكم)؟ هل أخبره أن المعارضة المدنية السلمية هى أمل أى بلد ديمقراطى فى محاسبة ومراقبة الحكام وأن الخطر فقط هو الإرهاب المسلح؟ من المؤكد أن مبارك لم يقل هذا على الإطلاق للرئيس السادات؟ بل أيد ووافق ودعم ونفذ بمنتهى الإخلاص الوظيفى، ففى ١٩/٩/١٩٨١ وفى الصفحة الأولى للأهرام أصدر حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والأمين العام للحزب الوطنى توجيهاته بأن يكون بيان الرئيس السادات (الذى شرح فيه لماذا قبض على الآلاف من المعارضين وأغلق صحفا وجمعيات) دليل عمل فى المرحلة القادمة وأكد حسنى مبارك ضرورة الامتثال للقيادة الحكيمة للرئيس أنور السادات (واخذ بالك أى رئيس يبقى قيادة حكيمة على طول) وكان السادات (الأهرام ٨-٩-١٩٨١) قد عين محمد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية رئيسا للجنة الوحدة الوطنية، طبعا لا حد فإكر ما هى هذه اللجنة وماذا فعلوا بها وفيها؟ والمدهش أن الأقباط دائمو

الشكوى من تمييز عصر مبارك ضدهم (!!)) رغم أنه رئيس لجنة الوحدة الوطنية!، ثم ألقى مبارك بيانا في مؤتمر الحزب الوطنى باعتباره أمينه العام مدح قرارات الرئيس (سجن الآلاف ومصادرة وإغلاق صحف وجمعيات) وتحدث عن حكمة الرئيس واتخاذ هذه الإجراءات لحماية مصر، ليس هذا فقط بل إن السيدة جيهان السادات تؤكد لنا في كتابها «سيدة من مصر» وهى تصف أحداث سبتمبر واعتقال المعارضين للسادات: (وقد حظى قرار أنور باحتجاز عناصر الشغب أخيرا بتأييد مطلق من جانب وزراء زوجى وأعضاء حزبه.... صفحة ٥٤٢).

إذن مبارك كان مؤيدا تماما للقبض على عقول وقيادات مصر الفكرية والسياسية من كتاب ومنتقنين وأساتذة جامعات وحزبيين وشيوخ وقساوسة، وأماننا تفسيران لهذا التأييد المباركى الذى لا نشك فيه لحظة لقرارات المجلس والاعتقال، الأول: أن مبارك لم يكن ليقدر على معارضة السادات ومواجهته أبدا بأى موقف معارض ولم يفعل ذلك أبدا فى أى لحظة أو بأى طريقة (وهو حال جميع رجال حكم مبارك الآن ولا تصدق أى كذاب لو كتب فى مذكراته بعد سنوات يزعم أنه كان يعارض مبارك فى مواقف أو قرارات أو يقول له لا يا سيدى الرئيس، أو أنه راجعه أو ناقشه فى شيء، فهم جميعا لا يعرفون سوى السمع والطاعة والحديث عن حكمة الرئيس ورؤيته وعقليته الفذة وعبقريته قراراته وهذا هو سبب جلبهم وتقريبهم للرئيس وشرط بقائهم).

الثانى: أن مبارك لم يدر فى ذهنه إطلاقا ولا كلمة مما تخيلناها عن الحرية والديمقراطية لأنه حقا كان يوافق السادات من كل قلبه وعقله على هذه القرارات وكان شايف فعلا أنها قرارات حكيمة رائعة لصالح الوطن والمواطنين ولا جاء فى باله أى حاجة من الكلام الفارغ بتاع الديمقراطية والمعارضة المدنية وحرية الرأى والتعبير، (رأى إيه وهو فيه رأى غير رأى الرئيس!).

لهذا فالرئيس مبارك منذ اللحظة الأولى لرئاسته وبعد أن أطلق سراح المعتقلين توطيدا لحكمه وتمهيدا لعرشه، لم يفعل شيئا طيلة سنوات حكمه إلا ما يظن أنه يخدم حكمه ورئاسته واستمرار عرشه، وإذا حسبنا أكثر كلمة ردها فى

حياته الرئاسية ستتنافس كلمتان على المركز الأول، كلمة الاستقرار وكلمة الاستقرار، ومن هنا فإن القرارات الباطشة التي يتخذها نظام مبارك هذه الأيام ومعاداة القضاة والصحفيين وأساتذة الجامعات والإخوان المسلمين وجمعيات وحركات حقوق الإنسان (لا يعرف المرء وسط إجراءات البطش اليومية هل سيكون حرا أو حيا في مقال تال أم لا؟ كله على الله)، هي تعبير عن قناعة مبارك القوية والعميقة بأن المعارضة يجب ألا تصل إلى حد مواجهة قراراته وورغباته وأن حدود المعارضة هي استرضائه والالتماس له والاستنجاد به، أما أن يكون هو بمنصبه الرئاسي موضعا للنقد وللهجوم السياسي والمعارضة فهو ما لا تحتمله قائمة المسموحات عند الرئيس وهو قد قارب الثمانين من العمر وجلس على مقعد الرئاسة قرابة ربع قرن وباتت قناعته الأكيدة أن أحدا لا يعرف مصلحة البلد سواه ومثله، وأن من يعارض مبارك فإنه يعارض مصر شخصيا وأن من يطالب برحيل مبارك عن الحكم إنما يريد الفوضى والانهيال لمصر (كأن مصر تقف على فرد حتى لو كان عبدالناصر أو السادات أو مبارك) وبعد خمس وعشرين عاما من تنزيه الرئيس عن الخطأ والسهو البشرى وبعد ربع قرن من وضعه في مصاف الأولياء والأنبياء التي لا يسألها ويسألها أحد وبعد تحويل الرئيس (بمنصبه) إلى رمز مقدس للدولة لا يجوز المساس به عكس أى دولة ديمقراطية في الوجود الإنساني، ها هي قوى وطنية تتعامل مع مبارك كما تتعامل الشعوب مع رئيس دولتها، تعارضه وتحاسبه وتحمله المسئولية مباشرة من غير طقوس العبادة الفرعونية ولا خدم وخصيان المماليك الذين يحولون الرئيس من منصب إلى عرش، من بشر إلى إله، من مواطن إلى رمز، وهذا ما يفسر الضرب المتتالي (والعصبي والعشوائى) من النظام الذى يبدو بطله حبيب العادلى كما كان بطله النبوى إسماعيل تماما، وحين تسمع كلاما من نوع أين عقلاء النظام لإطفاء هذا الحريق الذى يشعله النظام نفسه توقن فورا أنه لم يكن هناك أساسا عقلاء للنظام فلم يكن هناك أصلا تحدي للنظام يستحق وعيا وعقلا، فقادت هذا النظام مجموعات الولاء والسمع والطاعة وتمكنوا بالقمع الأمنى الشرس من تخفيض مستوى الإرهاب لفترة حتى عاد من

جديد، لكن عندما ظهر التحدى السياسى وبدت المعارضة الحقيقية والامتحان الفعلى للنظام ظهر فراغه من العقل والرشادة وبانت شيخوخة الحكم وبوليسيته فى مواجهة صرفة بين الاستبداد والحرية، بين نهى الاستمرار وصيحة كفاية، بين وزير العدل والعدل، بين جمود الحكم وحركة الشارع، فلجأ مبارك فوراً إلى التراث الذى يعرفه وهو اقبض، اعتقل، احتجز، اتهم، حقق، احبس، دَخَلَ السجن، اقل، ارفت، افصل، صادر، حاصر، اضرب، دغدغ، لم، كما كت، اسحب كل الوعود (وهى كانت وهمية أساساً وتجميلية وتخديرية) بإلغاء قانون الطوارئ، ويخرج الحزب الوطنى ورجاله فى سابقة سوف تسجل فى التاريخ دليلاً مذهلاً على الحضيض السياسى حين يهتفون عاش قانون الطوارئ، أو حين يتهم قادة الحزب الوطنى خصومهم بأنهم يريدون الوصول للحكم، وكأن الوصول للحكم جريمة، كأن بقاء هذا الحزب المزور جائزاً على قلب مصر قدر سرمدى أبدى، وهو ما يؤكد مرة أخرى للواهم أو المتوهم أنه لا أمل فى هذا الحكم فهو لن يصلح ولن يتغير ولن يغير وأن الاستبداد يجرى فى عروق هذا النظام مجرى الدم فى العروق (مع الاعتراف بالشك فى وجود دم أصلاً) جاء قانون الطوارئ ليكشف الجميع، أمانة السياسات بعودها الكذوبة، جمال مبارك بادعاءات الإصلاح المزعومة، نظافة نظيف من السياسة والديمقراطية، وطاقم مسح بلاط الرئاسة سواء فى البرلمان أو فى الوزارة، كل هؤلاء تشاركوا فى العدوان على الشعب وعلى الحرية باستمرار قانون الطوارئ!

الرئيس مبارك على قناعة راسخة وهو رئيس من الصعب أن يغير قناعته، أنه لم يصنع هذا الاستمرار لرئاسته ولا هذا الاستقرار الذى يظنه إلا قانون الطوارئ، فلا شك أن الرئيس مبارك هو رئيس الطوارئ، لم يعيش مبارك على مقعد الرئاسة يوماً ولم يحكم مصر ساعة واحدة مجرد ستين دقيقة من غير قانون الطوارئ، لم يحكم مبارك مصر إلا تحت حماية قانون استثنائى موضوع لأيام الكوارث ولحظات المصائب وأوقات الأزمات فكأن ربع قرن من حكم هذا النظام لم تخل من كوارث ومصائب وأزمات (حكم هذا النظام نفسه كارثة واستمراره مصيبة وتغييره أزمة)!

بجدارة شديدة يصبح مبارك ربما الرئيس الوحيد في الكون الذى يحكم بلدا بقانون طوارئ كل هذا العمر، كل هذا الزمن، كأن حكم مبارك لا يمكن أن يجيا طبيعيا أبدا ولا قدرة عنده على الاستمرار بدون مثل هذه القوانين، ولا يمكنه أن يبقى على عرشه ومقعد رئاسته وولايته إلا بقانون يمنع الحرية ويقيد المعارضة ويصادر الرأى ويزج بالآلاف للسجون والمعتقلات ويسحل الشبان وينتهك الشابات فى المظاهرات ويقمع القضاة ويحرم أساتذة الجامعات من حرياتهم ويمنع المهندسين عن نقاباتهم ويشل نقابات العمال بمناقضه ويلغى الانتخابات على مناصب العمداء والعمد ويزور الانتخابات ويعذب المعارضين ويحكم الأفواه ويخنق المحترمين ويهدد الصحف الحرة ويتنصت على المكالمات الهاتفية وينتهك الخصوصية ويصور غرف النوم ويلفق التهم (للمختلين وللعقلاء) ويصطع الأشرطة والأسطوانات المتلصصة ويسرق القطاع العام ويرشو ويرتشى ويحمى منتهكى الأعراض ومعدنى السجناء، ويجول مؤسسات الصحافة الحكومية والتليفزيون إلى دور نفاق وتضليل ويرتع منافقوه فى الفساد والإفساد!

ويبدو واضحا استمرار قانون الطوارئ مع رئيس وحزب الطوارئ الحاكم متمشيا تماما مع طريقة الحكم الاستبدادى الفردى الفرعونى الذى يحكم فيه حاكم لا حسيب عليه ولا رقيب، منفردا بحكم بلد للأبد!

تبدو إذن المواجهة محتومة بين حكم طوارئ وشعب طوارق!
نعم إذا كان مبارك يحكم مصر فإن لمصر رأيا، وإن لمصر شعبا، وإذا كان نظام مبارك ظل لطول البقاء وامتداد العمر فى الحكم يظن أن مصر خائعة خاضعة وأنها محكومة بالطوارئ فهى تنهض من رقبتها بالطوارق كذلك، وما أدراك ما الطارق؟ الطارق هو الحذر المنذر الموقظ المفاجئ المنبه.

وأكثر طارق لمصر هو اكتشافها أنها بلد منهوب مظلوم مسروق مستغل ومغلول ومرمى فى قاع دول العالم فى الاقتصاد والتنمية، منزوع عنها حريتها وديمقراطيتها، وتولى أمرها إما فاسد أو جاهل، وطوارق هذه الأمة هم قضاتها وأحرارها من المثقفين والمعارضين الجدد!

هى طوارق جديفة للشعب تنبه وتوقظ وتحرك وتحفز، طوارق فى مواجئة الطوارىء!

www.alkottob.com

رئيسنا الطيار وبلدنا الطائرة!

قريبا جدا سوف يقول الرئيس مبارك عن معارض له هذه الجملة بنصها وحرفها سيقول: أهو مرمى في السجن زى الكلب!

التعبير نفسه هو الذى استخدمه الرئيس الراحل أنور السادات قبل شهر من رحيله فى وصف أحد معارضيه الذى سجنه مع آلاف غيره وقتها، نعم فى لحظة معينة يصبح الرئيس المصرى عند هذه الدرجة من الفرعونية والعظمة، وهذه اللحظة بدت أشد ما تكون وضوحا فى حوار الرئيس مبارك مع قناة العربية (النص المنشور فى جميع الصحف المصرية معدل ومتظبط ومحذوف منه الكثير من الموجود فى الحوار الأصيل)، حتى لو كنت قادما من المريخ فلا يمكن أن تخطئ وأنت تتابع هذا الحوار فى معرفة أن هذا الرئيس الذى يتكلم، يجلس على مقعده منذ ستة وعشرين عاما، سماته وصفاته، ألفاظه وإيماءاته وابتساماته وأداءاته، كلها تشى بأن هذا المتكلم رئيس لدولة فى العالم الثالث يحكم (نائباً ورئيساً) منذ ثلاث قرن، إزاي.. أقولك إزاي؟

كان الرئيس مبارك طيلة الحوار على قدر هائل من الشعور بالاستخفاف بأية مشكلة أو أزمة سواء داخلية محلية أو خارجية، استخف الرئيس بكل شيء بدءا من علاقته الحميمة بالأمريكان والبيت الأبيض واستخدم تعبيرا يوجه فى نقده مباشرة ونقد زيارته السنوية للعاصمة الأمريكية حيث قال: يعنى لازم أجم لأمريكا! وهو أمر ليس جديدا على الرئيس فقط ولكنه كذلك متوقع جدا، فحالة التحسب والتدبير فى التصريحات والكلمات والأوصاف لن تكون مثلما كان الرئيس بعد خمسة أعوام أو حتى عشرة من رئاسته، بل كلما مضت سنوات الحكم ممتدة والبقاء على المقعد أبديا فللرئيس أن يقول بحريته ويتصرف من وحي إلهام اللحظة ومزاج

الساعة، كأن الرئيس يقول: إن مصر - تحت رئاسته لم يعد يهمها شيء وإن أحدا -
مهما قدر - لا يقدر على مصر مبارك!

تجد روحا من التأفف والتعالى واللامبالاة عند سماع سؤال نقدى يتم توجيهه
له، فما بالك لو كان ما يوجه له معارضة وهجوما واتهاما؟ الاستخفاف نفسه كان
في الحديث عن ملايين من السودانيين المسلمين الذين قتلهم مسلمون عرب
آخرون في دارفور، كأن كلام مبارك وحواره ليس عن دماء بريئة مراقبة من
ملايين المسلمين، لم يظهر الرئيس تعاطفه مع هؤلاء الضحايا أساسا، لم يقم بإدانة
ما جرى، ولا أى شيء، ما قاله كان استخفافاً بالكارثة وتخفيفاً من المأساة
وتشكيكاً في كل الحقائق طالما لا يرضى عنها ولا ترضيه، ذات الاستخفاف
بالشيعة في العراق ودول الخليج فقد اتهم عبر كلام كثير وإجابات متعددة ملايين
الشيعة في العراق والكويت ودول الخليج بل في العالم كله بالعمالة والولاء لإيران،
وهو ما سبب تقريبا أزمة عربية عميقة استخف بها النظام بعد ذلك، وأتحدى أن
شخصا في الرئاسة أو المحيطين بمبارك جرؤ أن يقول له: إنها تصريحات خاطئة ولم
تكن موفقة ولا بد من الاعتذار عنها، بل ستجد كثيرا من منافقي الدولة يخرجون
بكتابات وتصريحات تنصر لكلام مبارك كي لا يبدو أن الرجل يمكن أن يقول ما لا
يصح أن يقال وما لا صحة مما قيل فيه، هذه هي علامات الخلود الطويل على
مقعد حكم بلد، فالرئيس مبارك تعود على سماع وقراءة المنافقين الذين لا يكفون
عن الحديث عن عبقريته وحكمته وعظمته ولم يختلف معه أحد ولم يعارضه
معارض على مدى كل سنين حكمه بل كان العزف الدائم على تقديس الرئيس
وتزيمه عن أى خطأ والتعامل معه كأنه ليس كائننا بشريا ومواطننا بدرجة رئيس
جمهورية بل باعتباره ولياً أو نصف نبي، ومن يبقى ستة وعشرين عاما في الحكم
بلا معارضة ولا مناهدة ولا مناقشة بل السمع والطاعة والتلبية والإجابة والتزيمه
والتقديس، من الطبيعي إذن أن يشعر بما أدركه الجميع في حوارهِ، واضحا ناصعا
ساطعا، الرئيس يشعر أنه يملك الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها
ولا من خلفها، كل ما يقوله هو الحقيقة وكل ما يقوله الآخرون كذب وافتراء، ثم

إنه لا يقر بخطأ ولا يعترف بأى خطأ أو مشكلة ولا يرى أى شيء فعله سلبياً، الرئيس يبدو بعد ثلث قرن فى الحكم -منها ربع قرن رئيساً- أنه حاكم مطلق لبلده اسمه مصر، فكلمة أجاب عن سؤال حول مصر يتحدث كأن كل شيء بيده وكل أمر بأمره وهذا صحيح فعلاً، فقد وصلت مصر إلى حد أنه مفيش حد يملك من أمر مصر شيئاً إلا الرئيس وحده، ولا فيه مؤسسة ولا مجلس ولا مستشارين ولا رأى عام ولا أى حاجة تملك أن تغير رأى الرئيس أو قراره أو موقفه، فالرئيس لا يرى أحداً غيره فى صناعة القرار، يقول (تعودت طول حياتى اللى يبقى قائد طائرة يبقى طائر لوحده وعليه يأخذ القرار، يا إما قرار ينفذ مضممة أو قرار قد يودى بحياته، فما يخافش. إذا الطيار ارتجف مش رح ينفذ المهمة ومش رح يطلع فى الطائرة، رح يخاف ويقعد على الأرض، فلازم الطيار يكون جريئاً جداً، ويقدر يقدر الموقف ويقدر يأخذ القرار فى الوقت المناسب.) وأضاف (أن الطبع مشى معايا كرئيس)، وأنا أندعش من كلام الطيار حسنى مبارك فهو يعلم ما نعلمه جميعاً أن الطيار لا يتخذ قراراً فى مسار الطائرة بدون علم وتعليمات برج المراقبة ومركز الملاحة وغرفة العمليات الأرضية، ونحن نسأل من هؤلاء عند الرئيس مبارك الآن؟ وهل يجبرونه بما يعظمه ويؤله أم بالحقيقة كما هى فى الأحوال الجوية (العالمية) والأرضية (المحلية)، أم أن الطيار حسنى مبارك بعد ستة وعشرين عاماً من رئاسته لمصر أصبح هو الطيار والمراقبين الجويين وغرفة العمليات والطائرة والركاب وكل شيء؟ فضلاً عن جوهر خلاف كبير وضخم سيدى الرئيس بين قيادة طائرة حربية فى قتال أو تدريب بفريق محدود من جنود تحت إمرتك أو وحدك منفرداً وبين قيادة طائرة مدنية فيها مئات المواطنين الذين ركبوها ولم يضعوا فى حساباتهم عوامل الموت والشهادة، ولا هم فى حرب أو قتال، بل حياة مدنية يريدون الذهاب إلى أهاليهم وأعمالهم وأوطانهم على متن طائرة آمنة يقودها طيار مسئول مع طاقم محترم تحت إشراف مراقبة جوية وقيادة أرضية تستطيع أن تحاسب وتساءل وتعاقب الطيار، لا أكاد أصدق أن الطيار من وجهة نظر مبارك يطلع بالطائرة ويعمل بها ما بداله، من يقول هذا وفى أى علم؟! خلاص فهمنا أن

الطيار شجاع وحاسم ماشى، طيب، وما علاقة هذا بأن يسمع الكلام ويبنى حركته على مؤسسة تعمل وتخطط وترى الخريطة كاملة، ثم أنا على علمي المحدود بالطيران فهناك طيار آلى ممكن أن تضبطه على تعليمات وتتركه يقود الطائرة بمفرده وأظن أن الرئيس مبارك قد اعتمد نظرية الطيار الآلى على قيادة مصر، ضبط البلد على كده منذ ستة وعشرين سنة وساب الطيار الآلى يطيرها، وهذا ما يفصح عن سر الجود الذى نحياه ويفضح التصلب الذى نعيشه، بلد يحكمها فرد لا يواجهه أحد ولا يمس قراراته وآراءه شخص، بلد السمع والطاعة والعبادة، فى كل مكان يذهب له مبارك فالجميع يهتف بأسمه ويهلل بنفاقه، وتجد رجالا كبارا يبذل وجلايب فى عمر عمك أو خالك يقفون ويهتفون بأصوات مبسوطة بالروح والدم يا ريس ويقبلون يده ويفتخرون بذلك ويرصون قصائد المدح والتقدیس ويجلجل شباب وطلبة فى حضور الرئيس بكلمات تقطر نفاقا وتألها وتمجيذا، يحفظونها عن ظهر قلب كتبها لهم أساتذة منافقون وأفاقون يعلمون تلاميذهم الرياء والنفاق، ويتم كل وزير ومحافظ أمام الرئيس بكلمات من نوع بفضل تعليمات سيادتكم وتوجيهات عظمتكم وحكمتكم وقدرتكم وكل هذا القاموس المهين للضمير، من هنا أصبح الرئيس الذى لا يخطئ والزعيم الذى لا يتراجع والقائد الذى لا يسأله أحد، تضائل أمامه الشعب وتقرم فى مواجهته الرجال وصار الأول فى كل شيء والواحد فى كل أمر والفرد المفرد فى كل حاجة، فكان طبيعيا والحال هكذا أن يعد مبارك بوعد فيلهجون بشكره ثم يتراجع عن وعده فيسبحون بحمده، وينتشر الفساد فى البلاد والعباد فيتحدثون عن حكمته ويعم خراب البطالة والفقر والفاقة فيمدحون زعامته وتنحدر مصر اقتصاديا فيركعون لقدرته، يدخل الألوف المعتقلات ويزور جهاز الأمن الانتخابات فيجدون ديمقراطيته، يفقد العالم العربى كل ذرة من كبريائه فيروجون لزعامته ووساطته، أصبح النفاق منهج حكم وأسلوب إدارة وروح نظام وسيرة وطن، وها هو حوار مبارك يكشف عما لا مشقة فى اكتشافه أن هذا الرئيس حاكم مطلق لا رأى لنا إلا ما يرى، وأنه كما قلنا ونقول لا يغير ولن يتغير، لكن إلى متى تظل مصر تسمع وتطيع ويقودها فتنقاد؟ متى يخرج المصريون

ليقولوا لمبارك ما قاله مواطن أمريكي للرئيس الأمريكي جورج بوش في وجهه وأمام قاداته وأركان حكمه وفي حضور عشرات القنوات والمحطات التليفزيونية وعلى مسمع من الدنيا كلها؟ كان بوش يدلي بخطابه يوم الثلاثاء ٤ أبريل ٢٠٠٦ أمام أكثر من ٩٠٠ مستمع من الطلاب الجامعيين غالبيتهم من المتعاطفين معه في ولاية نورث كارولاينا. ولكن بينما وقف على المسرح شرع أحد السائلين في شن هجوم لاذع على بوش، وقال الرجل صاحب الخمسين عاما بهدوء غير محتم ولا مبال لوجود الصحفيين والمصورين قال لبوش: (لم أشعر في حياتي بالخجل والخوف الذي أشعر به اليوم من قيادتي في واشنطن بما فيها الرئاسة ومجلس الشيوخ) لكن لم يتمكن الرجل من إكمال جملته بسبب ارتفاع هتافات الاحتجاج من الجمهور، فتدخل بوش نفسه ليقول (لا، انتظروا لحظة، دعوه يتكلم) وتابع الرجل (بهياً لى أنه بالرغم من خطابك فإن ذلك التعاطف والمنطق سقطا خلال ولايتك وأمل أن تتحلى من وقت لآخر بالتواضع والفضيلة لكي تتجمل من نفسك في أعماقك)، ساعتها لم يأت أمن حبيب العادلى وسحل الرجل واللى خلفوه وأهل اللى جابوا أهله، ولم يقطع تليفزيون الفقى المنافق (التليفزيون وليس الفقى) الإرسال ولم يخرج بلطجية وضربوا الرجل ولا خرج ممووسون وشتموه كالكلاب السعراة ولاشيء، قال الرجل كلمته المعارضة الرائعة في وجه جورج بوش الذى رد بجملة واحدة (واضح أتى لست الشخص المفضل لديك) وخلاص كمل بوش خطابه وروح المواطن بيته وسمع العالم وشهد!

قلت لصديقى وأنا أروى له هذه الحادثة مهورا: تخيل فعلا أن قام مواطن في حفل أو محفل وقال لرئيسه اخجل من نفسك سيدى الرئيس تحلّ بالتواضع والفضيلة والصدق واعترف بما فعله نظامك فينا ويكفيننا ما حكمته فينا، سيدى الرئيس اذهب واسترح واترك هذا الوطن حرا من حزبك وحكمك ونفوذ ابنك!
رد صديقى منه لله وقال مندهشا: أما مواطن حمار صحيح، بوش عنده بنت مش ولد!

وطن المختل!

هي كارثة حين يصبح أعظم انتصار للمسلمين في مصر أن تعلن مراهقة مسيحية إسلامها!!

يهلل الكثيرون لإسلام فتاة مراهقة أو سيدة تسعى للطلاق من زوجها، ويتحول الأمر إلى نصره قوية وفرحة عظيمة كأننا غزونا أوروبا بعلومنا وصادراتنا، كأننا اخترعنا دواء للفيروس سى أو اكتشفنا معادلة فيزيقا سوف تغير شكل العلم والعالم، كأننا انتصرنا على إسرائيل، نعم يقا تل شاب متحمس من أجل هذه المرأة أو الفتاة كأنهم في غزوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ويبشرونا إعلام طائفي مقيت وتافه بهذه الأخبار كل يوم معبرا عن مشاعر الفرحة ومغذيا مشاعر الشائنة، أو تبقى كارثة لما تكون حركة المسلمين ومظاهراتهم ليست من أجل رفع ظلم دولة ولا محاسبة فسدة ومسؤولين كبار يسرقون بلدنا بل تهتر قرية وتتحرك بلد بكاملها لأن المسيحيين فكروا أو هموا وشرعوا في بناء غرفة في كنيسة أو وضع جرس على سور كأن الإسلام ساعتها في خطر والأمة الإسلامية تتعرض لكارثة فينبرى الآلاف لهدم الكنيسة أو ضرب المسيحيين والاعتداء عليهم وكان بناء كنيسة هزيمة للإسلام وانتصار للمسيحية مما يستدعى جهادا في سبيل الله!

تلاقى مواطننا مسلما عاطلا مش لاقى يأكل وبدلا من أن يواجه دولة تحرمه من حقوقه وبدلا من مجابهة حكومة فاشلة وظالمة تنهبه وتسرقه يركز كل كراهيته وعدوانه على جاره المسيحي أو الواد فلتس ابن القسيس اللي على أول الشارع، وتجد موظفا مرتشيا من رأسه حتى قدميه ومع ذلك كل ما يشغله هو إثبات أن الأقباط كفره وحيروحوا النار، بل ترى بنتا مايعة دلوعة ولا عمرها ركعت ركعة

لكنها لا تطيق أن تأكل في بيت مسيحي أو تلاحظ ضابطا يعذب المعتقلين ويشوى بالكهرباء أعضاء الجماعات الإسلامية ويعتدى على الإخوان المسلمين ويقتل مساجين داخل المعتقلات ومع ذلك يتحدث عن المسيحيين الكفرة والأقباط اللى يستاهلوا الحرق،(حكى لى أحد المعتقلين السابقين أن ضابط أمن الدولة كان يعذبهم تغذيا وضيعا وحقيرا وحين يحين أذان الظهر يصرخ فيه قوم يا ابن الكلب صلى بينا إمام، فكان يصلى المسجون والضابط يصلى وراءه مع العساكر!!) تجد مسئولا فاسدا ومستحما في بحر رشوة وسرقة ونهب ومع ذلك ينتقد ويهاجم المسيحيين الذين اغتنوا وأثروا، أو ترى بلطجيا أكثر ما يعرفه عن الدين هو سبه في الحناقات ومع ذلك رأيه أن أصوات المسيحيين علت في البلد ولازم يققوا عند حدهم! وفي المدارس وبين طلبة الجامعات والمصالح الحكومية والأندية وتجمعات النخب ومحطات الأتوبيس ومحطات التلفزيون ودور العبادة ودور الصحف وفي أجهزة الدولة الحساسة والأجهزة اللى معندهاش إحساس، تجد هذا المناخ الطائفى العداى ضد الأقباط، كذلك الأقباط تجمعت داخلهم مشاعر المقت والرفض والإحساس بالاضطهاد فبادلوا الكره كرها والعداء عداء والتعصب تعصبا!

هو فيه إيه؟

فيه فتنة طائفية تسود مصر تعبر عن نفسها بين لحظة وأخرى، وموقف وآخر، ومبصية والتانية، بحدث أو حادثة تعبر عن عنف وكراهية دموية موجودة وكامنة تظهر وتختفى لكنها حاضرة تماما!

هناك مناخ طائفى قائم على كراهية متصاعدة ومتنامية بين المسلمين والمسيحيين فى مصر وتوتر محوم وصدام مقموع يبرز فى توهجات مفاجئة ويكمن معظم الوقت تحت الجلد وفى عمق العقل والقلب يزداد اشتعالا ويتغذى بثقافة كراهية وعدوانية تبت وتداع كل يوم فى الجوامع والكنائس والتلفزيون والصحف! لا هى قلة مندسة ولا أيد أجنبية ولا منعصون على الجانبين ولا أطراف تشعل الفتنة، مثل هذه التحليلات النعامية (نسبة إلى النعام الذى يدفن رأسه

في الرمل حتى لا يرى الحقيقة) هي سر امتداد هذه الفتنة وانتفاخ هذا المناخ الطائفي الذي نعيشه (أو نموته) هذه الأيام، المظاهر يومية وتفصيلية وواضحة وها هي حوادث القتل والتحريق والتوليع تنتقل من الصعيد إلى بحرى إلى الإسكندرية وفي أى وقت ولأى سبب يمكن أن تنفجر حادثة فتنة طائفية سواء من أجل امرأة أو من أجل دورة مياه أو كنيسة قصاد جامع ولا واد مسلم طرى أحب بنتا مسيحية مايصة! تنزف دماء ويموت أبرياء من أجل صغائر ومساخر مثل هذه وأكثر تفاهة وأشد هيافة!

لماذا تحول مجتمعا إلى هذا المجتمع الطائفي الكاره والكرهه ؟

لماذا أصبح اللي في القلب في القلب يا كيسة ؟

١- أظن أن هناك حالة من الهزيمة العامة والشخصية تملأ نفوس المصريين، مجتمع محزوم أمام العالم الغربي الذي يبدو متفوقا في كل شيء ومالكا لكل شيء، فكيف يشعر المجتمع المصرى انه أحسن وأجده، إزاي ومن منين وعلى مين؟ تماما كما هزيمة المواطن في وجه الحكومة التي تسلبه كل شيء وتقمعه وتفسله وهو لا يقدر عليها ولا على مقاومتها فيستسلم لهزيمته المادية والحضارية لكن لا بد له من الشعور بالكرامة والتفوق، وكما يحدث حين يهزأ المدير الموظف عنده ويطلع عينه فيذهب الموظف ويطلع عين مراته ويضرها حتى يشعر بقوته فما يكون من الزوجة إلا تقطيع العيال ضربا حتى تشعر هي الأخرى بتفوقها وقوتها فضلا عن إنزال العقاب بأحد احتجاجا على وضعها وضعفها، بنفس الدائرة الجهمية تلك يقوم المجتمع المصرى المهزوم بتطبيع روح الأقباط عدوانا وكراهية حتى يشعر أنه أفضل من آخرين، فإذا كنا مذلولين ولا قيمة لنا فعلى الأقل نحن أحسن من الأقباط اللي فيهم وفيهم، وبدلا من مواجهة واقعي وضعفى استقوى على الضعيف وافترى عليه وعلى اللي خلفوه بحثا عن نصر وتفوق يعيد لى بعض الكبرياء.

٢- أظن أن سيادة نمط من التدين المغشوش والمتنوص في الروح المصرية مسئول هو الآخر عن بث الكراهية والعدوان بين المسلمين والأقباط فالتدين السائد تدين لا يأخذ من الدين سوى الشكليات والقشور من المصحف الذهبى

في السلسلة على الصدر إلى الصليب في ذات السلسلة، الدين لدى قطاع مذهل في ضخامته في مصر هو مجرد طقوس وشكليات وتمائم وتمتات ومن ثم يعتمد التدين الشكلي على إظهار التدين وليس ممارسته فليس مهما الخشوع في الصلاة بقدر زبينة الصلاة وليس مهما الصوم عن الفسوق والمنكرات بقدر الصوم يومى الإثنين والخميس وليس ضروريا العمل بالقيم النبوية بقدر ادعاء محبة النبي بالصلاة عليه بين كل جملة وجملة، التدين المنقوص، تدين الشكل، يستهدف دائما مواجهة الشكل المنافس والمضاد، ومن ثم يحتم التدين القشرى على المتدين أن يكره رؤية الصليب، أن يزعج من ملابس قسيس، أن يرفض بناء كنيسة في الحى أو الشارع بتاعه أو يجمعوا مئات الألوف من الجنيهات لبناء جامع في مواجهة مبنى كنيسة قديم! مبنى أمام مبنى، شكل أمام شكل!

٣- أظن (لا أنا متأكد من هذه!) أن النفاق العام في مصر واحد من ثوابت المناخ الطائفى ومسبب هائل من مسيبيات ومفجرات الفتنة الطائفية، والنفاق في صورته الجليلة أن يكون الشخص فاسدا ومرتشيا ولكى يغطى فساده يبالغ في إظهار تقواه وإيمانه ولكى يعوض موبقات النهب والرشوة والسرقة فهو يفرط في الزكاة والتصدق أو التشدد والمغالاة في إظهار التدين ومنه النعمة على المسيحيين والظعن في الأقباط، وقد علمتنا التجارب أن أكثر المتحدثين عن الشرف هم اللصوص وأكثر المسيحيين والمصلين إظهارا لصلاتهم وتسيبهم هم النصابون وأكثر الناس تصدقا معلنا هم تجار المخدرات والراقصات وأكثر المساجين في تهم الرشاوى والنهب يحملون لقب الحاج فلان! النفاق بالتدين الظاهر المتحمس ضد المسيحيين يغطى أخطاء وجرائم بحثاً عن مغفرة محتملة لإثم مؤكد، فتجد كثيرين مستعدين للتبرع بشقة من أجل بنت مسيحية أسلمت وفجأة يجد عاطل مسيحي وظيفه محترمة حين يعلن إسلامه! وهكذا.

٤- أظن أن الجهل يلعب دورا تأسيسيا في ظاهرة الفتنة الطائفية فأغلب الناس في مصر تأخذ ثقافتها الدينية عن طرق الأنف والأذن والحجرة وليس عن طريقة القراءة والبحث، سمعيا وصوتيا عن طريق وعاظ وخطباء الجمعة وأغلبهم

جملة في الحقيقة، أو عن طريق برامج متناثرة في تليفزيون أو إذاعة وشرائط، أو ثقافة منداولة شفويا بدس الأنف في موضوعات دينية غير دقيقة تنتقل من شخص للثاني على طريقة سمعت ومرة قال شيخ وقالوا لى ومثل هذه الأفكار السماعية التي لا تستند على علم ولا فقه ولا تاريخ، فيفتقد الناس الأصول من المراجع والكتب ويصبحون عبيدا لفكرة واحدة ونص مبتسر مبسط حتى التسطح ولا يبذل الكثيرون من أبناء هذا الوطن عموما أى جهد في المعرفة والتثقيف الدينى الحقيقى وهم أسرى ما يسمعون وما يحبون أن يسمعون ويفهموا ومن السهل بالجهل أن تصبح متطرفا ومهووسا!

٥- أظن أن الفراغ السياسى الذى يعيشه المصريون واحد من أعمدة الخيبة الطائفية التى تتعايش معها تلك الأيام، فلا توجد حياة سياسية فى مصر وغير مسموح للناس بممارسة السياسة وحكمنا فرعونى طاغوتى طغيانى وحكومتنا قاعة قاهرة فاسدة وأحزابنا نافهة فارغة مسنة عجوز ومحرفة والجامعة محرمة على نشاط الطلبة السياسى والشباب ممنوع من انتخابات حرة شريفة فى المدارس أو الجامعات وكل شيء فى مصر محتكر للرئيس أو ابن الرئيس أو حزب الرئيس وإبنه، والانتخابات السياسية مزورة ومزيفة ولا أمل فى التغيير، فيلجأ الناس الى الجامع والكنيسة، وينتقلون هنا من الكلام فى السياسة وهى شيء نسبى دنيوى مسموح فيه بل واجب الخلاف والجدل إلى الكلام عن الدين وهو الثابت المقدس، ومن منافسة بين حزب وفكرة سياسية إلى منافسة بين دين وآخر، من هو الأحسن والأجدع ومن فينا سيفوز ويدخل الجنة ومن يخسر ويدخل النار؟، يدخل الناس الجوامع والكنائس من باب البحث عن الشبع الروحى والامتلاء النفسى ثم تتطور الأمور أو تتدهور من التماسك النفسى إلى التمسك المتعصب إلى التشدد إلى التطرف إلى الكراهية والعدوان.

٦- أظن أن الإعلام فى مصر طائفى والتعليم متطرف لا يتسم بسماحة ولا انفتاح أفق وأجهزة الأمن فى مصر متعصبة ومهووسة ومن ثم تسود فى مصر ثقافة كراهية ضد الآخر المختلف عنا سواء الغرب الخارجى أو المصرى على غير ديانتها

أو المسلم على غير مذهبنا، فكل الناس كفرة وكلاب ما عدانا نحن، الكل سواء الأقباط المصريين والأمريكان الصليبيين والأوروبيين المنحلين والشيعية المارقين والسعوديين الوهابيين والحلايجة البدو والفلسطينيين اللى باعوا أرضهم واللبنانيين العلوج والهنود بتوع البقر واليابانيين بتوع بوذا وكله على كله مفيش أحسن منا ولا أشرف منا ولا أجدع منا ولا حد يدخل الجنة غيرنا.

من الطبيعي إذن مع كل ما نراه أن يَختل مختل فالكمل مختل وكل واحد فينا ماشى والكسرونة فوق رأسه!

قضاة حق عند سلطان جائر

أكثر ما أدهشني أن يلجأ البعض لمناشدة الرئيس مبارك كي يتدخل وينهى موقف الدولة المخزى الفج والمخجل من القضاة الشرفاء الذين كشفوا عورة فساد وطن وفضحوا استبداد وتزوير دولة وضبطوا سلطة متلبسة باغتصاب إرادة الناس.

عجبت لك يا زمن!

أن يناشد البعض الرئيس للتدخل وكأن الرئيس ليس هو رئيس من أحال القضاة للتحقيق وكأن الرئيس ليس هو رئيس الدولة التي تنتقم من القضاة وكأن ما يحدث للقضاة يحدث في بلد عاصمته القاهرة بينما الرئيس رئيس دولة عاصمتها شرم الشيخ، كيف ناشد الرئيس التدخل وهو في حكمه ونظامه هو الذي أمر ونهى وأضحك وأبكى واعتقل وأسجن وهو الذي لا تُفعل في مصر فاعلة إلا طبقاً لتوجيهاته وبناء على تعليماته؟!!

بدت قديمة وسخيفة لعبة اللجوء للرئيس من أجل أن يعفو عن قرار وزيره الذي هو في الأصل قرار رئيسه، قديمة حكاية أن يتلقى الوزير اللوم والتوبيخ ثم نجح الرئيس على تدخله ورفعته وعدله بينما نهجم وزير عدله!

هذه عادتنا ولنعرف أننا لم نشترها من أحد بل ورثناها عن جدودنا وجدود آبائنا، أن نلعن الحجاج وننسى سلطانه وخليفته عبد الملك بن مروان، أن نكره الحجاج ونهاجمه وندعو عليه، ونغفل وتجاهل ونصهين على عبد الملك بن مروان، والوزير الحجاج أو غيره هو الذي ينفذ أوامر السلطان بكل إخلاص في القمع وبكل ولاء في القهر وبكل حقد على المواطنين الذين يبلغ بهم الجبن أنهم يلعنون الحجاج ويبلغ بهم الغباء أنهم يشكونه للسلطان.. يا دى الحخية!!

عموما أظن أن معركة الانتقام من القضاة ستظل ممتدة فالنظام في مرحلة الشيخوخة لا يقوم بعمليات سياسية ولكن عمليات سيادية، لا يجب أن يظهر بمظهر الذي يحتوى ويجاور بل يلح على مظهر الذى يعاقب أو يعفو، لا يجب أن يبدو وكأنه يسمح ولكن يلح على إظهار أنه يتسامح، ونظام مبارك واضح منذ خمسة وعشرين عاما أنه لا يريد رجالة في البلد، هو لا يسعى ولا يحتفى ولا يوافق إلا على وجود ممالك وخصيان سياسيين يحركهم كالأرجوزات ويتلاعب بهم كورق الكوتشينة، ألا يثير اندهاشك أن الحزب الوحيد الذى حياه مبارك ومدحه فى حوارهِ الشهير مع محطة العربية هو حزب التجمع؟! وللمفارقة هو الحزب الذى حصل على مقعد واحد من بين ٤٤٤ مقعدا فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة وكان نموذج احترام مبارك للمعارضين أن يفشلوا هذا الفشل الساحق الماحق العظيم!

نظام مبارك لا يريد نماذج للشرف فى البلد ولا رجالا أحرارا، ولهذا هو يعاند ويهاجم ويعارض القضاة، لأن قضاة نادى القضاة صاروا مثلا ومثالا ناصعا ساطعا رائعا باهرا على أن مصر فيها رجالة وأن البلد لم يخل أبدا من الضمير اليقظ الصاحى، حين أصبح نادى القضاة كعبة الحرية والديمقراطية (وليس نقابة الصحفيين ولا المحامين - قطعا - ولا أى حزب سياسى آخر) يحج له عشاق مصر وشبابها الباحث عن المثال والنموذج، عن قدوة وقوة، الباحث عن أضياء مستقلين أحرار، تسير المسيرات وتتجه المظاهرات وتهتف الحناجر وتلهج القلوب للرمز، للمثل والمثال، لشيء نظيف فى ظل حكم مبارك ونظيف، لكيان محترم فى عصر يسود فيه غير المحترمين، أهم ما فى نادى القضاة وحركتهم التى حملت على جسرها أحلام وطن بالحرية والاستقلال عن حكم غاصب ومن حكم محتل للسلطة أنها حركة جاءت من باب القانون ومن جهة القانونيين ولم تأت من عالم السياسة فقد أثبت السياسيون الذين أفرزهم عصر مبارك فى الحكم والمعارضة الفشل السقيم، أخلى مبارك مصر من الرموز المحترمة التى يمكن الرهان عليها، وأفنى الرجال الذين يمكن أن يمثلوا أملا للأمة، فألقى بهم فى غياهب الحب أو

السجن أو المرض، فإذا بالقضاة يخرجون له من حيث لم يحتسب، بل من المكان والمكان الذى ظن أنه قد آمنه وآمنه، من المنطقة التى كاد يتصورها حديقة قصره الخلفية، هنا بات ضروريا لدى هذا النظام أن يقوم بالعصف بالنموذج، الضرب بكل ما لدى النظام من غباوة وغشامة (وغشاوة) فى القضاة، واشتغل جهاز أمن الدولة بفرعيه فى لاطوغلى بوزارة الداخلية وفرع الصحافة والإعلام فى تشهير السمعة ففشل هذا السلاح فشلا مريعا فى انتخابات نادى قضاة القاهرة والإسكندرية والمنصورة وفاز قضاة مصر العظام النبلاء، فامتطوا السلاح الثانى، سلاح الطابور الخامس ثم العقاب والتأديب، المستهدف هنا أن يؤدبهم (كما سمعوا الأمر ربما بالنص من الباب العالى). تأديب القضاة هو المطلوب لسبيين، الأول وليس الثانى هو ضرب النموذج وإجهاض أمل الناس فلا يصح أن يكون لدى المواطنين أمل فى أن أحدا يمكن أن يكسب معركة ضد فساد واستبداد نظام مبارك، لازم الناس تفهم أنه ممكن للرئيس مبارك أن يتنازل، ويتواضع، ويقبل بمطالب القضاة لكن مش بلوى الدراع (يفهمون مطالب الأمة على أنها لوى دراع، شايف الديمقراطية المتغلغلة فى عمق أعماق النظام، شفتم حكمة الرئيس التى يحدثونك عنها) لكن أن يطالب القضاة اليوم بحقوقهم فنعطيهما لهم كده، يا سلام نلعب احنا حكشة بقى، النهارده القضاة وبكره الصحفيين وبعده المحامين والأطباء وإيشى أحزاب وجمعيات، كل واحد يطلب حقه نعطيه له دى متبقاش دولة دى تبقى فوضى، ومنبقاش حكام الشعب نبقى خدامه (وهو ما لا يفهم نظام مبارك بكل رموزه أنه هدف أى حاكم أن يكون فى خدمة الشعب كما نص الدستور - لعل أحدا لا يزال يتذكره - أما أن يكون البلد كله فى خدمة السيد الرئيس فهذا أمر الطغاة فقط!

ثم يأتى السبب الثانى (وليس الأول) لتأديب القضاة وهو خدمة خدام النظام فلا يمكن أن يظهر النظام أمام رجاله وعبيده وخدامه وقد كفا معارضيه وأرضى منتقديه على حساب الخدم والحشم الذين أخلصوا له إخلاص مرجانة لعل بابا! فلا صحة إذن لأن الرئيس لا يعرف ما يجرى للقضاة ولا صحة إطلاقا أنه يمكن

أن يتدخل فهو متدخل من الأصل وبالفضل، والذي لا يريد من باب الأدب المزعوم أو الخوف المعروف أو التردد المفهوم أن يقول إن خصومة القضاة مع الرئيس مباشرة، إنما يشكك في أن مبارك يمتلك مقاليد الأمور كلها، فقد سألتني صديق صادقاً:

- من يحكم مصر الآن؟

فرددت عليه رد صديق على صديق صادق:

- ويحك شككتك أمك، ومن يحكمها غير الرئيس مبارك؟! خسئت وخسئ

سؤالك!

الحقيقة أن المتأمل لما يجري في مصر الآن لا يجد أى مشقة في إدراك أن هذا البلد يحكمه فعلاً مبارك، رئيس منذ خمسة وعشرين عاماً وصل إلى الثامنة والسبعين من عمره يجلس في مقعد نائب الرئيس والرئيس منذ ثلاثين عاماً، رئيس يحكم منفرداً وفرداً وبصلاحيات إلهية وأحلامه وأوامر ولا يوجد رجل واحد حوله يستطيع أن يرد له كلمة أو يناقشه أو يحاوره في موقف ولا قرار، اختارهم مبارك منذ سنوات طويلة بعناية فائقة أن يكونوا مجرد مماليك لا يملكون سوى الطاعة والعبودية لا يناقشون ولا يفكرون سوى في إرضائه وطاعته، مكروهون من الشعب كله لا ولاء لهم إلا لسيدهم، لا يقومون حتى بما يقوم به خادم البطل في الأفلام المصرية حين يصبح صديقه وناصره، تحول هؤلاء من خدام الشعب إلى خدم بلاط الرئاسة، ثم يحكم مبارك مصر بدون أن تقدر أى مؤسسة أن تقول بم أو تخالفه أو لا تنفذ تعليماته حرفياً، مجلس الشعب تحول إلى مجلس فتحي سرور، ليس محامياً مناقشات ولا معارضة ولا إخوان ولا مضابط، المهم تحويل أحلام مبارك إلى أوامر، فتحي سرور ومفيد شهاب آخر من يراهن عليهما وطن كي يتقدم أو يتطور، هناك مسئولون ووزراء في مصر أقرب ما يكونون إلى وزراء للخليفة الأموي أو العباسي، ينحنون أمام الخليفة ويكادون يركعون أمامه وأمام طلباته وأوامره، تخلو مصر من مؤسسات تحكم بل هي كلها سكرتارية لمبارك، يأمرها وينهرها ويمدحها ويذجرها، حكومة نظيف مثل أى حكومة لغير

نظيف، لا يملك وزير واحد يوحد الله أن يقول مبارك كلمة تؤرقه أو تزججه أو لا تضمن رد فعل هادئاً في مواجهته، ومن ثم يتم حكم مصر بالطريقة ذاتها التي كانت تحكم بها في عصور المماليك، يمضى السلطان ومعه مسرور السيف أو صاحب الشرطة والوزراء المحيطون به مهمتهم فقط جلب المال وتسيير الأعمال، وفرض المكوس والضرائب والزج بالمعارضين في السجون ومراقبة خطب صلاة الجمعة!

لهذا يبدو طبيعياً تماماً ما نراه على الساحة.. رئيس يحكم ويعلن في حوار تليفزيونى أنه مرتاح قوى، وشعب محكوم يعلن بكل وضوح أنه مش مرتاح خالص!

وهذا بالضبط عنوان مصر فى تلك السنوات التى لا يعلم أحد متى تنتهى!

رئيس يحكم منفرداً وفات أوان أن يسمع كلاماً معارضاً من تقارير مرفوعة له أو شخصيات حوله، فبعد خمسة وعشرين عاماً من الحكم وسماع النفاق والمدح والتأليه والتزويه والتلهيل لحكمته ورؤيته وسياسته لن يصدق مبارك أى كلمة أخرى ولا تنفذ أى حروف نقد أو معارضة إلى مسامعه، فهو لن يصدقها ثم هو لن يطبقها وسوف تتحول إلى غضب عارم وتكبير فورى، فأية دولة يتم حكمها بمؤسسات سياسية هادئة وجماعية التفكير ورزينة التأمل وديمقراطية القرار ما كان لها أن تتخذ كل هذه الإجراءات التصعيدية الاستبدادية فى عدة أيام ولا يمكن إلا لسياسة عنيدة ضيقة الصدر ملوثة وعصية أن تأمر بعقاب قضاة أحرار أشرف موضع تقدير واحترام العالم كله وليس الشعب المصرى فقط، سياسة لم تعد ترى العالم ولم تعد تزن الأشياء ولم تعد يهملها أحد ولم تعد تسمع أو تفكر أو تدبر، سياسة لا تتصور أن أحداً يمكن أن يراجعها أو يردعها، سياسة من يشعر بأنه يملك البلد بمن فيه ومن عليه، سياسة من يرى فى كل من حوله خدماً أو رعية، سياسة الرغبة فى الانتقام والتكبير، سياسة مرتاحة قوى لأن البلد خانع خاضع ولا تتصوره أبداً بلداً حراً وشعباً حراً، سياسة إن أنتم إلا عبيد احساناتنا وجايبين تقولوا لى انتخابات مزورة واستبداد وفساد وتقليص صلاحيات، بعد ده كله يا لمامة، بعد كل ما فعلناه للبلاد بعد ما أكلتكم وشربتكم وما كنتوش لاقين

حتى المجارى، مسرور، فين مسرور السيف، هاتوا مسرور على التلفون،
مسرور: فسحوهم!

لن يقبل نظام مبارك أن ينتصر القضاة وهى معركة طويلة إذن، ولن يتوقف نظام مبارك عن التصعيد ضد القضاة (وضد الجميع) وهو أمر واضح تماما أنه عصبى وعنيد لا تحكمه السياسة بقدر ما تحكمه العواطف العصبية والمنفعة، والانتقامية والشخصية، وفى مقابل ألا يشعر الرئيس بأن أحدا يلوى ذراعه كما قال فى حواراته الكاشفة فالنظام مستعد بعناد يثير الشفقة أن يكسر رءوس وأذرع كثيرين فى هذا البلد وليس أحط من ذلك مثلا أن ترسل وزارة البلطجية برجال بلطجية الاستفتاءات والانتخابات إلى الشباب المعتصم مع قضاة مصر حول ناديم ليضربوا هذا الشباب بالمطاوى والسنج، سنج البلطجية تماما مثل سنج القوانين التى تسنها الدولة، وهؤلاء السادة قصار القامة المهذبون الذين يدعون علما وأستذة وهم يطبخون سم القوانين ويطرزون قرارات الاستبداد يشبهون تماما البلطجية الذين يهاجمون المتظاهرين والمعتصمين والمعارضين بل البلطجية أكثر شرفا من هؤلاء، فعلى الأقل البلطجية لم يتعلموا ولم يقل لهم أحد يا دكتور ومجبرون كذلك لأكل العيش على الاستجابة لضباط المديرية فى الضرب والاعتداء على الشرفاء، أما الدكتورة والأساتذة الذين يعملون بلطجية قوانين وقرارات وتأديب وفصل ورفت فيجب أن نطمئنهم بأن مزبلة التاريخ لن تحرمهم مكانا!

معركة القضاة معركة يجب ألا تكون بحثا عن حل بل بحثا عن حق، ليست سعيا لنصر بل سعيا لمصر، ومن ثم ليس مهما النتائج النهائية لتكن ما تكون، الأهم أن الغاية تحققت وهى كلمة الحق والعدل، كلمة الحق فى وجه سلطان جائر وسلطة جائرة. قال النبي صلى الله عليه وسلم «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» ولم يقل النبي - صلى الله عليه وسلم - شيئا عن نتيجة كلمة الحق عند أو فى وجه السلطان الجائر، إذن هى تكفى جمادا وحدها، ليس نتيجة كلمة الحق فلا جائر سوف يتعظ ولا متجبر سوف يتراجع، فقط الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.. وقد قالها القضاة!

نظام دكر!

هل يريد هذا النظام أن يفهمنا أنه قوى وجامد ومحدث يقدر يقف قدامه فيقبض على ثلاث بنات ويدخلهن السجن ويوجه لهن تهمة إهانة الرئيس؟ لهذا الحد النظام الراجل قوى والجامد خالص مفزوع ومرعوب من تلت بنات؟ إيه الرجولة دى كلها؟! ثم كذلك النظام لا يطيق نقدا وصياحا مسرسعا من ثلاث بنات فى مظاهرة مؤيدة للقضاء، ما هذا النظام الذى تحرش بالبنات فى المظاهرات ثم قبض على البنات فى مظاهرات أخرى؟ إنه نظام دكر فعلا!

نظام يملك مئات الألوف من اللوات والضباط والخبرين وعساكر الأمن المركزى ويرتجف من ثلاث بنات يتظاهرن مع زملائهن ويصرخن بصوت متحمس رغم نعومته ضد الفساد والاستبداد.

نظام بمدركاته ومصفحاته وخوداته وعصيه الكهربائية وقنابله المسيلة للدموع وللدخان يخشى من عشرات المتظاهرين الشبان والكهول تتوسطهم مجموعة بنات خرجن كالضمير فى مواجهة نظام شرير ضريب.

نظام يبلغ عدد أفراد وزارة الداخلية فيه طبقا لدراسة الخبير الاقتصادى عبدالحالق فاروق حوالى ٧١٥ ألف فرد منهم حوالى ٩٠% بنظام كادر الشرطة الخاص والباقي عمالة مدنية وموظفون مديون يتوزعون فى ديوان عام وزارة الداخلية (حوالى ٥٠٣٣٣ ضابطاً وأمين شرطة)، ومصلحة الأمن والشرطة (٦٢٣ ألف ضابط وأمين وفرد)، أما فى مصلحة السجنون فعددهم ٢١ ألف ضابط وأمين وفرد.

هذا العدد المرعب والضخم، وهو الأكبر فى وزارات مصر (بعد وزارة التعليم)، تجده هشا محزوزا ومرعوبا من مظاهرات طلبة وأساتذة جامعة ونشطاء

حقوق إنسان وكفاية وشايفنكو، هذا الجيش العرمرم من قوات الشرطة المزودة بأعبي ما أنتجته الإنسانية من مخترعات التعذيب والعدوان يقف أمام ثلاث بنات يلتقى بهن في السجن كأن كل بنت فيهن بمقام الآلاف من حراس نظام عجوز وعصبي.

في مصر عدد الرتب العليا بجهاز الشرطة حوالى ٢٠ ألفاً، عشرون ألفاً ما بين عقيد وعميد ولواء في مواجهة حركة كفاية لحماية نظام مبارك بضرب بنات والتحرش بفتيات وسجن طالبة وسكرتيرة وصحفية، يخ يخ يا أمن مصر، حلاوتكم في قلب الوطن يا عشرين ألف لواء وعميد وعقيد وأتم تفتنون التعليمات بانتهاك عرض بنات بلدكم، نسى هذه الوظيفة إيه؟ هل هذا طريق لأكل العيش؟! لقد كانت أجور ومكافآت وزارة الداخلية أقل من ٣٠٠ مليون عام ٨٢/٨١ حين تولى مبارك حكم مصر، ثم في آخر ما تحصلنا عليه من دراسة الخبير عبدالحالق فاروق فقد تضاعفت في أزهى عصور ديمقراطية وحرية مبارك إلى أكثر من عشرة أضعاف، وقد وصلت اعتمادات وزارة الداخلية وحدها عام ٢٠٠٢/٢٠٠١ لأكثر من أربعة مليارات جنيه، هل انتهاك البنات وسحل الشباب والقبض على المتظاهرين والاعتداء على القضاة وسجن النساء وسيلة لأكل رجال الشرطة عيشاً (وشاليات)؟!

في وطن مثل هذا وفي زمن مثل ذلك، ممكن جدا أن يكون أكل العيش مغموسا بالعار فعلا!

عار ضرب البنات وانتهاك عرضهن وسجنهن، وسيلة الرئيس مبارك الجديدة للحفاظ على مقعد الرئاسة أو الطريقة المبتكرة للإصلاح على طريقة أمانة السياسات، أمانة تزوير الانتخابات وتفصيل القوانين وبيع مصر جملة وقطاعى والاعتداء على حرية الرأى والتعبير وكمان الاعتداء شخصياً على البنات.

في جهاز الداخلية، في الحزب الوطنى، في حكومة نظيف، دعونا نسأل هؤلاء: ماذا تقولون لأمتاكم وزوجاتكم وخطيباتكم فى مساءات السهرات يا سادة؟ لقد نجحنا فى ضرب بنات وهتك عرضهن، لقد أدبن فتيات المعارضة

ويهدلنا نسوان المعارضين!!

معقولة نظام بمنافقيه وأفاقيه ونصاييه ولاحسى حذائه وقطعان موالسيه يرتعب من هتاف بنات لا يملكن سوى شجاعة الحق فى مواجهه وقاحة الباطل، نعم إن قبض النظام الفاسد والمستبد على بنات وشابات فى وحشية مثيرة للاشمئزاز واصطناع قضية ضدهن (مع آخرين من زينة شباب ورجال مصر) دليل آخر على نظام فقد نخوته وشرفه!

أن يزج نظام بفتيات ونساء إلى السجن بتهم سياسية، فهذا يعنى أنه نظام فى لحظة ضعف وهشاشة وارتباك وفقدان أعصاب ويكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويعنى فى الوقت نفسه أن الوطن وصل لمرحلة من الغضب والغليان والفوران أدخلت البنت المصرية بقوة فى معركة ممتدة وواسعة ضد الطغيان وأظهر دخول البنات إلى السجن مشهداً تاريخياً فى حياتنا تكرر فقط مع لحظات التحول والتجدد، مثلما كان ظهور المرأة فى النضال الوطنى فى ثورة ١٩١٩ كذلك فى مظاهرات الطلبة العاتية والرائعة فى ١٩٦٨ و١٩٧٢ والتي كانت واحداً من أسباب حرب أكتوبر، ثم فى مشهد أخير كبير فى حياتنا فى مظاهرات ١٨ و١٩ يناير وقيمته بعدها دخول سجينات من شريفات سيدات مصر ونبيلاتهما ضمن المعتقلين فى أحداث سبتمبر عام ١٩٨١، وهذه المؤشرات تقول بصراحة إن النظام الحاكم عندما يستغى ويعيد أخطاءه فإن التاريخ لا يرحمه!

يقينا ضباط أمن الدولة يكرهون الثقافة ولكن كراهيتهم تبلغ حداً من العتو والغلو مع المثققات.

يكره الضباط البنت المثقفة والسيدة المناضلة والمشتغلة بالسياسة كراهية عميقة ولكنها غير مستغربة فإلى كون الضباط شخصاً غير مثقف ومبرمج على تعليمات وأوامر وتربى على السمع والطاعة والتنفيذ دون مناقشة ونشأ على تقديس أوامر وتعليمات رؤسائه فهو غير مؤهل لاحترام اختلاف وجهات النظر أو حق الجدل والنقاش أو امتلاك رؤية مستقلة. يقول الدكتور محمد المهدي أستاذ الطب النفسى فى دراسته حول التعذيب إن واحدة من أهم صفات ضباط التعذيب (أو

غيرهم) هي المسايرة وتعنى أنهم يستجيبون لأوامر رؤسائهم استجابة تقسم بالاستلاب والخضوع والمسايرة، ولا يناقشون هذه الأوامر ولا يعرضونها على عقل واع أو ضمير حى، فهم فى هذه الحالة يطيعون رؤسائهم طاعة عمياء وينفذون أوامرهم فى التعذيب دون بصيرة، وغالبا ما يكون هؤلاء المسايرون المنفذون من أصحاب الذكاء المحدود والثقافة الضحلة أو المنعدمة، ومن الذين يسهل إقناعهم واستهواؤهم والإيحاء لهم بأن ما يفعلونه فيه مصلحة للبلاد أو للبشرية أو لقضية ما. هذه الصفة التى تحدث عنها الطب النفسى تتجلى فى ضباط القبض والتعذيب والملاحقة والمطاردة للنساء، فالضابط ينظر للعالم كله باعتباره أوامر وتعليمات وطاعة ومن ثم تستفز السيدة المثقفة كل كوامن العدوانية لدى ضابط أمن الدولة فى المجتمع القمعى مثل مصر لأنها فضلا عن كونها امرأة وهى بمثابة الكائن الأدنى من وجهة نظر الضابط فهى تتحدى وتواجه وترفض وتناقش مما يجعل الضابط متصاعرا أمامها شاعرا بالنقص والتدنى فيصبح أكثر عنفا وعدوانية ضدها، فيطلق عليها فوراً ألفاظا بذيئة سواء بينه وبين نفسه أو مع زملائه ورؤسائه، حتى يشعر فوراً بقوة أمامها فهو يدارى شعور النقص بعدوانية اللفظ، ثم هو يحاول إهانتها وتجريحها بالإيحاء أو الإيحاء أو الملاحظة الفجة الفظة أنها مش لاقيه راجل يشكمها (وكأنه هو الرجل المؤهل لذلك) ثم كذلك يبذل ضباط أمن الدولة دورا هائلا فى دس بلطجيات أو نساء مسجلات خطر وآداب للتحرش وضرب سيدات المظاهرات وتطور الأمر إلى حد استخدام بلطجية تحت إشراف رجال الأمن للتحرش بالمظاهرات منذ عامين (٢٥ مايو ٢٠٠٥ تحديدا)، الضابط فى مواجهة البنت الطالبة أو السيدة المناضلة يواجه كل نقائصه ورجولته المقهورة المطمورة بتنفيذ التعليمات مثل الولايات، من هنا يكون أكثر قسوة وخسة فى الحرب ضد المرأة المثقفة ذات الرأى، واللحظة التى سمح فيها رجال الشرطة المصرية لأنفسهم بختطف الأمهات والأخوات رهائن من أجل حضور أو تسليم الشاب المتهم بالإرهاب نفسه، عند هذه اللحظة فقد الأمن شرعيته تماما، فقد تحول إلى عصابة أمنية وليس مؤسسة أمنية، لقد صار كأنه

الوضع اليومي لدى أفراد أمن الدولة الذين يذهبون للقبض على شاب متهم في خلية إرهابية (وأغلب الظن أن الأمر كله ملفق كالعادة) فلا يجدون الشاب في بيته فما يكون منهم سوى سحب العائلة بالكامل بناتها ورجالها واحتجازهم كرهائن حتى يأتي المطلوب، وتتعرض البنات والسيدات على هذا النحو لإهانات حقيرة وظروف نفسية مذلة وقامعة، ويمارس الأمن هذا السلوك العدواني الرخيص بشكل عادي وروتيني، لأن هذا الأسلوب على تدنيه وحقارته وعدم قانونيته يثبت فاعلية شديدة مع المتهمين فلا يطبق أخ أو زوج أو أب على أسرته هذه المهانة فيسلم نفسه ليحمى عرضه، لكنه في الوقت نفسه يضمن شرا وكرهية كفيلة بتفجير الشر داخله بل وأن يتطرف إذا لم يكن كذلك حتى حينه، هذا السلوك الأمني المعتاد (لاحظ أننا نعيش أزهى عصور الديمقراطية وأن القبض على أسرة بالكامل وعلى أخوات وبنات أمر تجيزه مواد قانون الطوارئ) كان سببا مباشرا في التفجيرات الإرهابية (الانتقامية على الأرجح) في سيناء حيث سجن الأمن وخطف واحتجز هناك عشرات السيدات من نساء العائلات والقبائل التي كان يسعى جهاز الشرطة لتفريق التهم ضدها الأمر الذي جعل رجال البدو في سيناء يتجهون إلى الثورة ضد الجهاز الأمني فضلا عن انتماء شباب هذه العائلات والقبائل إلى المنظمات التي تلقي الشرطة مسؤولية الحوادث عليها حتى الآن، وأنتجت سياسة انتهاك المرأة دخول الشباب المصري ظاهرة تفخيخ الذات وتفجير النفس على طريقة العمليات الانتحارية.

كذلك اعتداء جهاز أمن مبارك على النساء ليس أمرا مقتصرأ على البنات والسيدات المثقفات والمناضلات في العمل السياسي اللاتي يبغين تطور وتقدم مصر وحصول الشعب على حريته وعتقه من عبودية لفرعون لم يكن هناك رجال في مواجهته زمنا طويلا، هذا العدوان الأمني على المرأة واضح تماما في مجال حرب مبارك على التيار الديني، خاصة الإخوان المسلمين، صحيح أنه لم يقبض على فتاة أو سيدة إخوانية حتى الآن لكن التصرفات الحمقاء والانتحارية التي يقدم عليها النظام تشي بأنه من الوارد جدا أن تتكرر تجربة القبض على زينب الغزالي

والأخوات المسلمات، لكن المؤكد أن الحصار والاعتداء على سيدات وبنات الإخوان فاق كل الحدود في انتخابات البرلمان الأخيرة فضلا عن أن القسم الغليظ الذي أقسمه نظام مبارك على عدم نجاح أى امرأة إخوانية في الانتخابات واضح الدلالة فهو نظام يخشى النساء الحرات، يخشى من المرأة المعارضة، المثقفة المناضلة، ومن ثم فالنظام لا يفرق بين جيهان الحلقاوى وليلى سويف، وبين مكارم الديرى وعائدة سيف الدولة!

نظام مبارك أعلن أنه لا حدود في الدفاع عن بقائه على العرش بعد ربع قرن من الحكم ودخوله سن الثمانين، لا حدود ولا خطوط حمراء ولا حد أدنى من القيم، حسنا، هذا وقت النساء فعلا! كيف؟

في واحد من أسوأ أشكال الدكتاتورية في العالم كانت دول أمريكا اللاتينية تعيش وتعانى، لكن هذا التحول الديمقراطي العظيم الذى جعل من هذه الدول الآن واحة ديمقراطية بدأ بالأدب، حيث ظهرت روايات ضد الاستبداد وروائيون أدباء حولوا مقاومة الاستبداد والدكتاتورية إلى فن يهز وجدان الدنيا ويحرك عقلاها، كذلك ظهرت أممات ساحة مايو (place de mai) هذا الميدان في العاصمة الأرجنتينية (حاجة كده زى شارع عبدالحالقي ثروت) كان عبارة عن مكان تجمع أممات المعتقلين والمخطوفين على يد النظام الدكتاتورى، في كتاب «أم ضد الدكتاتورية» تقول دانييل ميران (.... سوف يكسب الدكتاتوريات وجلادها... يواجمن، يثرن، يتظاهرن، يستفرن الرأي العام بدون خوف، يشجع بعضهن بعضا فيصبح صعبا تجاهلهن، يرغمن الجميع على احترامن فيثرن قلق الجزالات، يجمعن مؤازرة المنظمات الدولية ويجذبن كل أشكال التضامن، إن قوة حب أم مجروحة في لحم أولادها ستعرفون وزنه وإن كنتم جلادين!) استطاع تجمع نساء ساحة مايو أن يقود ضمير الأرجنتين كله للتمرد والثورة والحركة المدنية الرائعة التى أدخلت الأرجنتين عصر الديمقراطية والتعددية والانتخابات الحرة ومواجهة الفساد. حين تتحرك النساء للمقاومة ضد محتل (جميلة بو حريد مثلا)، أو ضد

استمرار حرب (حركة النساء الأربع في إسرائيل من أمحات الجنود اللاتي أجبرن رئيس الوزراء باراك على الانسحاب أمام مقاومة حزب الله في جنوب لبنان) أو ضد الدكتاتورية (حركة أمحات ساحة مايو مثلا) فإن هذا يعني نجاحا حقيقيا قادما وأكيدا، لقد تعرفنا والتقينا في حياتنا بعتريس وعتاريس كثيرين، لكن الأهم أن تظهر فؤادة..

نحن جميعا في حاجة إليها..

إلى أم عمارة الأنصارية.

كانت أم عمارة الأنصارية ممن ثبت بجوار النبي صلى الله عليه وسلم لما هرب مسلمون وانهمز آخرون في معركة أحد، وقفت أم عمارة مع أبنائها ثابتة شامخة مقاتلة تدافع عن نفسها حينما وعن النبي صلى الله عليه وسلم أحيانا أخرى، وشهدت الحرب وشاركت مقاتلة مع زوجها وابنيها حبيب بن زيد وعبد الله بن زيد وقد أبلت بلاء حسنا وجرحت اثني عشر جرحا حتى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - في غمار المعركة وغمرة الحرب قال لها (ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة) وقد ظلت أم عمارة في القلة الثابتة المحيطة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - تدافع عنه بالسيف والسهم ولما صرخ ابن قثمته عندما وجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد ولى الناس عنه قائلا دلوني على محمد فلا نجوت إن نجى، فتقدمت أم عمارة بكل ما فيها من قوة إيمان واعترضته على نجاتها وضخامته، تمنعه عن الوصول للنبي - صلى الله عليه وسلم - فضرها ابن قثمته ضربة وحشية فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يصيح: يا ابن عمارة أمك أمك، وروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاقل دوني.. ولما انتهت المعركة وعاد النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - إلى بيته أرسل يسأل عنها فرجعوا إليه يخبرونه بسلامتها، فسعد النبي - صلى الله عليه وسلم - وسر وابتسم وقد قال عن أم عمارة وأسرتها (اللهم اجعلهم رفقاى في الجنة).

لا نصر في حرب ضد الشرك أو الاستبداد أو الفساد إلا بأم عمارة الأنصارية.. وقد ظهرت!

الشعب والفرعون

يقول الرئيس مبارك لتابعيه وموظفيه من رؤساء التحرير الحكوميين الذين يصحبهم معه في الطائرة الرئاسية إن مصر تتعرض لحملة من قوى دولية في الخارج لأنها (مصر يعنى) ترفض الخضوع!

وهذا أمر طيب أن يعترف الرئيس أخيرا بأن هناك حملة في الخارج ضد مصر، فقد تعود طول الوقت هو ومن معه (أو بالأحرى من حوله ومن تحته) أن ينفوا وجود أى هجوم عليه من الخارج ويتحدثوا عن الصداقة العميقة والمصالح الاستراتيجية، ها هو مبارك أخيرا يتخلى عن أهم ما فى سياسته وهو الإنكار فهو ينكر دائما وجود أى مشاكل أو أزمات أو معارضة أو مواجهات أو أى غضب ضده وضد سياسته وسيادته، ويلح دائما على أنه مرتاح قوى!!

ولأن الرئيس مبارك يعتبر نفسه ونظامه مصر فهو يرى أن هناك حملة على مصر! بينما الصورة الواضحة الساطعة أن الحملة ضد مبارك شخصيا وضد نظامه وممارساته وليست ضد مصر أبدا فهل مصر لا تسمح الله هى التى نزلت من بيتها بالآلاف العساكر والجنود وضباط الأمن المركزى لتضرب وتسحل وتعتقل المتظاهرين المتضامين مع القضاء؟! هل مصر التى يرسمها رسامو الكاريكاتير على هيئة سيدة جليلة جميلة وملابس بيضاء هى التى ضربت المواطنين فى الشوارع واحتلت البلد كما يحتلها جيش دولة غاصبة غاشمة مثلما جرى فى بلدنا (ويجرى) فى الشهور الماضية؟ هل الست مصر التى فعلت ذلك فتستحق حملة من الأمريكان أو الأوروبيين أو غيرهم أم هو نظام مبارك وأوامر مبارك وقوات أمن مبارك هى التى ارتكبت مخالفات وجرائم وانتهاكات ضد حقوق الإنسان وضد المواطنين المصريين ومن ثم لا يستحق هذا النظام حملة سياسية ضده بل أكثر

من ذلك فقد ينال محاكمة دولية يستحقها تماما على الفضائع التي ارتكبتها ويرتكبها!
الحقيقة أن الرئيس مبارك هو رئيس مصر ولكنه ليس مصر!
وأن الهجوم على نظامه وحكمه ليس حملة ضد مصر بل هو حملة ضد رئيس
ونظام يمارس سياسة مستبدة ضد شعبه وضد معارضي حكمه!
إن الهجوم على جورج بوش ليس هجوما على أمريكا ولا الشعب الأمريكي،
كذلك النقد والهجوم على توني بلير ليس نقدا للشعب الإنجليزي بل لرئيس
وزرائه، والشاب الأمريكي الذي يخرج في مظاهرة ضد بوش مرتديا قناعا يبين
بوش على أنه مصاص دماء ليس شابا كارها لبلده أمريكا بل هو كاره لرئيس
أمريكا وإدارته، ولم يخرج في يوم من الأيام أى رئيس دولة محترمة وديمقراطية في
العالم فاشتكى أو عاتب أو حاسب (دعك أساسا من أن يحاكم) أحدا لأنه انتقده أو
هاجمه أو وصفه بأى وصف أو سميت، ولم توجه دولة ديمقراطية محترمة في أى
مكان في العالم يوما تهمة إهانة الرئيس لأى متظاهر أو معارض أو مواطن أو
كاتب أو صحفى، بينما في دولة مثل مصر تقدس حاكمها وتحاول أن تجعل رئيسها
إلها: (فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) سورة الزخرف ٥٤،
يوجهون تهم إهانة الرئيس بينما عندما كنا نهاجم ونفضح وننقد صدام حسين فنحن
لم نكن نهاجم العراق وشعب العراق ولكننا كنا (وكان العالم كله) نهاجم رئيس بلد
ولا نهاجم البلد نفسه، إنما تحويل رئيس كل بلد إلى كونه هو البلد نفسه وذاته فهو
أمر لا نراه إلا في الدول الدكتاتورية المستبدة مثلما الحال في مصر تماما رغم أن
مصر بالذات والدول الدكتاتورية كذلك لا يحق لرؤسائها الزعم بأنهم جاءوا عبر
اختيار حر مباشر نزيه من شعوبهم فجميع انتخاباتهم مزورة ومزيفة والله يرحم ال
٩٩ وال ٩٨ وال ٨٨% وتلك النسب المزورة التي لم تكف مصر عن الاستعانة
بها، في بلد لا يقدر مواطنوه على اختيار رئيسهم بحرية فليس لرئيس أن يدعى
من أساسه أن الهجوم عليه هجوم على بلده ووطنه!

لقد كان الرئيس الراحل أنور السادات يعتبر كل معارضي معارضين لمصر وأنه
مصر ومصر هو، تماما كما يريد أن يقنعنا حسنى مبارك أنه مصر (وَنَادَى فِرْعَوْنُ

فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الزخرف ٥١، فإذا تعرض لهجوم وحملة عليه من الكونغرس الأمريكي أو الاتحاد الأوروبي أو منظمات حقوق الإنسان أو الصحف العالمية والإعلام الغربي يسارع هو ورجاله إلى وصف هذا الهجوم بأنه هجوم على مصر، أو استهداف لمصر، لكن أحدا لم يتكلم علينا ويعبرنا ويقولنا مصر (التي هي الرئيس مبارك من وجهة نظره) مستهدفة ليه؟ بالذمة حد يجاوب؟

مصر مستهدفة ليه؟ ومن مين؟ وإزاي؟
جايز مصر كانت مستهدفة لما كنت صغيراً وهي كبيرة، لكنني الآن كبرت وصغرت مصر، فأريد أن أعرف لماذا يستهدف العالم والقوى الخارجية مصر. مبدئياً مش قادر أقتنع أن مصر مبارك (كما يحب المنافقون أن يصفوا مصر فيجعلونها بنت أو حفيدة مبارك) مستهدفة من الغرب وهي تتلقى منه معونات مالية ضخمة ومنحا مالية وفنية وصناعية وتكنولوجية هائلة، بل إن مصر وإسرائيل أكثر بلاد الدنيا تلقيا لمعونات أمريكية في السلاح والاقتصاد، ومصر تتلقى معونات ومنحا من ألمانيا وفرنسا والدنمارك واليابان والصين وروسيا وإيطاليا وكندا وانجلترا وكوريا، إذا كان كل هؤلاء يمنحون مصر كل هذه المنح يستهدفونها بأمانة إيه؟

بلاش خالص حكاية المنح والمعونات والقمح والدواء والكباري والمجاري والمطرو والكيبوتر والأنفاق، دعك من كل هذا!
احتمال هناك من يستهدف مصر لأنها دولة قوية؟
كويس جدا..

قوية في إيه إن شاء الله؟!
هل تنتج مصر أخطر الأسلحة مثلاً؟ هل تملك قوى نووية تخيف أحدا؟ لا. طيب هل تملك أهم مخترعات علمية سوف تبدل الكون ومن ثم الكون خايف من علوم وعلم مصر، لأ، بلاش، ممكن تكون مصر عندها تكنولوجيا جبارة من

الإبرة للصاروخ ومن ثم العالم كله يفرفر وركبه بتخبط في بعض فزعا من تكنولوجيا مصر، الإجابة لا، إذن أكد مصر عندها تعليم وجامعات خطيرة فظيعة علمية معملية فذة سوف تسحق جامعات العالم كله ولهذا فالقوى الخارجية البشعة الكلبة تستهدف مصر من أجل هذه الجامعات، لكن المؤسف أن جامعات مصر ليست خطرا سوى على جامعات الصومال هذا لو في الصومال جامعات أساسا، آه، آمال مصر مستهدفة ليه؟

احتمال لأنها تملك مخزونا هائلا من حقول النفط وستعوم على بحيرة من بترول لدرجة أن الناس ستجذب بالمراكب الشراعية في بحور البترول قريبا، للأسف لا يوجد مخزون بترول يستاهل أن تستهدفنا جيوتقوى وليس العالم بأسره، آه فهمت، أكد مصر مستهدفة عشان النيل، ماله النيل، نحن أساسا مصب للنيل ولسنا منبعا له ونحن الذين نخاف أحسن يمنعون عنا الماعون والنيل ومن ثم إحنا اللي خايفين ولا نخيف أحدا، إذن فعلا وحقا وصدقا، لماذا يستهدفون مصر إذا كانت مصر دولة عادية مديونة بثلاثين مليار دولار للخارج ولا تصدر للعالم كله إلا بحوالي من أربعة إلى ستة مليار دولار (معظمهم بترول) وهي قيمة أقل بكثير مما تدره أفلام هوليوود من إيرادات من خارج أمريكا؟!

ما الذي تهدد به مصر هذا العالم وتلك القوى الخارجية حتى تلبد هذه الدول لنا في الدرة وتستهدفنا؟

ربما لأن مصر مبارك شامخة الهامة لا تتحنى ولا تخضع في سياستها أبدا، احتمال، لكن مرة أخرى بأمانة إيه؟

الرئيس مبارك يتصل بإيهود أولمرت رئيس وزراء إسرائيل كل يوم جمعة (قبل الصلاة) ودعا لزيارة مصر بدل المرة عشرة ثم إن مصر تشارك أمريكا وإسرائيل وأوروبا في حصار الشعب الفلسطيني وتمنع عنه تحويل مليم أو فلس واحد من بنوكها (محدث قال أصلا إنها تتبرع بل مجرد تسريب فلوس التبرعات تتحول)، إذن مصر ليست سبع البرمبة الذي يعطل سياسة إسرائيل وأمريكا بل هي تشاركهم لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة في حصار حماس والشعب الفلسطيني ثم هي مصر

وليس أحد غيرها من يتوسط طول الوقت ويضغط على حماس كي تعترف بإسرائيل، فلم تعطل مصر جدار إسرائيل العازل ولم تمنع رصاصة من مسدس إسرائيلي ضد طفل فلسطيني بل وأسوأ من هذا وأفدح أن مصر هي التي تزود دبابات العدو الصهيوني بالبتروول والنفط الذي تمشى به وتسير وتساfer وتقتحم الدبابات والطائرات الإسرائيلية فلسطين شعبا وأرضا لتقتل وتدمر الفلسطينيين وفلسطين (أيها أقرب!)، نعم أيها الشعب الكريم فإن ٨٠% من البترول الذي تستورده إسرائيل تستورده من مصر، من حقول بترول سيناء، آه والله العظيم، وإذا كانت الحكومة يمكن أن تنصب علينا ونقول إن توريد وتزويد بترول مصر لإسرائيل إنما هو طبقا لمعاهدة السلام مع إسرائيل (!! فالرد الباتر الحاسم أن مدة هذه الاتفاقية ببندوها العلنية والسرية تنتهي بعد عشرين عاما من توقيعها أي أنها انتهت فعليا عام ١٩٩٩ فلماذا ما زلتم تزودون دبابات وطائرات ومدركات وسيارات قتلة إسرائيل بالبتروول المصرى وكذلك بالغاز المصرى الذى تلتزم مصر بتزويد إسرائيل به بل وبأقل من سعره فى السوق العالمية بفروق مذهلة!؟

السؤال لماذا تستهدف إسرائيل هذا الصديق والشريك المصرى إلا إذا كانت إسرائيل هبلة وعندها محتلين أكثر منا (تخصص كنايس!)؟!

نفس السؤال: ولماذا تستهدف أمريكا مصر وهى التى تمولها وتمنحها كل هذه المنح؟ هل عطلت مصر قرارا لأمريكا بل هل أغضبته ذات مرة أو حتى اندلعت عليها شوية وسأقت العوج؟ إطلاقا، لقد سمحت مصر لسته وثلاثين ألف طلعة رحلة جوية أمريكية عسكرية بالعبور والمرور من الأجواء المصرية لضرب أفغانستان والعراق، فى الوقت الذى رفضت فيه تركيا تماما أن تمر طائرة أمريكية واحدة فى سماءها، لقد رأينا ماذا فعلت تركيا الدولة الديمقراطية، تركيا رفضت ستة مليارات دولار منحة كاملة من أمريكا كي تسمح بعبور طائرات أمريكا أجواءها رفضت تركيا هذه الرشوة لأنها بلد ديمقراطى حر ولم تدعن للترغيب ولا للترهيب (أردوجان لا يريد توريث ابنه الحكم)، ثم إن الرئيس مبارك لا يكف هو ووزير خارجيته عن التحذير من خروج قوات الاحتلال الأمريكى من العراق ثم مصر لا

تكف عن التحذير من امتلاك إيران قنبلة نووية وهو ما تلح على رفضه أمريكا وإسرائيل معاً! ثم مبارك ذات نفسه الذى لم يكف عبر ستة وعشرين عاماً عن التصريح بأن مصر (مصره) تقف على الحياد بين الفلسطينيين والإسرائيليين، كأنهما طرفان على حق ومصر بلد محايد بينهما (سويسرا يا إخواني)، أى حياد بين الحق والباطل، بين الظالم والمظلوم، بين القاتل والمقتول؟! وتشهد كل السنوات الماضية أن مصر لم تغضب فى يوم من الأيام ولم تزعل أبداً حكام إسرائيل بل إن مبارك وبوش وحدهما دوناً عن العالم بأسره هما اللذان مدحا شارون واعتبرا رجل سلام!

إذن من الذى يستهدف مصر؟

وليه فعلاً؟

ثم إزاي؟

استهدفوها إزاي؟ عملوا إيه يعنى؟

إن الشيء الوحيد الذى فعلوه هو الإبقاء على هذا النظام الحاكم!

ما فعلوه هو تدعيم هذا النظام المستبد الدكتاتورى الذى ما كان يمكن أن يبقى سنة واحدة على عرشه دون دعم وحماية من العالم الغربى والأمريكى، لكنهم أوشكوا الآن أن يروا نهايته على يد الإسلاميين أو الإرهابيين فخافوا واهتزوا وقرروا الضغط على هذا النظام كى يجرى إصلاحات سياسية ويتحول إلى الديمقراطية.

هنا فقط وأول ما وصل الموضوع للكرسى إذا بمبارك وحكمه ونظامه يرفعون شعار إننا لن نخضع للضغوط والحملات!

هنا فقط قالوا لن نخضع!

لأنهم ولأول مرة أصبحوا مطالبين ومضغوطين للخضوع لشعوبهم ولإرادة شعوبهم من أجل الإصلاح والديمقراطية (وَأَصْلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) طه .٧٩

ومبارك عند كلمته فعلاً وأنا أصدقه فهو لن يخضع أبداً (كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) آل عمران ١١، لن يخضع لإرادة الأمة فيغير الدستور وبلغى المادة ٧٧ التى تنص على أبدية الحكم، ولن يخضع ويتنازل عن صلاحيات الفرعون الإله التى يتمتع بها فى الدستور، ولن يخضع ويطلق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف، ولن يخضع ويتوقف حزبه وحكومته عن تزوير الانتخابات ولن يخضع ويعطى للقضاء استقلاله ولن يخضع ويكف عن اعتقال وضرب وسحل وتعذيب المعارضين، ولن يخضع ويتوقف عن تسليم مقاعد الحكم لرجال الأعمال والمليارديرات ولن يخضع وتتوقف عمليات بيع القطاع العام ونهبه، لن يخضع مبارك ومتى خضع أى حاكم عربى لإرادة شعبه؟ (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) القصص ٢٨.

مبارك لن يخضع: (وَقَالَ فِرْعَوْنَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) القصص ٣٨.

بقى فقط أن نعرف هل سيخضع الشعب؟

أشك، فالشعب المصرى قام من غفوته، وتمرد على غفلته، فترقبوا واجلسوا أمام التليفزيون وستشاهدون ما سيحدث!

لقد حرص مبارك ونظامه على إحياء مادة كانت ميتة فى القانون بحكم موت الشعب وحين استيقظ أيقظوا المادة واتهموا بناء عليها المتظاهرين فى ميادين القاهرة الذين اعتقلوهم بتهمة إهانة رئيس الجمهورية وأظن أن النظام يعتقد يقينا أن معارضة مبارك إهانة له، فرئيسهم منزل منزله كالأنبياء ومعصوم كأولياء الله، ومن ثم ربما لا تقتصر التهمة الموجهة للمعارضين على إهانة الرئيس بل ربما تلحق بها تهمة ازدراء الأديان، فنفاق الرئيس دين وزرائه ومسئوليه ورجال بلاط حكمه! (وَقَالَ فِرْعَوْنَ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) غافر ٣٦.

حسننا لقد وجهوا للمعارضين تهمة إهانة الرئيس فماذا عن تهمة إهانة الشعب؟!

أليس الاعتداء بالضرب والسحل على المواطنين إهانة؟!

أليس هتك عرض البنات إهانة؟!

أليس انتهاك حرية المواطن وحقوقه إهانة؟!
أليس خطف الشباب ورميهم في السجون إهانة؟!
أليس تمزيق علم مصر إهانة؟!
إن المسؤولين المصريين في حد ذاتهم باستبدادهم واغتصابهم للحقوق
وللأعراض إهانة لمصر!
وعندما تشعر مصر بالإهانة فعينك ما تشوف إلا النور (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ
فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) الأعراف ١٣٧.

الفيل والنمل!

هل تعرف كيف مات عنتره؟

عنتره بن شداد فارس بنى عبس وبطل العرب المغوار وشاعرها الذى حررته فروسيته وبطولته من العبودية، كبر عنتره وشاخ وصار فى الثمانين من عمره ولكنه كان يصر على الغزو والضرب بالسيف واللعب بالرمح، حتى إنه غزا قبيلة مع قومه، فانهزمت قبيلته عبس التى يقودها ويتزعمها، فخرّ عن فرسه وسقط متهاويا ولكنه حاول القيام للقفز على ظهر الفرس فلم يقدر من الكبر والشيخوخة أن يعود فيركب، فدخل ما يشبه المغارة زحفا، فلمحه شاب من القبيلة المنافسة فترل إليه، واجه فارسا مسنا عجوزا زالت عنه الهيبة وراحت عنه القدرة وفرت قبيلته وقد نستته من الجرع أو الحجل، لكن الشاب أشفق على عنتره، ورفض أن يأخذه أسيرا ذليلا، فكيف لمثل هذا الفارس العظيم التاريخى الشامخ المهاب وقد تقدّم فى السنّ وأصابه من الكبر ضعف وعجز، كيف يتحمل أن تستعرضه العامة ويشتمت فيه الناس وتهينه العيون؟ ساعتها ما كان من هذا الشاب إلا أن رمى عنتره بسهم فقتله.

عنتره الفارس العظيم جاء اليوم الذى قتله عدوه شفقة وعطفا عليه! وكان مصر العظيمة الكبيرة وقد تحولت إلى عنتره فى شيخوخته وهرمه، لا تقدر على الصعود إلى الفرس مرة أخرى من ضعف وشيخوخة وعجز أصاب وطننا بفعل حكامه!

والغريب أنك تسمع من مسئولين كثيرين لغوا ورغيا كثيرا فى لوم وتأنيب أو فى السخرية والتهمك من الذين يتحدثون عن ضرورة مواجهة ضعفنا وعدونا ومقاومة الطغيان والاستعمار من الخارج والاستحمار من الداخل فيقولون ناصحين

لهؤلاء الباحثين عن الحرية: ابعدوا بقى عن العنتريات دى! أو يصفون كل مناهض لحكم ظالم واستبداد باطش بأنه من أصحاب العنتريات الفارعة!
وكأنهم لا يريدون قيم عنترية بن شداد من الكبرياء والتمرد على العبودية والدفاع عن العرض والبلد، بل يريدون هذا العنترية القعيد في نهاية أيامه الذين نجحوا في تحويل وطننا على شاكلته تماما، تشعر أن مصر كأنما هي جدة عجوز تطلب دهان ركبها من الروماتيزم!

تعالوا نقارن مصر بما وصلت إليه عدوتها إسرائيل (لو لم تكن متفقا معى في أن إسرائيل عدو لمصر أو ممن شعروا بالأسى من يد أيهود أولمرت على كنف الرئيس مبارك فتحمل المقارنة باعتبارها دولة منافسة يا سيدى).

يسرد العالم المصرى الدكتور نبيل على في كتابه الفجوة الرقمية (بالمشاركة مع الدكتورة نادية حجازى) مراتب إسرائيل عالمياً في مجالات العلم والتكنولوجيا فأورد قائمة بالمراتب التى تحتلها إسرائيل عالمياً: - المرتبة الأولى: فى نسبة حجم الإنفاق على البحوث والتطوير إلى إجمالى الناتج المحلى، وقد اختلفت الدراسات فى تحديد هذه النسبة ما بين ۳.۷ فى المائة و ۴.۴ فى المائة.

- المرتبة الثانية: بعد ألمانيا، فى عدد المهندسين بالنسبة إلى عدد السكان.

- المرتبة الثالثة: فى مستوى أودية السيليكون المنتشرة عالمياً، المتخصصة فى تكنولوجيا الاتصالات والانترنت فلا يفوق - وفقاً لآراء الكثيرين - وادى السيليكون الإسرائيلى ما بين حيفا وتل أبيب والقدس إلا وادى السيليكون الأمريكى.

- المرتبة الرابعة: فى التأثير على توجهات تطوير تكنولوجيا الاتصالات.

- المرتبة الأولى: فى نسبة صادرات السلاح إلى إجمالى الصادرات.

- المرتبة الخامسة: ما بين عمالقة الدول المصدرة للسلاح.

- المرتبة الثامنة: فيما يخص نظم الدفع الصاروخى لحمل الأقمار الصناعية إلى مداراتها فى الفضاء الخارجى.

- المرتبة الثانية: بعد الولايات المتحدة، من حيث عدد الشركات الصغيرة

المدرجة في قائمة شركات التكنولوجيا المتقدمة التي يتم تداول أسهمها في بورصة نيويورك.

- المرتبة السادسة: في عدد براءات الاختراع المسجلة بالنسبة لعدد السكان وهي تفوق في ذلك دولاً متقدمة مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا.

- المرتبة الرابعة: في عدد براءات الاختراع المسجلة في أوروبا وأمريكا.

- المرتبة رقم ١٢: في مؤشر الجاهزية الشبكية (البنية التحتية لمجتمع المعلومات)

وهي تسبق في هذا دولاً متقدمة مثل سويسرا وفرنسا واليابان وإسبانيا وإيطاليا والترويج.

- المرتبة الأولى: في تطوير نظم حماية أمن البيانات وتحسين مواقع الإنترنت

ضد الاختراق.

هل تحرق دمك بما فيه الكفاية؟

ما يقوله دكتور نبيل على والدكتورة نادية حجازي في كتابها ليس دعوة لليأس ولا رغبة في تعظيم إسرائيل، بل رغبة في المعرفة والوضوح واستنهاضاً للهمم من أجل المواجهة التي لم تعد مواجهة بالسلاح (ولم تكن مكاسبنا من خلاله كثيرة) بل مواجهة بالديمقراطية والعلم والعقل، الحقيقة أن معرفة قوة العدو أفضل كثيراً من الاستهبال والغفلة أمامه، لكن كي ندرك حرب القامات بيننا وبين أعدائنا تعالوا نستكمل مع كتاب الفجوة الرقمية (د.نبيل على، د.نادية حجازي) بعض مؤشرات الفجوة الرقمية بين العرب وإسرائيل (بضعة مؤشرات): نسبة استخدام الإنترنت لعدد السكان في إسرائيل ١٦ في المائة في حين تقل هذه النسبة عن ٣ في المائة في المتوسط العربي.

- عدد المالكين للكمبيوتر يبلغ في إسرائيل ما يقرب من ٤٧ في كل مائة فرد،

في حين يبلغ هذا العدد ٤ لكل مائة في عالمنا العربي.

- تحتل إسرائيل المركز رقم ١٢ من حيث مؤشر الجاهزية الشبكية، في حين

تحتل أعلى الدول العربية، وهي تونس، المركز رقم ٣٤، تتلوها المغرب في المركز

رقم ٥٢، فالأردن في المركز ٥٧ فمصر في المركز «٦٥».

- الناتج المحلي الإجمالي للفرد في إسرائيل يفوق نظيره في البلدان العربية مجتمعة وتزداد السعة بينها عبر الزمن.

- فيما يخص النشر العلمي يبلغ ١١.٧ بحث منشور لكل عشرة آلاف في إسرائيل، بينما يبلغ هذا المعدل «ثلث» بحث لكل عشرة آلاف في العالم العربي. - يبلغ عدد الكتب المترجمة إلى العبرية سنوياً ١٠٠ كتاب لكل مليون إسرائيلي في حين يبلغ عددها بالنسبة للعالم العربي ٣ كتب تقريباً لكل مليون عربي.

- يبلغ حجم الشركات التي تعمل في مجال تطوير تكنولوجيا الاتصالات ما يزيد على ٢٠٠٠، وهو أعلى من عددها في الدول العربية مجتمعة.

وإذا كنت تعتقد أن إسرائيل قد نجحت في كل هذا نجاحاً مذهلاً لأن أمريكا والغرب يدعمانها، فعندك حق، أمريكا والغرب تدعمان إسرائيل ولا شك ولكنها كذلك يدعمان مصر بلا أدنى شك، وإذا كانت معونات أمريكا قد ساهمت في بناء مجتمع إسرائيلي متقدم تكنولوجياً إلى هذه الدرجة لكن إسرائيل استطاعت استئثار هذه المساعدات في استراتيجية متكاملة للتنمية العلمية والتكنولوجية على حد رأى الدكتور محمد أشرف البيومي، ثم هي فرصة لتسأل نفسك عن معونات ومنح العرب وأوروبا وأمريكا لمصر وماذا فعلت بها (فضلاً عن أن إسرائيل ليس لديها بترول ولا غاز ولا قناة السويس ولا أهرامات وأقصر ورعب آثار العالم.. كما أنه ليس لديها قوة بشرية وسكان وعمالة مثل مصر تلك التي يستهين بها رئيس دولتنا ويصر على أن أزمة مصر الاقتصادية سببها نسل المصريين وخصوتهم رغم تلك النسبة المتصاعدة للعقم في هذا الوطن!) كذلك ماذا فعل العرب جميعاً بثروتهم التي بددها الحكام في الفساد والاستبداد (مع استثناءات محدودة)؟

لا رغبة لدينا في الانهيار بإسرائيل ولكنها الحسرة على بلد بدأ مجرد وعد فصار دولة، وعد من وزير بريطاني تحولت بعده إلى دولة تحتلنا وتحدانا وتتفوق علينا وتحولنا نحن من دولة (كفلسطين) إلى مجرد وعد، انتظار مجرد وعد من رئيس أمريكي أو رئيس وزراء إسرائيلي بدولة تسمى فلسطين!

هذا عار العرب وشنارهم، ومصر الشقيقة والرائدة والعميدة، ماذا فعلت إلا أن تحولت إلى عنتر القعيد، ولكن كيف نجحت إسرائيل فيما فشلنا فيه؟ اسأل عن الاستبداد والطغيان الذي يحكم مصر، على مدى خمسة وعشرين عاما جاء رؤساء وزراء لإسرائيل وتبدلوا وتغيروا وراحوا وجاءوا بينما التعددية في مصر مفقودة ومنتهية، انتخابات إسرائيل الحرة ونحن نعيش انتخابات التزوير والتزيف، في إسرائيل يسجنون العرب ويعذبونهم وفي مصر نرحب بالإسرائيليين ونسجن المصريين من كفاية والإخوان واليسار، في إسرائيل يحاكمون ابن شارون وفي مصر يرشحون الأبناء للوراثة في السلطة والمدد والبلد، في إسرائيل تتصارع الأحزاب وتتقاتل فيما بينها وتتحالف وتتآلف وفي مصر يقهرون الأحزاب ويحلونها ويطاردون الواعد منها ويسمحون بأحزاب المباحث وأمن الدولة!

الديمقراطية إذن والحرية فرق وفارق بيننا وبينهم.

إذن فلن فعل فعلهم!

ألم يقل ابن عباس رضى الله عنهما: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح، نحى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، فقال صلى الله عليه وسلم "أنا أحق بموسى منكم" فصامه وأمر بصيامه (متفق عليه).

نحن نفتدى بنينا إذن حين نقول نحن أولى بالحرية والديمقراطية منهم، نحن أولى بالمساواة والحرية والعدالة وعدم تقديس الرئيس منهم، نحن أحق بموسى وبالحرية منهم!

كيف إذن نخرج من هذه الحفرة؟

الحل في الحرية والعلم والعقل.

لا حرية اقتصادية نافعة ولا تنمية شافعة من غير حرية وديمقراطية ولكن كيف نحصل على الحرية والديمقراطية من أنياب الطغيان والتمسك بالسلطة والخلود الأبدى على مقعد الحكم والقوانين المقيدة للحرية وأمن الدولة والمباحث والخوف من السجن والمعتقل والفرع على لقمة العيش!؟

الإجابة عن هذا السؤال تستحق قراءة قصة «على ظهر فيل» وهي قصة عبقرية للأديب الفذ محمد المخزنجي.

القصة (وأنا أرويها بتصرف) عن مجموعة من الأشخاص في إحدى الدول الآسيوية لجأوا إلى حل للتغلب على الفيل بأن يضعوا في أذنيه الكبيرتين نملا، عشرات، مئات، آلاف من النملات، تمشى في أذن الفيل، دبيب النمل وأصواته وحركاته ومشيه على ضعفه وهشاشته وهوانه التام قادر على إزعاج الفيل ثم يشتعل الطنين في أذنه فيشتد الصداع فيتحول إلى جنون وانهباء فيتخبط ويخبط ثم يسقط مذعورا مدحورا، هذا الكائن الهائل، المغتر بقوته المتقوى بغروره المتعالى على الضعاف قليلي الحيلة يمكن أن يتهاوى ويسقط، فقط يتجمع النمل في أذن الفيل!

ولا تنسوا أن النمل هو الذي دل الناس على موت سليمان!

فَفَسَّقُوا فِيهَا

احسبها معي ..

زعم محمد رشيد وزير الصناعة في تصريح معمم على الصحف الحكومية ونشرته الأهرام يوم السبت ٢٧ مايو ٢٠٠٦ أن الحكومة سوف تنشئ ١٧٠٠ مصنع خلال ١٨ شهرا، فإذا تأملت هذا العبث الرشيدى الحكومى المبارك الذى تم نشره على سبيل الفرح والولع بالتقدم الصناعى البضاعى الفظيع الفزيع ستكتشف كم الهجص والنصب الحكومى الذى صار سمة من سمات حياتنا والذى تدار به أكبر عملية تضليل وكذب على الشعب المصرى فحسبة بسيطة تقسم فيها الألف وسبعمئة مصنع على الثمانية عشر شهرا إذ نفاجا بأن تلك الحكومة الخاوية الفاشلة، قال إيه، سوف تنشئ ٩٤ مصنعا فى الشهر الواحد أى أكثر من ثلاثة مصانع فى اليوم، شفتكم الكذبة المفضوحة السخيفة التى لا تخيل على عيل، كيف لدولة فى العالم -وليس فى بلد نام نائم مفسود برجال حكمه كمصر- تقدر على بناء ثلاثة مصانع فى اليوم حتى لو كانت مصانع لب وسودانى وغزل بنات وعسلية؟! أى مجنون فى عالم الاقتصاد والصناعة يصدق أن هناك مصنعا يتم انشاؤه فى ثلاثة أيام أو أن ثمانية عشر شهرا كفيلا ببناء ألف وسبعمئة مصنع حتى لو كانت هذه المصانع شققا أو محورا؟! ثم يتحفك التصريح الرشيد من رشيد بك حين يقرر أن هذه المصانع سوف توفر ٣٣ ألف فرصة عمل فإذا انتهرت فرصة أن ابنك معاه آلة حاسبة بمناسبة الامتحانات وحسبت عليها قسمة ٣٣ ألف فرصة عمل على ١٧٠٠ مصنع ستكتشف أن المصنع الواحد يضم فى المتوسط ١٩ عاملا فقط، مصنع إيه ده اللى فيه ١٩ عاملا؟! لو ورشة فى الموسيقى ولا فى دمياط عدد العاملين بها أكثر من مصنع السيد رشيد الذى يتم بناؤه بناء على تعليمات السيد الرئيس!

أليس من الغريب أن ينحدر النظام في مصر إلى هذا الحد من النصب؟! أليس هذا دليلاً على أنه نظام كذوب مضلل لا ممة له سوى الفشل والفساد والاستبداد!؟

ينشغل النظام المصرى فى تسويق أكذوبة كبرى ممطوطة ورتلة ومكررة لا تتوقف عن الإلحاح عليها خطابات الرئيس مبارك وحوارات نجله جمال وهى أن الإصلاح الاقتصادى له الأولوية وأن نظام مبارك يسير فى طريق الإصلاح الاقتصادى، ولا يمكن أن تفهم من هذا الإلحاح سوى أن مبارك ونجله ورجاله يريدون أن يقولوا للشعب والمواطنين، سييكم من الإصلاح السياسى والكلام الفارغ بتاع الناس الفاضية ومظاهرات القلة المنحرفة المندسة التى تعطل المرور (وهى تعطل فعلاً المرور... إلى كرسى الحكم) وسييكم من خوة الدماغ بتاعة الجرايد الخاصة والمغرضين العملاء وخليكم فى أكل عيشكم فنحن ممتون (نظام مبارك هو الذى يقول) بخبزكم وأكلكم وشغلكم ورزقكم والذى لن يتحقق بالشعارات ولا بمظاهرات تعديل الدستور ولا بإلغاء الطوارئ (وقد بلغت جرأة جمال مبارك على الحق أنه زعم أن قانون الطوارئ موضوع غير شعبى ولا تهتم به سوى النخبة وكان جمال مبارك يعرف الشعب وقابل الشعب وهمس الشعب فى أذنه وأخبره (الشعب) قائلاً أنا الشعب يا أستاذ جمال بيه ومش ممت بقانون الطوارئ! بالذمة جمال مبارك شاف الشعب فىن؟ فى النادى، ولا فى الجونة، أم التقى به صدفة فى شرم الشيخ، أم أن جمال مبارك يكلم الشعب فى التلفزيون!؟)

النظام يسعى إذن لإقناع الشارع المصرى عبر كل هذا اللغو الذى يقولونه أن الإصلاح الاقتصادى هو الأهم وهو الأولى، ليس هذا فقط بل يترجمون هذا الكلام للغة الإنجليزية ويرددونه للأمريكان وللجهات الغربية التى تسأل (لا أقول تلح أو تضغط) عن الإصلاح السياسى، يقول لهم جمال مبارك وإيشى نظيف وإيشى رشيد (وهم يلتقون المسئولين والإعلاميين الغربيين سواء فى الخارج أو فى القطامية هايتس) إن مصر تقوم بإصلاح اقتصادى سريع ومنتام فى مقابل بطاء متعمد للإصلاح السياسى حتى لا تقع البلاد فى قبضة الإخوان المسلمين إذا ما

أجريت انتخابات حرة وديمقراطية في أجواء الفقر والعوز المادى الذى يعيشه المواطن، ويبدو أن هذه النظرية الفجة تمشى وتخيّل على البعض ومن ثم تتكاثر صياغاتها على ألسنة المسئولين المصريين بالعامية المصرية وبالإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية، وحقيقة الأمر المر أن هذا ليس فقط كذبا بل هو كذب رخيص وساذج!

دعوني فقط أذكركم أن الرئيس مبارك (في شبابه) حين تولى حكم مصر منذ ربع قرن عقد مؤتمرا في فبراير ١٩٨٢ أى بعد حوالى أربعة أشهر من توليه الرئاسة وحمل المؤتمر اسم المؤتمر الاقتصادى ولم يتحدث فيه بنى آدم واحد عن الإصلاح السياسى ولا تعديل أو تغيير الدستور، مبارك الذى دعا للمؤتمر وشارك فيه ٣٣ من كبار اقتصادى مبارك وعهده وعدد كبير من الوزراء ورجال الدولة (كما تصف جريدة الأهرام وقتها) قال فى افتتاحه (وقد حضر جلساته فى اليوم التالى كذلك) إن هدفه تصحيح المسار الاقتصادى وقال سيادته (لا جدال فى أن ترسيخ قاعدة الاقتصاد الوطنى على أسس سليمة يأتى فى طليعة المسئوليات القومية لأننا إذا كنا نريد أن تكون مصرنا الحبيبة عزيزة قوية -وقد عاهدنا الله على ذلك - فلا بد أن تكون قوتها فى اقتصاد قوى سليم وأن نعمل على تحقيق الرخاء للمجتمع ككل وللأفراد الذين يؤدون حق الوطن عليهم فكان حقا علينا أن نحقق لهم الحياة الحرة الكريمة التى تجعل كلا منهم آمنا على يومه وغده متطلعا إلى المستقبل بطمأنينة وتفاؤل)..

هذا ما قاله مبارك فى ١٣ فبراير ١٩٨١ فى المؤتمر الاقتصادى، وأنا أسأل أى مواطن سابق عليه النبى يجاوب، هل تحقق لك فى الأربع والعشرين سنة (منذ هذه التصريحات والوعود المباركية) الرخاء والحياة الحرة الكريمة؟ هل أنت آمن أيها المواطن (الذى اختبرك الله بالعيش أربعاً وعشرين سنة تحت حكم ووعود مبارك)؟ هل أنت آمن على يومك وغدك؟ بلاش يومك وغدك خليك فى اللى إنت ملهى فيه، دعنا نسألك: هل أنت فعلا وحقا تتطلع الى مستقبلك بطمأنينة وتفاؤل؟

الحقيقة تقول إن مبارك لم يعد أحدا بشيء في هذا الوطن منذ جاء لحكمه الأبدى اللانهائى سوى بالإصلاح الاقتصادى، فهل نجح مبارك؟
لن أتحدث عن نسبة وعدد العاطلين في مصر، لن أفتح بقى بكلمة عن ديون مصر الداخلية والخارجية والتي تمثل جرسه لنا بين الأمم، لن أفصل وأفسر في عجز ميزان المدفوعات والفجوة الهائلة بين استيرادنا وتصديرنا ولن أهوّب ناحية قيمة الجنية المصرى في مواجهة العملات الأجنبية بل إتنى لن أستغل الحقيقة المؤسفة التي تؤكد أن ٤٤% من الشعب المصرى تحت خط الفقر!!

لن أقول هذا الكلام إطلاقا بل فقط سأترك موظفا يقبض ٦٠٠ جنيه في الشهر ومراته بتقبض ٣٥٠ جنيهاً يجيب، بعد أن يدفعها ٨٠٠ جنيه قيمة الدروس الخصوصية لعيالهم! كيف تأكل العائلة، ومن أين تشرب وتلبس وتخرج من بيتها أساسا؟

سأدع آلاف الشباب الذين يتزاحمون على وظيفة بمرتب ١٥٠ جنيهاً يقولون لنا ماذا ستفعل لهم المائة وخمسون جنيهاً؟
سنسأل موجهاً في منطقة تعليمية بمرتب ٦٠٠ جنيه في الشهر، وزوجته موظفة في السنترال تتقاضى ٢٨٠ جنيهاً كيف يوفر أدوية الغسيل الكلى التي تتكلف ٤٠٠ جنيه شهريا ويعيش بالباقي مع عياله؟

لن ترد الأرقام على مبارك (وهي بليغة وقاسية وحاسمة) بل يرد الواقع الذى ينحدر وينهار مبارك ونجده يعدان الناس بإصلاح الاقتصاد من اجل حياة كريمة، طيب والذى لم يصلح هذا الاقتصاد منذ أربع وعشرين سنة كيف سيصلحه الآن؟ كان فين ده كله؟ ولإمتى الناس ممكن تستني؟ لغاية ما تأكل بعضها!

الإصلاح الإقتصادى قبل السياسى جملة وفكرة ومنهج فاسد وتدلّيس يقوله الحكم ويدعيه ويردده من خلفه المستفيدون والمرتشون والأفاقون والمنافقون والجامدون والمستهلون والنهابون والحكوميون والمشتاقون، والحقيقة المؤكدة أننا نسمع ونرى ونقرأ ونشم ونلمس منذ عام ١٩٨٢ في مصر هذا الكلام الهرائى عن الإصلاح الاقتصادى ومؤتمرات وراء أخرى وسياسات افتتاح وتعليمات صندوق

النقد والبنك الدولي وتعويم الجنيه وتغريق اقتصاد مصر وكل هذا الذى يجرى فى حياتنا تحت شعار ودعوى الإصلاح الاقتصادى، فأين هو هذا الزفت الإصلاح الاقتصادى؟! نحن عمى صم بكم لا نفهم ولا نعرف، قولوا لنا أتم، هل ما نعيشه من فقر وارتفاع جنونى للأسعار وبطالة مزرية وانهيار للجنيه المصرى ونهب للبنوك ورشاوى، هل هذا هو الإصلاح الاقتصادى الذى هرتونا كلاما عنه ونظريات حوله، وبعد هذه الحية المتلثة ينفضون عروقهم هؤلاء الكذبة ويتحدثون عن ضرورة الإصلاح الاقتصادى، يا نهار أسود، وماذا تسمون كل هذا الهباب الذى فعلتوه فىنا كل هذه السنين!؟

لم ولن ينصلح الاقتصاد المصرى أبدا فى عهد مبارك ولا فى ظل حزب ابنه طالما انه اقتصاد بلا سياسة!

الحقيقة أن أى محاولة لإصلاح الاقتصاد لا يمكن أن تحقق شيئا طالما غابت الرقابة والمحاسبة والشفافية والديمقراطية، نعم ولا إصلاح اقتصاد العالم سوف يفعل معنا شيئا إلا لو هناك انتخابات حرة حقيقية وعدم احتكار للسلطة وتداول للحكم وحرية تكوين الأحزاب من غير لجنة حكومية فضة وفاشية تمنع أى حزب حقيقى من الظهور، عندما تكون هناك حرية إصدار صحف لا يتحكم فيها أجهزة أمن ولا تقارير أمنية ولا رضا الحكومة والحكام، عندما تتحرر الصحف القومية من ملكية الدولة ورتاسة المخبرين...الصحفيين)، عندما تكون هناك محطات تليفزيون خاصة وليس تليفزيون واعلام أمن الدولة، غير كده إبقوا قابلونى لو تقدمت البلد خطوة، أو حتى سنتيمتراً، وسنبقى متخلفين فى الاقتصاد والسياسة، مرميين على رصيف الحضارة!

الإصلاح السياسى هو الذى يضمن إصلاح الاقتصاد، ولو كان هناك إصلاح سياسى ما تمكنوا من بيع القطاع العام بأبخس الأثمان وبكل الفساد والنهب الذى جرى، كانت مصر المنصلحة سياسيا ستجابههم وتواجههم وتعاقبهم، ساعتها نبقى عارفين مين يبيع إيه ولمين وفين، وليس تحت الترايزة وعمولات ومحاسيب وبكل هذا التواطؤ والفجور فى التقييم المتدنى لقيمة تلك المصانع والشركات المباعه ومن ثم

لن نجد عمالاً يتشردون ولا موظفين يبقوا معاش مبارك ولا بطالة بل استيعاب للشباب والعمالة الجديدة، لو كان هناك إصلاح سياسى وديمقراطية لن تترك رئيسا لمؤسسة قاعد على تلها لما يجرها ويعمل شركات لابنه وأبناء شركائه وينهبون فى المؤسسة حتى تتساقط مديونة بالمليارات، لو فيه إصلاح سياسى لن نجد أى رئيس مؤسسة يقعد برضا مبارك بل كان سيبقى بدمته المالية وإدارته الزهية وليس بولائه وبقائه، إذا كان هناك إصلاح سياسى لم يكن صديق النجل يصبح متحكما فى البرلمان والحزب ومحتكرا لسعة استراتيجية ويشترى ويصير ثريا من القطاع العام واحتكاره الذى يرفع الأسعار بجنون من غير ما بنى آدم يقول له تلت الثلاثة كام (واحد!) لو كان هناك إصلاح سياسى لاستطعنا أن نحاسب يوسف والى وعاطف عبيد! ولمنعنا أى مسئول فاسد أو وزير مترج أو مرتش!

لوفيه إصلاح سياسى لن تصدر القوانين التى تتحكم فى أكل عيش ورزق الناس لصالح قلة وشلة.

لهذا كله يحاول نظام مبارك ومنتخب نجله فى الحكومة والحزب إقناع الناس بأن الإصلاح السياسى هو مجرد كلام عن قانون الطوارئ والرغى بتاع الأحزاب وردالات المثقفين، بينما يزعمون أن قلوبهم على الناس فيتكلمون عن الاقتصاد ويريدون إصلاحه وبينما هم أنفسهم الذين خربوا الاقتصاد وجابوه لمس أكتاف يؤخرون ويعطلون الإصلاح السياسى لأنه ببساطة سوف يكشفهم ويضرهم ويوقف حالهم ويمنع مكاسبهم المخفية وثرواتهم المنتفخة، الديمقراطية إذن هى الضمانة الوحيدة (ولا شىء غيرها) كى تحيا الناس حياة اقتصادية شريفة كريمة (ومنى وليلى كمان).

أما الكذب الذى يسوقه هؤلاء حول رغبتهم فى إنشاء المصانع (الوهمية والباذنجانية التى يتحدثون عنها) فيتجاهل تماما أنهم الذين يبيعون مصانع القطاع العام، طيب منين تبيعون مصانع جاهزة وشغالة وعمالة فيها بالآلاف ومنين بتنشئوا مصانع اسم النبى حارسها (١٩عاملا فى مصنع...المصنع الوحيد الذى يستوعب ١٩عاملا فقط هو مصنع الأكاذيب وتقتراح إنشاءه

بجوار مبنى الحزب الوطنى على كورنيش النيل!)
أنا لا أعرف كيف تقرأ الآية القرآنية (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَتَسَفَّوْا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا)، الإسراء ١٦ ..

فالآية لها قراءتان، أن تقرأ كلمة " أَمَرْنَا " بِالتَّشْدِيدِ، أَى سَلَطْنَا بِشَرَاهَا
فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ. أما القراءة الثانية فهى " أَمَرْنَا " بِتَشْدِيدِ
الْمِيمِ، أَى جَعَلْنَاهُمْ أَمْرَاءَ مَسَلِّطِينَ، وَتَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ. وتقرأ أيضا كما فى
تفسير الطبرى الذى نعتمد عليه هنا " أَمَرْنَا " جَعَلْنَاهُمْ أَمْرَاءَ.

إذن الآية تقول إن الله سبحانه وتعالى عندما يريد إهلاك قرية (بلد - وطن -
دولة) جعل المترفين فيها (من الأغنياء حتى الترف، المرفهين حتى السفه،
المليونيرات أو رجال أعمال ممن لا يخشون الله، أكبر كبرا وغرورا) جعل هؤلاء
المترفين حكاما وأمرآ ووزراء وولاية أمر ومستولين عن هذا البلد (سيطرة رأس
المال على الحكم). وَالْمُتْرَفُ : الْمُنْعَمُ. (المرفه الغنى غنى متوحشا المالتى مليونير)
إذن الآية تقول إن الله إذا أراد أن يهلك قرية جعل أغنياءها المترفين المرفهين
أمرآ وحكاما عليها فيفعلون ما يخبرنا الله بحتمية وقوعه وهو أن يفسقوا فيها ومعنى
الفسق كما جاء فى القاموس المحيط هو: التَّركُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالخُرُوجُ عَنِ
طَرِيقِ الْحَقِّ، أَوْ الفُجُورِ، وَالظُّلْمِ أَى لَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا الْفُسُوقُ الْأَخْلَاقِي بَلِ
الْفُسُوقُ بِمَعْنَى الظلم والاستبداد.

والآية تؤكد أن ولاية المترفين سبب الهلاك، وها هم تولوا وترأسوا وتورثوا
وملكوا وتأمروا... ففسقوا!

أما عن الهلاك فكما ترى سعادتك بنفسك، بلد مملوك وشعب هالك!
لكن رحمة ربنا الواسعة لم نشأ حتى الآن أن تدمرنا تدميرا بل ما نراه ونجياه
هو الدمار الأصغر فقرا وخوفا وجوعا وضعفا ومرضا ونقصا فى الأموال والأنفس
والثمرات.... ويارب يجيب العواقب سليمة!

حكم عائلى!

بعض البلاد العربية التى تحكمها قبائل وعائلات بدأت تتحول إلى دولة، بينما مصر وهى الدولة القديمة العتيقة بدأت تتجه نحو حكم القبيلة!

مصر الآن تحكمها قبيلة بكل ما فى المعنى من مغازى ومخازى، مصر الدولة التى كانت تفخر بأنها صاحبة أقدم حكومة فى التاريخ صارت الآن مجرد بلد تدير حكومته أهداف عائلية ومصالح القبيلة ويتم تفصيل قوانينه وتشريعاته حتى تنطبق وتليق وتتماشى مع أفراد عائلة تحكم وتدير وطننا فى الاقتصاد والسياسة بمجموعة من الأصهار والنسايب والأقارب والأصدقاء!

لا يوجد طريق بيزنس فى هذا البلد الآن إلا وينتهى عند قريب أو نسيب أو صهر أو نجل!

لا توجد مشروعات إصدار قوانين وصناعة تشريعات إلا وتجدها عمولة ومعمولة لصالح ابن يرث أو أصدقاء تشاركوا فى النفوذ والسلطان.

وفوق ذلك كله هناك التعامل مع الرئيس ليس كموظف دولة ولا صاحب منصب منتخب بل باعتباره السيد الأعلى الذى لا يمكن مناقشته ولا مساءلته ولا يثق إلا فى الأبناء والأتباع وحراس القبيلة المخلصين، وهو يمنح كل شيء فلا يوجد فى عرف التعامل معه حقوق للشعب ولا حق للمواطن بل أمة تقف على أطراف رجلها تطلب منه المنح والعفو والرزق والنظرة!

ورغم أن القبائل التى كانت تحكم دول الخليج تمكنت من إدارة دفة بلادها إلى حيث الرخاء والرفاهة والكفاية (عدد السياح الذين يزورون دى سنويا أضعاف عدد السياح الذين يزورون مصر فى نفس الفترة مع فارق ستة آلاف سنة حضارة ووجود ربع آثار العالم فى مصر)، ثم انتقلت هذه القبائل كذلك إلى دول

تحكمها دساتير واضحة (الكويت وقطر والإمارات والبحرين) وتشريعات ليبرالية (انتخابات وجماعات سياسية وحق تظاهرات وتنافس حزبي وأداء برلماني بامتياز) وحرية صحافة بلا سجن للصحفيين، ولا مطاردة وملاحقة أو تعذيب دموي لسجناء رأى وتقديم إعلام غير حكومي مفتوح ومنفتح، وعلاقات بالعالم الخارجي سوية وندية، ليس معنى ذلك أن شيوخ القبائل التي تحكم هذه البلدان هم قمة في المثالية (لا يوجد بشر كذلك أصلاً) ولا أن هذه الدول جنات للديمقراطية (فلا جنات على الأرض هي جنة واحدة وفي السماء) ولكنهم شيوخ قبائل استطاعوا بالفعل وبصرف النظر عن النظرة الاستعمارية التافهة التي تتعامل بها مع شعوب هذه الدول (وهي شعوب تتخضع فيها نسب الأمية بالمناسبة وترتفع أعداد متعلميها والحاصلين على درجات علمية رفيعة من أعظم بلدان العالم علماً فضلاً عن رقي جامعاتها العلمي والعالمي) دول بنت مشروعاتها في التنمية البشرية والاقتصادية والسياسية وهو مشروع لم يكتمل وبه من النقائص ما به لكنه يتطور وينمو ولم يعد جائزاً على الإطلاق أن نطلق عليهم تعصبنا السقيم ونسبهم بدواً، فالحاصل أننا في مصر نتجه بقوة وبقسوة نحو البداوة في الدين (ماذا تسمى التطرف والتعصب والطائفية؟) حتى السياسة (ماذا تسمى الولاء والطاعة والتقديس للرئيس؟) وتنصح (ثقافياً ووجدانياً) وتراجع في الوقت الذي يتقدمون هم فيه فوزاً وقفزاً!

لكن كيف انتقلت مصر للبداوة ولحكم القبيلة؟

أظنك في حاجة إلى إزالة التراب عن المرأة لترى حقيقتنا!

في الحكم القبلي شيخ القبيلة يأمر فيطاع، يرشد ويوجه ولا حياة للقبيلة بغير إرشاداته وتوجيهاته، يعود له الفضل في كل شيء ولا يمسسه خطأ ولا تشوبه شائبة، شيخ القبيلة لا شريك له ولا منافس أمامه، يملك كل الصلاحيات وهو ملجأ من لا ملجأ له، وهو الذي يمنح الشرعية مع البركة والرضا مع الخيمة، والزوجة مع النخلة، والأمل مع الإبل، كما يمنح الغضب مع اللعنة، والسجن والنفي والنبد والهجر.

يقول الدكتور إمام عبدالفتاح في كتابه (الأخلاق والسياسة، دراسة في فلسفة الحكم) إن فكرة الدولة تمثلت في مصر القديمة في مملكة يقوم فيها الإله الطيب وهو الملك مع وزرائه ومستشاريه بالسهر (كل رؤساء مصر ينامون بدرى ومع ذلك السهر هي الكلمة المستخدمة نصا في محام الرئيس في دستور ٧١ الدائم رغم أنه لا دائم إلا وجه الله) على رعاية شئون البشر والبلاد رعاية الأب لولده وهو أب تمجده رعاياه ويخشاه أعداؤه ويوقره الكهنة وعلى هذا النحو تتجمع عند الملك جميع الخيوط السياسية والدينية والأخلاقية التي تندرج في وحدة واحدة لا تميز فيها فالملك هو الحاكم المطلق ويقول أحد وزرائه إن جلالته عليم بما يحدث وبما يقع ليس في الدنيا شيء لا يعلمه (تكاد تشعر أنك تقرأ افتتاحية جورنال حكومي!!).

هذا ملك أو إله أو فرعون أو شيخ قبيلة مصر القديمة كما هو بالضبط في مصر الجديدة (قبل المطار بشوية) لا ينتظر تصويتنا ولا مداولات ولا يتراجع ولا تنزل كلمته الأرض أبدا وهو الذي تلقى عليه قصائد المديح وافتتاحيات الصحائف ويرمى صرر الدرر على صدور الشعراء والمداحين، شيخ القبيلة يظل شيخها حتى يموت (أو تموت القبيلة) لكن أحدا لا ينازعه المنصب ولا يسحب عنه الثقة، وعلى جميع أفراد القبيلة أن يقدموا البيعة ويدينوا بالولاء والطاعة لشيخ القبيلة ولابنه فهو ابن شيخ القبيلة، الذي يصير هو نفسه شيخ القبيلة، سيدنا هو ابن سيدنا الذي يرث الأرض والبلد وأفراد القبيلة! أليس هذا هو حالنا؟!

الفرق فقط هو أننا نرتدى بذلات أفرنجية وكرافات، لكن رئيسنا يملك كل الصلاحيات التي ربما لم يكن يملكها شيوخ القبائل، مطلق اليد، كامل السلطة، بلا منافس ولا شريك!

المانح المانع، الواهب العاطى، بطل الحرب والسلام!
القوانين حسب الرغبة..

وتعديل الدستور وفق الهوى..

والتشريعات تحت الطلب..

والسلطات كلها رهن الإشارة وفي القبضة والقدرة!

مصر تحت حكم الحاكم المطلق هي إذن في قبضة الحكم القبلى العائلى.

ها هو حكم عائلة الأصهار والنسايب والأقارب والأصدقاء فى السياسة والاقتصاد حيث ترصد الدكتورة سامية سعيد فى كتابها (من يملك مصر؟) مجتمع ما قبل ثورة يوليو الذى قدم نموذجا مفاده أن الثروة تؤدى إلى السلطة وأن الاقتصاد يؤدى إلى السياسة فإذا عهد ما بعد يوليو يبرز أن السلطة تؤدى إلى الثروة وأن السياسة تؤدى إلى الاقتصاد فإذا بكبار رجال الدولة يسعون لتكوين الثروات مستغلين السلطة والنفوذ ومدعين ذلك بعلاقات من القرابة والنسب وكانت نتيجة ذلك منذ حقبة السبعينيات أن الوزراء ورؤساء الوزراء ووكلاء الوزارة والمحافظين وكبار رجالات القطاع العام وغيرهم من أولئك الذين تقادوا مناصب ووظائف عالية فى السلم الحكومى يتحولون إلى رجال أعمال.

الجديد فيما بعد رصد الدكتورة سامية سعيد أن أبناء رجال الدولة ورثوا عن أهاليهم النفوذ السياسى واستغلال القوة فعملوا فى الاقتصاد وعالم البيزنس والمال وجمعوا الحسنين، السلطة والمال معا، وليس غريبا أن يكون نجلا رئيس مصر شخصا من أبرز رجال الأعمال والمال فى البلد وهو ما يكشف عن طبيعة الاندماج بين المال والسياسة فى أيامنا المباركة وهو ما يفسر كذلك هذا الاندفاع المحموم من جميع أبناء المسئولين (الكبار وذوى النفوذ والبقاء الطويل فى السلطة) الذين يعملون فى البيزنس بمنتهى الوضوح الذى كان يمكن أن نسميه فى زمن سابق منتهى الصفاقة، وبينما تطرح الدكتورة سامية سعيد فى الكتاب نفسه سؤالا محوريا حول ما إذا كانت السمة العائلية سمة ملموسة فى الواقع السياسى والاقتصادى المصرى وإذا كانت شبكة التداخلات والتشابكات العائلية سواء على مستوى علاقات الأعمال أو علاقات المصاهرة والنسب برزت بصورة واضحة منذ منتصف السبعينيات وحتى الآن، فهى تجيب بنعم وتصل لنتيجة مؤداها أن معظم الشركات التى ضمنها الدراسة هى شركات عائلية لكنها تسأل

عن معنى العائلية ومفهومها هل العائلة الضيقة الزوج والزوجة والأبناء القصر والبالغون أم مفهوم العائلية الواسعة بمعنى الزوج والزوجة والأبناء البالغين والقصر وأشقاء الزوج وأشقاء الزوجة وزوجات الأبناء وأزواج البنات.. إلخ؟ وإذا كان لنا أن نجيب عن تساؤلات دراسة د. سامية سعيد فهي أن مفهوم العائلة الذي يدير حياتنا المصرية الآن يشمل هذا المعنى الواسع للعائلة من الزوج والزوجة إلى أزواج البنات والحמות كذلك، مصر في فخ عائلات كبيرة تتشابك وتتشارك ماليا وتتحالف في البيزنس والسياسة لكن الجديد الجدير بالدهشة هو الانتقال العكسي فبعد أن كان رجل السلطة يبحث عن الثروة والمال إذا بنا نجد رجال الأعمال المليارديرات يسعون للسلطة السياسية وسطوة الحكم وتجسد هذا بلا شك في جمال مبارك رجل الأعمال الذي يعمل (ويلعب) بالسياسة وهو نفسه رجل السياسة الذي يعمل بالأعمال والأموال وتحت رعاية حثيثة وقدوة ماثلة منه صار هذا الذي كنا نسميه سيطرة رأس المال على الحكم، كان هذا التحول هو نقلة مدمر من العالم المنقرض إلى العالم الافتراضي حيث القرابة بالدم أو بالمال..

المصاهرذ بالنكاح على سنة الله ورسوله..

أو الشراكة على عقد هيئة سوق المال..

النسايب بالزواج أو بنسب في الشركات..

القسمة والنصيب، القسمة في عقود شرعية والنصيب في عقود تجارية..

لا فرق، ولا فارق، قرابة ومصاهرة وأنصبة ونسايب ونسب تقود الحزب وتدير وتملك وتبيع وتشتري في الشركات والمصانع والبورصات والأراضي والمزارع والشواطئ والداء والدواء والمصل والنصل والسيارات والطائرات والطيور!

أشهر الصفقات والأسهم والمساهمات والمبايعات والعمولات والسمسرة بين أيدي العائلة!

المشهد كله يحرق الدم، مصر الدولة العربية الكبيرة صارت مسنة.. تصغ شعرها..

مصر الزعيمة سياسيا صارت مزعومة سياسيا.. مثل الملامك المعتزل يتكلم ولا يلامك..

مصر الرائدة باتت راكدة

نورت مصر!

مصر الدولة أصبحت مصر القبيلة وحكم العائلة!

والعائلة هي وحدها المسئولة عن أن حوالى نصف الشعب المصرى تحت خط الفقر، مسئولة عن أن حوالى ربع الشعب يعانى البطالة، مسئولة عن تضائل وتراجع ثروات البلد، مسئولة عن أن مصر صارت بيئة ملوثة ومياه نيلها غير صالحة للشرب، مسئولة عن ١٢.٥ مليون مصرى مصاب بفيروس سى، وعن عدد قريب من هذا مصاب بأمراض نفسية، عن ٢٢ ألف معتقل كأكبر بلد عربى يضم معتقلين بل وبعدهم ويهتك أعراضهم وينترع إنسانيتهم فى بشاعة توضح مدى رقة النظم القبلية وساحتها، ومع ذلك فالعائلة مصرة على مصر، ويزعم أفرادها أن مصر هى الأقوى والأغنى والأعظم تحت حكمهم!

الأمر كله يذكرك بفيلم إسماعيل ياسين وهو يلتقى فى مستشفى المجانين برجل ضخم الجثة أسود البشرة محيب الطلعة هائل الحجم يرتدى ثياب الفروسية ممتشقا سيف الفرسان ومطلقا لحية كثيفة والجميع يغنى له هاتفا:

عنتر أوعى يجيالك عنتر، عنتر!

فإذا بإسماعيل ياسين يقترب منه يبحث عن هذا العنتر فإذا بهذا الفارس الضخم ينطق بصوت ناعم مخنث رفيع نسائى، فيذهل إسماعيل ياسين من هيئته وهيافته، من ضخامته وخنوثته، فيستفهم مستغربا: إنت عنتر؟! فيصر هذا الفارس المخنث على أنه عنتر!

ونضحك نحن من المفارقة اللى تجنن!

لكننى أخشى أن المشهد نفسه ينتقل من الشاشة إلى القاعة..

من السينما إلى الواقع..

من الخيال إلى الحبال..

حيث نجد دولا ضخمة كبيرة عملاقة الحجم عميقة التاريخ ذات الشنة والرنة
يوحى شكلها وتشى ملامحها بالمهابة والرهبة فإن نطقت وتصرفت، فإن حكمت
وقررت، فإن نافست وواجهت، تصيح بصوت مسرع مؤث مائع لا يخيف
أحدا ولا يرهب بلدا ولا يحرك شعبا، بل يثير الأسى والسخرية.
هناك دول تحسبها عنتر تطلع عبلة!

أشياء لا تُشترى

أكثر ناس محممة بأن يقتنع الشعب المصرى أن إسرائيل لم تنهزم فى حربها على حزب الله.. هم أهل الحكم فى مصر من كبيرهم لصغيرهم!

لو رجعت فلاش باك شوية لاكتشفت أن نظام الحكم فى مصر يروج ويسوق لشعبه ولشعوب المنطقة طيلة الوقت أن إسرائيل أقوى من العرب جميعا وأن إسرائيل هى قوى عظمى فى المنطقة تملك إمكانيات وأسلحة رهيبية وأننا لا ولن نقدر على إسرائيل وأن الواقعية السياسية تقول إننا لازم نطاطى لإسرائيل فنحن لا نقدر عليها، يهتم جدا النظام المصرى بترويج هذه الأسطورة ربما أكثر من اهتمام إسرائيل نفسها، وتساءل نفسك كيف يفعل نظام حكم هذا فى نفسه وفى شعبه ولماذا يبدو حريصا على العمل فى دور السنيد للبطل الإسرائيلي؟!، بل تنحصر كل مهمة مصر فى كونها سويتش تليفونات وساعى بريد بين إسرائيل والفلسطينيين، وليس أدل على ذلك من رئيس يردد مكررا وملحا أن مصر على الحياد فكان إسرائيل صاحبة حق مثل فلسطين ولبنان وبينما مصر بينهم على الحياد! كأن هناك حيادا بين الحق والباطل، بين الصح والغلط، بين القاتل والمقتول، بين المجرم والضحية، إذن سنرى إلحاحا مذهلا فى سماجته ولجاجته خلال الأسابيع المقبلة من النظام ورجالته وتابعيه على تقليل خسائر إسرائيل من حربها على حزب الله ولبنان والتهوين من المقاومة الرائعة التى أدلت أسطورة الجيش الذى لا يقهر والدولة التى لا تنهزم، لصالح تعظيم فى مكاسب إسرائيل ونفخ فى قدراتها وبث اليأس من إمكانية عربية للانتصار عليها، بل والتخفيف من مذاجها ومجازرها فى لبنان وفلسطين، وسيادة اللغة الطرية فى التعامل معها وزيادة إيقاع تصريحات تفضيها ومواصلة عمل النظام المصرى فى الفريق الدعائى

والطبل والزمر لقوة إسرائيل وقدراتها!
لماذا؟..

لأن الحكم في مصر ودول عربية أخرى بات يستمد شرعيته من رضا أمريكا وإسرائيل عليه، وهو يستمد بقاءه واستمراره على العرش والكرسي ليس من شرعية انتخابات ولا ديمقراطية ولا جماهيرية وشعبية بل من دعم إسرائيلي وأمريكي واضح وفاضح، ثمne الوحيد هو الاستسلام والتسليم بهيمنة إسرائيل والعمل على تفوقها وسطوتها على الوضع العربي!

إذن دلني على حاكم عربي واحد من الجالسين على عروشهم جاء إلى مقعده بانتخابات حرة نزيهة وعبر تنافس شريف وحقيقي مع مرشحين على منصب الرئاسة ضده، دلني على هذا الحاكم وساعتها سوف أؤكد لك أننا سوف نسحق إسرائيل ونهزم عدونا ونقف أندادا لأي تحدي أمريكي، لكن الحال هكذا كما ترى، حكام لا يمثلون شعوبهم بل يمثلون بشعوبهم، جاء معظمهم بانقلابات عسكرية أو شبه عسكرية، وآخرون بقانون الوراثة على الشريعة العربية، ويظل الجميع على عروشهم أبد الدهر؛ يركبون على أنفاس شعوبهم ويفسدون في سياسة واقتصاد بل ويمرغون استقلال أوطانهم في الوحل ويبددون الثروة الوطنية ويكثرون المليارات في الخارج ويزرعون عائلاتهم في الحكم والمال والنفوذ.. ثم تريدنا أن نتنصر، يا أخي.. ولا بلاش!! لقد تعرت النظم العربية أمام الدنيا كلها وبانت عورات الحكام والنظم العربية التي بدت كالفئران وفي أفضل الأحوال كالأرانب أمام حكام الصهاينة من أجل عروش وكروش الحكام وعروش ولادهم وثروات العائلة!.. وتتحرق الشعوب!

لقد سلط هؤلاء الحكام مجموعة من رجالهم وميكرفوناتهم وموتسيكلاتهم السياسية والصحفية من عتاة إجرام الكتابة في الوطن ليقولوا كلاما من نوع أن المظاهرات التي تخرج احتجاجا على ضرب لبنان تصدر عن جماهير مضحوك عليها؛ وفي كتابات وتصريحات أخرى يؤكد بعضها على أن عمليات حزب الله وخطب زعيمه السيد حسن نصر الله تلعب على عواطف الجماهير أو أنها

تستهوى البسطاء ؛ ولا يتورع آخرون عن وصف مظاهرات التعاطف أو الاحتجاج بأنها مظاهرات غوغاء أو عاطفيين أو مشعلى حرائق وأن الناس المتعاطفة والمتضامنة والمحبة والمنتصرة والمستنصرة بحرب الله جماعات مضحوك عليها وأن الرأى العام أهبل.

هنا سأترك القامة السياسية التي يرميها منافقو النظام الحاكم فى وجوه الناس حين يسبون ويشتمون السيد حسن نصرالله ببناءة تليق بخدم وبودى جارذات كباريهات نظم الحكم فى العواصم العربية وسأركز على تلك الرؤىة الوجيهة والخلاف العميق الذى يطرحه الجانب المحترم من المثقفين والسياسيين حول حزب الله بدعوى أنه يقود الوطن إلى حرب دينية وأنه حزب عقائدى يقود صراعا قد تهلك معه لبنان، هنا أعود إلى شيء مما سبق وقلت وكتبت فى عدة كتب لى حين قادتتى الذاكرة إلى هذا الهتاف الذى كان يخرج حارا وصادقا فى مظاهرات الطلاب الإسلاميين (خير خير يا يهود جيش محمد سوف يعود) كان فريق من اليساريين والليبراليين يستنكر الهتاف ويستنكفه، لقد كان ولا يزال رهان البعض على إخراج الدين من معادلة الصراع العربى الإسرائيلى حيث أننا أبدا لسنا عنصريين بحيث نكره اليهود لكونهم يهودا ولا يجب أن ننساق لجعل الحرب حربا دينية وليست حربا وطنية لتحرير أرض!

وأحسب أن هذا الرأى القائم على إخراج الدين من المعادلة هو المسئول عن ضعف وتهرؤ العمود الفقرى لمواجهة إسرائيل، فالواضح أن الدين الإسلامى لم يكن سلاحا عنصريا طول مرحلة الصراع مع الصهيونية وعلى سبيل المثال فالتيار الإسلامى الأهم وهو الإخوان المسلمون رغم أن ذبوع هذه الجماعة الأكبر توازى مع بوادر ثم نذر ثم وقائع المواجهة العربية الصهيونية فإن الخطاب الدينى والسياسى للإخوان (وقد شاركوا فى حرب ١٩٤٨) يخلو من أى نظرة عنصرية لليهود وكان هناك استنكار ورفض تام لأى مساس بأى مؤسسة يهودية إرهابا أو انتقاما على مدى سنوات الوجود اليهودى البارز فى القاهرة أو العواصم العربية وهو ما يؤكد غياب الروح العنصرية تماما وكلية عن الظاهرة الإسلامية السياسية وقتها لم يكن

الوطن العربي من الأطراف التي انتقلت من أقلية داخلها ضحية دخولها في حرب مع طرف على نفس دين وعرق الأقلية، فالؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية حاربت واضطهدت أقليتها ذات الأصل والجنس الياباني أثناء محاربة أمريكا لليابان في الحرب العالمية الثانية (تكرر الأمر مع اضطهاد العرب الأمريكيين بعد أحداث ١١ سبتمبر) وهو ما يدل من اللحظة الأولى للصراع أن العرب لم يخوضوا حرباً عنصرية ودينية، لكن هذا لا يعني أبداً أن التاريخ الوجداني للمسلمين والعرب لا يحتفظ بمشاعر غير طيبة أو فيها مسحة عدائية لليهود والمراجع الإسلامية تحفل بغمز ولمز ضد مؤامرات متكاثرة منسوبة لليهود تريبصا وترصدنا وعداء للإسلام والدولة الإسلامية، لكن المؤكد هنا أن التاريخ الإنساني كله والمسيحي تحديداً لا ينسى لليهود تورطهم في صلب المسيح عليه السلام طبقاً للاعتقاد المسيحي ثم إن التاريخ الحديث يحفل بكراهية لا محدودة من قبل مسيحي أوروبا لليهود لكن الظاهر الطاهر أنه منذ وقت الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (آخر مواجهة إسلامية مع اليهود بطردهم من العاصمة الإسلامية) وإلى بعد تلك السنين بأكثر من ١٢٥٠ سنة أى على مدى أكثر من ١٢ قرناً لم تحارب أى دولة مسلمة اليهود ولم تشن حرباً على أى قبيلة أو عائلة أو مدينة أو حياً يهودياً بل عاشوا مواطنين (أغلب الوقت) أو رعايا حتى جرى ما لم يكن سوى الحياة العظمى من اليهود للإسلام والعروبة وللإنسانية وهو احتلال اليهود فلسطين العربية المسلمة.. دعنا نذكر كذلك بأن الناصر صلاح الدين عامل اليهود معاملة راقية خلال الحروب الصليبية بل وهو الذى أعادهم إلى القدس بعدما طردهم وأجلاهم عنها الصليبيون كذلك كان طرد المسلمين من الأندلس بعد سقوطها هو في نفس اللحظة التاريخية طردا لليهود وانتقل المسلمون مع اليهود هروباً في سفن واحدة إلى البر المغربى فراراً من جيوش المسيحيين المنتصرة وفر اليهود هروباً من اضطهاد المسيحيين وتقتيلهم لليهود فى شوارع المدن الإسبانية عقاباً لهم على معيشتهم الهائنة والكريمة والمتفاعلة مع المسلمين فى الأندلس!

فلماذا نريد استبعاد الدين من أسباب وحسبة الصراع مع إسرائيل كأننا نخشى

دخول الدين المعركة حتى لا نوصم بالأصولية رغم أن المعركة كلها تقف على أعمدة الدين والذي أرادها هكذا وأسناها كذلك هم اليهود مثلما يملكون تماما الأسلحة النووية والذرية ويهددون بها العرب ثم يرفضون ويحاربون من أجل ألا يمتلك العرب سلاحا نوويا، إنهم يحاربون باليهودية ثم يصرخون لو حاربتهم بالإسلام والمؤسف أن بعضنا يصرخ معهم دون أن يدرك الفاصل الهائل بين الدين كسلاح احتلال وعنصرية عند اليهود والدين كسلاح مقاومة وعدل عند المسلمين فالحقيقة أننا لا نحارب اليهود في إسرائيل لأنهم يهود ولكن لأنهم محتلون، المشكلة أنهم محتلون لأنهم يهود!

يقول المفكر العظيم د. جمال حمدان في كتابه «جغرافية العالم الإسلامي» (غير أن الصهيونية إلى ذلك استعمار ديني طائفي بحت، ودولة إسرائيل دولة دينية يهودية تهويدية متعصبة تقوم على حشد وتجميع اليهود، واليهود فقط، في "جيتو" سياسى واحد أكبر. وهى إذا كانت تفرض ذلك بقانون الغاب ومنطق القوة الرجعية الغاشمة، فإنها أيضا تعيد إلى الحياة فلسفة الدولة الدينية. إسرائيل تأتى بتعبير مباشر كغزوة مقدسة: إنها تفرض من طرف واحد "حربا دينية" ليس الطرف الآخر مسئولا عنها أو عن إثارتها أو طبيعتها، وتبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة فى العالم الإسلامى الذى لم يعرف سوى التسامح الدينى تقليديا. بل إن الصهيونيات أسوأ من صليبيات جديدة، فما كانت الصليبيات فى العصور الوسطى إلا استعمارا استغلاليا فقط تخفى وراء الصليب. أما الصهيونيات التى تتخفى وراء النجمة السداسية فاستعمار استيطاني استهدف اقتلاع وتصفية الشعب الأصيلى تصفية جسدية ويعمل على تهويد الأرض وتغيير طبيعتها ومعالمها إلى الأبد. وبالمقارنة فإنه تجمّع بين أسوأ ما فى الصليبيات وشر ما فى المغوليّات الوثنية من تخريب وبربرية والتى كان طوفانها المدمر أكبر خطر تعرض له العالم الإسلامى فى العصور الوسطى)، حسنا الإسلام يطلب من المسلم أن يحترم حرية عقيدة الآخرين واختيارهم الدينى وهو أيضا يجبر المسلم الحق على إعلان أن لكم دينكم ولى دين وأن تؤمن بعيسى وموسى ومحمد لا تفرق بين أحد من رسله.. كل

تلك الحقائق نذكرها للإعادة والإفادة لكن عندما يأتي أصحاب دين اليهود ليقولوا لنا إن الأرض التي نحيا نحن عليها ونعيش نحن فوقها قد وعدهم الله بها وإن أرض فلسطين والعرب هي أرضهم الموعودة وإن دينهم يقول لهم اطرّدوا الفلسطينيين منها..اذبحوهم وأخرجوهم وشردوهم، ودينهم يقول لهم إن المسجد الذي تقدسه ونحج إليه إنما هو معبدهم وحائطهم المقدس ونروح نحن في ستين داهية، ما المنتظر منى ساعتها؟ أن أحضن أصحاب تلك العقيدة أن أترك لهم أرضى وعرضى؟ ؛ يقولون ديننا يأمرنا باحتلالكم فنقول لهم لكن قرار ٢٤٢ لا يقول! أم نقول لهم وديننا يأمرنا أن نموت من أجل كل شبر في تلك الأرض؟.

الدين الإسلامى هنا لا يضطهد ولا يتعصب إنه يقاتل من أجل الحق ومن الطبيعى أن نسمع هنا البعض يقول: ولكن الصراع بلا نهاية أبدا على هذا النحو! هي حرب لن تنتهى أبدا..ليكن فإذا كان ثمن نهايتها أن أتخلى عن الحق وألا يتخلى هو عن الباطل الذى يظنه حقا فليس هناك أى ضرورة لنهاية الحرب..نحن هنا لا نتصارع على ملكية قطعة أرض بل نتصارع على الحق..

هل ترى هي أشياء -كما قال لنا الشاعر الراحل أمل دنقل- لا تشتري؟.

ثم هل هناك غير الدين وقوة الإيمان أعطا للعرب قوة ونصرا كما حدث مع حسن نصرالله وكما لم يحدث في كل الحروب العلمانية مع إسرائيل التى انتهت كلها -أقول كلها- بهزائم عربية، فكيف يطلب منى اليسارى الحكيم والليبرالى المتين أن أتخلى عن الدين سلاحا أصيلا ومشاركا في قوتي وذخيرتى...وجنتى أيضا، ما الذى يضر أحدا في أن يكون الموت في سبيل الوطن هو كذلك موت في سبيل الله، واستشهاد في سبيل الجنة؟

هل هذا يعنى أنتى أطالب العرب بالحرب على اليهود لكونهم يهودا ويصبح ذلك مبررا دينيا لقتل اليهود في أى حدب وصبوب؟..

إطلاقا وأبدا... ولا يمكن، فحين يقول جمال حمدان (وعند هذا الحد لا بد أن نستدرك فنقول أنه ليس من مصلحة قضيتنا الفلسطينية أن نصورها أو نحولها إلى حرب دينية مقدسة أو إلى صراع أو جهاد بين الإسلام واليهودية) فإنه يعود

ويؤكد (غير أن هذا لا يغير أو يقلل مع ذلك من الحقيقة الواقعة، والتي لا حيلة لنا فيها، وهي أن العدو الإسرائيلي الصهيوني يأتينا سافرا كدعوى طائفية دينية، رجعية كما هي مكذوبة، وأنه هو وحده ولسنا نحن الذى يفرض بذلك لونها الدينى المعلن من جانب لونها العنصرى والاستعمارى المحقق. وبهذا كله فإن الصهيونية، التى حققت أكذوبة " ضد - السامية " الخادعة، تأتينا وهى فى الحقيقة وتحت الجلد وحتى النخاع " ضد - الإسلامية ").

إننا ندرك الآن دون معاناة وبعض الاجتهاد لا الجهد أن الدين هو الذى فجر ويفجر مقاومة كثير من المقاومين ورغم داء التنازل ومرض التفريط لم يجرؤ أى زعيم عربى مهما بلغت درجة قربيه من قلب أمريكا ومهما بلغت درجة انشكاك عظام ساقيه عند ذكر كلمة الحرب لم يجرؤ على التنازل بشبر أو بدرجة عن حق المسلمين فى المسجد الأقصى وكان هذا هو الخط الأحمر الواضح الذى لا يمكن تجاوزه أو التنازل عنه أو التفريط فيه.. إذن الدين هو الشيء الوحيد الذى منع الحكام من التفريط والمفاوض من التهاوى والتنازل.

قلنا بدل المرة ألفا إن الديمقراطية هى طريق تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلى، وهى باب النصر المؤكد على عدو يحتل ويهيمن ويدخ ويسيطر، فالديمقراطية تحررنا لنملك تحرير فلسطين، والديمقراطية واجبة وحمية فى البلاد العربية كلها كى نخرج من دائرة العجز وطوق التخلف وحظيرة العبودية لحكامنا وحكوماتنا، والحقيقة إن أبعد ما تريده إسرائيل فى منطقتنا العربية هى ديمقراطية تصعد بحكام منتخبين شرعيا إلى مقاعد رئاسات الدول والحكومات، حيث أن الكفيل والضامن لحالة العجز والهوان والهزيمة والرخاوة العربية هو الطغيان الحكومى الجمهورى والملكى وتزييف إرادة الشعوب وعبودية وتأليه الحكام وتوريث الحكم والحكومات وغياب الديمقراطية وانعدام تداول السلطة فى بلادنا تماما!!

لكن إعلاء قيمة الديمقراطية وتصورى الكامل أنها باب الانتصار على إسرائيل واسترداد كرامة وكبرياء العربى فى وجه محتل عنصرى غاصب لأرضنا لا يعنى أبدا

استبعاد الدين من قلب الصراع، بل هو جزء من لحم ودم القضية العربية في مواجهة العدوان الإسرائيلي!

حزب الله حزب عربي إسلامي شيعي لم يكفر أحدا ولم يمارس إرهابا أبدا ولم يقتل عربيا أو مسلما يوما ولا يوجه سلاحه إلا إلى العسكر الإسرائيلي فلا يمكن وصفه بالإرهاب ولا يتصور أحد وسمه بالتطرف، قام بعسنية في منتهى الكفاءة والمهارة تدعو للفخر وخطف أسيرين فأطلقت إسرائيل عدوانها على لبنان، حزب الله على حق في مواجهة دولة عنصرية يهودية على باطل فلا يجوز أبدا تحميل حزب الله مسؤولية الدمار كمن يضع مسؤولية الاحتلال البريطاني لمصر على ثورة أحمد عرابي، ومهما كانت التضحيات فقد جعل حزب الله كل عربي يدرك أننا قادرون على هزيمة وسحق إسرائيل فقط ليرحل عنا الحديو توفيق!

العُمة العربية

مواطن مجنون من يصدق رئيسا عربيا؟
الرئيس أنور السادات قال: إنه ديمقراطي.. وقام بتعديل الدستور ليصبح
رئيسا مدى الحياة!

الرئيس حسنى مبارك قال لنا عيانا بيانا: إنه لن يرشح نفسه أكثر من دورتين
(قال تحديدا: كفاية قوى.. فكان أول من أطلق شعار كفاية!) وعاد ليرشح نفسه
ثالثة ورابعة وخامسة.

الرئيس التونسي زين العابدين بن على وضع موادا فى دستور تونس تقول إنه
لا ترشيح لرجل فوق السبعين، وحين وصل للسبعين قام بتعديل الدستور
حسب عيد ميلاده!

الرئيس الجزائرى بوتفليقة نص فى الدستور أنه لا تمديد لرئيس بعد دورتى
حكم، وها هو رغم مرضه (فى الحقيقة كل الرؤساء مرضى باعتبار العمر والسن!)
يوافق على تعديل الدستور حتى يستمر فى ولاية ثالثة!

الرئيس اللبنانى إميل لحود قام بتمديد ولايته فى الدستور حتى يبقى فى حكم
لبنان!

الرئيس حافظ الأسد بدل رجاله الدستور فى ربع ساعة فقط كى يكون مناسبا
لابنه بشار!

الرئيس السودانى عمر البشير قال ما قاله عن زهده فى الرئاسة ثم مد فترة
حكمه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا!

الرئيس اليمنى على عبدالله صالح أعلن أنه لن يرشح نفسه بعد ثمانية
وعشرين عاما من الحكم.. وزعم زهدا وتمنعا ثم عاد وأعلن بعد ساعات

ترشيح نفسه لسبع سنوات أخرى!
وفي ليبيا كان الرئيس القذافي الذي يصر على أن يسمى نفسه الأخ
القائد رئيساً منذ سبعة وثلاثين عاماً ولم يقل في الحقيقة إنه لا يريد
السلطة ولم نسمعه يوماً يقول إنه قرر الرحيل عنها!
ثم صدام حسين الذي حصل على مائة في المائة في استفتاء فاجر
وكان يريد الولاية مدى الحياة ويستعد لتوريث ولديه!
والأسد أورث ابنه!
والقذافي يضع ابنه في صفوف الحكم الأولى لتوريثه
وحسنى مبارك زى ما سعادتك شايف بالضبط!
وعبدالله صالح يعد ولده لوراثة!
وزين العابدين ليس له أولاد لكن فتونس هي جنة حقوق النساء في
الوطن العربي فمين عارف!

ما هذه الجمهوريات الأبدية الوراثة العسكرية؟ بالمناسبة جميع رؤساء
الجمهوريات العربية عسكري وجزرالات حتى إن بشار الأسد الذي كان
طليبا عينه والده قبل مماته جنرالاً في الجيش!، كلهم عسكري، والمصيبة
أننا أمة وغممة عربية، وطن محزوم ومسحوق من أعدائه بينما كل رؤسائه
جنرالات (!!))، يضع هنا الفيلسوف المصري الكبير دكتور فؤاد زكريا يده
على المرض المذل المفجع الذي يصيب به حكام العسكر أوطانهم وشعوبهم
حين يقول في كتابه خطاب إلى العقل العربي (في الأنظمة التي تستولى
على الحكم بانقلابات عسكرية، وما أكثرها في وطننا العربي، فإن مبدأ
الأمر والطاعة يصبح هو المسيطر بلا منازع، ذلك لأن تكوين شخصية
الضابط أو الجندي المحارب في الجيش يعتمد أساساً على تعويده أن يصبح
إنساناً مطيعاً، وانتزاع كل جذور النقد والتساؤل من شخصيته، فالجيش
مؤسسة تقوم كلها على ترتيب هرمي يسود الرتب المختلفة فيه نظام صارم
من الأمر والطاعة. ولكن المشكلة الحقيقية تبدأ حين ينقل هذا النظام

الصارم من ميدانه الأصلي، ويصبح أساساً لحكم مجتمع كامل، بحيث تغدو علاقة الحاكم بالمحكوم مماناة لعلاقة الضابط الأمر بالجندي المطيع، فمثل هذه العلاقة تؤدي حتماً إلى تخريب عقل المواطن وضياع قدرته على المشاركة في حل مشكلات مجتمعه، وتولد لدى الحاكم إحساساً متضخماً بذاته، حتى ليتوهم أن الوطن كله قد تجسد في شخصه وما أكثر ما يمكن أن يقال عن النتائج المأساوية المترتبة على تطبيق الأنظمة العسكرية الصارمة على مستوى المجتمع بأكمله، وتحويل مؤسسات الدولة إلى نماذج مبكرة للشككات الحربية.) هذا هو حالنا ومآلنا في الوطن العربي، وهذا هو حال الوطن العربي من المحيط اسم النبي حارسه الهادر إلى الخليج اسم الله عليه الفاتر!

والمشكلة أن الرئيس (أى رئيس، وكل رئيس) يزعم أنه قاعد على قلب شعبه استجابة لرغبة قلب شعبه الذى يتأجج بحب رئيسه ويترجاه ويوس رجلاه كي يبقى حاكماً و رئيساً عليه فالمواطن هو الذى يتمسك بالرئيس، والرئيس يتعفف ويزهّد فى المنصب لكن الوطن يا حرام مش طايق ابتعاد رئيسه ولن ينام الليل من غير ما رئيسه يتعطف ويتنازل ويتكرم ويوافق وهو دايس على قلبه يا عينى عليه ويوافق على الاستمرار فى الحكم، هذه المسرحية الرخيصة والبليدة يقولها أى رئيس وكل رئيس فى بلده وهو يتغافل أو يغفل أو يستغفل الحقيقة، تلك الحقيقة المرة العلقم أن الرئيس ذات نفسه الذى يزعم أنه الزاهد فى الحكم زهد رابعة العدوية فى نصفها الثانى فى الدنيا هو الذى يسجن عشرات الألوف من معارضيه وهو الذى يسحل ويعتقل ويعذب مناهضى حكمه ومعارضى بقائه وهو الذى يملأ سجون دولته بالمعارضين والسياسيين وهو الذى يمنع ويصادر ويضع القوانين على مزاجه ويفصل مواد الدستور على هواه أو هوى ابنه أو هوى بطانته، هذا هو الرئيس الذى يدعى أنه يحكم بناء على طلب شعبه وتمسك مواطنيه، «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا

كذباً»، فالشعوب مقهورة مقموعة مغصوبة على الطاعة كما يقول دكتور فؤاد زكريا في الكتاب نفسه (الأنظمة الدكتاتورية المتسلطة لا تريد من المواطن إلا أن يكون «مطيعاً» لأوامر الحاكم، وأداة «طبعة» في يده، وقد تتخذ هذه الدعوة إلى الطاعة شكلاً سافراً، فتتولى أجهزة الإعلام المأجورة أو المناقفة تصوير الحاكم بأنه مصدر الحكمة ومنبع القرار السديد، ومن ثم فإن كل ما على المواطنين هو أن يوكلوا أمورهم إليه ويعتمدوا عليه، فهو الذي يفكر بالنيابة عنهم، وهو الذي يعرف مصلحتهم خيراً مما يعرفون، وهو الذي يعفيهم من مغبة اتخاذ أى قرار. وفي مقابل ذلك فإن أى نقد أو اعتراض أو تساؤل يوصف بأنه «عصيان»، هو إثم لا يغتفر، فكبيرة الكبائر هي «شق عصا الطاعة» - لاحظ الارتباط، في التعبير اللغوي التراثي بين «الطاعة» و«العصا» - أى محاكمتهم وتساؤلاتهم في الأمور التي ينبغي أن يترك زمامها للحاكم).

ما محصلة هذا الوضع الاستبدادي الدكتاتوري العربي، إلى أى منزلق زللق هؤلاء الحكام بلادنا إليه، ها هو تقرير التنمية الإنسانية الذي تصدره الأمم المتحدة (تقرير ٢٠٠٤) يكشف أن مجمل الناتج الاقتصادي المحلي والعربي في نهاية القرن العشرين (وهو نحو ٦٠٤ مليارات دولار) يتعدى بالكاد ناتج دولة أوروبية واحدة مثل إسبانيا (٥٥٩ مليار دولار) وهي دولة أوروبية ليست محسوبة على الكبار كما أنها تخلو من موارد خام مثل البترول أو الغاز مما تمثلى به البلدان العربية، أما الناتج القومي الإجمالي للفرد في قوة العمل فإنه يقل في مجمل البلدان العربية عن نصف مستواه في دولتين ناهضتين في العالم الثالث هما كوريا الجنوبية والأرجنتين ولا نقول لا سمح الله أوروبا ولا أمريكا!

ويكشف التقرير نفسه عن أن البلدان العربية تنتج مجمعة ٥٦٠٠ كتاب مقابل ١٠٢٠٠٠ كتاب في أمريكا الشمالية، و ٤٢٠٠٠ في أمريكا اللاتينية ودول الكاريبي!

أى خزى وفقر وجهل أوصلنا له الطغيان والحكام الذين لا يريدون أن يتخلوا عن مقاعدهم وعروشهم!
خذ عندك: ما يقوله تقرير التنمية الإنسانية:
أولاً: حجم البطالة في العالم العربي يبلغ أكثر من ٢٥ مليون نسمة.
ثانياً: ٥١% من الشباب العرب عبروا عن رغبتهم في الهجرة من بلادهم.

ثالثاً: ترتفع نسبة الأمية إلى ٣٥% في عموم العالم العربي.
رابعاً: ٦.١% فقط من العرب يمكنهم استخدام الإنترنت.
خامساً: ٤.٤ كتاب مترجم لكل مليون عربي مقابل ٩٢٠ كتاباً مترجماً في إسبانيا وهي من الدول متوسطة التقدم.
سادساً: ينفق العالم العربي ٠.٢% من الدخل المحلي على البحوث والدراسات العلمية في حين تصل هذه النسبة إلى ٢.٧% عند إسرائيل و ٣.١% عند أمريكا. (المعدل العالمي ١.٤%).

بقاء رؤساء الجمهوريات العربية على الحكم مؤبدين أو مورثين ينتهى بالأوطان على مستوى العيش والمعيشة إلى ما تفضحه أرقام ومؤشرات البحوث والتقارير العالمية، كما أن بقاء وخلود هؤلاء الحكام بدون حساب أو محاسب، بدون تداول للحكم ولا مساءلة للرئيس، بدون مدد أقصى ونهائية ينتهى بالشعوب إلى أن ينطبق عليها ما أوضحه وفضحه المفكر العربي الراحل عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد وهو يصف وضع الشعوب المغلوبة على أمرها (ألفنا أن نعتبر التصاغر أدباً، والتذلل لطفاً، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضا بالظلم طاعة، والإقدام تهوراً، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفرًا وحب الوطن جنوناً، ترضون بأدنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة، وتهملون شئونكم تهاوناً وتسمونه توكللاً، تموهون عن جملكم الأسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر ألا والله ما هذا شأن البشر).

أما هذا البقاء وذلك الخلود الأبدى على مقعد الرئيس فهو يفسد الحاكم فيصنع منه طاغية، ويفسد الشعب فيجعله منافقا يائسا، ويفسد البلد... والولد...

لاشك أن صراعات السلطة تتعاطم في دائرة الحكم حتى تصل للمنازلة والمصارعة أحيانا بين الحاكم وابنه، بين الرئيس الذى لا يريد أن يرحل وبين الابن الذى يريد أن يحكم، هنا تتفجر ذات القصة المكررة القديمة للمعتضد بن عباد ملك إشبيلية فى الأندلس والتى يحكيها المؤرخ العظيم محمد عبد الله عنان فى مجلده الموسوعى (دولة الإسلام فى الأندلس) حيث تمرد إسماعيل بن المعتضد على والده، فأغلظ له أبوه فى القول، وألزمه بقراراته، وأنذره بالقتل إذا نكل، (فعدئذ ثارت نفس إسماعيل، وعول على الفرار مع بعض خواصه. ويقال إن الذى شجعه على ذلك وزير أيه وكتبه، فحسن له العقوبة والعصيان، والسير إلى أطراف المملكة، حيث ينفرد بنفسه، وعدئذ دبر إسماعيل أمره، واتهمز فرصة غياب أيه إلى مكان متزهه فى حصن الزاهر، فى الضفة الأخرى من النهر، فحزم قدرا كبيرا من المال والذخائر والمتاع، وأخذ أمه وحرمه، وخرج من إشبيلية تحت جناح الليل، ومعه الوزير، وثلة من نحو ثلاثين فارسا، وسار فى طريق الجزيرة الخضراء، وعلم أبوه بالخبر بعد وقت، فبادر بإخراج عدة من فرسانه فى أثره، وبعث يندز قواد الحصون.

وبادر أحدهم فكتب إلى المعتضد بحصول إسماعيل فى يده، وأنه نادم على ما فعل، ورجاه فى العفو عنه، فسر المعتضد، واستجاب إسماعيل لدعوة أيه إليه بالعودة، ودخل إشبيلية بسائر ماله ومتاعه، فاعتقله أبوه فى بعض الدور، واسترد المال والمتاع، وعجل بإعدام الوزير لفرط حنقه عليه، وقتل معه نفرا من خواص إسماعيل، فلم يشك إسماعيل عدئذ فى مصيره ودبر مؤامرة لدخول القصر والفتك بأيه والجلوس مكانه، واستطاع بالفعل أن يدخل القصر ليلا مع بعض أعوانه، ولكنه سقط مرة

أخرى في يد أيه الساهر الحذر. وعندئذ قرر المعتضد قتل ولده، وقتله بنفسه، وأخفى جثته، فلم يقف أحد على أثره، وعذب شركاءه أشنع عذاب، وقطع أطرافهم، ثم أعدمهم، وأعدم كذلك نقرأ من حرمه ونسائه، حتى قطع دابر كل من كانت له بولده علاقة أو صلة، وكتب المعتضد بيانا يبرر فيه تصرفه في إزهاق ولده «الخائن الغادر» حسبما يصفه، قال فيه: «إن الغوى اللعين، العاق الشاق، إسماعيل ابني بالولادة، لا بالوداد، ونجلى بالمناسب لا بالمذاهب، كنت قد ملت بهواى إليه، وقدمته على من هو أسنى منه، وحبك الشيء يعمى ويصم، والهوا يطمس عين الرائي، إذ يلم، فأثرته بأرفع الأسماء والأحوال، ووسعت عليه في خطيرات الذخائر والأموال، وأخضعت له أكبر رقاب الجند ووجوه الرجال، ودربته في مباشرة الحروب، وأجريتته على مقارعة الخطوب، وقد تفتن الآباء بالأبناء، فأعجب يا سيدي لأبناء الزمن، وأبناء الفتن، وانقلاب عين الابن المقرب الودود، إلى حال الموتور الحسود، والثائر الحقود، وجمع هذا اللعين في إرادته ومحاولته، بين الشاذ والنادر، والمنكر الدائر والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وأصدق من هذا قوله تعالى: «إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم»!

هكذا تفعل السلطة في الأب.. وابنه!

في الحاكم ونجلاه!

في المورث والوارث!

وقد شهدنا في أيامنا العربية القريبة أولياء عهد يتقلبون على آباءهم الملوك وينتزعون منهم السلطة والسلطان، فهل يقترب الأمر إلى انقلاب الأبناء على آباءهم الرؤساء؟
ليه لأ!

قانون الرئيس

لا أفهم الذين يطلبون من مبارك التدخل والذين يتحدثون عن الالتفاف حول وعد الرئيس بإلغاء حبس الصحفيين، ولا أفهم الذين يرفعون شعارات التسول والتوسل للرئيس وكأنهم لم يقرأوا توقعه الواضح الجلى على المشروع المقدم لمجلس الشعب الذى يجعل من محنة الصحافة محنة قاصرة على المنافقين والموافقين والماشين جنب الحيط والساكيتين عن الحق والكاتمين للصوت والمتعاملين (لا أقول العملاء) لأجهزة الأمن، هؤلاء فقط الذين يخدمهم مشروع القانون الذى قدمه مبارك لمجلس الشعب والذى سيحوله أصحاب الأغلبية المزورة فى البرلمان إلى قانون بعد أيام، قانون كفيل بسجن كل صحفى يحاول أن يعارض ويحاول أن يكشف حقيقة الفسدة والفاستدين.

هنيئاً للأفاقين..

ومرحى بالمنافقين..

وحلال عليهم المخبرون والضباط واللواءات فى بلاط صاحبة الجلالة التى اغتصبتها قانون ظالم فى حكم مستبد فى واقع فاسد!

هذه مصر واحدة من ثلاث أو أربع دول متخلفة فى العالم تسجن الصحفيين،

شكراً يا مصر!

القانون الذى يريده مبارك وقدمه باسمه وصفته يضع مادة لسجن الصحفى لا

تقل عن ستة أشهر كحد أدنى، ولم يكن هناك حد أدنى للعقوبة من قبل، أى

يمكن أن تكون الآن سنة أو اثنتين أو ثلاثاً حسب رؤية (أو هوى) القاضى،

أو حسب التليفون الذى تتلقاه الدوائر المسئولة قبل الحكم!

تخلوا قانوناً يقدمه مبارك لمجلس الشعب يرفع ويزيد فى مدة سجن الصحفى،

فما بالك ببقية المواد وما يمكن أن يحدث للصحفيين المعارضين المستقلين؟ (صحفيو الحكومة والحزب ومدوبو الداخلية في مأمّن محصنين بحصانة الموافقة والمنافقة).

هذا القانون الذي يسجن الصحفي بلا حدود كأنه لم يكنف بالسجن بل ربما يسعى ليكون سجنا طوال الحياة، سجناً كبيراً يحيط بمكاتبنا أو نعشاً للحرية الميتة، يجعلنا نقضى بقية عمرنا إن كان له بقية في مزرعة طرة أو الواحات في أزهى عصور الكذب والخديعة!

مشروع مبارك لسجن الصحفيين جاء في توقيت تتواطأ فيه الولايات المتحدة الأمريكية مع مبارك الأب و الابن، وفي الوقت الذي بدأ فيه جمال مبارك ممارسة صلاحياته كرئيس بزيارة وافتتاح المصانع وإصدار التوجيهات والتعليمات! إن ما يجري يؤكد بوضوح قاطع لأي شك أنه لا توجد ذرة أمل واحدة في هذا النظام بل الأمل الوحيد في تغييره، إنه لا مستقبل لهذا الوطن في وجود هذا الحزب الحاكم بحكامه بل المستقبل الحقيقي يبدأ حين يرحل هذا الحزب بحكامه وحكامه!

إن الخطة المرسومة في مكاتب الحزب الوطنى وبين رجال جمال مبارك هي إخلاء الساحة المعارضة له تماما برمي الصحفيين المعارضين الراضين للتوريث في السجن وإغلاق أو تكميم الصحف المستقلة التي تمثل رأس الحرية في مواجهة الاستبداد والفساد والتوريث وهي خطوة تتم عقب تحطيم استقلال القضاء والسيطرة المطلقة على أحزاب المعارضة الهشة واعتقال عشرات ومئات من أعضاء حركة كفاية وحزب الغد وتكسير عظام جماعة الإخوان المسلمين وبناء تحالف سافر سياسى واقتصادى مع إسرائيل والحصول على دعم مباشر من زعامات الكيان الصهيونى للنظام الحاكم في مصر وقبل هذا كله شراء الرعاية الأمريكية بتسهيلات تحكى عنها وثائق الأمريكان ونصوص جلسات الكونجرس الأمريكى التي كشفت عن حقائق مريعة حول التواطؤ المصرى الرسمى مع الأمريكان في استهداف العراق وأفغانستان وفلسطين والعمل وكيلاً أمنياً

للأمريكان فى المنطقه!

مطلوب إذن دم الصحفيين الشرفاء المستقلين وغير مسموح سوى بالمائع الزائع المرتجف، أو بالصحفيين الموالين والتابعين والركع السجود الذين يمثلون الطابور الخامس الذى يرشد الغزاة والطغاة إلى أماكن المقاومة وأسساء المقاومين! والعجيب الغريب أنه ورغم كل هذا الوضوح لا يزال البعض يطالب ويطلب ويلتمس ويتلمس من الرئيس التدخل وهو ما حذرنا منه منذ اللحظة التى طبل وهلل فيها بعض من أهل الصحافة وصفقوا لوعده الرئيس مبارك بإلغاء قانون حبس الصحفيين، أدركت فوراً أن شيئاً ما مؤسفاً وكرهياً قد تغلغل إلى قلب الجماعة الصحفية، فإلى هذا الحد وصلنا من الرضا بالوعود، مجرد الوعود، وإلى هذه الدرجة البائسة أصبحنا ضعافاً خفافاً ننتظر المنح من فوق ونشكر الذين سجنونا وخنقونا وأفسدوا فينا وكمونوا وهددوننا وباعوا واشتروا فينا لأنهم ترفقوا وتعطفوا ووعدونا بأن يرفعوا السكين عن أعناقنا! (بدءاً من هذا السطر كثير من كلامى معاد ومكرر مما كتبتة من قبل) كان المشهد معبراً تماماً عن الواقع الصحفى الذى صار يشبه السجين حين يفرح بلوح حلالة طحينية بالمكسرات عندما يأتية فى السجن فيشكر السباح له بالحلولة الطحينية وينسى أن من قدم له الحلولة هو من رماه فى الزنزانة! صار الواقع الصحفى والسياسى كله أسيراً فى أيدي الدولة التى تختار رجالها مستبدين فاسدين وتوافق على معارضيتها الطيبين المتعقلين، نفس الساحة السياسية التى ترى فيها صفوت الشريف حاضناً رفعت السعيد» وفتحى سرور باشا هاشا مع رموز المعارضة، بينما تتواصل ابتسامات ووعود الدولة للمعارضة المتوافقة الحنونة لتواصل استبدالها وقوانينها الفاشية ضد المعارضين الحالمين بحرية وديمقراطية لهذا الشعب الذى لا يريد له نظام مبارك حرية سوى حرية مدحه والحمد له والشكر!

وعد الرئيس وتهلل إخوتنا الكبار فرحاً وتهليلاً، ثم ماذا جرى ؟

لم يف حسنى مبارك بوعدته وطبعاً خرجوا يقولون لنا إن قوى الظلام هى التى عطلت تنفيذ وعد الرئيس، وهو أمر جميل جداً أن نعرف أن الرئيس عنده

قوى ظلام ولم يبددها وأن هناك في البلد من هو أقوى من الرئيس، والمؤكد أن الرئيس في مصر هو الكل في الكل ولا أكبر تخين في البلد يقدر يعطل قراره ولا وعده، لكن الحقيقة أن نظام مبارك تعامل مع الصحفيين بمنطق ليه تدفع أكثر مادام ممكن تدفع أقل؟! يعنى الصحفيين غلابة وساكين والنقابة طيبة وهادئة والمعارضة مستكينة ومسكينة وصحف الحكومة تؤدى خدمات قوات الأمن المركزى وإخلاص رجالها في الضرب أكثر حماسا من عساكر الأمن المركزى، وأمريكا لا تأتى بسيرة الصحافة ولا تضغط على الحكومة من هذه الناحية، ليه بقى تفرط الدولة في قدرتها على مسك أى صحفى من زمارة رقبتة، ومن هنا ظل الوعد وعدا لأكثر من ثلاثة أعوام ، لأن المنهج الذى يتبعه الصحفيون منهج مستسلم وخاطئ، محادن ومتوسل، يخشى المواجهة والمصادمة، ينتظر منحة الرئيس، لكن كلما كان صاحب الحق قطة سيامية تهدد رأسها في حجر سيدها فلا حق ولا يجزنون، لقد علمنا أجدادنا أن الحداية لا ترمى كتنايكت وعلمتنا الحياة الراهنة أن الدولة لا ترمى للشعب حرية!

دعك من الحداية والكتنايكت وكلياة ودمنة وحكاياتها وانظر حولك، كل ما تقوم به الدولة من إصلاحات وهمية وزائفة، كل ما تسنه من قوانين سيئة ومقيدة، كل ما تعد به الناس كذبا، كل ما تقدمه لوطنها فسادا مدمرا وسرطانا مييدا، الوطن يغلى وهى باردة، العالم يتحرك وهى جامدة، الزمن شاب وهى عجوزة، المرحلة تستدعى يقظة ومانعيشه الزاهيمر!

المؤسف حقا حين يلتزم المحترمون بمنهج ضعيفة، حين يخوض الكبار معاركهم بالخيال القديم البائس الذى أوصل الأمر إلى مأساة وملهاة منجولة تدعو للانفجار وليس للهدوء الذى يصل إلى حد البرود والجمود من الجماعة الصحفية، فالذى حصل وصل إلى درجة أن السجن لم يتم إلغاؤه بل زادت القوانين التى تسجن الصحفيين وغرسوا فى القانون الجديد (قوى الظلام طبعا التى هى أقوى من شبكة كهرباء قصر العروبة!) مواد تسجن الصحفيين إذا انتقدوا انتفاخ ثروة مسئول أو تحدثوا عن حجم أموال ابن مسئول أو تساءلوا عن شركة جمال مبارك

أو عن ثروة أحمد عز أو عن بيع القطاع العام أو أى شيء أو لا شيء، بل أصروا على أن يسجنوا الصحفى لو أشتكى منه سفير إسرائيل أو أمريكا أو أى دولة أجنبية، إن السفير الإسرائيلى قادر وفق القانون الجديد أن يسجن نصف الصحفيين فى مصر، وهكذا نجحت سياسة التوسل والتسول والشكر والمدح والإشادة بالرعاية والحكمة لدرجة أن زاد السجن سجننا، هل هناك كراهية لحرية الصحافة أكثر من هذا؟!، هل هناك خداع وكذب أكبر من هذا؟! ثم تخرج صحف الأمن المركزى تتحدث عن إلغاء الحكومة لعقوبة السجن، أى صفاقة وانحطاط محمى أفر من هذا؟!

ولأن المشرحة ناقصة قتلى، فها هى نفس حالة الالتماس بالتدخل كأننا الطفلة آلاء نتمنى عطفًا وتعطفًا لتصحيح الدرجات والنجاح فى امتحان النقل (حتى الطفلة لم تفعلها وتعتذر وهم يكذبون ويقولون فعلتها!) كأنها العقيدة سياسة المهادنة والتعقل المتهاون والتوسط والتوسل السياسى المهين والتسول العاطفى...المنحة ياريس!

أعرف أن أيام الصحفيين الشرفاء المستقلين عن الحكم والمعارضين للحاكم أيامهم خارج السجن باتت قصيرة لكننى أتمنى أن نتمثل ونقتدى جميعا بالإمام ابن حنبل حين وقف مقيدا ومكبلا ومضروبا بالسياط ومخنوقا بدوائر الحديد أمام الخليفة المعتصم قال له: يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدى الله كوقوفى بين يديك.. فسارع المحيطون بالخليفة من المنقذين والكتبة ومداحى السلطان ووعاظه يتنادون: يا أمير المؤمنين، إنه ضال مضل كافر يرفض طاعتك وحكمتك ورؤيتك وخطابك.. فأمر الخليفة بأن يرموا ابن حنبل فى السجن يقوموا بجلبه وتعذيبه.. وفى قلب الليل البهيم دخل على ابن حنبل زنارته رفقة من العلماء ومفكرى العصر يحاولون إقناع ابن حنبل بعدم معارضة الخليفة وإعلان طاعته واستشهد أحدهم وهو المروزى بقول الله تعالى «ولا تقتلوا أنفسكم» ادعى بأن إصرار ابن حنبل على المعارضة يعنى بقاءه فى السجن مع الجلد والتعذيب والموت فكأنه قتل نفسه (شوف الضلالي؟) فرد عليها ابن حنبل: اخز يارجل (يعنى اختشى وخلى عندك

دم..!) ثم طلب منه أن ينظر خارج السجن ليرى ما حوله، فخرج المروزي فرأى
المئات من الشباب يسكون بأقلام ومحابر في أيديهم فسألهم : إنتوا هنا بتعملوا
إيه ؟ فأجابوه : ننظر ما يقوله أحمد بن حنبل فنكتبه.. فعاد فقال لابن حنبل : فيه
جماعة قاعدين ماسكين أقلاما و ورقا منتظرين أى حاجة تقولها فيكتبوها.. فقال له
ابن حنبل :...أقتل نفسى ولا أضل هؤلاء كلهم!.

يارب اجعلنا من القابضين على الجمر واجعل آخر أيامنا فى الدنيا يوم نطمع فى
الدنيا وما فيها..

اللهم نجنا من القوم الظالمين..

اللهم نجنا من فرعون... وعمله..

وقوائينه!

اربط الحمار!

الناس بتعمل إيه فى الزمن المهبب ده؟
السؤال بيدو وجيها ويوميا تسأله لنفسك الأمانة بالسوء، أو يسأله مواطن
رذل لك بغرض إحامك!

هذا واقع يسيطر عليه الفساد ويحكمه الاستبداد، لقد تحالف الفساد مع
الاستبداد وكبسا على صدر البلد من ربع قرن وإذا تلفت فى الرايحة والحماية
ستجد هذا السؤال موجها لك، إذا كان ما يحدث فى مصر هو ما تصفه وتخوت
دماغنا به فى سطورك فكيف يعيش كل هؤلاء المواطنين فى هذا البلد؟
لدى إجابة رخمة مستفزة وهى أن الناس مش عايشة أساسا وهل هذه اسمها
عيشة؟

الشعب المصرى هو ملك الحلول الوسط فقد قرر أن يفعل مثلما فعل الشيخ
حسنى فى فيلم الكيت كات، هو أعمى لكنه لا يتصرف على أنه أعمى خالص!
ورغم طرافة وروعة هذا الحل إلا أنه لا يغير حقيقة أن الشيخ حسنى أعمى!
وهكذا الشعب المصرى غطسان حتى أنفه فى الفساد والاستبداد ومع ذلك
بيتصرف كأنه ليس موجودا، سواء هو، أو الفساد والاستبداد!

لكن طالما سألتنى ماذا يفعل الشعب المصرى وكيف يحل معضلة العيش فى
هذا الواقع الظالم والقاهر فاسمح لى لو كان عند حضرتك وقت أشرح لك!
الحل الذى يلجأ إليه المواطن والحل الأكثر شعبية وجاهيرية فى هذه الفترة
الدرجة التى تمر بها أمتنا (كل الفترات التى مرت بها أمتنا حرجة لدرجة محرجة لأى
شعب محترم!) هو شعار: خلينا فى حالنا عايزين نربي العيال، وهو موقف يلتزم به
كثير من المصريين ويؤمنون به إيمان يهود هارون بعجل السامرى الذى له خوار،

نعم فمصر في معظمها من بتوع نظرية نربي العيال ورغم أن السعى على الرزق والعمل والكفاح من أجل تربية كريمة لعيالنا هدف شديد الاحترام والنبالة ولكن الحاصل طول الوقت أن عيالنا مبيتربوش، عيالنا، أى شباب مصر في نظر كثيرين مش متربى، فليس هناك عصر انتشر فيه الزواج العرفى السرى الورقى بين الشباب أكثر من هذا العصر، والحقيقة التى نخجل جميعا من مواجعتها أن نسبة هائلة من الشباب (عيالنا) قد تعاملوا سواء أن تزوجوا عرفيا أو شهدوا على زواج عرفى أو شاهدوا زواجا عرفيا إلى حد أن هناك صيغا من هذه العقود تنتشر بين الشباب، ثم إن ظاهرة تعاطى البانجو هى الأكثر حضورا فى الساحة المصرية الآن من أى وقت مضى، ولن أتحدث هنا عن الجرائم العائلية ولا العقوق والتمرد على الأهل بل فقط نضع دائرة حول جرائم الشرف التى زادت وغطت، إذن على المستوى الأخلاقى فلا أظن أن عاقلا فى مصر يقول إن هذه فترة ذهبية للأخلاق بين الشباب (عيالنا الذين نربهم).

نتنازل عن مناقشة ومساءلة حكمانا ونمنع أنفسنا خوفا ورعبا من معارضة الدولة أو الإتيان بسيرة مبارك أو ابنه أو الانسحاب من أى نشاط سياسى وحزبى من أجل أن نتمكن من تربية العيال وتوفير القمة والوظيفة لهم، لكن النتيجة لهذا كله أن العيال لا يعملون ولا يتوظفون فى قطاع عام أو خاص معدل البطالة فى مصر طبقاً للتقرير الاقتصادى الاستراتيجى ٢٩% من قوة العمل، أى حوالى ٨ ملايين عاطل من بينهم ٩٩% شباب، فضلا عن أن عددا هائلا من الشباب يعملون فى مهن متواضعة وبأجور حقيرة ولا يملكون قدرة على الزواج وبناء أسرة وشراء شقة، إذن ما هو سر نجاح نظرية خيلنا نربي العيال رغم كل فشلها الساحق هذا؟ لا تربية أخلاقية واضحة ولا وظائف مأمونة ولا مستقبل مطمئن، ثم يبقى السؤال: وهل تكون تربية العيال وهى مكلفة جدا فى ظروف المعيشة الزفت اللى عايشينها على حساب القيم والمبادئ؟

يعنى نربي عيالنا بإيه؟

بالرشوة..معظم عائلاتنا من الموظفين ومحدودى الدخل ومعدومى الدخل

كذلك، ولكي نوفر لعيالنا اللقمة والهدمة وفلوس الدروس الخصوصية ووصلة الدش وكارت المحمول، نرتشى مثلاً!

وهناك أشكال كثيرة للرشوة مقنعة وواضحة، مستورة ومفضوحة، هل يصح أننا نربي العيال بفلوس حرام ونتغافل عن حرمتها بدعوى أننا نعمل إيه، هيه العيشة كده والبلد كده؟!

ثم لو فرضنا أننا أشرف من الشرف فالسؤال مرة أخرى:
يعنى بنربي عيالنا على إيه؟

على نفاق مدرسههم وناظرهم ورئيسهم فى العمل.
على الكذب والمشى جنب الحيط.

على الخوف والرعب وإحناء الرأس والدوس على الكرامة عشان نعيش، يا أخى يلعن أبو العيشة لو عن طرق النفاق ومسح الجوخ والجن.
عموما يبقى أن هذه النظرية هى الأنجح والأنجع وأكاد أقول إن أصحابها هم حزب الأغلبية فى مصر.

فى الأهمية والجاهيرية يأتى الحل الثانى وهو اللجوء للدين، والحقيقة أن العيش فى دولة كل رأسالها هو الفساد والاستبداد حاجة تكفر أى بنى آدم أو تدفعه للتطرف الدينى، والحمد لله أن كثيرين فى مصر اختاروا أن يتطرفوا أحسن من أن يكفروا، ومن ثم نرى هذه الحالة الظاهرة من التطرف، وبالمناسبة التطرف حاجة والعنف حاجة تانية (كما أن الحب حاجة والزواج حاجة تانية).

التطرف أفكار والعنف سلوك والاثنان موجودان بعون الله.

دعنا أولاً نركز على التطرف فهناك حالة (أو حاجة) محموعة لدى كثيرين فى الوطن للفرار من البؤس والفساد اللذين يعيشونها باللجوء للدين وهذا أمر محمود ومشكور ولكن التدين يأخذ نتيجة الغضب على الواقع (أو بالأدق الغضب من الواقع) شكلاً عدوانياً وناقماً على الآخرين، فلأن الناس محبطة ومنزعجة وطالع عين أبوها (أدرت ذلك أم لم تدرك) فهى توجه النعمة على الآخرين فبالضرورة القبطى فى نظر المسلم كافر والمسلم فى نظر القبطى كافر وهكذا، ثم تطرف أكثر فى الحكم

الأخلاقي على الآخرين حتى لو من دينهم، فالعلماني كافر رغم أتى أحلف على المصحف أن ٩٩% (إشعني أنا) من المصريين لا يعرفون معنى الكلمة ومع ذلك رأيم أن العلماني كافر والغرب منحل والشيعنة روافض ويعبءوا سيدنا على والبائين المفروض يتحرقوا وهكذا سلسلة من التطرف المتوالى المتتالى، إذن يتطرف المصريون باعتباره حلا فى مواجهة عجزهم (التطرف يشمل أغنياء وفقراء فهو حل فى مواجهة العجز وليس فى مصادمة الفقر!)، وتصبح الكراهية سلاحا ومنهجا ومقاومة.

ندخل على العنف الذى ليس هو التطرف، فليس كل تطرف عنفا ولكن كل عنف بالضرورة تطرف (لو لم تفهما مش ممم، كمل فهى ليست حصة منطق) والعنف حل يأخذ أشكالا متعددة، العنف الداخلى والخارجى، الداخلى هو العنف مع الذات والأهل والأسرة وتعب عنه مئات من حوادث القتل العائلى البشعة واليومية والحادثة للتصور والناسفة لكل القيم العائلى والإنسانية وأظن أن أى قارئ لصفحات الحوادث يكشف تلك الحقيقة وأظن كذلك أن حرص الدولة على عدم نشر تقرير إحصائى سنوى عن عدد جرائم القتل وغيرها فى مصر دليل على خوفها العميق من اكتشاف موثق لحجم التصاعد الرهيب فى الجريمة ليس فقط جرائم القتل العادية بل جرائم القتل العائلى..والبشعة، العنف الداخلى كذلك يتبين فى تصاعد عمليات ومحاولات الانتحار (زيارة بالصدفة لقسم الاستقبال بقصر العينى توضح لك الحجم الحقيقى لمحاولات الانتحار هذا مع الاعتبار أن كثيرا من حالات الانتحار ومحاولاته يفضل الأهالى إخفاءها والتستر عليها) ثم ينتقل العنف الداخلى إلى دائرة أخرى وهى الضرب والاعتداء البدنى سواء داخل الأسرة أو فى الشارع ولعل تزايد حالات البلطجة وسيطرة البلطجية على الواقع المصرى أمر لم يعد فيه شك ولا تشكيك!

الضفة الأخرى من العنف هو العنف الخارجى ومركزه الرئيسى العنف الدينى ومنذ سفر آلاف الشباب لأفغانستان فى نهاية السبعينيات ونحن نعيش حالة الحل العنيف والإرهابى والذى يلجأ لهذا الحل هو من يعتقد أن هذا الوضع

الفاقد والاستبدادى (الطاغوتى) الذى نعيشه لا يمكن إلا أن يكون نتيجة لنظام كافر يحكمنا ويخلط هؤلاء بين النظام الظالم والنظام الكافر وبيننا يحاولون مقاومة الظلم فإنهم يحاربونه على أنه كفر فيزيد العك والبلاء والخبط والرزع والجهل والتخلف!!

نأتى لحل آخر وهو حل الوطن الموازى، هناك فى بلدنا قطاع واسع مش فى بلدنا أساسا، بمعنى أن شرائح كثيرة فى مصر (ليست كلها أغنياء بل فيها متوسطو الطبقة والثقافة كذلك) تعيش فيها وتعمل بها وترزق من أعمالها ووظائفها ولكنها تعيش فى وطن مواز، صنعتها هى بنفسها منفصلة عن مصر يأسا منها ومن أحوالها وخلاصا من التورط فى البحث عن حلول للوطن أو مشاركة فى تغييره هى ليست قده كما أنها لا تضمنه، هذه الشرائح تعيش جسدا فى البلد وروحا خارجه، فهى قد تعلم أولادها فى مدارس أجنبية وبعضها الكثير لا يعرف شيئا عن الثانوية العامة، وهى كذلك تشاهد قنوات الشو تايم والأوربت والقنوات الأجنبية وهى تشجع ماندشستر وتشلسى وبرشلونة ونجومها هم توم كروز وبراد بيت ومسلسلها المفضل فريندز، وتتابع انتخابات الرئاسة فى أمريكا وفرنسا وغيرها ولا تهتم حتى بمعرفة هل أحمد نظيف نظيف أم لا؟ وتخلق حياة على النت وتعيش فى مساحات من المدونات والشات ولا علاقة لها بصحف محلية وتظن أن شرم الشيخ هى عاصمة مصر!

الحل المطروح كذلك لدى قطاع ليس محدودا فى البلد هو أن نهج من البلد واللى شايف سفريه يسافرها واللى شايف هجرة يهاجر وهجرته إلى ما هاجر إليه، والمدهش وسط كل الرغى والرغو الذى نسمعه عن كراهية الشعب المصرى لأمريكا فهناك حسب عدد من المصادر أكثر من نصف مليون مصرى يتقدمون بطلبات هجرة سنويا لأمريكا وكندا وآلاف آخرين لاستراليا ونيوزلندا، وهو الحل المقترح لدى عديدين لا ينافسه سوى حل السفر للخليج!

هذه الحلول التى يلجأ لها المصرى تتحول إلى حيل، وتعريف الحل هو الأمر الذى تنهى به مشكلة أما الحيلة فهى الأمر الذى تفعله مع مشكلة لن تستطيع

حلها، ومن الحل للحيلة جاء الخلاص العبقري الذى يمارسه المواطن المصرى
تيسيرا لمشاكله وتسييرا لأحواله هو حل: اربط الحمار مطرح ما صاحبه عايزه!
وإذا كانت هناك ميزة أساسية للشعب المصرى فهى أنه يعرف تماما الحمار
وصاحبه!

مصر تتصل!

الذى تأمل تصريحات الرئيس مبارك عن العدوان الإسرائيلي على لبنان ومن قبلها ومعها وفي إثائها غزة، يدرك أن مصر لا تفعل شيئاً سوى الاتصال بإسرائيل، كل مهمة مصر باتت قاصرة على الاتصال بإسرائيل حتى تتصور أن مصر صارت «سنترالا» وليست دولة!

مصر لا تضغط على إسرائيل ولا تواجهها سياسياً (حاشا لله أن نغامر ونقول عسكرياً) ولا تثير غضبها ولا تلوح في وجهها، مصر تتصل! وكأن سياسة مصر الخارجية يحددها اشتراكها في كارت آلو!

ورغم أن القضية الفلسطينية والوضع العربي ينحدر طوال الوقت من سيئ إلى أسوأ ومن نيلة إلى أنيل إلا أن الآلة المناقفة لا تتوقف عن الإشادة بدور مصر وحكمة رئيسها في المنطقة!

وقد كان الرئيس مبارك واضحاً جداً حين حكى عن دوره (الذى هو طبعا دور مصر) في الأزمة الأخيرة حيث بالنص طبقاً لجريدة الأهرام ١٧-٧-٢٠٠٦: إنه اتصل بإسرائيل للانتظار والتفكير في الخطوة التالية التى يتعين القيام بها بعد عملية حزب الله.. (لم يقدم الرئيس أو مصر اقتراحاً محدداً لإسرائيل) ورد الإسرائيليون أن اجتماعاً للحكومة الإسرائيلية سيعقد وسيتم الإعلان عن الموقف الإسرائيلى فى هذا الشأن انطلاقاً من أن الحكومة الإسرائيلية حكومة جديدة وترغب فى أن يأتى قرارها متفقاً مع الجهات السيادية فى الدولة. (وهو كلام يصدر عن الرئيس مبارك الذى لم تعقد حكومته اجتماعاً لدراسة الموقف فيكفى دور واتصالات الرئيس مبارك) وقال مبارك: إن الإسرائيليين طلبوا منحهم فرصة للرد غير أن المسألة تصاعدت بسرعة. (لم يقل الرئيس كيف تصاعدت وهو قد

طلب منهم التهدة؟ ولماذا لم يسمعوا نصيحة مصر؟).. مشيرا إلى أن جهود مصر في هذا الشأن شملت الاتصال (الاتصال!) بسوريا لكي تتحدث مع حزب الله. وقال الرئيس: لم تتوقف مصر عن الاتصال بالإسرائيليين أكثر من مرة يوميا (مصر بتتعب فعلا!) موضحا أننا أبلغنا الإسرائيليين أن ضرب المدنيين خطأ (وهي حقيقة كانت إسرائيل لا تعرفها قبل أن تقولها مصر لها في التليفون) ويضيف الرئيس مبارك في تصريحاته: خاصة أن الشعب اللبناني أعزل (وهي حقيقة غائبة طبعاً عن إسرائيل!) ويتعين عليهم التوقف عن تدمير البنية الأساسية فرد الإسرائيليين بأنهم يضربون البنية الأساسية لحزب الله (لم يقل لنا الرئيس مبارك بماذا ردت مصر على هذه النقطة الجوهرية التي كشفتها إسرائيل لمصر في الكلمة؟! هل اقتنعت مصر، هل وافقت، هل رفضت؟).

وتواصل الأهرام التي أقتل منها بالنص والحرف: أضاف الرئيس مبارك في معرض شرحه لبداية تفجر المشكلة أن مصر واصلت اتصالاتها ومشاوراتها بمختلف الأطراف وكانت حريصة على منع دخول الإسرائيليين إلى بيروت الأمر الذي كان سيترتب عليه عمليات تدمير المدينة ولو كنا تركنا الموضوع لكنت بيروت دمرت. (وكأن بيروت لم يتم تدميرها يا سيادة الرئيس! ثم كأن دورنا هو تخفيف حجم الدمار وليس إيقافه!).

وقال الرئيس مبارك إننا ندعو لوقف إطلاق النار حتى يتسنى التفكير بهدوء وترو فيما يمكن أن يتخذ من خطوات بشأن المشاكل مع لبنان أو فلسطين. (مشاكل، هل ما يجري مشاكل، مجرد مشاكل مع لبنان أو فلسطين؟!).

ثم جاء الرئيس مبارك على الجزء المفضل للحكام العرب في هذه الأيام وهو تليس حزب الله القضية، فقال: إن على الدولة في لبنان أن تبسط سيطرتها على جميع أراضيها، وبالتالي فإنه في حالة قيام أى طرف بأى عمل فإنه يتعين عليه أن يتشاور مع الدولة حتى يتجنب توريطها وحتى تكون الحكومة اللبنانية على دراية بما يحدث وتأخذ الاحتياطات اللازمة.

وردا على سؤال حول ما يتردد من مخاوف من جر دول أخرى إلى هنا

الصراع... قال الرئيس مبارك: إنه لا بد من إعمال العقل والتفكير السليم في الخروج من الوضع الراهن وعدم الجرى وراء الأفكار المتسارعة التي قد تورط المنطقة في مثل هذا الوضع. (يتحدث الرئيس وكأن كل القرارات والمواقف التي تجرى إنما هي وفق اللحظة وابنة ساعتها وكأن الدول العربية لا تعرف الخطط بعيدة المدى ولا البدائل المدروسة الجاهزة، كأن السياسة العربية تدار على طريقة: يا ترى من يعيش وإحنا ولاد النهاردة!).

وحول إمكان استجابة إسرائيل لوقف إطلاق النار قال الرئيس مبارك إن من يعتقد بأنه يستفيد من الحرب فهو مخطئ بل ستؤدي هذه الحرب إلى تنامي الروح العدائية لإسرائيل في أنحاء المنطقة العربية (هل هذه هي النتيجة التي تزج مصر يا ترى؟! أليس للروح العدائية لإسرائيل ما يبررها من اغتصاب أرض واحتلال أوطان وقتل شعوب؟!) يضيف مبارك: وستخرج قوى متطرفة كثيرة ضد إسرائيل وبالتالي لن تكون إسرائيل رابحة من وراء هذه الحرب ولكنها ستكون خسارة لإسرائيل والمنطقة.. (والسؤال هل ما فعله إسرائيل لا يستحق قليلاً من الشدة والتطرف لدى المعتدلين العرب؟! ألا يستحق قتل المدنيين وتدمير بلد عربي أن يظهر العرب بعض أنيابهم ولو الزائفة لإسرائيل؟! إن التطرف ضد الحكام والرؤساء العرب هو الذي سيزداد في الحقيقة وهو الذي يخشاه الحكام، لكن عموماً من فيكم ينتظر من إسرائيل أن تسمع نصيحة صديقتها مصر!؟).

إذن، إذا كان هذا الكلام هو ما تسمعه إسرائيل من أصدقائها الحكام العرب فهل تتوقع لها أن تتراجع عن ضرب لبنان وفلسطين بأعتى وأحقر الأسلحة، إن أى مواطن إسرائيلي متوسط الذكاء يسمع هذه البيانات والتصريحات يتأكد تماماً أن الحكام العرب لن ينفخوا ريشة في مواجهة إسرائيل فكل ما يملكونه هو مزيد من الاتصالات التليفونية وطلبات والتماسات بتخفيف الضرب والاعتداء! المشكلة ليست فيما فعله حزب الله بل فيما يفعله الحكام العرب، فإذا افترضنا أن ما أقدم عليه حزب الله مغامرة فهل الحل لدى الحكام العرب هي تلك البيانات

والتصريحات والمواقف التي تمحو الهامش الفاصل بين العقل والجن، بين السلام والاستسلام، بين الحكمة والخضوع!

ألم يكن ممكنا استغلال هذه العملية الشجاعة والماهرة والمبهرة التي نفذها بكفاءة حقيقية حزب الله بتهديد إسرائيل أن استمرار احتلالها لفلسطين والأرض العربية وسفك دماء واغتصاب أراضي العرب سوف يجعل الحكومات والدول نفسها تقوم بما قام به حزب الله، ألم يكن واضحا لدى حكامنا الجوانب الرائعة التي احتوتها عمليات حزب الله.. مثلا:

١- ضرب حزب الله الكبرياء الإسرائيلي في مقتل حيث انهارت نظرية عدم قدرة العرب على مساس أمنه وحدوده.

٢- أنهت العملية أى أسطورة وهمية عن تفوق الموساد الإسرائيلي والمخابرات العسكرية فقد اخترقت عملية حزب الله هذا التفوق المزعوم وأركعته!

٣- أوصلت للشعب الإسرائيلي أنه ليس في مأمن من الموت والقتل والاعتداء عليه في بيته ومسائه وأنه لا آمان بدون استرداد حق اغتصبتة دولته!

٤- أكدت أن العرب ليسوا فترانا ولا أرانب وليسوا كائنات مذعورة يشحت ويتسول حكامهم الآمان والسلام من إسرائيل!

٥- إذا كان حزب الله وهو مجرد تنظيم قد نجح في اختراق إسرائيل وتهديدها فما بالنا لو فعلته دول وحكومات؟! أليس هذا ما يجب أن نقوله للصهاينة متطرفيهم ومعتدليهم!؟

لا أحد من هواة الحرب لكن لا يجب أن نكون كذلك من هواة النذل والضرب بالجزم من الإسرائيليين كل يوم سواء على حدود رفح أو في الضفة وغزة أو في لبنان أو سوريا، دون أن يستخدم ويستغل المعتدلون ما أقدم عليه المتطرفون، فدولة مثل إسرائيل تلعب دائما بفكرة التوازن داخلها بين الصقور والحمام (المتشددون والمعتدلون) بينما في مصر والدول العربية غير مسموح سوى بالحمام وربما الأرانب أما الصقور أو من تتوهم الحكومات أنهم كذلك ترمى بهم في

السجون والمعتقلات فالمطلوب من الشعوب والسياسيين العرب أن يكونوا أحمدة وقفازات فى قدم وىء الحاكم؁ أما أن ىختلفوا وىعارضوا فالتشهر والتخون هو ما ىتوعدهم والحبس والسجن والتعذىب هو ما ىنتظرهم!

أما هذا الذل الذى ىظهر مع كل إىماء ولقنة وكلمة من الحكام العرب فهو ذل ىكشف دونما عناء أن إسرائىل هى التى تحمى عروشهم وأنظمتهم سواء بتشعلهم فى دور الوساطة والوكالة والسمسرة السىاسية أو بمنحهم رضاها وءعمها عند الرئىس الأمريكى حتى ىسند عروشهم ووجودهم الأبدى على مقاعد الحكم وتورىث أولادهم حكم الأوطان!

لكن الذى ىدعو للتساؤل فعلا إذا كان هؤلاء الرؤساء والحكام العرب أصءفاء لإسرائىل ولا ىملكون سوى التوسط لءىها وإبءاء الاستشارة والنصح لها فلماذا ىنفقون كل هذه الأموال على شراء الأسلحة وكل هذه الملىارات الطائلة على الإنفاق العسكرى فالشرق الأوسط المنطقة الأكثر تسلىحا فى العالم مع أن واحءا من الحكام العرب لا ىرىء أو ىتوقع أو ىقءر أو ىستطىع أو ىملك أو ىفكر أو ىعلم بمحاربة إسرائىل!؟

والغرب أن منطقة الشرق الأوسط تحتل المرتبة الأولى على الصعىء العالمى من حصة النفقات العسكرىة من إءمالى الناتج المحلى؁ حىء وصلت هذه النسبة كما ىرد فى التقرير الاقءصاءى الاستراتىجى الذى ىرأس تحریره الخبر أحمد النجار وىصدر سنوفا عن مؤسسة الأهرام إلى نحو ٦.٧% بالمقارنة مع ٢% فى غرب أوروبا؁ و ٣.٦% فى أمريكا الشمالية؁ وتزىء النسبة فى منطقة الشرق الأوسط بأكثر من ١٦٠% عن المعدل العالمى؁ الذى كان ىقءر بـ ٢.٥% لعام ٢٠٠٣؁ والأكثر أن منطقة الشرق الأوسط تحتل مرتبة متقدمة أيضاً من حىء نصىب الفرد من الإنفاق العسكرى للدولة؁ وىتحدد هذا المقىاس من خلال قسمة إءمالى الإنفاق العسكرى للدولة على عدد سكانها؁ بحىء ىتضح حجم العبء الواقع على عائق الفرد الواحد من هذا الإنفاق.

وفى الشرق الأوسط - كما جاء فى البىانات المتاحة لءى معهد إستكهولم

الدولى لأبحاث السلام التى اعتمد عليها تقرير الأهرام - كان نصيب الفرد من الإنفاق العسكرى عام ٢٠٠٤ يقدر بنحو ٢٤٨ دولاراً، وبالنظر إلى متوسط الدخل الفردى فى المنطقة، يتضح أن نصيب الفرد من الإنفاق العسكرى فى الشرق الأوسط يمثل نحو ٥.٤% من دخله، فى حين إن نسبة ما يمثله نصيب الفرد من الإنفاق العسكرى فى غرب أوروبا يقدر بنحو ٢ و ٢٠% فقط (مع الفارق الواسع بين دخل محدود وربما معدوم فى الوطن العربى ودخل مواطن غرب أوروبا).

كل هذه الأرقام ومع ذلك يتحدث الرؤساء العرب عن استحالة مواجهة إسرائيل، طيب.. لماذا تكديس الأسلحة وتزايد الإنفاق العسكرى إذن؟! صحيح ما الحكمة وقد تعودنا أن كل حكام العرب عند مناققتهم حكمااء!!؟ إن اللافت للانتباه أن سلطنة عمان التى لم تقل كلمة حاسمة أو غاضبة فى إدانة ما تفعله إسرائيل ضد لبنان تأتى فى المرتبة الأولى من حيث نسبة الإنفاق العسكرى من إجمالى الناتج المحلى، حيث وصلت النسبة إلى ١٢.٢% فى عام ٢٠٠٣، وتبادل السعودية والكويت والأردن وإسرائيل المراكز الأربعة التالية، بنسب تتراوح ما بين ٨ و ١٤%، (رغم أن السلام يعم ويرفرف بين الأردن وإسرائيل مثلاً ثم لا حرب دائرة ولا منتظرة بين السعودية وإسرائيل) وتأتى بعد ذلك سوريا واليمن والبحرين ولبنان وإيران والإمارات، وتعتبر مصر أقل الدول من حيث هذا المعدل، حيث حافظت على نسبة من الإنفاق العسكرى تتراوح بين ٢.٥ و ٢.٦% من إجمالى ناتجها المحلى.

وفى ضوء البيانات نفسها المتاحة لدى معهد إستكهولم الدولى لأبحاث السلام، نجد أن إجمالى الإنفاق العسكرى لمنطقة الشرق الأوسط قد وصل إلى نحو ٦٢.٥ مليار دولار، دون أن تتضمن هذه القيمة النفقات العسكرية لكل من العراق وقطر، لعدم إتاحتها، وأيضاً بدون أن تشمل على ما تحصل عليه بعض دول المنطقة (مصر وإسرائيل والأردن) من مساعدات عسكرية من القوى الكبرى. ولدى توزيع هذه القيمة على الأقاليم الفرعية فى الشرق الأوسط، نجد أن

منطقة الخليج تستحوذ وحدها على نحو ٥٣.١% من إجمالي الإنفاق العسكري للشرق الأوسط ككل وهي أموال وأسلحة يبدو أنها موجهة ضد إيران أكثر من إسرائيل أو موجهة من دول الخليج ضد بعضها! كما لا يعقل هذا الإنفاق في دول ليس فيها جيوش بل معظم جنودهم وضباطهم مؤجرون (لا أقول مأجورون) من دول غريبة وأجنبية!! هذه الدول التي لم تحارب يوما تنفق سنويا ما قيمته ٣٣.٢ مليار دولار، في حين تأتي دائرة الصراع العربي - الإسرائيلي في المرتبة التالية بنسبة ٣٢.٥٥% بإنفاق قيمته ٢٠.٣٥ مليار دولار، (ونعلم جميعا أن حرب أكتوبر كما تحلف مصر هي آخر الحروب فضلا عن سوريا التي لم تطلق رصاصة منذ ٣٣ عاما على إسرائيل والأردن كما ترى وليبيا كما لا تحب أن ترى) بينما تأتي منطقة المغرب العربي في المرتبة الثالثة بنسبة ١٤.٣% بإنفاق قيمته ٨.٩٤٩ مليار دولار. وبمناسبة الموقف السعودي الواضح من حزب الله فإن الشيء بالشيء يذكر فالأرقام تذكر أنه ربما تكون السعودية قد وصلت لأعلى نسبة للإنفاق العسكري من إجمالي الإنفاق الحكومي وقد وصلت النسبة أحيانا إلى أكثر قليلا من ٤٠%، (أى أن السعودية في سنوات كانت تنفق ما يقترب من نصف إنفاقها السنوى على شراء الأسلحة) وتشير هذه الأرقام إلى أن نسبة الإنفاق العسكري السورى من إجمالي الإنفاق الحكومى السورى وصلت إلى نحو ٦٤.٢٣% أى أكثر من نصف ما تنفق بكثير، (تجد الإشارة هنا إلى أن نسبة الإنفاق العسكري الإسرائيلى من إجمالي الإنفاق الحكومى حوالى ٢٩.١٨%).

عموماً حزب الله نجح في قهر إسرائيل التي فشلت كل الدول العربية في مواجهتها، لأن الدول العربية يحكمها هؤلاء الذى انتزعوا الحكم واغتصبوا الشرعية وزوروا الانتخابات ونهبوا الثروة وسرقوا الثورة وورثوا الأبناء، هؤلاء الذين دربوا شعوبهم أن تكون قرودا أمام حكامها تلعب لهم عجين الفلاحة! ونصبوا عليهم كذلك وأوهومهم أن الشجاعة حماقة وأن الكبرياء بلاهة وأن العزة شطط وأن الحرب هزيمة وأن العدو أسطورة وأن إسرائيل لا يمكن أن تهزم وأنا لا يمكن أن نتصر. وتحول الحال إلى أن الشعوب التي تسجد لحاكمها الظالم لا تجد مشكلة في أن ترفع

أمام عدوها الغاشم.

لا أمل في نصر على إسرائيل قبل الانتصار على الاستبداد والفساد الذي يحكم الوطن العربي، لكن متى النصر على العدو؟، أقول لكم متى: حين تكون الأمة العربية أمة حرة في الرأي والفكر ونستطيع إجراء انتخابات حرة شريفة (بلاش نزيهة) ننتخب فيها من أكبر مسئول إلى أصغر نائب، عندما تكون هناك حرية إصدار صحف وبرلمان يستطيع أن يحاسب ويعاقب ويرفد وزراء ورؤساء! عندما نتوقف عن التعامل مع الحاكم والرئيس على أنه مقدس أو نبى أو ولى! الحكام العرب لا يبحثون عن الحق والعدل بل يبحثون عن راحة الدماغ، الهدف الأسمى هو السعى العربي الرسمي لاستقرار الحكم، أنهم لا يبحثون عن حق بل عن حل والفرق شاسع هائل، والحل المطروح هو الاعتراف بقوة وقدرة إسرائيل، شعار الحكام العرب الخضوع لإسرائيل مقابل البقاء والاستمرار في الحكم وعلى العرش، طيب إذا كان الكل موافق بالصلاة على النبي مانقرا الفاتحة، آه هناك مشكلة مؤرقة للجميع وهي الجماعات والمنظمات الراضية للتسوية الإسرائيلية مما يفشى عجلة السلام، الحل إذن أن تقوم إسرائيل وتشيل الليلة تعندى وتحتل وتسجن وتغتال وتختطف وتطرد وتضرب فتحقق غاية الأرب لحكام العرب: ترقيق الحركات الراضية للتسوية وطحن عظامها والتلويح لغيرها بنفس العاقبة وتنزيل مستوى الطموحات والمطالب العربية؟ فبعد أن رفض العرب قرار التقسيم (منذ حوالى ٦٠ عاما) عليهم الآن بعد كل هذا العجز والعار والهوان الرضا بالمقسوم!.

كل يوم عاشوراء.. وكل أرض كربلاء!

المواطن الطبيعي الذي يذهب كل يوم إلى عمله ويعود مملوكا وممزقا من تعب السعى على الرزق وانتزاع مئونة أولاده من فم الأيام السود، يأكله الأسى والغضب على ما يجري في لبنان وفلسطين وهو يرى شعوبا تموت وأرضا تضيق ودولا عاجزة وحكاما يكذبون!

وحين يجلس على الكنبه أمام التلفزيون منكشما وربما مرتعشا محموما ومكدودا ومحروقا دمه (إذا كان عنده دم أصلا!)، يدرك أنه أمام كل ذلك بلا حول ولا قوة، الغضب يمتلكه تماما والرغبة الهائلة في نصرة أبناء دينه وعروبته تسيطر عليه كلية، لكن في تلك اللحظة يسأل نفسه أو تسأله زوجته ماذا يفيد أن تجلس وتأكل في لحمك ونفسك وأعصابك وأنت لا تملك أن تفعل لهم شيئا، إذا أردت أن تتظاهر في الشارع فالتظاهر ممنوع (التظاهر الوحيد المسموح به في مصر هو التظاهر بالسعادة!) والأمن المركزي سوف يضربك ويعدمك العافية وربما تترى في التخشيبية ويسخر منك الضابط ويقولك «فاكر نفسك وطنى ياروح أمك، وعايز تبقى بطل وتحمر فلسطين وتحارب مع نصر الله يا خرع» التظاهر في أوطاننا حتى لإعلاء الصوت وإعلان الرأي ممنوع وعواقبه لا يتحملها إلا الصيغ بتوع السياسة والإخوان المسلمين (هكذا تقول لك زوجتك أو أمك وأنا أعرف أنك ممن يسمعون كلام أمه وزوجته)، مالك أنت بيهم، تريد أن تتضامن وتتبرع للشعب اللبناني مثلا وماله لكن منين يا حسرة ثم إنت بتتبرع بشرط نانسى عجم اللي الواد ابنك بيشتريه، دروس أولادك الخصوصية ومصاريف المصيف كبراج على ظهرك يمنعك من التهور والتبرع بالمال، تريد أن تقاتل في سبيل الله طيب ومن يقاتل في سبيل عيالك؟، وتصور أنك سوف تتجاهل العيال فلمن تذهب؟

وإلى أين ومع من؟ لا أحد ولا شيء ولا مكان ولا حدود، وربما يعتبرونك إرهابيا وقد ينهال عليك الضابط ضربا وهو يسألك إنت من أى جماعة يا وله؟!!

أعرف أن هذا حال كثير أوقل معظم أو بالأمانة كل المواطنين فى بلدنا لكن هذا كله رغم أنه حقيقى ومنطقى ويشير التعاطف والتقدير لا يغير النتيجة، أننا جنباء وضعاف ولا ننتصر للحق..ولا نقف ضد الظلم، نعم أنا موافقك تماما، كل ما شرحته من أسباب للعجز حقيقية لكن وجود أسباب قوية لا تغير من النتيجة، والنتيجة أننا نختبئ تحت السرير بينما نحرك الريموت كترول على أخبار عاشوراء ونشاهد كربلاء فى النشرة!

إذا لم تكن هذه هى عاشوراء وإذا لم تكن هذه هى كربلاء فبالله عليكم ماذا تكون؟

ألا يجتمع عناصر الشر والشره والنفوذ والسلطنة والقوة والغطرسة والظلم والاستبداد بجحافل من الجيوش والترسانات والأسلحة لتقتل رجلا واحدا وبضعة عشرات من أنصاره وشيعته...ونحن نتفرج!

أليس حكام ورجال مبارك وعبدالله الثانى وعبدالله الأول وعبدالله من غير أول ولا ثان والقذافى وزين العابدين والبشير وغيرهم يقفون الآن فى جيش يزيد بن معاوية يطلبون دم الحسين مقتولا ومغدورا وشهيدا.. ونحن نتفرج؟!!

أليس نحن شعوب العالم العربى الذين نتفرج على ما يحدث لحزب الله من حصار وضرب وقتل وذبح وتوغل وتغول دون أن نفعل شيئا ودون أن نتحرك ودون أن نقاوم ودون أن ندعم ودون أن نخرج من تحت السرير؟!!

نحن نشهد ونتفرج كما لو كنا أهل الكوفة والعراق نتابع حصار جيش يزيد للحسين فى الصحراء يمنع عنه الماء والزاد ويجرق خيام النساء ويرمى السهام على الأطفال!

تماما كأن كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء!

حتى لو لم تكن ترى ضرورة للمقاومة، حتى لو كنت تعتقد أن حزب الله زودها وانشق عن حكومة لبنان، حتى لو كنت كارها لحزب الله ولا تطبق حسن

نصر الله، لكنه في النهاية يقاوم عدوا، والعدو يقتل مدنيين ويحطم الزرع والأرض، حسن نصر الله لم يقتل مسلما ولا مسيحيا ولا عربيا ولم يفجر سيارة مفخخة أمام قهوة سياح، ثم إنه يضحى بروحه من أجل استرداد أرض عربية وليس لمغرم ولا مكسب ولا رصيد في بنك ولا توكيل سيارات أو محمول أو احتكار حديد أو أسمنت، مهما كانت مشاعرك السلبية تجاه حزب الله أفلا يكون واجبا نصرة الضعيف والتصدي للمتكبر المتجر المقتري خصوصا لو كان محتلا لأرضك ووطنك، نحن نرى لبنان تتحطم وأطفالا تموت (٣٠% من ضحايا العدوان الثلاثي «إسرائيل-العرب-أمريكا» على لبنان من الأطفال)، والعدو يدهس بلدا عربيا وشهداء في جنوبها يقاومون العدوان الثلاثي يجاربون وحدهم مخلصين ومرفوعى الهامة طلبا للشهادة على أرض كربلائية ونحن نتفرج!

جيش يزيد بن معاوية بقيادة شمر بن الجوشن يملك سلاح الطيران خمسمائة من الرماة، رشقوا خيل اثنين وثلاثين فارسا من رجال الحسين بالنبال والسهام فلم تلبث أن عقرت جميعها وصار جميع أصحاب الحسين فرادى راجلين واقفين على أقدامهم فوق الأرض البطحاء التي رويت بدمائهم الزكية وعلى حين كانت الأحصنة تهدر بالتراب والغضب، تحمل الألوف ضد أفراد جيش الحسين محدودة العدد والعتاد، والمترجلة على التراب اشتعلت النيران في خيام الشهداء وأحرقوها عن آخرها، هجم أحدهم على فسطاط الحسين حتى طعنه برمح فكاد يهوى على نسائه وأبنائه وإخوته فصرخت النسوة، ومزق صراخهم نياط القلب حين نادى متوحشا:

أتونى بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله..

فصاح به الحسين:

«حرقك الله بالنار».

التفت رجال الحسين، رجال المقاومة، صحبة الحسين من حزب الله أمام جنود حزب الشيطان والطغيان والفساد والاستبداد، رجال المقاومة قلة يعدون على أصابع اليد الواحدة باتوا لا يستطيعون أن يمنعوا حسينا ولا أنفسهم،

فتنافسوا في أن يستشهدوا بين يديه.

اقترب من الحسين أحد أصحابه قائلاً:

أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟!

فقال الحسين:

رح إلى خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى.

فهتف به:

السلام عليك يا أبا عبد الله صلى الله عليه وعلى أهل بيتك وعرف بيننا

وبينك في جنته..

قال الحسين:

«اللهم آمين»

فقاتل حتى قُتل..

ثم قُتل على الأكبر بن الحسين (ألم يمت كذلك ابن سيد حزب الله!)، مضيئاً منطلقاً، رافعا سيفه على الظلم وفرسانه والدنيا وزينتها، بين لحظة وأخرى ينظر لأبيه فيشرب يقينه ويمتص رحيق جهاده، ويعدو على العدو يقتل ويصرع حتى اجتمع حوله حشد من سيوف جيش يزيد التي تزاومت فوق جسد الشاب ابن حفيد رسول الله، وأعملت فعلها الوحشي السافر في الفتى..

اقترب الحسين محتسبا الأجر عند ربه ولثم ولده (جدته هي أعظم نساء الأرض فاطمة بنت محمد التي قال عنها نبينا «من أحب فاطمة فقد أحبني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني» فمبالك بمن يقتل حفيد فاطمة؟!) بكى الحسين ابنه بدمعه الطاهر المطهر وهمس الحسين:

- قتل الله قوما قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة

الرسول، على الدنيا بعدك الفناء..

ثم التفت ..

احملوا أخاكم...

اندفع ساعتها غلام من آل الحسين، عليه إزار وقميص، مدعورا من صوت

السيوف ولون الدماء وعصف الجثث، يلتفت يمينا وشمالا باحثا عن حوض دفيء ينقذه من بشاعة ما يحدث، فإذا بجندى من جيش يزيد بن معاوية يقبل راكضا بفرسه، حتى إذا دنا منه..مال عليه..وقطعه بالسيف!

وبينما وقف صبي من أبناء الحسين في حجره محتمياً بأبيه حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حاول أن يغمض عينيه مبتعدا عن الدم المسكوب والجرح المفتوح، إذ رماه أحدهم بسهم - فذبحه في حجر الحسين..فتلقى الحسين دمه في كفيه ثم صب الدم على الأرض وبيده الملوثة بدماء ابنه رفعها لربه : «رب إن تك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين...».

مرت دقائق القتال عصبية ودنت الشهادة حتى أعناق الرجال وعطش الحسين واشتد به العطش، فاقترب ليشرب من الماء، فرماه واحد من جيش يزيد بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقى الدم من فمه ويرمى به إلى السماء:

«اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا

ولا تذر على الأرض منهم أحدا..».

ودخل الحسين معركته الأخيرة عطشان..

للماء..والشهادة.. ولقاء ربه..

وحيدا الآن..

وحيدا جدا..

الحسين أمام أربعة آلاف مقاتل إلا قليلا..

وحيدا في الصحراء والرمال والقتال والعدل والنقاء والبقاء وحيدا تماما..

النساء يقفن أمام الخيام، ينظرن باكيات مروعات مفزوعات لهذا المشهد

اللانهائي.

على بن الحسين طفله الصغير العليل المريض في حوض السيدة زينب ينظر

وهو معروق محموم هذا المشهد المفجع..

وحيدا جدا...

خيل سقطت وأخرى وقفت مجهدة مرهقة، مدلاة الأذن والرءوس، أجساد
ألقت..ودماء انتثرت وأعضاء بعثرت، وسيوف تكسرت ورماح تحطمت وثياب
تمزقت وخيام أحقرت..

وحيدا تماما..

والكل يعرفه..

وحيدا جدا..

نادى قائد الجيش فى الناس:

ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل... اقتلوه..

فحمل عليه من كل جانب.. وضربه سيفا فى كفه اليسرى ثم ضرب على

عائقه، وانقضوا عنه وهو ينوء ويكبو..

وحمل عليه أحدهم فطعنه بالرمح..

فوقع ..

جثا على ركبتيه وكتفيه.. وصدرة..

التفوا واستداروا وعبثت خيولهم بالرمال..

واندفعوا..

وانهالوا بالسيوف على جسده..

ثم هتفوا:

احتر رأسه..

فنزله أحدهم عن فرسه وذبحه واحتر رأسه..

ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة فى جسد الحسين ورأس مقطوعة

لشهاد ذبيح.

تقدموا فانتزعوا سيفه وثيابه..

وسرقوا سراويله (...)

وبقى وحيدا..

وحيدا تماما، عاريا على الأرض المنكوبة..

ثم تقدم القتلة بجيلهم فداست على عظامه ولحمه ومرت على جسده وضغطت على أطرافه وحطمت بدنه وأصابته بالكسور والرضوض والجروح.

حوافر الخيل فوق صدر الحسين الوحيد الشهيد ابن بنت رسول الله!
يومها كان الأمراء والولاة ورجال المال والأعمال من التجار متحالفين ومنضمين ومتضامين مع يزيد بن معاوية وهو يأمر بقتل الحسين حتى لا يسمع بعد ذلك كلمة عن المقاومة الشريفة للطغيان، عن مواجهة الاستبداد والفساد، كانوا مع الأمير والسلطان يزيد ضد الثائر المقاوم الحسين بن علي، كأن تحالف الملوك والرؤساء العرب مع إسرائيل هو نفسه لذات الأسباب، من أجل العروش والنفوذ والثروة والتجارة!

أما نحن الشعوب فقد خذلنا بضعفنا وخوائنا وتذلنا كل حس للمقاومة الحسينية في كربلاء أوفى لبنان، لأننا نريد الدنيا (حتى لومغموسة بالعار والنل والهوان التي تعودنا عليها من حكمانا ورؤسائنا ومن أعدائنا كذلك)، لأننا جنباء، لأننا لا نقدر على مواجهة ومجابهة الطاغية الذي يحكمنا ويشد اللقمة من جوفنا، لأننا نخشى عسكري الأمن المركزي ومخبر القسم فكيف نظن أننا سنواجه عسكري المحتل!

ليت ما يجري يشبه فقط كربلاء! بل إنه يماثل ويشابه بل ينطبق تماما على ما جرى مع الحملات الصليبية!

إن أصحاب الجلالة والفضامة الملوك والرؤساء العرب مع إسرائيل وأمريكا لضرب حزب الله والمقاومة في فلسطين هم أحفاد بعض الذين هادنوا وتحالفوا مع الصليبيين في غزو وضرب واحتلال الدول والمدن المسلمة أثناء الحملات الصليبية مقابل ألا يدمر الصليبيون مزارع الفواكه وأشجار العنب التي يملكونها.. آه والله العظيم حصل!!

كان الوطن العربي والإسلامي ممزقا كالعادة، إمبراطوريات مفككة الأوصال (والمفاصل)، دول مشردة ومشردمة، حلب، حمص، الموصل، بيروت، عكا، حيفا، القاهرة، دمشق، كله على كله، يجاربون بعضهم ويقتتلون فيما بينهم، دخل

الصليبيون بعد حصار طويل إنطاكية ثم بدأت الدول تسقط وتتساقط تحت سنابك وبنادق وقنابل الصليبيين وبدأ كل أمير عربي يطلب الأمان، أمير يصلحهم على أساس تقديم بعض المرشدين والإمدادات في مقابل عدم التعرض لأراضيه (التعاون المخبراتي والأمني) وآخر يصلحهم على مال يدفعه لهم وثالث (خد بالك من تلك والنبي) يصلحهم على أن يكون لهم ظاهرا «خارج» المدينة وأن يكون له داخلها (المهم أن يتركوا له داخلها!) وعندما مر الصليبيون بمدينة (دويلة) أصاب أهلها الرعب من هدم الحدائق والبساتين فسمحوا لهم بالمرور وتسليمهم معونات وهبات مقابل عدم المساس بالشجر أو هدم تكعيبات ومزارع العنب! أما أحد الحكام فوعدهم بتسليم مملكته لو تمكنوا من احتلال القدس!!

إن أحيب حاجة هي الاعتقاد أن هزيمة حزب الله الهدف الوحيد للعدوان الثلاثي (إسرائيل-العرب-أمريكا) على لبنان، الهدف أعمق وأبعد من ذلك! الهدف هو ضرب روح الكبرياء والكرامة داخل الوجدان العربي، وتحطيم رغبة الانتصار لدى المواطن العربي!

والأطراف الثلاثة تكسب تماما ونهائيا في هذه المعركة:

إسرائيل تكسب سيطرة وهيمنة وقوة عليا في المنطقة وإعلانها الملك المتوج والباب العالى للشرق الأوسط، تمسك بمقاليد العالم العربي الذى يخضع لها بضعفه العسكرى وخنوعه الوجدانى وتحلفه التكنولوجى وتراجع الحضارى واستبداده السياسى، أمة من القاهرة حتى الرياض ومن دمشق حتى مراكش لا تملك حق النطق أمام القوة والهيمنة الإسرائيلية!

السادة أصحاب الجلالة والفضامة الملوك والرؤساء العرب سيكسبون تحطيم روح المقاومة والكبرياء فهذا كفيل بشعب من النعاج وقطيع من الأغنام يسلم لحكامه بأبدية على العرش ووراثة للأوطان وتحويل الشعوب إلى خصيان فى قصورهم لا رغبة ولا قدرة، ثم توقف أمريكى عن المطالبة والضغط بالإصلاح السياسى وتعميق حالة التحالف الاستراتيجى بينهم وبين الأمريكان فتحصل النظم الحاكمة فى القاهرة والرياض وعمان وطرابلس وتونس وشتى العواصم العربية على

الرضا الأمريكي بدون إزعاج ولا مباحكة حول الإصلاح والديمقراطية، فضلا عن أن ملك الغابة الإسرائيلي سيحتاج معاونين في المنطقة من ثعالب وذئاب وكلاب ويمكن لإسرائيل أن تقتطع لكل نظام دوره ومحمته (هذا ينبح وذلك يعرض)!

أما أمريكا فنكسب ما كسبته إسرائيل والحكام العرب وما خسره العرب! قلت وسأقول إن التحالف العربي الرسمي مع شروط وتعليقات وأوامر إسرائيل في إنهاء حزب الله ليس مقابل تسوية بعيدة بليدة لقضية فلسطين والحصول بعد كام سنة على قطعة أرض ممزقة الأوصال ونسبها فلسطين بل لأن المهم لدى الحكام العرب هو أن تهدأ الأوضاع وينطفئ الحريق وربنا يعمل اللي فيه الخير، فقط يظل عرش الحكام ثابتا، أولا من ناحية الشعوب، فتهدأ وتعلم واللى فآكر نفسه راجل بكره نلبسه طرحة! ومن ناحية أمريكا، فتتخف وترضى علينا كونداليزا ومفيش داعى للنقرزة كل شوية فساد، دكتاتورية، تزوير انتخابات، تداول سلطة، حقوق إنسان وقلة القيمة مع الأخ جورج بوش!

خلاص خدوا راحة بال إسرائيل وهيمتها وسيطرتها وتغور حماس وحزب الله واتركونا أحرارا مع شعوبنا ياكش نولع فيهم بجاز، مالكوش دعوة!!

حُكم الديناصورات

عندما تسمع أكثر من مسئول حكومى يرغب ويثرثر بكلام يتخيل بسداجة سياسية مفرطة أنه كلام قوى وثورى حين يقول إن مصر لو تعرضت لعدوان على حدودها أو لتهديد على أراضيها فإنها لن تقف ساكنة بل سترد وتحارب دفاعا عن نفسها، والسؤال هنا هو: وما البطولة في ذلك (يا ناصح يا فالح) وما الشجاعة أو الجسارة في مواجهة عدوان على حدودك وأرضك؟! وهل أنت منتظر أقل من ذلك؟! وماذا تفعل أى حكومة محترمة (بعيد عن السامعين!) حين يهاجم أرضها وحدودها عدو إلا أن تدافع عن نفسها؟ ما الذى يدعو للإعجاب بمثل هذا المسئول الذى يقدم نيته للدفاع عن أرضه لو تعرضت لهجوم عسكري كأنها فضل وقوة وبطولة، يا نهار أسود ما أحسن يكون فإكرها شجاعة وشيئا لم يأت به الأوائل من الشعوب والجيوش؟ وهل هو متصور أننا ننتظر من حكومتنا عندما نتعرض لهجوم وعدوان أن تنعق بما تصر أن تنعق به دوما، رعبا وفرقا وفرعا من أن سلامنا خيار استراتيجي؟

لكن ببغاوات وغربان السياسة والصحافة لا يزالون يرددون هذا الكلام الغث والفاخر وهم متحمسون له جدا فى تعصب وكأنهم أتوا بالتأية، لكن تعالوا أولا نعد إلى موقف مصر الذى بدأ من اليوم الأول للعدوان على لبنان موقفا متواطئا مع العدو ولعل ما كتبتة مجلة نيوزويك (عدد ٢٠٠٦-٨-١ بقلم ريتشارد وولف) يوضح حقيقة الموقف المصرى دون لبس أو التباس، تقول نيوزويك (تركيزه حتى الآن (يقصد بوش) يتمحور حول كسب دعم الأصدقاء من الزعماء العرب، بوجود هاتفه المؤمن أمامه يتدرب بوش على ما يحتاج قوله للملك الأردن عبدالله والرئيس المصرى حسنى مبارك ورئيس وزراء لبنان فؤاد السنيورة،

يقول بوش للزعماء إنه يحاول تهدئة الوضع بتحذير إسرائيل من إسقاط الحكومة اللبنانية حديثة العهد ويطرح عليهم المخاطر كما يرى أن إيران تحاول السيطرة على المنطقة وإسرائيل قد تسقط حكومة بيروت، وسوريا قد تسيطر ثانية على لبنان ومع ذلك فهدفه الرئيسى هو الحصول على موافقة منهم بأن حزب الله هو الشرير ويقول لهم: المجرم الحقيقى فى هذه الحالة الجناحان العسكريان لحماس وحزب الله، تسير المكالمات على نحو جيد ويتفق الزعماء العرب مع الرئيس ويرفع هادلى "مستشار الأمن القومى " إيهاميه باتجاه الرئيس للدلالة على النجاح وتبتسم رابيس ابتسامة عريضة وهما يصغيان عبر هاتفيهما الخاصين) ليس غريبا إذن أن يتهم البعض حكومة وحكم مصر بالتواطؤ مع الأمريكان والإسرائيليين سياسيا لضرب حزب الله وتدمير لبنان (من أجل الخلاص من حزب الله كما تدمير غزة والضفة للخلاص من حماس) ومع هذا الاتفاق منذ اليوم الأول مع بوش فى التليفون يبدو كل تصريح أطلقه مبارك وكل كلمة قالها الوزير الحقل أحمد أبو الغيط بديها جدا ووفق تحالف (أو سمه ما شئت) مع الأمريكان فضلا عن أننا ربما سنعرف المزيد عندما يكشف أولمرت أو حكومته أو صحافته عما دار كذلك فى مكالماته مع الزعامات العربية لندرك أبعادا نحسها ونلمسها لكن إسرائيل كفيلا بتقديم أدلة دامغة أوضح وأكثر من مجرد تصريح زعاماتهم أن حكاما عربا طلبوا منهم التخلص من حزب الله، وحين يعلن أى مصرى رفضه التام والمطلق لمنهج الحكم المصرى فى التعامل مع العدوان الإسرائيلى على لبنان، يسارع أهل الحكم وتابعوهم بالهجوم على منتقديهم ومعارضيهم ووصفهم بأنهم لا يعرفون ولا يجيدون سوى حرب الميكرفونات فى الفضائيات، وهو تعبير يقولونه وهم فرحون به جدا كأنهم لقوا كزنا وعثروا على منجم ذهب، والغريب أنه تعبير يفضحهم أكثر مما يفضح غيرهم فإذا كان معارضوهم يخوضون حرب ميكرفونات فإذا يفعل السياسى المصرى سوى أن يحارب حرب المكاتب المكيفة! أو أى سياسى أو كاتب من كتابة الحكومة الرسميين يكتب حرفا أو يصرح بأمر أو يلتقى بشخص إلا وهو فى غرفة مكيفة وتحت يده ريموت كترول لينتقل بين المحطات التليفزيونية! فأين هى

الحرب التي يخوضونها وفي أى شيء تختلف عن حرب الميكروفونات؟! فضلا عن أن مسئولينا كذلك يخوضون حربا أخرى هي حرب التليفونات في مواجهة حرب الميكروفونات فكل ما يفعله نظام الحكم هو مكالمات تليفونية إشبى لوزيرة خارجية أمريكا ونائب كونجرس أو زعيم كتلة برلمانية في سنغافورة أو سكرتير مسئول في الأمم المتحدة أو زعيم دولة شقيقة نحكى له في التليفون عن الكام تليفون اللى أجريناها!! وهكذا تفرق في إيه حرب الميكروفونات عن حرب التليفونات؟! حتى إن مبارك يحدثنا طول الوقت طيلة الحكم عن دوره (التليفونى) فى الوساطة بين الفلسطينيين وإسرائيل لكن ما النتيجة؟ الرئيس مبارك لا يستطيع حتى أن يضغط على إسرائيل لفتح معبر رفح ولم يستطع يوما أن ينتزع من رابين أو نتياهو أو شارون أو أولمرت شيئا (لا أقول نصرا) لصالح فلسطين والأوضاع تتحدر وتتهار والسؤال مرة أخرى لماذا؟ لأن إسرائيل لا تخشى مصر ولا تخافها بل تتعامل معها باعتبارها الدولة الوسيطة وليست الدولة الضاغطة من هنا حين يصرح مبارك -باللهول- أنه قد سحب السفير المصرى من تل أبيب مرتين منذ سنوات ولم يحدث شيء فهذا يجيب عن السؤال الأهم ماذا حدث لمصر؟ لماذا لم تعد كبيرة مؤثرة؟ لأنها أصبحت قليلة الحيلة عاجزة عن فعل أى شيء أو أى جديد! هى خامدة خاملة استسهلت دور ساعى البريد وتمشى وراء أمريكا أينما ذهبت بها بل تتبنى عداء سافرا تجاه إيران لأن إيران تسعى أن تكون كبيرة فى الوقت الذى تصغر فيه مصر مبارك وتلوم الآخرين على أنهم يكبرون.

قلت من قبل إن مصر تحولت من دولة كبيرة فى الشرق الأوسط إلى سنترال، وتختلف فى إيه حرب التليفزيونات عن حرب التكييفات؟ ثم إن الحكم يشن فى تليفزيونه هجوما دعائيا تمجيدا للرئيس وحكومته وسياستهم الحكيمة فى أزمة لبنان، بل يخرجون فى التليفزيون نفسه وأمام الميكروفون ذاته ليهاجموا حرب الميكروفونات والفضائيات (دعنا نذكر أن إسرائيل لم تستطع على مدى شهر كامل من الحرب ضرب أو تدمير أو تخريب أو تعطيل بث محطة المنار التابعة لحزب

الله)، والحقيقة أنه يثير الرثاء على مصر التي باتت تدافع عن نفسها بالتليفزيونات الفاشلة في مواجهة التليفزيونات الناجحة!

لكن الاحتقار البادى فى كلام مسؤلى حكومتنا عن الميكرفونات والفضائيات يكشف فىما يكشف عن جهل بقواعد الصراع العالمى وأدوات العصر فى إدارة معارك الأمم (الكلمات السابقة تحتاج مدرسا خصوصا لشرحها لمسئولينا!!) فالإعلام الآن هو أحد أهم أسلحة الحرب السياسية والعسكرية ويلعب دورا مذهلا فى صناعة القرار السياسى بل العسكرى وليس أدل على ذلك من الحرص الإسرائيلى والأمريكى المذهل على تقديم إسرائيل فى موضع الضحية وعمليات الغسيل اليومية لقلب وفكر الشعوب الأمريكية والأوربية ومنع الصوت والصورة اللبنانية والفلسطينية عن الظهور فى وسائل الإعلام ومحاصرة أى صحيفة أو محطة تليفزيونية تبدى موضوعية أمام ما يجرى فى لبنان وفلسطين بل منع نقل صور شهداء مجازر ومذابح إسرائيل، والأوامر والتعليقات لحكامنا العرب بالكف الفورى عن موجات العداء لإسرائيل فى الفضائيات، أليس هذا دليلا على أهمية الإعلام وخطورته وضرورته؟ وأنه يمكن بل هو ممكن وحادث وحالى وجرى أن يكون الإعلام حربا وسلاحا عقليا وعسكريا فى الوقت ذاته، ويمكن بل هو ممكن وحادث وحالى وجرى حاليا بنجاح ساحق أن تحولت الميكرفونات إلى دبابات وطائرات وقنابل وليست موضعا لتهمك وسخرية فارغة من سياسيين قاصرين عن فهم تطورات العصر ومقتضيات الزمن صاروا مثل ديناصورات متحف الأحياء المائتة أثرا على ما كان وليس تأثيرا على ما يكون!

لكن هذا التهوين والتحقير الذى يبديه الإخوة المسئولون تجاه الإعلام والدعوة والفكر والمظاهرات وصيحات البطولة وصراخ الوطنية يبدو تعبيرا عن احتقارهم للرأى العام والجماهير ورأى المواطنين، لاشيء مهم لديهم سوى مدح وتمجيد وتقديس وتعظيم كل قرار وموقف للسيد الرئيس، حيث يلغون عقولنا وأفكارنا ومطالبنا ولا يعترفون إلا برأى الرئيس وموقف الرئيس وتوجيهات الرئيس وقرار الرئيس وطائرة الرئيس والرئيس نفسه ومؤخرا ابن الرئيس، وكأن مواقف مصر

وقراراتها كلها في يد الرئيس يفعل فينا وما يشاء وقتما شاء، كأن مصر وشعب مصر مصروفان للرئيس على سبيل الأمانة حتى يستلمها بعد عمر طويل رئيس آخر يوقع على التركة ويستلم العفش مع الشعب! كأننا لسنا بلداً يبنى قراراته بحرية وباختلاف واتفاق بناء على رأى عام وتوجه أمة ومطالب شعب وشروط وطن ومشاركة تيارات ونواب المواطنين لكن الذين ينافقون الطغاة لا يعترفون سوى بالرئيس وكل من يعارضه إما محوساً أو مأجوراً أو أهبل (هو بالتأكيد أهبل فمن الذى يعارض رئيساً فى بلد يقدر رئيسه على أن يرمينا فى السجن كما يرمى عشرات الآلاف من الشباب سنين طويلة بلا محاكمة ولا حتى اتهام).

هؤلاء يضعون مستقبل وحاضر الأمة فى يد الحاكم وليس فى يد الوطن!! رأبهم أن القرار لصاحب القرار والشعب "قفاه يقمر عيش" أو يروح بعيد يلعب فى الطينة!! فمن الطبيعى إذن أن يكون الرأى العام المصرى والعربى ووجهات نظر الخبراء ونظريات المفكرين ومظاهرات الجماهير والنخبة لا تساوى لديهم شيئاً ولا يعيرونها انتباهاً ويتعاملون مع المعارضين والمعارضة (أتحدث عن المعارضة الحقيقية سواء حركة كفاية أو الإخوان المسلمين أو الاشتراكيين الثوريين وليست المعارضة التى يتم شحنها فى طائرة جمال مبارك حين تقرر حكومة مصر التى قتلت القتل بالتواطؤ والتجاهل والتحايل والتهاون مع إسرائيل والتبعية لأمريكا أن تمشى فى جنازته) يتعاملون مع المعارضة الحقيقية وليست المعارضة الراكبة على أنها قلة مندسة وشوية عيال (ومع ذلك يعملون عقلهم بعقل العيال ويعتقلونهم ويغتصبونهم بلا رحمة وبلا ضمير والمؤسف بلا محاسبة وبلا معاقبة من المجتمع!!) أو أنهم شوية إخوان إرهابيين (فيعتقلونهم ويطاردونهم ويهاجمونهم فى كل محفل) ويتعاملون مع الرأى العام على أنه حرب ميكرفونات وأقلام مأجورة مع أنه إذا كانت هناك أقلام مأجورة فمن باب أولى أن تكون الأقلام الرسمية والحكومية التى صار أصحابها السابقون واللاحقون مليونيرات ويملكون القصور والفيلات والشاليهات وأسهم الشركات والبورصات وأولادهم (ما أقولكش على أولادهم وأموالهم ويزنسهم!!) هذه هى الأقلام النهمة الشرهة التى يسيل لعابها على طعام السادة

وموائد الملوك والسلاطين فتأمل من صرر الدرر وأموال الغلابة!
ولا يكف حشد من المسؤولين وتابعيهم وعرضحالية جرائدهم عن استغرابهم
من أن هناك قوى ومجموعات سياسية وناساً مندسة منحرفة وشبه منحرفة
تشكك في الحكم وكفاءته والنظام وقراره ومواقفه من العدوان على لبنان
وفلسطين، ويكاد لا يصدق هؤلاء الساسة والكتبة أن هناك أشخاصاً محرطقين
مثلنا تنتقد وتهاجم وتعارض أصحاب القرار (أو الفرار) يوم المعركة بينما المطلوب -
كما يقول هؤلاء- أن نقف جميعاً خلف قيادتنا الحكيمة مثلما يحدث بالضبط في
إسرائيل هذه الأيام حيث يتكاتف الشعب كله خلف أولمرت وحكومته!! والحقيقة
أن ما يقولونه عن إسرائيل وشعبها ربما صحيح إلى حد كبير، لكن ليه الشعب
واقف وراء الحكومة؟ لأنها حكومته وليست حكومة الحاكم والزعيم!! وهي مسألة
تفرق جداً، إزاي؟ أقول لكم هو أنا ورايا حاجة غيركم!

أولاً: لأنها حكومة منتخبة وحكام منتخبون في حرية كاملة وبلا تزوير وبلا
تدخل أمنى وبلا تزيف لإرادة الناس! ومن ثم فهي حكومة منتخبة شرعاً
وشرعية وديمقراطية ونزيهة تماماً بدون طعون انتخابية ولا محاكم دستورية ولا
قراره ولا سيد ولا سيدة! كما أنها ثانياً: حكومة تمثل كل تيارات وطنها السياسية
والفكرية من اليمين الرجعي إلى المتدين المتطرف والإرهابي إلى اليساري والعلماني
والاشتراكي، أى أنه برلمان غير مزور ويمثل كل تيارات البلد كذلك حكومة تضم
كل التيارات والجماعات والقوى والأحزاب ومن ثم نقف كل إسرائيل وراء
حكومتها، أما نحن فنصبح مجرمين في حق وطننا لو وقفنا مع حكومتنا، فالحكومة
جاءت دون إرادة المواطن ودون أن يشارك في اختيارها ولا انتخابها ولا بقاءها ولا
رحيلها!!

كما أن الحكومة لا تمثل كل التيارات ولا حتى أى تيار.. وكل القوى السياسية
مقموعة ومقهورة وغير ممثلة وليست صاحبة قرار ولا تشارك في صناعة موقف
وآخر من يعلم بأى حاجة في البلد دى (طبعاً عندما يحتاجون المعارضة الأليفة
يأخذونها معهم في الطائرة فالمعارضة الماشية في المظاهرات حاجة والمعارضة الراكبة

في الطائرات حاجة ثانية)، التيارات المعارضة الشعبية والحقيقية محاصرة ومطاردة ومسجونة، الحكم في مصر لا يريد ولا يوافق ولا يسمح إلا بأن نسبح بحمد حاكمنا وهان على البعض أن يطلب منا أن نقبل بلاط العرش، وكان يريدوننا أن نسكت عن تقديم بحجة الظروف العصيبة التي نمر بها ويرفعون شعار كلنا إيد واحدة يا مرسى (هل تذكر مسرحية مدرسة المشاغبين؟) إنهم تحت المقاعد يحتبئون من أولمرت ويريدون أن نتحدث عن شجاعتهم وحكمتهم ورؤيتهم وخيارهم!! بينما في إسرائيل فإن أولمرت الذي يحارب ويشخط في الحكام العرب تقف ضده جماعات وتيارات وتعارضه في عز حرهم القدرة وتطالب بالتحقيق مع قيادات في الجيش وربما محاكمتهم!

لن نلتف حول هذه الحكومات أيضا. لن نقف معها، فهي حكومات مزورة وغير شرعية وفاشلة..وزاد وغطى أنها جبانة أيضا..تبحث عن شجعان في هذه الأنظمة العربية يواجهمون إسرائيل فلا تجد أحدا، تلتفت وتنادى وتصرخ فلا يجيبك أحد منهم، ساعتها لا تملك إلا اليأس منهم ولا تملك إلا الشفقة عليهم فتنادى: خلاص يا جماعة أنا غلطان وآسف جدا، ولا يهمكم خلاص اخرجوا من الدولاب، اطلعوا من تحت السرير!

العـار

كى تعرف موقف مصر من إسرائيل (أو بالأدق مع إسرائيل) فقط نذكر (لنتذكر) أن أشهر صديق للرئيس مبارك هو رجل أعمال مهنته (أو مهمنته) هى التجارة فى البترول والغاز والسياحة وأنه صاحب أكبر الشركات المصدرة للبترول والغاز المصرى لإسرائيل.

ثم نضيف أن أشهر أصدقاء جمال مبارك نجل الرئيس، هو رجل أعمال يتاجر فى الحديد والأسمنت، وأن تجارته يتم تصديرها لإسرائيل لتذهب فى بناء عماراتها وبيوتها وجدارها العازل!

لكن دعنا من الأصدقاء رغم أهمية الحديث عن دور الأصدقاء فى حياة رجال السياسة والحكم ولنتأمل دور مصر فى الحرب الإسرائيلية على لبنان وحزب الله، التى يحاول النظام أن يضع مساحيق لتجميل دوره القبيح فيها ويهددنا طول الوقت فيصف أى مناقشة لهذا الدور المتواطئ بأنها مزايمة، أحيانا يضيف مزايمة رخيصة وأحيانا يكتفى بكلمة مزايمة فقط، لكننا نقول بوضوح أخلاقي كامل وبلا تردد إن مصر لم تكن فقط منحازة لإسرائيل فى هذه الحرب وهاجمت وطعنـت حزب الله المقاوم فى ظهره بل هى شاركت فى هذه الحرب بشكل غير مباشر كما شاركت فى كل ضربة إسرائيلية على العرب سواء فلسطينيين أو لبنانيين، نعم هكذا ومنتهى الصراحة واللى مش عاجبه هو حر!

أى حرب عسكرية لا يمكن أن تتم بغير وقود، غاز وبنزين و بترول، لن تتحرك الدبابات ولن تطير الطائرات ولن تنطلق الصواريخ بدون التزود بالوقود، طيب، من أين تأتى إسرائيل بالبترول الذى يزود طائراتها وأسلحتها ودباباتها (وباقى مظاهر الحياة المدنية فى إسرائيل)؟

لا يوجد بترول في أرض فلسطين المحتلة ومن ثم تستورد إسرائيل كل احتياجاتها من الوقود والتي تصل إلى ١٠.٥ مليون طن سنويا، وتدفع في مقابله أربعة مليارات دولار سنويا، إذن أى دولة التى تصدر لإسرائيل البترول؟ أقول لسعادتك!

مصر حاليا - يا أستاذ- تحتل المركز الثانى فى تصدير البترول لإسرائيل، نعم نحن ثانى دولة بعد الكومنولث السوفيتى فى تصدير البترول لإسرائيل طبقا لإحصائيات المعهد الاقتصادى لجامعة تل أبيب التى أعتمد عليها فى سرد هذه الأرقام (الحقائق)، بل كانت مصر وحتى عام ١٩٩٩ تصدر ثلث احتياجات إسرائيل من البترول ووصلت كمية البترول التى تصدرها مصر لتل أبيب رقما قياسيا فى تاريخ الدولتين عام ١٩٩٧ حيث تنقذ مصر إسرائيل دائما فى أزمة احتياجاتها العاجلة للبترول!

وستسمع هنا إفكا وتضليلا من رجال الحكم وأذنا به الذين سيردون بأمرين: الأول أن هذا طبقا للاتفاقية والمعاهدة المصرية الإسرائيلية ومن ثم فهذا التزام سياسى قانونى، والإجابة عن ذلك الزعم أن الاتفاقية لم تتضمن بندا سافرا ملزما وأبدياً مثل هذا، ثم أن الاتفاقية انتهت مدتها أساسا ولم يتم تجديدها! الزعم الثانى الذى ستسمعه أن كمية البترول التى تصدرها لإسرائيل ليست مهمة لهذه الدرجة ويمكن لإسرائيل أن تستوردها من غيرنا، والإجابة هنا وحتى لو كانت كمية كبيرة فكيف نصدر سلاحا قاتلا لإسرائيل تستخدمه ضد العرب والعروبة وضد الإنسانية ثم لو كانت صغيرة لماذا تصدرونها أساسا، أما أن إسرائيل سوف تستورد هذه الكمية من غيرنا، ما تغور فى ستين داهية وتستورد من غيرنا!

كيف لعربي مسلم أن يقدم لإسرائيل وقودا يشارك فى سلاحها الغادر والقاتل، كيف لإنسان محترم أن يعاون القاتل على القتل، والمغتصب على الاغتصاب؟!، ليس الأمر أن مصر تتفرج على ما تفعله إسرائيل من عدوان وقتل وتقتيل وتدمير فى فلسطين ولبنان بل إنها تشارك فى هذه الحرب وذلك العدوان بنصيب مخز

ومذل ومقرف، لا نفهم معنى أن تمنع السلاح وتهريبه عن الفلسطينيين في حاسا وكثائب الأقصى بينما تعطى لإسرائيل البترول والغاز اللذين يمكنان دباباتها وطائراتها من ضرب وقتل كل فلسطيني ولبناني، أين الخجل وأين الضمير ثم أين الشعب؟

هل نظل نتفرج على النظام المصرى وهو يمد إسرائيل بوقود قتل العرب فلسطينيين ولبنانيين ولا نعرف من غدا وأين بعد غد؟

ليس هذا فقط بل لقد جاءت اتفاقية تصدير الغاز المصرى لإسرائيل عارا واضحا وتحالفا مثيرا للتقزز فى دعم إسرائيل فى حروبها ضد العرب، إنها تتبع لإسرائيل نهب موارد مصر من الغاز بأسعار متدنية بما يدعم اقتصاد إسرائيل ويقوى شوكته ويزيد من قدرته على تمويل تطوير القوة العسكرية الإسرائيلية التى تهدد مصر وكل البلدان العربية كما يؤكد ويقول الخبير الاقتصادى الكبير أحمد النجار فى كتابه الانهيار الاقتصادى فى عصر مبارك ويضيف (وإذا كانت هذه الاتفاقية المشينة قد تلاها تخفيف الضغوط الابتزازية الأمريكية على نظام مبارك بشأن الإصلاح السياسى، فإن ذلك يوضح الثمن الحقيقى الذى تلقاه النظام مقابل التفريط فى المصالح الوطنية المصرية بالتطبيع الاقتصادى الساخن مع إسرائيل ومنحها جزءا من موارد مصر من الغاز بأسعار متدنية ولأجل طويل يقيد مصر بالتزامات لا يوجد أى مبرر وطنى لها. لكن هذا السلوك من قبل نظام مبارك يعكس ضعف إدراكه لحقيقة أن المطالبة بالديمقراطية وحقوق الإنسان هى قضية مصرية تماما كإف الشعب المصرى ونخبته الثقافية وقواه الحية وجمعياته الأهلية وبعض أحزابه الوطنية من أجلها منذ عقود، ووصل الأمر إلى حد أن أصبحت هذه القضية حياة أو موتاً بالنسبة لمستقبل مصر).

ولكن ماذا تحمل هذه الاتفاقية وكيف تدعم القوى العسكرية لإسرائيل؟ هنا يجيب الخبير أحمد النجار (كعادتها فى التعقيم على كل شيء وفى حرمان الشعب من حقه فى العلم بما تفعله حكومته فى تصريف الشؤون الداخلية والخارجية لم تعلن الحكومة المصرية تفاصيل اتفاق الغاز، ولم تقدم وزارة البترول سوى ما أعلنه

المتحدث باسم مجلس الوزراء عن هذا الاتفاق، بينما لم تتمكن من الحصول على أى وثائق رسمية تفصيلية بشأنه. وعلى أى الأحوال فإن الحكومة أعلنت أنه سيتم تصدير نحو ١٦٠ مليون قدم مكعب من الغاز يوميا إلى إسرائيل أى ما يوازى نحو ١.٧ مليار متر مكعب من الغاز فى العام لمدة ١٥ عاما قابلة للمد إلى ٢٠ عاما. كما تم الإعلان عن أن هذا التصدير سيتم من خلال خط أنابيب يمتد من الشيخ زويد حتى عسقلان.

ووفقا لهذا الإطار العام الذى تم إعلانه فإنه سيتم تصدير نحو ٢٥.٥ مليار متر مكعب من الغاز لإسرائيل على مدار ١٥ عاما بقيمة ٢.٧ مليار دولار بواقع ١٠.٦ سنت أمريكى لكل متر مكعب كأسعار ثابتة على مدار الـ ١٥ عاما وهذا السعر يعنى أن السعر سوف يكون نحو ٢.٨ دولار. وهذا السعر هو بمثابة كارثة وسطو صريح على موارد مصر، لأن السعر الآنى سوق لندن هو ٦.٢ دولار، بينما تبلغ الأسعار الآجلة للشحنات التى ستسلم مستقبلاً نحو ١٣ دولاراً فكيف يمكن تثبيت السعر لمدة ١٥ عاما عند مستوى ٢.٨ دولار؟!).

خدت بالك مما يقوله الخبير النجار، معنى ذلك أن مصر تدعم إسرائيل بالغاز، أى والله العظيم، كأنها منحة أو إتاوة، السعر العالمى الآن أكثر من ستة دولارات ونحن نبيعه لإسرائيل بحوالى ثلاثة دولارات وبينما سيصل سعره لثلاثة عشر دولارا سنظل نبيعه لهم بثلاثة دولارات!!، ما هذا التواطؤ والتحالف وإهدار ثروة مصر وطاقة وطن؟! نبيع لعدو يقتل العرب ويغتصب أرضهم غازا ووقودا كي يساعد جيوشه وأسلحته على مزيد من القتل وبأسعار مخفضة ومدعمة فى الوقت الذى نرفع فيه سعر البنزين على المواطن المصرى لأن حكومة جمال مبارك ورجالته لم تعد تتحمل دفع الدعم للمواطن المصرى بينما يدعم جمال مبارك ورجالته المواطن الإسرائيلى!

هل هناك جريمة أكثر من تلك الجرائم حتى يسقط نظام فى سلة محملات التاريخ؟

أعود إلى دراسة الخبير الكبير أحمد النجار وهو يصف اتفاقية رجال مبارك

ونجده مع إسرائيل لتصدير الغاز على أنها (نموذج لإهدار موارد الشعب المصرى وإمداد دولة معادية بها بأبخس الأثمان على حساب مستقبل مصر وقوت أبنائها، فهل هناك سلوك لحاكم ائتمنه الشعب على موارده، أسوأ من هذا السلوك وهذه الاتفاقية المشينة واللصوصية التى عقدها نظام مبارك دون عرضها على نواب الشعب؟! ومثلما تهرب نظام مبارك من عرض اتفاقية الكويز على مجلس الشعب فإنه تهرب هذه المرة أيضا مستخدما نفس الادعاء بأنها ملحق لاتفاقية التسوية السياسية المعقودة عام ١٩٧٩ بين إسرائيل وبين نظام حكم الرئيس السادات الذى قتل عام ١٩٨١، وهو ادعاء فاسد تم اختلاقه لتبرير العدوان الغاشم من السلطة التنفيذية على حقوق الشعب ونوابه. وقد بررت الحكومة هذا الاتفاق بأنه يستهدف تنويع أسواق تصدير الغاز، لكن هذا التبرير الواهى والسمج يفتقد لأى مصداقية لأن أسواق العالم طولا وعرضا مفتوحة أمام صادرات مصر من الغاز كمصدر للطاقة النظيفة وغير الملوثة للبيئة، ولن يتوقف الأمر على السوق الإسرائيلية الصغيرة).

لكن فعلا يبقى السؤال، لماذا يصر حكم ونظام مبارك (أو مبارك نفسه) على هذه العلاقة الاقتصادية الداعمة والمدعمة لإسرائيل؟

حتى الحياد الذى يزعمه نظام مبارك طيلة حكمه ليس حقيقيا فهو ليس محايدا رغم أن الحياد كما قلنا بين الحق والباطل وبين القاتل والقتيل جريمة سياسية وأخلاقية، ولكن هذا النظام لم يكنف بجريمة الحياد بل انحاز سافرا وتواطؤ وتحالف مذهل مع إسرائيل حيث يقدم لها دعما مدعوما من البترول والغاز، ولم يراع هذا النظام ضميرا ولم يقلقه مقتل الفلسطينيين ومذابح اللبنانيين فقرر أن يحس على دمه و يرد الجميل للعالم العربى الذى وقف بجانب مصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ حين استخدم سلاح منع البترول عن أمريكا وأوروبا لدعم مصر وسوريا فى حربها الأمر الذى كان أحد أسباب الانتصار المصرى فى أكتوبر، لماذا لا يتحرك نظام مبارك ويقرر أمام العدوان الصهيونى على لبنان وفلسطين ويحرم إسرائيل من تصديره البترول لها ويمنع عنها الغاز؟

الواحد يتعجب ويتحسر عندما يرى مبارك أو الوزير الحقل أحمد أبو الغيط أو النجل جمال مبارك وهم يتحدثون عن الدور المصرى، وأظنهم يتحدثون عن دور فى فيلم سينمائى وليس دورا سياسيا فى واقع عربى وعالمى، إنهم دون أن ترمش عيونهم يتحدثون عن دعم مصر للبنان ودورها الفطيع الفزع فى دعم القضية الفلسطينية بينما هم الذين يدعمون إسرائيل ليس بالتواطؤ السياسى فقط ولا بتعظيم وتفضيح قوة إسرائيل والترويج لقدراتها العسكرية من أجل إنزال الرعب والفزع فى قلوب المصريين والعرب وتبرير الحياة المصرية فى مواجهة ما يحدث، بل هم يدعمون إسرائيل فى حربها بالبتروى والغاز!

قلتم لن نحارب ولن نقاطع ولن نطرد أو نسحب سفيرا، وضربتم مواطنى مصر المتظاهرين الغاضبين وأعلنتم فى مذلة أن سلامكم سلام إستراتيجى وأنكم ستتهزمون لو حاربتهم وأن سيناء يمكن أن تضيع مرة أخرى لو هاجمتنا إسرائيل، وكل هذا جبن صار طبيعيا ومفهوما فمتى كنتم غير ذلك؟ أنتم أبطال علينا، فرسان ضدنا، بوسائل أمامنا وليس على أو ضد أو أمام العدو الإسرائيلى!

لكن كله كوم وأن تكونوا موردا رئيسيا لبتروى مصانع و أسلحة و طائرات ودبابات ومدركات إسرائيل فهذا ما لا يطيقه أحد، لا تدافعون عن لبنان، عن فلسطين... ماشى، أن تضغطوا على المقاومة كى تلقى سلاحها و ترون نصر حزب الله هزيمة..مش أول مرة!!، لكن أن تشاركوا فى قتل اللبنانيين و الفلسطينيين فهذا العار كامل ومكمل!!

نحن الشعب المصرى للأسف نشارك بثروتنا من البتروى والغاز بأوامر حكومتنا فى قتل العرب فى لبنان وفلسطين وكل دبابة ترمى بمدافعها منزلا أو مواطنا فلسطينيا إنما يجلس فى مخزن وقودها مواطن مصرى يحمل فى راحة كفيه بترولا، نحن شركاء للقتلة الصهاينة نحن نقتل أعظم المناضلين والشجعان الفلسطينيين واللبنانيين، والمدنيين الأبرياء فى فلسطين ولبنان، نحن نشارك بترولنا وغازنا فى الحرب الإسرائيلىة ضد العرب!!

ألستا نحن المصريين أول من استخدم تعبير سلاح البتروى؟ ونحن العرب

أول من جعلنا البترول سلاحا في حرب عسكرية، فكيف بهذا النظام المصرى (هل أنت متأكد أنه مصري؟ للأسف متأكد!) يتخلى عن العرب بل يساند ويدعم عدوهم؟!

أنا راضى ضميرك وذمتك فى أن تصف لنا دولة عربية تقول عن نفسها إنها الزعيمة الرائدة والعميدة العقيدة للعرب بينما هى بشحم ولحم مسئوليتها تصدر لإسرائيل مئات الألوف من أطنان البترول التى يستخدمونها فى الدبابات والطائرات والمدفيعات التى تقتل وتضرب وتذبح الفلسطينيين واللبنانيين...ومن يتلوهم؟ وهى ذات نفسها التى تصدر لإسرائيل نحو ٧١ مليار متر مكعب من الغاز لإسرائيل سنويا لتستخدمه فى حروبها ضد العرب! كيف تصف هذه الدولة وكيف لا يخجل هذا الشعب من أن هذه هى حكومته وهؤلاء حكامه؟

ربما تقول لى إن الذى رمى مصر على المر الأمر منه، وإن مصر جاءت حتى اضطرت أن تأكل بثديها، وتبيع لإسرائيل سلاحا ضد العرب! أقول لك ساعتها إذن مصر ليست حرة فالحره تجوع ولا تأكل بثديها، ثم من قال إن مصر جاءت؟ فإن كانت قد جاءت فالذى جوعها هم حكامها الذين نهبوا وأضاعوها وأغنوا سويسرا وبنوكها! لكن المسألة ليست جوعا ولا فقرا ولا حاجة واحتياجا، بل هى رغبة حكام مصر فى البقاء على مقاعدهم للأبد، وتوريث حكمهم للنجل والابن، و التوريث فى حاجة إلى بيضة والبيضة عند الفرخة (أو النسر الأمريكى) والفرخة عايزة قمحة والقمحة عند إسرائيل التى ترضى وتوافق، ومن ثم فالنظام المصرى يبيع حزب الله والمقاومة العربية الإسلامية بالتحالف مع أمريكا والتواطؤ مع إسرائيل فى انتظار الحصول على البيضة، أقصد الثمن، عرش الأب لأبيه ممها كانت الدماء العربية و المصرية التى تتزف فى طريق الابن إلى العرش!

أرقام تشـل!

محدود العقل فقط هو الذى يصدق أن سياسة الرئيس مبارك تهتم بمحدود الدخل!

الحقيقة أن المواطن محدود الدخل فى مصر لم يشهد فى عصر مبارك إلا أسود أيامه وأكثر فترات حياته تعاسة، فربع القرن الأخير الذى انقرد بحكمه مبارك هو عصر رجال الأعمال والأغنياء الذى كان مبارك يقول فى وضوح يستحق التأمل أنه يعطى للأغنياء كى يمنح الأغنياء للفقراء ولا أعرف لماذا لم يفكر الرئيس فى أن يعطى مباشرة للفقراء بدلا من رأس الرجاء الصالح الذى انتهى بنا إلى أن محدود الدخل أصبح كى يعيش وينفق على أسرته أمام أمرين إما أن ينتحر وكثيرون منهم فعلوا ويفعلون أو أن يسرق ويرتشى والأكثر منهم فعلوا ويفعلون؟! وحسب تقرير التنمية البشرية التى تصدره الدولة ذات نفسها فإن مبارك أفقر المصريين أكثر، ففي عام ١٩٩٢ كان الوجه البحرى الذى يشكل ٤٣,٤% من إجمالى سكان مصر يعانى ٤٦,٩% من سكانه من الحياة بدون مياه نظيفة مأمونة، فما الذى وصلت إليه النسبة الآن مع آخر تقرير تنمية بشرية وفى ظل اهتمام السيد الرئيس وحكومته بمحدودى الدخل، وصلت النسبة إلى ٥٠.٧%، أى أن أكثر من نصف سكان الوجه البحرى بلا مياه مأمونة، الوضع يتدهور والنسبة مروعة وبيننا هبطت النسبة فى الوجه القبلى (٣٦.٧% من إجمالى سكان مصر)، من نسبة ٥١.٤% لا يجدون مياه مأمونة فى الصعيد إلى ٤٧.٥% إلا أن الكارثة فى الصعيد أنه بعدما كانت نسبة السكان الذين لا يحصلون على خدمات الصرف الصحى عام ١٩٩٢ قد وصلت إلى ٦٣.٨% وصلت هذه الأيام طبقا لتقرير الحكومة ذاتها إلى ٨٥.٤%، أتفهم معى ما تقوله الأرقام، تقول إن البنية الأساسية

في مصر أذكوبة كبيرة وإن الانحياز لمحدودي الدخل لا يتجاوز جوف من يصرح ويدعى، أما الحقيقة المرة أن مصر تتدهور وأن إجمالي الفقراء في الوجه البحري انخفض على مدى ١٢ عاما من ٣١% كما تقول الحكومة إلى ٢٨%، أى مجرد ٣% خلال كل هذه السنوات في الوقت الذي زادت نسبة الفقراء في الوجه القبلى في نفس الفترة وبنفس مصادر الحكومة ذات نفسها من ٤٩.٣% إلى ٦٣.٧% وهو تراجع مخيف يجعلك مذهولا من هذا الحكم الفاشل والفاشى الذى لا ينجح سوى فى إفقار مواطنيه وزيادة نسبة الفقر فى بلد إن لم يكن غنياً بأى شيء (وهذا ليس صحيحا) فهو غنى بناسه وأولاده الذين يشن عليهم حكم حزب الرئيس ونجاه حرب الإفقار الرهيبة.

يبقى هنا بمناسبة محدود الدخل أن تقارير البنك الدولى تشير إلى أن ٤٣.٩% من المصريين يعيشون بأقل من اثنين دولار للفرد فى اليوم بما يعنى أنهم تحت حد الفقر بالمعدل العالمى (المعجزة التى تحدث فى العائلة المصرية يوميا أن أحدا يمكن أن يعيش بحوالى ثلاثمائة جنيه فى الشهر وهى معجزة تشبه تشبث الغريق بالحياة بعد ما عدى البراميل!)، وهكذا يقول لنا البنك الدولى الذى يموت فى هواه وعشقه الدكتور بطرس غالى ورجال جمال مبارك فى أمانة السياسات إن حوالى ٣٠ مليون مصرى تحت خط الفقر، وهناك حوالى اثنين مليون آخرين يعيشون بأقل من دولار فى اليوم يعنى ليس فقيرا بالمعايير الإنسانية العالمية بل ضايح تماما (من الذى يمكن أن يعيش أو حتى يموت فى مصر بدخل مائة وستين جنيها فى الشهر) أما الذى يؤكد انحياز الرئيس مبارك فعلا لمحدود الدخل هو أن أغنى ١٠% من المصريين يحصلون على ٢٩.٥% من دخل مصر، يعنى مجموعة ملاك فيلات الساحل الشمالى وسكان القطامية هايتس والتجمع الخامس وأصدقاء جمال مبارك وعائلات الوزراء المليونيرات، يحصلون على ثلث دخل الوطن سنويا، بينما أفقر ١٠% من المصريين يحصلون على ٣.٧% من الدخل وأفقر ٢٠% يحصلون على ٨.٦% من دخل مصر كما تقول بيانات التقرير الاقتصادى الاستراتيجى الذى تصدره مؤسسة الأهرام، وهى أرقام تخزق عين

الجميع إلا الذى فى قلبه مرض النفاق وفى عينه رمد السلطة، فلوس مصر تنام فى سرير المليونيرات أما الفقراء محدودو الدخل فليركبوا العبارة أو القطر ومن لم يمت بالغرق مات بالدس والحرق.

أرجوك سيدى الرئيس كفاية انخياز للفقراء إذا كان الانخياز لهم بيعمل كده فيهم، ممكن تنحاز للأغنياء شوية، نبوس إيديكم بطلوا حكاية محدود الدخل والبنية الأساسية اللى هربتوا بها جنت هذا الوطن، بعد حادث قطارى قليوب لا نريد أن نسمع من أكبر رأس فى البلد لأصغر مسئول تلك الكلمات المستهلكة السخيفة عن حرص مبارك على محدود الدخل أو العبء الذى تتحمله دولة مبارك فى إقامة البنية الأساسية، وكأن رصف الشوارع وإنشاء الكبارى وحضر المجرى هو بمثابة معجزات إلهية أو إلهاما سماويا وهو ما تكشف كل حادثة قطار عن كذبه وكل زحام فى فصل دراسى عن خديعته وكل انفجار ماسورة مجارى عن زيفه وكل مصيبة فى مستشفى حكومى عن تلفيقه، بل لو نزلت شوية مطرة على مصر كما قلت وأقول فإذا بالشوارع غرقانة والمواصلات واقفة ومدن وقرى بالكامل مغلقة والبلاعات مسدودة والبلد فعلا غرقانة (بالمعنى الفعلى والمجازى)، هل سمعت أبدا عن بلد فى العالم يتم تعطيل الدراسة فى معظم مدارسها ولا يذهب الموظفون إلى أعمالهم والطلبة إلى جامعاتهم لأن الدنيا مطرة!! هل هناك دولة فى العالم تتعطل وتصاب بالشلل لو المطرة مطرت ساعتين ثلاثة بغزارة.. وبعدين يجى يقولك بنية أساسية!! أين هذه البنية بسلامتها؟

أول ما تسلم وزراء رجال الأعمال وزارتى الصحة والنقل وكل يوم يعلنان عن تأففهما من وضع المستشفيات والمواصلات والطرق، أليس هذا دليلا على هراء كل ما كان يردده السادة الأفاضل عن عظمة مبارك فى إقامة البنية الأساسية للبلد، أى بنية بقى وحياة والدكم والصحة مدمرة والتعليم فاشل وحاله عدم والمواصلات والطرق والسكة الحديد كارثة، لا مبرر إذن لمعايرة الشعب بالكبارى والمجرى مثل الثرثرة السمجة حول بناء مئات الكبارى بينما فى مصر أصبح فى كل مدينة وربما فى كل حى كوبرى يطلق عليه كوبرى الموت من فرط الحوادث التى

تجرى فوقه، وكل يوم نقرأ حادثا عن كوبرى موت آخر، بل هناك كذلك طرق موت، لقد صار تعبير كوبرى الموت وطريق الموت تعبيرا ذائعا ومشهورا ودخل فى المجموعة نفسها نفق الموت ومزلتان الموت ولم لا فمصر تشهد سنويا حوالى ٢٢ ألف حادثة طرق وكبارى حصيلتها طبقا لأرقام مجلس الشعب نفسه قرابة الخمسة آلاف قتيل سنويا وهو رقم يقترب من عدد شهداء مصر فى حرب أكتوبر!! وهناك قرابة ١٨ ألف مصاب وجريح كل سنة من جراء هذه البنية الأساسية، وهى البنية نفسها التى يقدمها حزب الرئيس كأنما جاب الديو من ديله (بس على الله يكون له ديل) بينما يكفى الحزب الوطنى ورئيسه وحكامه شنارا يستحق الاستقالة أن تقرير التنمية البشرية يفضح لنا بنيتهم الأساسية حين يؤكد أن ٧٧.٩% من العائلات فى ريف الدلتا تعيش على مرحاض بلدى من غير سيفون، وأن نسبة الأسر فى الدلتا كلها التى تعيش بدون سيفون وصلت إلى ٦٣.٧% من عدد عائلات الدلتا كلها ريفا وحضرا ومدنا، ووصلت النسبة فى الصعيد كله إلى ٦٧% يعيشون بدون سيفون لكن الأكثر وضوحا فى عصر مبارك هو ما يجرى فى ريف الصعيد الذى يعيش ٨٠.١% من عائلاته بمرحاض بلدى بدون سيفون ولكن هناك كذلك ٥.٩% من العائلات تعيش بمرحاض حفرة و٥.٣% من العائلات تعيش بدون مراحيض أساسا هذا إذا اعتبرت هذا عيشا!

رب البيت بالدف ضارب!

تانى يوم ما سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه تولى خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار خليفة المسلمين، تانى يوم الصبح تفتكروا عمل إيه، أخذ شوية حاجات من بيته وراح يبيعها فى السوق، قابله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له: أين تذهب يا خليفة رسول الله؟ فأجاب عليه أبو بكر: أبيع وأشتري (فمن أين أحيا وكيف ننفق على أهلينا؟)، قال سيدنا عمر لا والله لا يجلس خليفة رسول الله فى السوق كي يبيع ويشترى لأكل عيشه لنحدد لك محصا ونصيبا من بيت المال، وهكذا ظهر لأول مرة فى تاريخ الإسلام للخليفة وللأمير وللرئيس مرتب محدد مقابل رئاسته وكان مرتب أبي بكر الصديق خليفة رسول الله دينارا واحدا فقط لا غير!

أنا العبد الفقير إلى الله أعرف المرتب الشهري لسيدنا أبي بكر الصديق وهو الخليفة الأول والإمام الأعظم وأعرف كذلك الدخل السنوى بالدولار والسنت للرئيس الأمريكى الحالى الذى يحكم العالم، ليس هنا فقط وأى عيل عابر فى حوارى شيكاغو أو فى أزقة الزقازيق عارف الرئيس الأمريكى يقيض مرتب كام.....!

الراتب السنوى للرئيس الأمريكى (بدءا من يناير ٢٠٠١) أصبح ٤٠٠ ألف دولار، أما نائب الرئيس فراتبه السنوى ٢٠٢,٩٠٠ دولار. ويصل معاش التقاعد للرئيس السابق بيل كلينتون إلى ١٥١ ألف دولار سنويا، بالإضافة إلى ١٥٠ ألف دولار أخرى سنويا ليصرف على مساعدين ومكتب له. إلا أن زوجته هيلارى كلينتون لا تتلقى ٢٠ ألف دولار سنويا كما هو مقرر بالنسبة للسيدة الأولى بعد خروجها من البيت الأبيض لأنها انتخبت عضوا فى مجلس

الشيخ وبالتالي لها راتبها السنوي- نحو ١٦٠ ألف دولار- نظير قيامها بهذه المهمة، كما أنني أعرف بنقرة على جهاز الكمبيوتر دخل ومرتب كل عضو في الكونجرس الأمريكي، وكان معروف بالنكلة والفلس ما هو مرتب ودخل رئيس الوزراء البريطاني توني بليز فهل فيه بنى آدم واحد في مصر يعرف مرتب رئيسه أو رئيس وزرائه، أو دخل قرينة السيد رئيس الجمهورية أو ثروة السيد ابن السيد رئيس الجمهورية؟! لا أحد يعرف ولا يقدر يسأل ولا يمكن حتى يصدق، هذا عن الرؤساء ورؤساء الوزراء عندنا!

خد عندك مثلا مخصصات الأسرة المالكة في إنجلترا وهولندا وإسبانيا كل ميزانيتها معروفة ومحفوظة وكل صغير وكبير في بلادهم عارف دخل ومرتب أكبر كبير فيها، خد عندك الوطن العربي هل فيه أسرة مالكة واحدة حد عارف دخلها كام ولا ثروتها إيه ولا بتجيب منين وتودى فين، ابقي قابلنى، بلاها الرؤساء والملوك ندخل على المالك، أنا وإنت والناس الجدعان "اللى مشرفينا" يعرفون بنات الرئيس الأمريكى ما هى وظائفهن وماذا يشتغلن ومن أين ينقنن وماذا يملكن؟ وبنت كلينتون وابن أى وزير أو رئيس فى الغرب كله (كلاته)، أما إحنا فى الوطن العربى الكبير الذى يصغر من أفعاله وحكامه لا نعرف أى حاجة فى أى حته عن أى نجل من الأنجال أو أى ابن أو بنت من البنات.

هذا هو الفرق بيننا وبينهم، اسمه إيه ده الشفافية، هنا فى بلدنا كله مستخبي فى الضلمة وفى السر، هناك كله على كله فيه (اسمه إيه ده) النور، تسأل نفسك هل لهذه الدرجة ولا واحد من حكامنا يعبر أهلنا ويقول لشعبه حجم ثروته وهو الموظف الذى يشغل مقعد الرئيس، من أين يأتى بأمواله وثرواته، نحن نفهم (على الأقل معظمنا معاه الإعدادية) ونعرف أن هناك أساس المرتب وفيه بقى سعادتك فوق هذا كله المخصصات والعلاوات وبدل اللبس وبدل الانتقال وبدل التمثيل وبدل الإخراج وبدل ما حد تانى ياخدكم، لكن أحدا لا يعلن مرتبه ولا دخاه ولا إقرار ذمته المالية، صحيح فالمستولون فى مصر فى عصر مبارك الذين قعدوا على قلبنا ربع قرن فى صحبة ومعية حكمة السيد الرئيس لم نضبط أحدا منهم يتحدث

عن شيء اسمه إقرار الذمة المالية (حاجة أصفرا كده) المفروض أى وزير أو مسئول محما كان كبيرا يكتبها ويقر فيها بكل ما يملك قبل وأثناء وبعد الوزارة والمسئولية (هل نعرف ثروة صفوت الشريف، كمال الشاذلى، عاطف عبيد، زكريا عزمى،؟ ما ثروة ودخل هؤلاء وأملاكهم وملكياتهم ومن أين لهم هذا وذاك وذلك؟) واضح أن هذا الإقرار صار شكليا ولا حد واخذ باله منه ولا محتم يبه، وكما أكد كثير من القضاة الذين أنيط بهم فحص إقرار الذمة المالية لعدد من الوزراء والمسئولين فالمكتوب فى هذه الإقرارات كلام عائم غائم ولا حد ييفحص ولا يدقق ولا يجاسب، فضلا عن أننا وقد مر عام على تمثيلية انتخابات الرئاسة التى أخرجتها فرقة أمانة السياسات المسرحية ولم نسمع عن إقرار الذمة المالية الذى قدمه المرشح حسنى مبارك حتى الآن، بل كى تتأكد من أن الوضع فى البلد وضع سياسيا فهناك قانون صادر من مجلس الشعب بمد خدمة مسئول فى القصر الجمهورى بعد المعاش ومواد القانون نفسه تترك تحديد مرتب هذا المسئول للسيد رئيس الجمهورية، يعنى يحدد له ما يريد ولا الشعب ولا مجلس الشعب يعرف حاجة عن هذا المرتب، ييقبض كام، علمى علمك، ثم إنت مال أهلك، هذه عزبة سيادتهم والمحصول محصولهم وليس للمواطن فى عزبة الباشا الحاكم سوى الترتة والبلهارسيا وفيروس سى..السيد، ورغم أنه لا يوجد بنى آدم واحد (ولا حتى ثلاثة) فى البلد ممكن يصدق أن هناك وزيرا يعيش من مرتبه ويكفيه كى يجلس ويربع ويستربع ويجذر ويفرع على كرسيه فكيف يصرف على عياله وعلى جامعة ومدارس وأكل وشرب ومواصلات وسفر وفسح وسعادة الوزير راح وسعادة الوزير جه وفيلا مارينا وشاليه شرم الشيخ وشيروكى الواد (ومرسيدس المدام)، ومع ذلك فلا يوجد ما يحتم قانونا الكشف عن هذه الدخول والثروات فضلا عن أن هؤلاء يلتزمون بما يلتزم به رئيسهم، الكتمان والتكتم وعدم الإفصاح والإعلان عن الثروة والدخل كأنه سر الأسرار وقدم الأقداس وكأنما هنالك خوف (هل هذا النظام يخاف ويختشى...أشك) من معرفة الناس للحقيقة، وهكذا تظل الأمور سايبية وتبقى الأحوال غامضة بينما على الحدود الشمالية للوطن حيث

إسرائيل، الدولة العدو للشعب المصرى والصديقة للرئيس المصرى نرى حسابا عسيرا وسؤالا وتحقيقا حول ثروات مسئولها وتصرفاتهم المالية وقد سبق توجيه اتهامات مالية للوزراء والقيادات البارزة حاييم رامون، وشيمون بيريز، وتسحى هنجى، وموشيه كتساف (رئيس الدولة)، ودان حالوتس (رئيس أركان الجيش). وسبق لإسرائيل أن حققت مع رؤساء الوزراء: إيهود باراك فى قضية تمويل غير قانونى لحملة الانتخابية، كما تم التحقيق مع أريئيل شارون لعلاقته برجال أعمال لهم مصالح خاصة فى اليونان، وكذلك إسحق رابين لتحويل زوجته دولارات بشكل غير قانونى (وهى الفضيحة التى دفعته للاستقالة)، فى حين تمت إدانة آرييه درعى وزير الداخلية الأسبق بالسجن، وإدانة نجل شارون عمرى لتورطه فى قضايا فساد.

بجانب التحقيق مع زوجة رابين لاستبدالها شمعدان فضة هدية بآخر حتى تتمكن من الاحتفاظ به وفقا لشروط قبول المسئولين للهدايا الرمزية فى إسرائيل. التحقيقات طالت من قبل وزير الدفاع الإسرائيلى إسحق مردخاى وأكثر من وزير عدل مثل يعقوب ثمان وتسحى هنجى. بينما نحن فى مصر المحروسة بشعبها المنحوسة بحكامها نرى المتهمين بالفساد المالى المريع يخرجون من مقعد الوزارة لتسلم أوسمة التكريم الجمهورى، تكريم الفسدة بلاش الفسدة المتهمين بالفساد فبدلا من التحقيق معهم نكرمهم ونعطيهم القلادات والأوسمة، (هى دى مصر يا هبلة)، ثروات المسئولين وحكامهم تتصاعد وتكبر وتنتفخ وتتحول إلى الهرم الرابع فى الجيزة ومع ذلك الكل سكتكم بكتم، وقد حكى لى صديق إن هناك مثلا شعبيا يقال فى كوريا الجنوبية مفاده " إذا ارتفع أحد السياسيين إلى منصب رفيع، فإن عائلته ستؤمن ماليا لثلاثة أجيال قادمة " فضحكت على هؤلاء السياسيين الكوريين التمساء فالحق أنه فى مصر إذا صعد أحد السياسيين إلى منصب رفيع فإنه لا يترك المنصب نفسه لثلاثة أجيال قادمة ويغتنى أهله حتى سابع جيل، مصر منهوية ولا رجل فينا يريد أن يأخذ بيدها من الحفرة التى سقطت فيها، ولا واحد منا يريد أن يسترجل ويواجه الحرامية الذين يوثدون مصر منذ ربع قرن،

والحقيقة أن الشعب عندما رأى أن الحكاية كده وقفش أهل الحكم وهم ينشلون الوطن في الأتوبيس سقطت كل حصون مقاومته للفساد وتزلزل الضمير العام في البلد وتدين الناس بدين ملوكهم فهات يا سرقة ورشوة واختلاس ومال حرام فإذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل الشعب الرقص، وياريت تيجى على الرقص بس!!، الفساد الحكومى الثابت والمنتظم والمنظم لم يكن ليستطيع أن يعيش وينمو ويتكاثر إلا مع سياسة (حكيمة كالعادة) إفساد الناس من أول عسكري المرور والمندوب أو الأمين الذى يوقفك فى الكمين بكل تناحة وردالة ليضربك مخالفة وهمية ولكنك بكل استنطاع تسأله: أنت أولى ولا الحكومة، يقولك أنا، فتعطيه الخمسة جنيه ويسكت عن كتابة مخالفته وتكمل أنت مشوارك، هذا السؤال الذى نقوله لعسكري المرور الذى يبتسم غلبانا ومقهورا ومتوسلا رغم نظرات الاستئساد المصطنعة هو قلب ما جرى فى حياتنا، صرنا نقرر الرشوة والحصول على المال الحرام بدل ما الحكومة تأخذه، وإذا كانت الحكومة شيخ منصر فكيف لأفراد الشعب ألا يكونوا لصوصا!

ألم تلتق أبدا برجل فى مدخل مصلحة حكومية يعرض عليك إنهاء خدمتك فورا بعد أن تكون غلبت فى السعى وراءها ويطلب منك خمسين جنيا تشهق وتستنكر معقولة كثير قوى فيرد بمنتهى الواقعية هو إنت فأكبر إن الخمسين ليا أنا لوحدى، دى بتتوزع على الكل، نعم الكل، لقد رضينا بأن نقسم الرشوة الواضحة والمقنعة فخرسنا على الحرامية الكبار لأن عيوننا انكسرت، فلا يوجد متر مربع واحد فى مصر الآن ليس فيه لون من ألوان الفساد، فساد كبير من الحكام وقيامهم ورجال أعمالهم ووزرائهم وفساد صغير من المواطنين وأفراد الشعب، وقد سمعت كثيرا هذا السؤال السقيم لماذا لا يثور الشعب ضد الحكم كما فعل فى ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧ فقد خرج الناس بالملايين مظاهرات واحتجاجات لأن الأسعار زادت تعريفة وخمسة قروش، آه والله العظيم كاد الرئيس الراحل أنور السادات يفقد عرش حكمه من جراء زيادة سعر أنبوبة البوتاجاز شلنا وزيادة كيلو السكر قرش صاغ، واضطر السادات أمام الغضب العام أن يتراجع عن

رفع الأسعار، وكانت المظاهرات تهتف أيامها، سيد بيه يا سيد بيه كيلو اللحمه
بقي بجنيه، تخيلوا كانوا يثورون لأن كيلو اللحمه صار بجنيه واحد فقط لاغير، بينما
الآن كيلو اللحمه بأربعين جنيهاً والأسعار زادت بتوحش رهيب ومع ذلك لم يخرج
الناس ولم ينفعلوا ولم يتدمروا ولم يتظاهروا ولم يثوروا، صحيح أن السبب المهم
هنا أن القمع الأمني والاعتقالات والضرب والسحل والتعذيب الذي تمارسه
سلطة مبارك على الناس يمنعهم من الحركة وربما من النطق إلا أن السبب الأهم
الذي لا يدفعهم لتحدى القمع ومواجهة زيادة الأسعار أن الناس بتصرف، الناس
بترتشي وبتخلص أمورها، وهو الذي يعطل أى تغيير ديمقراطى سلمى جياهيرى
فى السنوات الحالية حيث أن نظام مبارك كما أفقر ملايين المصريين وسجن
واعقل عشرات الآلاف منهم فقد سهل لهم الرشوة وتساهل مع الفساد المالى
والاختلاسات وقن العمولات والسمسرة، أليس هو الرئيس الذى سأله مذيع
ذات مرة عن عسكرى المرور الذى يتلقى فلوس من الناس فى الإشارة يا ريس
فأجاب الرئيس نفسه قائلاً، عسكرى غلبان ح يعمل إيه، وكانت كأنها مفتاح الفهم
للجميع، كلنا غلابة ح نعمل إيه، ح نعمل عساكر مرور!

وكما أتاح النظام الفاسد للناس الفساد الصغير فقد أباح النفاق وكافأ المنافقين
له ولسياسته (ولحكته) فأعطى لهم المناصب والمحافظات وعضويات البنوك
والقروض والحصانة بحيث صنع المحيط الآمن للنظام من دائرة قريية هى العائلة
وأصحابها ثم دائرة أوسع وهى مسئولون وكبراء ووزراء ورجال أعمال من ذوى
المصلحة المشتركة فى بقاء الحكم واستمرار النظام ثم دائرة أوسع من ترزية القوانين
وطباخى السياسات السامة المنافقين والفاستدين المستفيدين من الحكم
والمتشاركين معه، ثم دائرة أوسع من المجرحين والمتلبسين بالفساد من فسدة
مناصب كبار رجال الدولة ومؤسسات مثل الصحافة والإعلام والقضاء والبنوك
ومؤسسات الدعوة والدين والأجهزة الحساسة الذين يخدمون النظام مقابل مكافأة
بالبقاء فى المناصب والاستفادة والإفادة المتبادلة فضلاً عن أن النظام يعرف
فسادهم واستغلالهم النفوذ ورشاويهم واختلاساتهم وشيلنى وأشيلك، ثم الدائرة

الأكثر غلبا والأوسع عددا والأكثر هطلاً وهم جموع الشعب الساكنة الخائفة التي تتميز بفساد القطاع الأكبر فيها وبخوف القطاع الآخر داخلها فيحمون النظام ويحافظون عليه سواء لفسادهم أو لخوفهم!

السؤال إذن وكيف نزرع عن هذا القنفذ أشواك حبايته التي وضعها وزرعها وصنعها عبر سنوات طويلة حتى كاد الجميع ييأس من أى قدرة على التغيير وكاد حكام القنفذ وزعامات النظام يعتقدون أنهم باقون للأبد في مقاعدهم وقادرون على توريث أولادهم حكم هذا الوطن المسالم والمستسلم؟! .

إذا كنت تعتقد أن لدى الإجابة فتقتك في شخصي غالية وأقدرها ولكنها مبالغ فيها فأخففها وأخبرك أنني شخصيا أفضل أن تقوم القيامة ونخلص!

ولكن طالما أن الساعة علمها عند ربى فالحل الذى أطرحه مستمد من أننى فلاح من قويسنا ومن مشاهدتى لبرنامج عالم الحيوان، الحل أن تقلب القنفذ، كي تصل لرأس القنفذ وجسمه الحقيقي اقلبه كي يكون الشوك مغروسا فى الأرض بينما وجهه مكشوف وعارى فى مواجعتك، وربنا يجيب العواقب سلية!

القرضاوى وأسئلة الشيعة!

خلينا صرحاء مع بعض، وبدون لف ودوران ومراوغة وملاوغة أنت حاسس إن الشيعة مش مسلمين قوى، صح، صحيح أنت تحب حسن نصرالله وتراه أرجل واحد فى الوطن العربى وأحسن من كل الرؤساء والملوك الذين أهانوا الوطن العربى واستسلموا لأمريكا وترتعش ركبهم أمام إسرائيل، وأنا عارف كذلك أنك منبهر بحزب الله وشجعانه ورجاله وكان يخفق قلبك كلما رموا صاروخا على إسرائيل فأفزعوها وهزموها بينما ترى رئيسك يصادقهم وابن رئيسك وحزبه يمالئهم ويتحالف معهم ويتعاون مع قادتهم ويمدهم بالغاز والبتترول، ومع ذلك ففى قلبك شيء من ناحية الشيعة، متوغوش منهم، طول عمرك تسمع (وتصدق) أنهم كفره وخارجون عن الملة، أليس كذلك؟ ففى المدرسة سمعت هذا الكلام، وفى الجامع والبيت والشغل، كل الناس تقول هذا الكلام وأكثر، من صغرك وأنت تتعرض لهذه المقولات والأحكام تجاه الشيعة ومن المؤكد أنك أو قريبك أو حد من أهلك سافر السعودية وعاش هناك وعمل لفترة يعود ويسب لك فى الشيعة كما سمع من الوهابيين فى السعودية وكما تعلم وعاش وتعايش مع الغلاة والمتطرفين، والحقيقة أن أجهزة الأمن فى مصر ومن رجال النظام ومخبريه وخدمه من جهة والوهابيين فى السعودية الذين يمولون الجمعيات الدينية فى مصر ومعاهد الدعاة والمراكز الإسلامية والذين يسيطرون على المحطات الدينية الفضائية وكذلك أمراء وأسرات حكم فى الخليج تعمل على تصعيد دعاوى تشويه هذا المذهب ووصمه بالكفر! فقد أذهلت عواصم الحكم العربى تلك الشعبية الجارفة والمحبة اللافتة التى أظهرها المصريون والعرب لحزب الله فى مقاومته للعدوان الإسرائيلى وثباته وإثباته شجاعة وكفاءة رائعة فى التصدى للعدو الإسرائيلى، وقد أحست مصر أن ما حاولت

أن تقنع به شعبها من عظمة وقوة إسرائيل تبريرا لضعف النظام المصرى وهوانه وتهاونه أمام تل أبيب قد اهتز وانهار مع ما فعله حزب الله و السيد حسن نصر الله فانطلقت على محورين : الأول التهوين من نصر حزب الله بل والوصول إلى حد أنه انهزم وهو ما لم يقله الصهاينة حتى الآن بينما تكاد تنفجر حنجرة الحكوميين وحلفائهم سعيا لإقناع الناس بذلك (ثم يشتمون هم الشعب المصرى والشعوب العربية عامة ويقولون إنها هبلة وعاطفية ومضحوك عليها ومريضة بالوهم لأنها تصدق انتصار حزب الله!!) أما المحور الثانى فهو الأخطر والأكثر لعبا بالنار وهو اتهام الشيعة بالكفر حتى يسحب ذلك من شعبية ومصداقية حزب الله، وهذا تحديدا هو ما يروج له الوهابيون فى الجزيرة العربية حيث أن غالبية الشعوب فى دول الخليج شيعية المذهب (ماعدا السعودية) ومن ثم أى ديمقراطية حقيقية كفيلا بأن يحكموا أوطانهم، كما أن الشيعة يعيشون فى السعودية فى أكثر المناطق غنى بالبتروول وحقوقه ومن ثم لو رفع الشيعة رءوسهم واستقوا بما فعله حزب الله ولو تدعموا بانتصاره فطالبوا بحقوقهم المهذورة لسقطت عروش دول كثيرة فى الجزيرة العربية (إحدى الدول هناك قبضت على كل أفراد مظاهرة خرجت لتأييد حزب الله أثناء الحرب، كلهم يعنى كلهم، فردا فردا) إذن التقى الجميع على قلب رجل واحد فى الحرب ضد الشيعة بتكفيرهم خصوصا فى أكثر البلاد العربية تعاطفا وانتصارا لحزب الله، هنا فى مصر تحديدا، لذلك تجد حكوميين يكرهون الشيخ يوسف القرضاوى كراهية عميقة رغم هذا التقطوا تصريحاته التى تحدث فيها عن الشيعة ولمز أن حسن نصر الله متعصب وغمز أن الشيعة لايعترفون بالمصحف الذى نعرفه، وباتوا يروجون لهذه اللزمات التى خرجت عن الرجل (رغم تصحيحه وتراجعها عنها)، فضلا عن تعليقات أمنية واضحة بالهجوم على الشيعة فى خطب المساجد الخاضعة لسيطرة كاملة من جهاز أمن الدولة وطبع وترويج وتسويق والتغاضى عن عدم ترخيص كتب وشرائط كاسيت لا هم لها سوى تكفير الشيعة، وأمام هذا العصف السياسى الراهن وخلال هذا الأداء الحكومى الذى يلعب بالنار ولا يهيمه سوى النفخ فى عظمة رئيسه ومحابة حكمه

التي اهتزت بشدة وبعنف أمام ما جرى من بطولة المقاومة في لبنان وبدت مصر الرسمية في عصر مبارك كما هي تماما، متعاونة محاذنة متحالفة ومتواطئة و داعمة (بالغاز والبتروال) لإسرائيل وعملياتها القذرة ومجازرها البشعة، فقد اشتدت حملات تكفير الشيعة حتى ظن البعض أن اليهود صاروا أقرب لحكامنا من الشيعة سواء شيعة لبنان والعراق أو شيعة إيران!

لكن أمام كل هذا الضباب وداخل ذلك الدخان الذي يعمي العيون أين هي الحقيقة؟ هل فعلا الشيعة كما تعودنا أن نعرف ونقول هل المذهب الشيعي خارج عن الإسلام؟ كي أريحك تماما من الحيرة فأنا لن أعتمد في إجابتي سوى على الشيخ يوسف القرضاوى، نعم هو نفسه الذي سمعت عنه أو منه ما أوغر صدرك وألعب الفأر في عبك من الشيعة؟ تعالوا نسأله ولنتركه يجيب فقط، هذه الإجابات كتبها هو نفسه بخط يده وطبعها في كتاب باسمه ووزعه ليقراه الناس ويأخذون عنه، ليس كلاما عنعنة كأننا سمعناه في ندوة ونقله، أو كأنه كلام شفوي قد يختلط أو يبتسر، لا، هذه الإجابات أقلها عنه نصا بالحرف وبالنقطة من كتابه (مبادئ في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية) والذي صدر عام ٢٠٠٥ أى أنه كتاب حديث طازج من شيخنا العلامة يؤكد في مقدمته إنه كتبه فعلا عام ٢٠٠٤، ولنبدأ بالسؤال الأهم والتهمة الأفظع، هل يرى الشيعة أن القرآن قد تم تحريفه وأن القرآن الصحيح هو ما يسمونه مصحف فاطمة (نسبة للسيدة فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم)؟ يقول القرضاوى في كتابه (هناك من علماء الشيعة من قالوا إن القرآن الكريم محرف، بمعنى أنه ناقص، وليس كاملا، وألفوا في ذلك كتبا، ولكن هذا الرأى ليس متفقاً عليه، فهناك من علماءهم من رد عليه، وفند شبهاته، وهذا هو الذى يجب أن نعمده، ولا نعمد الرأى الآخر. والذى يجعلنا نعمد رأى نفاة التحريف فى القرآن جملة أمور:

١- إن الشيعة جميعا متفقون على أن ما بين دفتى المصحف كله كلام الله، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢- إن المصحف الذى عند الشيعة فى كل العالم اليوم هو المصحف الذى يوجد عند أهل السنة، فالمصحف المطبوع فى إيران هو نفسه المطبوع فى السعودية وفى مصر وفى باكستان والمغرب وغيرها من بلاد العالم الإسلامى.

٣- إن هذا القرآن هو الذى يفسره مفسرو الشيعة من قديم إلى اليوم، لا يوجد قرآن غيره يقومون بتفسيره، وهو الذى يتحدثون عن بلاغته وإعجازه إلى اليوم.

٤- إن هذا القرآن هو الذى يستدلون به على معتقداتهم فى كتبهم العقائدية، وهو الذى يحتاجون به على الأحكام فى كتبهم الفقهية.

٥- إن هذا القرآن هو الذى يعلمونه لأولادهم فى المدارس الدينية والحكومية، وعلى شاشات التلفاز وغيرها).

انتهت إجابة القضاوى عن هذا السؤال وهو ما يجعلنا نسأل هل نأخذ الشيعة بلغو وهرتلة قالها بعض غلاة منحرفين منهم فى قديم الزمن حين كانوا يتعرضون لاضطهادات سياسية من خلافة سنية وسلاطين قهرة، بينما تتغاضى عن حقائق كالشمس منيرة وساطعة أن قرآن السنة والشيعة واحد واضح هو نفسه بلا حرف زيادة ولا نقصان، هذه أدلة دامغة قدمها القضاوى لا لبس فيها ولا التباس.

وخذ مثلاً قضية حرص الشيعة فى صلاتهم على السجود على حصة، يقول الشيخ القضاوى : (الشائع عندنا - أهل السنة - أن الدافع إلى ذلك هو تقديس الشيعة لهذه الحصة، لأنها من طينة كربلاء التى قتل الحسين، أو دفن فيها رضى الله عنه. وقد كنت أنا شخصياً أعتقد ذلك فى أول الأمر، حتى زارنا فى الدوحة فى الستينيات من القرن العشرين الإمام موسى الصدر الزعيم الشيعى المعروف فى لبنان، ورئيس المجلس الشيعى الأعلى بها، وقد تباحثنا فى بعض الأمور، ومنها هذه الحصة، فعلمت منه أن الشيعة الجعفرية يشترطون أن يكون السجود على جنس الأرض، فلا يجيزون السجود على السجاد أو الموكيت، أو الثياب أو نحوها، ونظراً لأن أكثر المساجد أصبحت مفروشة بما لا يجوز السجود عليه فى

مذهبهم، فقد حاولوا أن يوفروا لكل مصل حصة من جنس الأرض يصلى عليها، وليس من الضروري أن تكون من طينة كربلاء، ولا من غيرها. وقد عرفت ذلك بالقراءة والدراسة في كتب الجعفرية، وعندى عدد منها، من «المختصر النافع» إلى «جواهر الكلام». وعندما زرت إيران سنة ١٩٩٨م تأكدت من ذلك، فقد زارني كثير من العلماء في حجرتي في الفندق الذي أنزل فيه، وصلوا عندي ولم يكن معهم هذا الحجر، بل وجدتهم أخذوا ورقة كلينكس، ووضعوها أمامهم، ليسجدوا عليها، بدلا من الحجر أو الحصة، واعتبروا الكلينكس من جنس الأرض، لأنه ليس من المنسوجات كالسجاجيد ونحوها. المهم أن فكرة «الطينة المقدسة» التي كانت ثابتة عندي قد زالت بسؤال العلماء الثقات، والأخذ عنهم، والاطلاع على المراجع العلمية الموثقة، بدل الأخذ بما يشاع عند عوام الناس دون استناد إلى بيعة أو دليل. وهذا المبدأ (حسن الفهم) كما أطلب به أهل السنة في موقفهم من الشيعة أطلب به من غير شك الشيعة في موقفهم من السنة، وضرورة تفرقتهم بين الأصول والفروع، وبين الفرائض الأساسية والنوافل الهامشية، وبين المتفق عليه بين أهل السنة والمختلف فيه بينهم، وما أكثره، وبين الشائع عند العوام والحقيقة عند أهل العلم الثقات، وبين عمل الناس وما يوجبه الشرع).

خلاص خلصت الحكاية السخيفة الرخمة بتاعة إن الشيعة يبصلوا على حجر من كربلاء رغم أن هذا أمر لا يودى ولا يجيب، لكن هذه هي حقيقته كاملة كما شرحها الشيخ القرضاوى، تعال ننتقل معه إلى أهم نقاط الاتفاق بين السنة والشيعة وهي كما يؤكد (الالتزام بأركان الإسلام العلمية: من الشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. فالفرقان - سنة وشيعة - يؤمنون بهذه الأركان أو الفرائض، وإن وجد خلاف بينهم في بعض الأحكام، فهو كما يحدث بين مذاهب السنة بعضها البعض، فكم من فرق بين المذهب الحنبلى مثلا والمذهبين الحنفى أو المالكى، وكم من مسائل انفرد بها المذهب الحنبلى عن المذاهب الأربعة، عرفت باسم (مفردات المذاهب) ونظمها بعضهم في منظومة

معروفة.. وإذا كان هذا واضحاً بيننا في العبادات، فهو أبين وأوضح في المعاملات. وإذا كانوا هم لا يعترفون بكتب أهل السنة التي تعد مراجعهم في الحديث النبوي، مثل الكتب التسعة: الموطأ ومسنده أحمد وصحيح البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه والدارمي، وغيرها من الكتب، فإن معظم ما ثبت عندنا بالسنة ثبت عندهم من طريق روايتهم، إما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه، وإما عن طريق إمام من أئمتهم الذين يعتبرونهم معصومين. والمهم: أن الفقهاء في النهاية - فقه السنة وفقه الشيعة - يتقاربان إلى حد كبير، لأن المصدر الأصلي واحد، وهو الوحي الإلهي المتمثل في القرآن والسنة، والأهداف الأساسية والمقاصد الكلية للدين واحدة عند الفريقين، وهي: إقامة عدل الله ورحمته بين عباده. وكثير من الآراء التي تعتبر شاذة عندنا من أحكامهم، نجد بين أهل السنة من قال بها إذا أجدنا البحث والتنقيب).

من هنا نصل إلى قصة (أو قضية) زواج المتعة وهو ما يريد أن يجعله البعض خلافاً قاتلاً، يقول الشيخ القرضاوى عنه (زواج المتعة، فقد قال بها عالم السنة حبر الأمة ابن عباس، وإن قيل إنه رجع عنها، ولكن ظل عدد من أصحابه في مكة وفي اليمن يفتنون بها، مثل: عطاء وسعيد بن جبير وطاوس رضى الله عنهم جميعاً).

لكن تبقى المشكلة الأثقل وطئاً وهي سب الشيعة للصحابة، خصوصاً الكبار منهم، الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، مثل الخلفاء الراشدين: أبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم، يكتب الشيخ القرضاوى (هذه هي النقطة الحساسة، بل شديدة الحساسية بيننا وبين إخواننا من الشيعة، وقد تحدثت مع عدد من علماء الشيعة، ممن أعرفهم من ذوى الأناة والحكمة، وقلت لهم: إن هذه القضية هي الحاجز الأول أمام التقارب، ولا بد للعقلاء أن يحاصروها أو على الأقل يخففوا من آثارها، فإنها إذا تركت لغرائز العوام المشحونة بالغضب والحقد جديرة بأن تاكل الأخضر واليابس، ولا تدع لأهل العلم والحكمة فرصة في التوحيد أو التقريب. والحق أقول إن هؤلاء العقلاء - أمثال آية الله محمد على

التسخيري، وآية الله واعظ زاده وغيرهما - وافقوني تماما على ذلك، وأكدوا لي أن هذا الاتجاه يقوى عندهم ويتشرب شيئا فشيئا، حتى إن المناهج الدراسية الجديدة في إيران تذكر في بعض كتبها مواقف تاريخية لأبي بكر وعمر فيها تمجيد لهما وثناء عليهما. قلت لهم: هذا ما يجب أن يتبنى ويتوسع فيه في مؤسسات التربية الحكومية، وفي مجال التربية الأسرية الخاص، فإن الثقافة الشيعية الشعبية كثيرا ما تحمل بأوهام ومبالغات وخزعبلات، لا تثبت أمام النقد العلمي، ولكنها عند العامة حقائق - أو معتقدات - تحرك سواكهم وتثير كوامنهم. والحقيقة أن هذه القضية الخطيرة في حاجة إلى تمحيص ومصارحة، لتصفيتها وجلاء الغبار عنها، أو على الأقل للوقوف موقفا إيجابيا حكما منها. ورغم أن هذه الفعلة الشنيعة المنسوبة لغلاة الشيعة أو بعض عوامهم تضاءلت وتراجعت في القرن الأخير لكن التأكيد على رفضها وذمها ومحاربتها واضح من علماء الشيعة الذين اجتهدوا كثيرا في القضاء على تلك الروح العدائية التاريخية البغيضة لكن الشيخ القرضاوى يقر ويقرر في فتواه بكتابه ص ٧٧ (إن سب الصحابة وإن كان أمرا جلا فلهم فيه شبهة وتأويل يبعدهم عن الكفر وقد يدخلون في فسق التأويل) ثم يعود الشيخ القرضاوى فيقول قاطعا (وأما دعوى عصمة الأئمة عند الشيعة فنحن نخطئهم في ذلك، ولا نرى في هذا (كفرا بواحا) فإن ما جاء عن أئمتهم إما أنها عندنا أحاديث نبوية، وإما أنها (آراء اجتهادية) ككثير مما روى فقهاء المدينة السبعة، وأمثالهم من فقهاء الحجاز والعراق واليمن والشام ومصر وغيرها، وما جاء عن الأئمة الأربعة وغيرهم، ولذا كانت ثمرة هذا كله الفقه الجعفرى بما فيه استنباط واختلاف، وهو لا يفترق في مجموعه عن الفقه السننى، إلا كما تختلف مذاهب السنة بعضها مع بعض) بعد أن قرأنا فصل الخطاب للشيخ القرضاوى.

يبقى أن الذين يصرون على التطرف وبث الكراهية بين المذاهب الإسلامية من متعصبين مدفوعى الأجر سيقولون إن هذا كله تقيية من الشيعة، والحقيقة أن اتهام الشيعة بأنهم يخفون ما لا يظهرون هو بمثابة شق قلب وتفتيش ضائر وحكم على النوايا يذهب بصاحبه إلى مخالفة شرع الله وسنة رسوله صلى الله

عليه وسلم فليس لنا سوى الظاهر والباطن لله، مالنا نحن به، لكن المؤكد أن مفهوم التقية كان موجودا في زمن ماضٍ سحيق كان فيه آلاف الشيعة في السجون أو تحت الأرض خوفاً وهرباً من الحكام والسلاطين أو مطاردين مضطهدين أما الآن وقد عزوا وكبروا وانتشروا وسادوا دولاً فلا مبرر للتقية ولا سبب لها ومع ذلك ليكونوا ما يكونون مال أهلنا نحن، لنحترم خلافنا المذهبي بلا منافسة أو منابذة ويجب ألا نشغل أو أن يشغلنا حلقاء الاستبداد والفساد من المتطرفين أو المنافقين عن القضية الأهم لدى المسلمين جميعاً سنة وشيعة وهي تحرير الأوطان العربية من الظلمة والفسدة والقهرة من حكام وحكومات اغتصبوا حق الأمة وأضاعوا ثروتها وأضعفوا قوتها وأذلوا كبرياءها، ممتننا ليست مصارعة حرة بين السنة والشيعة بل كفاح مدني سلمى من أجل الحرية والديمقراطية والإصلاح السياسى والدينى، وموسى نبي وعيسى نبي ومحمد نبي وكل من له نبي يصلى عليه!

النحاس مات!

هل حكيت لك هذه القصة من قبل؟

لا أعرف فأنا أكرها كثيرا حتى أنني أتوقف في منتصف الحكاية كل مرة وأسال صاحبي الذي أتحدث معه، أنا قلت لك الحكاية دى كثير مش كده؟ وعلى قدر أدب المستمع ساعتها يرد لكننى أفهم كم هى حكاية مؤثرة فى نفسى ومحممة فى فهمى لدرجة أننى أستشهد بها لأدلل على أن مصر لم تكن أبدا بلدا بليدا عابدا للحاكم ييوس يده ويتعامل معه كأنه النبى أو الولى، ولم تكن مصر ولا شعبها ولا مثقفوها ولا سياسيوها على هذا القدر من النفاق الذى يسمونه أدبا، ومن الخضوع الذى يعتبرونه احتراماً، ومن التذلل الذى يسمونه رقى لغة الحوار، ومصر كانت يوماً بلدا لزعماء ديمقراطيين حينما كانت وطنا لمعارضين شجعان، آه، أخذتني الحماسة ولم أبدأ الحكاية، شوف يا سيدى (وإذا كنت سمعتها قبل ذلك أو قرأتها منى جاملتنى واعمل فيها إنها أول مرة!).

كان مصطفى النحاس واقفاً فى محطة القطار (إذا كان سنك أقل من خمسين سنة فأنا مضطر أفكرك مين مصطفى النحاس).

حاول أن تتذكر معى مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد (قبل أن تحله ثورة يوليو) وزعيم الأمة حين كانت أمة تنتظر أو تحتاج أو تستحق زعيماً.. معالى دولة رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا..

أما ملاحظه فيمكن أن تستحضر شكل وملامح أى مفتش لغة عربية دخل عليك الفصل زمان فى المدرسة، ألبسه طربوشا يبقى مصطفى النحاس قامة مفرودة مع بعض الميل نتيجة السن والسمنة وبذلة تقليدية فيها براح ومهوقة قليلاً وطربوش مضبوط على الرأس بانحناءة على الجبهة وبعض الحول البارز فى عينه

اليسرى فقط.

هذا هو مصطفى النحاس طبعا وراه تاريخ طويل ممتد من النضال العظيم ضد الاحتلال الإنجليزي وضد التعسف والاستبداد الملكى ومحاولة الملك إطلاق يده الطويلة فى الحياة النيابية.

خلصت حصة التاريخ بتاعة تانية تانى، نرجع للحكاية.
كان مصطفى النحاس واقفا فى محطة القطار (وليه واقف ولية محطة القطار؟)
آه.. سنعود ونبدأ من الأول خالص.

قد يسأل سائل وقد يقول قائل ولماذا يركب مصطفى النحاس القطار أصلاً؟! ولماذا يذهب إلى المحطة أساساً؟! ألم تقل إنه رئيس الوزراء أين مواكب السيارات وأين الحراسات أين السيارة المصفحة والموتوسيكلات أو الهليكوبتر لو المشوار بعيد فى الصعيد أو حتى طائرة الرش على أيامهم؟

ما الذى ذهب بمصطفى النحاس باشا ياباشا إلى المحطة؟

أقول لك فى الحقيقة كانت هناك سيارة طبعا بسائق أيضا لرئيس الوزراء. لكن لم تكن هناك مواكب أو موتوسيكلات أو إخلاء للشوارع أو تعطيل للمرور أو حرس يرعب العابرين أو رشاشات من النوافذ أو نوافذ سوداء وجيب شيروكى وتوكى توكى ياشعوب يلعن أبوكى وكهربية فى الجو وتوتر وضباط يزعقوا فيك وسع ياجدع (للدقة وسع ياحمار) لم يكن هناك كل هذا لماذا؟

ربما كانت الظروف لاتسمح ربما كانت خزينة الدولة لاتسمح ربما كانت الزعامات لاتسمح ربما كانت الضمائر، وكانت موجودة لم تتم ولم تمرض بالشيخوخة مثلما يحدث الآن، ربما كانت الجماهير لاتسمح فلم تكن قطيعا طائعا نائما أيامها، لكن المؤكد أن مصطفى النحاس تعرض لمحاولات اغتيال منها محاولة فاشلة شارك فيها الرئيس اللاحق أنور السادات، وإذا كان مصطفى النحاس يريد أن يتلكك بالأمن والظروف الأمنية لفعلاها.

لكن النحاس باشا رغم ذلك لم يطلب حراسة ولم يؤمن مواكبا ولم يعطل مرورا ولم يعذب شعبه مرا ومرارا ومرورا.

عموما كان النحاس فى جولة انتخابية للدعاية والدعوة لحزب الوفد لما كان حزبا ولما كان وفدا ولما كانت انتخابات ولذلك كان يستقل القطارات من محافظة إلى أخرى، وكان يعدى عليه الليل فىنام سواء على الرصيف فوق أى دكة خشب أو فى عربة القطار، معه رفاق الرحلة وبعض أفراد من الحزب وبلا حراسة حتى ولو بندقية لعبة.

انتهت حصة التاريخ لسنة ثانية تانى ودخلنا حصة التاريخ بتاعة ثالثة تالت بينما كان مصطفى النحاس خارجاً من أحد مساجد القاهرة بعد عودته من إحدى رحلات القطار فإذا بشاب غر غير بلغة وقتها، قلة منحرفة بلغة ما بعدها، إرهابى متطرف بلغة مابعد بعدها، يقترب منه فى اندفاع ويقول له إنت مصطفى النحاس رئيس الوزراء.

يرد النحاس بطيبة وهدوء:

- أيوه يابنى أنا..

يقوم الواد مقرب أكثر ويمد يده ويصفعه بالقلم على وشه..

وش مين؟

وش مصطفى النحاس.

رئيس الوزراء.

آه رئيس الوزراء..

يعنى كان مصطفى النحاس واقفا بطوله وعلى حيله ولوحده تقريبا وبدون حراسة مشددة أو مخففة واستطاع هذا الشاب الغر الغير القليل المنحرف الوصول إلى رئيس الوزراء ووقف قدامه وجها لوجه هكذا دون أن يخاف أو يمسكه ضابط الحراسات فىسمح باللى جابو أهله الأرض ويروح وراء الشمس إن كان هناك متسع أو مكان فاضل له وراء الشمس، وكان أن سكع هذا الشاب معالى رئيس الوزراء قلما على وجهه آه والله العظيم ثلاثة حصل.

هذه الحادثة فى غاية الأهمية والخطورة.. لكن الأهم والأخطر هو ماحدث بعدها ماذا فعل مصطفى النحاس معالى دولة رئيس الوزراء؟

كونه غضب فهذا مؤكد... كونه تأثر فهذا حقيقي كونه أحس بالإهانة فهذا طبيعي.. كونه انفجر غيظا فهذا محتمل.
لكنه فعل مالم يفعله أحد بعده أبداً.

لقد أخذ نفسه وهز طوله وذهب إلى قسم شرطة الأزكية ومعه الشاب الذى ضربه وطلب من الضابط النبطشى أن يفتح محضرا واشتكى معالى دولة رئيس الوزراء من الشاب الذى ضربه بالقلم وحكى الواقعة وسجل الحادثة وهو يسمح عرقه والإهانة على وجهه، نعم أبلغ السيد معالى دولة رئيس الوزراء مصطفى باشا النحاس زعيم الأمة فى القسم عن الشاب الذى ضربه بالقلم على وجهه عيانا بيانا ووقع على المحضر فى ساعته وتاريخه وتوكل على الله يلحق القطر، لم يتم اعتقال الشاب ولا سجنه ولا رمية وراء الشمس ولا تليفيق تهمة انتماء لتنظيم وهمى ولم يتم سجنه ولا التحرش به ولا تعذيبه فى القسم، بل رئيس وزراء يتعامل مع مواطن بمنتهى الاحترام للمواطنة وبكل ما فى الدستور من مساواة ويشكوه فى القسم وخلص، نعم خلاص، انتهت كل حصص التاريخ.
بقيت فقط حصص القراءة الحرة ماذا لو حدث هذا الحدث الآن.

أولاً: لا يمكن أن يستطيع أى مواطن الوصول إلى معالى دولة رئيس الوزراء مصطفى باشا النحاس لأن النحاس باشا مات.

ثانياً: لا يمكن أن يستطيع أى مواطن الوصول إلى معالى أى دولة رئيس الوزراء بعد مصطفى النحاس لأنه أى المواطن ح يموت قبل ما يوصل قارن هذه الحادثة التاريخية المذهلة (والتي كتب بعدها الكاتب العظيم عباس محمود العقاد مقالا ناريا ينتقد فيه ويهاجم النحاس باشا لأنه حرر محضرا لهذا الشاب الوطنى - سباه هكذا - الذى يعارض سياسة النحاس).

قارن ما جرى بما يجرى وأجرى على الله، قطعاً أنا لا أدعو لضرب أحد قلماً على وجهه لإثبات الديمقراطية ولا أظن أن هذه هى الديمقراطية لكن دعنى أذكرك أن فى إسرائيل وقف متظاهرون ضد رئيس الوزراء أولمرت ساحبين حمار معاهم واصفين أولمرت به، وفى روسيا هناك مواطنة بصقت فى وجه جورباتشوف فى

جولة انتخابية ولم يرموها للكلاب تنهش لحمها وفي لندن رموا البيض على بلير وفي ألمانيا وإسبانيا رموا زعماءهم بالطين في المقابلات الانتخابية والناذج أكثر من أن تحصى ومع ذلك فليس هدفي إثبات أن المناخ الديمقراطي يبدأ بضرب الزعماء بالقلم أو البيض ولكن أتحدث عن مجتمعات بمن فيها مصر ما قبل يولييه ١٩٥٢ لا تقدر رؤساءها وزعماءها ولا تتعامل مع المعارضين بهذه الوحشية والبوليسية والقمع والتعذيب الذي شهدته مصر طول عهد نظام يولييه ثم زاد وغطى وفاض وباض في ربع القرن الأخير الذي يحكمنا فيه الرئيس مبارك والذي لم يسجل نظام مثل ما سجل في عمليات التحرش والانتهاك والسحل والتفخ والتعذيب لمواطنيه سواء المواطنين العاديين الذين لا يعملون في السياسة (ولا يعملون إطلاقاً) أو المعارضين السياسيين من الإخوان المسلمين أو اليساريين أو الليبراليين، ولكن يبقى السؤال، لماذا أصبحنا هكذا؟

لماذا وصل بنا الحال من أن صفع مصطفى النحاس عمل غير مجرم مفهوم ومغفور له سياسياً إلى أن نقد مبارك، مجرد نقد سياسته ونظامه، عمل خارق للناموس الكوني ويهتز له عرش السماء والأرض من وجهة نظر مؤيديه ومنافقيه؟! أسأل نفسي كل يوم هذا السؤال، وألوم نفسي كل يوم لأنني مازلت أسأله، بل لأنني مازلت محتماً بالبحث عن إجابة عنه.

لقد وضعت ثورة يوليو من ضمن أهدافها الستة (كان آخر الأهداف) إقامة حياة ديمقراطية سليمة! وكان هناك حياة ديمقراطية مكسورة ومريضة وأخرى سليمة معافاة! وكانت هذه هي الكذبة الكبرى التي زرعتها نظام يوليو واستمرت حتى مؤتمر الحزب (الحزن) الوطني الذي ينعقد هذه الأيام رافعا نفس رايات الكذب والتضليل السياسي، أصبح الحكام وأبناء الحكام هم الذين يقررون ما هي الديمقراطية السليمة والمريضة! وجعلوا أنفسهم أوصياء على الشعب والمواطنين فهذا معارض عذب فرات وهذا ملح أجاج، هذا سليم وذلك مكسور، هذا الأخ ديمقراطي سليم وهذا ديمقراطي مريض! كأن الديمقراطية السليمة المطلوبة هي الديمقراطية التي تعترف بأن الرئيس هو أعظم الحكام وأن رئيسنا من المهمين

الراشدين وأن الوطن يضيع من غيره والشعوب تنهار لو تركنا الديمقراطية المطلوبة والمسموحة وفق تصور رجالات الحزب الوطنى وتابعيهم هى التى لا تشاغب ولا تعارض ولا تحرك ولا تتحرك ولا تتظاهر ولا تغير رئيسا ولا تسقط وزيرا ولا تحرك شارعا ولا تطمع فى حكم ولا تفكر فى سلطة.

ثم ظهرت الأكدوبة الأكبر وهى أن الشعب ليس مستعدا للديمقراطية ومازلنا نعلمه ونفطمه واحدة واحدة وخذى اللقمة ياكوتوموتو يا جهاير! وكخة ياوطن، وتاتا تاتا يا شعب! كأن الحكام يمنعون أبناء الوطن من مسك سلك الكهرباء أو اللعب فى الفيشة السياسية، كأننا وطن من الأطفال فى حاجة إلى شرب اللبن قبل أن ننام! وقد استمرت هذه الأكاذيب لتنتج واقعا سياسيا مشوها وهزائم وأزمات لا تنتهى وضعفا أمام العالم والغرب الذى يعاير بلادنا بالتخلف والعبودية للحكام وتوريث الحكم وأولدت لنا ديمقراطية شكلية هشّة ومضعضة وعبارة عن مجرد لهو ولغو فارغين نضحك بهما على العيال حتى يكبروا! الجميع يتحدث عن خطوات الديمقراطية وليس الديمقراطية، عن الضمانات من أجل الديمقراطية وليس حقوق الديمقراطية!

ويبدو أنهم يصرون على إقناع الشعب بأنه طفل وعيل فعلا فى حاجة إلى بزازة الحكومة الأم والحاكم الأب حتى يستمر الوطن أكثر استعدادا للعبودية وللوصاية وتدخل فى دائرة القبول بالأمر الواقع والرضا بالقسمة والمقسوم، فترك الشعب (خوفا أو يأسا أو سلبية) رئيسه ورجال حكمه وحزبه ينفردون بإدارة البلاد حتى تحولت مصر إلى ذلك البلد الذى يصفه الكاتب الراحل نجيب محفوظ فى آخر ما كتب من رؤى ورؤية فى كتابه «أحلام فترة النقاها»، يقول: (فى ظل نخلة على شاطئ النيل استلقت على ظهرها امرأة فارعة الطول ريانة الجسد. وكشفت عن صدرها ونادت يزحف نحوها أطفال لا يحصرهم العد. وتزاحموا على ثديها ورضعوا بشرها غير معهودة وكلما انتهت جماعة أقبلت أخرى وبدا أن الأمر أفلت زمامه وتمرد على كل تنظيم. وخيل إلى أن الحال تقتضى التنبيه أو الاستغاثة ولكن الناس يغطون فى النوم على شاطئ النيل. وحاولت النداء ولكن الصوت لم

يخرج من فمى وأطبق على صدرى ضيق شديد. أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جادة على عظم. ولما يتسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتى تحولت بينهم إلى هيكل عظمى. وشعرت بأنه كان يجب على أن أفعل شيئاً أكثر من النداء الذى لم يخرج من فمى وأذهلنى أن الأطفال بعد يأس من اللبن واللحم التحموا فى معركة وحشية فسالت دماؤهم وتخرقت لحومهم. ولحنى بعض منهم فأقبلوا نحوى أنا لعمل المستحيل فى رحاب الرعب الشامل انتهى حلم نجيب محفوظ ويحلل ويفسر الدكتور محمد المهدي العالم النفسى الكبير هذا الحلم وتلك الرؤية للأستاذ نجيب محفوظ فيكتب عن تداعيات هذا الحلم (رقم ١١):

(كنت أتصور - سذاجة - أن مصر تعرضت وتعرض للنهب، ولكن هذا الحلم الكابوس أفرغنى على حقيقة أن الأمر تجاوز مرحلة النهب ووصل إلى مرحلة النهش، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل إن «النهّاشين» حين فرغوا من النهش راحوا ينهشون بعضهم البعض.

فمصر العظيمة التى تتمدد - ريانة الجسد - على شاطئ النيل تكشف عن صدره المليء بالخيرات لأبنائها، يتزاحم عليها أطفالها الكثيرون ببراءة (فى البداية) يرضعون من هذا الصدر العذب، ولكن ما لبثت براءتهم أن تحولت لشراهة، وتحول الأمر إلى نهب شديد وفوضى ممددة. وبدا للعقلاء من أهلها أن الأمر يحتاج لتنبيه أو استغاثة ولكن أهل مصر - كعادتهم - يغطون فى نوم عميق ويتغيبون فى حالة من السلبية واللامبالاة، ويغرقون فى بحر من الأمان الكاذب، ويتصورون خداعاً وزيفاً أن بلدهم المعطاء لا ينفذ خيره. وحاول العقلاء إيقاظ النيام وتنبية العافيين إلى خطورة ما يحدث، ولكن الخوف كتم أصواتهم داخل أفواههم، وكتم حسرتهم فى صدورهم. وفى هذا الجو الفاسد والمضطرب الخالى من صوت عاقل أو تنبيه رشيد واصل الناهبون والناهشون عملهم فى امتصاص خيرات البلد حتى جفت منابعها وأصبحت جاداً على عظم بعد أن نهشوا لحمها حين جف ضرعها. ومرة أخرى يشعر العقلاء والصالحون من أهل مصر بالندم والحسرة والحجل، فقد تأخروا كثيراً فى التنبيه والتحذير، ووقفوا مكتوفى الأيدي

حتى حلت الكارثة واشتد الصراع وعمت الفوضى، ولجأ إليهم بنو وطنهم لينقذوا الوطن من الخراب والفوضى ولكن الوقت كان قد فات ولم يبق إلا الرعب الشامل الذى يلفح الناهشين والساكتين على السواء).

هذا السيناريو الخيف لما بعد النهش الذى وصفه محفوظ وفسره دكتور المهدي هو ما نخشى منه فقد وصل الحال إلى درجة أن تقريرا منسوبا لهيئة سوق المال نشرته إحدى المجلات الحكومية يقول إن ألف عائلة تملك وتدير ٥٠% من حركة الأسواق فى مصر وتسيطر على ٩٠% من شبكات التوزيع الداخلى و ٦٠% من وسائل النقل و ٨٠% من الأراضى الزراعية و ٦٥% من النشاط الصناعى و ٩٠% من قطاع السياحة، هل أصابتك هذه الأرقام بالقلق على بلدك الذى يتم احتكاره عبر عائلات تحكم مصر فى السياسة والاقتصاد، ضع هذا إلى جانب أن الرئيس مبارك والسيدة قرينته والسيد ابنه يتحكمون ويحتكرون ١٠٠% من سلطة الدولة والحزب والوزارة، وصار المواطن المصرى مفعولا به لا فاعلا، تابعا لا قائدا، مطيعا لا آمرا، عاطلا لا عاملا، مسروقا لا مستورا، وهذا أمر طبيعى جدا فما هو مصير شعب تم احتكاره سوى أن يتم احتقاره!.

درع النبى

لم أصدق أبدا أن النبى صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودي؟

درع النبى، سلاحه فى الحرب والقتال يسلمه رهنا ويتنازل عنه فقرا ولمن، ليهودي؟

أنا أقول لك: إن هذا مستحيل؟ ستقول: إن هذا حديث فى البخارى، على عيني ورأسى البخارى لكن النبى لم يرهن سلاحه لا فى حياته ولا قبل وفاته ولا ليهودى ولا مجوسى!

لنعود للحديث المنسوب للسيدة عائشة رضى الله عنها فى صحيح البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد، قالت عائشة:

(توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير).

وفى مسند أحمد من حديث أنس نجد جملة إضافية على كلام عائشة: (فما وجد لها ما يفتكها به).

أى ما وجد للدرع ما يفتكها به (ويفتكها هنا بمعنى يفك رهنها) من اليهودى وتوفى على ذلك (صلى الله عليه وآله)؟!

وفى حديث الترمذى عن ابن عباس وأنس:

أن الدرع رهننت بعشرين صاعا؟.

وليس بثلاثين؟. وفى أحمد:

بوسق من شعير؟.

ولا أستطيع أن أصدق هذا الكلام ولا يدخل عقلى على الإطلاق كما أنتى لا

أفهم سره، فالمؤكد أن النبى صلى الله عليه وسلم فى أيامه الشريفة الأخيرة لم يكن

محتاجا فقيرا يمد يده لأحد حاشا لله أن يمدها طلبا بل يمدها عطاء ومنحا، فهناك نصيب النبي صلى الله عليه من غنائم الحروب والغزوات وهو ما يشكل رصيذا للإلتحاق النبوي سواء على المعاش اليومي أو التصدق والتكرم على فقراء ومحتاجي المسلمين بل والهدية والتهادى كذلك، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ملكا يتطلب عرشه مالا وأمواالا ونفقات ومصروفات، بل كان نبيا عظيما يعطى المثل والمثال في التقشف والرضا فلم تكن احتياجات بيته كبيرة متضخمة لا تسدها الموارد حتى أن تفرغ غرف زوجاته من عشرين أو ثلاثين صاعا من الشعير، فضلا عن إن النبي صلى الله عليه وسلم كان في تلك الشهور الأخيرة من حياته يعد جيشا بقيادة أسامة بن زيد لغزو الروم فكيف لقائد يجهز جيشا أن يرهن درعا أو يبقى على درعه مرهونة ؟ ثم لو افترضنا أن النبي في حاجة ماسة لثلاثين صاعا من الشعير (حوالى ١١٥ كيلو شعير) فمن باب أولى أن يرهن أو يقترض من ملياديريات الإسلام الصحابة العظام الذين كانوا موجودين على ذات الأرض ودعموا ومولوا وساندوا دعوة الإسلام بأموالهم وثرواتهم؛ فهناك عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه وهو من هو فى الغنى والثراء بل هو الذى قام بتمويل جيش النبي وبعض من غزواته بل وجيش أسامة بن زيد نفسه، فهل يعرف الصحابة وأثرياءهم سواء ابن عوف أو عثمان بن عفان أو طلحة الخير بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رهن درعه (دعك حتى ليهودى أو لغيره) ويسكتون بل يسارعون لفك الرهن وتقديم الأموال (والثلاثين صاعا من الشعير) للنبي وأهله!

ثم إن النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) فى سنواته الأخيرة وما بعد فتح مكة قد بدأ حربا شاملة على اليهود الحونة فى المدينة المنورة وخاصة من قبائل خيبر وقريظة ليس فقط لأنهم خانوا النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) حين نقضوا وأخلوا بالاتفاقية المبرمة بينهم فى المدينة المنورة والتي نصت بعض بنودها بعد التأكيد على حرية وحق الإقامة لليهود وحرية دينهم وشعائرهم، قد أقرت معاهدة مواطنة مدنية من طراز رفيع تقول مادة فيها (وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصيغة - المعاهدة - وأن بينهم النصح

والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لا يأثم امرؤ بجليفه وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين) لم ينقض اليهود معاهدة ودستور المواطنة فقط بل كذلك تجسسوا على النبي وجيوشه وجنوده وتحالفوا مع أعدائه وحاولوا اغتياله فما كان ممكنا إلا الحرب الضروس ضدهم (لم يمنع ذلك من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعاد صحائف التوراة التي كان يهود خيبر يحتفظون بها، فقد ردها النبي لهم بعد استيلاء المسلمين عليها احتراماً لحرية العقيدة، ويمكن الرجوع إلى تفاصيل أوسع في كتاب الدكتور محمد سيد طنطاوى بنو إسرائيل في القرآن والسنة)، كل هذا يؤدى إلى السؤال الكبير هل يمكن أن يرهن والحال هكذا نبى الله درعه عند يهودي؟!.

ثم تأتي علامة الاستفهام الأهم (وربما علامة التعجب) إذا كان النبي قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي فما مصير هذه الدرع؟ فلم نجد كتابا ولا سيرة ولا تاريخا حكى لنا عن أبي بكر الصديق وقد استرد الدرع وسدد رهنها ولا عن عمر بن الخطاب أنه أعاد درع النبي من اليهودي خصوصا أنه أجلى آخر من تبقى من اليهود في الجزيرة العربية عنها، وقبلها إمام المتقين على بن أبي طالب ابن عم النبي ودره أهله وزوج ابنته أيسكت عن رهن درع النبي وحاجته لثلاثين صاعا من الشعير لأكل أهله؟!، أيعقل؟

لا يستطيع أحد أن يتصور أن رهن النبي للدرع -إن حدث- كان سرا بل يتباهى به اليهودي قطعاً وينشر خبره ليصل إلى المسلمين، ثم لو افترضنا أن الدرع فعلا كانت مرهونة، أيصمت على بن أبي طالب بعد وفاة النبي ولا يسترد درعه من اليهودي أو أهله لو كان اليهودي قد مات؟، أما أن تسكت كتب التاريخ جميعا عن سيرة الدرع ولا تذكر لنا إطلاقا مصير هذه الدرع وهى التى لم تدع شعرة للرسول إلا وتبعتها فمعناه أن درع النبي صلى الله عليه وسلم ظلت موجودة عند اليهود! أبدا ولا يمكن، ما كان النبي ليفعلها وما كان ابن عوف ليتفرج على حاجة نبيه ويسكت وما كان إمام المتقين على بن أبي طالب يسكت على رهن درع نبيه وابن عمه ووالد زوجته أو على بقائها فى يد يهودي أو غيره!

ليقل البخارى ما يقول لكنها رواية لا تصح ولا يجب أن تصح، لا تاريخاً ولا عقلاً ولا نقلاً وبملاك من الثقة أن نقول: إن النبي الذي تركنا على المحجة البيضاء لن يترك لنا مغزى ومعنى يقضى بجواز رهن سلاحنا لدى أعدائنا، ثم هل الغرض من تلك الرواية أن يبدو اليهود وكأنهم كسروا عين المسلمين وكبرياءهم فهذا الدين الذي انتشر وهذا الإسلام الذي طردهم من المدينة المنورة وهذا النبي الذي انتصر، رهن درعه لديهم فهم طرف أعلى ويد عليا فوق الإسلام والمسلمين!

ثم إننا عندما نقرأ في السيرة النبوية حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى ابنته خير نساء الأرض السيدة فاطمة رضی الله عنها في اللحظات الأخيرة قبل وفاته لا نجد ولا نعثر على وصية للنبي صلى الله عليه وسلم لها أن تفك رهن درعه، الوصية والحوار لم يكن فيها فك رهن ذلك الدرع ولم تأت الزهراء الجليلة على ذكره، كما أنه لم يثبت -كما قلت- أن الإمام على بن أبي طالب وأهل بيت النبوة قاموا بفك رهن الدرع المزعوم بعد وفاة الرسول الكريم (انظر السيرة النبوية لابن هشام وكذا حياة محمد لمحمد حسين هيكل).

ومع احترامى الشديد لاجتهاد العلماء من وراء هذه الرواية بأن أفتوا بجواز الرهن مع اليهود (والمسيحيين) وجواز تمكين الذمي من السلاح (..) فرمما تكون الفتوى طيبة سائغة ومقبولة لكن أصل الرواية مشكوك فيه ومرفوض فيما أظن، قد نستدل بشراء الرسول السلاح من يهود المدينة على جواز التعامل مع أهل الكتاب في البيع والشراء للأسلحة وربما نستدل بالمواثيق والعهد النبوية مع اليهود على جواز الصلح معهم، لكن هذا لا علاقة له برهن النبي لدرعه، وهى رواية وحديث نرى فيه ما نراه فى حديث آخر بدا وكأنه قاطع ومحسوم بينما الدخول بالعقل إليه يحتم نفيه بل وأقول رفضه بداهة، ففي البخارى ومسلم (بينما لم يروه فى أى كتاب حديث آخر من كتب الحديث التسعة). قال البخارى حدثنا عبد الله بن محمد المسندى قال حدثنا الحر مى بن عمارة قال حدثنا شعبة عن واقد بن محمد قال سمعت أبى يحدث عن ابن عمر أن النبي قال:

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله). وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة أن النبي قال (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله)، ولعل ما وصل إليه الباحث الدكتور محمد حازم دعبس في كتابه الضخم «النبع الصافي» عن هذا الحديث يضيئ ما نقول؟ فهذا الحديث يؤكد مقولات تصدر من غرب وشرق أن الإسلام انتشر بالسيف ولعل هذا الحديث دليلهم الدامغ على اتهامهم السافر، ورغم ذلك اتفق الشيخان (البخارى ومسلم) على صحة الحديث رغم غرابته ورغم عدم وجوده في أى كتاب آخر. (وقد استبعد بعض العلماء صحة الحديث). ويقول الدكتور حازم دعبس إنه قد حاول علماء أهل السنة تبرير الحديث لأنه ورد في البخارى ومسلم فقالوا لعل الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة من أهل الكتاب جاء متأخرا عن الحديث. فإن صح ذلك يكون الحديث قد نسخ بحكم الجزية والمعاهدة!!

وقالوا أيضا لعله من العام الذى خص منه البعض. أو من العام الذى أريد به الخاص. فيكون المراد من قوله: أقاتل الناس أى المشركين من غير أهل الكتاب؟؟. لكن الواضح الجلى أن هذا الحديث يتعارض مع الآيات المحكمة فى كتاب الله ويتعارض مع فعل رسول الله من قبول الجزية من أهل الكتاب ومعاهدة المشركين!! قال سبحانه فى سورة البقرة:

«لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم».

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الممتحنة:

«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين».

لم يتلق النبي الكريم أمرا بقتال الناس وقتالهم بل كانت الأوامر القرآنية واضحة جلية فى (لكم دينكم ولي دين)، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) كذلك القاعدة التامة المتممة (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

الحقيقة أنه بينما تغضب من الإهانات التي تلاحق الإسلام والمسلمين من بعض متطرفي الغرب والصهيونية زعماً بأن الإسلام دين العنف والدم والغزو فإن العقل المسلم الذي يعيش الآن ويسيطر على ساحات الدعوة والوعظ (التليفزيوني وفي خطب الجمعة وكتب السخافة والتسطح) وبما يردده ويذيعه ويصدقه الناس يثبت أننا نعاني فعلاً من سقم فكري وبلادة عقلية وانحراف عاطفي وسأعود إلى عالمي الأثير الدكتور محمد المهدي أستاذ الطب النفسي وهو يشرح في دراسته عن (البناء النفسي للمسلم المعاصر) أنواع التدين المرضى الذي يصيب الإسلام في مقتل بينما يظن أنه يدافع عنه ويحميه ويقويه، فيكتب الدكتور المهدي: (ونخص بالذكر هذه الأنواع التالية من التدين المرضى:

أ - التدين النفعي (المصلحي): حيث يلتزم الشخص بالكثير من مظاهر الدين الخارجية للوصول إلى مكانة اجتماعية خاصة أو تحقيق أهداف دنيوية شخصية. وهذا الشخص يستغل احترام الناس للدين ورموزه فيحاول كسب ثقتهم ومودتهم بالتظاهر بالتدين ويسخر الدين لخدمته، وتجده دائماً حيث توجد المكاسب والمصالح، وتفنتقه في الحن والشدائد. ب - التدين الانسحابي (الهروبي): وهو يحدث في الأشخاص الذين يشعرون بالعجز في مواجهة متطلبات وضغوط الواقع فيلجأون إلى الدين احتفاءً من مواجهة الصعوبات التي عجزوا عن مواجهتها، وإيثاراً للراحة في ظل بعض المفاهيم شبه الدينية، فتجد الشخص من هؤلاء قد أهمل دراسته أو عمله أو مسؤولياته وتفرغ لممارسة بعض الشعائر الدينية التي لا تتطلب جهداً أو مشقة، وهدفه - غير المعلن - من ذلك هو تغطية قصوره وعجزه والهرب من المواجهة الحقيقية والشريفة مع الواقع. ج - التدين الذهاني: ويظهر في بعض المرضى النفسيين حيث يصطبغ المرض ببعض المفاهيم شبه الدينية الخاطئة فيعتقد المريض ويعلن أنه ولي من أولياء الله، أو أنه نبي بعث لهداية الناس، أو أنه المهدي المنتظر، ويتصرف على هذا الأساس وهذه الحالات تحتاج إلى العلاج الدوائي والنفسي. د - التطرف: وهو المبالغة الشديدة في جانب أو أكثر من

جوانب الدين بما يخرج الشخص عن الحدود المقبولة شرعاً. وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

التطرف الفكري: حيث يصعب النقاش مع هذا الشخص حول ما توصل إليه من أفكار، وينغلق على فكره فلا يقبل فكراً أو رأياً آخر.
التطرف العاطفي: حيث تصبح عواطف الشخص كلها متركزة في عاطفته الدينية، ويصبح شديد الحساسية من هذه الناحية، شديد المبالغة في الانفعال بها.

التطرف السلوكي: وهنا نجد الشخص يبالغ مبالغة شديدة في أداء الشعائر الدينية الظاهرية بما يخرج عن الحدود المقبولة شرعاً وكأن هذه الشعائر هدف في حد ذاته، لذلك نجدها تخلو من معناها الروحي. وهو لا يكتفى بذلك بل يقوم بإجبار الآخرين على أن يحدو حدوه وإذا خالفوه ربما يعتدى عليهم).

أعلم أن كلام الدكتور محمد المهدي (وهو متدين ملتحي بالمناسبة) شارح جارح، لكن المفاجأة الحقيقية أن هذه الأشكال من التدين المرضى هي التي تقود الساحة الإسلامية في السنوات الأخيرة فانتهى بنا الحال إلى دين رحب رحيم تحول إلى تدين منغلق متطرف، إسلام علم وعقل لكن مسلمين جهل وخرافة، عقيدة حرية وتقدم وعقائدين مكبلين متخلفين، دين جوهر وضمير فحولوه دين شكل وشعائر وطقوس وتمتات وهممات، وكأننا فعلاً قد رهنا درع النبي وسلمنا سلاحه لأعدائه، صحيح بعض المسلمين في حاجة إلى فضائل التقوى بينما كثير من المسلمين في حاجة إلى أقراص الدواء!

قَوْلًا لِنِنَا

لا أظن أن كثيرين منا باتوا يتذكرون يوم بكى حسنى مبارك وأدمع فى خطابه الأول على منصة مجلس الشعب حين ذكر اسم الرئيس السادات وقال إنه لم يكن يتصور أبداً فقدانه أو العمل بعده، تعاطف الناس يومها مع رئيسهم العاطفى الدامع فى لحظة تأثر حقيقية تشبه تلك التى أصابت الرئيس السادات نفسه يوم جنازة جمال عبدالناصر حتى إنه أغشى عليه ونقلوه محمولا بعيدا عن الجنازة من فرط البكاء والتأثر على جمال عبدالناصر!

تعال انظر الآن للرئيس مبارك هل هو نفسه الرجل الذى كان منذ ستة وعشرين عاما واقفا على منصة البرلمان فى أول خطبة رئاسية له، هل هو ذلك الرجل الذى نهر المصورين لأنهم أكثروا من التقاط الصور له، هل هو الذى قال فصق الناس أن الكفن مالوش جيوب، هل هو الذى قال إن مدتين كفاية قوي؟ أه، معقولة ده طلع الرئيس مبارك أول من قال كفاية!!

ومع ذلك انظر الآن وأعد البصر كرتين للرئيس مبارك وهو يعتقد أن مصر ستنهار لو مضى وتحنى عن الرئاسة وأنه يحكمنا ليس محبة فى الحكم ولا غراما بالسلطة ولا تمسكا بالنفوذ ولا تشبثا بالرئاسة بل من أجل مصلحة مصر واستقرارها، تبدل الرجل تماما على مدى ستة وعشرين عاما وقد ساهم الشعب فى هذا التبدل والتغير وفى تراجع تواضع الرئيس وتضاؤل زهده فى السلطة، ساهم حسنى مبارك نفسه فى تغيير نفسه وشاركه صفوت الشريف وزكريا عزمى وكمال الشاذلى وفتحى سرور ومفيد شهاب ومصطفى كمال حلمى وإبراهيم نافع وسيمى رجب وإبراهيم سعدة وكل وزراء الداخلية ومديرى جهاز أمن الدولة، كل هؤلاء الذين استفادوا بالبقاء فى الحكم وتحت ضوء ونفوذ وفلوس السلطة هم الذين

شاركوا مع الرئيس في تحوله من الرئيس المتواضع الزاهد في السلطة والسلطان إلى الرئيس الأبدى المستبد، (يفسر الباحث نبيل هلال في كتابه «الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين» مصطلح الاستبداد السياسي بأنه هو الاستيلاء على السلطة والاستئثار بها ومنع تداولها سلميا وإساءة استغلالها والتوصية بها لابن ولأخ أو من يختاره المستبد بنفسه والاستبداد هو مصادرة حق الأمة في أن تختار بنفسها من يحكمها وحرمانها من أن يتولى قيادتها أصلح أبنائها من الذي تجمع عليه إرادتها وفي ذلك مصادرة لحق كل مواطن، أى مواطن في أن يتولى قيادة الأمة إن أرادت ذلك وصلاح هو.) وستسألني وهل سطا مبارك على السلطة؟ أجيب وبماذا تسمى الـ ٩٩% والـ ٩٨% وتعديل خصوصى ملوكى تفصيل عند جورج آرمانى للمادة ٧٦ فى الدستور، ألا تسمى التزوير سطوا على السلطة أنا أسميه اغتصابا للسلطة وللوطن؟!).

ثم إن هذا الشعب الذى يلعب دور الضحية الآن هو الذى صنع قبل الجميع وبعدهم بخوفه وجزعه وخضوعه وسكوته ونفاقه فرعونية وفرعنة الحاكم، تحول الرئيس من الرئيس المواطن إلى الرئيس الفرعون! فانتهى بنا الأمر إلى ما نحن فيه الآن من رئيس كل شيء فى الوطن لا يتنفس ولا يتحرك إلا بإذنه وسلطته، بالمناسبة أنا أكتب هذا الكلام وأنشره ليس اعتمادا على حرية يكفلها دستور ولا قانون، فهذا القانون وذلك الدستور تحت أمر السيد الرئيس وهو وحده الذى يمكنه أن يتركنا دون سجن أو قتل أو نفي أو طرد أو غلق وهو الذى يمكنه بإشارة أو إيماء من طرف إصبعه الصغير أن يرمى بنا فى جب عميق بالقانون وبالحمكة، ستقول ساعتها والله ده رئيس رحيم أقولك جازر لكنه ليس ديمقراطيا، فلا توجد ديمقراطية تسمح أن تصبح الحرية فى يد رئيس يمنحها لمن يشاء ويمنعها عن من يشاء، لا يوجد قانون فى بلد يتم استخدامه حسب رغبة الرئيس (فى الوسطين السياسى والصحفى يخافون حتى من أن يسموا الأشياء بأشياءها فيقولون عن الرئيس مؤسسة الرئاسة وينسبون القرارات والأوامر الغليظة التى تصدر عنها بأنها قادمة من زكريا عزمى كمن يهاجم الحجاج وينسى يزيد!).

لهذا كله لن يغير الرئيس مبارك مواد الدستور ولن يتنازل ولو بشبر ليلبي مطالب ونداءات واستغاثات الناس بأن يعدل المادة ٧٦ ويجعل انتخابات الرئاسة مفتوحة بين متنافسين حتى لا يحول دون انفراد ابنه بالترشيح، ولن يغير المادة ٧٧ التي تسمح له ولغيره بالحكم مدى الحياة ولن يغير شيئاً لأنه ليس محمد حسنى مبارك ١٩٨١ بل هو محمد حسنى مبارك ٢٠٠٧، كيف يتراجع ويتنازل، كيف يتراجع ويتواضع، كيف يمثل لإرادة الجماهير وهو يرى أنها تعيش من فضلة خير حكمه، كيف يرحم مصر وهو يراها ستمت لو ترك حكمها؟!

وكيف تفرض عليه أن يفعل ونحن شعب خامل بعد ستة وعشرين عاما من حكمه بالحديد والنار والإغواء والإغراء والطوارئ والتعذيب والاعتقالات والنفخ في الأقسام والسجون وبانتشار الرشوة بين الناس وبانسحاق الفقراء وسطوة الأغنياء، كيف تفرض عليه شيئاً؟!

هذا ليس بثا لليأس في النفوس بل استنهاضا للمهم برفض ما هو كائن وفرض ما سيكون!

لقد نجح جمال عبدالناصر في طرد الإنجليز من مصر..

ونجح أنور السادات في طرد الإسرائيليين من مصر..

ونجح حسنى مبارك في طرد المصريين من مصر..

نعم طرد المصريين من مصر، طرد روح المصريين وليس أجسادهم، إرادة المصريين وليس أبدانهم، طرد كبرياء المصريين وعزتهم وكرامتهم! والمطلوب والمفروض والمحتوم هو عودة هذه العزة في مواجهة الطغيان الذى اختصر الوطن فى اسمه ولخص الشعب فى ضغمة حاكمة تحيطه وتحرسه من الناس ومن الحقيقة! لقد حول الوطن العربى انتخاب الرئيس إلى استفقاء عليه وحده حتى ولو كان انتخابا من بين مرشحين ومنافسين، انظر لليمن السعيد ومصر السعيدة وتونس المسعدة حيث شعار الحكام أنه لا يوجد أحد يمكنه منافسة الآلهة (من المجنون الذى يتصور أنه سيكسب انتخابات فى مواجهة فالحق الإصباح والنوي؟) الحاكم ومنافقوه وسجانوه حولوا الانتخابات إلى مبايعة وبيعة كأنها القرون الوسطى أو

كأنها القرون من غير وسطى!

ثم نأتى إلى السؤال الجوهرى فى المأساة الملهاءة الحالية وهو: لماذا لا يريد الحكام ترك مقاعدهم وهناك أكثر من إجابة يمكن أن تختار من بينها الإجابة المناسبة:
أ - لأن الحاكم يصاب بفعل نفاق من حوله وخوف من تحته بحالة من الإحساس بالعظمة بحيث لا يتصور أنه يخطئ أبدا ويرى فى نفسه من أثر نفاق الصحافة ونفخ الإعلام وتذلل الساسة وتعبد المسئولين، أنه إله ونبي ملهم ويوحى إليه.

ب - لأن الحاكم يخشى إذا ما رحل عن مقعده أن يحاسبه من يخلفه أو يحاسبه شعبه على فساده هو وأسرته وأولاده (وربما جيرانه!!) ويخرج من القصر إلى السجن..ومن كرسى الحكم إلى حبل المشنقة!

ج - لأن الحكام السابقين له فعلوا ذلك وبقوا فى الحكم حتى ماتوا وهو ليس أقل منهم بل هو (كما يقرأ فى افتتاحيات صحف بلاده الحكومية كل صباح وتلك التى تهنئه بعيد ميلاده!) أعظم وأحكم!!

لقد كان الرئيس السادات رحمه الله يغضب ويزعق إذا ما وصل إلى مسامعه كلام خشن الذى كانت المعارضة تردده ضده وضد سياساته وبعضه كان قصائد شعر مدوية وبعضه كان نكتا وبعضه كان نقدا سياسيا عميقا وجذريا فأياهما كانت هناك معارضة حقيقية وكان هناك معارضون شجعان يقولون حقا حتى لو كان خشنا ويتحملون خشونة الثمن الواجب دفعه، عموما وكما كتبت فى كتابى (أذهب إلى فرعون) فقد قال الرئيس السادات للمفكر الكبير دكتور سعد الدين إبراهيم (كما حكى لى د.سعد الدين) إن المعارضة دى قليلة الأدب ولا تعرف تخاطب رئيس الجمهورية حيث يجب أن يلزموا حدودهم.. ثم ضرب السادات مثلا بالقرآن الكريم فى سورة طه، حين خاطب المولى عز وجل النبي موسى وهارون أخاه آمرا: (أذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَنذَرُ أَوْ يَخْشَىٰ) (آية ٤٣ و ٤٤) شايف يا سعد حتى ربنا قاللهم كلموا فرعون بلين وبأدب.. ده فرعون برضه!! والغريب أن الرئيس السادات بينما كان يطلب الرفق واللين فى

مخاطبته طبقا للآية القرآنية فإنه اعترف طبقا للآية نفسها أنه فرعون وأنه طغى.. ولعل الرئيس السادات كما روى عنه الراحل العظيم أحمد بهاء الدين (في كتابه محاوراتي مع السادات)، كان واضحا مع نفسه تماما حين قال له: أنا (أى السادات) وجبال (عبدالنصر) آخر الفراعنة، وأغلب الظن عندى أن السادات هو آخر فرعون لا يرى بأسا من إعلان فرعنته.. لكن شجرة عائلة الفراعنة لا تتوقف عن النمو والولادة والشجرة ذاتها نمت وترعرعت وشعشت فراعنة كبارا ومبتدئين!

لكن هذه الأفكار ذهبت بي إلى تفسير القرآن الكريم ولسورة طه حيث الآية الكريمة التي استشهد بها الرئيس السادات رحمه الله لفهم فعلا هل يأمر الله موسى ومن ثم عباده أجمعين بالقول اللين للفرعون الطاغى؟! خصوصا أن الأرض المصرية تعلم أبناءها معاملة الحكام الطغاة على أنهم آلهة وفراعنة يجب أن نكون محذيين مؤدبين أمامهم نركع لهم بالكلمات إن لم يكن بالرأس والقامة، نسجد لهم نفاقا بالمدح والتقديس إن لم يكن بانحناء الرأس وغمسها في التراب، نتلمس عند حكامنا الطغاة الحكمة والوحي!

يقول الإمام القرطبي في تفسيره إن القول اللين يوجه «لمن معه القوة وضمنت له العصمة» أو «إذا كان الكافر وجيها ذا شرف وطمع في إسلامه وقد يجوز ذلك وإن لم يطمع بإسلامه» وقيل «إن القول اللين قول موسى يا فرعون أنا رسول ربك فأسماء بهذا الاسم (فرعون) لأنه أحب إليه مما سواه» وفي تفسير ابن كثير «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالْإِسْتِكْبَارِ وَمُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ وَمَعَ هَذَا أَمَرَ أَنْ لَا يَخَاطَبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ وَاللِّينِ وَعَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا» قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا» أَعْدِرَا إِلَيْهِ قَوْلًا لَهُ إِنَّ لَكَ رَبًّا وَلَكَ مَعَادًا لِأَنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةً وَنَارًا، وَقَوْلُهُ «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» أَيْ لَعَلَّهُ يَرْجِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَكَةِ أَوْ يَخْشَى أَيْ يُوْجِدُ طَاعَةَ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ. وَرغم هذا التفسير الذى يبين ويفصح عن

رقة ولين كانتا مطلوبتين من موسى وهارون تجاه فرعون إلا أننى أظن أن القول اللين لفرعون مرده أن وراء فرعون شعبا هم المصريون يبقادون إليه ويطيعون أمره ويعبدون اسمه فإن أسلم فرعون أسلموا جميعا ومن ثم كسب موسى بقوله اللين شعبا وأمة (وهو ما لم يحدث) ومع ذلك فإن موسى وهارون أجابا أمر الله تعالى بقولها «قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى» معنى هذا الرد أنها كانا يعلمان أن فرعون لا ينفذ معه قول لين ولا خشن بل ربما يفرط أى يعجل ويعتدى ويبادر بعقوبتهم ومع ذلك تأمل ماذا قال فعلا موسى وهارون حسب آيات الله عز وجل فى قرآنه الكريم؟ قالوا حسب الأمر الإلهى (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ، إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ) سورة طه آية ٤٧، ٤٨، هل تأملت معى هذا القول اللين؟ ما أوضحه! وما أقواه، إنه مباشر ومستقيم، حاد ومبين، إذن القول اللين هو هذا، ما أجمله! فهو ليس محادنة ولا لفا ودورانا بل المعنى الأمين بلا مجاملة ولا تجميل، ثم وهذا هو الأهم فقد ثبت بآيات الله المعجزات أنه لا ينفذ مع فرعون إلا الغرق!!

ما أريد أن أقوله إن النظام فى مصر لن يسمح بالتغير أو التغير فى الدستور أو فى طرق الانتخاب إلا بأعلى (أو بالأحرى أوطى) وسائل التحايل والتلفيق حتى يتمكن هذا النظام بصادته وساسته ورجاله من البقاء فى الحكم، أما الرهان على تعقل النظام أو اعتداله وعلى القول اللين فهو رهان مقامر فاشل، والذى يتصور أن الرئيس سوف يتنازل عن أبدية حكمه أو انفرادة بالترشيح للرئاسة واهم تماما حتى ولو استجدى ولو شحذ وتسول من الرئيس العطف والتعاطف، الكرم والتكرم، فالشعوب لا تحصل على حقوقها بهذا الأداء المتمسكن المستضعف الذى يتم على طريقة «وتفضلوا بقبول فائق الاحترام»، لكن فى مصر التى دخلت معارضوها الحضائر منذ ربع قرن وتعلم رجالها الركوع فى غير اتجاه القبلة لم يتعلموا أبدا أن المهاودة والمهادنة مع السلطة المتجبرة الغاشمة لا تأتى بنتيجة إلا على دماغ الشعب والأمة، وأن ستة وعشرين عاما من مناشدة الرئيس انتهت بأن مصر فى

قاع الدول وقد فقدت في الداخل القوة والهيبة وبقى منها البطش والغشومة
وفقدت في الخارج القيمة والقيم وها هي الدولة الكبيرة في المقام وقد تحولت إلى
دولة كبيرة في السن ينطبق عليها ما ينطبق على الدول المسنة من الشفقة وليس
هناك أسوأ من تصابي العجائز سوى تصابي الدول!

المغيرة يعيد نفسه!

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد عزل المغيرة بن شعبة عن ولاية الكوفة لأن قوما شهدوا عليه أنهم وجدوه على ربية مع امرأة. أى أنهم شاهدوه يضاجع امرأة غير امرأته وهى مسألة عجيبة أن يضاجع والى الكوفة شخصيا امرأة على مرأى ومسمع من أربعة رجال كأن فى هذا حماقة تشبه الهوس أو إهمالا يقارب الهطل، لكن الغريب أن الواقعة حدثت لم ينكرها المغيرة ولكنه فقط قال إنها زوجته، لكن أربعة شهود أقروا أنهم شاهدوه يواقع امرأة غير امرأته أى يلزم تطبيق حد الزنى عليه لكن المغيرة بن شعبة أصر أنه قد التبس الأمر على الناظرين لشبهه بين المرأتين (أى شبهه؟ أين كانوا ليتحققوا من ملامح المرأة، ثم ما أوجه الشبه فى لحظة مثل هذه بين امرأتين؟) وصمم المغيرة أنه كان مع زوجته وهى واقعة من أغرب وقائع التاريخ الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب وتروى بعض كتب التاريخ أن سيدنا عمر قد حاصر الشهود حتى أربكهم فلم تثبت التهمة حيث تراجع شاهد وهو محمد بن أبى بكر عن الشهادة (وهو بالمناسبة راوى الحديث المنسوب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم الذى يقول إنه لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة!) وقال الشاهد: إنه يشك فيما رآه، فجلده عمر (جلد الشاهد) وأعفى المغيرة بن شعبة من التهمة لأنها لم تثبت عليه ثبوتاً يوجب إقامة الحد (الحد يستوجب شهادة الأربعة) لكن التهمة أيضاً لم تسقط عن المغيرة سقوطاً يزيل الشبهة فكان الأمر يستحق هذا القرار العسمى بعزل المغيرة بن شعبة وأبقاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه زمناً بغير عمل على الإطلاق كأنه يريد استنابته حتى قرر أن يعيده فدعاه إليه وشدد عليه أن يتجنب الشبهات ثم ولاه الكوفة مرة أخرى وهو أمر يستدعى الدهشة من إصرار عمر على تولية الرجل الذى لم تمنعه مكانته من إتيان امرأة فى وقت ومكان يسمح لآخرين أن يروه بل ويتحققوا من

الفعل كله، لكن يبدو أن دهاء المغيرة وقدرته السياسية جعلته رجل دولة لا يستغنى عنه عمر بسهولة دعتة إلى الحفاظ عليه من تطبيق الحد كما يذهب في ذلك عدد من المؤرخين (يمكن العودة إلى كتب الطبرى وابن كثير في التاريخ فضلا عن كتاب العظيم عباس العقاد عن معاوية وكتاب الدكتور طه حسين عن الفتنة الكبرى) فلما تولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة عزل المغيرة وعندما قتل عثمان وبوبع لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه بالخلافة فى المدينة ذهب إليه المغيرة بن شعبة للتقرب إليه زلفى ونصحته أن يقر معاوية بن أبى سفيان المطالب بدم عثمان بن عفان على ولاية الشام ليدين له بالولاء وبعد أن تمر الأزمة يعزله متى شاء لكن الإمام على بن أبى طالب رفض أن يقره على ذلك وبعد أن انتهت الأمور بمقتل سيدنا على بن أبى طالب قرر المغيرة بعد رجحان كفة معاوية أن يذهب إلى الشام وينتمى لحزب معاوية فولاه إمرة الحج وكان المغيرة بن شعبة ينظر إلى ولايته الأولى للكوفة كما نظر عمرو بن العاص إلى ولايته الأولى لمصر بمعنى أن ولاية الكوفة كانت محمة وعزيزة وقريبة وتمثل طموحا دائما وحلما مراودا للمغيرة بن شعبة مثلما كانت مصر لعمرو بن العاص فلما أراد معاوية أن يعهد بولاية الكوفة وقد أصبح أميرا للمؤمنين وخليفة للمسلمين لعبد الله بن عمرو بن العاص وهو من الأتقياء الأتقياء فى التاريخ الإسلامى تدخل المغيرة بن شعبة بدعائه وذكائه السياسى وقرر أن يخوض فى الأمر بكل ما يملك من فطنة وسياسة وطموح لولاية الكوفة فذهب إلى معاوية بن أبى سفيان وقال له: «أستعمل عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ووالده على مصر؟ إنك بين نابى الأسد» فاستمع له معاوية وعزل عبد الله بن عمرو وولى المغيرة مكانه على الكوفة فسمع عمرو بهذا الخبر وتلك المكيدة فردها بمثلها فلم يطلب إعادة ابنه عبد الله إلى ولاية الكوفة وإنما قنع بجرمان المغيرة من ولاية الخراج (جباية وجمع وتحصيل وتوزيع الأموال، وزارة المالية يعنى) فقد قال للخليفة الجديد معاوية: «إنك تستعمل المغيرة على الخراج فىأخذه ولا تستطيع أن تتزعه منه فأرى أن تولى على الخراج رجلا يخافك ولا يبالى بأحد إلا بك وتؤمر المغيرة بن شعبة على الصلاة والإمارة فلا يقوى

عليك بغير مال» فكانت الاستجابة من معاوية واتبع مشورة عمرو فهي لم تكسبه السيطرة الكاملة على أموال الكوفة فحسب وإنما أربحته عداً وتنافس المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص أيضاً وهو لا يستطيع أن يأمن أن يتحالف الاثنان عليه ثم استقر الأمر لمعاوية ومرت الأيام ولم يعد يهتم بالمغيرة فقرر عزله وعندما وصل المغيرة بن شعبة أن معاوية قرر عزله ليصبح أسداً بلا أنياب أشفق المغيرة على نفسه من مذلة العزل فأثر أن يذهب إلى معاوية بن أبي سفيان وأن يدافع عن نفوذه وسلطته وكيانه وذهب إلى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ ولكنه لم يلتق بمعاوية وإنما التقى بابنه يزيد الأمير المرفه ابن الخليفة الذي لم يشتهر بعلم أو تقوى بل كان سكيراً عريداً لا يعرف له أحد فضلاً ولا علماً. التقى المغيرة بن شعبة بيزيد بن معاوية ووسوس إليه أن يطلب إلى أبيه تسميته لولاية العهد وبدأ المغيرة أول خطوة انهيار كبرى في تاريخ المسلمين لمجرد رغبته في الاستمرار في منصبه. بدأت فكرة ولاية العهد وتحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضود وإلى ملك وراثي، وإلى ديكتاتور كبير يورث ابنه الديكتاتور الصغير وتحولت الأمة الإسلامية من خلافة الشورى والانتخاب والديمقراطية إلى المملكة المستبدة الأبدية لأن شخصاً أراد أن يظل والياً على إمارة ومحافظاً على منصب وثروة، (تذكر معي النساء اللاتي كن خادماً للديكتاتورية حين قدمن اقتراحاً في البرلمان المصري بتعديل الدستور ليصبح الرئيس رئيساً مدى الحياة؟ وتأمل معي من الذي ينصح ويتناصح ومن أجل مقعد وزير أو ثروة ومال ونفوذ يدفع من أجل توريث مصر وتحولها من جمهورية إلى مملكة!). رجل ذكي قرر أنه لا خير من بيع الأمة كلها مقابل أن يظل في مكانه، في مقعده، في سلطته ولتذهب الأمة كلها إلى الجحيم، إلى التوريث، قال المغيرة بن شعبة إلى يزيد بن معاوية: «إن أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا وبقي الأبناء وأنت أفضلهم فلا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة» فلمعت المسألة وبرقت في عين يزيد وقال له: «أترى ذلك ممكناً؟» فقال المغيرة بن شعبة: «نعم». ما حدث بعد ذلك طبعي ومنطقي وهو أن دخل يزيد على أبيه معاوية بن أبي سفيان وأخبره بمقالة المغيرة فأرسل

معاوية في طلب المغيرة من فوره ليناقشه في حقيقة الخبر والعرض الذى قدمه إلى يزيد فقال له: «ما هذا الذى تقوله ليزيد؟» فقال المغيرة: «إني يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان ويزيد منك فأحضره واعقد له البيعة فلا تكون فتننة» فقال معاوية: «ومن لى بهذا؟» فقال ابن شعبة: «أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بين هذين المصرين أحدا يخالفك» طابت الفكرة في ذهن معاوية واستوت فأمره أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته في ذلك. ويرجع تحديد ابن شعبة للبصرة والكوفة إلى أن العراق كان هوام منذ اللحظة الأولى مع على بن أبى طالب وكانت تنتصر له صحيح أنها خذلتها هذا الخذلان الكبير لكن ظلت هذه المشاعر والقناعات لدى أهل العراق لذا كان تركيز المغيرة بن شعبة على هذين المكانين باعتبارهما من بوئر الخطر. أما المشهد الجلل في التاريخ الإسلامى فكان عندما جمع معاوية بن أبى سفيان أمراءه ورجاله ليستفتيهم في عقد البيعة لابنه يزيد باعتبار أن ما يفعله سينقذ الأمة الإسلامية من الفوضى (..) وسفك الدماء والاضطرابات في هذا التوقيت الحرج والظروف الدقيقة والعصيبة للدولة التى يستهدفها الأعداء (نفس الكلام، نفس الكذب، نفس النفوس). ولتقرأ المشهد كما نفهمه من كتاب المفكر عبدالله العلايلى (من أيام النبوة) إذ يقول: كان معاوية قد وجه دعوة عامة إلى أمراء الأمصار، فاجتمعوا لديه ينتظرون سماع المفاجأة التى جمع لها معاوية كل هؤلاء السادة والساسة والولاة والأمراء وما هى إلا لحظات مرت كالدهر وتكلم المغيرة بن شعبة، وكانت السن قد كبرت به وبدلا من أن يحترم شيخوخته إذا به كما عهدنا من كل صاحب سلطة ومقعد أن يظل حتى النفس الأخير، حتى اللفظ الذى يسبق نطقه بالشهادة، يظل منافقا للحاكم (كم مسن في حياتنا المصرية يلتصق بالحاكم وينافقه كأنه في حزن الختام لا حسنه، كأن لا أحد يتعظ بأقول عمره بل يتشبث حتى ساعاته الأخيرة بالحكم والسلطة والنفاق، لم يكن صوت المغيرة يتضح أو يبين، لكنه كان حاسما ومصمما حين قال: تعرفون أنكم الأقرب لأمير المؤمنين، فعليكم يعتمد، وأتم البطانة التى عليها يتكل، فصالحكم مرتبطة، وأمركم بأمره

متصل، وقد اتجه رأى الأمير معاوية بن أبي سفيان إلى أمر خطير أحب أن يفاوضكم به، ويستشيركم قبل أن يعتزمه ويعقده... فاشرأبت أعناقهم وتطلعوا في إصغاء مرهف، وواصل المغيرة: - رأى أمير المؤمنين أن لا يترك الناس، بعده، سدى (كالضأن لا راعى لها) وقد اختار ابنه الرشيد يزيد، ومن أكفاً بأعباء هذا الأمر منه؟! ورماهم بنظرة فاحصة متحدية، وراحوا ينظر بعضهم إلى بعض، ولنهم صمت طويل قطعه زياد بقوله: - «إن أمة الإسلام وضمان أمنها وقوتها أمر عظيم، ويزيد صاحب نزوات وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فمتهم في الأمر»، وما كاد الرجل يكمل كلامه حتى قذفه المغيرة بنظرة غاضبة صاعقة، وقال: - أكنت تظن أن المشورة هنا معناها إبداء الرأي؟ وهل نحن بحاجة إلى رأى أمثالك؟ (أنت بتستهيل يا جدع إنت وفاكرنا بنسألك بجد ياروح والدتك!!) إن المشورة معناها السماع والتنفيذ والطاعة فقط وحسب. فهب عبيد بن كعب، وكان مستشار زياد، يشرح كلامه وما قصد إليه، فقال: - نعم. هو ما تقول فليس علينا إلا السمع والطاعة، وزياد لم يرد أن يفسد على الأمير رأيه ويمقت إليه ابنه. وإنما قصد أن يخوف يزيد من خلاف الناس لهنات (ونقاط ضعف) ينقمونها وينقدونها عليه، فإن تفادها كان للأمير الحجة على الناس، ويسهل له ما يريد. فقال معاوية: نعم ما قلت، ونعم ما ذهب إليه زياد ولم يكن زمن طويل حتى أعلن ذلك في مسجد دمشق على الناس، وكان معاوية قد احتفل به، وطلب الوفود من كل الأمصار في مؤتمر عام وجلسة طارئة، (و قرأ على المجموع عهده، وفيه عقد الولاية ليزيد)، فأصيب بعض بمثل الذهول، وبعض بمثل الطيش، وكان بين هؤلاء صنائع النفاق من أعضاء الشعب والشورى ورجال المال والأعمال والثقافة والإعلام فذهبوا يطربون ويزينون، فقام الضحاك بن قيس فقال: - يا أمير المؤمنين: إنه لا بد للناس من وال بعدك، والأنفس يغدى عليها ويراح، وإن الله قال: (كل يوم هو في شأن).. ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن معدنه وقصد سيرته، من أفضلنا حلما وأحكمنا علما، فوله عهدك، واجعله لنا علما بعدك. فإننا قد عشنا الجماعة، فوجدناها أحقن للدماء وآمن للسبل وخيرا في العاقبة والآجلة

(بذمتك ودينك مش سمعت مثل هذا الكلام تحديدا ممن يناقون الرئيس من أجل توريث ابنه؟ يكاد يكون بالحرف والنقطة والفصلة!!). وقال عمرو بن سعيد: - أيها الناس إن يزيد أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عداه وسعكم، وإن طلبتم فضله أغناكم. سويق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقورع. (أى أنه سبق الجميع فى سباق القوة والمجد والمقارعة، أى مواجهة الآخرين والفوز عليهم). فقال معاوية: اجلس، أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسننت. (طبعاً، نفاق منقح ابن بلده). فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين: أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضى ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة. ثم تحمس يزيد بن المقفع، فوثب مرعداً مبرقاً، وقال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد، فمن رفض فهذا.. وأشار إلى السيف. فقال معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء..... ومن يومها يا عم الحاج كله من ده!

شالوم يا مصر!

لم نسمع من الرئيس مبارك ولا من ابنه ولا من الوزير الحقل أحمد أبو الغيط وزير الخارجية ولا من كهنة وكهان الحزب الحاكم شيئاً عن خطر إسرائيل على مصر والوطن العربي! ولا كلمة ولا حرف! ليس لأن إسرائيل عند مبارك وصحبه وأهله في الحكم دولة جارة وصديقة! وليس لأن من يحيطون بجمال مبارك لا يجدون أى مشكلة على الإطلاق في إقامة علاقات تجارة وبيزنس مع إسرائيل، وليس لأن أقرب أصدقاء الرئيس ونجله ممن يرتبطون بعلاقات اقتصادية مع اليهود والإسرائيليين، وليس لأن النظام المصرى يرتجف وترتعش ركبته من سيرة أى مواجحة ولو دبلوماسية مع إسرائيل التى يراها أقوى منا وأشد مناعة ومنعة وأسدا يملك الغابة العربية، ليس لهذه الأسباب فقط ولكن لأن النظام المصرى يدين بالفضل لإسرائيل فهى التى تدعم بقاءه وترفض الضغط الدولى عليه وتحمى التوريث وتريده وتؤيد النظام المصرى فى مواجحة الضغوط عليه واتهاماته بالاستبداد والفساد! فى ٢٧ سبتمبر الماضى استعرضت وزيرة الخارجية الإسرائيلية أمام حكومتها مواضيع سياسية فى أعقاب زيارتها الأخيرة لواشنطن ومشاركتها فى مداورات الأمم المتحدة؛ وحسبما نشرته الخارجية الإسرائيلية على موقعها على الإنترنت فقد أطلعت وزيرة الخارجية مجلس الوزراء الإسرائيلى على ما جرى فى ٣٠ اجتماعاً مع وزراء خارجية دول مختلفة، منهم عشرة وزراء خارجية لدول إسلامية أو عربية. أجرت معهم اجتماعات جماعية ومنفردة فى نيويورك وبات واضحاً خلال هذه الاجتماعات كما قالت الوزيرة أن هناك قاسماً مشتركاً بين بعض الدول العربية الإسلامية التى تعتبر التهديد الإيرانى مشكلة مشتركة لها وليس القضية الإسرائيلية. وأن «الدول العربية المعتدلة تدرك المصالح المشتركة لها مع

إسرائيل إزاء العناصر المتطرفة في المنطقة»!! وقد أضافت واستفاضت مصادر إعلامية وسياسية إسرائيلية في الحديث عن هذا التوافق الإسرائيلي المصري في مواجهة إيران والذي كان داعيا إلى ثقة الوزيرة الإسرائيلية الشديدة في الإفصاح عن أن مصر والأردن والسعودية يرون في إيران خطرا عليهم أشد من إسرائيل وجاء هذا مقدمة واضحة لحضور وزيرة الخارجية الأمريكية للقاهرة واجتماعها الشهر مع وزراء دول الخليج ومصر والأردن وتأسيس حلف عربي إسرائيلي أمريكي ضد إيران، يقول الباحث الفلسطيني أحمد الحيلة في دراسة له منشورة على موقع عرب ٤٨ (في المسألة أن تذهب هذه الدول إلى حد الشراكة مع واشنطن وتل أبيب في مواجهة مع قوى الممانعة والمقاومة في المنطقة والتي أسمتها واشنطن بقوى «التطرف»)، وهذا ما أشارت إليه بعض التقارير الصحفية المنشورة حول اجتماع العقبة في الأردن، والذي ضم رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس، ومستؤلا مصريا رفيع المستوى، وشخصيتين رفيعتين من دولتين خليجيتين يعتقد أنهما السعودية والإمارات، إضافة إلى رئيس المخابرات الأردنية الذهبى، وذلك بحضور رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية الشاباك يوفال ديسكن، إذا كان الأمر قد وصل حتى هذا التخطيط السياسى والأمنى المشترك بين من نظن أنه عدونا إسرائيل مع من نظن أنهم حكامنا فيبدو طبيعيا جدا بعدها أن تخرج علينا أصوات تنعق بأن إسرائيل ليست العدو بل إيران وأخرى تنبج بأن الشيعة أخطر من اليهود وبعضا وصل به المغالاة العبثية إلى أن الإسرائيليين أقل خطرا من الإخوان المسلمين! ووصل النظام المصرى إلى حد الغليان والكد الحقود تجاه حزب الله بعد انتصاره في حربه ضد إسرائيل إلى درجة أن عداا الحزب الوطنى ورجاله وإعلاميه وساسته لحزب الله بات أكثر عنفا وتطرفا من عداا إسرائيل شخصيا لحزب الله، لقد نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» فى ٤ أكتوبر الماضى لقاءات أجرتها مع خبراء فى الإعلام والاتصال وحاورتهم حول هذا الرابط بين حرب أكتوبر ٧٣ وحرب حزب الله، ويقول تقرير يديعوت: «الحرب ليست نفس الحرب، وهذه ليست نفس الدولة، وهؤلاء ليسوا نفس الجنود

وبالتأكيد ليس نفس العدو. ٣٣ سنة تفصل ما بين حرب الغفران وبين حرب لبنان الثانية. الأولى حرب وجود أمام الجيوش العربية، والثانية حرب اختيارية أمام تنظيم. لماذا يتحدث الكثيرون في إسرائيل هذه الأيام على إحساس مشابه للكسر في المجتمع، والصدمة؟». ويضيف التقرير: يعتقد د. دافيد غوربيتس، رئيس قسم الاتصالات في معهد الإدارة، أن حرب ٧٣ وحرب لبنان الثانية متشابهتان من ناحية التصدع الذي حصل لصورة إسرائيل القوية والمهيمنة. وقال: «لم تهزم إسرائيل في أى من حروبها ولكن تضررت صورتها كثيرا في حرب ٧٣ وفي حرب لبنان الثانية» ربما ما جاء على ألسنة الإسرائيليين هو ما يفسر هذا الهوس الدائم بالظن في حزب الله وحسن نصر الله وهذا الرخص في اتهام كل مواطن شعر بالفخر بما فعله حزب الله في عقله ودينه ومذهبه، بل صار حزب الله من هموم ومحام أجهزة الأمن المصرية الآن حتى صار أمن دولة مصر وثيق الصلة بأمن دولة إسرائيل! يقول شالوم كوهين سفير إسرائيل المخضرم لدى مصر لمجلة نيوزويك عدد ١٠ أكتوبر الماضي كانت العلاقات بين إسرائيل ومصر في أدنى مستوياتها على الإطلاق منذ سنوات. لقد كانت مجمدة بشكل أساسي. أما اليوم فهي أفضل جدا بالرغم من الحرب الضارية على لبنان الصيف الماضي، التي زادت من الحقد الشعبى على إسرائيل بين المصريين والعرب الآخرين «ها هو الإسرائيلي يعترف بما لا يعترف به رجال الحزب الوطن وجهازه لأمن الدولة.. سبحان الله». ويضيف المؤرخ الإسرائيلي مايكل بي أورن فيصف علاقة إسرائيل مع القاهرة بأنها: «أفضل من أى وقت منذ عام ١٩٨١». لقد سارع نظام مبارك للحصول فورا على تركية اليهود والصهاينة له أمام إدارة بوش بفتح حضان مصر لإسرائيل، كانت الرسالة الواضحة والعملية التي قدمها نظام مبارك ونجله، أننا مستعدون لعمل أى شيء مع إسرائيل، نحن مستعدون للتعاون الاقتصادى الفورى والكامل والمتسبب والمتساهل، وقعوا على اتفاقية الكويز التي كانوا يتملصون منها، وقعوا اتفاقية تصدير أَلغاز بمليار ونصف المليار دولار بأرخص وأبجس الأسعار بما يكاد يكون الأمر دعما لإسرائيل، وضعوا شرطة مكثفة لحراسة الحدود مع غزة،

استسلموا لقتل العساكر والجنود المصريين في رفح بدون حتى ما يحصلوا على تعويض شيكل واحد، بدأت حسب كل البيانات الإسرائيلية والدولية مشروعات اقتصادية وسياحية وزراعية جديدة مع إسرائيل، بدأ وزراء مصريون كما تؤكد المصادر الصحفية الأمريكية في السفر لتل أبيب رايح جاي، أيدت مصر علنا وبفجر وفخر غير مسبوق إسرائيل في الحرب على حزب الله، كل هذه الخدمات مجرد أن توافق الإدارة الأمريكية على التوقف عن الضغط من أجل الإصلاح السياسي! النظام المصري هنا لا يقدم نفسه لا سمح له باعتباره خادما للأمريكان والإسرائيليين بل يقدم نفسه باعتباره خادما للسلام!! بينما لا غرض لديه من تحالفه مع الإسرائيليين سوى الرضا الأمريكي عليه والذي يسمح له بالبقاء (والتوريث في الحكم)، خذ دليلا مما يقول جون الترمان مدير برنامج الشرق الأوسط في مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية ومقره واشنطن وكل إنت بمفهوميتك معنى هذا الكلام، يقول (رأيت مسئولين مصريين بارزين وهم يخوضون نقاشات صعبة مع الولايات المتحدة بشأن الإصلاح السياسي في مصر وقد زاغوا من تلك الانتقادات بالحديث عن قضايا إسرائيلية فلسطينية، إنهم يشعرون أنه إذا تم تخيير الأمريكيين بين السلام العربي الإسرائيلي والديمقراطية في مصر فإنهم يختارون السلام). والحقيقة أن أبعد ما تريده إسرائيل في منطقتنا العربية هو ديمقراطية تصعد بحكام منتخبين شرعيا إلى مقاعد رئاسات الدول والحكومات، حيث إن الكفيل والضامن لحالة العجز والهوان والهزيمة والرخاوة العربية هو الطغيان الحكومي الجمهوري والملكي وتزييف إرادة الشعوب وعبودية وتأليه الحكام وتوريث الحكم والحكومات وغياب الديمقراطية واستحالة تداول السلطة في بلادنا تماما!! الحقيقة أن أكثر ما يفيد إسرائيل ويقويها في المنطقة هو هذا الاستبداد والفساد الذي يحكم مصر فيسبب شعبا بالماء الملوث وبالخضار والفاكهة المسرطنة ويقتل مواطنيها في السكة الحديد والبواخر ويمتهن كرامة الناس ويعتقل عشرات الألوف ويقوم بإعدام مئات المحتجين والمعارضين الإسلاميين ويطارد بقانون الطوارئ وحبس الصحفيين عشرات المعارضين غير الإسلاميين،

ويزور الانتخابات ويغتصب السلطة ويورثها، هذا الحكم في مصر هو سر ضعف مصر وقوة إسرائيل فنتهب في الأرض العربية ونقتل وتذبح الفلسطينيين واللبنانيين على حس ضعف هذا النظام وتحالفه معها، هذا النظام هو قرة عين إسرائيل فتنباه وتدافع عنه وتتوسط له عند الأمريكان، هؤلاء الذين يتوجه إليهم مبارك ونجله للحصول على تأشيرة البقاء والاستقرار والاستمرار في السلطة، وتوجه الأب هو ذاته مقصد الابن، والحج المصرى الرسمى للبيت الأبيض تحول إلى عمرة لذات البيت، يقول الباحث باراج خانا مؤلف كتاب «العالم الثاني» في مقال له بمجلة «فورين بوليسي» بعنوان أبناء الرؤساء العرب: «ماذا لو دافع مبارك خلال زيارة سرية إلى البيت الأبيض عن قمع المعارضين المصريين أمام حشد يتضمن جورج بوش وديك تشيني وكونداليزا رايس وستيفان هادلي؟ هذا ما فعله جمال مبارك». نعم ذهب جمال لواشنطن في زيارة سرية انكشفت في خيبة واضحة لكل الأطراف ليدافع فيها عن قمع المعارضة في مصر، ويمضى الباحث قائلًا «القذافي ومبارك والأسد ومحمد وعبد الله كلها أسماء لن تختفى من العناوين الصحفية لعشرين أو ثلاثين سنة على الأقل حتى بعد غياب الرجال الذين ترتبط أسماؤهم بالسلطة حاليا. إن أبناء الحكام الذين كانوا إما دمي وعرائس أمريكية أو آفة العلاقات الخارجية الأمريكية يبلغون الآن سن الرشد كقادة جدد وطموحين». لا يتورع الباحث في وصف بعض هؤلاء الرؤساء وتلك الأنظمة بالدمى والعرائس الأمريكية ثم يعود ويسأل عن أبناء الرؤساء العرب، من هم إذن؟ ويجب («إنهم رجال معروفون بأنهم أثرياء منغمسون في المملات لديهم ميول عنيفة ويحملون شهادات من الغرب لكن في الحقيقة ليسوا غربي الأطوار ومسلمين بقدر آبائهم». ويصل الباحث إلى مصر وجمال مبارك فماذا يقول تفصيلا، كتب بالحرف «مصر لطالما اعتبرت نفسها البلد العربى الأبرز وينعكس ذلك بدءا من طموحاتها الدبلوماسية ووصولاً إلى هيمنتها التليفزيونية والسينمائية في المنطقة، لذا فإن مفهوم الديمقراطية العربية على المحك في الخلافة المصرية، حتى لو صمد حسنى مبارك المريض البالغ ٧٩ عاما حتى الانتخابات الرئاسية التالية عام ٢٠١١ فثمة أمران

مؤكدان لن يترشح مجددا وكذا حتى ذلك الحين هو والسيدة الأولى سوزان مبارك الامبراطورة الدائمة سيدلان قصارى جهودهما ليحرصا على أن يخلفه ابنه جمال البالغ من العمر ٤٣ عاما» ثم يضيف باراج خانا واصفا نجل الرئيس (جمال الذى كان مبعدا عن السياسة خلال معظم حياته ثم أصبح بسرعة - لكن بدون ضجة كبيرة - واجهة المؤسسات السياسية منذ صار نائب أمين عام الحزب الوطنى الديمقراطى، أصبح المصرفى الاستثمارى السابق يدعم تعيين عددا من الوزراء الشبان الإصلاحيين ويساعد على إلغاء الضوابط الحكومية على الاقتصاد ويمكن أن يعزى الفضل إلى جمال مبارك فى دفع والده للتخلص من نظاراته الشمسية السوداء التقليدية). هل تتذكر هذه النظارات الشهيرة لمبارك؟ عموما يصل الكاتب إلى نقطته الخطيرة حين يقول (لكن ممما فعل جمال فإن اسمه يثير امتعاض الكثير من المصريين المنتبعين للشئون السياسية. ليس نظام مبارك حامى الجماهير الضعيفة إنما هو نظام فاسد ومنحط إلى أقصى الحدود ومعظم المصريين لا يأبهون إن جرفه نهر النيل بعيدا. ها هم الأمريكان والباحثون والمفكرون والكتاب هناك يعلمون جيدا تشريح الشارع المصرى ويدركون تماما صفات ووصفات النظام الذى يحكم القاهرة ويعلمون حقيقة مشاعر الناس تجاه جمال مبارك (الامتعاض) وتجاه حزبه ونظامه (إياكش يغرق) ولا يمكن أن تقرأ فى أمريكا شيئا عن مصر إلا واحتشد بالهجوم الكاشف على نظام مبارك، لكن البحث والإعلام شيء والحكومة شيء آخر، فاللوبي الصهيونى هناك يدعم نظام مبارك فى القاهرة والإدارة الأمريكية تسمع النصيحة الرسمية الإسرائيلية الملحاحة والفتحة وهى (احموا نظام مبارك من السقوط بأى شكل فأى شخص بديل خطر على إسرائيل). ومازلت أكرر لأؤكد أن أمريكا ورغم كل الدعايات والمبادرات لدعم الديمقراطية وهى التى تثبت كل يوم مدى هشاشتها فإن أمريكا تتصرف كأن المطالبة والضغط بحكاية الإصلاح السياسى للحكم العربى مجرد أداة ابتزاز للحكام الطغاة من أجل مزيد من التنازلات عربيا والاستسلام الناعم والدائم لسياسة ومصالح إسرائيل وأمريكا فى المنطقة وملغون أبو الديمقراطية على أبو المواطن العربى، فأمرىكا تفهم

الشعب العربي جيدا وتعلم أنه نائم أو ميت، منافق أو موافق، فاسد أو يأس وهي تفهم جيدا الحكام العرب، تعرف أن الحاكم من هؤلاء لو شعر أن عرشه يهتز أو أنه لن يستطيع ترك منصبه لولده من بعده فإنه يسارع بتقديم تنازلات فادحة ويوقع على أى اتفاقية ويقوم بأى مبادرة ويوفق أى رأسين فى الحلال ومن ثم سيصبح دم معارضى إسرائيل مطلوباً ومباحاً أمريكياً مهما كانوا ليبراليين وديمقراطيين أوحى علمانيين وسيكون قهر وسجن واستعباد واستبعاد المثقف العربى المناهض للصهيونية موضع رضا أمريكى، ولن تفتح فمها ضد إغلاق صحف مناهضة لسياسة أمريكا وإسرائيل أو سجن معارضين أو انتهاك حقوق إنسان، الإدارة الأمريكية حلف أساسى للطغيان وأوله الطغيان العربى ومؤسسات المجتمع المدنى فى أمريكا ومنظمات حقوق الإنسان هناك تعرف وتدرك وتوضح ذلك لكن أن يكون الحاكم العربى طاغية على شعبه وفاسداً فى حكمه مقبولاً أمريكياً ومسنوداً صهيونياً طالما أنه يطبع ويسلم ويستسلم لإسرائيل، أما لو كان الحاكم ديمقراطياً ومحترماً لحقوق الإنسان ولكنه ضد إسرائيل واحتلالها وعنصريتها فهو حاكم مكروه ومطلوب انكساره ودمه لدى أمريكا (تأمل ما يحدث مع حركة حماس). من هنا فما يريد الأمريكان من حكمانا ليس إصلاحاً ولا ديمقراطية ولا حرية انتخابات ولا حقوق إنسان، مطلوب الاستسلام أمام إسرائيل.. وبعد كده لتذهب الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان العربى إلى أقرب مقلب زبالة!! والحقيقة أن النظام المصرى ينفذ الطلبات بمنتهى السرعة واللفتة فقد وصل إلى حد من الغرور والغطرسة والبطش والعنف الذى يصل لدرجة التعذيب والاعتقال وتلفيق القضايا والسجن والتشويه والتشهير للمعارضين والضرب والتحرش بالمتظاهرين وغيرها من أدوات القهر والقمع ما جعله مطمئناً إلى أن شيئاً أو أحداً فى الداخل لن يتمكن من تغييره ورميه فى النيل، بل هو قادر بسياسة الإغراء والإغواء على شراء أحزاب المعارضة وقياداتها ومتمكن بجبايل القانون على سجن الصحفيين وعلى قمع حركات مثل كفاية والإخوان والاشتراكيين الثوريين، ومن ثم فلا خوف لديه على نفسه واستقراره سوى من الخارج والخارج

يعنى أمريكا وأمريكا تعنى بمنتهى الوضوح إسرائيل، وها هو النظام المصرى يتكلم
عبرى، شالوم يا مصر.. الجديدة!

حَكْم المماليك

حَكْم المماليك مصر ولم يكونوا مصريين ثم حَكَم مصريون مصر وهم مماليك في الحقيقة! ومماليك الماضي دافعوا عن الإسلام والعروبة ومصر أكثر مما دافع عنها مماليك الحاضر، مماليك البحرية والقلعة انتصروا على الصليبيين وحرروا القدس بينما مماليك عابدين والقبّة تصالحوا معهم وخدموهم وعملوا لديهم! ولكن شيئاً مشتركاً وقويا مازال يجمع بين المماليك الذين حكموا مصر في الماضي والذين يحكمونها في الحاضر، تعالوا نعد إلى عصر قنصوة الغورى آخر سلاطين المماليك قبل الغزو العثماني لمصر (إذا اعتبرنا أن طومان باى كان بطلا مقاوما أكثر من كونه سلطانا رسميا) ويروى لنا ابن زمبل الرمال في كتابه آخره المماليك (طبعة الهيئة العامة للكتاب) أن رجلا مغربيا كان قد أتى إلى مصر حاملا معه بندقية أوروبية إلى السلطان الغورى (وكان المماليك لا يعرفون من الأسلحة سوى السيف والرمح والسهم) وأخبره أن هذه البندقية ظهرت في بلاد البندق (مدينة البندقية غالبا) وقد استعملها جميع العسكر الروم والعرب وحاول التاجر أن يقنع قنصوه الغورى بأهمية هذا السلاح العصرى فأمره الغورى أن يعلمها لبعض مماليكه ووجيء بهم فرموا وأطلقوا الرصاص فى حضرة الغورى ووجوده (وكان الغورى مسنا عجوزا) فسأه ذلك ويبدو أنه اتخض وفوجئ وقال للتاجر المغربى نحن لا نترك سنة نبينا وتنبع سنة النصارى (تخيلوا جمود العقل!)، ويروى الكتاب نفسه على السنة أمراء المماليك أن البندقية حرام واستخدماها لا يدل على الشجاعة والفروسية فلو رمت بها امرأة لأصابت وكيف يرفعها مسلم على مسلم وكيف توجه النيران إلى من يشهد بالوحدانية رغم أن المماليك فى نفس الوقت كانوا يقطعون رؤوس المسلمين بالسيف ويقرون بطونهم بالرمح ويهتكون أجساد معارضهم تحت أرجل الخيل أو

بالحرق والغرق، لكنه عمى القلب والجمود ذاته الذى نسمع عنه ونرى حكامنا يرفضون الديمقراطية ونزاهة الانتخابات وتداول السلطة باعتبارها أسلحة النصارى (الغرب والأجانب) وكما سقط قنصوة الغورى أمام العثمانيين المسلمين الذين كانوا يستخدمون البندقية سيسقط ممالك هذا الزمان بذلك السلاح الذى يرفضون التسليح والتزود به! لكن الكارثة أن الأمر أصبح أبعد من الحكام وجمودهم وتصلب شرايينهم الذى يضع البلد بل وصل حتى شرايين وعروق المجتمع المصرى نفسه الذى بات يرفض العقل والحرية، أحيانا أشعر أن بعض الناس لا يملكون سنتمترا واحدا فى دماغهم تستطيع أن تمرر له فكرة جديدة أو رؤية مختلفة، الناس فى الغالب مبسوطه كده (ومرتاحة كده) لما عرفوه وتعلموه آكان صحيحا أم خاطئا، بل يتصورون أن كل ما يعرفونه هو الصحيح وكل ما لا يعرفونه هو الخطأ، فضلا عن أن كل ما يتكرر أمامهم وعليهم من كلام هو بالضرورة صائب بينما ما كان نادرا أو غريبا أو جديدا لم يصادفوه فهو بالقطع خاطئ، ومن ثم مجتمعاتنا عصية وعاصية جدا على تقبل الأفكار الجديدة (المختلفة) جامدة جدا لحد أنها تكره الحركة، صلبة للغاية لحد أنها ترفض مرونة الاستماع والتفهم لأى شيء جديد لا تعرفه، لهذا من الصعب أن نرى فى بلدنا مخترعا أو مكتشفا، فنحن لا نخترع لأننا لا نجرب فالتجربة محاولة لكسر المألوف والمعتاد، هل عمرك سمعت عن اختراع مصري؟! حتى لو كان هناك شخص يفكر فى الاختراع فى مصر فالمجتمع تكون ميمته الأساسية هى كسر مجاديفه وإحباطه وتعطيل عمله وشل تفكيره! نحن موظفون نسير وفق قواعد بيروقراطية وروتين متبع وصارم، ولدينا روتين فى المصلحة الحكومية وفى المحاضرات والدروس ومناهج التعليم وروتين فى السياسة وروتين فى الدين وروتين فى الروتين، حياتنا كلها روتين من الأفكار والعادات والتصرفات، ومن ثم فلا أحد منا يفكر أن يخترع فهو أمر لا نفعله ولو على رقبتنا، لا نخترع فكرة ولا نخترع دواء ولا نخترع سلاحا ولا نخترع جهازا، ثم نحن لا نكتشف فالاكتشاف خيال وحلم ومغامرة ومجتمعنا المصرى مربى على الركود والجمود، بل جاء نظام مبارك وحكمه على مدى خمسة وعشرين عاما ليدعم ويعمق

الركود والجمود في حياتنا وفي كل شيء فنحن نعرف أن الرئيس مبارك رجل لا يغير ولا يتغير، يعيش الجمود والركود ويسميه استقرارا واستمرارا، لا يجب الحركة ولا الحيوية ولا يعرف التغيير ولا يريد بل يخشاه ويقلقه، ومن ثم اكتست مصر كلها بالجمود الفكري والسياسي وتجاوز السياسة ليصبح جمودا في الدين والعلم والعقل والتعليم والفن والصحافة والثقافة، وصارت مصر كلها متصلة الشرايين في حاجة ماسة إلى دواء الهيبارين الذي يزيد من سرعة السيولة في الدم، فمصر المتخشبة التي نعيشها الآن تقود الوطن العربي كله إلى موت سياسي وموت إنساني، ولعل ما تجده من ضعف مصرى دولى وعربى هو ثمرة الجماع الحرام بين الجمود السياسى على مدى ربع قرن والجمود الفكري والدينى الذى زاد وغطى وفاض وباض على حياتنا، الأصل فى مجتمعاتنا أنها ترفع شعارا جاهليا هو (هذا ما وجدنا عليه آباءنا) أرذل ما تعيشه مصر (والمجتمع العربى عموما) هذه الأيام هو هذا التشبث بالجمود، هو استمرار الوضع راقدا نائما فى التاريخ والجغرافيا، لا يوجد أحد يريد أن يتغير ويتطور أو على الأقل يتنور ويقبل بالجديد أو يستمع إليه أو يطبق الخلاف، أو يحترم الاختلاف، معظمنا نأمن على الكنبه ولا نريد أن يوقظنا أحد من غفلتنا أو من رقدتنا، وهى ليست نومة راحة بعد تعب بل رقة مريض معتل يخشى النهضة ويرتجف النهوض، وكلما صادف الناس ما يختلف عن أفكارهم وما يناقض مسلماتهم وما يتصادم مع ما تعلموه أو عرفوه من آباءهم أو من المدرسة أو من واعظ الجامع تتلبسهم رعدة وعادوا بنا إلى ما حاربه الإسلام وما جاء النبى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم لينسفه كالعرجون القديم، يقول المولى عز وجل فى سورة (البقرة آية ١٧٠). (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وكذلك فى سورة (المائدة آية ١٠٤). (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وفى سورة لقمان آية ٢١ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا). فى تأويل قوله تعالى نقرأ فى تفسير الطبرى: أَجَابُوا مَنْ دَعَاهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ، أَنْ يَقُولُوا:

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِنَا آبَاءَنَا يَعْمَلُونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ لَهُمْ تَبَعٌ وَهُمْ لَنَا أَيْمَةٌ وَقَادَةٌ، وَقَدْ اِكْتَفَيْنَا بِمَا أَحَدْنَا عَنْهُمْ وَرَضِينَا بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِتَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَلَوْ كَانَ آبَاءٌ هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا. لم يراجع شعب بالكامل نفسه ويسأل هذا السؤال العميق الجذرى الصريح طيب ولو كان آباء هذا المجتمع من شيوخ وساسة، من زعماء ووعاظ، لا يعلمون شيئا ولا يهتدون، يبقى نوافق عليهم ليه وإزاي؟ من قال إن ما تعلمناه من مدرسى التاريخ صحيح وحقيقى، من يتصور أن ما تقوله أحزمة ومؤسسات الحكم ومناهج تعليمهم هو الحق والصح، يقول د. توفيق الطويل فى كتابه (من تراثنا العربى والإسلامى) وهو يتحدث عن الواقع الفكرى فى مصر: (إن كل قطاعات حياتنا الفكرية تستلهم العقل المسلم، وتقصد بهذا العقل الذى يفكر دائما فى إطار من المألوف للناس، لا يصدم عرفا شائعا وإن كان محطئا، ولا يتعارض مع رأى ذائع بالغا ما بلغ فساده. وهذا وإن كان أدعى إلى الاستقرار فإنه يعوق التطور ويمنع التجديد). هناك أكاذيب كبيرة جدا فى حياتنا وكلما كبرت الأكاذيب أصبح من الصعب نفيها، أو رفضها، بل إن الأكاذيب المعروفة والمشهورة فى حياتنا أصبحت أرحم عند الناس من الحقائق الختفية والمجهولة، والمشكلة الحقيقية أن المصريين لا يجهدون أنفسهم أبدا فى محاولة معرفة الحقيقة إنهم لا يقرأون وهى فضيحة نخجل منها أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، فالأمة التى كان أول أمر تلقاه نبيا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو أن «يقرأ»، أمة أجهل من الجهل، كلها تعتمد على سماع نهاوند سواء من مدرس فى فصل أو واعظ فى جامع أو رئيس فى خطبة، مفت فى تليفزيون أو داعية فى شريط كاسيت، أكاد لا أجد مواطنا يقرأ لأحد الكتاب رأيا فيبحث فى كتاب عن صحة الرأى أو عدمه بل هو يسأل صديقا مقربا أو واعظا عابرا أو يسمع شريطا جاهلا، لكن لا توجد أى محاولات من المصريين كى يقرأوا كتابا أصليا فى التاريخ أو مرجعا فى الفقه أو دراسة فى السياسة، طبقا لإحصاءات دكتور شعبان عبدالعزيز خليفة رئيس لجنة الكتاب بالمجلس الأعلى للثقافة فإن مصر فى عهد جمال عبد الناصر كانت تنتج ٧٠% من

كتب العالم العربي وفي عهد الرئيس السادات ٥٠% من كتب العالم العربي والآن في عهد الرئيس مبارك ونجله تنتج ٣٣% فقط من كتب العالم العربي، الشعب المصرى بات لا يطبق القراءة عموما، ألا ترى التلميذ فى المدرسة يترك الكتاب ويعتمد على الملخص ثم يهجر الملخص ويعتمد على الأسئلة والإجابات النموذجية؟ حتى هذا التعبير الفج والسمح «الإجابة النموذجية» كأن المطلوب صم وتسمع إجابة بنفس الألفاظ والحروف لا أن يجتهد التلميذ ويفكر بنفسه ويبحث ويكتب ما يريد وفق ما فهمه وبطريقته، هذا غير مسموح به أبدا، المطلوب هو أن نكرر كلنا نفس الكلمات ونحفظها صما ونطرشها فى الامتحان وكده تبقى إجابة نموذجية وهى فعلا نموذجية ولكن نموذجية فى الجهل وصناعة القطيع وشل تفكير العيال، بل الأنكى أن التلاميذ تركوا الآن الأسئلة والأجوبة وركزوا على نماذج الامتحانات، كمان، بلا فهم بلا وعى بلا بحث بلا علم بلا كلام فارغ فهذا مجتمع يريدك أن تجاوب كما وجدت عليه آباءك ومدرسيك، والمؤكد أن مصر تنحدر بهذه الطريقة التى انطلقت من التعليم إلى السياسة، ومن العلم إلى الدين، مبارك وحزبه وحكمه لا يريد منك سوى أن تسمع الكلام وتحفظه وتعتقد أنه الصواب والحق وأى حاجة تسمعها من غيرهم ليس فيها ما يوافق الإجابة النموذجية يبقى هؤلاء من أعداء الوطن أو أعداء الدين، ولهذا أصبحت مصر بلا خيال فى السياسة وبلا اجتهاد فى الدين وبلا مراجعة فى التاريخ وبلا إبداع فى الفن وبلا ٤-٤-٢ فى كرة القدم! انهيار جدار برلين، تحول الاتحاد السوفيتى أثرا بعد عين، أطلاقا بعد حصون، تحولت أوروبا الشرقية إلى ديمقراطية وحرية وتعددية سياسية حقيقية ومستمرة، تجاوزت الهند مخاطر طائفتها وحافظت على ديمقراطيتها بشكل مذهل، جدت الصين نفسها وتنازل رجال الحكم فيها عن مقاعدهم لخلفائهم تنازلا سلميا وهادئا، تحولت إيران وتركيا إلى منظومة ديمقراطية تشبه إلى حد كبير وبتحد كبير بناء الديمقراطية الغربية مع حركة إصلاح تنمو وتخوض معركتها فى البرلمان والصحافة وحتى مقعد الرئاسة الذى يصعد له رئيس بالانتخاب وليس بالمبايعة والنفاق المزرى، دخلت الكرة الأرضية عصرا جديدا

وبقيت مصر على حالها الميئوس منه. ومصر لم تنفرد وحيدة بالأنظمة الاستبدادية، فمناطق أخرى من العالم عانت ولفترات متفاوتة من الديكتاتورية. لكن في مصر (وفي العالم العربي) ثمر السنون بلا حس ولا خبر ولا حركة ولا بركة، حكام متصلبون ومثقفون مناققون ورجال أحزاب تافهون وأمة ميتة وشعب خاضع خانع، رعايا لا مواطنون، لم تشهد المجتمعات العربية حركات واسعة في سبيل الحرية والديمقراطية، بل الذي ينتشر كالوباء مثل كوليبرا سياسية خبيثة ومدمرة هو فقط دوائر الانتهازية وماسحو الجوخ والمناققون الكثيرون ورجال السياسة المتلاعبون بالعقول والمرثشون من الحكومات والأنظمة أو جماعات الوهابية والجماعات المتطرفة التي ترى الديمقراطية كفرا وضلالا وترى الإسلام معاديا لحرية الناس في إقرار واختيار ولا تزال الملكيات المترفة الجاهلة والأنظمة العسكرية المتنكرة بالزى المدني في الوطن العربي (وفي مصر) تمسك بزمام السلطة ومقعد السلطان وورثة الحكم وخلافة العرش، بعد وفاة جمال عبدالناصر نشرت الصحف عندنا رسما في بعض الصفحات الأولى لجنازة تضم جموعا من المصريين يشيعون زعيمهم الراحل ولكن وجوه المشيعيين كلهم هي نفس وجه عبدالناصر، كل الوجوه عبدالناصر تودع عبدالناصر ومكتوب التعليق تحت الصورة طبعا: كلنا جمال عبدالناصر، والمذهل أن نفس الرسمة تقريبا تم نشرها عقب وفاة أنور السادات فكل الوجوه التي تحمل نعش السادات في اللوحة هي وجه السادات نفسه والتعليق هو ذاته كلنا أنور السادات، والحقيقة أنه لا شيء يكشف عوار مصر وانحدارها إلا هذه اللوحة والإصرار عليها ويكفي أن تقرأ الترهات ومقالات الزواحف من منافقني مبارك ورجاله لتعرف أنها ذات المأساة فالمطلوب من المواطن المصري أن يكون قطعة بوليف مقطوعة بنفس الشكل الموحد وموضوعة في نفس العبوة وعليها نفس الملصق ومحمولة فوق نفس الرف، المشكلة أن هذا هو هدف وغايات الحكام الذين لا يريدون منا سوى أن نكون قطيعا أممهم يهشون علينا بالعصا، وكل مختلف أو معارض هو ضأن شارد، والهدف نفسه يتكرر مع رجال الدين والتعليم في حياتنا، يريدون من الناس أن

يكونوا صفا وطابورا وقطيعا يمشون وراء أفكارهم وتعاليمهم يحفظونها دون مناقشة ولا اختلاف وهم في ذلك حلفاء الطغيان والاستبداد، يقول أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين (فساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه عليهم ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر؟!). عنده حق!

مفیش فایدة

أشهر وأسهل وأكثر جملة يرددها المصريون هي (مفیش فایدة)، لم أجد ولم أقرأ عن شعب يجب أن ييأس أكثر من الشعب المصرى، يتهمه كثيرون باللامبالاة والسلبية لكن جوهر وسبب وجذر هذه التناحة أمام الفساد التي يعيشها المصريون هي اليأس، لا يتصور الشعب أنه قادر على أن يغير رئيسه أو يحاسبه أو يسأله، أو أن يطيح بالحكم أو يصوت في انتخابات لسقوط رئيس أو حزب حاكم، تسمع كثيرا من كثيرين إجابة واحدة يومية ومتكررة: يا عم اللى عايزينه ح يعملوه والواد ح يجيبه أبوه، طوال الوقت يصر المواطن المصرى على إعلان يأسه بتصميم يثير الريبة، تقوله انتخابات يقولك ح يزوروها، تقوله مظاهرات يقولك ح يضربوها، تقوله قول لأ يرد يا عم هوه حد ح يسمع كلمتى ولا ح يعبرنى، دى بلدهم مش بلدنا! عظيم، ليس هناك شيء يجبه حسنى مبارك أكثر من هذا، لا شيء يثلج صدر جمال مبارك ورجالته أكثر من ذلك، فالحزب الفاسد والنظام المستبد لا يعيش ويستمر ويحكم إلا بهذه السلبية وهذا اليأس الذى توطن مع الفيروس سى والبهارسيا والفقير والماء الملوث فى كبد وعقل المصريين! يتفذلك زبانية الحزب الوطنى وهم يحدثونك عن أن الشعب المصرى مش محتّم بالإصلاح السياسى والكلام الفارغ ده لأن همه أكل عيشه، الناس عايزة تاكل وتلاقى لقمة عيشها، أسمع هذا الكلام من جهاذة من الحزب الوطنى وعدد لا بأس به من كتبة المباحث كأنهم يلومنى وكأنتى أنا الذى أمتع المصريين من أكل عيشهم! والحقيقة أن المواطن الذى يظن أن أكل عيشه يقتضى السلبية واليأس والخنوع والخضوع لحسنى مبارك هو حر خليه فى اللى هو فيه وحلال عليه حسنى مبارك ربع قرن وابنه من بعده وربنا يوفقه! لكن المشكلة أن هذا المواطن

الفقير الغلبان الذى لا هم له سوى أكل العيش هو الوحيد المضروب بالقديمة من حزب حسنى مبارك ونظامه وحكومته، أنا شخصيا ما زلت أستطيع شراء كيلو الطماطم أبو سبعة جنية، والحمد لله ربنا مقدرنا وبنشترى اللحمة أم خمسة وتلاتين جنية والبيضة التى وصل سعرها لثمانين قرشا بل بالصلاة على النبى ومن غير حسد فنحن نشترى كرتونة البيض بـ ٢٦ جنيها، وكيло الفراخ الذى زاد من ستة لثمانية لأحد عشر جنيها ومع ذلك رأبى ومبدئى أن الحزب الوطنى خرب مصر وأن مبارك وسياسته ونظامه أفقروا الشعب المصرى ودحدروه إلى قاع الأمم، حسنى مبارك بعد خمسة وعشرين عاما من حكم مصر الذى لا يريد أن يتخلى عنه سوى لابنه أوصل الشعب المصرى إلى أن ٦٧% من أفرادهم ومواطنيه لا يملكون سيفون حمام فى بيتهم (٧٧% من ريف الدلتا يعيش بدون سيفون و٨.٨% من ريف الصعيد حسب تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥)، شعب مصر الذى يقول مفيش فايدة ويجب أن ييأس وتضبطه أحيانا يقول ما هو اللى نعرفه أحسن من اللى منعرفوش أحب أن أزف إليه هذا النبأ المؤسف إن اللى منعرفوش أحسن لأن اللى نعرفه جعلنا نشرب الجارى فحسب تقرير التنمية البشرية فإن مياه الصرف الصحى تصب فى معظم الجارى المائية إما مباشرة من الوحدات السكنية أو من سيارات تفريغ المخلفات أو بصورة غير مباشرة من خلال الصرف الصحى المحمل بمياه الصرف وتعتبر مياه الجارى المنقولة خلال الأنابيب مصدرا ثابتا لتلوث مياه النيل ومياه الصرف والبحيرات والمياه الجوفية - اشرب يا سيدى - بل وما زال ٢% من الصرف فى المناطق الحضرية و ٩٢% من الصرف فى المناطق الريفية لا يتم من خلال الجارى، هل هذا هو مقابل سكوت وطيبة وغلب المصريين وموافقهم على مبارك ونظامه، تشربوهم مجارى وتاكلوهم «سم»! طيب نظام مبارك يتهمنا بأننا كذا وكذا وولاد ستين فى سبعين وسوف يعاقبنا هذا النظام الكريه بالسجن هذا الشهر أو اللى بعده أو اللى بعد بعده، فهمنا عاقبونا وموافقين أن ندفع ثمن هذه المعارضة لكن الشعب الضائع المسكين الذى لا يهش ولا ينش ولا يقولكم بم وكان بيتخبط فى نافوخه ويقول إنكم

أحسن من اللى ميعرفهمش، لماذا تعاملونه هكذا بكل قسوة وخسة، طيب كافتوه على طبيته وبلاهنه ووفروا له اللقمة النظيفة وبق المية غير الملوث والهدمة الرخيصة والعافية والصحة، أبدا، كأن هذا النظام يعاقب الشعب على قبوله وخضوعه له بعذاب أكبر، لقد تسلم مبارك حكم مصر ونسبة الإصابة بالفشل الكلوى ١٠ حالات فى المليون فوصل بها عام ٢٠٠٤ إلى ٢٢٥ حالة فى المليون، هل هذه هى مكافأة الشعب الطائع الخاضع، وهل مكافأته كذلك أن ٢% من إجمالى وفيات الأطفال تحت سن الخامسة نتيجة الإسهال التى يسببه سوء حالة الصرف الصحى: (راجع تقرير التنمية البشرية الذى تصدره حكومة مصر شخصيا بالتعاون مع الأمم المتحدة). هؤلاء المواطنون الطيبون الذين ينحنون أمام مدراءهم فى الشغل والضابط فى القسم وبيتعدون عن السياسة ولا يقرأون الصحف السوداء (إحنا يعنى) حتى لا يثيرون غضب السيد الرئيس وابنه وحزبه وحتى يربوا عيالهم فقرر الرئيس نفسه ونجله أن يردا لهم التحية والحنية بأحسن منها فجعلا العيال الذين يشقى من أجلهم الآباء ويطفحون الكوتة عاطلين تماما، نعم وكأن نظام مبارك مستقصد الغلابة السليبين فعلا وينتقم منهم ومن فلذات أكبادهم فالحقيقة أن بيانات الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء فى مصر تشير إلى أن ٩٩% من عدد العاطلين هم شباب ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٤٠ سنة، وقد تركزت البطالة بشكل أساسى فى الفئة الأكثر شبابا ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٣٠ سنة حيث يشكل العاطلون منهم وفقا للبيانات الحكومية الرسمية نحو ٨٨% من عدد العاطلين فى مصر، والأعبر من كده أن المتعلمين يشكلون وحدهم نحو ٩٣% من المتعطلين فى مصر، أى أن الشباب الذى صرف عليه أهله من دمهم النازف وضحوا لأجلهم بالمال وعزة النفس وطاطاوا لمبارك وحكمه كى يعلموا الولاد إذا بهذا الحكم يجعل من عيالهم عاطلين، يعنى ولادك أيها المواطن الطيب السلبى اللى مالكنش دعوة بالسياسة ويجوز أنك لا تصدق أنه سيحكمنا غير الرئيس مبارك هم ضحايا الرئيس ذات نفسه (لمزيد من أسى البيانات راجع تقرير الاتجاهات الاقتصادية الصادر عن مركز الأهرام الاستراتيجى ٢٠٠٦). ألا

تلاحظ معي أن كل المصائب على دماغ الفقراء فقط، هل المعتمرون والحجاج الذين سافروا في الطائرات عانوا من غرق العبارات المدعومة من زعامات الحزب الوطني وأصدقاء أصدقاء القصر الجمهوري، هل عانوا بالآلاف المؤلفة من التكديس في الموائج والعطش في الصحارى والبهدة وقلة القيمة؟! إنهم الفقراء فقط الذين سافروا بالبواخر، هل من مات في قطار الصعيد أو في قطارى قليب أو في حوادث القطارات اليومية أو من عانوا وتعذبوا في السكك الحديدية من تعطل وتأخر وزحام وإهمال وتسبب إلا الفقراء، فقراء مبارك هم الذين يذلم نظامه بينما هم لا يتكلمون في السياسة ولا يعرفون المعارضة ولا يتجرأون على الحلم بتغيير مبارك ومستعدين ببوسوا إيد جمال مبارك لو جاء ومع ذلك طالع عين اللي خلفوهم من حزب مبارك وأمانة النجل، هل الذين ماتوا بالبسم الهارى الذى توزعه الحكومة على الزرع والأكل وتلقيه فى النهر والماء إلا الفقراء؟! وقد أفادت دراسة جامعة الأزهر كما نشر موقع محيط على الإنترنت أن موائد الرحمن التى تشهدها مصر فى شهر رمضان الكريم فى القاهرة وحدها تتكلف ما يزيد على مليار جنيه (يدفعها الموسرون للفقراء) بينما ينفق أهالى المحافظات الأخرى على تلك الموائد مليار جنيه، وأشارت الدراسة نفسها إلى أن عدد المواطنين الذين يأكلون على موائد الرحمن يبلغ ثلاثة ملايين شخص يوميا مع العلم بأن الجهات التى تنظم موائد الرحمن أو عدد الأشخاص يصل إلى عشرة آلاف جهة أو طرف. وتضيف أن هناك اتساعا لظاهرة توصيل الطعام للمنازل من موائد الرحمن فى عدد كبير من الجمعيات الخيرية الإسلامية تصل إلى ١٠ آلاف وجبة من جمعية رسالة و ١٠٠٠٠ وجبة من مسجد التوفيق وغيرها من عشرات الجمعيات والمساجد وموائد الرحمن فى مسجد مصطفى محمود يتم تقديم الإفطار لهم فى رمضان ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ وجبة توزع يوميا وتبلغ قيمتها حوالى ٨٥٠ ألف جنيه يتبرع لها أهل الخير، هذا مقاله الموقع تقلا عن الدراسة لكن تردد عبر عدة مصادر بحثية أخرى أن عدد الذين أظفروا على موائد الرحمن فى القاهرة هذا العام حوالى ستة ملايين مواطن، وإذا كان لهذا الرقم دلالة فهى أنه لايزال بيت المحسنين فى مصر عمار

وأن هذا النظام نظام فاسد بلا قلب فأن يلجأ الناس للأكل على الأرصفة فقرا
وحاجة فهذا لا يعنى سوى أن هذا الحكم قد أضاع شعبه وأفقر ناسه، أن يأكل
قراية العشرة فى المائة من المصريين (إذا استبعدنا عدد الأقباط) وحوالى نصف
أهل القاهرة من الصدقات فهذه والله علامة من علامات يوم القيامة حتى لو
كانت الأرقام مبالغاً فيها والتقدير أن ثلاثة ملايين فقط هم الذين يأكلون على
موائد الرحمن فهذه إشارة تخزق العين على المدى الذى وصل إليه فقر المصريين،
(نعرف أن البنك الدولى يشير إلى أن ٤٤% من الشعب المصرى تحت خط
الفقر) لكن النظام الذى أوصل مصر إلى هذه الحفرة وصلت به الغطرسة والعزة
بالإثم إلى أنه لا يريد أن يعترف بكوارثه بل ويعايرنا بما قدمه لنا ويا خيبة وكارثة ما
قدم وما أصر، فأنت تلتفت لتسأله وتساءل نفسك، ما هو آخر اكتشاف علمى
قدمته مصر للعالم؟ ما هو أحدث اختراع قدمته مصر للوجود الإنسانى؟ أين هو
الدواء الذى اكتشفه فريق علمى مصرى؟ ما هو البحث الذى قدمته جامعة
مصرية فهز العالم وغير فى العلوم؟ أين هو السلاح الذى اخترعه المصريون فأعادوا
تشكيل خريطة القوى فى الشرق الأوسط؟ أين هى المعادلة الرياضية التى أعلنها
قسم فى كلية مصرية فأحدثت دوياً؟ ما هى العملية الجراحية التى أجراها فريق
طبى مصرى فصارت هدية جديدة للإنسانية؟ بل أين هى الفتوى والاجتهاد
الدينى الذى قدمه شيخ وفقه مصرى فصار المسلمون خلفه وصلوا وراءه؟ أين
هى الجامعة المصرية التى يندفع إليها طلاب العرب وأفريقيا طلباً للعلم فيها
والهندسة منها والطب على يديها؟ أين هى محاصيل القمح التى زرعتها المصريون
فأكلوا منها؟ أين هو القطن الذى كان ذهباً أبيض فذهب مع الريح؟ لا حول ولا
قوة إلا بالله! ألهذا يريد نظام مبارك أن يستمر ومبارك أن يبقى وجمال مبارك أن
يرث؟ لا أعرف هل تعرف الشاعر الراحل الكبير صلاح عبدالصبور وقرأت له
أم لا لكن عموماً للرجل مسرحية شعرية بعنوان (ليلى والمجنون) كأنها كاشفة لمصر
ولشعبها تماماً تقدم حالنا الشعبى فى كل حال سياسى، قال على لسان سعيد
الشاعر والصحفى فى المسرحية (ياخرايى لما تسمع هذا الشعر بصوت وأداء الفنان

العظيم محمود ياسين على المسرح كأنك لن ترى شيئا مذهلا ورائعا كهذا حتى تموت!) قال: لا.. لا.. لا أملك إلا أن أتكلم يا أهل مدينتنا يا أهل مدينتنا هذا قولي: انفجروا أو موتوا رعبٌ أكبر من هذا سوف يجيء لن ينجيكم أن تعصموا منه بأعلى جبل الصمّ أو ببطون الغابات لن ينجيكم أن تحتبئوا في حجراتكم أو تحت وسائدكم، أو في بالوعات الحمامات لن ينجيكم أن تلتصقوا بالجدران، إلى أن يصبح كلُّ منكم ظلًّا مشبوحاً عائق ظلًّا لن ينجيكم أن ترتدوا أطفالا لن ينجيكم أن تقصر هاماتكم حتى تلتصقوا بالأرض أو أن تكمشوا حتى يدخل أحدكم في سَمِّ الإبرة لن ينجيكم أن تضعوا أقنعة القردة لن ينجيكم أن تندجوا أو تدغموا حتى تتكوّن من أجسادكم المرتعدة كومة قاذورات فانفجروا أو موتوا انفجروا أو موتوا يناشدنا صلاح عبدالصبور بأن نتحرك، ونرفض ونغير ويحذرنا أنه لن ننجو من الظلم والقهر حتى ولو عملنا فيها قرودا واستخبينا تحت السرير ويطالبنا إما بأن نفجر غضبا وتغييرا أو أن نموت، انفجروا أو موتوا، ويبدو أن المصريين من قرأ أو شاهد مسرحية صلاح عبدالصبور ومن لم يقرأها قرروا الأخذ بالاختيار الثاني، قرروا أن يموتوا، منهم من مات بالهجرة من البلد (بالجسد والعقل أو بالعقل فقط) ومنهم من مات بالكلية والكبد والسرطان ومنهم من مات كذا ومنهم من مات صمّا ويأسا ومنهم من مات من الضحك، فقد أثبت حكم حسنى مبارك ربع قرن أن المصريين يفضلون الموت على الانفجار... الشيء الوحيد المسموح له بالانفجار في مصر، هي المواسير!!

مصر من تحت!

هل يمكن أن يحدث أسوأ مما نحن فيه؟ قطعاً ممكن، أن يستمر ما نحن فيه، مع مزيد من الفقر، ومزيد من العنف، ومزيد من حكم مبارك! لأن الرئيس حسنى مبارك طيار فلم يعد يرى الواقع على الأرض، يرى كل شيء صغيراً ضئيلاً بلا أهمية فهو يراه من فوق، ومن بعيد! ولأن جمال مبارك الحاكم الفعلى لمصر وابن الرئيس فتى تربى منذ نعومة أظافره فى قصر الرئاسة لم يركب أتوبيسا ولا ميكروباص فى حياته ولم يقف ليشير لتاكسى ولم يتجادل مع سائق تاكسى على الأجرة ولم يقف فى طابور عيش أو طابور جمعية أو حتى طابور سينما، وحين يلتقى بالفقراء يلتقى بمخبرى أمن الدولة! ولأن مجموعة المنتفعين وشلة الحكم المحيطة بالرئيس ونجده مجموعة من المليارديرات والأغنياء غنى فاحشا وثراء سفيها وهم من أبناء طبقة المال والنفوذ والحكم ومعظمهم وكلاء لأجانب فى أعمال البيزنس والتجارة والصداقة، لأن هذا ما كان فإن ذلك ما يكون! انفصل الحكم تماما عن الواقع وصارت تحكم مصر مجموعة عائلات مغلقة على نفسها عبارة عن طبقة من نبلاء الإقطاع المالى (مع ملاحظة أنهم لا يملكون أراضى وآلاف الأفدنة فى مصر مما يسهل سفرهم خارجها بسرعة وكما يعنى أن أموالهم سائلة وموجودة فى بنوك أمريكية أو أوروبية ساعة اللزوم ليس لهم فى مصر سوى قصرين ثلاثة سوف يبيعونها عبر المحامى وكام شاليه وفيللا على الساحل الشمالى قد يتركونها لأولاد خال أو عم) ولا يربط حسنى مبارك ونجده عمليا بالواقع وبالشعب إلا مباحث أمن الدولة، هذا الجهاز الذى يحكم مصر تقريبا هو رثة مبارك فى الحكم وقبضته فى السيطرة وهو أيضا وسيلته الوحيدة التى يعرف بها شئون الناس والبلد، وهو وسيلة وحيدة مأمونة لديه ويثق هو فى إخلاصه له وهو ما يفسر امتداد حبيب

العادلى فى ولايته على وزارة الداخلىة لأكثر من عشر سنوات دون غيره من سابقه وسلفه فى المنصب، الأمر يعود بقوة أولا إلى سن الرئيس مبارك الذى لم يعد يجب التغيير فضلا عن أن من طباعه السىاسية أنه مع الاستقرار حتى الجمود ومع الاستمرار حتى الركود، وثانيا لأن مبارك يعتمد على أجهزة أمنه وجماز أمن الدولة تحديدا الذى تحول إلى جستابو النازى وسافاك شاه إيران الآن وصار متضخما فى قدراته التى تتحكم فى مقدرات البلد كلها وتسيطر على كافة شئون البلاد سواء الأحزاب السىاسية أو الجامعات والجموع أو الإعلام والصحافة (ومنها عدد من الصحافة الخاصة مع كل الصحافة الحكومية)، كل شيء، البلد كله تقريبا حتى إن مباحث أمن الدولة أقوى من أى وزير فى وزارته ولا يستطيع أحمد نظيف أن يفتح فمه فى مواجهتها، ثم هى التى تملك تنفيذ أى أحكام قضائية أو تعطيلها وهى المسؤولة عن ملف الأقباط فى مصر والشىعة والمعارضة والإخوان المسلمين وكفاية وهى المنوط بها تمرير التوريث، كل هذا لأن نظام مبارك جعل هذا الجهاز هو عينه التى يرى بها وأذنه التى يسمع بها ولسانه الذى ينطق به، لا يعرف الرئيس شخصا عن البلد والناس والفقراء والغلبة والسياسة وتوجهات الصحافة وفلان ده كويس ولا ابن ستين فى سبعين إلا من أمن الدولة والتقارير الذى يسمعه مبارك شفاهة ولا يقرأه غالبا أو يكتفى بقراءته زكريا عزمى وصارت قرارات الرئيس، نسجن هذا أو نعضو عن هذا، نصدر القرار الفلانى أو نؤجله، كله مرهون بتقرير أمن الدولة، وهى التى تخبر الرئيس إنه كله تمام وإن فلان لازم يتعاقب وإن الشارع متأمّن وإن الناس راضية ومبسوطة وإن الواقع بمبى وفل وعال العال ماعدا رعاى الصحافة وكفاية ونوصى بكنا وكذا (سجن، ضرب، تشويه، ذهب، ياقوت، مرجان اللى تؤمر بيه) وأنا قادرون على ضرب الإخوان المسلمين وأنهم يخططون لقلب نظام الحكم ونوصى باستمرار سجن عصام العريان وهلم جرا.. إلى السجن، ولا أظن أن الرئيس مبارك خالف توصيات أمن الدولة فى الفترة الأخيرة أبدا ربما زاد عليها من توصيات حاكم لم يعد يعتقد أن شعبه قادر على تغييره أو أن شعبه قادر على أن يفكر أساسا فى تغييره ويتصرف مبارك

في البلد بصلاحيات إلهية كل ما يريد يفعله والقانون تحت أمره والدستور ملك يمينه، أما الشعب الذي يعرفه فليس هو شعب جمهورية مصر العربية بل شعب تقارير مباحث أمن الدولة التي يقرأها أو يسمعا. ولأن النظام لا يتعلم من أخطائه وبات كذلك ضعيف الذاكرة فقد نسوا أن قيادات من الحزب الوطني طلبت مقابلة أطراف من الإخوان المسلمين كي تعقد اتفاقا مبدئيا قبيل الانتخابات البرلمانية الأخيرة مؤداه أن تترك أجهزة الأمن ثلاثين مقعدا للإخوان دون أن تتدخل بتزوير هذه الدوائر مقابل أن يكتفى الإخوان بترشيح خمسين مرشحا فقط، وقبل أن يوافق حسنى مبارك طلب تقريراً من أمن الدولة وكان رأيها أن الإخوان يبالغون في قدراتهم وشعبيتهم وأن الأمن قادر على تحجيمهم ولجم أى نجاح لهم ومن الممكن ألا يصلوا الخمسة عشر مقعدا ومن ثم لا نوصى بإجراء أى اتفاق معهم وعدم منحهم ثلاثين مقعدا! ووافق مبارك على ما وصل إليه أمن الدولة ورفض أى مفاوضة مع الإخوان ثم جاءت نتيجة المرحلة الأولى في الانتخابات البرلمانية مدوية في نجاح الإخوان وكاشفة لهراء تقارير الأجهزة الأمنية، وبدلا من عقاب صارم وبدلا من إعادة نظر في الاعتماد على العسس والمخبرين وضباط التعذيب في حكم البلاد وفهم طبائع الشعب وتصرفاته، بدلا من إزاحة نفوذ أمن الدولة قرر الرئيس أن يعتمد عليها لإنقاذ حزبه وطلب منها قمع نجاح الإخوان ثم كان ما كان وتقلصت فرص الإخوان في الوصول إلى ثلث أعضاء البرلمان إلى ٨٨ عضوا فقط! تم تلخيص الأمن في مصر إلى أمن الدولة وتوحش هذا الجهاز حتى صار مركز قوى أسوأ مليون مرة مما كانوا يقولون عن حمزة البسيونى أو صلاح نصر، مركز قوة يحكم مصر بل الأسوأ من ذلك أنه يحكم الرئيس والرئاسة كذلك فرغم تصور وتأكد مبارك من أن جهاز أمن الدولة هو جهازه الشخصى الآمن والحارس فإن هذا الجهاز صارت له مصالحه ونفوذه التى يحميها وعجزه الذى يداريه وحرصه على أن يكون جهاز الرئيس وليس حتى جهاز أمن الدولة (وقد تجاهل منذ زمن أنه جهاز لأمن الشعب لا الرئيس ولا الدولة حتى) فتحول إلى جهاز يخدم نفسه ويسيطر على قرارات الرئاسة بما يغذيه من تخوفات أو تطمينات ومعلومات أو

تعليمات (توصيات) تنتهى إلى ما نراه من فقدان النظام لبوصلة شعبه تماما والضغط على البلد بقرارات ومواقف وقوانين ح توديهها فى داهية ويذهب معها كل من خاف من مجيء هذه الداهية! لقد انهيار الأمن الجنائى فى مصر لصالح سيادة وسيطرة الأمن السياسى وهنا الخطر الذى سيطيح بنا جميعا حكاما ومحكومين، رئيسا ومعارضة، لقد تراجع درجة الأمان على النفس والمال والجسد فى مصر لصالح أمان حسنى مبارك على عرشه وربما على فرصه فى توريث ابنه بينما الضربة سوف تأتى ممن تصور مبارك أنهم ليسوا خطرا عليه، من العامة والدهماء، من فقراء ومحرومين لا يتحدثون فى السياسة ومن ناس لا يسمعون أساسا عن وجود دستور فما بالك بجهلهم بإمكانية تغييره أو تعديله! منذ سنوات كنا نعرف شيئا اسمه تقرير الأمن العام، كان يصدر سنويا عن مصلحة الأمن العام التابعة للداخلية بطبيعة الحال ويشمل إحصائيات عن جميع الحوادث والجرائم التى ضبطتها أجهزة الأمن وكنا نعرف من خلالها تزايد جرائم بعينها أو انخفاض معدلها ومدى نشاط أو خمول أجهزة الأمن فى تتبع قضايا (خصوصا المسجلة ضد مجهول)! أين هذا التقرير الآن؟ اختفى ولم يعد يصدر أو لم يعد منشورا ومتاحا للرأى العام وهى دلالة كاشفة لهذه الرغبة العميقة فى إخفاء الحقيقة عن الناس والحمد لله أنهم لم يفكروا فى إصداره مزورا ومزيفا بأرقام وإحصاءات غير حقيقية، لكن الدلالة المؤكدة أن اختفاء التقرير فى سنوات وزارة العادلى يوضح مدى الإخفاق الأمنى الجنائى الذى نعيشه مع استغراق نظام مبارك حتى كتفيه فى قضايا الأمن السياسى الأمر الذى جعل عدد المعتقلين فى مصر يتراوح بين ١٦ ألفا و ٢٢ ألف معتقل سياسى (وزير الداخلية بابتسامة ضابط أمن دولة لا تخفى من على شفنيه أثناء التحقيق مع متهم قال فى البرلمان إنه لا يعرف عدد المعتقلين لأنه فيه ناس داخلة وناس خارجة!! كأنه لا إحصاءات ولا بيانات ولا أرقام ولا سجلات للمعتقلين الخارجينة والداخلين عندهم) نحن لا نملك إذن إحصاءات محددة للمعتقلين السياسيين ولا لجرائم القتل والمخدرات والحطف والاعتصاب فى مصر لكننا نستطيع أن نقول باطمئنان شديد إن موجة من العنف الظاهر والمكتوم

تنشر لدينا بشكل هوسى ووحشى، خذ عندك ما نشرته جريدة الجمهورية في ٢٢ أكتوبر الماضى (تكشف أجهزة الأمن بالقلبوية جهودها لسرعة كشف غموض مقتل طفلة عثر على جثتها مقتولة وعارية تماماً ومصابة بعدة إصابات مختلفة بأجزاء الجسم ومشوهة وسط حظيرة مواشى بكفر شكر. تم حصر جميع الأشقياء والخطيرين ومناقشتهم. وكذا البحث عن أى خلافاً لأسرة المجنى عليها.. وإن كانت التحريات المبدئية تشير إلى أن الجانى تخلص من المجنى عليها بعد اغتصابها.. وعندما تعرفت على ملامحه قرر التخلص منها بهذه الطريقة الوحشية!! لم يتم والد الطفلة أحداً فى محضر الشرطة وقرر أن علاقته جيدة بالجيران والأهل.. وأكد أن ابنته سوية ولا توجد بينها وبين الأسرة أى مشكلات.. وأنه أبلغ عن غيابها قبل العثور على جثتها بساعات). مغتصب فى ريف، وليس فى مدينة، فى بحرى وليس فى قبلى، ثم يغتصب ويقتل، ثم لا يكتفى بالقتل بل يشوه ويقطع، ثم يتركها عارية.. إلى هذه الدرجة من العدوان! مثلاً جريمة أخرى نشرتها جريدة الجمهورية فى ٢٣ أكتوبر الماضى وهى غاية فى التعبير عما وصلت إليه مصر من تفسخ وعنف وعدوانية (نفجرت مفاجآت مثيرة فى حادث «كتيبة الإعدام العائلية» بالجيزة التى تتكون من الأم م، أ، ح «٤٥ سنة» وابنيها م «١٩ سنة» عاطل وش «١٧ سنة» ربة منزل وشقيقها ع «١٧ سنة» وقرينها إ «١٥ سنة» عاطل قتلة العاطل ش أ ع «١٩ سنة» قرروا تنفيذها للانتقام من المجنى عليه الذى حول حياتهم إلى جحيم بعد أن خطب «ش» وأقام علاقة محرمة مع والدتها «م» وأنجب منها طفلة فاضطرت الأم إلى الزواج منه. لكنه لم يترك الابنة «ش» فى حالها وحاول إقامة علاقة معها. ولذلك اجتمعت «م» مع ابنيها وشقيقها وقرينهم وأصدروا حكماً بإعدامه. وأكدوا أنهم غير نادمين على ارتكاب الجريمة البشعة. لأن المجنى عليه يستاهل القتل والحرق. إنهم نفذوا الجريمة فى آخر رمضان ليحرموه من فرحة العيد. روى المتهمون قصة جريمتهم. فقالت "ش" إن السباك حضر من منطقة دار السلام وأقام فى منزلهم. ومع مرور الوقتبادلها الحب والإعجاب. وأخبرته أنها لا تستطيع أن تعطيه أى شيء سوى بالحلال. فتقدم لخطبتها ووافقت

الأم لأن والدها متوفى. ومضت الأيام سريعاً. واعتاد التردد على شقتهم في حضورها وغيبها واكتشفت أنه أقام علاقة غرامية مع والدتها. تواصلت اعترافاتها إن صدمتها الأكبر كانت عندما اكتشفت أن والدتها حامل من خطيبها وكان لابد من الحل وقررت والدتها أن تتزوج منه وبعدها أنجبت طفلة. وأصبح خطيبها زوج أمها في نفس الوقت ولذلك طالبت بالابتعاد عن طريقها لكن دون جدوى فقد ظل يعاكسها كلما شاهدها ويطلبها بأن ترفع له الراية البيضاء. إلا أنها كانت ترفض ولا تتصور أن العاطل كان يريد أن يجمع بينها ووالدتها. تذكر "ش" نقطة التحول في تنفيذ هذا الحادث عندما رفضت حب زوج أمها في أحد الأيام فألقى عليها ماء النار وهددها بالقتل وعلمت والدتها بما حدث. فاجتمعت مع عدد من أفراد العائلة وفي هذا الاجتماع تم اتخاذ القرار الصعب بإعدام الشاب الذي حول حياة العائلة إلى جحيم. وقال شقيقها إنه اشترى ساطوراً من أجل تنفيذ العملية بعد أن اختاروا وقت تنفيذها قبل العيد مباشرة. حتى يتم حرمانه من «فرحة العيد» وفي الفجر استغلوا نومه وانهاه عليه الخمسة بساطور وبالسكاكين ضربة رجل واحد وحاول المقاومة والاستغاثة لكنهم سرعان ما أحجزوا عليه. خلال وقت قصير وقطعوا جثته للانتقام منه حتى يكون عبرة لكل من يحاول فرض بلطجته على الناس بهذه الطريقة. أما خالها فقال إنهم قرروا تنفيذ العملية منذ شهر عندما ألقى شعبان ماء النار على «ش» وهددها بالقتل إذا لم توافق على إقامة علاقة محرمة معه. رغم زواجه من أمها وإنجاب طفلة منها. وحددوا موعداً لتنفيذه في رمضان وقبل العيد أثناء نوم المحنى عليه، حتى يتمكنوا من تنفيذ الجريمة لأنه بلطجي وليس في إمكانهم مواجهته وهو في وعيه ولذلك انهالوا عليه بالبلطة والسكاكين حتى الموت. ولم يتمكن من الاستغاثة بالجيران حتى مات. أما الشقيق الآخر فقال إنهم رغم تنفيذ الجريمة وتقطيع جثة المحنى عليه فإنهم طلبوا من ش أن تلقى على وجهه وجسده ماء النار بعد موته للانتقام منه مثلما فعل فيها. ولذلك فهم ليسوا نادمين على ارتكاب الجريمة بل يشعرون بالسعادة للانتقام) اللافت هنا أن سن الولد المقتول ١٩ سنة فقط فضلاً عن أن الخال والشقيقين بدوا وكأنهم قبلوا

بزنا الأم مع خطيب ابنها دونما رفض كبير، ثم باتت القصة أفدح من مجرد كونها جريمة شرف فالحاصل أن الشرف هو آخر ما تسأل عنه في هذه الجريمة ولكن الأخطر هي هذه الحالة العدوانية العنيفة الكارثية فقتل شاب بالسّم من زوجته أمر أسهل وأقل عدوانا من مشاركة خمسة في قتله ثم ذبحه ثم تشويهه بمية النار!! وفي جريمة اخرى نشرتها جريدة المصرى اليوم في ١٧ أكتوبر الماضى أيضا نقرأ (تبين من المعاينة وجود جثة لفناة ١٥ سنة داخل شقة بمدينة أخميم بها إصابات ظاهرة وجروح قطعية فى الوجه والرأس والصدر واحتراق جزء كبير من الجسد والملابس، دلت التحريات على أن والدتها «٤٥ سنة» أرملة دست لها الحبوب المنومة وانهالت عليها ضربا بمفتاح أسطوانة البوتاجاز وسكين.. للتأكد من وفاتها سكبت عليها كمية من الكيروسين). ليس فقط قتل أم لابنتها بل قتلها رباعيا، تخدير وضرب وذبح ثم حرق، ثم ننقل إلى الصعيد حيث تمثل المرأة (أو من المفروض) العرض والأرض والمصونة المكنونة إذا بانقلاب القيم تماما فى حادثة أخرى منشورة فى الجمهورية فى ١٨ أكتوبر نفسه (لاحظ هذا أكتوبر فقط وهذا بعض مما قرأته فقط وهذا بعض مما نشر وهذا بعض مما حدث ولم ينشر وفى شهر واحد فقط أكرر (بلاغ من «م.ح.م» بقرية أتليدم بأبو قرقاص بقيام أحد أبناء القرية ويدعى «س ف م» «٢٦ سنة فلاح» أو أم (ع) «٢٢ سنة» بائع متجول و(ص س ك) «٢٢ سنة» فلاح، بتهديدها بأسلحة بيضاء واصطحابها إلى منزل الأول والاعتداء عليها ثم نقلها لمنزل شقى آخر الذى احتجزها ٦ أيام واعتدى عليها. تم القبض على المتهمين وقررت النيابة حبسهم ٤ أيام على ذمة التحقيقات. وفى واقعة أخرى تمكن رجال الأمن من إنقاذ أ ع «٢٠ سنة» من محاولة اعتداء من ٣ أشخاص وسط الزراعات بعد أن اختطفوها من (سيارة أجرة). ليس على حسنى مبارك أن يخاف من المعارضين ولا أن يخشى من الإخوان المسلمين على عرشه وحكمه بل أظن أن عليه أن يخاف ويخشى من القتلة ومحتطفى النساء ومغتصبى البنات على حكمه وعرشه فالفوضى القادمة فى مصر لن يكون فيها معارض ولا إخوانى سيكون فيها فقراء ومطحونون ومحرومون

ماديا وجنسيا اشتد بهم الغضب إلى درجة العنف والقتل والعدوان، ولن يحطموا
يومها واجمحات محلات أو كباريهات شارع الهرم كما حدث من قبل بل سيصعدون
إلى العمارات والبيوت وسيحطمون كل شيء في طريقهم..وأول ما سيتحطم
ساعتها هو استقرار حكم مبارك!

كرسى الحكم

يقول الله عز وجل: «إن أرادني الله بضرّ، هل هنّ كاشفات ضرّه، أو أرادني برحمة، هل هنّ سكات رحمته، قل حسبي الله، عليه يتوكّل المتوكلون».

كرسى الحكم

يضرب البعض كفا بكف ويقول طيب وآخرتها إيه؟ الناس تقول (مش معقول حسنى مبارك يتغير أو يمشى أو يرحل هو ونظامه) ثم تضيف أسوأ من هذا يأسا حين تقول (مش معقول إننا إحنا اللي تقدر نغيره)، أن يتغير حسنى مبارك ويأتى رئيس آخر ليس ابنه هذا بمثابة الخيال والخيال عند كثير من الناس، تعودوا مبارك وتعاملوا معه كما يتعامل البشر مع ظواهر الطبيعة كالمطر والزلازل والبراكين والليل والنهار باقية دون فناء حتى يرث الله الأرض ومن عليها وقد تصدر للناس إحساس الخلود والبقاء الذى يديه الرئيس ورجاله ونظامه كأنهم ضد الفناء السياسى والبيولوجى، من كثرة السنين التى عاشها مبارك رئيسا ومن استمرار حكمه أكثر من ربع قرن باتت الناس لا تتصور أنه سيرحل عنها أبدا وبعضهم من فرط الاستسلام للأمر الواقع (على رأسه) صار لا يصدق أن هناك رئيسا بعد مبارك وأن الذين يهتفون (نبايعك للأبد) إنما يقصدون بالأبد يوم القيامة وليس أى شيء آخر! ومن ثم صارت المهمة صعبة للغاية أن تقول للناس لا، إن مبارك ونظامه ونجته يمكن أن يتغيروا ويرحلوا ويبدلنا الله أفضل منهم أو حتى أسوأ بشرط أننا نملك فى أى لحظة أن نحاسب أى رئيس ونعاقبه أو نغيره متى شئنا أو أردنا، والأصعب أن تقنع الناس أنهم هم وحدهم القادرون على تغيير مبارك ومنع ابنه من الوصول إلى عرش أبيه فيجلس عليه ربع قرن آخر تفنى فيه مصر

وتضع كما ضيعها السيد الوالد، وأن يأتوا برئيس جديد منهم يرضونه ويقبلونه ويجاسبونه ويسائلونه لا يتأبد على مقعد الحكم ولا يتصرف كأنما فرعون موسى يحكم شعب مصر! البعض منا الذي لا يزال لديه أمل أن هناك رئيساً أكيدا غير مبارك سوف يحكمنا وأن مبارك ليس نهاية التاريخ المصرى لكنه ينتظر معجزة من السماء تذهب بالمستبدين والفاستدين من حكام هذا البلد إلى حيث ألفت، لكنه طول الوقت يسأل من البديل؟ من غير مبارك؟ وهو سؤال ذليل سقيم كأنما مبارك ملاك من السماء وقد توقفت الملائكة عن الهبوط إلى الأرض، وكأن رئاسة مصر وحة على كتف ثلاثة رجال (عبدالنصر والسادات ومبارك) ولدوا بها فلا أحد غيرهم يقدر عليها (ومع الحراب الذى نعيشه مازلنا نعتقد أن لن يقدر عليها سواهم)، أو كأن رئيس مصر ليس كئله شيء، إن أى مصرى يرى فى نفسه القدرة والقوة والعقل والحماسة ليحكم مصر فليتقدم ويعلن ويعرض نفسه على الناس فنختار من نراه أكفاً وأفضل، هذا هو بديل مبارك أم أن يتحول مبارك إلى معجزة بشرية لا يمانه أحد ولا يساويه شخص حتى يدفعه عن مقعده فى انتخابات رئاسة فهذا من الأوهام المزروعة فى ذهن المصريين تماما مثل القصة البديعة للعظيم يوسف إدريس (حمال الكراسى)، اقرأ معى شيئاً منها لتعرف مقصدى ومبتغى، يقول (صدقوا أو لا تصدقوا، فمعدرة لا يهمنى أبداً رأيكم، يكفى أنتى رأيته وحادثته وقابلته وشاهدت الكرسي، كرسي هائل تراه فتظن أنه قادم من عالم آخر أو أقيم من أجل محرجان.. ضخم كأنه مؤسسة، واسع القاعدة، ناعم، فرشته من جلد النمر، ومسانده من الحرير، وحلمك كله إذا رأيته أن تجلس عليه مرة أو لحظة.. كرسي متحرك، يتقدم بتؤدة كأنه موكب المحمل حتى لتظن أنه يتحرك من تلقاء نفسه، وتكاد من الرعب أو الدهول تخر أمامه وتعبده وتقدم له القرايين، ولكن فى آخر وقت ألمح بين الأرجل الأربعة الغليظة المنتهية بجوافر مذهبة تلمع، ساقاً خامسة ضامرة غريبة على الفخامة والضخامة، ولكن لا لم تكن ساقاً، كانت إنساناً نحيفاً معروفاً قد صنع العرق على جسده ترعاً ومصارف وأنبت شعراً وغابات وأحراشاً، صدقونى فأنا بالأمانة المقدسة لا أكذب ولا أبالغ، بل أنقل فى عجز ما رأيته، كيف

استطاع نحيف هش كهذا الرجل أن يحمل كرسيًا كهذا لا يقل وزنه عن الطن أو ربما أطنان؟ ذلك هو المذهب للعقل وكأنه شغل حوالة، ولكنك تتمعن وتعود تتفحص فتجد أن ليس في الأمر خديعة وأن الرجل حقيقة يحمل الكرسي وحده ويتحرك به.) ثم يكمل يوسف إدريس قصته (كان الرجل بحمله قد أصبح على قيد خطوة منى وأصبحت أرى وجهه الطيب رغم كثرة ما فيه من تجاعيد، ومع هذا لا تستطيع أن تحدد له عمراً، ورأيت ما هو أكثر، فقد كان عارى الجسد لا يغطيه إلا حزام وسط متين يتدلى منه ساتر أمامي وخلفي من قماش قلوع المراكب، ولكنك لا بد تتوقف وتحس بعقلك قد بدا كالغرفة الخالية يصنع صدى، إنه يبدو في لباسه غريباً ليس على القاهرة وإنما على العصر كله، تحس أنك رأيت له شياً في كتب التاريخ أو الحفريات، وفوجئت هكذا بابتسامة فيها ذلة السؤال، وبصوت وبكلام: - الله يرحم والديك يا بنى.. شفتش عمك بتاح رع؟ وهجمت عليه: - اسمع.. اوعى تقول إنك من المصريين القدماء.. - لهو فيه قدماء وجداد؟ أنا من المصريين وبس. - وإيه الكرسي ده؟ - شيلتى.. أمال أنا بادور على بتاح رع ليه؟ عشان زى ما أمرنى أشيله يؤمرنى إني أنزله، أنا اتهد حيلى. - إنت بقالك كثير شايله؟ - كثير قوى ماتعدهش من أيام ما سموا النيل نيل. وتماماً توقفت كل قدرة أو رغبة في الدهشة عندى، إن من يحمل كرسيًا بهذه الضخامة والثقل للحظة، ممكن أن يحمله لآلاف السنين. لا دهشة ولا اعتراض كل ما فى الأمر سؤال: - وافرض مالقيتشى عمنا بتاح رع تفضل شايله؟ - أعمل إيه؟ أنا شايله ودى أمانة، خدت الأمر إني أشيلها أحطها إزاي من غير أمر؟! أنا شايل ودى أمانة وشايل الأمانة ومسئول عنها. - لغاية امتى إن شاء الله؟ - لما يجبنى الأمر من بتاح رع ولكنى صرخت - وقد بدأ يتحرك - أوقفه، فقد لاحظت شيئاً كالإعلان أو اللافتة مثبتة فى مقدمة الكرسي، بالضبط كانت قطعة من جلد غزال وكان عليها كتابة قديمة وكأنها النسخ الأولى للكتب المنزلة، وبصعوبة طالعت: «يا حمال الكراسى.. لقد حملت ما فيه الكفاية.. وأن لك أن يحملك كرسي.. هذا الكرسي العظيم الذى لم يصنع مثله لك أنت وحدك.. احمله وخذه إلى بيتك وضعه

في الصدر وتربع فووقه طول عمرك وحين تموت يكون لأبنائك». وهذا هو أمر بتاح رع يا سيادة شيال الكراسى، أمر صريح صادر في اللحظة نفسها التي أمرك أن تحمل فيها الكرسي، ومهور بامضائه وخرطوشه. بفرح عظيم قلت له كل هذا، فرح متفجر كمن كاد يخنق، كنت أتوقع فرحة مماثلة، انفراجة حتى، ولكن وجدت لا شيء. - الأمر مكتوب فوق رأسك أهه ومن زمان مكتوب. - بس أنا ماباعرفش أقرأ. - مانا قريته لك. - أنا ما باصدقش إلا بأمارة.. معاك أمارة؟ ولما لم أجب، غمغم غاضباً وهو يستدير: - أهو ما بينونيش منكو غير العطلة.. يا ناس، والشيلة ثقيلة والنهار الواحد يدوبك لفة. ووقفت أرقبه وقد بدأ الكرسي يتحرك، حركته المتتدة الوقور التي تظن أنها من تلقاء نفسه، والرجل قد أصبح مرة أخرى ساقه النحيلة الخامسة القادرة وحدها على تحريكه. وقفت أرقبه وهو يتتعد، لاهثاً بين وعرقه يسيل. وقفت حائراً أتساءل: أألحقه وأقتله لأنفس عن غيظي؟ أأندفع وأسقط الكرسي عن كنفه بالقوة وأريجه رغماً عنه، أم أكتفى بالسخط المغيظ منه؟ أم أهدأ وأرثي لحاله؟ أم أصب اللوم على نفسى أنا لأنتى لا أعرف الأمارة؟) هذه خلاصة قصة يوسف إدريس حمال الكراسى (مجموعة بيت من لحم) التي يحاول أن يشرح من خلالها للمواطن المصرى الذى يضع كرسي العرش فوق رأسه كى يجلس عليه فرعون آخر أو رئيس آخر أن هذا الكرسي كرسي حكم مصر لك أنت يا مغفل، يا أهبل، أنت الأولى به أنت يا صاحب البلد، بدلا من غريب أو عجيب أو طيار أو ابن طيار أو فاسد أو مستبد، كرس حكم المصريين للشعب وليس لرئيس متأله ولا لوريث ملكى يظننا سكان ضيعة أو عزبة ضمن الورث، هذا النظام المصرى الحاكم برئيسه ونجله وأمانة سياساته وسياسته التي أذلت المصريين وأفقرتهم ورمت بهم تحت أقدام الدول، عدو يدوس وشقيق يهين وآخرون يبيعون ويشترون فينا، لن يرحل بالمعجزات السماوية لن نصحو من النوم فنجد رجاله قد مضوا وانتهوا، بل هم جالسون جاثمون قاعدون ومدللون رجلهم طالما نحن لا نعمل ولا نجتهد فى رمى هذا النظام فى سلة قمامة التاريخ، كرسى حكم الشعب يملكه الشعب، بتاع الشعب،

وليس ملكا لشخص أو لوريث، كي نبني وطننا بدون فساد ولا استبداد ولا فرعون إله يحكم مصر ولا ولي عهد يطمع أن يرثنا مع القصر والثروة ونصوص الوصية، يجب أن نقتنع أننا مَلَأك هذا البلد ومَلَأك هذا الكرسي وليس السيد الجالس أو الابن الوارث، لا تقعد تقولى مين وامتى وفين وإزاي؟ والبديل والدليل وهذا الكلام الساكت بل أنت يا مواطن صاحب الأمر والنهى وتجب اللى تجيبه وتمشى اللى تمشيه والأمر ليس مستحيلا ولا بعيدا فالله سبحانه وتعالى قد قال فى كتابه العزيز «سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عَسْرٍ يُسْرًا». وقال: «ومن يَتَّقِ اللَّهَ، يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ». المطلوب توكل لا تَوَاكَل، عمل لا مَلَل، إيمان لا يَأْس، حمد لا قعود، ويجعل الله بعد عسر يسرا وبعد شدة فرجا، ليس بعيدا أبدا أن تتطهر مصر من حكم فاسد وأن تقوم مصر بعد رقدة وأن تصحو بعد نومة. لقد قال تعالى: «أو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ، ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ: كَمْ لَبِثْتَ، قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ، فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ، وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا، ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». يقول الإمام التتوخي فى كتابه (الفرج بعد الشدة) لقد أخبر الله تعالى: أن الذى مر على قرية، استبعد أن يكشف الله تعالى عنها، وعن أهلها، البلاء، لقوله: أنى يحيى هذه الله بعد موتها، فأماته الله ثم بعثه... إلى آخر القصة، فلا شدة أشد من الموت والخراب، ولا فرج أفرج من الحياة والعمارة، فأعلمه الله عز وجل، بما فعله به، أنه لا يجب أن يستبعد فرجا من الله وصنعا، كما عمل به، وأنه يحيى القرية وأهلها، كما أحياه، فأراه بذلك، آياته، ومواقع صنعه. وقال عز وجل: «أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه». ولا والله لا نخاف أبدا بالذى دون الله من بشر فان ولو تأله بقوانينه الجائرة وقوات أمنه الغاشمة ومناققيه ومدلسيه، نسلم لله أمرنا ولا نستسلم لحاكم أو رئيس نجعل نفسه خالدا لا يرحل وملكنا لا يرحم وفرعوننا لا

يخشع، أنت تسأل ومن ينجينا ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر، قل الله ينجيكم منها، ومن كلّ كرب، اصبرى يا مصر وثابرى، واعملوا أيها العاملون ضد فاسد ومستبد وسين الله علينا كما قال عز وجل: «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون، وهامان، وجنودهما منهم، ما كانوا يحذرون». لن يترك الله أناسا يعملون في سبيله دفاعا عن الحرية في مواجهة من يريدون مواطنى هذا البلد عبيدا لرئيسهم وحزبه وابنه من دون الله، الذين يدافعون عن الأمة وحقتها في القوت والرزق دونما سرقات ونهب وتبديد لثروة البلد واعتداء على المال العام، بيت مال الأمة، والذين يقاتلون ضد استبداد الحكم الذى جعل كل شيء رهن إشارة إصبع رئيس وتحت أمر رمشة من عين حاكم وجعله قادرا على أن يقول للشيء في هذا الوطن كن فيكون كأنما يقتص من حق الله يقتل هذا ويسجن هذا ويدبر مكيدة لذلك ويعصف بهؤلاء ويعذب هذا دونما أن يرده قانون فهو مفصل على هواه ولا يردعه دستور فهو موضوع تحت قدميه، هذا النظام الذى جعل الحاكم سمرديا أبديا لا يمشى ولا يمضى إلا بالفناء وقدر القضاء، يتربع ربع قرن ويزيد دون إرادة الأمة التى زيفوا بيعتها، الذين يحاربون هذا الظلم وتلك الألوهية يبعون من الله عوناً فيجيبهم، لينتبه هذا الشعب المبتلى بالظلم والقمع والحاجة والفاقة إلى أن الله لن يضيع عملهم إن عملوا لمواجهة هذا الظلم والتصدى لذلك الافتراء حتى ولو كان كثير منا خائفا جزعا قلقا على نفسه وأهله، قال تعالى: «ولنبؤنكم بشيء من الخوف، والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون». أهنالك غيرنا مبتلى بالخوف من الاعتقالات والتعذيب وتلفيق القضايا وتزوير الانتخابات وبطش حكم عجوز، أهنالك غيرنا مبتلى بفقر يصل لنصف المصريين وأكثر ومرض ممض يعرض فى أكبادنا وأجسادنا وتعتل منه جموع المصريين من فيروس سى وسرطان وفشل كلوى وكبدى وسكر وضغط، أهنالك غيرنا لا يزرع قوت يومه ويستورد من الغريب والأجنبي ما يسد

جوعه من الثمرات، نعم نحن هؤلاء فمالنا إلا أن نهتف كما جاء في الآية الكريمة: «وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فأتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين» صدق الله العظيم.

الانحناء لله!

يقول الرئيس مبارك إنه لن ينحنى لغير الله، عظيم جدا فقط الأمر يختلط على عقلى المحدود لهذا أسأل هل يعتقد الرئيس أنه مكلف بحكم مصر من الله تعالى فلا ينحنى إلا له أم من صناديق الانتخابات فلا بد من الانحناء أمام إرادة الجماهير؟ إذا كان الرئيس يعتقد أن الله هو الذى اختاره ومن ثم يوجهه فهذه كارثة تؤدى بنا إلى أن مبارك يحكمنا بنظرية التفويض الإلهى وهو ما يبرر كذلك تمسك مبارك المذهل بحكم مصر إلى الأبد وحتى آخر نبضة فى قلبه كأنما كل ما نسمعه عن زهده فى السلطة كان هشيا تذروه الرياح وكل ما يردده عن تبعه وممله ورغبته فى الراحة كان فض مجالس وحوارات! ومع ذلك فأحدا لا يطالب مبارك إلا بما ألزم به نفسه على الأقل منذ أيام (دعنا مما ألزم به نفسه فى أول عهده وتراجع عنه تماما وبلا خففة تردد وبلا ذرة من أسى مثل ترك الحكم بعد ولايتين وحكاية الكفن وجيوبه) ما ألزم به مبارك نفسه هو الانحناء لله عز وجل فهل الله يأمر بتعذيب المعتقلين والمساجين؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر بسجن الناس بلا محاكمات عشرات السنوات؟، هل الله عز وجل يأمر بإلقاء ٢٢ ألف معتقل فى السجون وتعذيب المواطنين فى أقسام البوليس ومقرات مباحث أمن الدولة؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر بالتنصت والتجسس على الناس؟ هل الله الذى لا ينحنى مبارك إلا له يأمر الولاة بالإفساد فى الأرض وترك المفسدين يبهون مال الله ومال الأمة؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر حاكما بأن يجعل شعبه فقيرا لا يجد اللقمة ولا ما يسد به جوعه؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر حسنى مبارك بمخالفة اليهود ضد المسلمين؟ هل الله عز وجل يطالبه بتأييد إسرائيل ضد حزب الله فى لبنان ويأمر بالألأ ينتصر مبارك للمسلمين وأصحاب الحق فى فلسطين وهل يأمر

الله بالفرار يوم الزحف وعدم الوقوف والتأييد والمساندة للفلسطينيين، هل يأمر الله مبارك بأن يقف على الحياد بين إسرائيل والفلسطينيين؟ هل يأمر الله بتسميم عبيده بالماء الملوث والطعام المسرطن؟ هل يأمر الله بموالاتة الصهاينة؟ في الأمم المحترمة وفي الشعوب الديمقراطية الرئيس ينحني لإرادة الأمة وأصوات الشعب والرئيس المؤمن هو من ينحني لمواطنيه كما ينحني لله في صلاته ويعبده إنما المواطنون هم أصحاب الحق على الرئيس والذي يريدونه يكون أما أن تكون قرارات الحاكم مرهونة بعلاقات سماوية فهذا يجعل نظام مبارك عاريا أمام الإخوان المسلمين تماما فإذا كان الكلام عن تقوى الله والحاكم القوام الصوام فالإخوان المسلمون أولى وأحق بالظاهر فليس لنا سوى الظواهر والبواطن لله سبحانه وتعالى؟، لكن متى كانت آخر مرة انحنى فيها الرئيس مبارك لله؟ هل هو يوم مد قانون الطوارئ؟ هل وهو يلتقي الناس في السجون؟ هل حين عين ممدوح مرعى وحيب العادلي؟ هل وهو يعانق إيهود أولمرت؟ هل حين مات حوالى ألفين في حريق قطار الصعيد وحوادث القطارات التالية أم حين غرق أكثر من ألف ومائتى مواطن في حادث غرق العبارة؟ أم حين هرب صاحب العبارة؟ أم حين ماتت ضحايا الماء الملوث؟ أم حين تم سجن أيمن نور وطلعت السادات وعصام العريان والمرحوم حسن الحيوان؟ متى انحنى مبارك لله في غير الركوع والسجود في الصلاة؟ لقد قال مبارك في خطاب أمام مجلس الشعب إنه لن يخضع للضغوط ونحن لا نفهم ما الضغوط التي يتعرض لها مبارك بالضبط، ما ينور شعبه ويقول، هل هي مطالبة الشعب بالإصلاح السياسى ورحيل نظامه عن الحكم؟ هل ضغوط القضاة لنيل استقلالهم والصحفيين لإلغاء سجنهم وضغوط أساتذة الجامعة لإنهاء سيطرة أمن الدولة على الجامعة أم ضغوط الصيادلة والأطباء والعمال من أجل حق العيش بكرامة وحرية، هل هي الضغوط المقصودة فعلا؟ أم ضغوط من أمريكا وإسرائيل والحقيقة أننا لا نعرف ما الذى لم يفعله مبارك قد يقلق الصهاينة والأمريكان كى يضغطوا عليه فهو عند الصهاينة قبل الأمريكان نعم الصديق العاقل المتعاون المعتدل، فما هى الضغوط التي يقصدها إلا دعوى

الإصلاح وكيف تقنعه بأن الله تعالى يريد الإصلاح السياسى لمصر ويأمر بالعدل والحرية وتحرير الناس من عبودية الحاكم للعبودية العظمى وهى عبودية الله عز وجل؟ كيف تقنع مبارك بهذا حتى ينحنى لله ويقبل وينفذ طالما أن إرادة الشعب والأمة لا تساوى عنده شيئاً يستحق الانحناء، وإذا كان الأمر تدينا من الرئيس وخشية لله عز وجل فلماذا لم يقل لنا ويعمل كما قال وعمل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه وهو أكثر تدينا من مبارك وأعظم إسلاما من مبارك ومنا ومن حكام المسلمين جميعا حين قال «يا أيها الناس، إن كنتم ظننتم أنى أخذت خلافتكم رغبة فيها، أو إرادة الاستئثار عليكم وعلى المسلمين فلا، والذي نفسى بيده ما أخذتها رغبة فيها، ولا استئثارا عليكم، ولا على أحد من المسلمين، ولا حرصت عليها ليلة، ولا يوماً قط، ولا سألت الله سرا ولا علانية، ولقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لى به إلا أن يعين الله، ولوددت أن أعدل عنها، هى إليكم ردة، ولا بيعة لكم عندى، فادفعوا لمن أحببتم، فإنما أنا رجل منكم» لماذا لم يطلب مبارك منا ما طلبه أبو بكر الصديق الذى لم ينحن صدقا وحقا وبقينا إلا لله فها هو ينحنى للشعب ويطلب ترك السلطة والحكم (استمر فى الحكم أكثر من عامين وأقل من ثلاثة أعوام) لم ينحن أبو بكر الصديق رضى الله عنه لغير الله ومع ذلك قال لمواطنى الأمة ما لم يقله مبارك ولم ينطق به أبدا، أبوبكر وهو خير منا ومن مبارك قال «راعونى بأبصاركم، فإن استقمتم فأعينونى، وإن زغت فقومونى، وإن أطعت الله فأطيعونى، وإن عصيت الله فاعصونى»، إن من ينحنى لله عليه أن يعى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه أحمد بن حنبل عن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن شئتم أنباتكم عن الإمارة وما هى؟ فناديت بأعلى صوتى: وما هى يا رسول الله؟ قال أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزى إلا من عدل..وكيف يعدل مع قريبه) وعن عوف بن مالك أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى وآله وسلم يقول (إنى أخاف على أمتى من أعمال ثلاثة، قالوا وما هى يا رسول الله؟ قال: زلة عالم وحكم جائر وهوى متبع) ويشرح لنا العالم الفقيه الشيخ

محمد الغزالي في كتابه الإسلام والاستبداد السياسي (إني لا أعرف ديناً صب على المستبدين سوط عذاب وأسقط اعتبارهم وأغرى الجماهير بمناواتهم والانقضاء عليهم كالإسلام ولا أعرف مصلحاً أدب رؤساء الدول وكبح جماحهم وقمع وساوس الكبرياء والاشتراء في نفوسهم كما فعل نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، لقد كسر القيود وحرر العبيد ووضع التعاليم التي تجعل الحاكم يتحرى العدل والمحكوم يكره الضيم، أجل لقد فعل ذلك كله وليس يغض - ينتقص - من حقيقته عمق الفجوة بين الحاكم والمحكوم في بلادنا المريضة المهیضة، البلاد التي لا تعرف الدنيا اليوم أترف من أمرائها وأتفه من فقرائها). الانحناء لله أشق من مجرد كلمة بليغة والانحناء لله هو انحناء لحرية عباده ومواطني الشعب والأمة، الانحناء لله هو عدم تولى الحكم مدى الحياة ولا الخلود على مقعد الحاكم والرئيس حتى آخر نفس، إن مبارك يؤكد ما هو مؤكد منذ زمن، أنه يتعامل مع الحكم على أنه حاكم أبدى ملهم لا راد لقضائه وأنه باق كالخلود على كرسي الحكم لا يتصور نفسه خارج كرسي الحكم متراً ولا شبراً ولا يرى أحداً حتى ولو ابنه جالسا على حكم مصر سواء وقد وصل إلى سن الثمانين من عمره ولا يريد أن يغير المادة ٧٧ في الدستور التي تنص على رئيس مدى الحياة فهو يملك كما يبدو واضحاً في خطبه فناعة أنه يحكم للأبد، إن كلام مبارك وتصريحاته تعبير دقيق وعميق عما أسماه المفكر العظيم جمال حمدان في مجلده (شخصية مصر) بالفرعونية السياسية، وهو ما يلخص ويشخص مأساة مصر السياسية المستمرة بلا انقطاع طوال التاريخ والمجسد بلا حياء (لقد صارت هذه الكلمة التعسة «السيئة السمعة» علماً على الطغيان المصرى البشع البغيض في كل مرحلة حتى وإن اختلفت التسميات والمسميات أو تطورت الأشكال والشكليات. فالسلاطين والماليك في العصور الوسطى هم كما أوشك المقرئ أن يضعها فراعنة ولكن مسلمون،، ومن هنا فلئن كانت مصر الطبيعية حديقة لا غابة فقد كانت على العكس بشريا غابة لا حديقة، إن كانت زراعيًا مزرعة لا مرعى، فقد كانت سياسياً مرعى لا مزرعة للأسف. بالتالى فكثيراً ما كانت مصر إلى حد بعيد حكومة بلا شعب سياسياً، وشعباً بلا

حكومة اقتصاديا. وهذا ما يصل بنا في النهاية إلى ذروة النظام.. وذروة المأساة أيضا لقد كانت مصر أبداً هي حاكمها، وحاكمها هو عادة أكبر أعدائها، وأحيانا شر أبناءها، وهو على أية حال يتصرف على أنه «صاحب مصر»، «ولى النعم» أو الوصى على الشعب القاصر الذى هو «عبيد إحساناته» والمصرى الوطنى الطيب هو وحده المصرى التابع الخاضع، إن لم يعتقد حقا أن المصرى لا يكون مصريا إلا إذا كان عبداً أو كادا! والحقيقة أن حاكم مصر طوال تاريخها الماضى إن لم يكن ينظر غالبا إلى الوطن كضيعة الخاصة وإلى الشعب كقطع، فقد كان على أحسن تقدير يتبنى فكرة الراعى الصالح والرعية التوابع، أى فكرة الأبوة والأبوة العتيقة الطيبة أو القاسية بحسب الأحوال). هذه الرؤية الكاشفة التى قدمها جمال حمدان وقد انتهى من كتابه عام ١٩٨٤ بينا كان الجميع يسعى لتمجيد مبارك والبحث عن مبررات لمهادنته ومناقضته والجلوس تحت قوائم كرسى حكمه والدخول فى حظيرة سدنته وأبواقه، كان جمال حمدان يعرف ويفهم وينذر ويحذر من هذه الفرعونية التى تتكون وتشكل فى مبارك كما فى سابقه مع اختلاف درجة الزعامة والكفاءة ويعود جمال حمدان فى الجزء الرابع من كتابه ليشرح لنا منظومة التحول التى جعلت مبارك يحكم ربع قرن ثم يؤكد أنه باق وقاعد وخالد على الحكم حتى آخر نفس يصدر من القلب (نعرف جميعا أن القلب آخر ما يتعطل فى جسد الإنسان وقد تتعطل قبله أعضاء أو وظائف أخرى وليس بالضرورة أن يكون الإنسان قادرا على العطاء حتى لو أنفاسه لا تزال تنبض) نعود إلى جمال حمدان ومنظومته التى يخللها على هذا النحو (وهكذا بقدر ما كانت مصر تقليديا ومن البداية إلى النهاية شعبا غير محارب جداً أو إلى حد بعيد فى الخارج، كانت مجتمعا مدنيا يحكمه العسكريون كأمر عادى فى الداخل. وبالتالي كانت وظيفة الجيش الحكم أكثر من الحرب. ووظيفة الشعب التبعية أكثر من الحكم وفى ظل هذا الوضع الشاذ المقلوب. كثيرا ما كان الحكم الغاضب يحل مشكلة الأخطار الخارجية والغزو بالحل السياسى وأخطار الحكم الداخلية بالحل العسكرى، أى أنه كان يمارس الحل السياسى مع الأعداء والغزاة فى الخارج والحل العسكرى مع الشعب

في الداخل، فكانت دولة الطغيان استسلامية أمام الغزاة بوليسية على الشعب المصرى. من هذا وذاك - كيف لا؟ - جاءت لعنة خضوع الحكم العسكرى الاغتصابى الاستسلامى للاستعمار الأجنبى على المستوى الخارجى، ولعنة خضوع الشعب السلبي المسلم للحكم البوليسى فى الداخل وهى جميعا سلسلة متناقضات ساخرة بقدر ما هى قطعة من الاستمرارية المأساوية المحزنة المخجلة). ماذا ننتظر من حسنى مبارك إذن؟ لا شيء. لا إصلاح سياسى جذرى فهذا يهز عرشه. لا تعديل دستورى حقيقى يعطى كل مواطن حق ترشيح نفسه فهذا يهدد بقاءه فى منصبه. لا تقدم ولا تطور فاستقراره جمود واستمرار نظامه ركود! لا محاربة للفساد ولا نهاية للاستبداد. مبارك لن يفعل شيئا أكثر من الحفاظ على مقعد الحكم حتى آخر نفس يتردد للرئيس وليس ممها ساعتها أن يكون الوطن نفسه قد مات!

اختيار رئيس لمصر!

هل تعرف أن الرئيس السادات اختار مبارك نائبًا وخلفًا له لأن مبارك ضابط مجتهد ولا يشرب الخمر أو يلعب القمار ومن البيت للشغل ومن الشغل للبيت وبياكل كويس ويلعب رياضة؟ هذه هي الأسباب التي قالها السادات رحمه الله وكان مبارك.. أسباب بسيطة وطيبة وعادية جدا فكيف لمبارك أن يقول إن السادات كان محظوظا لأنه وجدني بينما هو (مبارك) لا يجد من يعينه نائبًا وكأن مبارك لا يعرف شخصا (وليكن ضابطا) مجتهدا ولا يلعب قمارا ولا يشرب خمرًا وبياكل كويس! معقولة مصر خلت من صاحب مواهب وإمكانات عظيمة (ونادرة) مثل هذه! لكن المشكلة ليست فيمن يختار مبارك بل لماذا يختار مبارك أو من سبقه من الرؤساء رئيسًا ورئيسًا لمصر؟، هذه هي الكارثة أن تترك رؤساءنا يتوارثون وطننا كأنه الضيعة وكأنه الضياع! قبل أن أقول لك متى قال الرئيس السادات هذه الأسباب التي اختار على أساسها مبارك تعال نذهب للرئيس جمال عبدالناصر لنعرف لماذا اختار السادات نائبًا له، والغريب أن هذا السؤال يزال لا يراوح مكانه منذ تعيين السادات نائبًا فلم نجد شيئًا شافيا يجيب ولا سببا محما يقنع، فلم يحك ناصر واختلف المحيطون به على الأسباب باختلاف عواطفهم تجاه الرئيس السادات بين كارهه ومستكرهه، لكن المؤكد أن لدينا شهادة من الكاتب العظيم محمد حسنين هيكل عن اختيار عبدالناصر زكريا محيي الدين خلفًا له بعد هزيمة يونيه ونية التنحي التي أعلنها ناصر، والطريقة التي اختار بها عبدالناصر زكريا محيي الدين ربما تكون ذاتها هي الطريقة التي اختار بها السادات فيما بعد وقبل أن أحكم على الطريقة دعنا نعرفها حسب رواية هيكل في كتابه الرائع (كلام في السياسة، عام من الأزمات)، يحكى هيكل عن كتابته لخطاب التنحي للرئيس

عبدالناصر الذى أوشك أن يعلنه للناس عقب هزيمة يونيو (كانت الساعة الآن الثامنة وعشر دقائق وسألنى: ماذا كتبت؟ لا بد أنك وجدت صعوبة كبيرة فى كتابته؟ وقلت: إن معى الآن مشروعاَ لا ينقصه إلا اسم من تراه قادراَ على تحمل مسئولية الرئاسة بعدك.. قلت لى أمس إنك مع عبدالحكيم «عامر» اتفقتما على أن يكون شمس بدران هو الرئيس الجديد، ولا بد أن أعترف لك أن ذلك «اتفاق» لم أستطع فهمه، إنتى حتى لم أستطع فى المشروع الذى أعدته أن أكتب اسم «شمس بدران» فى موقعه من نص الخطاب - لماذا «شمس بدران»؟ ثم أضفت: أى رصيد لشمس بدران عند الناس وفى مثل هذه الظروف؟ رد جلال عبدالناصر: شمس مناسب من أجل الجيش.. الجيش بعدما جرى فى سيناء مجروح. ووحداته عائدة من الجهة غاضبة، ولها الحق، والشعب هو الآخر سوف يصل إلى أقصى درجات الغضب عندما يعرف الحقيقة، والخشية أن يحدث احتكاك يعبر فيه الناس عن غضبهم، ويتصرف الجيش بجرحه، وتحدث مواجهة، مصيبة تزيد على مصيبة.. قلت إنتى بصراحة لم أستوعب ما يقول وأضفت: شمس بدران واحد من المسئولين عما جرى بوصفه وزيراً للحربية، ثم هو من جماعة لا رصيد لها عند الناس، وإذا أصبح رئيساً للجمهورية فخشيتى أن غضب الناس سوف يزيد، وسوف يكون الصدام الذى تتحسب له بين الجيش وبين الناس حقيقة مؤكدة وليس مجرد احتمال متوقع. قال رداً على: إنتى اتفقت بالأمس مع عبدالحكيم على اختيار شمس للأسباب التى قلتها لك) خدت بالك مبدئياً أن عبدالناصر قعد مع عبدالحكيم يعينوا لمصر رئيسا، كده لوحدهما بينما لا يملك أحدهما أن يختار لابنه عروسة بهذه الطريقة، مهما كانت مكانة وزعامة عبدالناصر وهى كانت حقيقية ومؤكدة لكنها لا تسمح بهذا اللغو والاستهتار باختيار رئيس لشعب ولا كأن الشعب هنا ولاحد سألها أساسا، وقد قيض الله لمصر رجلا حكما مثل هيكل كى يشارك فى اختيار خليفة، كل واقراً يا سيدى (وجدتتى أقول لجمال عبدالناصر: على عينى ورأسى، أنت وعبدالحكيم فكرتما أمس داخل غرفة مغلقة وتحت ضغوط مخيفة تحيط بهذه الغرفة المغلقة، الأمور أكبر من ذلك

كثير، هذا هو الآن مصير بلد مجيشه وشعبه. مضيت أقول: أنت قررت الاستقالة وهذا قرار سليم، وذلك قرار لا بديل له، والحل بعده، وهو منطوق الأشياء، أن تعود الأمور بالكامل للناس، فيكون هناك رئيس مؤقت يلم أجزاء الموقف وشظاياها ثم يقرر الناس بعد ذلك ما يريدون في استفتاء عام على أساس جديد ودستور جديد. قال جمال عبدالناصر: هل تتصور أن تداعى الحوادث سوف يترك لأحد فرصة لذلك.. لاستفتاء، ودستور؟.....قاطع جمال عبدالناصر نفسه سائلاً: كيف تظن وقع الحقيقة على الناس عندما يعرفون.. عندما يسمعون ما سوف أقوله؟! وأشار إلى ملف وضعته أمامنا على المائدة يحتوي على مشروع خطاب التنحي. وقلت: بالضبط.. وهنا عدم اقتناعى باختيار شمس بدران. وأحسست أنه يريد أن يسمع عن بديل مقنع، قلت: لماذا لا يكون بعدك زكريا محيي الدين؟ وقال مستغرباً: زكريا محيي الدين! وأضاف كأنه يصغى إلى صوت من بعيد «إشمعني»؟ قلت: خطر لى أنه الأقدم بين الأعضاء الباقين من مجلس الثورة، وهذا نوع من استمرار الشرعية، هو أيضاً رجل عاقل. قال: صحيح، لكنك لم تأخذ فى حسابك موقف الجيش ولا موقف الاتحاد الاشتراكى، قلت: الجيش يريد رجلاً يعطيه إحساساً بالاطمئنان بعد كل ما جرى. قال: والاتحاد الاشتراكي؟. قلت: تعرف رأى فيه، ومازلت مقتنعاً به. قال وكأنه يتحدث مع نفسه: زكريا بالفعل رجل عاقل وموزون. وأضاف وصوته يبدو قادماً من بعيد: زكريا أيضاً يمكن أن يكون مقبولاً عالمياً، خصوصاً فى الغرب، هو يعرفهم من زمن طويل، وقد تعامل مع كثيرين هناك عن قرب بعد الثورة، ومع الأمريكان بالذات، خصوصاً عندما كان فى المخابرات. زكريا يختلف عن غيره من القادرين على الاتصال مع الأمريكان إذا اقتضت الضرورات، هو سوف يباشرها من موقف وطنى، ذلك الاتصال فيما أظن سوف يكون لازماً، لكن هناك مشكلة، السوفيت. لاحظ أن موقف السوفيت سوف يكون مهماً لأى رئيس جديد. قلت: فى كل الأحوال فإن شمس بدران لا يمكن أن يكون رجل هذه الظروف. قال: اترك لى الفرصة أفكر... وأضاف: اترك الآن اسم الرئيس المقترح، ودعنا نقرأ

مشروع الخطاب الذي أعدته، وحين نصل فيه إلى الموضوع المناسب نعود إلى المناقشة بمنطق سياق الخطاب. أحسست أن ذلك مطمئن، على الأقل لم يصمم على شمس بدران، وإذن أمامنا وقت قبل الوصول إلى يقين!) شفت الرئيس عبد الناصر سأل ليه زكريا وليه مش شمس وبدت الأمور كأنها فعلاً تتم بمعزل عن الناس والدستور وكل هذه الاعتبارات، كأنها وظيفة في دائرة حكومية وليست رئاسة مصر تتحدد في جلسة بين صديقين وتبدأ بـ «إشمعي»، وتنتهي بـ «سبني شوية أفكر»، ثم يعود بعدها هيكل بالخطاب للرئيس عبدالناصر وساعتها قال له عبدالناصر (لك حق فإن مسؤولية المستقبل تقتضى رجلاً آخر غير شمس، زكريا اختيار معقول، وعندما كنت أنت تواصل القراءة كنت أفكر، وجدته على رأيك أنسب حل، هو عضو مؤسس في مجلس قيادة الثورة، وهو أقدم الأعضاء الباقين إلى الآن، وطنى عقله منظم، يستطيع أن «يلم» الناس، يستطيع أن يحوز ثقة الجيش، سمعته طيبة بين القوات) ويصف هيكل (كنت أنظر إليه والقرار بأن يخلفه زكريا محيي الدين يصدر عنه في زحام الكلام، وكانت نظرتي إليه بما معناه سؤالي عما إذا كانت تلك كلمته النهائية، قال: نعم، وأضاف: وأزداد اقتناعاً مع كل دقيقة..... في عينيه الآن نظرة حزم، خطر لى أنه في حاجة الآن إلى كل أعصابه. سألتى: متى نقول لعبدالحكيم «عامر»؟ أقدر أنه سوف يجن جنونه عندما يسمع أتى اخترت زكريا محيي الدين، سوف يظن أتى خدعته، وأنت تعرف أتى لم أخدعه. كان رأيى أن يترك عبدالحكيم ليسمع قراره مع إذاعة الخطاب، أى إخطار له قبل هذا الوقت قد يدفعه إلى عمل طائش. قال بصوت بدا قاطعاً: لا يستطيع أن يفعل شيئاً، الأمور تجاوزته، تجاوزتنا جميعاً. عاد جمال عبدالناصر يسألتى: لا بد أن أقول لزكريا مبكراً حتى يستعد، أعرف أنه سوف يستهول ما ألقى عليه، لكنه منضبط ولا يستطيع أن يهرب من واجب. سألتى أو لعله سأل نفسه: متى أقول له؟ كان ردى: بعد أن يسمعه في الخطاب، لو عرف قبلها فقد يحاول الضغط لتغير قرارك. وافقتى. ثم عاد يقول لى: حاول أن تتصل بزكريا بعد إلقاء الخطاب، واشرح له ما يساعده على فهم الضرورات، وإذا وجدت رد فعله

رافضاً فأقنعه بتأخير إعلانه حتى ألقاه صباح غد) تخيل رئيس مصر المفترض سيعرف من التلفزيون، وتم اختياره في جلسة بين اثنين (مع احترام وتقدير للقيمة السامقة لعبدالنصر وهيكل)، هل هكذا يتم تحديد مصائر البلاد؟!، أظن بنفس الطريقة وذات المنهج تم اختيار أنور السادات نائباً ثم رئيساً، لا تسألني عن الشعب ولا تفكر في مؤسسات الحكم ولا تلتفت للأجهزة ولا تغير صناديق الاستفتاء (أو الانتخاب) أى قيمة، الحكاية كده، فردية وشخصية ومزاجية وندفع نحن الشعب بل نحن الأمة العربية ثمن اختيار رئيس سابق للرئيس اللاحق، ومع ذلك يبدو هذا الأمر أفضل كثيراً من الأسباب التي سردها السادات مبرراً لاختياره حسنى مبارك نائباً، وحسب ما ذكره الكاتب الراحل الكبير عبدالستار الطويلة فى كتابه (السادات الذى عرفته) فإن السادات لم يسأل صديقاً ولم يتشاور مع شخص ولم يطلب رأياً من أحد (الغريب أن الرئيس السادات لم يكتب فى كتابه الأشهر (البحث عن الذات) شيئاً من أسباب اختيار حسنى مبارك نائباً كما لم نجد الكثير المذكور عنه فيما يخص مبارك) نذهب لكتاب عبدالستار الطويلة ونقرأ معا (سألته لماذا اختار حسنى مبارك نائباً للرئيس؟ ضحك ضحكة حلوة من ضحكاته العذبة وقال لى: سأقول لك.. أنا برضه كان يتخيل لى أنك ستسألنى هذا السؤال.. شوف حسنى عمل نجاحا كبيرا جداً فى الحرب.. وصحيح قوات الدفاع الجوى هى التى لعبت الدور الرئيسى فى إسقاط الطائرات فى الأيام الأولى للمعركة -الحمد لله هذه شهادة من السادات بأن النجاح فى الأيام الأولى للمعركة كان للدفاع الجوى وليست أول طلعة جوية فقط، الله يرحمك يا سيادة الفريق محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى...معلمش ح نعمل إيه أجرك عند الله!!، نعود لكلام السادات وهو يواصل- لكن هو كل المعارك الحربية اللى دخل فيها الطيران المصرى مع الطيران الإسرائيلى انتصر فيها الطيران المصرى وكان الطيران المصرى قبل كده والطيارين المصريين كانوا يخافوا ساعة ما كانوا يشوفوا الطيارة الإسرائيلىة قادمة عليهم، حسنى عرف يربى سلاح الطيران، بحيث إنه يخلق كل يوم عند كل طيار شعوراً بالاعتزاز بنفسه وبالثورة (يقصد السادات ثورة يوليو

بينما لم يسمع جيلنا كثيرا عن إيمان مبارك بالثورة لكن الحمد لله كان يقول لتلاميذه في الطيران عنها!) والقدرة على قهر العدو الإسرائيلي، وبعدين هو شاب، وشاب ذكي وعارف شغله كويس ومستقيم أخلاقياً جداً، إنت عارف كثير من الطيارين بيعملوا إيه إنت ما تعرفوش يا عبدالستار.. حسنى ده سمعته زى البرلنت، فى الجيش أخلاقه ممتازة جداً، ودائماً زى ما إنت قلت عاوز يعرف ويتعلم، ومحبوب بين زملائه، ومالوش فى الطمع. وأنا لازم يكون لى نائب رئيس.. ماحدش عارف الأعمار بيد الله.) المفاجأة هنا أن الرئيس السادات اختار مبارك نائباً عام ١٩٧٥ أى قبل اغتياله بست سنوات ومع ذلك كان متحسباً لأن الأعمار بيد الله وهو الأمر الذى لم يقلده مبارك فيه ورغم أنه يعرف كما المؤمنين جميعاً أن الأعمار بيد الله فهو لم يعين نائباً ربما لأن أعمار الأوطان بيد الله أيضاً، نعود لعبدالستار الطويلة وهو يقول (سألته وأنا أعرف أن الحديث يدخل منطقة شائكة... يعنى كان لازم يبقى نائب رئيس الجمهورية من الجيش.. هل إنت سيادتك بتشوف إن لازم إن المؤسسة العسكرية تستمر فى الحكم؟ فقال لى وهو يضحك: مؤسسة عسكرية إيه بلاش خيابة. يعنى إتم بتوع الكلمات الكبيرة دى.. يعنى أنا مؤسسة عسكرية بقى يا سيدي؟ طيب وعبدالناصر أليس زعيم ثورة مع أنه عسكري؟ والله أنا أتضايق من الزى العسكري أثناء الاحتفالات.. لو كان على أنا عايز أفضل بالجلالية والعباءة. قلت له بصراحة كده: يا ريس.. لكن حسنى مبارك البعض يقول إنه مالوش أى تاريخ سياسى وظروف السياسة حرجة الآن. رد أنور السادات وقال لى: ما هو علشان كده.. مالوش تاريخ سياسى هذه تمثل ميزة عظيمة.. أنا جبته علشان يشرب نوعية الحكم الجديد. سيلازمنى ويعرف القرارات تؤخذ إزاي.. يبقى فيه مرحلة المعرفة فى الأول.. يعرف القرارات دى تتعمل إزاي.. وبعد كده يشارك فى صنع القرارات هو ويصدر القرارات لوحده ومايقاش متأثر بحكم الأحزاب القديمة وفساد العهد الذى مضى وفات(هل كان يقصد عبدالناصر أم الملك؟).. هو راجل نظيف وطاهر وشريف.. على فكرة.. أنا عايز أقول لك حاجة.. إيده نظيفة جداً.. لا يلعب قمار

زى كثير من ضباط الطيران.. ضابط الطيران يبقى قاعد فى القاعدة.. لا يعمل شيئاً وفى الانتظار وراجل عايش على أعصابه لتلبية نداء الخطر وممكن يموت فى طلعة فيلعب دور كوتشينة للتسلية وتمشى معاه بقى بعد كده.. أو يتسلى بحاجة زى الأفلام السينمائية. حسنى لا يلعب ولا يسكر متماسك من شغله لبنته.. ومستقيم جداً.. وليس له متعة فى حياته غير إنه يباكل كويس ويلعب رياضة وكان منوفى. سألته: هل حكاية أن حسنى مبارك منوفى تكون داخلة فى قرارك بتعيينه؟ فضحك وقال لى: أتم ستسمونها الجمهورية المنوفية المتحدة.. أنا صحيح بأحب المنوفيين، وبأحب قريتي.. وبأحب أهل بلدى قوى.. لكن أنا لا أعين واحدا من الشارع فى منصب معين علشان هو منوفى! هل توقفت مثلى عند المواصفات التى لأجلها اختار الرئيس السادات حسنى مبارك؟ أظنها سهلة التوفر وقد تنطبق على سبعين فى المائة من المصريين، لا يشربون الخمر ولا يلعبون القمار، نظيف طاهر شريف، وبلا أى تاريخ سياسى، سبحان الله أهذه الأسباب يحكم رئيس بلدا مثل مصر أنه بلا تاريخ سياسى وأنه لا يشرب الخمر؟!، أهذه الدرجة تصل الأمور عندما تكون فى يد شخص الرئيس يختار بهواه بل ومزاجه وإحساسه وتفكيره؟!، لا وجود للشعب (شعب إيه بقى يقولك بلا تاريخ سياسى دى ميزة!!) ولا تواجد للمؤسسات ولا أى حاجة، المواطن والوطن لا قيمة لهما ولا اعتبار ولا أهمية لاختيارهما، نجلس ننتظر وحيا يوحى على عبدالناصر أو السادات أو مبارك ونبصم ونوافق، البلد اللى يتعمل فيها كده تستاهل أن يحكمها ديكتاتور مستبد يستخف بشعبه ويتحكم فى مصائرهم بكلمة من طرف لسانه، شعب مسكين مضروب على ظهره (بلاش قفاه) كى يختار له رئيسه الشخص الذى يحكمه ويتحكم فيه بينما الشعب نائم على الكنبه قصاد التلفزيون، يختار الرئيس من يخلفه ثم يزورون الانتخابات أو الاستفتاء ثم يشرب الشعب من كيعانه، إيه الأوطان المريحة دي؟ لكن أجمل ما يمكن أن تسمعه فى حياتك هو سؤال عبدالستار الطويلة للسادات (سألته وأنا أحاول معرفة المزيد عن طريقة السادات ومقاييسه فى اختيار الرجال: متى يجيد حسنى

مبارك يا ريس فن الحكم إذن؟ قال: بيتعلم..) والحقيقة أنتى لست مشغولا بسؤال هل تعلم مبارك فعلا فن الحكم؟ فيكفيه شرفا أنه تعلم فن البقاء فى الحكم فحكم أكثر مما حكم عبدالناصر والسادات معا لكن السؤال بعد كل هذا الألم: هل تعلمنا نحن؟

شيوخ الفساد والاستبداد

نزل من الطائرة الشيخ ذو اللحية الخفيفة المهدمة والذي يرتدى بدلا عصرية في برامجه وأمسياته أحيانا وفي لحظات وبرامج أخرى يرتدى الجلباب والطاقيّة البيضاء ممسكا بالسبحة (أنا أقلق كثيرا ممن يتكلم وفي يده سبحة!) فوجئ الشيخ برجال أمن ينتظرونه ويرمون به في سيارة مع لكلمات وشلا ليت مفاجئة وحبسوا ضلوعه بين قبضاتهم وألبسوه عصابة سوداء على عينه، ودفسوا وجهه بين فخذه، كان مذهولا ومبعثرا تماما، منذ دقائق كان في الدرجة الأولى في الطائرة القادمة من الجزيرة العربية يجيونه الناس على برامجه وتساله المضيقة عن فتوى ويرا جع أحد الركاب معه تفسيره للآية القرآنية التي تعرض لها في حلقة الأسبوع الماضي على الهواء مباشرة، وفجأة دون حتى ما يتكلم معه أحد، من غير أن يعرفه شخص بنفسه، أخذوه وكبلوه ودفسوه في السيارة مكما ومعنيا ومع الضرب على القفا والوخز والركل وسبه بالأم والأب شعر بذل مريع وهوان كاسح بدد روحه ومزق أى مقاومة له، المدهش أنه عرف فوراً أنهم رجال أمن الدولة.. هل من طريقة التعامل هل من قسوتهم هل من الكلمات التي تصدر منهم توحى بمعرفة ما لا يعرفه أحد هل من تعمد الإهانة والكسرة هل من سابق خبرته معهم، المشكلة بالنسبة له أن رجال مباحث أمن الدولة يعرفون جيدا أنه بتاعهم، بل لا يتكلم إلا بما يحبون ولا يتحرك إلا بما يوافقون ولا يفتى في تليفزيون أو إذاعة أو أمسية أو ندوة إلا بأوامرهم، هو يزورهم باستمرار ويتلقى نصائحهم على أنها أوامر بل واستضافه أكثر من عميد أو عقيد في حفل ختان حفيده أو في قراءة فاتحة أو كتب كتاب ضابط شاب، وهو كذلك لا يبخل عليهم بهداياه سواء يتقاسم معهم هدايا قادمة من أمراء أو أميرات أو مشايخ الخليج والسعودية أو هدايا بمناسبة

تسهيلات برنسة المقاولات التي يعمل بها سواء تصرّح هنا أو رخصة هناك أو حتى إعادة رخصة قيادة سيارة مسحوبة، منذ بدأ عالم الصعود التلفزيوني وتم دخوله في الدعوة الإسلامية والفتاوى التلفزيونية أو التلفزيونية وهو بتاعهم فهى رسمى نظمى، ليس هناك أكثر من جلسات الفتوى فى مكاتب أمن الدولة حين يدور الحديث عن الزكاة أو الميراث وعندما يجيب على أسئلتهم بجملة " شوف يا فلان باشا الإسلام سمح وسهل " ثم يسهلها الرجل وفق الهوى وحسب الهواية خصوصا حين يذهب الكلام الى الجنس والنساء والزنا وأنواعه ويتندر معهم على حكايات يشوبها بعض الخجل عن بعض الأوائل فيما يخص الجنس والنساء، كل هذا يتبدد الآن فى لحظة، فى ثانية، حين يصل بعد دقائق إلى مبنى جديد فحيم لأمن الدولة (ليس فى لاطوغلى) يحتوى على أربعة أدوار تحت الأرض مزود بتكنولوجيا متقدمة وسرية محكمة ومساحات فسيحة من الرهبة والوحشة، توقع أن يتوقف الإذلال عند مكتب رتبة كبيرة تهزؤه وتجبره بسر ما يحدث ويعتذر ويمضى لكنه فوجئ بإدخاله زنزانة مظلمة ثم تمتد الأيدي لتعريه تماما، وتما معنى تماما، بلا لبس ولا لباس يستره، ثم انهلوا عليه بعصيان كهربائية توخر جسده وأعضاءه التناسلية، ودلق ماء رهيب عليه وهو يهيمهم: أنا عملت إيه بس ؟ وهم يردون : مش عارف عملت إيه يا.....(وتوقع أنت كل البذاءات الممكنة وضع الكلمات الفاحشة المناسبة مكان النقط).

بالمناسبة كان هذا فى رمضان، وألقى الشيخ فى الزنزانة ثلاثة أيام وليالى عاريا ومضروبا ومذلولا ومحانا...تتناوب عليه الدوريات فى الضرب والركل والاعتداء..وفى اليوم الرابع سعدوا به للباشا.

أول ما دخل عليه المكتب تذكر أنه صلى إماما فى هذا المكتب بهذا الباشا وعدد من مرؤوسيه الضباط وكانت صلاة العشاء وأنه تجلى فى الترتيل فأثار إعجابهم لحد مهبر، (لكنه نسى الآن أين هو اتجاه القبلة)، رموا به على الأرض أمام الباشا الضابط، نظر له الشيخ فوجد وجهها غليظا وملامح قاسية وكارهة فانهار الشيخ بالبكاء كالطفل أو أشد ضعفا، بكى وبربر وغرغر وصوت كالنساء وقال

منتجبا:

- أنا عملت إيه بس ياباشا، ده أنا راجلكم، وكل حاجة عنى إنتوا عرفينها وعمري ما قلت كلمة ضد النظام ولا الدولة..

فشخط فيه الضابط :

- وأنت تقدر يا روح أمك..

فأجاب مندلا:

- ما أقدرش ولا أوعى ياباشا ..

فقال له الباشا:

- خلاص قوم اقعد على الكرسي يا شيخ يا عرة يامهزأ، ده أنا كنت باحترمك وولادى بيتفرجوا عليك ومراتى كلمتك فى برنامج قبل كده عشان فتوى، لكن دلوقت بعد اللى عملته خلاص ولا ح أصلى وراك حتى.. بتزنى ياشيخ..

انتفض الشيخ:

- أنا عمري ما أزنى ياباشا ..

- آمال لو مكناش مصورينك..

رد وكأنه نجا:

- يعنى الحمد لله الشرايط عندكم وعارفين إلا القلم فى المحبرة..

ضحك الباشا فأحس الشيخ أنه قد جاءه الفرح..

- عموما احنا بنأدبك عشان حكاية الأميرة..

- يا نهار اسود دى هناك مش هنا..

فقسم الضابط الحوار:

- ليه هوه أنت فاكّر إن هناك مش منفد على هنا، آمال أحنا عارفين الهدايا

الذهب منين والشيكات والجواهر وقعدات القصور وبعدين مش عايزين ولا كلمة ناحية السياسة..

- عمري ياباشا إلا لو كانت بتأيد سياسة البلد بالحديث الشريف والسنة

المطهرة والآيات المحكمات.

رد الضابط الكبير:

- قعدت تمجدهم هناك إنهم كعبة السياسة وحراس الإسلام أمال أحنا مين يا شيخ يا عرة دا أحنا خير أجناد الأرض، خليك في فتاوى النسوان والحريم وطلان الطهارة وامسك نفسك شوية اليومين دول..

ثم ضغط على الجرس بجواره وطلب أن يحضروا ملابس الشيخ وحقيبته التي جاء بها من السفر ويعيدوا له تليفوناته المحمولة، حين خرج من مكتب الضابط وجد وجوه الضباط الأقل رتبة تبتسم له وتودعه بجملة واحدة..
- ادعى لنا يا مولانا..

المدهش أنهم قالوا له إن الإفراج عنه جاء مبكرا يوما كاملا من أجل أن يلحق ببرنامج الأسبوعي وظهر الشيخ الداعية فيه وأخذ يطلق فتاويه بنفس الحماس ولم ينس أن حشر في كلامه شيئا عن طاعة أولى الأمر فقد كان واثقا أن الباشا الكبير يتفرج عليه أو ربما سيدشاهد الشريط صباح اليوم التالي في مكتبه..

أخشى أن أقول إن هذه الحادثة صحيحة تماما وبلا تزيد وأروبيها نقلا عن شهود رئيسيين، لكن أخشى ما أخشاه أن هذه الحادثة هي مفتاح فهم ساحة رجال الدعوة الدينية وشيوخ ودعاة هذه الأيام التي أم فيها رجال الأمن الدعوة إلى الله، فقد تصور جهاز الدولة المصرى وهو جهاز خدام للديكتاتورية أن مقاومة الإرهاب ومواجهة المعارضة تحتاج إلى الدفع برجال دين يسيطرون على الدعوة ويقدمون صورة ومفهوما لإسلام تابع للدولة ومقدس للرئيس ومهدى ومخدر لأى غضب، ورغم أن تجنيد رجال الدين في خدمة السياسة والحكام أمر متعارف عليه منذ زمن لكن ذلك كان يتم في سياق ما من الاحترام لرجل الدين والاحتفاظ بوقار لازم في التعامل مع أى شيخ ولو كان مخبرا للدولة والأمن، ويحتفظ الحاضر السياسى المصرى بأساء شيوخ على علاقة وثيقة كأنها علاقة العمل تماما مع الجهاز الأمنى، لكن المستوى في هذه المرحلة انحدر من الناحيتين، الأمن والشيوخ، وصارت العلاقة واضحة فاضحة والتبعية قائمة على مذلة رجل الدين في مواجهة رجل الشرطة، ولعل القراءة السريعة في دفتر أحوال شيوخ هذه الفترة

تكشف عن شيوخ متهمين بالنصب أو ضرب زوجاتهم أو غصب أموال، أو زنا محارم، أو تزوير في أوراق رسمية، ويتعامل معهم ضباط أمن الدولة كأنهم عساكر لديهم وقد كسروا أعينهم وجرحوا شخصيتهم وابتزروهم بالفضائح أو بالقبض عليهم لتنفيذ عقوبات الفضائح ومع ذلك فهؤلاء حضورهم طاع ووجودهم الإعلامي والتلفزيوني ساحق ماحق ويغمرون برامج الفضائيات ويمطرون الندوات والأمسيات!

إلى جانب هؤلاء هناك الطاقم القديم من الشيوخ بمالئ الدولة ومتعاوني الأمن وهم الرسميون الذين صعدوا إلى أعلى المناصب ويخدمون الدولة بالفتاوى والمبايعات ويحصلون على الترقية والتصعيدات ومكافآت المناصب الشرعية والتشريعية ولعل في مقولة الفقيه العظيم «سفيان الثوري» رضى الله عنه ما يفصل ويفسر حين قال : "ما أخاف من إهانة السلاطين لى إنما أخاف من إكراهم فيميل قلبي إليهم".

من هنا كادت تخلو مصر من مشاهير العمام المستقلة القيمة المحترمة السامقة الشائخة ورحبت وأفسحت الساحة الإعلامية الدينية والوعظية لعمام أمن الدولة وشيوخ رجال الدولة واستحكمت القبضة على أعناق المصريين بين عمائم السلاطين ووعاظ الرئيس ومشايخ فتاوى السلطة. من جهة وشيوخ الإرهاب والتطرف والجهل من جهة أخرى بل يتشارك شيوخ السلطة مع دعاة الإرهاب على إلغاء قيمة العقل والفكر والاجتهاد في الإسلام لصالح الطاعة المطلقة لغير الله من ولاة الأمر سواء كان السيد الرئيس ورجاله أو السيد أمير الجماعة وأتباعه، وضاع العقل المسلم في الساحة المصرية أو يكاد بين خزعبلات تسوقه إلى الجهل وخرافات تقوده إلى التطرف. وعندما تفقد الأمة العالم الجليل المستقل وتسلم نفسها لرجال الدين من خدم الاستبداد وعمائم الفساد فإن العقل المسلم ينفصل عن العصر ويتراجع وينسحب عن العلم والتقدم والتطور ويتقلص العقل أمام الخرافة ويتضاءل العمل أمام التواكل ويتعاطم الدعاء على الأعداء وليس الدعوة إلى مواجهة الأعداء، وقد بات القاسم الأساسي هو إلقاء اللوم على النصارى والغرب

الصليبي ويتم تلخيص الصراع العربي الإسرائيلي بأنه صراع مع أحفاد القردة والخنازير وهذا ما يذهلك من جراء استهبال واستغلال هذا الشعب لنفسه فإذا كان اليهود هم أحفاد القردة والخنازير كما ندعى ونزعم وقد فعلوا فينا كل هذه المرمطة والهزائم المنكرة فمن نكون نحن ساعتها، أحفاد الأرانب والكتنايكت أم أحفاد النمر والأسود (أفتح قوسا لأذكر أن الآية الكريمة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (سورة البقرة آية ٦٥) كانت تحكى عن قرية يسكنها يهود في طبرية أو الطور اصطاد بعض أبناء هذه القرية في يوم السبت المحرم دينيا على اليهود حيتانا - قد لا تكون الحيتان المعروفة عندنا - فعاقب الله المخالفين بتحويلهم إلى قردة وخنازير بين يوم وليلة وبعض المفسرين يعتقدون أن الله مسخ قلوبهم فصاروا كالقردة والخنازير في مشاعرهم وسلوكهم وليس في صورهم وأشكالهم التي بقيت كما هي ولكن شرحت لنا معظم التفاسير (راجع تفسير ابن كثير تحديدا) إن هؤلاء القلة العاصية المغضوب عليها من ربنا قد هلكت وماتت وأفنيت تماما بعد ثلاثة أيام وعاش بقية أهل القرية من اليهود الذين لم يعصوا الله في أمان وخلفوا صبيان وبنات ولا قردة ولا شمبانزى..وأعلق القوس) وها نحن قد عشنا وشفنا بفضل شيوخ وعمائم الفساد والاستبداد اختصار الدين وشعائره في الجلباب القصير واللحية المشعثة والسواك والميكرفون وليس غريبا أن يتحول الميكرفون إلى سلاح تدين في واقعنا المصرى، فالخطباء يصرخون في الميكرفونات وكلما كان صوت المؤذن (وهو في الغالب بواب العمارة) مرتفعا كلما كان أقوى إيمانا وكلما أذاع إمام الجامع (وهو غالبا ضابط متقاعد) الصلاة على الهواء مباشرة بالميكرفون للعمارات المجاورة كلما كان أكثر تقوى مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعرف الميكرفون ولا أمر به، ثم لماذا ينفرد الميكرفون دوننا عن أى اختراع آخر عند المسلمين بعدم وصفه بالبدعة وكل بدعة ضلالة؟ ثم من يتأمل الأسئلة التي تتدافع من أفواه المشاهدين طالبى الفتوى فى الفضائيات يجد كارثة للعقل المصرى والمسلم الذى احترف الصغائر وانحسر فى التفاهات وسيطر عليه فقه دورات المياه وبات المصريون وكأنتهم

يطلبون من الشيوخ فتاوى جنسية ونصائح لأفضل أوضاع الفراش وإمتاع الزوج أو الزوجة وغاب وعى النهضة واستحضار روح الأمة الوثابة للإعمار والتقدم بين الأمم.

المؤكد أن الإسلام الشكلى المعتمد على الطقوس والمظاهر وقشور التدين وصغائر الأمور هو الذى ساد فى البلاد إلى جانب الإسلام المتشدد المتطرف الذى يكفر الجميع مسلمين ومسيحيين على السواء!! ويدعم الإرهاب والدموية ويقدم المسلمين وقد جفت منهم الرحمة وراحت عنهم إنسانية الإسلام، كل هذا لأن شيوخ وعمائم مصر تحديدا أصبح وكأن لهم رتبا فى أجهزة المباحث والأمن.. و صار لا يخشى الله من عباده العلماء بل يخشى أمن الدولة من عملائه العلماء.. ومازلت أذكر الشيخ الذى يتولى منصبا هاما حين طلبت منه الظهور فى برنامج تليفزيونى أعد لتقديمه عن فوائد البنوك فأجبنى بسرعة وبساطة:

- "عايزها حلال ولا حرام" ..

فأجبتة مبهوتا:

- أنا مش عايز حاجة، شوف ربنا عايزها إيه يا دكتور..

فرد واضحا:

- أصل أنا مش عايز أزعل شيخ الأزهر.

إنك ميت

سيادة الرئيس مبارك، سأقول لك ما لم يقله لك مفتيك ولا شيخك ولا خطباؤك ولا فقهاؤك الذين عينتهم وأجلستهم بجوار كرسى عرشك، يبررون ويحللون ما حرمه الله من تعذيب واعتقال وفساد واستبداد ويجرمون ما حلله الله من قولة حق أمام سلطان جائر أو حتى عادل، وسأقول لك ما لم تسمعه من بطانتك التي تنافقك وتمدحك وتصعد بك إلى مصاف الأبرار المقدسين ولا تنطق إلا بآيات شكرك وحمدك على مناصبهم وفوذهم وفلوسهم، سأقول لك ما لم تقرأه من كتبك ومداحيك وطبالي مواكب نفاق السلاطين ومصاحبيك على جناح طائرتك وعرشك، أقول لك سيادة الرئيس إنك ميت... وإنهم ميتون!

أظن أنه في زحام سلطانتك وسلطاتك وفي مشاغل لقاءاتك وتدابيرك وقراراتك ربما نسيت يا سيادة الرئيس أو تناسيت أو تجاهلت أنك ستموت كما ستموت جميعا، فأنت لم تفعل مثلما فعل الفاروق عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين بعد نبي وخليفة حين نقش على خاتمه هذه الكلمات: (كفى بالموت واعظاً يا عمر) عمر بن الخطاب الذي كان يبكي عند سيرة الموت وهو الصحابي العظيم كان يذكر نفسه وهو الحاكم الأمر الناهي بالموت، كفى بالموت واعظاً يا سيادة الرئيس، هل قلتها لنفسك من قبل، هل وعيتها ورددتها؟ ما هي آخر مرة قلت إن الكفن بلا جيوب، تعرف متى، منذ خمسة وعشرين عاما، قلتها في خطبتك الأولى أمام مجلس الشعب ثم كانت آخر جملة قلتها أمام نفس المجلس وربما ذات الوجوه أنك باق في الحكم حتى آخر نفس ومع آخر نبض، أين ذهبت سيرة الكفن الذي قلت إنه بلا جيوب ثم انفتحت جيوب الوطن والمسئولين كأنها لن تعرف موتا ولا كفنا، فالبقاء في الحكم ستة وعشرين عاما تأمر وتتهى وترمي

هؤلاء في السجون وأولئك في الغياهب وتمنح مليارات وتمتع ملايين وتعين وتفصل وترفع وتخفض ويمضى قرارك وحكمك في الناس سيفا قاطعا ولا يناقشك أحد ولا يردك راد ولا يقضى قاض على قضائك، ولا يملك شخص أن يعارضك ويرفضك ويسبح كل من تلقاهم بمجدك وحمدك مما يجعل أى شخص في مكانك ومكانتك ورغم سنك التي قارت الثمانين ينسيك الموت، نعم، السلاطين والرؤساء الأبديون ينسون الموت وهذا ما يفسر هذا التمسك المريب بالمادة ٧٧ في الدستور التي تجعل الرئيس أبديا في الحكم بلا حد أقصى (مدتين فقط)، فأنت شأن كل الرؤساء الذين يمكثون في السلطة كل هذه السنوات صرت لا تتصور أن تنزع قيصا ألبسه الله لك كما يتخيل كل حاكم وملك يتمتع بسلطة مطلقة على شعبه الخانع الخاضع، ولهذا كان خلفاء المسلمين مثل هارون الرشيد يستدعى واعظا كل مدة فقط ليذكره بالموت، يقول له يا هارون يا رشيد يا خليفة المسلمين وسultan نصف الكرة الأرضية أنت ستموت، كان هارون الرشيد يسمع ابن السماك الواعظ المشهور الذي قال له: «يا أمير المؤمنين.. اتق الله واحذره، لا شريك له، واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما، جنة ونار» فبكى الرشيد (أخيرا لقينا حاكما عنده دم!) فأقبل الفضل بن الربيع - أحد بطانات الحاكم - وقال للواعظ معاتبا «سبحان الله. هل يخالجك شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله، لقيامه بحق الله وعدله في عباده.. هاهو شخص تراه سيادة الرئيس في صور كثيرين ممن حولك نجدهم بيننا يصعدون بالحكم إلى مصاف الأنبياء المرسلين الذين يتلقون إلهاما ولا يخطئون أبدا ولا يسألهم أحد عما تفعل، وأشك كلية أنك قد سمعت أحدا من حولك يقول لك إنك أخطأت يا سيادة الرئيس بل إنك لم تعترف أبدا ولم تقل أصلا إنك أخطأت في كذا وكذا في يوم من الأيام ولم تعترف ولم تعتذر فاسمع تحذير وحذر الموت ولا تستمع لتحذير وخطر النفاق، دعك من النفس الأمارة فما بالك بنفس رئيس يحكم خمسا وسبعين مليونا لمدة ست وعشرين سنة ولا يسمع منهم كلمة لا، اطردهم غواية خيلائك وغرور إحساسك بالبقاء والخلود من طول سلطنتك

وافرادك بالحكم، فأنت ميت وهم ميتون، سيدي الرئيس (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) «سورة الجمعة: آية ٨»، وتذكر يوم مات الرئيس جمال عبدالناصر في ساعة زمن بين دخول بيته مرهقا ثم صعود سلام ثم صعود روحه إلى بارئها في لحظة خلت من الزعامة والرئاسة، اعتبر من مقتلة الرئيس السادات حيث كان في بروجه المشيدة وحصونه المنيعه وجاءه الموت، لا تمنى لك هذا ولا نريده فلا حاجة لمصر بإرهاب وقتل ولكن الموت قادم في فراشك كما في طريقك كما في مكتبك لا تعلم بأى أرض تموت، ولكنك ونحن سموت فنذكر وأنت في خطبة مجلس شعب أو في جلسة مع ترزية الدستور وتعديلاته أو في اجتماع مع وزير داخليتك ووزير عدلك وأنت تتحكم في مصائر البلاد والعباد تذكر قول الله عز وجل: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) «آل عمران: آية ١٨٥» زُحِرَ عن النار يا سيادة الرئيس فيبيننا وبينها زحزحة إما فيها وقانا الله وإياك حجيمها وجهمها وإما تترزح لننجو ونفوز بالجنة وعدنا ووعدك الله بها وسائر الناس، لتردد قبل كل خطاب أو قرار هذه الجملة القرآنية فمن زُحِرَ عن النار، ساعتها ستراجع قرارا وتراجع عن كثير من متاع الغرور في قصر العروبة أو شرم الشيخ أو في مبنى لاطوغلى أو في مقر الحزب الوطنى بكورنيش النيل، فقد تنجو قدم من نار وقد تفوز عين بجنة، وهذا ما أتمنى أن تسمعه يا سيادة الرئيس محمد حسنى مبارك: أنك ميت وهم ميتون، الموت كما قال السابقون هو المصيبة العظمى والرزية الكبرى وأعظم منه وأخطر الغفلة عنه والإعراض عن ذكره وقلة التفكير فيه، قد يطول العمر ولكنه قصير، قد تزيد المدة ولكنها سريعة فاحتسب لنفسك يا مبارك بلا ألقاب ولا أوصاف كما ستنادى يوم القيامة، «(إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) (سورة طه آية ٧٤) حيث لا حرس شرف ولا تشريفات ولا مواكب تعطل مرور الناس ولا قناصة ولا موتوسيكلات ولا أحزمة لاسلكى ولا هيبة ولا رهبة ولا صف من كبرات البلاد الذين وضعهم على رقاب الناس ينتظرونك ولا سائق تقول له لف وارجع، ولا

عسس ولا مخبرون ولا مخبرات ولا أمن دولة، لن يحرسك حبيب العادلى ولن ينحنى أمامك فتحى سرور ولن يقف خلفك ابن فى وقفة طاووسية ولن يرتحف رئيس وزراء فى حضورك ولن تصل رأس مفيد شهاب حتى يديك ولن يمنع عنك زكريا عزمى صحبا ولا غضبا، ستكون وحدك تماما أمام الله عز وجل، (ليجزى الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (النجم الآية ٣١) فبئست الدار لمن اطمأن عليها وهو يعلم أنه تاركها وقد وصفها الله ووصف الزعامات والأمراء والعالمين فى الأرض بقوله سبحانه (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) (الشعراء: ١٣٠). ومعنى كلمة آية كما جاء فى تفسير الطبرى هى البيت الشاهقة والعلامات البارزة وتعبثون بمعنى تلعبون وتلهون، أما مصانع فمعناها القصور الضخمة، ستترك كل هذا وتبقى وحدك بلا سطوتك ولا عزوتك ولا سلطتك ولا عرشك وحرسك ولا أولادك ورجال أعمالك ولا أصدقاءك أو وزراءك، لا أحد، روى مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال صلى الله عليه وسلم: «يطوى الله عز وجل السماوات يوم القيامة بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك! أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون...».

ستكون أنت وحدك أمام الله سيسألك عن هؤلاء الذين ماتوا فى سجونك وأولئك الذين قتلهم رجالك وقراراتك وقوانينك وعن ملايين الجوعى من شعبك وعن الفقراء محدودى الدخل الذين اضطرتهم فترة حكمك للفساد والرشوة حتى يطعموا أطفالهم، وعن سرقة مال الأمة وعن موالاتة اليهود والأعداء وعن صحة شعبك التى اعتلت وعن وباء الفيروس سى والتهاب الكبد فى عصرك وعن السرطان والسموم التى زرعها رجالك فى غداء عباد الله وعن ماء تلوث وعن غرقى وحررقى وعن وطن تخلف وعن منافقين تحلقوا حولك وبطانة سوء وشر تمكنت من شعبك واحتلت قصرك (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (الأنعام: ٩٤). سيسألك الله

ويجاسبك ولن ينفك دستور وضعته أو عدلته لصالحك ولمصلحتك، فدستور الله هو الذى سيحاسبك وصراط الله الذى سميتحنك، فاذكر وتذكر، المشكلة أن الرئيس الذى يسعى للخلود على مقعد ومال وسلطة فى الدنيا يبتعد عنه الخلود فى التاريخ، وقد يقرب منه الخلود فى النار والحاكم الحق هو الذى يفر من استمراره فى الإمارة والرئاسة وليس من يصر عليها ويتشبث بها، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضة وبئست الفاطمة) (البخارى الحديث رقم ٧١٤٨ كتاب الأحكام) هذه هى الحكمة النبوية المعطرة حين تكشف عن أن أمراء سوف يحكمون وهم حريصون على البقاء فى الحكم ويجذرهم بأنها ستكون ندامة فى يوم القيامة ألا يستحق هذا أن تتأمل سيادة الرئيس فالبخارى الذى أورد الحديث ليس إخواننا ولا عضوا فى الجماعة المحظورة حتى تنفر منه أو يقبض عليه وزير داخلينك لأنه تجراً وروى حديثاً يحذر حاكماً وحكاماً من أن الحرص على الإمارة سيؤدى للندامة يوم القيامة وهو قريب منك ومنا وإن بدا بعيداً عن رئيس يتمتع بالسلطة والخلود على المقعد، وعن أبى موسى رضى الله عنه قال: دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من قومي فقال أحد الرجلين: أمرنا يا رسول الله (أى اجعلنا أمراء) وقال الآخر مثله فقال رسول الله: «إنا لا نولى هذا من سأله ولا من حرص عليه (البخارى حديث ٧١٤٩) هذا صوت رسول الله يأتيك كما يأتينا ويأمرنا كما يأمرك بأنه لا ولاية ولا إمارة لمن يطلبها بل ولمن يحرص عليها، فهل هناك أحق من رسول الله حين يقضى ويقرر بأن الحاكم الأمير لا يبقى للأبد فى حكمه فهذا حرص من الحاكم على الإمارة يستوجب نزعها منه وعدم تكليفه بها. سيدى الرئيس تهب وتأهب للموت وليوم القيامة واعمل حساباً لتلك الساعة الآتية مما فعلت ومما وصل حكمك ومما بلغت سلطنتك، قد تسجننا وقد تسجن مصر كلها لو أردت، قد تمنع وتصادر وتغلق أفواها وصحفها وأحزابها، قد تعدل دستورا وتزور استفتاء، لكنك ستموت كما يموت البشر وستترك هذا كله كما تركه الفانون من قبلك ولن ينفك بذرة وسيكون حملاً عليك يوم القيامة يحيط

بك وبلاحقك وأنت أمام المولى عز وجل، لن نراك ولن نعرفك ساعتها وسنكون مشغولين بمصائرنا بين يدي الرحمن لكنك ستكون وحدك وقد نزعنا عنك حجتك يوم القيامة أن تقول للمولى سبحانه وتعالى إن أحدا من خلقه لم يقل لك وينصحك ويذكرك، بل قلناها لتسمعها (يوم يفتر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) (عبس آية ٣٤ - ٣٧) وقد جاء في تفسير الطبري عن عائذ بن شرح عن أنس قال: سألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إني سألتك عن حديث أخبرني أنت به، قال: «إذ كان عندي منه علم» قالت: يا نبي الله، كيف يحشر الرجال؟ قال: «حفاة عراة». ثم انتظرت ساعة فقالت: يا نبي الله كيف يحشر النساء؟ قال: «كذلك حفاة عراة». قالت: وأسوأته من يوم القيامة! (خافت السيدة عائشة العظيمة الرائعة المبرأة من انكشافها عارية يوم القيامة فماذا كان رد النبي قال: «وعن ذلك تسألني، إنه قد نزلت على آية لا يضرك كان عليك ثياب أم لا»، قالت: أي آية هي يا نبي الله؟ قال: (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)، سنكون عرايا حفاة وستكون عرايا حافيا يا سيادة الرئيس... فهل أنت مستعد... عرايا حافيا تذكر!

دعاء المظلومين

اللهم إني من عبيدك من مواطني مصر التي يريد حاكمها وحزبها الحاكم أن يجعلنا عبيدا لهم لا عبيدا لك وحدك أنت مولانا، نواصينا بيدك، تعلم مستقرنا ومستودعنا، وتعلم منقلبنا ومثوانا، وسرنا وعلانيتنا، وتطلع على نياتنا، وتحيط بضائرنا، علمك بما نبدية كعلمك بما نخفيه، ومعرفتك بما نبطنه كمعرفتك بما نظهره، وأنت العارف بأمر المزورين والمزيفين والمستبدين والمستكبرين والجبارين الحاكمين المتحكمين الغاصبين المغتصبين لحقوق الأمة وحقوق الله، أربع وأربعون في المائة من هذا الشعب تحت خط الفقر، منهم من يبحث عن اللقمة في أكوام الزبالة ومنهم من يشتري كيلو عظم الفراخ بستة جنيهه كي يؤكل عياله، يا مولانا الذي لا ينطوى عليك شيء من أمورنا، ولا يستتر دونك حال من أحوالنا، ألقوا بأثين وعشرين ألفا من أولاد وشباب ورجال هذه الأمة في المعتقلات وحوالي مليون طفل في الشوارع بلا مأوى ولا مسكن ولا مأمن فلا يمنع الظالم من قدرتك وعزتك يا الله سلطانه وعزوته، أنت مدركه أينما سلك، وقادر عليه أينما لجأ، فعاذ المظلوم منّا بك، وتوكل المقهور منّا عليك، ورجوعه إليك، ويستغيث بك إذا خذله المغيث، ويستصرخك إذا قعد عنه النصير، ويلوذ بك ٢٢% من عائلات هذا البلد التي تعيلها نساء من أرامل ومطلقات ومحجورات وزوجات عاطلين متعطلين، نساء يشتغلن في شطف العيش وفقر الحاجة ومذلة السؤال سعيًا على الرزق الذي لا يوفره لهن حكم ولا حكومة ولا ينظر صاحب السلطان والصولجان لتلك النساء المعيلات لأسرهن أبداً، وتطرق بابك إذا أغلقت دونه الأبواب المرتجة خمسة في الألف من المصريين (وأكثر وأنت البصير النصير) الذين تعذبهم سلطات ممالكك هذا البلد وشراكسته وأحفاد على خنفس خائن أحمد

عربي في حجاز أمن الدولة ورجاله في مقراته وسجون مصر، ويصل إليك صوت الذين تعذبوا ونفخوهم في أقسام الشرطة والمعتقلات، وعائلات الشباب الثكلى بهم وهم أحياء كالموتى في سجون هذا الجبروت الذي يحكم الوطن وأطفال وبنات شيوخ وعلماء وأساتذة رموا بهم في السجون والسرديب سنين بدون محاكمات أو بأحكام ظالمة، إذا احتجبت عنا ملوك القاهرة الغافلة فأنت تعلم ما حلّ بنا قبل أن نشكوه إليك، وتعرف ما يصلحنا قبل أن ندعوك له، فلك الحمد سميعاً بصيراً لطيفاً قديراً. اللهم إنّه قد كان في سابق علمك، ومحكم قضائك، وجار قدرك، وماض حكمك، ونافذ مشيئتك في خلقك أجمعين، سعيدهم وشقيهم وبرّهم وفاجرهم أن جعلت هؤلاء الذين يحكمون مصر على قدرة فظلمونا بها، وبغوا علينا بوزارة داخليتهم ومباحثهم وقوات الأمن المركزي وقوانينهم وبرلمانهم وحزبهم وصحفهم المناقفة وأبواقهم الجوفاء، وتعززوا علينا بسلطانهم الذي خوّلتهم إياه، وتجبرّ جبارهم ومتكبرهم علينا بعلوّ مقعده الذي جعلته له، وغرّه إملاؤك له، وأطغاه حلمك عليه. فقصدنا بمكروه عجزنا عن الصبر عليه، وتعتمد رجالات هذا الحكم وأعوان هذا السلطان بشرّ ضعفنا عن احتماله، ولم تقدر على الانتصار منهم لضعفنا فقد جعلوا مصر تعاني من بطالة شبابها حتى صار ١٨% من أبناءها يعانون من بطالة فلا مورد ولا رزق ولا وظيفة ولا زوجة ولا زوج، ومنهم من مات مبتورة أعضاؤه بعدما تجمد في تليج غربة موحشة على حدود بلاد غريبة سعى لها فرارا من فاقة وفزعا من فقر أحياء فيه حكام وطنه، توكلت يا الله عائلات ألف ومائة غريق ماتوا في عبارة بحر غرباء عن وطنهم وحضن عائلاتهم وفي برد وقهر بلا سبب إلا لفساد عهد واستبداد رجال مصوا دماءنا وامتنصوا روح رعاياهم، توكلنا عليك وحدك في أمر حكامنا، فلم تهتز من هؤلاء الحكام الظلمة شعرة ولم تتحرك فيهم نبضة ولم يرتعش لهم جفن حين تتوعدهم بعقوبتك، ونحذرهم من سطوتك، ونخوفهم من نعمتك، فظنّ كبراؤهم وكبيرهم وجباروهم أن حلمك يا الله عنهم ضعف، وحسبوا أنّ إملاءك وإممالك لهم عجز، ولم تنههم واحدة عن أخرى، ولا انزجروا عن ثانية بأولى، ولكننا نرى من تهادى في غيه،

وتتابع في ظلمه، ولج في عدوانه، واستشرى في طغيانه وفيه جرأة عليك يا رب، وتعرضاً لسخطك الذي لا تردّه عن القوم الظالمين، وقلة أكرثا بأسك الذي لا تحبسه عن الباغين. فما نحن يا ربى شعب مستضعف في يديه وإرادته وشجاعته، أفقرنا وأذلونا ودفعوا كثيرا منا لمد أياديهم يقبلون الرشوة كي يصرفوا على عيالهم وقبلوا المال الحرام ليشتروا الحلال شقة أو شهادة ثانوية أو كلية لأولادهم ويكولو لحمة لغذائهم وملابس تستر، لقد أحوجوا الناس للحرام حتى يقدر البسطاء والفقراء ومحدودو الدخل على العيش ومنعوا عنهم التوبة لما أمعنوا في إفقارهم وغلاء الحياة عليهم، نحن يا ربى شعب مستضام تحت سلطانه، مستذل بعنائه، مغلوب مبغى علينا مغضوب وجل خائف مروع مههور، قد قلّ صبرنا وضائق حيلتنا، وانغلقت علينا المذاهب إلا إليك، وانسدت علينا الجهات إلا جهنك، والتبست علينا أمورنا في دفع مكروه حكمانا عنا، فقد أجم الناس الخوف والفرع من أيدي قبض عليهم وعصى تضرهم وقوات أمن تعقلهم وعسس ومخبرين يتجسسون عليهم ومعتقلات تضم الطيبين والغافلين والسذج والأبرياء وفلذة الأكباد من الشباب وسجون تحوى المظلومين والمظالم وقوانين فصلت لسجن كل صاحب رأى وقيود على كل صاحب فكر، فصار الجبن سمة الناس وبات الخوف شمة الرجال وساد النفاق وتسيد وتعددت صورته وتنوعت، فنفاق حتى يترفع شأن طامع في وزارة أو طامح لمكانة ونفاق رجل حتى يأمن على نفسه وعياله ونفاق ثالث حتى لا يشك أحد في أمره ونفاق آخر حتى يترقى ونفاق الخائضين ونفاق من رأى الجميع ينافق فنفاق ونفاق الساعين للرزق ونفاق المرعوبين من الغد فصرنا بين نفاق الراغبين في الصعود ونفاق الجزعين من الهبوط، وأصبحت مصر بلدا للنفاق والمنافقين من نفاق للسياسة والسادة إلى نفاق في الدين من مظهر للتدين إلى جوهر اللصوصية والتعفن، واشتهبت على الناس الآراء في إزالة ظلم الحاكم، الذى استنصرناه من عبادك خذلنا، والذى تعلقنا به من خلقك باعنا، والذى توسمنا فيه خيرا سجنوه أو اشتروه، فليس أمامنا إلا أنت ولا سند إلا عليك. فرجعت أنا وغيرى إليك يا مولاي صاغراً راغماً مستكيناً، عالماً أنه

لا فرج إلا عندك، ولا خلاص لى إلا بك، انتجز وعدك فى نصرتنا، فإنك قلت وقولك الحق الذى لا يرد ولا يبدل : «وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنصِرَهُ اللَّهُ» وقلت جلّ جلالك وتقدّست أسماؤك : «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، وأنا فاعل ما أمرتني به لا ممناً عليك، وكيف أمن به وأنت عليه دللتني، فصلّ على محمد وآل محمد الذى قال صلى الله عليه وآله وسلم «اسألوا الله وأجزلوا، فإنه لا يتعاضمه شيء» فاستجب لنا كما وعدتنا يا من لا يخلف الميعاد ونحن نعلم أنه لا دعاء مع قعود دون عمل، ولا قبول للدعوة من جوف مأكله حرام ولا حق لمن يدعو وقد امتنع عن السعى للتغيير والوقوف أمام الظلم، نحن نسعى وندعوك يا الله، نحن نعمل وندعوك يا الله، عائلات ألفين من المواطنين أحرقتهم قطار الصعيد ومئات ممن ماتوا وآلاف ممن أصيبوا فى عشرات الحوادث فى قطارات أو سيارات طرق نتيجة إهمال حكمانا وتقصيرهم وفسادهم، تعلم ونعلم يا رب أنّ لك يوماً تنتقم فيه من الظالم للمظلوم، وتتيقن أنّ لك وقتاً تأخذ فيه من الغاصب للمغصوب، لأنك لا يسبقك معاند، ولا يخرج عن قبضتك أحد، ولا تخاف فوت فائت، ولكن جزعنا وهلعنا وضعفنا وقلة حيلتنا لا يبلغون بنا الصبر على أاناتك وانتظار حلمك، فقدرتك يا ربى فوق كلّ قدرة، وسلطانك غالب على كل سلطان، وميعاد كلّ واحد إليك وإن أمحلتته، ورجوع كلّ ظالم إليك وإن أنظرتته، وقد أضرتنا يا ربّ حلمك على حكمانا وحزبنا الحاكم وقادة بلادنا، وطول أاناتك لهم ربع قرن ويزيد وإممالك إياهم كل هذا الوقت، وكاد القنوط يستولى على شعب بكامله لولا الثقة بك، واليقين بوعدك. فإن كان فى قضائك النافذ، وقدرتك الماضية أن ينب هوّلاء الحكام الغاصبون أو يتوب الظالم، أو يرجع عن ظلم عبادك فى مصر المحروسة أو يكفّ مكروهمهم عنّا، فأوقع ذلك فى قلبه الساعة قبل إزالة نعمتك التى أنعمت بها عليهم، وإن كان فى علمك به غير ذلك، من استمرار على ظلمنا واستقرار على تزوير إرادة المواطنين وتزييف أصواتهم والعسف بنا ومواصلة الفساد والاستبداد وتوريث الحكم ورمى الناس فى السجون والمعتقلات ونهب أموال البلد وثروات الوطن وإصابة الملايين منا

بالمرض واعتلال الصحة، فأسألك يا ناصر المظلوم إجابة دعوة المظلوم المنتصر
 بك فإننا مغلوبون فانتصر، وخذهم من مأمَنهم أخذ عزيزٍ مقتدر، وأجفئهم في غفلتهم
 مفاجأةً مليكٍ منتصر، واسلبهم الحكم والسلطة، وفرق عنهم جموعهم وأعوانهم
 المتكبرين المتجبرين، ومزق استبدادهم كلّ ممزق، وفرق بطانة السوء كلّ مفرق،
 واسحب عنهم نعمتك التي لم يقابلوها بالشكر، وانزع عنهم عزك الذي لم يجازهم
 بالإحسان، واقصم الذين عذبوا الناس في المعتقلات وقذفوا بهم في السجون يا
 قاصم الجبابرة، وأهلك المتورطين في الفساد المتعاونين على الاستبداد يا مملك
 القرون الحالية والأمم الظلمة، واخذله يا خاذل الفئات الباغية، ولا تدع لأى فاسد
 نهاب للبلاد ثروة إلا هتكها، ولا دعامة من واشنطن أو لاطوغلي إلا قصمتها،
 ولا كلمة مجتمعة لأعوان المستبد في برلمان أو حزب أو سفارة إلا فرقتها، وأرنا
 في أنصاره وجنده ومنافقيه يوماً مقنعى الرؤوس بعد الظهور على الأمة، واشف
 بزوال أمرهم القلوب المنقلبة الوجلة، والأفئدة اللهفة، والأمة المنحيرة، والبرية
 الضائعة. وأرح بزوال تكبرهم وتجبرهم الأقدام المتعبة والأجساد المريضة بفيروس
 سى والسرطان والسكر والفشل الكلوى والتعب النفسى والأكباد الظائمة
 واضرب الظلمة الذين ناصرُوا الصهاينة وتعاونوا مع مجرمي الحرب الإسرائيليين
 مغتصبى فلسطين على إخوانهم العرب المسلمين والمسيحيين في فلسطين ولبنان
 والعراق بنكبة؟ انتعاش معها، وبعثرة لا إقالة منها، وليرى كل عتل في الأرض
 بطشتك الكبرى، ونعمتك المثلى، وقدرتك التي هي فوق كل قدرة، وسلطانك
 الذي هو أعز من سلطانه، واغلبه بقوتك القوية، ومحالك الشديد. وابرئه من
 حولك وقوتك، وأحوجه إلى حوله وقوته، وأذلّ مكره بمكرك، وادفع مشيئته
 بمشيئتك، وخيب أمله، وأزل دولته، وصير كيدَه في ضلال، ورجاله إلى زوال،
 ونعمته إلى انتقال، وسلطانه المستبد إلى اضمحلال، وعافية حكمهم إلى شر مال
 وقنا شرهم وهمزهم ولزهم، وسطوتهم وعداوتهم، فإنك أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً،
 اللهم أنت الله أنت الرحمن أنت الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيم العزيز
 الجبار المتكبر الفعال لما يريد مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن

تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء اجعل لنا من أمرنا في مصر ووطننا بلدنا
الذي نحب والذي يذل ويهان من حكمه ويضعف أمام أعدائه وينهب من
لصوص نظامه اجعل لهذا الشعب المغلوب على أمره، الخائف الذي أصابه جبن
وأمرضه الخوف من حكمه اجعل له فرجا ومخرجا فإنك تعلم ولانعلم وتقدر ولا
تقدر وأنت على كل شئ قدير برحمتك يا أرحم الراحمين وآخر دعواهم أن الحمد لله
رب العالمين.

الغوغاء قادمون

أخطر ما تنتظره مصر في الفترة القادمة هو تحرك الغوغاء !
ساعتها لن تكون مصر التي نعرفها بل ستصبح هي تلك البلد التي تمني ألا
تكون قد عرفتها أبداً

هؤلاء الغوغاء يعلفهم نظام مبارك ويزغظهم وهو يعتقد أنهم أكبر حلفائه، بينما
هم خطر عليه قبل أن يكونوا خطراً على البلد نفسها، هؤلاء الغوغاء خليط من
البلطجية والمسجلين خطر الذين يستعين بهم نظام مبارك وحبيب العادلي في
الانتخابات والمظاهرات للاعتداء والتحرش بالمظاهرين، وهم كذلك الجماعات
التي تخرج مندفة ومتحمسة وغاضبة لتضرب الأقباط أو تعتدى على كنيسة أو
تحرق بيتاً مسيحياً تقرباً من الله وتصوراً أن في ذلك ديناً وتديناً، وهي نفسها التي
تخرج تحرق في إطارات سيارات وتمنع المرور وترقص فوق السيارات وتشعل
النار في الشوارع وتتحرش بالبنات احتفالاً بفوز مصر أو الأهلئ والزمالك ببطولة
كروية، وهم كذلك الذين يجرون في وسط البلد في أيام العيد المقترجة وراء بنت
وخطيها يتحرشون بها ويحاولون الاعتداء على البنات وقطع الجيبة أو دس اليد
في الصدر أو المؤخرة !!

هؤلاء هم الذخيرة التي يسعد بها أى نظام بوليسى مستبد، فهي أولاً تضمن له
جنوداً في أى معركة ضد النخبة أو المثقفين أو السياسيين، ويستطيع أن يؤلب
هذا النظام مجموعات الغوغاء ضد هؤلاء المفكرين أو المثقفين بمزاعم أنهم ضد الوطن
وعملاء لأمريكا وشوية بكوات أغنياء مرتاحين مرفهين وملاحدة كفره، فيهبج
الغوغاء على المثقفين والسياسيين ويتمكن في لحظة باستتجارهم أو استفزازهم
وتحريضهم على تحطيم أذرع وأدمغة أى جماعة سياسية باستخدام الغوغاء، ثم
يحقق له ثانياً هدفاً مهماً، وهو استغلال الفوضى العارمة التي يصنعها الغوغاء

والدمار الفظيع الذين يسببونه في إعلان حالة طوارئ أو اتهام فصيل سياسى بهذه الأحداث أو الطعن فى مصداقية وسلمية أى مظاهرة بما جرى فيها من عنف أو شغب، ثم هو يحقق ثالثاً الظهور بصورة المحايد العادل الذى يخشى على سلامة واستقرار البلد!

لكن من هم الغوغاء فعلاً؟

هم فئة اجتماعية سائبة كما يصفها أحد الباحثين «خارجة على أى ضوابط، منفلثة لا عقل لها ولا وعى، تفور بفتوى وتبرد بفتوى، غضبها كامن فى عقيدتها أو فى حرمانها أو فى جوعها، لديها دوافع الهوس والظلم والانتقام والأوهام والتوهيات وتشفيه الغليل، ومن البديهي أن ارتفاع معدل نشاط الدهماء الاجتماعى، وارتفاع نسبة التصريف لطاقة عنفهم وتدميرهم، لا يدين فقط هؤلاء الموتورين الدهماء بقدر ما يدين الذين يجعلونهم ينفنون غضبهم ويوجهونه إلى غير وجهته الأصلية، بل بالأحرى يدين النظام الاجتماعى والسياسى والدينى الذى أنتج هذه الفئة المكتسحة فى المجتمع المصرى.»

لكن هذا لا يضعنا أمام تعريف مباشر لكلمة الغوغاء، فنحن نسمع الحكومة ورجالها (إن كانوا رجالاً) فى الصحافة والإعلام يتهمون المتظاهرين ضد مبارك أو جماعات طلابية محتجة أو عمالاً معتمضين أو مظاهرات تطالب بالقصاص من العدو الإسرائيلى أو تهاجم خنوع نظام مبارك أمام إسرائيل بأنهم غوغاء ورعاع، وهو اتهام قديم لأى ثورة فقد أطلق الاستعمار وأذياه على سعد زغلول زعيم مصر الشعبى الأول لقب «زعيم الرعاع»، ومن ثم قد يختلط على حضرتك فهم الرعاع، هل هم خصوم مبارك فى المظاهرات كما يصفهم البعض أم هم حشود مبارك التى تؤيده وتباعه وتهجم على أى واحد ينتقده على اعتبار أنه عاب فى الذات الإلهية؟ المهم حتى لا تختار ويختار دليلك فكما يقول د. سعيد الأفغانى فى بحث لغوى مدهش فإن كلمة «الغوغاء» أول ما وضعت - فيما يرى - للجراد «بعد أن ينبت جناحه ويخف للطيران» أو هى «لشيء يشبه البعوض ولا يعض ولا يؤذى لضعفه» ثم استعملت إضافة لذلك لما يصدر عن هذه الحيوانات «من

صوت وجلبة» قالت المعجمات: «وبه سمى الغوغاء من الناس وهو مجاز» إما تشبيهاً لهم بهذه الأجناس من الحيوان لضعفهم، وإما عن الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم.

وجرى الاستعمال في إطلاق (الغوغاء) على «السفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر» كما قال ابن الأثير عند تفسيره قول عبد الرحمن بن عوف، لعمر بن الخطاب: «يحضرك غوغاء الناس.»

الغوغاء إذن هم هؤلاء السفلة، والسفلة ليس بالمعنى الأخلاقي فقط بل بالمعنى المكاني أى أنهم ناس من أسفل، ناس من القاع، لكنهم لا يكتفون بأنهم يتحركون وحدهم بل لابد من صحبة الرعاع فأشقى البلاد ما تسلط فيها راعها.و من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إن الموسم يجمع راع الناس...» وعقب شارحاً، أى غوغائهم وسقاطهم وأخلاقهم، و ما قاله عثمان بن عفان رضى الله عنه حين تنكر له الناس: «إن هؤلاء نفر راع غثرة» والغثرة: السفلة. و قول على بن أبى طالب رضى الله عنه «... وسائر الناس همج راع.»

وصناع الاستبداد والفساد لا يستغنون عن الغوغاء والهمج والرعاع، يجندون الأصناف الثلاثة معاً، الأول لقوته في الشر، والثاني لضعف عقله، فهو أسهل في الانقياد، والثالث أتباع كل ناعق يجرون وراءه بملء بطونهم. والاستعمال الحديث كما يقول دكتور سعيد الأفغانى وسع مدلول (الغوغاء) فاحتوى الثلاثة معاً.

هؤلاء الغوغاء في مصر تحت أمر ضباط أمن الدولة وضباط الأقسام والسجون، وملك يمين رجال الأعمال وأصحاب المصالح في الحزب الوطنى، أعضاء ونواب الشعب والشورى خصوصاً الضباط السابقين منهم أو المليونيرات الحاليين، ويتم توريد هؤلاء في كل أزمة وحادثة سواء لمواجهة المعارضين أو لتأديب المنافسين، لكن المشكلة الحقيقية أن هؤلاء الغوغاء سلاح في يد المتطرفين والإرهابيين تماماً مثلما هم سلاح في يد الحكومة وقد يتقلبون على الدولة بنفس طريقة استخدام الدولة لهم، فالمؤكد أن الجهالة هم حلفاء الاستبداد لكنهم أيضاً

جنود التطرف. لننظر أولاً ما الذى قاله عبدالرحمن الكواكى فى كتابه طبائع الاستبداد لنعرف كيف يكره المستبد والطاغية العلم وكيف يستثمر الجهل، (العوام هم قوة المستبد وقوته. بهم عليهم يصول ويطول؛ بأسرهم، فيتهللون لشوكته؛ ويغضب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ وبهينهم فيثنون على رفعتة؛ ويغرى بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف فى أموالهم، يقولون كريم؛ وإذا قتل منهم ولم يمثل، يعتبرونه رحيمًا؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وان تقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة. والحاصل أن العوام يذبجون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتطور العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لا بد للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال)

لكن هل يولد الناس من بطون أمهاتهم غوغاء؟

المؤكد لا فكلنا نولد على فطرة العقل السليم والقلب الطاهر حتى نتسلمنا أحضان المجتمعات فتحولنا إلى ما نصير إليه، وفى مصر استطاع نظام مبارك توسيع دائرة الغوغاء على نحو غير مشهود من قبل فقد أدخل فيه أنواعا وشرائح لم تكن من عجينة الغوغاء فى زمن ناصر والسادات، وصار قطاع كبير من المصريين يحمل إمكانية أن يتحول إلى غوغاء فورا فى لحظة غضب أو حاجة أو هوس جماعى، ليه بقى؟ لأن الغوغاء يصنعهم شيثان، الاقتصاد والتعليم، سياسة إفقار المصريين ومنهج تجهيل المواطنين هما الجذر الذى ينبت شوك الغوغائية فى أى مجتمع، وهو أيضا الذى يعيش عليه أى نظام دكتاتورى بأن يجبا الناس لا هم لهم ولا أمل لديهم سوى أن يأكلوا ويجدوا ثمن اللقمة ويصل بهم الفقر إلى درجات من التذلل أو الخضوع التى تسمح بالسيطرة عليهم مع تحطيم طموحاتهم المالية تماما وتخفيض سقف آمانياتهم التى تتحول معها علاوة بخمسة جنيهات إلى أمل و(عمر) وهو ما يجعل كذلك التصارع على عشرين جنيا سببا لقتل زميل أو أخ، هذه الآلية فى السيطرة هى توأم آلية أخرى هى نزع الوعى من الناس من خلال

الوسائط الثلاثة، مناهج التعليم المتبتلة والجهولة، وخطب الجمعة المضللة والمتعصبة ووسائل الإعلام المزيفة والمنافقة، هذا يدفع الناس دفعا للجهل المطبق الذى يتشارك مع الفقر فيصنع قنابل زمنية تمشى فى الشوارع وفى سنوات مبارك لا يمكن أن تخطى ملاحظة هذه السياسة المنظمة الدؤوبة واليومية من إفقار ملايين المصريين عبر بطالة متزايدة ومنتفضة تطول الأيدى العاملة من محدودى التعليم وحلة المؤهلات المتوسطة وحتى المؤهلات العليا وتمسك بجنات الشباب الذى تصل نسبته وفق إحصاءات تقرير الأهرام الاستراتيجى حوالى ٩٠% من نسبة العاطلين، هذه البطالة إن أضفت لها ضيق ذات اليد وارتفاع الأسعار ستجد شرائح من المحتاجين والمحرومين تكون على أهبة الاستعداد فى أى لحظة للتعبير عن غيظ مكتوم وحقن مدفون بعدوانية شرسة ووحشية بالغة، لكن هذا الغضب المشتعل فى انتظار بزينة لا يكتمل إلا بالتجهيل الذى يحشو الدماغ المصرية الفقيرة أو المعدمة أو متوسطة الحال محدودة الإمكانيات بالتعصب والتطرف، وعدم احترام الاختلاف والاجترأ على العلم وأصحاب العقول والسقوط فى براثن الخرافة والاستسلام الكامل للغيبات واحتقار العقل البشرى واستمراء الثقافة الشفوية والانغماس فى تصديق الحزبيلات والأكاذيب التراثية والنفخ فى العدوانية تجاه الأديان والثقافات الأخرى ومن هنا تصبح التربة خصبة تماما لحصاد الجهل والفقر، ومستعدة لتلبية النداء لإشعال فتنة طائفية أو تحرش بنساء أو ضرب متظاهرين !

أخشى من تلك اللحظة القادمة..وهى قادمة لا شك!

ثورة تصحيح التصحيح!

في ليلة أكثر جمالا من ليلتنا هذه قام الرئيس الراحل أنور السادات بما أطلق عليه منافقوه وتابعوه ثورة التصحيح تلك التي كنا ندرسها في ابتدائي وإعدادي كأنها أعظم ما حدث لمصر قبل أن يرزقنا الله عز وجل بمنافقين آخرين وتابعين أرذل وأذل جعلوا ضربة الطيران وأول طلعة جوية (التي لا نعرف هل كان لها تاني ولا لآ) هي أهم ما حدث لمصر رغم أن الرئيس مبارك كما هو معروف لم يطلع في الطلعة إنما كان تحت، ومع ذلك فلا تزال الذاكرة تحفظ شيئا من دروس إعدادي التافهة التي تتحدث عن مراكز القوى التي أنهاها الرئيس السادات فظهر ثورة يوليو ومحمد الطريق إلى نصر أكتوبر (لا تنس أول طلعة جوية) لكن الذي يتأمل هذا الحدث بعد كل هذا العمر وقد مرت عليه ستة وثلاثون عاما الآن يدرك أن هؤلاء الذين كانوا متهمين بأنهم مراكز قوى كانوا من أطيب خلق الله بل ومن أظهرهم يدا كذلك وهم وإن كانوا مراكز قوى فعلا وقتها إلا أنها قوى على قدها وغاوية فقر وبتلبس بدلا صيفية وبتركب نصر ١٢٨ بيضاء وكانت مصدقة أنها تعمل لصالح الوطن لكن الوطن نفسه هو اللي مكش مصدق!

المجموعة التي سميت مجموعة ١٥ مايو ومراكز القوى لم تفعل أى شيء للانقلاب على السادات غير أنها قدمت استقالاتها، تخيل لما تكون مراكز قوى تضم نائب رئيس الجمهورية ووزير الدفاع والإعلام والاتحاد الاشتراكي والداخلية ومدير مكتب الرئيس وكل ما تقوم به من انقلاب وإزاحة للرئيس من مقعده هي تقديم استقالاتها بل وإعلان هذه الاستقالات في التلفزيون والاذاعة، خلاص انتهت المؤامرة، آه والله العظيم هذا ما فعلته مجموعة مايو بل الرئيس السادات نفسه وقد أعدت قراءة كل ما قاله عما حدث في ١٥ مايو ركز هجومه عليهم وفضحه لهم على شيئين فقط، الأول أنهم كانوا يراقبون ويتجسسون على مكالمات وبيت الرئيس

نفسه، والثاني انهم حاولوا عمل فراغ دستورى فى البلد بتقديم استقالات جماعية، أما التهمة الأولى فإن الرئيس السادات نفسه راقب معارضيه وتجسس عليهم وهذا آخر ما يقوله حاكم مصرى من اتهام لأجهزته، فهو كذلك الذى سمح لهذه الأجهزة بالدخول إلى كل بيت معارض فضلا عن تطور الأمور حتى وصلت إلى أن الرئيس مبارك أعطى لنا مثلا عظيما، حيث ترك مباحث أمن الدولة تتجسس على الناس بالقانون وبال دستور وتخرق الحياة الخاصة ولأول مرة نرى خصخصة القطاع العام فى نفس وقت عمعمة الحياة الخاصة أى جعلها مشاعا عاما، بل وتنتهك هذه الأجهزة كل خصوصيات الناس وتلفق وتزور شرائط واسطوانات للتشويه والتشهير فهذا كله نتيجة نظام بوليسى تورط فيه جمال عبد الناصر وأنور السادات ثم انفرد الرئيس مبارك بما لم يأت به الأوائل وجعل من التجسس والتنصت منهج حكم لهذا الوطن، لكن كل هذا مدان التجسس على بيت الرئيس كما على أى بيت فى البلد.

نأتى للتهمة الثانية وهى أن مجموعة مايو حاولت عمل فراغ دستورى وهى حاجة تضحك جداً لكنها أيضاً تهمة لصالح مجموعة مايو ولا يمكن أن نخرج منها سوى باحترام هذه المجموعة فردا فردا فهم مسئولون يحترمون الدستور ويستخدمون مواده لتغيير نظام البلد ولم يفكر وزير الحربية فى استخدام الدبابات ولا أخرج وزير الداخلية قوات الأمن، أبدا هم ضغطوا بشكل شريف وغضبوا بشكل نبيل وعفيف و بالمناسبة بشكل هزلئ ومحتزئ وخايب ولكنه أبدا ليس انقلابا ولا عنفا ولا سفكا للدماء، وقد انتهى الأمر بانتصار السادات عليهم لأنهم كانوا طيبين وعلى نيتهم ولم ينجح إحداث فراغ دستورى لأن الدستور مش ناقص فراغ بل نجح السادات ومن بعده مبارك فى دسترة الفراغ، وصار الرئيس أديا والدستور فى خدمة الرئيس ديليفرى وتيك آوى، ثم عندما تتأمل هذه الأسماء التى أطاح بها الرئيس السادات نكتشف أن شيئا رائعا ومذهلا يجمعهم جميعا وهو أنهم شرفاء، نعم، شرفاء طاهرو الضمير نظيفو اليد فإذا قارنت رجال مراكز القوة فى عصر الرئيس عبدالناصر والسادات بمراكز القوى فى عصر مبارك

ستجد هذا الفارق الواضح، هناك رجال دولة في حكم ناصر استأثروا بصناعة القرار واستغلوا ثقة عبدالناصر فيهم، لكن السؤال هل مدوا يدهم على فلوس البلد وثروتها؟ هل أثروا وتوحشوا في الثراء؟ هل أورثوا عيالهم مصانع وشركات وممتلكات؟ هل اكتشف أحد أن لأى منهم حسابات في بنوك سويسرا؟ هل صيفوا في مكان أبعد من عشة في رأس البر؟

المؤكد أن مراكز القوى كانت على نحو ما قد أساءت استخدام السلطة خصوصا مع غياب الرقابة والمحاسبة السياسية. ومع سيطرة هائلة للعقيدة السياسية التي كانت تتحكم في أفكارهم وسلوكياتهم فتصرفوا باعتبار أن الوطن في خطر من تريص أعدائه ولا بد من حمايته فاشتطوا في الحماية أحيانا لكنهم لم يستغلوا مناصبهم في جمع ثروة ولا نهب مصر، شوف من هم هؤلاء أساسا؟

الفريق محمد فوزى الذى عاش رجلا عسكريا منضبطا ومحترما لا تشوب تاريخه ذرة من شبهة مالية، عاش ومات بسيطا وملتزمًا ومتعظفا، وهو نفس حال الراحل على صبرى الذى لم يورث ابنه دينارا ولا درهما بل عرفا وجهدا وتاريخا متعبا ومعوقا، ثم شعراوى جمعة وزير الداخلية الذى كنا نذاكر شتمته في الابتدائى والاعدادى كى ننجح، كان رجلا مستورا وموظفا محدود الدخل و الاستثمار الوحيد الذى فعله في حياته هو تربية أبنائه وبناته على العلم حتى صارت أسرته ذات اسم مرموق في الحياة الجامعية لكننا لم نره وقد مد يده أو حتى إصبعه لمال أو ثروة ولم يتاجر بمنصبه ونفوذه ولم نره بعد خروجه من سجون السادات سوى هذا الرجل المحترم المعتر بتاريخه، ثم هناك الاستاذ محمد فائق وزير الإعلام الأسبق الذى نعلم جميعا مدى نقاء سيرته ومسيرته من أى اتهامات من أى نوع مالى بل إن السادات وآلة إعلامه وحماس منافقيه باستعداد أجهزته للتلفيق لم تستطع أن تقترب من ذمة هؤلاء الرجال أبدا، خذ عندك الراحل فريد عبدالكريم الذى عاصرناه واقترنا منه وهو الذى نال حكما بالاعدام من أنور السادات عاد وخففه للسجن، هذا الرجل عاش من مكتبه للمحاماة وكان شريفا وعظيما كما تكون ذمة الأطهار، وهناك السيد ضياء الدين داوود والذى لم يترك مدينته

فارسكور منذ كان وزيراً (ومراكز قوى) حتى الآن مرتبط بها ومنتم لها لا أثرى ولا اغتنى إلا غنى النفس الذى يملأه شموخاً، وغيرهم من رجال ١٥ مايو أشرف ألف مرة من مراكز قوى تتحكم الآن فى بلدنا وتسيطر على كل شيء وتثرى وتغتنى من حساب هذا الوطن وتتهب فى قطاع أعمالهم وعمالهم صاروا مليارديرات من استغلال النفوذ والاثراء من مص دم الغلابة.

مراكز القوى الحقيقية التى تتهب البلد وتسيطر على قراراتها وقوانينها وتستغل مؤسسات الوطن وأجهزته لصالحها هى ما نراه الآن ونعيشه فى عصر مبارك، من أول أجهزة الأمن التى صنعت لنفسها دولة داخل الدولة ورفعت من ميزانيتها حتى انتقلت من ميزانية فى بداية عصر مبارك لا تتجاوز النصف مليار جنيه إلى كونها الآن تدير ميزانية تصل إلى تسعة مليارات جنيه تحت أمر وتصرف وزير الداخلية وميزانية رجاله، وليس هناك جهاز واحد فى البلد يراقب ثروة الضباط خصوصاً من العاملين فى أمن الدولة ويقول لنا من أين ثروة هؤلاء، سواء السيارات التى يملكها ضابط فى الثلاثينيات من عمره أو من أين لهم هذه التليفونات المحمولة الباهظة والجيل الثالث وكيف اشتركوا فى أعلى النوادى واشتروا الشقق والفيلات التملك والشاليهات فى الساحل الشمالى، هؤلاء اللوآات الذين يديرون البلد كمراكز قوى حقيقية ماذا تقول إقرارات ذمتهم المالية وهل أبلغوا بالشركات التى يساهمون فيها والأنصبه التى يتقاسمونها مع شركاء فى شركات ومؤسسات أم أنهم يعتمدون على أنها بأسماء زوجاتهم وأولادهم، هل نعرف حجم البنس الذى يشارك فيه ويعمل من خلاله كبار رجال الدولة فى الأجهزه الأمنية وصغارهم ومساعدتهم؟ وهو ما يبرر دفاعهم الشرس عن نظام مبارك بكل غل وغطرسة بل وبسلوك غير انسانى من تعذيب واعتقالات واعتداءات وبتصرفات لأخلاقية من انتهاك للأعراض وتنصت وتجسس، إنهم لا يدافعون عن مبارك بل يدافعون عن بقائهم شخصياً، يدافعون عن ثرائهم ومستقبلهم المادى، يدافعون عن أنفسهم ضد أى تغيير للوضع لقد أصبحوا أصحاب مصلحة فى بقاء مبارك بل وفى توريث حكمه لابنه حتى يستمر الوضع على ما هو عليه، تماماً مثل بقية مراكز القوى فى البلد،

حيث رجال أمانة السياسات البارزين الذين جعلوا من وجودهم في حضن السلطة الدافئ قاعدة لإطلاق صواريخ المال والثروة، هؤلاء الذين يؤلفون القوانين للاستفادة منها ويحتكرون السلع ويشتررون مصانع القطاع العام برخص التراب بل ويتولون الوزارات ويبيعون أثاث مصر من مصانع وشركات، وأساس مصر من عدالة وأخلاق، مراكز قوى لا تستطيع أن تقاومها وإلا فرمتك في سوق المال والأعمال وتبيع وتشتري فيك وتسجنك كما سجنوا امين نور وطلعت السادات بل والأغرب كما سجنوا حسام أبو الفتوح وأصحاب توظيف الأموال ووزراء ورؤساء مجالس إدارات اختلفوا على بيعة أو صفقة أو لم يرضخوا لابتزاز مراكز القوى، هؤلاء مراكز قوة كبرى في البلد تتحكم في السياسة حتى تصنع لنفسها قوانين وقرارات وتغطي على ما ترتكبه وتسهل ما تفعله، وتتحكم في الاقتصاد بضرب المتنافسين وتقسيم الأسهم وتوزيع الأنصبه والحصول على إتاوات وتزيج أسماء وترفع أخرى وتتشابك مراكز القوى الآن حتى يصبح من الصعب ضربها أو تفكيكها والأمل الوحيد لإسقاط هذه الشبكة هي غياب قائد قلعتها وزعيم حصنها، فهذه القوى أمسكت بعصب البلد وأعصابه مستخدمة اختراق الجهاز الأمنى بالرشوة المباشرة أو غير المباشرة وبناء علاقات عمل مع مسئولين أمنيين أثناء الخدمة وبعدها أو من خلال علاقات الشراكة بين أبناء الطرفين، ثم هناك التعاون الوثيق والعلاقة اللصيقة بين مراكز قوى مصر الجديدة بالشراكة المالية والمصاهرة والزواج والنسب والجيتو السكنى فى منتجات وضواحي بعينها فى مصر وخارجها ويعنكبوتية تغلغلها فى شتى نواحي الحياة الاقتصادية فهم ملاك بنوك ومستشفيات وأصحاب توكيلات ومصانع سيارات وشركات مياه وشركات عقارية واتصالات وممثلو شركات عربية ودولية وأعضاء برلمانات ووزراء ولواءات، فمن أين تستطيع أن تواجه وتقاوم وهم يستطيعون فى لحظة أن يسقطوا اقتصاد البلد بنقرة على الكيبورد أو بمكالمة تليفون!

أين مراكز القوى فى عصر جمال عبدالناصر بل وفى عصر السادات من هؤلاء الذين يديرون مصر الآن؟ وبعيدا عن كل هذا أو قريبا من كل هذا تعالى

نقارن بين رجال دولة عبدالناصر ورجال دولة مبارك لنسأل فعلا من هو المرشح
كى يكون مركزا للقوى دون الآخر؟

هل سامى شرف مدير مكتب عبدالناصر كان لديه ما لدى زكريا عزمى الآن
من سطوة ونفوذ وسنوات طويلة فى الخدمة بدت بلانهاية بعد أن صار مد
خدمته بعد المعاش بيد الرئيس مبارك وحده بل هناك قانون صدر من مجلس
الشعب بأن الرئيس مبارك وحده هو الذى يحدد مرتب زكريا عزمى ولا أحد
يعرفه أو يحدده ولا سقف له سوى ما يريد مبارك ويشاء!

هل وزير الداخلية شعراوى جمعة كان يحصل على مرتب ودخل شهرى من
نسب تحصيلات ومخالفات وخلافه كالتى يحصل عليها وزير الداخلية حبيب
العادلى، هل شعراوى جمعة كان متحكما فى ميزانية وزارة على هذا النحو من
الثراء والايادات والنفقات كما يتحكم ويحكم حبيب العادلى؟

ولن أتحدث عن محمد فائق وأقارنه بوزيرى إعلام مبارك سواء السيد صفوت
الشريف أو الأخ انس الفقى، ولن يسمح لى خيالى بأن أقارن أعضاء الاتحاد
الاشتراكى البارزين المتهمين وقتها بأنهم مراكز قوى بزملاتهم فى الحزب الوطنى
الذين يتجاوز رقم ثروة أقل واحد فيهم المليار!

وطبعا لن أقارن ثروة الكاتب العظيم محمود السعدنى الذى كان محسوبا
ومطرودا باعتباره من مراكز القوى بينما كانت ثروته امتلاكه حق النشوق بهؤلاء
الكتاب الصحفيين من مراكز قوى عصر مبارك الذى تصل ثروة بعضهم إلى حد
أثار دهشة الرئيس مبارك شخصيا!

إذا كانت مصر تعاني من مراكز القوى فهى تعاني الآن...وإذا كانت مصر
تحتاج لثورة تصحيح، فهى تحتاج الآن على الأقل ثورة لتصحيح ما تم تصحيحه!

المحتويات

٧ مع حضرة النبي محمد
١٢ مصر ليست أجمل بلد في الدنيا!
١٦ عمى الثلج!
٢٣ لا يعترف.. ولا يعتذر
٢٩ مصر عيانة!
٣٣ قضاء مصر.. وقدرها
٣٥ الثمن
٣٧ الفراعنة
٤١ يستاهلوا
٤٦ كرهتونا في القضية!
٤٨ مع مصطفى النحاس!
٥٧ متى يتولى وزارة الداخلية رجل يفهم في السياسة؟
٥٩ عنه
٦١ آل باتشينو حين يحكم وطننا!
٦٦ ابنه
٧٠ ستين في سبعين
٧٢ لحم أكتاف مصر
٧٩ حكومة لها شعب
٨٧ تمام يا أفندم
٩٤ مجرد رئيس
٩٩ قرنى
١٠٤ خطورة أن تكون مصر control under
١١٠ مبارك بشراً!
١١٦ القابلية للاستحمار!
١٢١ الحكم البائس والشعب اليائس!
١٢٧ توكيل مصر
١٣٥ مصلحة مصر
١٤١ أعز ما تملك

١٤٩	حزب عبادة سيادة الرئيس!
١٥٥	جمال سر أبيه!
١٦٢	هواء «الوطن» ملوث!
١٦٣	اشبعوا بيها!
١٦٩	انتهى الدرس يا وطني!
١٧٥	الجرى نص الجدعنة!
١٨٠	ظهر الفساد في البر والبحر!
١٨٥	مبارك لن يغير ثم أنه لن يتغير!
١٩٢	أحمد وفاروق ورشدي
١٩٨	حش واديله!
٢٠٤	إشـربـوه..!
٢١٠	حكومة مبارك الأخيرة!
٢١٧	أحسب أن لن يقدر عليه أحد؟! ..
٢٢٤	اندهشى يا مصر!
٢٣٠	الفراعنة لا يتعلمون إلا بالغرق في النهر!
٢٣٧	صعيديك يا مصر.....
٢٤٣	يا خسارة على الرجالة!
٢٥٠	فلا سهرت أعين الرؤساء!
٢٥٧	يا عمال مصر اتحدوا.. أو.. وحدوه!
٢٦٢	اسألوا الرئيس!
٢٦٨	فأغرقناه ومن معه...جميعا!
٢٧٣	رئيس الطوارئ.....
٢٧٩	رئيسنا الطيار وبلدنا الطائرة!
٢٨٤	وطن المختل!
٢٩٠	قضاة حق عند سلطان جائر.....
٢٩٦	نظام دكر!
٣٠٣	الشعب والفرعون.....
٣١١	الفيل والنمل!
٣١٧	ففسقوا فيها.....

٣٢٤ حكم عائلي!
٣٣١ أشياء لا تُشترى
٣٣٩ الغُمة العربية
٣٤٦ قانون الرئيس
٣٥٢ اربط الحمار!
٣٥٨ مصر تتصل!
٣٦٦ كل يوم عاشوراء.. وكل أرض كربلاء!
٣٧٥ حُكم الديناصورات
٣٨٢ العـار
٣٨٩ أرقام تشل!
٣٩٣ رب البيت بالدف ضارب!
٤٠٠ القرضاوى وأسئلة الشيعة!
٤٠٨ النحاس مات!
٤١٦ درع النبى
٤٢٣ قَوْلًا لَيْتًا
٤٣٠ المغيرة يعيد نفسه!
٤٣٦ شالوم يا مصر!
٤٤٤ حُكم الممالك
٤٥١ مفيش فايدة
٤٥٧ مصر من تحت!
٤٦٥ كرسى الحكم
٤٧٢ الانحاء لله!
٤٧٨ اختيار رئيس لمصر!
٤٨٦ شيوخ الفساد والاستبداد
٤٩٣ إنك ميت
٤٩٩ دعاء المظلومين
٥٠٥ الغوغاء قادمون
٥١٠ ثورة تصحيح التصحيح!